ARCTIC DREAMS

BARRY LOPEZ

أحلام القطب المتجمد الشمالي

باري لوبيز

ترجمة : سامي الشاهد



أحلام القطب المتجمد الشمالي

(الخيال والرغبة في الأراضي الشمالية)

باري لوبيز

ترجمة

سامي الشاهد

٩١٩/٨٠٤
ل و ا خ
لوبيز باري.
احلام القطب المتجمد الشمالي: الخيال والرغبة في الأراضي الشمالية / باري لوبيز؛ ترجمة سامي الشاهد.- ابوظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٠.

٥٣٤ ص : خرائط

١- القطب الشمالي - وصف ورحلات.
أ- سامي الشاهد، مترجم.
ب- العنوان.

ARCTIC DREAMS
IMAGINATION AND DESIRE
IN A NORTHERN LANDSCAPE

Barry Lopez

ابوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٢٣٨٠-هاتف: ٦٢١٥٣٠٠

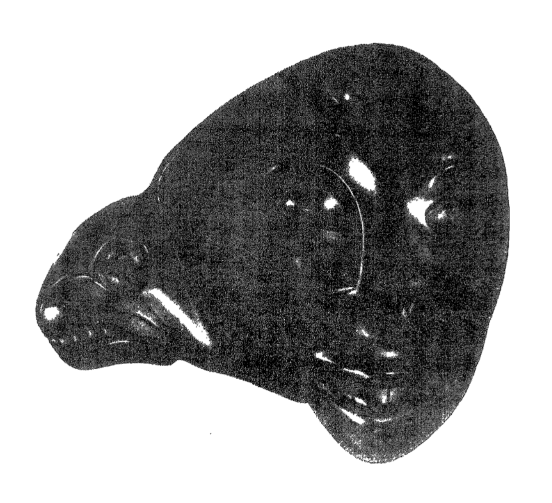
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http:/www.cultural.org.ae

تُرجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي

اصدارات المجمع الثقافي





تصدير

بالإضافة إلى اهتمام المؤلف بالمنطقة القطبية الشمالية وما تنطوي عليه من طبيعة متميزة، فقد كان الباعث على تأليف هذا الكتاب يتمثل في أمرين.

الأمر الأول هو ما حدث في مساء أحد أيام الصيف، عندما كنت أعسكر مع أحد الأصدقاء في المنطقة الغربية من سلسلة جبال بروكس في الاسكا. ومن عند النقطة التي نصبنا فيها خيمتنا، ووسط عشرات من الأميال المربعة من التندرة(*) على امتداد الحافة الجنوبية للمراعي التي تسرح فيها حيوانات الرنّة (إبل شمال أمريكا) في المنطقة الغربية من الدائرة القطبية، وفي تلك الأيام شاهدنا – إلى جانب الرنة والذئاب التي جئنا من أجل دراستها – حيوانات أخرى مثل الثعالب الحمراء، والسنجاب الأرضي، والشَّرِه(**)، كما شاهدنا الغَيُوب(***) ذا الأرجل الرفيعة، والصيادين الذين يتميزون بعدوانية ملحوظة.

وفي إحدى الليالي راقبنا بحذر ورهبة دُبّاً صغيراً من النوع الذي يمتلئ فراؤه بالنقط والخطوط الرمادية وهو يحاول مراراً وتكراراً اجتياز ذئب في السنة الثانية من عمره تقريباً يقف بمفرده لحراسة عرين يضم عدداً من الصغار من ذات نوعه، وسرعان ما دب اليأس في قلب الدب الذي آثر المضي في سبيله.

وكذلك فقد شاهدنا طيور البوم وقد اكتست بالجليد، والصقور ذات الأرجل الخشنة تحوم في سماء الوادي، وكأنها دخان يتصاعد ثم يتبدد.

وفي مساء ذلك اليوم الذي أشرت إليه في البداية كان الجو عاصفاً وبارداً على سلسلة جبال إلينجنوراك، ولكن شمس الهزيع الأخير من الليل – وكانت تبدو وكأنها طائرة ورقية في السماء الشمالية – كانت تصب قدراً من الطاقة أحسست به وهو ينفذ إلى عظام خدي. وفي ذلك اليوم خرجت للتنزه لأول مرة وسط أسراب الطيور في التندرة، وكلها تبني أعشاشها على الأرض، ومن

(*) التندرة سهل اجرد في المنطقة القطبية الشمالية (المترجم).

(**) الشرِّة حيوان ثديي لاحم يعيش في شمال أمريكا (المترجم).

(***) الغيوب نوع من طائر الكروان صغير الحجم (المترجم).

ثم فهي دائماً في مهب الريح وفي متناول أيدي المعتدين والعابثين. ولقد لفت نظري بصفة خاصة عصفور صغير لا يزيد حجمه عن قبضة يدي، وظللت أحملق فيه وهو يرد إليّ النظرة بمثلها وكأنه صلب كالحديد. ولما دنوت من بعض الأعشاش ابتعدت عنها الطيور الجميلة – ومنها الزقزاق الذهبي – بشكل ينم عن الفزع، تتظاهر بكسر جناحها حتى تشتت انتباهي بعيداً عن بيضها ذي النقط الداكنة. لكن هذا البيض كان واضحاً للعيان، حيث كان ينبعث منه ضوء نقي وإن كان خافتاً، ويشبه نافذة الضوء في لوحة من لوحات الرسام ڤيرمير(*). ولقد تعجبت كثيراً لهذا الجمال الحاشد والمركّز، والذي يغطي السهل بأكمله. وواصلت سيري لأجد الطيور طويلة المهماز راقدة في أعشاشها وكأنها أحجار، وعيونها متلألئة. ثم توقفت عند عش يضم اثنين من البوم وقد اكتسى ريشهما بالجليد، ومعلوم أن البوم من الطيور الجارحة. وتوقفت من دون حركة، وبعد برهة تراجعت حدة نظرهما عنّي، وعادت إحداهما لترقد على بيضها (وقد شاهدت ثلاث بيضات)، وإن بدا عليها نوع من اليقظة البدائية. أما البومة الأخرى فقد ظلت تراقبني وكأنها على استعداد لمهاجمتي لو أنني قمت بأي حركة.

ولقد تعودت السير وقامتي منحنية قليلاً ويداي في جيوبي حتى أتمكن من مشاهدة تلك الطيور العديدة، وتعرّف مظاهر الحياة داخل أعشاشها، فعلى الرغم من قسوة الظروف في تلك المنطقة النائية فإن الطيور تتميز بالخصوبة. ولا زلت أتذكر الحياة البرية للطيور التي شاهدتها في تلك الليلة، كما أتذكر منظر قطيع من الرنّة وهو يعبر نهر كوكوليك متجهاً إلى الشمال الغربي، ولم يستغرق هذا المشهد سوى بضع ثوانٍ، فقد كانت تلك الحيوانات تقفز كالخيول الجامحة فيتناثر الماء هنا وهناك يحمل معها حبات الميكا(**).

ولا زلت أذكر كذلك كيف كانت تسقط أشعة الضوء على وجهي، وأصوات تساقط كتل الجليد وسط قطعان الرنة في مراعيها، وبيض الدجاج وقد استكان تحت هذه الطيور التي لا ينقصها العزم والاصرار. وكانت الشمس تسطع عند منتصف الليل، وحتى ذلك الحين لم أكن أدري كم يكون ضوء الشمس حميداً في أرض تحملت في صبر فريد وبليغ قروناً من الشتاء.

(*) رسام هولندي من القرن السابع عشر مشهور بأسلوبه الرقيق في التعبير عن الضوء والمواد (المترجم).

(**) الميكا مادة شبه زجاجية تستخدم في صنع العوازل الكهربية (المترجم).

وخلال أيام الصيف تلك، وعلى سلسلة جبال إلينجنوراك لم يكن هناك ليلٌ مظلم، فالظلام لم يكن يَحلُّ أبداً، وكانت أفراخ الطيور تفقس البيض، وتتغذى الصغار وتكبر، ثم تطير جنوباً متتبعة قطعان الرنة.

وأما الأمر الثاني الذي حفزني على تأليف كتابي هذا فهو ما حدث ذات ليلة عندما كانت سيارة تستقلني وتصادف أن مرت بجوار جَبَّانة في (كالامازو) بولاية (ميشجان). فعلى أحد شواهد القبور لمحت اسم (إدوارد إسرائيل)، ذلك الشاب الذي ابحر شمالاً في عام 1881م برفقة الملازم أدولفوس جريلي، الذي كان قد أنشأ ورجاله معسكراً قاعدياً في جزيرة إليزمير التي تقع إلى الشمال من القطب الشمالي، وعلى مسافة (450) ميلاً منه، ومن ثم قام باستكشاف المنطقة المحيطة في ربيع عام 1882م. ونظراً لأن حملة التبديل لم تتمكن من الوصول إليهم في ذلك الصيف كما فشلت في العام التالي كذلك، فقد تراجع فريق جريلي (المكون من خمسة عشر فرداً) جنوباً على أمل أن يلقاهم فريق إغاثة في عام 1884م، وهكذا فقد أمضوا الشتاء في كيب سابين بجزيرة إليزمير حيث توفي ستة عشر منهم من جراء الجوع والإصابة بمرض الاسقربوط(*)، كما انتحر أحدهم، وعوقب آخر بالإعدام لقيامه بسرقة الطعام.

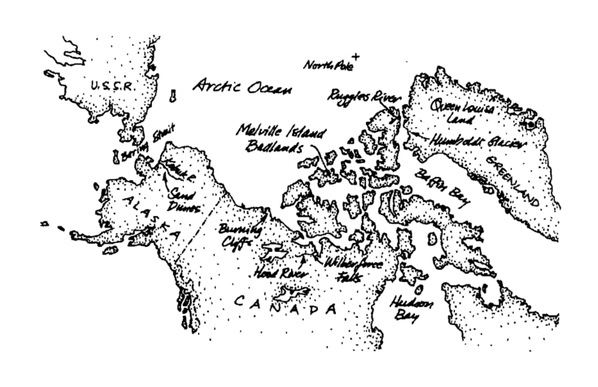
أما إدوارد إسرائيل – وكان مسؤولاً عن الأمور الفلكية بالحملة – فقد توفي في السابع والعشرين من مايو عام 1884م، قبل ثلاثة أسابيع من إنقاذ من تبقى من أفراد الحملة. ولقد وصفه الناجون بأنه كان خلوقاً ومتجانساً روحاً وطبعاً.

وأذكر أنني كنت أطل من نافذة السيارة في ذلك المساء عندما لمحت قبر إدوارد إسرائيل وقد تساقط الضوء عليه. فما الذي كان يأمل هذا الرجل في العثور عليه؟ وما نوع المكان الذي اعتقد أنه يمتد أمامه هناك وفي ذلك الصباح المشرق من يوم من أيام شهر يونيو من عام 1881م عندما ألقت السفينة «بروتس» بمراسيها في ميناء سانت جونز في نيوفوندلاند؟

بطبيعة الحال لا يستطيع أحد أن يجيب عن تلك الأسئلة، فقد كان يتحرك بدافع من تصوراته وأحلامه، تماماً كما فعل جون ديفز، ووليام بافين من قبله، وروبرت بيري، وفليهالمور ستيفانوس من

(*) داء من أعراضه تورم اللثة ونزف الدم منها.

بعده. ربما كان قد أراد أن يترك بصماته كعالم، وأن تطأ أقدامه تلك المنطقة القطبية الشمالية ثم يعود إلى وطنه ليجد حياة رصينة تمكنه من التأمل، وهو يعيش وسط المزارع الشاسعة جنوبي ولاية ميشجان، تماماً كما فعل دارون من قبل. ولربما كان يسعى وراء شيء غير مألوف. وكل ما يمكن تخيله أنه كان يرغب في شيء ما، وقد يكون هذا الشيء حلماً، ظل يراوده طوال حياته. ولقد دفن إداورد إسرائيل وسط مشاعر جياشة باعتباره بطلاً قومياً، وعلى شاهدة قبره كتبت العبارة التالية: «عاش مخلصاً ومات بطلاً».



وطوال سنوات ترحالي في المنطقة القطبية الشمالية ظل هذان الأمران يراودانني، فالأول كان يذكرني دوماً بالبراءة في أعلى مراتبها، وبالجمال الكامن في العلاقات التي لا تعرف الاضطراب، والثاني كان كحكم وقد انحرف عن مساره، ويذكرني بالكفاح البشري الطويل، سواءٌ أكان ذهنياً أم جسمانياً، من أجل الوصول إلى وئام مع الشمال الأقصى. وطوال حِلّي وترحالي ازداد إيماني بأن

أحلام الناس وتطلعاتهم جزء من العالم الذي يعيشون فيه، تماماً كما أن الرياح والحيوانات المنعزلة والأحجار والتندرة جزء منه كذلك. وفي الوقت نفسه ازداد اعتقادي بأن الأرض ذاتها موجودة بغض النظر عن كل تلك الكائنات والأشياء.

فالطبيعة وما تشمله من مناظر وأوضاع أكبر كثيراً مما نستطيع أن نُسَخِّره، كما أنها تعبر عن نفسها بشكل يصعب علينا إدراكه بشكل كُليٍّ، وكل ما يمكن أن يقودنا إليه فضولنا وقدرتنا على التحليل هو أن ننظر لمكونات الطبيعة كل على حدة، ثم نعيد تجميع تلك المكونات مرة أخرى: تمايل الزهور على عيدانها، ولون السماء ليلاً، وأصوات مختلف الحيوانات، وما إلى ذلك. ونحاول أن نفهم أسرارها، وفي الوقت نفسه يحاول العقل أن يجد مكانه وسط هذه الطبيعة، وأن يكتشف طريقة للتعبير عن إحساسه بالغربة.

ويمتد الجزء الذي يهمني من المنطقة القطبية الشمالية من مضيق بيرنج غرباً حتى مضيق ديفيز شرقاً، ويضم مساحات شاسعة من الجليد والثلوج تتحول في الصيف إلى سهول من المياه المفتوحة ومحيط هو التندرة، تلك الجزيرة ذات السمرة المصفرة. ويضاف إلى ذلك الكثير من المناظر التي تأخذ بالألباب مثل مساقط المياه على نهر هود، إذ تهوي المياه فجأة إلى عمق مائة وستين قدماً حيث يستقبلها وادٍ ضيق يقع في وسط التندرة الكندية، ويمكن سماع صوت المياه وهي تسقط من بعد أميال. وهناك أيضاً النهر الجليدي همبولت والذي يبلغ طوله نحو خمسين ميلاً، والجبال والكتل الثلجية العائمة ذات القوة العارمة. ويضاف إلى ذلك تلك الأراضي الوعرة في شرق ووسط جزيرة ميلفيل ذات الألوان الصفراء والحمراء الفاتحة، والتي تذكر زائريها بالوديان الصغيرة والنهيرات في جنوبي ولاية يوتاه.

وهناك أيضاً ما هو أكثر جمالاً وغرابة مثل نهر راجلز الذي ينبع من بحيرة هازن في جزيرة إليزمير في الشتاء. ويجري لمسافة ألفي قدم عبر ظلام منطقة ستايجن التي يلفها دخان مشبع بالصقيع، ثم ما يلبث أن يتوارى تحت الجليد. وإلى الجنوب من كيب باثرست غربي نهر هورتون في المناطق الشمالية الغربية تجد النيران الطفلية(*) القارية والتي ظلت مشتعلة تحت سطح الأرض لمئات من السنين، وتجعل التلال الساحلية تبدو وكأنها أكوام هائلة من الخبث الصناعي الذي

(*) الطفلية: نوع من أنواع التربة.

يحترق دون ما لهب.

وإلى الجنوب من نهر كوباك الذي يجري في المنطقة الوسطى تجد كثباناً يصل ارتفاعها إلى نحو مائة قدم وتمتد على مئات الأميال المربعة من الرمال المتحركة. وفي جرينلاند الشرقية تقع واحة قطبية تسمى «أرض الملكة لويزا»، وهي عبارة عن وادٍ من الحشائش وزهور الصيف البرية، ويحيط بها أسوار القمة الثلجية لمنطقة جرينلاند.

وفوق هذا وذاك، فإن للمنطقة القطبية الشمالية خطوطاً تقليدية تمثل الطابع الصحراوي: التماثل، والتوازن، والاتساع، والهدوء. وفي جزيرة الملكة إليزابيث تتراجع السهول التندرية والمستنقعات التي تسود الجنوب لتفسح المجال لمساحات شاسعة مليئة بالصخور التي تأثرت بالمياه وعوامل التعرية، والحصى بحيث تكتمل صورة الصحراء تماماً. وفي جزر بافين وإليزمير، كما في شمال الاسكا، تجد سلاسل جبلية ذات حواف حادة تحتفظ ببعدها حتى عندما تقترب منها، وتوحي بحالة من التقشف الشديد. وسرعان ما يتبدد الملل الذي قد يصيب الزائر من جراء المنظر الثابت، حيث تتغير الأحوال الجوية من مكان لآخر، وحيث يجد متعة كبيرة في مشاهدة أنشطة الحيوانات التي تعيش في المنطقة، وبصفة خاصة قطعان الرنة وأسراب الطيور.

وكأي أرض أخرى تبدو لأول وهلة أنها قاحلة فإن التندرة القطبية يمكن أن تتفتح فجاة مثلما تفعل تويجات الزهور، فسرعان ما يجد الزائر بقعاً برتقالية وأخرى خضراء وسط اللون البني السائد الذي تكتسي به الكتل العشبية في التندرة. فهذا عنكبوت أرضي صياد يتربص بجعران متلألئ، وهذا قطيع من ثور المسك يقبع خاملاً في ظل منطقة مليئة بالزهور ذات اللون الأرجواني الشاحب. وعندما وصل عالم الطبيعة الدنمركي آلوين بيدرسون إلى الساحل الشمالي الغربي من جرينلاند لأول مرة كتب يقول: «لقد انتابني شعور غريب عندما شاهدت هذه الصحراء البيضاء الجرداء». ولكنه – وقبل مغادرته للمنطقة – عاد فتحدث عن «ثيران المسك التي ترعى في الأعشاب الكثيفة والتي كانت أطول من رؤوس الحيوانات في منطقة جيمسون لاند»، و«الجمال الرائع لتلك الصخور الجليدية المتفرقة». وشاني شأن بيدرسون، فقد صادفت خلال توقفي لالتقاط بقايا عظام أرنب وحشي أشياء غير متوقعة، مثل الشرنقة الحريرية ليرقة فراشة قطبية.

وهكذا فإن الثراء البيولوجي للتندرة يبدد أي شعور بأنها أرض فارغة، فهي في الواقع كخشبة

المسرح عندما تخلو من الممثلين مؤقتاً استعداداً لاستقبال مشهد جديد مليء بالأحداث.

وفي فصل الصيف تصفو السماء ويصبح الهواء نظيفاً تماماً، ومن حين لآخر تصادفك علامات على وجود حياة بالمنطقة: آثار أقدام لحيوانات مختلفة، وبقايا لطيور الترمجان لم تهضمها البوم التي افترستها ومن ثم فقد لفظتها، وأشجار صفصاف أتت الأرانب الوحشية على أوراقها. وطوال تجوالك في المنطقة تصاحبك طيور من مختلف الأنواع، فهي تعرف بالفطرة أنك «حيوان» ومن ثم فسوف تترك لها - إن عاجلاً أو آجلاً - شيئاً تقتات به، وتنتشر أمامك طيور الزمار وتطلق صيحتها التي اختار الأسكيمو اسماً لها هو «تويك». فإذا ما واصلت سيرك تصل إلى منطقة منحدرة مغطاة بالحصى الذي تراكم فوقه الجليد، وتحس وكأنك تمشي على زجاج محطم، وفجأة تشاهد دباً بني اللون على مسافة ليست بعيدة، وقد وقف على رجليه الخلفيتين وكأنما يقوم بدراستك.

وقد يصادفك وأنت ترحل عبر الأخوار والأراضي المنجرفة بفعل المياه ناب عملاق، خاصة في المناطق الغربية، أما في المناطق الشرقية فقد تجد الأحجار التي استخدمها الصيادون قبل ألف وخمسمائة عام لتثبيت أطراف خيامهم المصنوعة من جلد الحيوان، وهذه تنم عن إصرار الإنسان وعزيمته عبر آلاف السنين. وفي مرات قليلة تصادفك الأساسات الحجرية لمنازل أثرية، هجرها سكانها في القرن الثاني عشر، وهؤلاء كانوا ينتمون لثقافة الثولي(*). ولعل الهواء البارد الجاف قد ساعد على حفظ بقايا فقمة (عجل البحر) اصطاده وأكله سكان المنطقة قبل ثماني مئة عام، ليس البقايا وحدها بل رائحتها المميزة كذلك. وكثيراً ما يصادفك بقايا معسكرات القرن العشرين، ومنها الأدوات والأشياء التي صنعها الإنسان من الخشب أو من عظام الرنة. وقد لوحظ أن هذه المصنوعات تتحلل ببطء، خاصة العلب المصنوعة من الصفيح. وبوسعك أن ترى بين مخلفات المعسكرات الحديثة نسبياً بطاريات الإضاءة المستهلكة، وهذه تنتشر على الأرض وكأنها روث البهائم، كما ترى تشكيلة غريبة من بقايا ذخيرة مختلف أنواع الأسلحة التي تستخدم في الصيد. وأياً كان الزمن الذي تنتمي إليه تلك البقايا، فإنك تشعر بوجود سلطة متجانسة هي التي تتحكم في المنطقة، وتمثل القوة المتواصلة في تاريخها الطبيعي، وما هذه المعسكرات إلا جزء من ذلك

(*) ثقافة من عصور ما قبل التاريخ وترتبط بالاسكيمو، وامتدت من الاسكا حتى جرينلاند، والاسم في الاصل لمستوطنة للاسكيمو على الساحل الشمالي الغربي لجرينلاند (المترجم).

التاريخ. ومع ذلك فإن أحدث الشواهد يشير نوعاً من الغموض المشوب بالفزع، فبعض الظواهر الجديدة لا علاقة له بالمنطقة، ومن ثم فإنه من الزيف أن ينظر إليه كجزء من تاريخها الطبيعي.

ومن الصعب أن يرتاد أحد المنطقة القطبية الشمالية اليوم من دون أن يصطدم بشواهد ممّا اعتراها من تغييرات مؤخراً، فما يحدث في مواقع المعسكرات الحديثة على طول الساحل، وما يوجد بها يشير إلى وصول مفاجئ لتقنيات أجنبية – أدوات ومعدات جديدة وأسلوب جديد في الحياة بالنسبة للسكان المحليين. ولقد كان التكيف المبدئي مع هذه التغييرات سهلاً وبسيطاً نسبياً، ولكن بزيادة سرعة التغيير، فإن التكيف المطلوب عسير ومحير، فالأدوات الجديدة عادة تحمل معها مجموعات من العقائد الجديدة والغريبة. فعلى سبيل المثال فإن الثقافة المحلية في المنطقة الواقعة بين جزيرة سانت لورنس وجرينلاند تشهد عملية سريعة لإعادة تنظيم الاقتصاد، كما تشهد في الوقت نفسه عملية تكيف اجتماعي تنطوي على تضحية ببعض المقومات المحلية.

ففي مقال نشره أحد العلماء مؤخراً حول سكان جزيرة نانيفاك – على سبيل المثال – قال إن التحول من الغذاء الطبيعي المنزلي إلى الغذاء الذي يشترى من المحلات (بكل ما يحتويه الأخير من مشاكل تغذوية واجتماعية) ينتشر بسرعة كبيرة بحيث لم يعد ممكناً وقفه عند حد معين. ويذهب العالم المذكور إلى حد قوله: «وعندما يظهر مقالي هذا مطبوعاً يصبح الكثير مما ورد فيه مجرد خلفية تاريخية»!.

ولقد زحفت تغييرات صناعية كذلك على المنطقة بعد اكتشاف البترول في خليج برودو في الاسكا في عام 1968م، وإنشاء خط أنابيب لنقل النفط عبر الاسكا ويبلغ طوله ثمانمئة ميل. وقد تم مد الخط إلى كوباروك، لما أقيمت معسكرات وقواعد لعمليات التنقيب عن البترول في جزيرة ميلفيل الكندية وفي شبه جزيرة تاكتوباكتوك (وهي تابعة لكندا أيضاً). وبعد ذلك بدأت أعمال التنقيب عن الرصاص والزنك واستخراجهما في شمال جزيرة بافين وجزيرة كورنواليس الصغرى، وترتّب على ذلك كله إنشاء مئات من الأميال من الطرق، وزيادة حركة النقل البري والبحري والجوي.

وبطبيعة الحال فإن تكاليف هذه العمليات جميعاً باهظة للغاية بالنظر إلى قسوة المناخ وصعوبة التنبؤ بالأحوال الجوية، وطوال فترة الظلام، وبُعد المسافة إلى مخازن التموين، ومشكلة إقامة

منشآت دائمة على الجليد (الذي يأتي عليه وقت يجعله يذوب وبشكل غير منتظم). والواقع أنه حتى مجرد التفكير في مثل هذه المشروعات لا تقوم لولا الدعم السخي الذي تقدمه الحكومة الاتحادية في كندا.

وعلى الخريطة تبدو هذه التغييرات الجذرية الحديثة كنقط وخطوط منفصلة، وقد يدعو ذلك إلى التقليل من أهميتها، ولكن من المؤكد أنها قد أثرت كثيراً في المستوطنات والقرى الشمالية، وشمل التأثير النواحي الاقتصادية والنفسية والاجتماعية. ويلاحظ أن نجاح المشروعات التي أشرنا إليها – حتى وإن كان ضئيلاً وفي بعض الحالات مصطنعاً – يشجع على قيام المزيد(*).

ومن الأمور التي تشغل بال السكان المحليين، تركز السلطة في أيدي أناس يمتلكون موارد اقتصادية هائلة، ولكنهم يفتقرون للحس الجغرافي السليم فيما يتعلق بالمنطقة. ولقد روى لي رجل من قرية تاكتوياكتوك القريبة من مصب نهر ماكينزي قصة ذات مغزى، فقد دأب في حقبة الخمسينيات على السفر المنتظم على طول الساحل مستخدماً زحافة تجرها الكلاب. وفي إحدى رحلاته مر بمحطة رادار للإنذار المبكر عن بعد، وقرر التوقف عندها لمعرفة ماهيتها، ورحب به العسكريون ليس بوصفه واحداً من سكان المنطقة، ولكن باعتباره مصدراً يمكن أن يتعرفوا من خلاله الحياة فيها، وطابعها الخرافي. وبكل الحماس قدموا شرائح من اللحم للكلاب التي تجر زحافته. وتكرر الأمر عدة مرات، إلى أن أحس الرجل بأن سخاءهم يبعث على الريبة، وأن صداقته معهم تبدو غير واقعية، وحينئذ توقف عن الذهاب إليهم، ولعدة شهور عانى كثيراً من عدم قدرته على السيطرة على الكلاب، كلما مر بزحافته بالقرب من مكان المحطة.

وإذا تجول الزائر في القرى، أو حتى إذا ارتاد المناطق غير المأهولة، فسوف يشاهد العديد من العلامات الدالة على التغيير الجذري. ولا يسعه إلا أن يشعر بالأسف والأسى لما حدث وما يحدث، خاصة وأنه شيء مفروض على المنطقة وعلى سكانها، فهو كغزو يتسم بالوقاحة، ويجعل اليأس يدب في قلوب الناس. وكأي زائر للمنطقة فقد تأملت كثيراً في تلك الامور، ولكن ما يتبقى من الطبيعة الرائعة والمتميزة، كان يجعلني أطرح تلك القضايا المعاصرة جانباً، وأفكر في أمور أخرى،

(*) تتضمن الملحوظة رقم (1) ملخصاً وافياً لمشاكل محددة تواجه المنطقة القطبية الشمالية.

ووجدت نفسي أتساءل: كيف ينظر الناس هنا إلى الأرض التي يعيشون عليها؟ وكيف تشكل هذه الأرض معارفهم وثقافتهم؟.

وسعياً وراء إجابات عن هذه الأسئلة وغيرها، فقد دأبت على السفر مع أناس من مختلف المشارب والمقاصد والنزعات: مع الأسكيمو صائدي النَّرْول (كركدن البحر) قبالة الساحل الشمالي لجزيرة بافين، وصائدي الفظ (وهو حيوان ثديي بحري يشبه الفقمة) في بحر بيرنغ؛ ومع علماء البيئة البحرية الذين يقومون بمسوحات ودراسات تشمل مئات الأميال من السواحل والمياه الضحلة؛ ومع رسامي المناظر الطبيعية في الأرخبيل الكندي؛ ومع المهندسين والفنيين الذين يبحثون عن البترول، ويستخرجونه من تحت ثلوج الشتاء، وفي مهب الرياح الشديدة، وفي درجة حرارة (-30) فهرنهيات؛ ومع بحارة سفن الشحن، الذين يجوبون الساحل الغربي لجرينلاند، ومنه إلى الممر الملاحي بالشمال الغربي. ولقد كان لكل فئة من هذه الفئات نظرته الخاصة للمنطقة، فمنهم من لم يَرَ فيها سوى الفراغ البادي للتندرة والذي ينساب كالسراب ذي الوميض في المحيط الشمالي، ومنهم من لفت نظره بصفة خاصة سماء المنطقة في فصل الشتاء، تلك القبة ذات اللون الأزرق الداكن، والتي تمثل جمالاً بارداً، تبعث النجوم المتلألئة فيه الحياة، ومنهم من شد انتباهه تلك القطعان من ثور المسك، التي تقف معاً على قمم التلال، وكأنها تتخذ وضع الدفاع بينما يتمايل شعرها الطويل حولها، وكأنه موجة واحدة قوية لماء داكن، ومنهم من انصب اهتمامه على الموارد المعدنية بالمنطقة، وبصفة خاصة الرصاص والزنك الخام الذي يلمع وكأنه مرايا صغيرة مثبتة على حائط يعود إلى الدهر الوسيط، ويكمن تحت سطح جزيرة كورنواليس الصغرى، ومنهم من جاء ليشاهد قشرة المحيط المتجمد، وهي تلتوي، ثم تتهشم في الهواء البلّوري. وهكذا فإن لكل شيء في هذه الأرض مغزى ومعنى وإيحاء يختلف باختلاف الشخص الذي ينظر إليه. ولعل هذا الاختلاف هو الذي يجعل من العسير تحديد المستقبل البشري لتلك المنطقة الشمالية النائية، فالرؤية مختلفة، والآمال متباينة، والأحلام متنوعة، والتوقعات متعددة. وقد يكون حلم الفرد – أي فرد – حلماً خاصاً ومحدوداً مثل البحث الممتع عن أعشاش الطيور التي تعيش في المنطقة والذي قد يعيد الحيوية لشخص ملَّ الحياة، أو قد يكون الحلم كبيراً؛ كأن يترتب على بعض المعارف العلمية المستمدة من المنطقة فوائد للمجتمع وإحساس بأن حياة الإنسان لم تذهب هباءً.

أما الحلم الأكبر، حلم الشعب بأكمله، فإن له قصةظل الإنسان يحملها على مدى آلاف من السنين، وهي قصة الإصرار والعزيمة، وقصة الأمل الذي يعقب السؤال الأبدي الذي هو: ماذا سنفعل عندما نرى حكمة ماضينا تنقض على مستقبلنا؟ وهي أيضاً قصة تنطوي على محادثة لا تعرف للزمن حدوداً، محادثة تدور ليس بيننا فحسب، بل بيننا وبين الأرض كذلك في هيئة تأملات في مختلف الظواهر؛ مثل العواصف الرعدية في البراري، أو الحواف الخشنة للجبال، أو الظهور المفاجئ لسرب من البط في بحيرة منعزلة. لقد دأبنا على أن نحكي لأنفسنا قصة ما نمثله على الأرض على مدى أربعين ألف عام، وفي قلب تلك القصة عقيدة بسيطة مؤداها أنه من الممكن أن نعيش بحكمة على هذه الأرض، وأن نعيش بشكل جيد كذلك، وأنه إذا تصرفنا بحكمة تجاه كل ما تحتوية، أو تحضنه الأرض فإنه من الممكن أن يتهاوى الجهل الخانق ويبتعد عنا تماماً.

وعندما نعبر الخط الشجري متجهين نحو الشمال الأقصى، فإننا نترك وراءنا طيور البوم الشمالية التي عادة ما تضع فرائسها المتجمدة تحت ريش صدورها، وكأنما تريد تدفئتها (قبل افتراسها). وعندئذ فإننا على موعد مع أرض مفتوحة يشار إليها في الخرائط بأسماء أخّاذة؛ مثل النهر الجليدي الذي يحمل اسم «الأخ چون»، والرأس الذي يحمل اسم «المنديل الأبيض»، والخور المسمى «المجلس البحري»، وجزيرة «الدب الهيكلي» (الدمية)، وجُرف «الحمار الوحشي»، وفيوردة(*) «المهارة»، ووادي «القديس باتريك»، وكهف «الجوع». ولا يزال الأسكيمو يصطادون الفقمة في الخلجان العريضة التي تحمل أسماء جزر «أبناء القساوسة»، «الجمعية الفلكية الملكية».

وهذه هي الأرض التي تقوم الطائرات بمراقبة ما بها من جبال جليدية عائمة، كل منها في حجم كليفلاند تقريباً، وفيها تحاول الدبب القطبية الهروب من النجوم. وهي منطقة شبيهة بالصحراء، غنية بالاستعارات والرموز.

(*) الفيوردة خليج صغير جداً ويسمى أيضاً الزقاق البحري.

مقدمة

خليج بوندز وجزيرة بافين

في يوم من أيام الصيف الدافئة في عام 1823م، شقت سفينة بريطانية لصيد الحيتان تحمل اسم «كامبريان» طريقها إلى المياه قبالة خليج بوندز (ويعرف حالياً باسم «بوند إنلت») شمال جزيرة بافين، وذلك بعد رحلة قصيرة إلى الشمال. ولقد ظن طاقم هذه السفينة (التي بلغت حمولتها 360 طناً) أن مياه لانكستر ساوند التي كانت تبحر فيها تبشر بصيد ثمين، إلا أنهم لم يصادفوا أي حوت طوال أسبوعين من الإبحار، في حين أن ما يزيد عن أربعين سفينة أخرى اختار ربابنتها التسكع عند طرف خليج بوندز قد حققت نجاحاً باهراً. ولقد دوّن ربان السفينة المذكورة، الكابتن جونسون، في سجلها عبارة تدل على أسفه لفشل سفينته في صيد أي حوت فقال: «لقد اصطادت سفن عديدة نحو اثني عشر حوتاً لكل منها، كما بلغت الحصيلة خمسة عشر حوتاً لسفينة أو اثنتين، وامتلأت سفينة بأكملها بالحيتان...».

ولم يطل انتظار طاقم السفينة «كامبريان»، إذ سرعان ما غصت المياه المكتشفة حديثاً غربي خليج بافين بذلك النوع من الحيتان الذي يفضله الصيادون، وهي حيتان جرينلاند.

ففي اليوم التالي مباشرة (الثامن والعشرين من يوليو) اصطادت السفينة ثلاثة حيتان، وفي الأيام القليلة التالية اصطادت اثني عشر حوتاً، وبلغ إجمالي عدد الحيتان التي اصطادتها السفينة خلال ذلك الموسم ثلاثة وعشرين حوتاً. وفي اليوم العشرين من شهر أغسطس من العام ذاته أبحرت السفينة تجاه المياه الخالية من الجليد قبالة ساحل جرينلاند، ثم اجتازت كيب فيرويل متجهة إلى إنجلترا. وكان ما تحمله من دهن الحيتان يكفي لاستخراج (236) طناً من الزيت، وهذه الكمية بدورها تكفي لإضاءة مصابيح الشوارع في بريطانيا العظمى، بالإضافة إلى معالجة الصوف الخشن الذي يغذي صناعة النسيج بها، واشتملت حمولتها كذلك على ما يزيد عن أربعة أطنان ونصف الطن من عظام الحيتان، وهذه تستخدم لصنع ضلوع المظلات والستائر الفينيسية (ذات الأضلاع)

والحظائر المتنقلة للأغنام، والحواجز الشبكية، وبعض لوازم صناعة الأثاث.

ولقد رست السفينة في ميناء هَلّ في السادس والعشرين من شهر سبتمبر وسط هتافات وتهليلات مستقبليها، فقد هرع الصبية إلى الميناء كعادتهم علهم يحصلوا على أي تذكار من البحار. أما أصحاب السفينة فقد غمرتهم السعادة، خاصة وأن حصيلة ذلك العام ضعف حصيلة العام الذي سبقه، حيث لم تتمكن أي سفينة من اجتياز الجليد في مضيق ديفز. أما في عام 1821م فقد عادت السفينة لتنقل أخباراً سيئة عن فقدان ثلاث سفن من هَلّ، وأربعة من موانئ بريطانية أخرى، ويبدو أنها قد تحطمت ودفنت تحت الجليد.

ثم جاء موسم عام 1823م ليخفف من تلك الذكريات الأليمة، فالمياه الغربية قبالة خليج بوندز كانت تبشر بالخير كله، وبخاصة أن السفينة «كمبريان» قد حملت كميات من جلود الحيوان والعاج حصل عليها البحارة بطريق التبادل مع الأسكيمو الذين يعيشون في جرينلاند وشمال جزيرة بافين. وتضمنت الحمولة أيضاً كمية من أنياب النَّرْول (كركدن البحر). فإذا كانت أسعار الزيت وعظام الحيتان ثابتة، وإذا ظل الحال على ما كان عليه خلال ذلك الموسم، وإذا لم تقدم لندن على إلغاء الدعم، أو الرسوم المفروضة لحماية التجارة الوطنية، وإذا... وإذا...، أسئلة كثيرة راودت بحارة السفينة «كمبريان»، وإن كانت مجرد أسئلة عابرة، فقد كانوا يعملون لساعات طويلة، بل لم يكن لليل معنى طوال رحلتهم، وكانوا يقفزون إلى القوارب كلما رصدت أعينهم حوتاً، وكانوا في نومهم يتمددون على الطاولات الخشبية على ظهر السفينة، وكانوا يتناولون الطعام بشكل غير منتظم. حقاً لقد كان الجو رائعاً، وبدت لهم من بعيد الأراضي الجميلة لجزر بايلوت، وبافين في خليج بوندز، وساعد على وضوح الرؤية صفاء الجو الذي أشاع الضياء أمامهم ومن حولهم، فكان ما يرونه جنة لا يصدقها عقل، ومتعة ما بعدها متعة، وسيطر عليهم إحساس بالرضا وتقدير الذات بعد أن قاموا بعمل شاق. وبذلوا جهداً كبيراً.

ولقد كان صيف عام 1823م علامة بارزة في العصر الذهبي لصيد الحيتان في البحار الشمالية بالنسبة لبريطانيا، وكان ذلك في أعقاب الحروب النابليونية، فقد جاء اكتشاف المياه الغربية في وقت كان سوق المنتوجات الحوتية يستعيد حيويته، مما أثرى التجار والمستثمرين في هَلّ، وبيتر هيد، ودَنْدِي، وأبردين، وهويتبي خلال الفترة من 1818م حتى 1824م. وفي عام 1925م بدأ ذلك

السوق يعاني من الكساد من جراء التقدم التقني، والسياسة الاقتصادية البريطانية، وازدياد معدل فقدان السفن غير المؤمن عليها، وما يترتب على ذلك من خسائر مالية فادحة. ويضاف إلى ذلك كله بروز مشكلة الصيد الجائر، حيث كانت حصيلة عام 1823م ألفي حوت.

ولقد كان محور كل ذلك الاهتمام نوعاً من الحيتان، ظل البريطانيون يصطادونه تجارياً على مدى مائتين واثنى عشر عاماً. وكان ذلك الصيد قد بدأ في خلجان سبيتسبيرج، ثم في منطقة الثلوج الخفيفة في بحر جرينلاند، وبعد ذلك في المناطق الجنوبية من مضيق ديفز، وأخيراً في المياه الشمالية والمياه الغربية من خليج بافين.

ويتميز هذا الحوت بفكين لهما شكل غريب وكأنهما صنّارة على شكل حرف (u) . ويبلغ طول بعض أسنانه خمس عشرة قدماً تقريباً، ولهذا الحوت جسم ضخم ورأس كبير، يبلغ طوله ثلث الطول الكلي للحوت، ويحيط بالجسم دهون يصل سمكها إلى عشرين بوصة، وهي أعلى نسبة دهون في فصيلة الحيتان قاطبة، وقد يستخرج من دهون حوت ذي حجم كبير نحو خمسة وعشرين طناً من الزيت، كما تعطي عظام فكه (300 صفيحة عظمية) أكثر من طن من العظام، وبعد اصطياد الحوت وقتله، يتم سلخه على ظهر السفينة، لفصل الدهون وعظام الفك والأذناب (وهذه تستخدم في صنع الغراء)، ثم يتم تقطيع جسم الحوت (الذي يبلغ طوله نحو خمس وأربعين قدماً) . وفي أثناء ذلك تحوم أسراب من الطيور البحرية فوق « مسرح العمليات »، وكأنها سحابة مستديمة. ونظراً لأن هذا النوع من الحيتان يسبح ببطء، ولأنه يطفو إلى السطح بمجرد قتله، ويحمل كمية غير عادية من العظم والدهن، فقد كان النوع الأمثل للصيد، ومن ثم فقد أطلق البحارة عليه عدة أسماء، منها « الهدف الصحيح في جرينلاند »، و « الحوت القطبي »، وفي غربي المنطقة القطبية الشمالية أطلقوا عليه اسم « البوهد » لتقوّس فكيه.

ولهذا النوع من الحيتان جلد مُجَعَّد قليلاً، ولونه أسود فاتح أقرب قليلاً إلى اللون الرمادي، وإن تحول لون الجلد تحت الذقن وعلى البطن إلى الأبيض، وتكاد تختفي عيناه ذات اللون البني الداكن، والتي يبلغ حجم كل منها حجم الثور - داخل رأسه الضخم. أما منخاره فيبرز بوضوح، ويأخذ شكل البركان بما يسمح للحوت بالطفو على سطح الماء في الخيران الضيقة في ثلوج البحار، حتى يتسنى له أن يتنفس. ويتميز هذا الحوت بحساسية بالغة لدرجة أنه إذا حط طير على جسمه وهو

نائم فإنه يصاب بذعر شديد! ومن ثم يتحرك بشكل جامح، فما بالك بالألم الشديد الذي تسببه له رماح الصيد؟!. ويحكي أحد الرماحين الذين كانوا على متن السفينة «ترولاف» في إحدى رحلاتها في عام 1856م أنه بعد أن أصاب برمحه حوتاً (من هذا النوع) فقد هاج بشدة وغطس في الماء لعمق (1200) ياردة في ثلاث دقائق ونصف الدقيقة قبل أن يرتطم بقاع المحيط حيث انكسرت رقبته، ودفن رأسه في طين داكن بعمق ثماني أقدام.

ولهذا النوع من الحيتان قوة هائلة. ويحكى أن حوتاً أصابته الرماح في بحر جرينلاند. قد اهتاج بشدة وتمكن من قطع شباك مجموع أطوالها (10,440) ياردة، ووزنها (7000) رطل، واجتاز حواجز مصنوعة من حبال سمك كل منها (2,25) بوصة (وكان طول أحدها 1560 ياردة والآخر 3360)، وجذب معه قارباً من القوارب، التي تستخدمها السفن في عملية الصيد طوله ثمان وعشرون قدماً، قبل أن يمكن السيطرة عليه. وفي السابع والعشرين من مايو 1817م ظل أحد الحيتان يَقْطُرُ سفينة بكامل أشرعتها بسرعة عقدتين ولمدة ثلاثين ساعة، بعد أن أصابته الرماح، مع أن الرياح كانت معتدلة.

ولم تكن هناك أي قيود على صيد مثل هذه الحيتان. فقبل شهر من رسو السفينة «كامبريان» بميناء لانكستر ساوند في عام 1823م تمكنت من قتل حوت من النوع المذكور في مضيق ديفز، وكان هذا الحوت أنثى يبلغ طولها سبعا وخمسين قدماً. وكان بحارة السفينة قد صادفوا ذلك الحوت بينما كان نائماً في جليد خفيف، فلما شعر باقترابهم سبح ببطء مرة واحدة حول السفينة، ثم وبهدوء بدأ يدفع السفينة برأسه إلى الخلف لمدة دقيقتين قبل أن يرد البحارة عليه برماحهم. لكن هذه الواقعة قد أصابت البحارة بشيء من الاضطراب، فقد ذكرتهم بما لا يريدون تذكره – تلك المخاطر التي ينطوي عليها عملهم–.

وعندما توقفوا لاحقاً في مضيق ديفز قبالة الشاطئ الشمالي الغربي لجرينلاند، كان يصل لأسماعهم صفير غريب، خاصة عندما كان الجو صافياً. وكان الصفير يبدأ عالياً، ثم يتضاءل تدريجياً، وكان ذلك علامة تنذر بقدوم عاصفة. ومن الاتجاه الذي يخشون أكثر ما يخشون في تلك المنطقة، اتجاه الجنوب الغربي، وكلما ازداد الصفير قوة كانت الرياح عاتية. وفي ذلك العام لم يصل لأسماعهم أي صفير وهم يشقون طريقهم عبر المجاري الجليدية. وكل ما كان يؤرقهم أن ذلك

الحوت قد تمكن من دفعهم، وكأنما يحثهم على العودة.

ولقد كان الكثير من البحارة لا يرتاحون لصيد الحيتان في البحار الشمالية، نظراً لما ينطوي عليه هذا النشاط من خطورة على حياتهم، تنبع أساساً من غدر ثلوج البحار.

ولكن ثمة شيئاً واحداً كان يعينهم على المخاطرة، وهو ذلك الجمال المطلق الخلاب الذي تتميز به المناطق التي يرتادونها. فالأنهار الجليدية كانت ترتمي في أحضان البحار ذات اللون الأخضر الداكن، كما لو كانت كتلاً من المرمر بارتفاع كتل المرمر في دوفر. وهذه الرياح تدفع المياه من البحيرات الصغيرة، التي تكونت بفعل ذوبان الجليد عند قمم الجبال الجليدية، بينما أسراب من الحيتان الصغيرة تنزلق كالأشباح تحت قعر السفينة، وآلاف من طيور الأوك الصغيرة(*) تحلق فوق أشرعة السفينة وتصدر أصواتاً فَظَّة. ولقد وصف البحارة هذا الجمال النادر فيما كتبوه من نثر تلقائي متواضع.

ولعل ما شاهدوه من جمال وروعة، جعلهم يعتقدون أن قتل الحيتان أمر غير ملائم، ولكنه كان عملهم، ومصدر رزقهم، ورزق عائلاتهم، ومن ثم سرعان ما كانوا يُنحّون العاطفة والندم جانباً. ولقد كتب أحد قباطنة تلك السفن يقول: «لم يكن بوسعنا أن نضحي بمكاسب الصيد والهدف من المغامرة من أجل إرضاء مشاعرنا وعواطفنا».

وفي اليوم السابع والعشرين من يوليو كانت السفينة «كمبريان» تتجه جنوباً، ومرت بمحاذاة جزيرة بيلوت، وهي مصدر الدلائل على النجاح الذي حققته سفن أخرى. وكما جاء في سجل السفينة: «هنا وهناك، وعلى طول الحافة الجليدية، ترقد بقايا مئات من الحيتان المسلوخة، وعلى امتداد أميال عديدة كان الهواء معبأً بالرائحة الكريهة، التي تنبعث من الكتل المتعفنة. وعندما اقترب المساء ازداد عدد الحيتان المتعفنة، وتشبع الهواء تماماً بالروائح الكريهة التي زكمت أنوفنا، وكانت أكثر مما نحتمل». ولقد كانت طيور الفلمار، وطيور النورس ذات اللون الأبيض المائل للزرقة، تحوم فوق الجثث وتصرخ بشدة، ولِمَ لا؟ ألم يكن ما حدث مجزرة من أجل الثروة؟

وعند الطرف الجنوبي الشرقي لجزيرة بيلوت كان الأسكيمو المحليون (التانيو نيرميتو) قد أقاموا

(*) طائر قصير العنق والجناحين من طيور المناطق الشمالية (المترجم).

في ذلك العام معسكراً لصيد الحيتان، وكانوا يتاجرون بشكل غير رسمي مع صائدي الحيتان البريطانيين وكانوا يطلقون عليهم «رجال الربيع»، وكان من بين البضائع التي يتبادلونها معهم جلود الدب القطبي، وجلود الحيتان، والعاج، والقفازات المصنوعة من جلود الحيتان، والإبر والسكاكين المصنوعة من الصلب، وغيرها من السلع المفيدة وبضائع الزينة. وفي سنوات لاحقة أصبحت تلك التجارة مورداً هاماً لأصحاب السفن، وضرورة تجارية عندما لم يعد صيد الحيتان وحده أمراً مربحاً. وهكذا بدأ ربابنة السفن يسعون وراء الفراء والعاج والحيوانات الغريبة التي يمكن نقلها حية، وبهذا يتحقق الميزان التجاري. ولم يدر بخلد البحارة البريطانيين أن المستقبل يحمل في طياته أموراً مختلفة بالنسبة لهم وبالنسبة للأسكيمو. فحتى ذلك الوقت ظل التاينو نيرميتو على حالهم البدائي، ولم تتأثر عاداتهم أو أسلوب حياتهم كثيراً، بما توفر من سلع عن طريق التبادل. وكانوا يتحركون في المنطقة، كما يتحرك سكان الصحراء وراء الكلأ والعشب، وكانت تحركاتهم تتم وفقاً لتحركات الحيوانات التي كانوا يستهدفونها، والتي توفر لهم احتياجاتهم من الغذاء، والكساء، والأدوات، والأواني.

وإذا شئنا أن نعمم هذه العلاقة التجارية المبكرة، فإننا نقول: إن الأسكيمو كانوا يحاولون الانسجام بطرق محدودة وحذرة مع ثقافة غريبة، تمكنهم من الحصول على لحم الحوت بسهولة وبكميات كبيرة في وقت قصير، وتوفر لهم أيضاً عدداً من الأدوات النافعة؛ مثل المناشير والأنوال اليدوية. وعلى الجانب الآخر نجد الأوروبيين وقد استهواهم – إلى جانب تحقيق مآربهم المختلفة – الالتقاء بسكان المنطقة وتعرّف مختلف أوجه حياتهم الغريبة والبدائية. وكانوا دائماً تواقين للحصول على أشياء تذكارية، والالتقاء جنسياً مع نساء الأسكيمو. وكانوا يأملون دائماً في تحقيق أرباح من وراء التبادل التجاري. ومن أهم خصائص الأسكيمو في تلك الفترة أنهم كانوا يفكرون دائماً في قدرتهم على البقاء، ولهذا فإنهم لم يكونوا بتلك الدرجة من البساطة أو السذاجة التي تخيلها الأوروبيون. وهكذا فقد فشل الأوروبيون في وضع تقويم صحيح لدنيا الأسكيمو. فعلى سبيل المثال، كتب أحد ربابنة السفن في تلك الفترة فوصف الأسكيمو بقوله: «إنهم متدنون في هيئتهم وتكوينهم، كما في عقولهم ومشاعرهم». وعلى هذا الأساس اعتقد الأوروبيون أنه بوسعهم الاستفادة من الأسكيمو من دون تعريضهم للأذى، وأنه يمكن ترويضهم كالأطفال، ولكن

لا ينبغي أن يؤخذوا مأخذ الجد. ولقد وصفوهم بكلمة (ياك)، وهي تعني القوتاش أو الخشفاء، وهذا هو الاسم الذي يطلق على ثور ضخم طويل الصوف، يعيش في منطقة التبت بآسيا.

وبالنسبة للأسكيمو فقد اعتقدوا أن صائدي الحيتان الأوروبيين بشر من نوع غريب لأنهم يحاولون القيام بأعمالهم من دون الاستعانة بمهارات النساء وصحبتهن. وإذا كان الأسكيمو قد أبدوا إعجابهم الشديد بما أنتجه الأوروبيون من «أدوات ومعدات قيمة ومفيدة»، فإنهم كانوا يسخرون من عدم قدرتهم على إطعام وكساء وحماية أنفسهم. وعموماً فقد كانت نظرتهم لصائدي الحيتان مزيجاً من الخوف الذي يصاحب الرهبة، والخوف الذي ينبع من توقع الغدر والعنف. وعندما يقترب منهم دب قطبي، ينتابهم الخوف من النوع الأول، أما عندما يتعين عليهم عبور كتلة من الثلوج البحرية الرقيقة، فإن خوفهم يكون من النوع الثاني.

وبحلول صيف عام 1823م، وبعد بضع سنوات من التجارة في المنطقة، كان الأوروبيون قد بدؤوا بالفعل في استكشاف قرى الربيع الصامتة، وهي أماكن تعرض فيها الناس للموت لإصابتهم بالدفتريا والجدري. ولكن المنطقة التي شاهدوها، لم تكن كما كانت من قبل، فقد تغيرت كثيراً، وبدأت الحقائق التي تعلموها عبر مئات من السنين تتهاوى، فأسطورة الأسكيمو والأرض التي يعيشون عليها بدأت تتلاشى تدريجياً.

وإلى أقصى الشمال الشرقي لخليج بوندز، غرب كيب يورك على ساحل جرينلاند، لاحظ صائدو الحيتان ظاهرة غريبة أطلقوا عليها اسم «المنحدرات القرمزية»، وهي كتل من الجليد المائل للاحمرار. وقد فسروا تلك الظاهرة بتكاثر الفطريات، أو إلى اللون الأحمر لطيور الغلموت (وهي من طيور البحار الشمالية) التي تتغذى على الجمبري(*). وعند بقعة غير معلومة إلى الشرق من تلك الكتل الجليدية (وهي مكان يسميه الأسكيمو المحليون سافيسيفيكي) توجد مجموعة من النيازك، كان البريطانيون قد سمعوا عنها لأول مرة في عام 1818م. وكان الأسكيمو القطبيون قد استقطعوا أجزاء منها تتألف من الحديد - النيكل، وصنعوا منها رؤوساً لحراب الصيد وأنصالاً للسكاكين، كما عدّوها سلعة، يتم تبادلها مع جماعات أخرى من الأسكيمو. وكلمة سافيك

(*) التفسير العلمي للظاهرة هو وجود صبغات حمراء على جدار الخلايا في بعض أنواع طحالب المياه العذبة والتي تكون موجودة فوق الجليد.

تعني بلغة الأسكيمو «السكين»، كما تعني «الحديد» كذلك. وفي عام 1823م لم يكن لدى البريطانيين، وحتى ضباط سفن صيد الحيتان، فكرة واضحة عن المصدر المحتمل للنيازك، بل إنه لم يكن بمقدورهم أن يحددوا ما إذا كانت جرينلاند جزيرة بالفعل. ويضاف إلى ذلك؛ أنه حتى ذلك الحين لم يكن أحد قد تمكن من الدخول إلى منطقة تبعد بأكثر من خمسمائة ميل عن القطب الشمالي. وكان كل ما يعرفه البريطانيون هو ما اعتقده هنري هدسون عندما أبحر تجاهها في عام 1607م: (جُلْمُود(*) هائل من البازلت الأسود في وسط بحر دافئ هادئ). ولم يدروا أن حيتان جرينلاند التي كانوا يقتفون أثرها، كانت بالفعل «تغني» مثل الحيتان الحدباء التي سمعوا أصواتها في شمال الأطلسي، وهم في طريقهم إلى المصايد القطبية.

وبالمثل فقد كانوا يجهلون تاريخ حياة أسماك القرش في جرينلاند، تلك الوحوش المؤذية والمتبلدة، التي كانت الأساس الذي قامت عليه أول المصايد التجارية الدانمركية، حيث كانت الأهمية الاقتصادية لأسماك القرش تتمثل في الزيوت المستخلصة من أكبادها. وبالمثل لم يراود البريطانيين والأوروبيين عامة أنه كانت هناك حضارة ما، سبقت حضارة الأسكيمو، وهي الحضارة التي كانوا يتبادلون منتوجاتها من دون أن يعرفوا أصلها.

وفي عام 1823م كانت المنطقة القطبية في أمريكا الشمالية لا تزال بعيدة في أذهان الناس بقدر بعد الأساطير عن الحقيقة؛ تسكنها حيوانات غريبة الشكل والشأن، وشعوب منعزلة، وتنطوي على آخر نظام بيئي معقد لم يتم اكتشافه بعد. ولقد كانت النظرة العامة لتلك المناطق الشمالية النائية في ذلك الوقت تتلخص كما يأتي: أراضٍ ذات مناظر طبيعية قد وقعت بها أحداث خارقة، وضياء ينتشر، وكأنما يدعو إلى التسامح، ويمنح البركة؛ وظلام دامس، يبعث على الجنون، وبرودة شديدة تجعل الخل يتجمد، وتحطم أي شيء تتخلله، بما في ذلك الأحجار. وفوق هذا كله فإنها مناطق لم تتحدد على الخرائط، ولم يَدَّعِ أحد ملكيتها. وكم من أوروبي قد لقي حتفه بشكل مأساوي فيها منذ العهد النرويجي، فمن لم يمت من الصقيع، فإنه يتسمم من كبد الدب القطبي، ومن ينجُ من هذا وذاك يُصب بداء الاسقربوط حتى يتعفن جسده، أو يبق إلى جانب حطام سفينته

(*) الجلمود صخر ضخم اكسبته المياه والاحوال الجوية شكلاً مدوراً (المترجم).

حتى يموت من جراء التصاقه الطويل بالجليد.

ولقد كان لهذه المعلومات الرهيبة أثر بالغ في نفوس وعقول صائدي الحيتان، الأمر الذي هز من ثقتهم، وجعل حماسهم يفتر بعض الشيء، وهم لا يزالون في خليج بوندز، وتعجبوا من جهلهم بالمنطقة، بل وجهل نفر من زملائهم، كان قد سجل ملاحظات هامة حول بيولوجية الحيتان، وألوان العوالق(*) في التيارات المائية. ومع ذلك كله لم يسمحوا لأي من الجهل أو الخوف أن يقهرهم، فالسفن التي كانوا على متنها كانت «آمنة، وكأنها قوارب النجاة»، و «مُحكمة كالقنينة»، وسيطر عليهم إحساس قوي، بأنهم عائدون إلى وطنهم وأسرهم بعد شهرين أو نحو ذلك، ومعهم تكاليف معيشتهم لمدة عام أو نحو عام، وربما يضاف إلى ذلك بعض الملابس المصنوعة من فراء الدب القطبي للتباهي، أو أدوات من التي يستخدمها الأسكيمو في حياتهم اليومية، كهدايا للأبناء والأصدقاء، وفوق هذا وذاك سلسلة من القصص التي تحكى للجيران، فتأخذ بألبابهم، قصص حول النجاة من غرق محقق، أو جمع ستة آلاف بيضة من بيض الأيدر، ذلك البط القطبي ذو الزغب الناعم، والذي ينتشر على طول السهل الساحلي، أو حول العلاقات الجنسية مع نساء الأسكيمو...

ومن السهل أن نتخيل شعورهم وهم مقدمون على مغامرة كبرى. ويحكى أن أحد ربابنة سفن صيد الحيتان كان يمنع الصيد منعاً باتاً في أيام الأحد نظراً لأنه كان مسيحياً أصولياً، فما كان من البحارة إلا أن يجلسوا على سطح السفينة يتسامرون ويقارنون ما حصلوا عليه من أشياء تذكارية، فهذا قد اقتنى جمجمة مثيرة لثور المسك(**) ذات قرنين كبيرين وعينين جاحظتين. وكما علم من الأسكيمو، فإن تلك الجمجمة كانت لنوع من الماشية القطبية، تعيش بعيداً في الشمال وفي الغرب، وهذا قد حصل على مِزْرَدَةْ (درع مرنة ذات زَرْد)، ذهب أحدهم إلى القول بأنها دليل على أن المستكشفين الفايكنج (أهل الشمال الأوروبي الأقصى) كانوا قد وصلوا بسفنهم إلى أقصى الشمال مروراً بمستوطنات جرينلاند قبل ذلك بقرون. وهذا ثالث بحوزته وجه بشري منحوت من العاج، ويعبر عن بؤس وتعاسة. وهذه قطعة فنية من حضارة دورست المندثرة. ولقد جمع بين

(*) العوالق (البلانكتون) هي الكائنات الحيوانية / النباتية الصغيرة المتعلقة أو الطافية في الماء (المترجم).

(**) ثور بري يعيش في جرينلاند وأمريكا الشمالية (المترجم).

البحارة شعور واحد، وهو الإعجاب الشديد بالقيمة الفنية والجمالية لتلك الأشياء، والحسرة على نوع الحياة التي يعيشونها تحت ظل الأشرعة والصواري.

ولربما تذكر واحد منهم أنه قد شاهد دباً قطبياً ذات مرة بعيداً عن الشاطئ في يوم عاصف، وكان يسبح بسرعة منتظمة في بحر هائل مظلم، الأمر الذي ساعد في زيادة التوتر، وأكد وجود العنف جنباً إلى جنب مع الجمال. وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن الأسكيمو، وقدرتهم المذهلة على العيش، والبقاء في منطقة كهذه، ونشاطهم وحيوتهم وروحهم الطيبة وعاداتهم البدائية. ومن هذه العادات الغريبة مسح الأم لبراز طفلها بشعرها، ونزع قلب طائر وقع في الأسر لقتله من دون إتلاف ريشه.

أما ضباط السفينة، وعادة كانت لهم أماكن خاصة ومنفصلة بالسفينة، فلربما كانوا يقرؤون كتاب وليام سكورزبي «نبذة حول المناطق القطبية»، أو كتاب أحدث من ذلك وضعه وليام باري الذي كان قد فتح الطريق إلى الغرب في عام 1818م وبرفقته جون روس، وفيه يروي اكتشافاته بأسلوب قصصي شائق. ولقد كان الضباط معجبين بباري، وبصفة عامة كانت نظرتهم لحملات الاستكشاف البريطانية متدنية، فهي في اعتقادهم لم تكن سوى ممارسة سياسية تتسم بالغرور، ويكاد لا يكون لها قيمة عملية. فالسفن التي استخدمها البريطانيون كانت قد بنيت بطريقة تمكنها من مقاومة تاثير الثلوج، ولكن بحارتها كانوا يفتقرون للخبرة، أما ضباطها فقد كانوا يسعون وراء الشهرة والصيت.

وبطبيعة الحال فإن الضباط والبحارة كانوا يتحدثون عن حصيلتهم من الدهون والعظام التي وضعت بمخازن السفينة، فهذه كانت ثروة حقيقية وملموسة، فهذان الجزءان من حوت واحد يمكن أن يباعا على أرصفة ميناء هَلْ ويدران على الفرد دخلاً يزيد بعشر أو خمس عشرة مرة عما يمكن أن يحصل عليه من دخل لقاء عمل «بري» طيلة عام كامل، ولعل هذا الأمر هو الذي كان يجعلهم يذوبون اشتياقاً للعودة إلى أوطانهم.

ويذهب المؤرخ الكندي و. جيليز روس إلى القول إن نحو (38,000) من الحيتان قد قتل في مصايد مضيق ديفز على يد أساطيل الصيد البريطانية، ولربما كان التقدير الصحيح لأعداد هذه الحيتان اليوم هو مئتا ألف. ولا يتوفر لنا تقديرات بأعداد السكان الأصليين بالمنطقة الذين لقوا

حتفهم من جراء الإصابة بالدفتريا، والجدري، والسل، وشلل الأطفال، وغيرها من الأمراض، وإن كان المؤرخون يقدرون أن تسعين في المئة من سكان أمريكا الشمالية الأصليين، قد ذهبوا ضحية لتلك الأمراض. وعلى ما يبدو فإن الأسكيمو لا يزالون يحاولون استرداد عافيتهم(*).

والذي حدث في خليج بوندز في ذروة صيد الحيتان، ليس إلا صورة مصغرة للزحف الشامل للحضارة الغربية على المناطق القطبية الشمالية، ويدق ناقوس الخطر، وينبه إلى أن الصناعات الحديثة – وعلى وجه التحديد استخراج النفط والغاز والمعادن – أنشطة قصيرة العمر تماماً، كما كان نشاط صيد الحيتان. ولعله من الغريب حقاً أنه بعد أكثر من مائة وخمسين عاماً من أول ارتياد لتلك المناطق، لا تزال معرفتنا بتاريخها الطبيعي سطحية وغير متكاملة. وفي وقتنا هذا فإن أكثر عناصر النظام البيئي تعرضاً للخطر ليست الحيتان الشهيرة، وإنما العنصر البشري. فليس لدينا معلومات أصيلة كافية عن سكان تلك المناطق، بخلاف ما ترويه العلوم الغربية وما تعكسه رغبة الغربيين في السيطرة والتملك، وحتى تلك المعارف تفتقر للعمق التاريخي، ولا تتناول الجوانب الغامضة والدقيقة.

ومن ناحية أخرى تتفاوت نظرتنا لقيمة ذلك النظام البيئي تفاوتاً واسعاً، فعلى سبيل المثال، فإن للمحامين الكنديين، الذين يعملون على تسوية المنازعات حول حقوق ملكية الأرض في إنويت نظرة للمنطقة، تختلف تماماً عن نظرة مهندسي البحرية السويديين، الذين يقومون بتصميم ناقلات قادرة على تحطيم الجليد، ومن ثم تجوب الطريق القطبي من روتردام إلى يوكاهاما. وعلى جانب آخر فإن تاريخ المنطقة – بما في ذلك تلقيح الزهور بوساطة النحل شديد الطنين، وأصول وعقائد قوم دورست، وعادات حيوان الشَّره – يعني شيئاً لصياد أسماك يلقي بشباكه عند مصب نهر هايز، بينما يعني شيئاً آخراً لعالم بيولوجي يراقب قطيعاً من حيوان الرَّنَّة، وهو يقترب في دهشة بالغة من خط أنابيب (النفط) عبر الاسكا، وشيئاً ثالثاً للسائح الحديث الذي أتى للاستمتاع، وتناول الغداء المدعم بالكافيار والشمبانيا عند القطب الشمالي.

(*) «الاسكيمو» لفظة شاملة تشير إلى خلفاء الحضارة الثولية في كندا المعاصرة، وحضارة البوناك و البيرنيك في الاسكا المعاصرة (انظر الملحوظة رقم «2»).

وهذا التنوع في نظرة البشر واهتماماتهم في أرض « جديدة »، ليس بالشيء الغريب أو الجديد، ولكن الشيء الجديد بالنسبة لنا، والذي يثير قلقنا هو الاختلاف الذي يحدث في الأرض ذاتها، ويغير من طبيعة تلك الاعتبارات كلها. ففي المنطقة المعتدلة اعتدنا التعامل مع أراضٍ ومناظر قادرة على استيعاب وجهات نظر متعارضة. فالتنوع الهائل فيما تغص به هذه المناطق من مخلوقات، وطول مواسم الزراعة، ودرجات الحرارة المعتدلة، والهطول المتوسط للأمطار - كل هذه الأمور تعوض سوء استخدام الإنسان للموارد. أما في النظم البيئية في المناطق القطبية الشمالية فالأمر ليس كذلك. فهذه مناطق ونظم معرضة للخطر، ومفتوحة لكل محاولات الاستنزاف، ولعل هذا ما يفسر السعي الدائب للوصول إلى حلول وسطى، تعيد الوفاق بين الإنسان والنظم البيئية في تلك المناطق.

وترجع صعوبة تقويم - أو حتى فهم - منطقة معينة إلى المسافة التي قطعتها حضارتها بعيداً، عن جذورها، فنحن بصفتنا سكاناً للمناطق المعتدلة لا نرتاح - تقليدياً - للصحارى والتندرات والجليد، فهذه بالنسبة لنا أراضٍ قاحلة جرداء. ومن الناحية التاريخية فإننا لم نعبأ كثيراً بما يحدث فيها أو لها، ومع ذلك فإنني أميل إلى الاعتقاد بأنه سيأتي يوم نعرف فيه القيمة الحقيقية لها، وفي اعتقادي كذلك أن اختلاف نظام الضوء والزمان في المناطق القطبية الشمالية، يجعل هذه المناطق تكشف مدى رضانا عما لدينا بالفعل من أفكار حول الأرض بصفة عامة، كما تكشف عن مدى طيش البرامج الغربية في المناطق القطبية الشمالية. ويضاف إلى ذلك كله أن المحيط المتجمد الشمالي (وهو ليس في حالة تجمد دائم على أية حال) يشكل حالياً عقبة كؤوداً في طريق الملاحظة المنتظمة. فهذه المنطقة في نظر البعض منطقة « مستعصية » ومثيرة للأعصاب!!

وإذا كنا نبغي وضع خطة مستنيرة للنشاط البشري في منطقة القطب الشمالي فإننا بحاجة لفهم تفصيلي لأراضيها، وفهم أعمق لطبيعتها. كما لو كانت أرضاً على كوكب آخر، ولها حضارة من نوع آخر، وأن ندرك أن علينا أن نتوافق معها. ولهذا فإنني أعود بكم إلى الأبعاد الملموسة لتلك الأرض، وما تعنيه أو توحي به، وبمعنى آخر فإنني أدعوكم للتجول عبر التندرة ومشاهدة الرياح وهي تداعب أوراق أشجار البتولا القصيرة وأشجار الصفصاف، وأن تستمعوا لدبيب حوافر قطعان الرنة المهاجرة، وأن تقوموا بنزهات بسيطة في بحر بيفورت مستخدمين قوارب

الكاياك التي يصنعها الاسكيمو من جلود الحيوانات، حيث يصل إلى أسماعكم تلك الأصوات الغريبة، التي تصدر عن الحيتان ذات الذقون، كما أدعوكم لتفحص تلك الآلات البدائية التي يستخدمها الأسكيمو.

وذات مرة – وكان ذلك في الشتاء – أبحرت بعيداً في الثلوج شمال جزيرة ميلفيل مع طاقم للحفر البحري، عندما شاهدت حوتاً يطفو إلى السطح، وكانت المياه المفتوحة تحت منصة الحفر مباشرة، حيث يخترق الحفار الثلج، ويشق طريقه إلى قاع المحيط. وظل كل منا – الحوت وأنا – يرمق الآخر دون أدنى حركة، وكنت مرتدياً الباركا (وهي سترة فرائية ذات قلنسوة متصلة بها وتعتبر اللباس الرئيسي في مناطق القطب الشمالي)، بينما ظل الحوت قابعاً في المياه الراكدة تماماً، وعيناه البنيتان تتلألآن في رأسه الرمادي الذي يشبه رأس القطة. ويبدو أنه قد سيطر عليه الفضول وجعله يثبت في مكانه، أما الذي سيطر عليَّ أنا فهو خاطر غريب: أين أنا الآن على وجه التحديد؟ وعندما أدت حركة عفوية من رأسي إلى رفع القلنسوة قليلاً، اندفع الحوت بعيداً محدثاً ما يشبه الانفجار في الماء.

وهكذا فقد تبينت انه من الخطورة بمكان أن نكتفي بالتأمل فيما يفعله الناس ها هنا، وأن نتجاهل عالم الحيتان، أو أن نفكر في مطالبنا ومتاعبنا، ونهمل تعرّف الأرض، ونرفض أن «نستمع لها»، والخطر لا يخص اليوم أو غداً أو العام القادم، بل يمتد ليشمل المستقبل كله.

وينطوي هذا الكتاب، الذي استخدمت فيه أسلوب السرد، على ثلاثة موضوعات: تأثير أراضي المنطقة القطبية الشمالية في الخيال البشري؛ وكيف يتأثر تقويمنا لمنطقة معينة برغبتنا في الاستفادة منها، وماذا يحدث لإحساسنا بالثروة، عندما نواجه بمنطقة مجهولة بالنسبة لنا، وما هو معنى الثراء؟ وهل يجوز أن نحقق أي ثروة عن طريق مغامرات دموية كما فعل صيادو الحيتان وغيرهم من المغامرين والمستثمرين الذين جاؤوا إلى المناطق الشمالية القصوى؟ أم أن الثراء يتمثل في أن يكون لديك أسرة ومعلومات ومعرفة شاملة بوطنك، كما قال الأسكيمو لصيادي الحيتان في خليج بوندز؟ وهل يكمن الثراء في الخشية والدهشة والبحث عن كل ما هو أصيل وجدير؟ وأخيراً هل الثراء مرادف للعيش في سلام مع الكون؟

ومن المستحيل أن نجد إجابات واضحة لتلك السلسلة من الأسئلة، ولكن إذا عرفت مكاناً تفهم

فيه العناصر المشتركة للحياة فهماً مختلفاً، فسوف تجد فيه فرصة لتغيير نظرتك للأشياء، وعندئذ سيكون بوسعك أن تتخيل من جديد طريقك إلى طمأنينة دائمة للروح وللقلب، وإلى توافق مع ذلك التدفق الزمني الذي نسميه التاريخ – تاريخنا وتاريخ العالم.

والحلم الذي سوف ينكشف في الفصول التالية هو حلم العظماء والبسطاء على حد سواء.

الفصل الأول

آركتيكوس

في يوم من أيام الشتاء لم تشرق فيه الشمس، وفي فترة ما بعد الظهيرة، وقفت على المحيط المتجمد في منطقة تبعد نحو عشرين ميلاً عن كيب مامين في جزيرة ماكنزي كينج. والواقع أن المنطقة المتجمدة عند مضيق هازن ليست بلا ملامح كما قد يظن البعض، كما أنها ليست بالقسوة التي تجدها – على سبيل المثال – في بحر لنكولن، فالتيارات هادئة نسبياً هنا، وخلال الشهور التسعة أو العشرة التي تتجمد فيها المياه فإن هذا الرصيف لا يكاد يتحرك.

وإلى الجنوب أرى السماء وقد اكتست بلون بنفسجي يمتزج بزرقة الكوبالت، وتمتد في الأفق عند خط (80) درجة، وإن كان الثلج والجليد لا يعكسان هذه الألوان. فالضوء السائد هنا هو الأزرق اللبني المنعكس عن القمر، وفي ضوء القمر يتسع مجال الرؤية، ويمتد لميلين أو ثلاثة، ولكن هذا الضوء الخافت لا يساعد على تمييز الأشياء بدقة. وباستثناء الأفق في اتجاه الجنوب، والذي يشبه اللون الذي تحدثه الكدمات في الجسم، تكون السماء سوداء، وينعكس ضوء القمر على الثلوج.

ونظراً لاكتمال القمر لا يكون للسماء عمق، وإن سطعت النجوم. ولما ازداد تأملي في تلك النجوم، وجدت نفسي أتوقف لأحملق فيها. فهذا هو النجم القطبي (النجم الشمالي) فوق رأسي تماماً، وكنت كلما حددت مكان الدب الأعظم فيما مضى، وتتبعت الخط الوهمي الذي يمر خلال توابعه، كنت أتجه ببصري نحو الشمال. أما اليوم فإنني أنظر إلى أعلى.

وإنها لمصادفة سماوية أن النجم القطبي هذا يقع فوق القطب الشمالي الجغرافي للأرض (إذ ليس هناك نجم قطبي جنوبي)، ويبدو أنه جالس على امتداد لمحور الأرض، وأنه قد غير قليلاً من موقعه في زمننا هذا، مما يجعلنا نعتقد أنه ثابت. وهو ثابت تقريباً في الواقع. وظل هكذا بحيث كان الدليل الملاحي الأساسي للرحالة والسكان في نصف الكرة الشمالي منذ العصور المبكرة. ويسمي علماء الفلك تلك النقطة الرياضية في السماء فوق القطب الشمالي بالقطب الشمالي

السماوي، ويقع النجم القطبي الشمالي في محيط درجة واحدة منه.

ونظرت إلى أعلى فوجدت نجماً يميل لونه إلى الصفرة، ويزيد عن حجم الشمس مائة مرة – الدب الأصغر – وهو الوحيد الذي بدا وكأنه لا يتحرك أبداً، وحوله يدور سبعة نجوم ساطعة، وسبعة أقل سطوعاً، وتشكل معاً هيئة كوب ذي مقبض، أو تكون فخذي وذيل الدب الأعظم. وفي فجر تاريخ الحضارة الغربية ساد اعتقاد بأن أجزاء العالم التي تقع في أقصى الشمال، ترقد تحت هذه النجوم، وأطلق الإغريق على المنطقة الشمالية بأسرها لفظة «أركتيكوس»، ومعناها «بلاد الدب الأعظم».

ولقد نظر العالم القديم للمنطقة القطبية الشمالية، على أنها منطقة لا يمكن الوصول إليها أو ارتيادها. إلا أنهم لم يصوروها كأرض لا تجود بشيء، على الأقل إلى حد فاصل معين. فالأساطير الإغريقية تشير إلى أكثر المناطق القطبية الشمالية بعداً بما يفيد أنها ذات تربة بحيراتية خصبة، وسماء زرقاء صافية، ونسيم عليل، وحيوانات ولودة، وأشجار مثمرة تؤتي أكلها دوما بما في ذلك فصل الشتاء. كما أشارت إليها الأساطير كذلك بأنها منطقة أبعد شمالاً من منشأ الرياح الشمالية (بورياس). ووفقاً لتلك الأساطير فإن سكان الأصقاع الشمالية أقدم الأجناس البشرية، وإنهم يتميزون بطبيعة رقيقة، كما يتميزون بالبساطة والقناعة والتأمل. وتتضمن بعض الأساطير صوراً ملفتة لهذا الجو المبارك: ريش أبيض يتساقط من السماء، على سبيل المثال. وربما تكون هذه إشارة إلى الجليد الرقيق المتساقط، وإن كان واضحاً أن الإشارة ليست استعارية كلية. ففي أحد أيام الصيف شاهدت في الاسكا سرباً من البط يطرح ريشه وهو يحلق فوق رأسي، فتناثرت في الهواء مئات الريشات، ثم تهاوت برفق على الأرض. وفي الكتب التي أرَّخَتْ للحملات التي كان هدفها استكشاف المناطق القطبية الشمالية في القرن التاسع عشر، نجد وصفاً مماثلاً للثلوج التي تراكمت على أشرعة السفن، وكأنها مروحة صنعت من الريش.

ولربما قد وصل إلى الإغريق بعض من تلك الروايات التي تناقلها الرَّحَّالة حول جمال فصل الصيف في المناطق الشمالية النائية، الأمر الذي أقنعهم بوجود شعب مبارك فيها.

ومع ذلك فقد كان هناك الوجه المظلم لتلك المنطقة النائية، وظل هذا يراود شعوب العالم القديم. فالحضارات الجنوبية كانت تنظر إليها على أنها أرض جرداء مليئة بالجبال المتجمدة، وتهب عليها رياح عنيفة، ويسكنها الشر. وبالنسبة للكتّاب الدينيين في القرن السابع الميلادي فقد كانت

هذه المنطقة مكاناً للدمار الروحاني، ومقاماً لعدو المسيح. ففي الوقت الذي تعرضت فيه الحضارات الجنوبية في أوروبا للخطر المتمثل في القوطيين (القوم الجرمانيون الذين اجتاحوا الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادي)، والفاندال (القبائل الجرمانية التي اجتاحت فرنسا وأسبانيا وشمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي، ثم احتلت روما ونهبتها في عام 455م) وغيرها من القبائل الشمالية (بما في ذلك الفايكنج – أهل الشمال الأوروبي) تذكر الناس يأجوج ومأجوج الذين ورد ذكرهما في العهد القديم، وعدّوهم القادة الأسطوريين لقوم يعلون فوق الأمم المتحضرة، وكانت هذه قوى الظلام وقد احتشدت في مواجهة قوى النور. ولقد ورد في الأساطير الإنجليزية هزيمة الجيوش الشمالية ووقوع يأجوج ومأجوج في الأسر، ونقلهما إلى لندن مغلولي الأيدي والأرجل بالسلاسل.

ولمدة خمسة قرون كان ليأجوج ومأجوج تمثالان خارج قاعة مجلس المدينة (لندن) إلى أن دمرا خلال غارة جوية في أثناء الحرب العالمية الثانية.

وعلى تل خارج مدينة كامبريدج يعرف بتل يأجوج مأجوج كانت هناك رواية أخرى وإن كانت ذات نهاية أقل مأساوية. وتقول هذه الرواية إن أحد العمالقة الشماليين في ذلك الجيش البربري وقع في حب امرأة شابة من الجنوب، لكنها صدته نظراً لطبيعته الوحشية، الأمر الذي جعله يموت بحسرته، وتحول جسده إلى ذلك التل!.

وحتى يتسنى تعريف وتحديد المنطقة القطبية الشمالية، فقد رتبناها حول محاور عديدة(*).

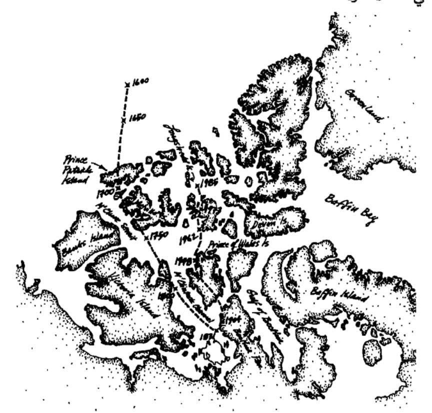
ويلاحظ أن التحديد الدقيق لهذه «الأقطاب الشمالية» وللقطب الشمالي ذاته يختلف (على المستوى الأصغر). فالنشاط التكتوني (الزلزالي)، والقوة الجاذبية للقمر، والفصل المستمر للرواسب من مكان لآخر بوساطة الأنهار – كل هذه عوامل تجعل الأرض تميل قليلاً، وتجعل محورها ينتقل وهي تميل. فإذا كان القطب الشمالي شيئاً يمكن تخطيطه فسوف يتبع خطاً كل (428) يوماً على

(*) ليس هناك اي تحديد مقبول قبولاً عاماً فيما يتعلق بالحد الجنوبي للمنطقة القطبية الشمالية. فعلى سبيل المثال فإن الدائرة القطبية الشمالية يمكن ان تشمل اجزاء من اسكانديناوة (شمال اوروبا) اصبحت دافئة قليلاً بما تبقى من مجرى الخليج (Gulf Straw) مما جعلها مرتعاً للسحالي والأفاعي والضفادع. وقد يكون خارج هذه الدائرة منطقة خليج جيمس في كندا، وهي من المواطن الأولى للدب القطبي. كذلك يذهب العلماء إلى استبعاد الطرف الجنوبي من منطقة الصقيع الدائم، والحد الشجري الشمالي.

هيئة دائرة غير منتظمة، يتراوح قطرها بين (25) و (30) قدماً. وعلى مر السنين تقع هذه الدوائر غير المنتظمة كلّها داخل منطقة بعرض نحو (65) قدماً وتسمى دائرة تشاندلر، ويكون الموضع المتوسط لمركز هذه الدائرة هو القطب الشمالي الجغرافي.

ومن ناحية أخرى فإن تحديد أقطاب شمالية أخرى، لا يقل صعوبة عن ذلك. ففي عام 1985م كان القطب الشمالي المغناطيسي يقع عند (77) درجة شمالاً، و (120) درجة غرباً، أي على بعد نحو ثلاثين ميلاً شرقي جزيرة إموند روكر، عند الطرف الجنوبي لمجموعة فندلي، وهذه تقع على بعد (400) ميل شمالي (وإلى حد ما غربي) الموقع الأصلي لها، عندما اكتشفها چيمس كلارك روس في عام 1831م على الجانب الغربي من شبه جزيرة بوثيا.

أما القطب الجيومغناطيسي الشمالي، والذي ينتظم حوله – نظرياً ورياضياً – المجال المغناطيسي للأرض فيقع بنحو خمسمائة ميل إلى الشرق من القطب المغناطيسي الشمالي، بالقرب من إنجلفيلد لاند في شمال جرينلاند.



حركة القطب الشمالي المغناطيسي من عام 1600 ق.م. إلى اليوم. أما المواقع قبل عام 1831 فهي تقديرية.

وهناك قطب شمالي خامس لم يعد يلاحظ، ومن ثم فقد خرج من الحسبان. ففي القرن التاسع عشر اعتقد الناس انه لا يوجد ما هو أصعب من الوصول إلى نقطة في بحر الثلج شمال الاسكا، عند (84) درجة شمالاً، (160) درجة غرباً تقريباً. وكذلك اعتقد الناس أن طبقة الجليد تدور محورياً وببطء حول هذه البقعة، الأمر الذي يجعل الوصول إليها بالسفينة مستحيلا. كما أن الرحلة إليها على الأقدام أو بالزلاجات التي تجرها الكلاب أمر محفوف بالمخاطر. وإذا كان «القطب الذي يستحيل الوصول إليه» لا يرى بالعين، شأنه شأن القطب الشمالي الجغرافي، فقد شوهد من الجو مرات عديدة، بل إن كاسحات الجليد الروسية قد وصلت إليه بالفعل(*).

ولعل الأهم في فهم المناطق الشمالية القصوى – الأهم من أي مجموعة من الخطوط أو النقط – تكوين صورة عن الحركة السنوية للشمس عبر سماء تلك المناطق. فبالنسبة للناظرين إليها من أهالي المنطقة المعتدلة، فإن هذه الحركة غير منتظمة. فالحدود التي تفصل فترات الضوء (النهار)، عن فترات الظلام (الليل) تبدو غير واضحة بالمرة، ومن ثم فقد يصبح كل من النهار والليل طويلاً جداً، أو قصيراً جداً، بناء على تلك الحركة غير المنتظمة.

ومن الصعب أن نتخيل حركة الشمس في المناطق القطبية الشمالية، نظراً لأن فكرتنا عنها ظلت ثابتة لعشرات الآلاف من السنين، أي منذ أن انتقلنا للعيش في المنطقة المعتدلة الشمالية. وهناك صعوبة أخرى، وهي أننا بحكم كوننا مخلوقات أرضية (وليست هوائية أو مائية) فإننا في الغالب لا نفكر بطريقة ثلاثية البعد. وإني لاتذكر أول مرة صادفتني تلك الأشياء، وكنت على متن طائرة متجهة في يوم من أيام الشتاء إلى منطقة بارو على الساحل الشمالي لالاسكا. وكان الوقت نحو منتصف النهار، وكانت الطائرة تتجه شمالاً. ولما نظرت من النافذة القريبة من مقعدي شاهدت الشمس منخفضة على الأفق الجنوبي، وبدت وكأنها لا تتحرك على الإطلاق من تلك البقعة طوال الرحلة التي استغرقت ساعتين. وعندما هبطنا في بارو بدت وكأنها قد غربت ومن البقعة ذاتها.

(*) تمكنت كاسحة الجليد الروسية «آركتيكا» من الوصول إلى القطب الشمالي الجغرافي في اغسطس 1977م، وهي سفينة ذات محرك بقوة (75,000) حصان، وقادرة على إزاحة (23,400) طن.

وفي أثناء جولتي في القرية أدركت أنني لم أفهم ذلك من قبل، ففي شتاء المناطق الشمالية القصوى تطفو الشمس ببطء إلى السطح في الجنوب، ثم تختفي من عند البقعة ذاتها تقريباً. وكأنها حوت يتدحرج في الماء. وهكذا فإن فكرة أن «الشمس تشرق من الشرق وتغرب من الغرب» لا تنطبق في هذه الحالة، كما أن فكرة أن «اليوم» يتألف من صباح وظهيرة وفترة ما بعد الظهيرة ومساء – وهي فكرة متأصلة تماماً في عقولنا لدرجة أننا لا نحاول مجرد مناقشتها – فكرة ابتدعتها آدابنا وفنوننا. ولكن هذا النمط لا يسود ها هنا(*).

وهكذا فإن تعرّف حركة الشمس في المنطقة القطبية الشمالية ليس بالأمر السهل. تخيل أنك تقف عند القطب الشمالي بعينه في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونية، – وهو يوم انقلاب الشمس الصيفي –، وأن قدميك ترتكزان على قشرة من الجليد والثلوج التي قذفت بها الرياح. فإذا أزحت الجليد بعيداً تجد ثلوج البحر بلونها الأبيض المائل للرمادي، وهي ثلوج تفتقر للشفافية. وعلى عمق ست أو سبع أقدام هناك المحيط المتجمد الشمالي، وفيه تصل درجة الحرارة إلى نحو تسع وعشرين درجة فهرنهايت، كما يصل عمقه إلى نحو ثلاثة عشر الف قدم. وهكذا فأنت تقف على بعد (440) ميلاً من أقرب قطعة من الأرض، تلك الجزيرة الصغيرة الواقعة قبالة الساحل الشمالي لجرينلاند، والتي تعرف باسم «أوداك». وهكذا أيضاً فإنك تكون واقفاً في كل من الأربع والعشرين منطقة زمنية، وشمال كل نقطة من الكرة الأرضية. ففي هذا اليوم (21 يونية) تدور الشمس في مدار مسطح (360 درجة)، وعلى وجه الدقة عند (23,5) درجة فوق الأفق.

فإذا استطعت البقاء داخل حدود هذا اليوم ذي الأربع والعشرين ساعة، وإذا تمكنت من السير نحو ميكسيكو سيتي فلن تلحظ في بادئ الأمر سوى تغيير بسيط في مسار الشمس حول السماء، ولكنك سرعان ما تشعر بأن مدار الشمس قد مال، وأن قوسها أعلى في السماء الجنوبية منها في السماء الشمالية، ويزداد ميل قوس الشمس وضوحاً كلما اتجهت جنوباً. وعندما تصل إلى المنطقة المحيطة ببحيرة جاري في المناطق الشمالية الغربية تجد الشمس وقد هبطت كثيراً، وتكاد تلامس

(*) شعوب الشمال في كل مكان – الاسكيمو في كندا، والياكوت في روسيا، والساميس (لابس) في اسكنديناڤيا – قد اعادوا ترتيب حياتهم في السنوات الاخيرة للتكيف مع إيقاع النهار / الليل في المناطق الجنوبية، ويزداد اعتمادهم على جداول وأنماط تنظيم المعلومات.

الأفق الشمالي وراءك ولأول مرة. وبهذا تكون قد وصلت إلى منطقة زمنية مختلفة. ففي تلك اللحظة التي تلامس الشمس فيها الأفق يكون الوقت هو «منتصف الليل». وفي البقعة ذاتها وبعد ذلك باثنتي عشرة ساعة تكون الشمس عند (47) درجة فوق الأفق الجنوبي، اي أن الوقت حينئذ يكون «منتصف النهار» بالتوقيت المحلي. وقد يدفعك ذلك إلى القول بأن الشمس بدت وكأنها تتحرك عبر السماء، وليس بشكل دائري فيها، وأنها قد بدأت تهبط أسفل الأفق الشمالي. ومن هذه البقعة، وبالسير جنوباً في اليوم الحادي والعشرين من يونية تبدأ في مشاهدة «الليل». ولكن الليل قصير هنا، وتجد فترات مطولة من الشفق أو الفجر الكاذب في بادئ الامر. وبالتدريج يزداد الشفق عمقاً في ساعات المساء، ويتبدد في ساعات الصباح. وفي مكان ما من سهول مانيتوبا سوف تجد أخيراً أنك في «منتصف الليل» – ظلمة حقيقية يتعذر معها عليك السير من دون خوف أو تعثر.

فإذا ما واصلت السير، وبافتراض أن الزمن قد توقف عند اليوم الحادي والعشرين من يونية، فسوف تلحظ ثلاثة أشياء؛ أولها أن الليل يزداد طولاً، وثانيها أن الشمس ستكون عالية تماماً عند الأفق الجنوبي في منتصف النهار (مما يؤكد فكرة أنها تشرق من الشرق وتغرب في الغرب)، وثالثها أن فترات الشفق سوف تقل طولاً عند الفجر وعند الغسق (ظلمة آخر النهار)، إلى أن يصبح الشفق مجرد ظاهرة عابرة. فالشمس تشرق وتغرب بحدة في مدينة مكسيكو سيتي، ولهذا فإن سطوعها ظاهرة يومية، وليس ظاهرة موسمية أو فصلية كما هو الحال في الشمال.

وإذا وقفت عند القطب الجنوبي بعد ذلك بستة أشهر (أي في اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر، موعد انقلاب الشمس الشتوي) وفي منتصف الليل القطبي، فلن ترى مجموعة واحدة من النجوم، فكلها سوف تمر أمامك من اليسار إلى اليمين، فإذا خَلَّفَتْ وراءها آثاراً ضوئية، فسوف ترى حلقات متعددة الألوان، كل منها فوق الأخرى وبشكل متوازٍ مع الأفق، ويتضاءل قطر هذه الحلقات تدريجياً إلى أن يصبح قطر آخرها أقل من درجتين، حيث يتعقبها النجم القطبي، فتدور حول البقعة المظلمة من الفضاء الخاوي الذي يمتد بطول القطب الشمالي.

أما إذا سرت إلى الجنوب من القطب الشمالي في اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر، فسوف تشاهد عكس الظاهرة التي لاحظتها قبل ذلك بستة أشهر، حيث يسود الظلام المنطقة في ذلك

اليوم، ففي منطقة سهول ماينتوبا لن تشعر باختلال في توازن النهار والليل إذا كنت متعوداً على قِصَر النهار في فصل الشتاء في المنطقة المعتدلة. وفي المناطق الاستوائية يتساوى طول كل من النهار والليل وتقصر فترة الشفق(*).

وإذا أردت أن ترى الشمس بالفعل في اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر، يتعين عليك أن تسير مسافة (1611) ميلاً تشريعياً، والميل التشريعي يساوي (5280) قدماً أو (1760) ياردة حتى تصل إلى الدائرة القطبية. ومع ذلك لن تجد ظلمة الشتاء كاملة، ففترات الشفق المطولة تخترق الليل القطبي الطويل، ويزداد الضوء المنبعث من النجوم قوة طوال الشتاء، نظراً لسقوطه على الجليد والثلوج ذات الأسطح العاكسة. ويضاف إلى ذلك أنه – باستثناء أماكن قليلة – لا توجد غابات كثيفة مما لا يجعل الأرض معتمة. كما لا توجد سلاسل جبلية تلقي بظلالها عليها. وهذا هو وجه الشبه بين المنطقة القطبية الشمالية والصحراء، فكلتاهما مكشوفة وخالية من العوائق، ويضيئ البدر سماءها بما يمكن من السفر ليلاً.

وفي المناطق التي تمر بها خطوط العرض الجنوبية، ليس هناك ما يبرر التركيز على الشفق، لكنه أمر بالغ الأهمية في حالة المناطق القطبية الشمالية، حيث يستمر هذا الضوء الرقيق لفترات طويلة، الأمر الذي جعل علماء الفلك يصنفون الشفق في فئات(**).

ففي المنطقة المعتدلة نجد أن فترات الشفق ظاهرة يومية تحدث في الصباح وفي المساء، أما في المناطق الشمالية القصوى فهي ظاهرة موسمية تستمر طوال اليوم، ويوماً بعد يوم حيث تنحسر الشمس في الخريف وتسطع في الربيع. أما في المنطقة المعتدلة فإن النهار يكون أقصر في الشتاء وأطول في الصيف، ولكن يظل لكل يوم فجر واضح يتمثل في «ضوء أول» ممتد يوحي ببداية جديدة. وعلى النقيض من ذلك، فإن النهار في المناطق الشمالية القصوى لا يبدأ من جديد كل يوم.

(*) يرجع هذا النمو الضوئي غير المتكافئ في المنطقة القطبية الشمالية إلى دوران الارض على محورها المائل، ودورتها السنوية حول الشمس.

(**) (1) الشفق المدني، ويبدأ من لحظة غروب الشمس ويستمر حتى تصبح عند ست درجات تحت الأفق. (2) الشفق البحري وهو الفترة التي تكون فيها الشمس ما بين ست واثنتي عشرة درجة تحت الأفق. (3) الشفق الفلكي وهو الفترة التي تكون الشمس خلالها ما بين اثنتي عشرة درجة وثماني عشرة درجة تحت الأفق، وفيها يكون الظلام قد حل. (4) الليل الفعلي ويحل عندما تكون الشمس عندها تزيد عن ثماني عشرة درجة.

وفي عـام 1957م اضطر المستكشف الهـولندي وليم بارنتس (الذي لاقى حتفـه حين تحطمت السفينة التي كان يشق طريقه بها إلى المناطق الجليدية) إلى تمضية الشتاء بأكمله مع طاقم سفينته في ظروف بالغة السوء عند الطرف الشمالي لنوفايا زمليا، فقد ظلوا ينتظرون عودة الشمس وقد استبدت بهم حالة من القلق الشديد . وكان الظلام أشد رهبة من البرد، ولم يشكل الشفق – مهما طالت مدته – تعويضاً لهم عن عدم تمكنهم مشاهدة النجم الساطع . وظل كل منهم يذكر الآخر بقول سليمان الحكيم « الضوء رائع، وإنه ليسر العين أن ترى الشمس » . وعندما أطلت الشمس برأسها أخيراً، كان ذلك قبل اثني عشر يوماً من الموعد المتوقع، الأمر الذي جعلهم يعتقدون أن العناية الإلهية قد تدخلت، وهللوا فرحين غير مصدقين، وارتفعت روحهم المعنوية واستمدوا الشجاعة والعون من ظهور الشمس وهم يواجهون المصاعب والمخاطر .

ولكن الذي رأوه ذلك اليوم من شهر يناير – وفقاً لما تحت أيدينا الآن من معارف وخبرات – لم يكن الشمس، بل مجرد سراب شمسي، حيث كانت الشمس لا تزال عند خمس درجات تحت الأفق، وانعكست أشعتها نحوهم بفعل عواكس في الغلاف الجوي . وتعرف هذه الصور (السرابية) اليوم باسم « صور نوفايا زمليا »، وهي ظاهرة شائعة في المناطق القطبية ، وتمثل تحذيراً ضد الوصف الدقيق والتوقعات، ومن ثم تذكرنا بأن الكون يتمحور بشكل غريب .

ونعود مرة أخرى لرحلتنا الوهمية جنوباً، ونصل إلى الجزء الأخير منها وهو العودة من حيث أتينا . وهنا سوف تلحظ تغييرات كثيرة في الحياة البيولوجية حولك . فالعدد الإجمالي لأنواع الحيوان والنبات (التنوع الحيوي) يبدأ في التضاؤل، خاصة عندما تصل إلى المناطق القطبية الشمالية، كما تتضاءل الإنتاجية البيولوجية (العدد السنوي للمواليد لكل نوع)، كما يرتبط موعد ولادة الصغار ارتباطاً متزايداً بدورة الفصول . ومن ناحية أخرى تتغير الأساليب التي تستخدمها الحيوانات للبقاء والتكاثر والتغذية وحماية نفسها من قسوة الطقس . وهكذا فإن الاستقرار البيولوجي للنظام البيئي يقل تدريجياً . ولسوف تجد أنك ترحل عن أرض تكون فيها الفصول الأربعة أشباحاً، وعن غابات وأدغال تضم العديد من الأشجار العالية ذات الخشب الجامد . ونظراً لأن الماء يكون دائماً في حالة السيولة ويتقاطر هنا وهناك، فإن قائمة الحيوانات التي تعيش في تلك المناطق قائمة طويلة . وأخيراً تصل إلى أرض للنبات الموسمي، حيث تتجمد المياه بشكل

دوري، وتكثر الأشجار التي تعانق الأرض، وسوف تجد أن قائمة الشدييات المتأقلمة قصيرة جداً وبوسعك أن تستوعبها في لحظات قليلة.

والانطباع العام الذي تخرج به وأنت تأتي من الجنوب، هو انطباع بحركة من عالم بالغ ا لتعقيد إلى آخر بالغ البساطة. ولسوف تأتيك لحظة، تنتقل فيها من الغابات المختلطة في الجنوب، حيث لا يبرز نوع واحد من الأشجار إلى الغابات الصنوبرية، بل يوجد أشجار من نوع واحد أو نوعين تلقي بظلالها على جوانب التلال. ولكن هذا الإحساس بالبساطة سرعان ما يتبدد، وتعرف أنه كان مجرد وهم، فالنظم البيئية في المناطق القطبية الشمالية لها الروعة نفسها والتعقيد نفسه الذي تتسم بها مثيلاتها في المناطق الاستوائية. والفارق الوحيد هو ببساطة أن الأجزاء المتحركة أقل، وإن كانت الأجزاء أكثر وضوحاً، وأسهل عَدّاً في التندرة المكشوفة المسطحة، كما أنه بالإمكان الوصول إليها بصعوبة أقل. فالتعقيدات التي تنطوي عليها النظم البيئية في المناطق القطبية الشمالية، لا تكمن في التفصيلات الغذائية لفئة من الكائنات، تضم نحو مئة نوع من الخنافس، تعيش على هكتار من الأرض (كما هو الحال في المناطق الاستوائية)، وإنما في الاستجابة المعقدة لمعدلات متطرفة من الضوء ودرجة الحرارة، وفي الحركة الموسمية لأعداد كبيرة من الحيوانات المهاجرة، وفي تكيفها مع التقلبات العنيفة في مستوى تجمعاتها، وإن كانت تلك التقلبات أمراً طبيعياً.

وخلال ترحالنا شمالاً آتين من المناطق الاستوائية، سوف نشعر بأن التغيرات الكبيرة الماثلة أمام أعيننا توحي بأن هذه البلاد متخلفة. فمن منظور غير علمي تبدو الأرض وقد خلت من أساسيات الحياة – الماء الجاري، والضوء، والدفء – كما تبدو وكأنها قد وصلت إلى حدود مطلقة، وأنها تفتقر لما يجذب الحيوانات للعيش بها، فما بالك بالحيوان البشري؟ ولكن الواقع يختلف عن ذلك، فهذه الأرض موطن للعديد من الحيوانات التي تكيفت تماماً مع تلك البيئة، بل وتشعر بالراحة إذ تعيش عليها. ولعل الرهبة التي تنتاب الفرد عندما يشاهد دباً قطبياً في تلك المناطق، يعزى جزئياً إلى إعجاب بسيط بآليات البقاء التي يستخدمها بشكل تلقائي، حتى يتمكن من المحافظة على حياته في بيئة يمكن أن تلحق بنا الهزيمة في غضون أيام قليلة. ولعلك تشعر بذلك أيضاً وأنت تشاهد الأسكيمو، إذ سوف يلفت نظرك ما يتمتعون به من وسع الحيلة والاقتصاد في العمل، فهذه الأمور تكشف عن إدراك شامل وعميق للبيئة التي يعيشون فيها.

وخلال رحلتنا شمالاً سوف نلاحظ تغيرات كبيرة في التربة تحت أقدامنا. فالتربة نظام حي، وهي مزيج من الغائط (جسيمات من الرمل والصلصال والطمي) والمواد العضوية المتحللة والمتحولة. وتتشكل التربة من تفتت الصخور، ومن إفرازات الأحماض العضوية بوساطة الحيوانات والنباتات، مثل الخنافس ونبات عش الغراب (وكلاهما تفتت المواد الميتة)، وإفرازات الديدان الأرضية. وشأنها شأن الحيوان فإن التربة تمتص الأكسجين من خلال الأنفاق العديدة التي يحفرها النمل والقوارض والديدان. ويضاف إلى ذلك كله أن التربة تستضيف مئات من المخلوقات - الديدان الأسطوانية الخيطية، والسوس، والحشرات عديمة الأجنحة، وبكتريا التربة، والفطريات -.

ويلاحظ أن الفطريات الحيوانية والنباتية في المناطق الاستوائية، تفتت المادة العضوية سريعاً. ومن ثم فإن عملية تدوير المغذيات تتم بسرعة كبيرة، مما يبقي على القليل من التربة. أما في المناطق المعتدلة فإن هذه العملية ذاتها تتم بسرعة أقل كثيراً، خاصة في فصل الشتاء، حيث تكون كائنات التربة ذات الدم البارد في حالة خمول. ويترتب على ذلك تراكم طبقات عميقة من الدُّبال (وهذه مادة سمراء أو سوداء تنشأ من تحلل المواد النباتية والحيوانية وتشكل الجزء العضوي من التربة) فوق طبقة من الصلصال العقيم والمائل للاحمرار، كالذي تعرفه المناطق الاستوائية. وكلما اتجهنا شمالاً نجد أن هذه الطبقات الخصبة من الدُّبال تختفي، ويظهر بدلاً منها تربة أكثر صلابة وأقل خصوبة، ويغلب عليها اللون البني. ويرجع السبب في ذلك إلى انخفاض في أعداد وأنواع الفطريات النباتية والحيوانية، وكذا في الكائنات التي تبني التربة، وتوصل الأكسجين لها، والتي بوسعها أن تتكيف مع فقدان الطاقة الشمسية. وتصل مثل هذه التربة الرمادية الحمضية مداها في الغابات والبراري الشمالية، إلى أن تصل إلى الحد الشجري؛ أي الحد الذي لا ينمو الشجر بعده بسبب شدة البرودة. وهنا تجد نفسك عند تربة التندرة، وهي تربة لا تجود بشيء.

وأينما سرت في التندرة المكشوفة تجد أوراق أشجار جافة تماماً، وأجزاء من زهور احتفظت بشكلها الأصلي، وبقايا أغصان، ولعل هذه مخلفات لحياة نباتية في فترة اتسمت بتراكم عضوي متواصل. ويلاحظ أن التحلل يكون بطيئاً للغاية في المناطق القطبية الشمالية؛ نظراً لقلة عدد الكائنات التي تقوم به، وقصر المدة اللازمة له. ومن ثم فإن تراكم الدُّبال يكون أقل بكثير عنه في المناطق المعتدلة. فالتربة في المناطق القطبية الشمالية رقيقة وحمضية، سيئة الصرف والتهوية، كما

أنها ليست غنية بالنيتروجين والفسفور، وهما من ضرورات نمو النباتات. ويستثنى من ذلك التربة في الأماكن التي تتخذ منها الثعالب مأوى لها، والمناطق المرتفعة قليلاً في التندرة، والتي تستخدمها البوم وطيور الكركر أماكن تحط فيها؛ لتتغذى على فرائسها، ففي تلك الأماكن يزداد تركيز المواد العضوية المغذية للتربة، الأمر الذي يفسر نمو الحشائش بشكل غير عادي، وكذا نمو الزهور البرية الصيفية في تلك الأماكن.

وهكذا، فإن التربة تتراوح في العمق والجودة كلما اتجهنا شمالاً. وتتراجع أنواع الحيوان والنبات التي لا تستطيع التكيف مع الانخفاض في الطاقة الشمسية، أما ما عدا ذلك فيبقى يقاوم الظلام والبرودة. فإذا ما واصلنا السير، فسوف نصل إلى أرض خالية من الديدان والخنافس، أرض لا تعرف التحلل – تلك الصحراء القطبية الخالية تماماً من أي مظاهر للحياة.

وإذا اتجهت شمالاً بعيداً عن خط الاستواء، فسوف تلاحظ كذلك ظهور الفصول المتميزة، فترات من الزمن تتسم بحالة من الضوء المرتفع، أو الساقط، أو المستقر نسبياً، ويصاحبها معدلات معينة من درجة الحرارة. وما أن تدخل المنطقة المعتدلة، حتى تجد مجموعة من الفصول التي يسهل تمييزها وتسميتها وعزلها. وكلما اتجهت شمالاً بدا « الربيع »، و « الخريف » أقصر وأقصر إلى أن تصبح مدة كل منهما أسابيع قليلة، ثم يأتي الشتاء، وهو أطول كثيراً من الصيف، ويشكل الاثنان معاً الطبيعة النهائية لتلك الأراضي.

وترتبط فصول السنة في أذهاننا بالنمو النباتي. فخارج نطاق الفصول الأربعة الأساسية فإننا نتحدث عن فصل للحرث والزرع، وفصل لإراحة الأرض. أما في منتصف الشتاء في المناطق القطبية الشمالية، فإن الموقف أشبه «بحجارة سحقت تحت حديد»، ومن ثم فإنه من الصعب تخيل وجود أي كائن حي (حتى ولو كان بذرة)، ناهيك عن أرض مُراحَة. ففي هذه المناطق التي تفتقر لفترات طويلة معتدلة بين الشتاء والصيف – مناطق الفصلين – تنمو الأشياء، وتموت كما في كل مكان آخر من العالم، ولكنها مخلوقات موسمية بدرجة أشل وأعمق.

وليست الأشجار استثناءً من تلك الظاهرة. فالحد الشمالي للغابات القارية في أمريكا الشمالية يبدو شيئاً غريباً، لو حاولت أن تتفهم الخط الشجري. فذلك الحد يمتد إلى الجنوب الغربي في لابرادور ويمر أسفل خليج جيمس، ثم يتحول في اتجاه الشمال الغربي، حيث يعبر الدرع الكَمبري

الكندي(*). ثم يمتد بمحاذاة وادي نهر ماكنزي. ثم إلى المحيط المتجمد الشمالي، حيث يأخذ مساراً متعرجاً في اتجاه الغرب ماراً بوديان سلسلة بروكس، ونهر كوبك، ثم إلى نورتون ساوند. ويرجع عدم انتظام الخط على هذا النحو إلى المناخ الموسمي، فهو يعكس متوسط امتداد الكتل الهوائية القطبية الشمالية تجاه الجنوب في فصل الصيف.

وشأنها شأن حيوانات المنطقة، فإن الأشجار الشمالية تنتمي إلى أنواع قليلة للغاية، حيث تنمو أشجار الصفصاف في الوديان، التي تكفل لها الحماية من الرياح، كما ينمو نوع من أشجار البتولا (أشجار القضبان) القصيرة. أما على طول الخط الشجري ذاته فإن الأشجار الوحيدة التي تنمو، فهي أنواع من البتولات والصنوبر. فإذا تعمقنا شمالاً فسوف نجد جزراً من الأشجار في تندرة المحيط، وهذه قد تكونت في ظل الرياح الخفيفة والرطوبة والتربة الغنية.

وهناك عدة عوامل تحد من نمو الأشجار في المناطق القطبية الشمالية، أولها قلة الضوء اللازم لعملية التمثيل الضوئي، وثانيها عامل الدفء. فالشجر – كالحيوان – تحتاج للحرارة للقيام بعملياتها الحياتية. وإذا كان الإشعاع الشمسي هو الذي يوفر الدفء، فإن الدفء في المنطقة القطبية الشمالية يرتبط ارتباطاً قوياً بمدى الاقتراب من الأرض. ففي الصيف يمكن أن يكون هناك اختلاف مقداره خمس عشرة درجة فهرنهايت في القدم الأولى أو نحو ذلك من الهواء، وذلك بسبب الأثر المبرد للرياح أعلاه، وقدرة التربة الداكنة على تعميق الإشعاع الشمسي. ولكي تحقق الأشجار التوازن في «ميزانيتها الحرارية» من أجل النمو والبقاء، فإنها لا بد وأن تعانق الأرض، وهذا ما يجعلها أشجاراً قصيرة. وبالنسبة لأشجار الصفصاف فهي عائلة تتميز بوسع الحيلة، الأمر الذي يمكنها أحياناً من زيادة طولها. ولكن هذا يحدث فقط عندما تتدخل بعض تضاريس الأرض، وتعمل على تهدئة الرياح المبرِّدَة والمجفِّفة. أما العامل الثالث فهو النقص في المياه، فهذه شحيحة ولا تتوفر في هيئتها السائلة (وهي الشكل الوحيد الذي يمكن للأشجار والنباتات استيعابه) إلا خلال فصل الصيف. والعامل الرابع هو الصقيع السرمدي (الأبدي). فعلى الرغم من أن الأشجار تستطيع اختراق هذا الصقيع (الذي يشبه الصخور) بجذورها العميقة ومن ثم تصلب طولها

(*) حسب جدول الأزمنة الجيولوجية فإن دهور ما قبل الكمبري بدأت قبل (4,500) مليون سنة، واستمرت لنحو (3,900) سنة (المترجم).

وتمتص الماء من الطبقات الصخرية المحتجز بها، فإن ذلك نادراً ما يحدث في المناطق القطبية الشمالية. فالبرودة أشد من قدرة الأشجار على الاستطالة، كما أن الماء السائل لا يوجد إلا في البوصات القليلة الأولى من التربة، اي في الطبقة العليا من الأرض الجليدية، والتي تذوب في فصل الصيف. ويضاف إلى ذلك أنه حتى خلال الأسابيع القليلة التي تتوفر فيها المياه، فإن الصقيع السرمدي يبقى منيعاً ومحكماً، ولا يسمح بنفاذ الماء أو اشعة الشمس، الأمر الذي يفرض على الأشجار أن تتأقلم مع هذه الظروف التي تنطوي على النمو فيما يشبه المستنقعات.

وتتميز الأشجار في المناطق القطبية الشمالية بقوة التحمل والإصرار على البقاء. فإذا أخذت شريحة من جذع شجرة صفصاف (من النوع المعروف باسم «ريتشاردسون»)، ولا يزيد سمكها عن إصبعك، فسوف تجد نحو مائتي حلقة للنمو السنوي تحت المجهر. وبطبيعة الحال فإن الجزء الأعظم من التندرة يبدو خالياً من الأشجار. ولكن كثيراً من الأماكن بها مغطاة بالأشجار التي تشكل حصيرة كثيفة من أشجار الصفصاف والبتولا القصيرة والعتيقة. وفجأة تتبين أنك تتجول في غابة.

* * * * *

وتتحرك كافة النظم البيولوجية تقريباً بالإشعاع الشمسي. فعندما يسقط الضوء يتعين على الحيوانات والنباتات أن ترتب نموها وأنشطتها اليومية. والغريب أن المنطقة القطبية الشمالية تتلقى القدر ذاته من سطوع الشمس الذي تتلقاه المناطق الاستوائية خلال العام. لكن هذا القدر يأتي للمنطقة القطبية مرة واحدة، وبزاوية سقوط منخفضة، وبدون قوة حرجة. أما في المناطق الاستوائية فإن عوامل استقرار النظم البيولوجية تشمل الإيقاع المنتظم لسقوط الضوء، وثبات مقدار الطاقة الممتصة، وارتفاع زاوية سقوطها. ومن ناحية أخرى، وباستثناء فصل الأمطار، فإن الحرارة والرطوبة في أي يوم من أيام شهر مايو لا تختلفان كثيراً عنها في أي يوم من أيام شهر ديسمبر. ومن هنا فقد أصبح للحيوانات والنباتات أساليب معينة في المعيشة (بما في ذلك التغذية والتكاثر)، تعتمد كثيراً على التدفق شبه المتواصل للضوء.

أما في المناطق المعتدلة، فإن فترات سقوط الضوء يومياً ليست متساوية على مدار السنة، ومن ثم

فقد تعين على الحيوانات والنباتات أن تهيئ نفسها لأسلوب موسمي للحياة، وهو الأسلوب ذاته الذي تعين على نباتات وحيوانات المناطق القطبية الشمالية أن تلجأ إليه، ولكن تحت ظروف أشد قسوة، خاصة وأن فترات الضوء لا يمكن تقسيمها إلى أيام، هكذا بسهولة. ومن ناحية أخرى فإن معدل درجات الحرارة يتقلب على مدى السنة بأكملها، وليس يوماً بيوم. وفي الوقت نفسه تتجمد مصادر المياه. ويمثل الضوء الخافت عبئاً على الحيوانات التي يتعين عليها استخدام عيونها في البحث. وإلى جانب ذلك فإن الإيقاع الضوئي بصفة عامة يسبب العديد من المشاكل، وذلك لأن غالبية الحيوانات تعيش بطرق تتناسب بيولوجيا مع دوران الأرض حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة. ومن هنا فليس لديها القدرة، ولا المرونة التي تمكنها من التكيف مع التباين الضوئي الذي تواجهه في فصل الصيف الذي لا يعرف ليلاً، وفي فصل الشتاء الذي لا يعرف نهاراً(*).

والواقع أن هناك أساليب متنوعة لتأقلم حيوانات المنطقة القطبية الشمالية مع قلة الضوء، وانخفاض درجات الحرارة. وعموماً فهي إما أن تلجأ لعزل نفسها عن البرودة، أو تبطئ، أو توقف عمليات الأيض بما يضمن لها الاستمرار في الحياة. فباستثناء الحيوانات ذات الدم الحار، والنباتات المزهرة (والأخيرة لا بد وأن تتفتح وتثمر سريعاً في الصيف) تلجأ حيوانات ونباتات المنطقة القطبية الشمالية إلى الدخول في حالة التجمد، أو حالة ينخفض فيها النشاط الأيضي إلى أدنى مستوى ممكن كلما انخفضت درجة الحرارة، ثم تعود لنشاطها الأيضي العادي عندما ترتفع الحرارة بدرجة كافية. فكثير من العناكب والحشرات، وبعض النباتات مثل الأشنة والسَّرخَس والطحالب تصبح في حالة تجمد خلال فصل الشتاء. أما الأشجار والدب الرمادي والسنجاب الأرضي فإنها تقوم بعملياتها الحياتية، ولكن بمعدل أيضي منخفض تماما. أما الأسماك وأنواع مختلفة من الخنافس فتستخدم عوامل خلوية مضادة للتجمد (الجليكو بروتين أو البروتين السكري)، لكي تواصل نشاطها خلال الطقس المتجمد. وهناك أيضاً أساليب للتكيف تتوازى مع أساليب التكيف لدى النباتات الصحراوية، ومنها الأوراق المفلطحة والأوراق التي تشبه الجلد والأوراق ذات الوبر

(*) قليل من حيوانات المنطقة القطبية الشمالية (وبصفة خاصة طيور الأوْك والطيور غير الجاثمة) هي التي تتحرك بحرية، أما الباقي فإنه ينظم حركته وفقاً لوضع الشمس، أو يستجيب للتقلبات في درجة الحرار المصاحبة لضوء الشمس، وهذا يختلف في المنطقة القطبية الشمالية في منتصف الليل عما هو عليه في منتصف النهار.

(مثل شاي لابرادوز)، وهذه تقلل من نضح الماء (وما أثمن الماء!) خلال فصل الصيف القصير.

ومن الأساليب التي تلجأ إليها الحيوانات ذات الدم البارد إبطاء معدل النمو، فضآلة الطاقة الشمسية المتوفرة لتلك الحيوانات، لا تمكنها من استكمال دورة نموها من الطور اليرقاني إلى البلوغ. ومن ثم فإنها « تخطط » لنفسها، حتى لا تتعرض للفناء عندما يكون الشتاء على الأبواب. ومن الأساليب الأخرى التي تتبعها النباتات، لتحقيق أكبر فائد ممكنة من فترات الضوء القصير من أجل النمو والبقاء، احتفاظ أشجار البتولا القصيرة بأوراقها دائمة الخضرة من شتاء لآخر، الأمر الذي يغنيها عن صنع أوراق جديدة في الربيع، لبدء عملية التمثيل الضوئي. وبالمثل فإن سمك القد (وهو من أسماك المنطقة القطبية الشمالية) يضع بيضاً يتميز بكبر حجم مُحِّه، مما يعطي الأجنة غذاء كافياً قبل عودة الضياء في الربيع، والتي يعود معها البلانكتون الذي هو الغذاء الرئيس لهذه الأسماك بعد الفقس، وبهذا تقوى على البقاء، وتنمو عندما يبدأ المحيط في التجمد في فصل الخريف.

ويعتقد العلماء أن النظم البيئية الاستوائية هي الأقدم على وجه الأرض، فلقد مر عليها آلاف من السنين، تطورت خلالها بيولوجياً وبشكل متواصل، على عكس مثيلاتها في المناطق القطبية الشمالية، والتي تعرض نموها وتطورها لفتراتٍ من التوقف، بل وتعرضت هي للدمار بفعل زحف الأنهار الجليدية. ومن ناحية أخرى فقد تميزت النظم البيئية الاستوائية بقدر هائل من الاستقرار لم يتوفر مثله في الشمال، ومن ثم فإن العدد المقدر للأفراد من أي من الأنواع الحيوانية أو النباتية الاستوائية يكاد لا يتغير عبر الزمن. ويرتبط هذا الاستقرار البيولوجي باستقرار المناخ، ويعززه توفر الغذاء لمختلف الكائنات الحية، الأمر الذي يجعل معدلات التكاثر مرتفعة، فتزداد الأنواع انتشاراً، ويبعد عنها خطر الاضطرابات الطبيعية، مثل الأوبئة التي قد تبيد نوعاً بأكمله من الأشجار أو الحيوانات. فالنظام البيئي الاستوائي على درجة عالية من التنوع، الأمر الذي يكسبه مناعة كبرى.

ويعتقد بعض علماء البيولوجيا أن كافة النظم البيئية تميل للتطور في اتجاه الاستقرار، أي في الاتجاه الذي يشمل أنواعاً كثيرة من الحيوانات (التنوع الهائل). وفي الوقت ذاته لا ينطوي على تضخمات أو اضمحلالات ملحوظة في تجمعات تلك الأنواع. ووفقاً لوجهة النظر هذه، فإن النظم البيئية الخاصة بالمناطق المعتدلة، والمناطق القطبية الشمالية تتجه ببطء نحو حالة التنوع والاستقرار التي تتسم بها المناطق الاستوائية، ومع ذلك فإنه من غير المحتمل أن تتطور مصادر الغذاء لمختلف

الكائنات التي تعيش بالمناطق القطبية الشمالية وبالتالي لن يتوفر ذلك التنوع المرن خلال أي فترة زمنية يمتد خيالنا وتفكيرنا إليها. وهكذا فإنه يتعين على النظم البيئية الشمالية أن تواجه التقلبات الكبيرة في مقدار ما تتلقاه من طاقة شمسية. ومن ثم فإن معدل تطورها البيولوجي أبطأ بكثير. ويضاف إلى ذلك أن النظم البيئية الشمالية غالباً ما تواجه اضطرابات بيولوجية، ترتبط بالأنماط المناخية السائدة (الطقس الذي لا يعرف فصولاً، والذي كان سبباً في فقدان محصول الموالح في فلوريدا، أو الظهور المبكر للدببة التي تبيت بياتاً شتوياً في مونتانا). وفوق هذا كله تتسم الأنماط المناخية في المناطق القطبية الشمالية بالطقس العنيف، والذي لا يمكن التنبؤ بأحواله.

وتتميز النظم البيئية الشمالية عن مثيلاتها الجنوبية بتلك الكتل الحيوية الأكبر حجماً، والإنتاجية العامة الأقل. فبدلاً من وجود أنواع كثيرة ذات تجمعات صغيرة نسبياً، نجد أنواعاً قليلة ذات تجمعات كبيرة؛ مثل حيوان الرنة وجيوش البعوض. وبصفة عامة نجد أنه رغم ضخامة التجمعات فإن أعداد الصغار التي تبقى على قيد الحياة كل عام لا تكفي لضمان ثباتها واستقرارها. فحجم التجمع يتغير وبشكل ملحوظ، نظراً لأن المناخ القاسي في أوائل وأواخر الصيف يلحق أذى بالغاً ببعض التجمعات الحيوانية في المناطق القطبية الشمالية، خاصة الحيوانات ذات الدم الحار. ففي جزيرة رانجل في سيبيريا – على سبيل المثال – حالت سلسلة من العواصف الثلجية استمرت عشرة أعوام دون وضع الأوز الجليدي لبيضه، وترتب على ذلك، أنه في الفترة ما بين عامي 1965م، 1975م هبطت أعداد هذا النوع من الأوز من (400,000) إلى أقل من (50,000). وفي أعوام مختلفة أدت عواصف الربيع التي هبت على بحر جرينلاند (حيث تلد إناث حيتان القيثار صغارها على الجليد الطافي) إلى اجتياح مئات الآلاف من تلك الحيتان الوليدة، وقذفت بها إلى البحر، حيث لاقت حتفها غرقاً. وفي خريف عام 1973م ترتب على عاصفة مصحوبة بالأمطار، هبت في شهر أكتوبر تكوّن طبقة من الجليد الأرضي، لم تتمكن ثيران المسك لاحقاً من تحطيمها خلال بحثها عن الطعام، الأمر الذي أدى إلى زوال نحو خمسة وسبعين في المئة من تجمع ذلك الحيوان في الأرخبيل الكندي.

ولهذه الأسباب المناخية يصف علماء البيولوجيا النظم البيئية في المنطقة القطبية الشمالية بأنها نظم «مُجْهَدَة»، أو نظم «معرضة للحوادث»، الأمر الذي يؤكد، ويوضح الفارق بينها وبين

مثيلاتها في المناطق المعتدلة والاستوائية حيث المناخ الأكثر اعتدالاً ومواسم النموالأطول والتي تسمح بحياة نباتية وحيوانية سَلِسة. ففي الجنوب نجد أن امتداد فترة الربيع يسمح للطيور بأن تضع مجموعتين من البيض، أو ثلاث مجموعات، تحسباً لفقدان إحداها بسبب تعرضها للعدوان أو سوء الأحوال الجوية. وعلى العكس من ذلك نجد أن المدة المتاحة لطيور المناطق القطبية الشمالية لوضع بيضها، والتي توفر قدراً كافياً من الطاقة الشمسية قصيرة جداً. وعلى هذه الطيور أن تستغل هذه الفترة القصيرة أحسن استغلال، لتربي صغارها، وتختزن قدراً من الدهون يعينها على رحلتها عندما تهاجر جنوباً ويمكنها من نفض إهابها. وهي عملية مجهدة يقوم بها أقرانها الجنوبيون، في فترة تمتد لعدة شهور. ويلاحظ أن الطاقة الشمسية التي تعتمد عليها طيور المناطق القطبية الشمالية، تنتج ما هو أكثر من الدفء والضياء. فهي أيضاً تقوم بإذابة الماء المتجمد، والذي منه تستقي الطيور، كما أنها كالوقود الذي يمكن النباتات من إتمام عملية التمثيل الضوئي. وبهذا تجد الطيور نباتات تقتات عليها. وأخيراً فإن الطاقة الشمسية هي التي تأتي بالحشرات، وهذه هي مصدر الغذاء البروتيني بالنسبة للطيور.

ونظراً لأن طيور المناطق القطبية الشمالية تواجه طقساً لا يمكن التنبؤ بأحواله، ونظراً لقِصَر الفترة التي تتوفر خلالها الطاقة الشمسية، فإنه من الأهمية بمكان أن تحس هذه الطيور اختيار الوقت لبناء أعشاشها، ووضع بيضها، وبدء رحيلها. وعندما تهب عاصفة ثلجية في شهر يونية، أو يتجمد الماء فجأة في شهر اغسطس (على سبيل المثال)، ويترتب على ذلك هلاك جيل كامل من أفراخ الطيور، أو عشرة آلاف حِوت، أو مئات من عجول الرنة، فإن ذلك أقوى دليل على أن تلك بيئة دائمة التعرض للكوارث الطبيعية، وأن ذلك نظام بيئي غير منيع. ومع ذلك فإن ما نراه من «إجهاد» ليس علامة على الضعف أو الهشاشة، وإنما دليل على المرونة الفائقة. فبعد شتاء 1973 - 1974 ازداد عدد ثيران المسك الكندية زيادة ملحوظة. أما حيتان القيثار فما أكثرها في بحر جرينلاند. وبالنسبة للأوز الجليدي في جزيرة رانجل فقد استرد عافيته وأصبح هناك زهاء (300,000) أوزة بحلول عام 1982م (*).

(*) لا تزال الآليات البيولوجية التي تمكن الانواع القطبية الشمالية من استرداد عافيتها أمراً بالغ الغموض. وتوضح البحوث الجارية أن هذه الانواع أكثر تأثراً بما يحدث لها من كوارث ناجمة عن النشاط البشري مثل الانفجارات النفطية والتلوث والضوضاء الناجمة عن الملاحة.

والتي كانت من أهم مصادر غذاء الأسكيمو. ولم تكن المنافسة متكافئة بين ثيران المسك والرنة حول مصادر العلف بالنسبة لكلا النوعين. ويلاحظ أن الموقف مختلف تماماً في الطرف الشمالي الشرقي للجزيرة، الذي يضم الأراضي التي يخترقها نهر تومسين، وهي التي يعتبرها الإسكيمو واحة وفيرة العطاء تنتج أنواعاً عديدة من الحيوانات التي توفر للإنسان لحوماً وجلوداً، وعظاماً وأوتاراً، وصوفاً وفراء. ومن ثم فإن هذه المنطقة لا تعرف الصيد أو القنص.

وللصيد الجائر الذي يصل إلى حد الإبادة قصة طويلة قديمة. فالصيادون الأليتون (سكان جزر اليتيان في المحيط الهادي) - على سبيل المثال - قد أبادوا تجمعات كاملة من القضاعة(*) تقريباً.

في المنطقة القريبة من جزيرة أمشيتكا في منطقة جزر أليتيان، وذلك قبل ألفين وخمسمائة عام. وفي نيوزيلنده أباد الصيادون من أهلها الأصليين طائر المو الذي يشبه النعام قبل نحو ثمانمئة عام. ولقد اكتشف علماء جغرافيا الحيوان مؤخراً أن السكان الأصليين لجزر هاواي قد أبادوا نصف أنواع الطيور بها قبل أول وصول للأوروبيين هناك في عام 1778م، ولا يعرف أحد حتى الآن الدوافع التي أدت إلى ذلك التصرف، كما أن أحداً لا يعرف إذا كان هؤلاء القوم على بينة من آثار سلوكهم هذا. كما لا يدري أحد ماذا عساهم قد فعلوا، لو أنهم كانوا يدركون عواقب مثل هذا العمل. بل ويذهب بعض علماء الأجناس البشرية إلى التحذير من أن ما يبدو وكأنه مذابح للبيسون (الثور الأمريكي) في أمريكا الشمالية، وللرنة عند مخاضات الأنهار في عصور التاريخ وما قبل التاريخ كان في إطار مضمون أخلاقي، ويقوم على فهم للتاريخ الطبيعي ومبادئ المحافظة على الأنواع.

وتذهب قدرة الإنسان على إبادة تجمعات حيوانية بأكملها إلى أبعد من ذلك. ويشير آرثر جيلينيك عالم الحفريات (الإحاثات) الفقارية إلى الإنسان المبكر في أمريكا الشمالية بعبارات قاسية للغاية واصفاً إياه «بالمفترس» و «المعتدي» والذي «لم يصادف وسائل ونظم دفاعية»، كما يصفه بأنه مصدر «للتغيرات العميقة والكبيرة» في النظم البيئية لأمريكا الشمالية في بداية الهولوسين (العصر الحديث)»، ويختتم وصفه قائلاً: إن سكان تلك المنطقة في ذلك الحين كانوا «مجموعة من السفاحين المهرة ازداد عددها بشكل مطرد إلى أن أصبحت قوة قادرة على الدمار

(*) يعرف أيضاً بثعلب الماء، وهو قصير الذيل، طويل القوائم (المترجم).

والعبث». ولقد بنى جليلنيك أحكامه هذه على وقائع محددة، وهي انقراض الثدييات الضخمة والذي بدأ قبل ثمانية عشر ألف عام تقريباً في أمريكا الشمالية. وفي اعتقاده أن الإنسان قد لعب الدور الأعظم في ذلك، وكل هذه الوقائع مجتمعة تعرف باسم «الانقراض الذي حدث في العصر الحديث الأقرب «البلستوسيم».

ولقد تعودنا النظر إلى سهول أمريكا الشمالية على أنها أماكن كانت تعج بمختلف ألوان الحياة قبل أن تطأها أقدام الأوروبيين. ونذهب إلى تخيل أنه كان يعيش بها ستون مليون جاموسة، وملايين من البقر الوحشي ذي القرن الشائك، والإلكة (نوع من الظباء)، والغزلان، والدب ذي الخطوط الرمادية والذئاب. ولكن الغريب حقاً أن هذه لم تكن سوى بقايا فصائل حيوانية كثيرة يذهلك عددها وأنواعها. فإذا قارنا بين أمريكا الشمالية في العصر الحديث الأقرب، وما آلت إليه في القرن الثامن عشر، فسوف نتبين أن الأخيرة كانت «عالماً فقيراً اختفت فيه الحيوانات العملاقة والمفترسة وذوات الشكل الغريب كافة»، ومن بينها الأرماديلو العملاق ذلك الحيوان الثديي المدرع، وكسلان الأرض الذي كان أطول من الزرافة الحديثة، عندما كان يقف على رجليه الخلفيتين، والفهد الصياد، والقط ذي الأسنان السيفية، والماموث، والخيول والجمال السريعة، وأقرباء ثور المسك المقربين، وكلها قد اختفت من الوجود سواء كتجمعات أم كرؤوس منفردة. كما أن الأرض ذاتها قد تغيرت تغيراً جذرياً، فبينما كان رحالة القرن الثامن عشر يرون صحارى، فإن هذه ذاتها كانت فيما مضى أرضاً كثيفة الخضرة، عاش عليها قطعان لا تحصى من حيوانات المراعي، ومعها – بطبيعة الحال – أعداؤها من الصيادين والنباشين بحثاً عن الغذاء.

وهناك تفسيرات متضاربة تماماً حول الأسباب والعوامل التي أدت إلى انقراض تلك الحيوانات قرب أو في نهاية العصر الحديث الأقرب – البلستوسين. ومع ذلك هناك شبه اتفاق حول سببين، فإما أن المناخ قد تغير بسرعة وبشكل جذري، ولم تتمكن الحيوانات من التأقلم والتكيف معه، أو أنها قد تعرضت لعمليات صيد جائر، لدرجة الإبادة بوساطة الإنسان. ولكن بعض العلماء يسارعون إلى رفض السبب الثاني تماماً. فهم لا يقرون فكرة أن هذا العدد «الذكي» كان شرهاً، ويعشق القتل من أجل القتل (على الرغم من توفر أدلة على عكس ذلك من العصور القديمة والعصور الحديثة على حد سواء). كما أنهم يشككون في كفاءة الأسلحة والأساليب التي

استخدمت في عمليات الصيد . وعلى جانب آخر فإن عدد البشر كان أصغر مما يستطيع أن يهلك كل تلك الأعداد والأنواع من الحيوانات.

وعليه فإن هذه الفئة من العلماء ترى أن في التفسير المناخي ما يكفي؛ فهو يشير إلى جفاف الأرض، وما ترتب عليه من تغيير جذري في تكوين وتوزيع الحياة النباتية، الأمر الذي أدى إلى زوال الثدييات الضخمة آكلة العشب، وبزوالها زال أعداؤها والذين يعيشون على بقاياها . وفي إطار هذا النموذج تعد كفاءة الإنسان الافتراسية – أحياناً – الضربة النهائية التي قوضت النظام البيئي في وقت تعرض فيه (الإنسان) لضغوط بيئية هائلة.

ولقد طرح العلماء حججاً قوية ومقنعة ومعقدة لتأكيد كل من التفسيرين. وهي في مجملها لا تبرئ الإنسان من المسؤولية، فهو قد لعب دوراً هاماً – إن لم يكن الدور الحاسم. وليس هناك شك حول قدرته على أن يفعل ذلك استناداً إلى المصير الذي آلت إليه حيوانات مثل جاموس السهول، والحمام المهاجر، وطائر الأوك العظيم (وهو طائر قصير العنق والجناحين)، والحوت ذي الرأس المنحني. ويذهب البعض إلى القول بأن الإنسان لا يزال يحتفظ بغريزته وقدرته على قتل المخلوقات الأخرى، وأن الانقراض المترتب على الإبادة يمكن أن يزداد مرة أخرى بسبب التدمير المتواصل للبيئات الطبيعية لمواجهة الزيادة المطردة في أعداد البشر.

ولعلنا نأسف اليوم لزوال كروان الأسكيمو (وهذا طائر مائي طويل المنقار والرجلين)، ومِنْك البحر (وهو من الحيوانات الثديية اللاحمة)، والبط اللابرادوري، والغاق (وهو طائر مائي ضخم نهم تحت منقاره جراب يضع فيه ما يصيده من الأسماك)، وعجل البحر. فحياة هذه الأنواع باتت خارج نطاق البحث. ومع ذلك فقد يبدو أن لنا العذر – بعض العذر – في رفضنا لتحمل مسؤولية تلك الخسائر، وإن كان ذلك الرفض قائماً على أفكار بيولوجية معقدة تستمد جذورها من العقيدة التي مؤداها أنه ليس ثمة عيب متأصل فينا كبشر، وكأحد المخلوقات على هذا الكوكب. وعقيدة أخرى هي أن الإنسان ليس وحده المسؤول عن كل حالة انقراض. فعلى سبيل المثال قد يرجع انقراض نسر الكندور الذي كان يعيش في كاليفورنيا إلى عوامل بيئية ترجع له وحده. ولكن تراثنا البيولوجي الحديث ينطوي على خفض أو إبادة تجمعات الأنواع الأخرى لكي نحتل مكانها في بستان الغذاء، كلما احتجنا لذلك أو رغبنا فيه. ولا يضيرنا أبداً أن نفهم أنفسنا. وهذا يعني

ببساطة أننا مقبلون على مزيد من الانقراض في عالم تحكمه قوانين كيمائية وفزيائية وبيولوجية. ولكن المؤكد أن لدينا من الذكاء ما يكفي لإدراك ما يحدث ومعرفة كافة أبعاده وآثاره، وأن لدينا من الشجاعة ورباطة الجأش، ما يجعلنا لا نرهب ما ينطوي عليه الموقف الراهن من تعقيد، وأن لدينا الاستعداد أن نأخذ الخطوات التي يتعين اتخاذها، مع علمنا التام بأنها لن تؤتي ثماراً في القريب العاجل، بل وربما لا تطول بنا الحياة حتى نرى تلك الثمار وننعم بها.

في إحدى أمسيات شهر يونية جلست القرفصاء على الحتات (فتات الصخور) في موقع كوبتانا، وبدأت أداعب التراب بين شجرتين من أشجار الصفصاف ببقايا ضلع لثور من ثيران المسك، وقلت لنفسي: «ما ينبغي أن ألوم الأسكيمو النحاسي الذي قتل هذا الثور وغيره ها هنا». فلربما كان ورفاقه يعتقدون أن ثيران المسك سوف تعود للظهور مرة أخرى، حتى وإن بدا أنها قد أبيدت. وبالمثل فإنه لا ينبغي أن نلوم الأسكيمو الحديثين الذين يقومون بصيد مختلف الحيوانات في هذه الجزيرة، وغيرها من أجل التخلص من الذئاب التي تهدد خطوط مصايد الثعالب، والتي تدر عليهم دخلاً، أو التخلص من ثيران المسك لضمان الحصول على إمدادات كافية من لحوم الرنة. إنهم يحاولون التكيف مع اقتصاديات غير تقليدية. وبوسعنا أن يعين بعضنا بعضاً، فإذا كانت فلسفتهم التقليدية تؤكد على قضية السلوك الأخلاقي تجاه الحيوانات، فإنه يمكن المزج بينها وبين المفهوم الأوروبي للرفق بالحيوان، بحيث نصل إلى العلاقة الملائمة بين الإنسان والحيوان في العصر الحديث. فنحن بحاجة إلى احترام مستنير يجعل الجنسين يشعران براحة أخلاقية في تعاملهما مع الحيوانات، خاصة وأن الحيوانات تفتقر لوسائل وأساليب الدفاع، بينما يزداد الإنسان قوة بما يملكه من أسلحة متطورة.

ومضيت أقلب التربة مستخدماً بقايا ضلع ثور المسك فوجدتها تربة خصبة ثرية، فهذه قطع مجففة من لحوم ثيران المسك، وهذه أجزاء من أرنب وحشي قطبي، وهذا خُصَلٌ من شعر الرنة، وهذه بقايا أوراق وأغصان من أشجار الصفصاف، وزهور كاسرات الحجر. فهذه التربة تشكل «مؤسسة». ومهما كانت نزعات الأسكيمو الأخلاقية، فقد ذبحوا ثيران المسك، وأكلوا لحومها، وصنعوا المغارف والمكابش من قرونها، والأدوات من عظامها، والملابس والأغطية من جلودها، وهكذا تمكنوا من البقاء.

وعندما أقف متأملاً ذلك الوادي، يراودني شعور بعمق الزمن. فها أنذا واقف عند هذا المعسكر الذي يرجع إلى مائة عام خلت، وأشاهد الوادي الذي يقول العلماء إنه لم يمسسه الجليد بُضرّ، ويقول عنه الأسكيمو المحدثون إنه منطقة مقدسة. وها هي ثيران المسك ترعى في هدوء وسكينة، ولا تعبأ بوجودي قريباً منها، وكأنني أحد الأحجار المتناثرة حولها. وهاهي جماجم أسلافها مبعثرة على الأرض. وها هي الرياح الباردة تهب على موقع الكوبتانا وأحس بها وكأنها تركب فوق رأسي العارية.

ولقد شاهدت ثيران المسك لأول مرة في مزرعة للبحوث خارج فيربانكس في الاسكا. كان الوقت صيفاً، وكان اليوم رائعاً، وبدت الرياح الخفيفة، والسماء الصافية، والحقول الممتدة وكأنها البراءة ذاتها. وشاهدت ثوراً وحيداً يخرج فجأة من وسط الحشائش الطويلة الجافة عند سفح أحد المنحدرات القريبة من المكان الذي كنت واقفاً فيه. وظلت الحشائش تهتز لفترة من جراء حركته العشوائية إلى أن توقف متبلداً، وإن ظل الشعر الطويل المتدلي من جانبيه يداعب الحشائش. وشدت صفات ذلك الحيوان انتباهي كله، فهو في حركته يبدو «شرقيا»، وفي سكونه يبدو متأملاً، وبدا وكأنه هو الآخر ينظر إليّ بعيون فاحصة مستفسرة، وظل على هذا الحال برهة ثم دلى رأسه الضخم وواصل حركته. ولم أر في حياتي حيواناً ضخماً يتحرك بمثل هذه الخطوات «الواثقة». وعندما أصبح رأسه في مواجهتي تماماً، تبينت قصبة قرنه الداكن، وأكتافه العالية، وشعر عنقه المميز الذي يتدلى كياقة الرداء، وذكرني هذا الثور بهيئة الراهب البوذي ومحارب الساموراي (الياباني). وفي الشهور التالية تبينت ان هذه الأوصاف جامحة، ومع ذلك فإنني متمسك بها لأنها ألهبت بصيرتي.

وبصحبة المسؤول عن المزرعة دخلت من أحد أبوابها، لأرى الحيوانات عن قرب. وكانت المزرعة قد أقيمت على مساحة ستة هكتارات، وأحيطت بسياجات لمنع خروج الحيوانات منها. كان المسؤول عن المزرعة طالباً دنمركياً من جامعة الاسكا، ويدعى بول هنريكسن، وقبل ان ندخل نصحني بتوخي الحذر، والسير قريباً من السياج، والاستعداد للقفز من فوقه عند الضرورة. كانت الحيوانات قد تجمعت حول مجموعة من أشجار صنوبرية، واقتربنا منها متخذين من أحد التلال ساتراً، ولذا فلم يظهر لنا سوى ظهورها. وللوهلة الأولى قد تحسب أن هذا الحيوان ليس سوى الدب

ذي الخطوط والبقع الرمادية. ثم دنونا أكثر ودهشت لصغر حجمها، وكلما ازددنا اقتراباً منها ازدادت دهشتنا. فهذه الحيوانات تتحرك ببراعة ورشاقة وسط الأشجار، تحافظ على دنوها من بعضها البعض في أثناء الحركة وكأنها ملتصقة، حتى عندما كانت تتحرك بين الأشجار في مساحة محصورة.

ولم نشأ أن نزعجها، وآثرنا التراجع نحو سياج المزرعة لمراقبتها في هدوء، وكنت بين حين وآخر أطرح أسئلة على هينريكس، وكان يقدم الإجابات، بينما الحيوانات تنظر إلينا بحذر، وهي تداعب الأشجار، وكأنما تتحسس برودة الهواء من خلال فتحات أنوفها السوداء الواسعة، وتنظر إلينا بعيونها الذهبية – البنية، وكأننا لغز لا يمكنها حله.

ثم واصلنا سيرنا بالمزرعة، وشاهدنا الرنة في أحد المراعي، وعلى عكس ثيران المسك وجدناها عصبية ومرتبكة في حركاتها، وهنا نقلت انطباعي حول ثور المسك لمرافقي – إنه في حركته يبدو «شرقيا». ثم بادرني رفيقي بسؤال: «هل تعلم من أين أتت هذه الثيران؟». وكان ردي عليه: «نعم، وإن كنت لا أتذكر الآن».

لقد أتت من السهول العليا في شمال الصين، حيث تطور أسلافها على طريقة الأغنام والماشية، وتأقلم مع ظروف الحياة في التندرة والمرتفعات ويعتقد عالم الإحاثات الفقارية ريتشارد هارينجتون، وهو كندي، «أن الأوفيبوس» نفسه قد ظهر قبل نحو مليوني سنة على السهول الفسيحة الخالية من الأشجار في أواسط سيبيريا، وأنه قد تفرع إلى عدة أنواع، أحدها «أفيبوس بالانتيس» ذلك الثور الأوراسي الذي اعتاد قوم كرو ماجنون على صيده. ويرجح أنه قد تمكن من البقاء عبر العصور ويعيش الآن في شبه جزيرة تايمر في روسيا. وهناك نوع آخر هو «أفيبوس موشاتوس»، الذي يوجد الآن في أمريكا الشمالية، وكان قد هاجر عبر جسر بيرنج قبل (125,000) سنة تقريبا، أي عند نهاية الزحف الجليدي الإليوني، وربما قبل ذلك. ومن المرجح أن يكون قد سبقه أسلافه وأقاربه بما فيهم «سيمبوس كافيفرونز»، وهذا ثور أطول وأنحف وكان النوع السائد من ثيران المسك في أمريكا الشمالية في العصر الحديث الأقرب. ثم هناك نوع يسمى «بريفيبوس»، وهو أكبر وأطول وأكثر نحافة، وآخر يسمى «بوثبيريام»، وهو من ثيران الغابات ويتميز بصغر الحجم، و «يوسيراتبريوم» الذي تأقلم مع حياة المرتفعات.

وهذه الحيوانات كلّها قد انقرضت في نهاية العصر الحديث الأقرب، وانقرض معها أنواع عديدة من الأوفيبوس ذاته - أوفيبوس يوكونينسيس، أوفيبوس بروكسيماس. ولقد وجدت بقايا لثيران من النوع الوحيد الذي تمكن من البقاء - وهو ثور المسك الحديث - في أقصى الجنوب في نيوجرسي ونبراسكا، حيث عاشت في أوج آخر العصور الجليدية، والذي يعرف باسم « ويسكونسين » .

وعلى وفق إحدى النظريات، فإنه عندما بدأ ويسكونسين في التراجع قبل ثمانية عشر ألف سنة، فإن ثيران المسك التي كانت تعيش فيما هو الآن المناطق الوسطى والشرقية من الولايات المتحدة الأمريكية، بدأت في التحرك صوب الشمال. وكانت سلالاتها البعيدة - تلك الحيوانات التي نجدها اليوم جنوبي خليج كوين مود الذي يقع شمالي بحيرة الدب الأعظم، وعلى طول نهر ثيلون - كانت تعرف، ولا تزال، بثيران المسك الكندية. وهناك مجموعة ثانية من ثيران المسك كانت قد تحركت جنوباً من ملاجئها في المناطق القطبية الشمالية العليا بعد تراجع الجليد، حتى وصلت إلى الساحل الشرقي لجرينلاند، ومنه إلى إلزمير، وجزر ديڤون وميلڤيل، وهذه تعرف باسم ثيران جرينلاند، وثيران المناطق القطبية الشمالية العليا(*).

ولثور المسك قريب واحد فحسب لا يزال باقياً هو ذلك الثور الذي يعيش في شمال التبت، وهو حيوان قوي البنيان، له أنف بارز يشبه أنف ظباء غربي آسيا، وأرجل قصيرة سميكة، وقرون صغيرة، وبهذا فهو قريب الشبه بثور المسك الحديث. (ويذكر أن الصوف الذهبي السميك الذي أبحر جاسون(**) بحثاً عنه كان صوف هذا النوع من الثيران) .

ولقد احتار العلماء، واختلفوا حول أصل ثور المسك. فهذا إرنست تومبسون سيتون يرى أنه من أقرباء الجاموس، نظراً لرأسه الثقيل وأكتافه العريضة، وهذا سيتفانوس يعتقد أنه أقرب ما يكون إلى ماشية المرتفعات الأوروبية، وهذا أوتو شيفردروب (وهو مكتشف نرويجي) يصفه بأنه « الثور القطبي » . والواقع أن كل هذه الحيوانات أقرباء « من بعيد » لثور المسك. أما أشد الحيوانات الأخرى

(*) تم بنجاح نقل اعداد من هذه الثيران للعيش في مناطق مختلفة من الاسكا حيث كانت ثيران المسك قد ابيدت تماماً في القرن التاسع عشر.

(**) جاسون احد ابطال الاساطير الإغريقية، سلب عمه المُلك من ابيه، ولما حاول جاسون استرداد ملك ابيه اشترط عمه عليه ان يحضر له الصوف الذهبي، وكان في حوزة ملك آخر، وعليه جهز جاسون سفينة وأبحر بها نحو المملكة التي بها الصوف الذهبي، وبعد سلسلة من المغامرات استولى عليه (المترجم).

قرابة له – بعد ثور شمال التبت – فهي الظبي الياباني، والشمواه، وتيس روكي ماونتين، وأغنام بارباري.

وعموماً فإن كلا من الاسم العلمي «أوفيبوس موشاتوس»، أي التي تشبه الأغنام ويخرج منها «رائحة المسك»، والاسم الشائع «ثور المسك» لا يمثل الحقيقة، إذ ليس لثور المسك غدد مسكية. وكل ما هنالك أن هذا الحيوان يفرز مع البول – خلال دورته النزوية – مادة معينة ذات رائحة نفاذة، تستطيع بسهولة تمييزها إذا وقفت قريباً من الحيوان، كما أنها تنبعث من لحوم هذه الثيران إذا أجيد ذبحها. ولقد وصف جون تيل، – وهو باحث أمريكي متخصص في ثيران المسك – وصف هذه الرائحة بأنها «نفاذة وطيبة إلى حد ما»، كما وصفها عالم بيولوجي آخر بأنها «رائحة كرائحة المسك تشبه تلك التي تنبعث من الغوريلا».

وإذا كان حقاً ما ذكره تيل من أن هذه الرائحة أقل درجة من تلك التي تنبعث من حيوانات مجترة أخرى، فإنه لشيء غريب حقاً أن أطلق على هذا الثور اسم «ثور المسك»، والأغرب أن الاسم قد ثبت تماماً. ومن بين ما طرح من تفسيرات لذلك أنه عندما شاهد الأوروبيون هذا الحيوان لأول مرة عند خليج هدسون في القرن السابع عشر، لفت نظرهم هيئته الغريبة والرائحة التي تنبعث منه، الأمر الذي ذكرهم بغزال المسك في بلاد الشرق، وجعلهم يعتقدون بوجود علاقة بين هذين النوعين من الحيوان. ولقد اعتاد المغامرون والمستكشفون على تمنية أنفسهم بالعثور في أمريكا الشمالية على ثروات كالتي عثروا عليها في بلاد المشرق، كما أن تجار القرن السابع عشر كانوا يحلمون بإقامة قواعد تجارية في «الأراضي الجديدة».

ولعل أول وأهم ما يلفت النظر في ثور المسك شعره الواقي الكثيف. ويلاحظ أن الاسم الذي أطلقه الأسكيمو على هذا الحيوان «أومنجماك» يعني بلغتهم «الحيوان ذا الجلد الذي يشبه الذقن». لكن الأمر ليس بالغرابة التي صورها نيكولا جيريمي في كتابه الذي صدر باللغة الفرنسية في عام 1720م بعنوان «مضيق خليج هدسون»، حيث قال: «إن المرء لا يستطيع أن يميز موضع الرأس من الجسم حتى من مسافة قصيرة». فالغطاء الشعري لهذا الحيوان عبارة عن عدة أنواع من الشعر مرتبة بشكل فريد. لكنها بدت لصاحبنا جيريمي وغيره وكأنها غير مرتبة، ويرجع ذلك إلى أنهم قد شاهدوا الحيوان في الصيف فقط، أي عندما تكون قطعانه تنفض إهابها القديم، وعندئذ

يظهر الفراء التحتي الذي يتكون من شعر صوفي ناعم وكثيف، ويبلغ طوله نحو بوصتين، ويكون ملتصقاً بالجلد، ويغطي جسم الحيوان بأكمله عدا حوافره وقرونه، وجزء من الجلد بين الشفتين وفتحتي الأنف. أما الذيل والبطن والأجناب والرقبة فهي مغطاة هي الأخرى بطبقة كثيفة من شعر طويل خشن يتدلى كالتَّنُّورَة، ويمتد عبر الكتفين حيث يلتحم مع طبقة من شعر كثيف وإن كان أقل خشونة، ويغطي الكتفين من أسفل العنق، وبهذا يكون في هيئة عرف (شعر العنق). أما فيما وراء الرقبة فيقل الشعر، وتكون تلك المنطقة مكسوة بفراء تحتي صوفي، ولكن بدون شعر، وهي المنطقة التي تعرف بالسرج.

وأطول خصلة من الشعر هي تلك التي تنمو أسفل العنق، ويبلغ طولها خمساً وعشرين بوصة. أما شعر التنورة فلا يطرح في الصيف، ومن ثم يزداد طولاً وبروزاً بمرور الوقت، ويكون أكثر لمعاناً عندما تكون الثيران في دروتها النزوية. وابتداء من أواخر مايو وحتى منتصف يوليو يطرح الحيوان فروه التحتي القديم في رقع وخصل، ولكن الصوف القوي الخفيف يواصل طرح نفسه حتى شهر اغسطس، وعندها يبدو الحيوان بدائياً. ويلاحظ أن هذا الفرو التحتي غير المرن أدفأ ثماني مرات من صوف الأغنام، كما أنه في مثل نعومة جلد ماعز كشمير، أو وبر الفكونا (وهو حيوان يشبه الجمل ويعيش في أمريكا الجنوبية). وقد يحمل الثور الواحد ما مقداره تسعة أرطال من هذا الصوف، وهي كمية تكفي لصنع خيط مجدول من اربعين خيطاً وبطول مائة وخمسين ميلاً.

وتولد عجول ثور المسك، وعليها فرو تحتي وطبقة رقيقة من فرو فوقي بلون القرفة. ولكن هذه تتلاشى مع نهاية أول صيف، ليحل محلها فرو تحتي كثيف، وفرو فوق طويل، ولا يبدأ ظهور الشعر الخشن قبل العام الثاني. ويكون الفراء التحتي عند السرج ما بين أبيض وأصفر مائل للسمرة، وفي أماكن أخرى يكون بنياً فاتحاً وظلالاً للون القرفة. أما الشعر فهو أسود عند الذنب والأجناب، وبني داكن إلى أسمر مائل للاحمرار عند الأجزاء الامامية. أما الأرجل فهي بيضاء أسفل الركبة. وفي تجمعات معينة (كما في رؤوس منفردة) يبرز شعر أبيض على الوجه والفم ومؤخرة الرأس، وخلف القرون عند الذكور، وبين القرنين عند الإناث.ويعرف الأسكيمو نوعاً غير عادي من ثيران المسك شعره بلون الأصفر الشاحب (الكريم). ويعيش في منطقة خليج كوين مود. وقد وصفه العلماء مؤخراً (لأول مرة). وكان البحارة البريطانيون قد أفادوا بأنهم قد شاهدوا بقرة مسكية لبنية

اللون (البينو)، وبصحبتها عجل داكن بالقرب من كيب سميث بجزيرة ميلفيل، وكان ذلك في يونيه عام 1853م.

ونظراً لكثافة شعر ثيران المسك، فإنه يكاد يخفي آذانها القصيرة المدببة وسط خصلة الشعر في مقدمة الرقبة. فإذا أضفنا إلى ذلك قصر ذيل الحيوان، فإنه يبدو أكبر من حجمه الفعلي. وعموماً فإن أوزان هذا الحيوان تتباين، ويعتمد الوزن على الجنس وفصول السنة ومقدار ونوع الغذاء. وقد يصل وزن الذكر البالغ إلى (650) رطلاً، والأنثى البالغة (450) رطلاً، أما طول الذكر البالغ فيصل إلى خمس وخمسين بوصة عند الكتف، ويبلغ عرض الحيوان من الأنف إلى الذنب نحو تسعين بوصة، وبالنسبة للإناث فإن هذه المقاييس هي ثمان وأربعون، وخمس وسبعون بوصة على الترتيب.

ومن خصائص ثيران المسك أنها تنمو ببطء، ذكوراً كانت أم إناثاً، ويصل الذكور إلى مرحلة النضج من حيث الحجم في عامها السادس أو السابع، أما الإناث فيكتمل نضجها في العام الخامس أو السادس. ووفقاً لما أوضحه عالم الحيوان الكندي بين هيوبرت فإن أوزان ثيران المسك تتراوح كثيراً فيما بينها، فالذكور تكون في حالة « تغذية إيجابية » – أي تزداد وزناً – خلال شهرين فقط العام، وهما شهرا يوليو وأغسطس، ولاحظ هيوبرت أيضاً أنها تكون في حالة ثبات وزني – أي لا يزيد وزنها ولا ينقص لفترة أربعة شهور – وفي الشهور الستة الأخرى من العام تفقد جزءاً من وزنها، ويكون ذلك عادة خلال الدورة النزوية في الخريف ومعظم الشتاء. أما الإناث فإنها تزداد وزناً على مدى خمسة شهور من العام، ثم تفقد جزءاً من وزنها في الشتاء وخلال فترة الولادة والرضاعة، علماً بأن الأمهات ترعى صغارها لمدة خمسة عشر شهراً تقريباً.

وأما قرون ثور المسك فهي حقاً فريدة في نوعها، وتوحي لنا بقرون الجاموس. لكن قرون ثور المسك تنحني للأسفل قريباً من الخدود، ثم تبرز للخارج وإلى الأعلى، وتنحني للوراء. أما قرون الأنثى فهي أقصر وأصغر حجماً، وتتضاءل بحدة عند طرفها، ولا ينمو القرنان معاً (كالخوذة). وعندما يسقط الضوء على قرون الحيوانات الأكبر سناً، فإنها تتحول إلى اللون البني الداكن. وعموماً يستمر نمو القرون ببطء طوال حياة الحيوان، ويكتمل نمو القرنين لدى الإناث في نحو أربع سنوات، أما في الذكور فإنه يكتمل في ست. ويستخدم الحيوان قرونه كأسلحة دفاعية يصوبها نحو أعدائه عندما يقتربون منه، ولكنها تستخدم كذلك في نبش الأرض لانتزاع النباتات منها.

وإضافة إلى ذلك، فإن الحيوانات تتباهى بقرونها فيما بينها، وتحاول استعراض قوتها، كما يستخدمها الذكور فيما قد ينشأ بينها من صراع خلال الدورة النزوية.

وأما العيون فهي كبيرة وجاحظة، وبهذا تسمح بالرؤية الجانبية، وتعد من أعظم عيون الحيوانات تكيفاً مع البيئة. ولكل من العينين شبكية مزدوجة تساعد في تكبير الصور في الظلام والضوء الخافت في الشتاء. وحدقة العين عبارة عن فتحة أفقية، يمكن أن تقفل نفسها كلية لمنع حدوث العمى الجليدي. (ولعل هذا ما أوحى للأسكيمو بتصميم نظاراتهم الجليدية التقليدية). ويضاف إلى ذلك أن حدقة العين بأنسجة تقي الشبكية من الوهج الآتي من السماء، والمنعكس على الثلوج والجليد المنتشر على الأرض.

وبالقياس إلى حجمه فإن ثور المسك يتمتع برشاقة غريبة، كما أن قوة رجليه تجنبه الكبوات، ويرجع ذلك أيضاً إلى شكل وتركيبة حوافره ذات الحواف المستديرة والحادة، والوسادات المقعرة. كما أن وسادة الكعب العريضة تمكن الحيوان من التحرك بسهولة على الصخور والأرض الصلبة والأسطح الجليدية بمختلف أنواعها. ويلاحظ أن الحوافر الأمامية أكبر من الحوافر الخلفية، ويستخدمها الحيوان في شق طريقه وسط الجليد الذي تقذف به الرياح، والثلوج المتشبثة بالأرض. ويستخدم ثور المسك ذقنه أيضاً للغرض ذاته.

ويبدو أن لثور المسك سرعتين في الحركة، فهو إما أن يمشي ببطء، أو يعدو سريعاً، وبوسعه أن يعدو لمسافة عدة أميال بالسرعة ذاتها، ولا يتعثر عند المنحدرات، الأمر الذي يشير إلى أسلافه القدامى التي كانت تتسلّق الجبال. وللثيران عادة غريبة فهي من حين لآخر تتوقف لتجلس على أفخاذها، وتبدو وكأنها في حالة تفكير عميق، كما تهوى الثيران البالغة التدحرج على ظهورها مركزة عيونها على السماء.

وعموماً تحتفظ ثيران المسك البالغة برباطة جأشها وبرودها، حتى عندما تمرح في وسطها الذئاب، أو عندما تتربص بها الثعالب القطبية الشمالية. وفي الصيف يطيب لها أن تلهو في الخيران والأنهار وتبدو سعيدة، إذ تحدث تموجات، وتقذف بالماء إلى أعلى. ولقد روى لي عالم آثار كان يعمل في جزيرة بانكس أنه قد شاهد قطيعاً من سبعة عشر إلى ثمانية عشر ثوراً ينزلق من أحد التلال وما إن وصلت الثيران إلى سفح التل، حتى انطلقت كالخيول تجري في الاتجاهات كافة.

ويلاحظ أن المياه الجارية ظاهرة صيفية قصيرة العمر؛ ولذا فإن الحيوانات تسعى لاستغلالها أحسن استغلال.

وتتميز ثيران المسك عن سائر الحيوانات المجترة بأنها شديدة الالتصاق بعضها ببعض. فحتى عندما تفر بعيداً عن خطر ما، فإنها تتحرك كتفاً بكتف، وجنباً إلى جنب. وإني لا أنسى ما حدث ذات يوم في شبه جزيرة سيوارد عندما تحرك قطيع من الثيران بشكل فوضوي، لما حلقت طائرة على ارتفاع منخفض فوقه، فقد تحرك القطيع وكأنه كتلة واحدة. ولقد اهتم الباحثون المتخصصون في ثيران المسك بهذه الظاهرة – ظاهرة السلوك المتزامن – التي تتضح كذلك من حقيقة أن القطيع الواحد يتغذى، ويستريح على وفق نظام دوري، وأن الدورة الواحدة تستغرق مائة وخمسين دقيقة سواء في الصيف أم في الشتاء.

وعندما يقترب خطر ما من ثيران المسك (بما في ذلك الحيوانات المفترسة، والإنسان وكلابه) فإنها تبدأ في الاقتراب من بعضها بعضاً، وأحياناً يتم ذلك بسرعة مدهشة. وعادة ما يكون استجابة لخوار مفاجئ ومميز صادر عما يبدو أنه زعيم القطيع، ويعرفه الأفراد لكونه آخر ما يستجيب وأول ما يسترخي في مثل هذه المواقف. ولمواجهة الخطر قد تنضم بعضها إلى بعض في صف واحد، ويكون «الزعيم» في الوسط ومتقدماً قليلاً عن الصف، ويكون مكان الثيران الصغرى على الأجناب، فإذا غيّر العدو المقترب اتجاهه، أو إذا كان هناك أكثر من عدو مقترب، فقد تلتف الثيران على شكل وردة، فخذاً لفخذ، وتكون العجول محشورة بين الثيران البالغة. إلا أن هذا الأسلوب الدفاعي ليس ثابتاً دائماً، وأحياناً لا تأخذ القطعان أي وضع دفاعي، وتؤثر الفرار. ولكن – ومن منظور التطور – فقد أثبتت هذه الطرق الدفاعية نجاحها، خاصة في مواجهة العدو الأول والأكبر لثيران المسك وهو الذئب، فالذكور والإناث تندفع من هذا التشكيل لتشن هجمات خطافية صغيرة، وتعمد إلى خفض رؤوسها، ولا تفلح الذئاب في التغلب عليها إلا إذا تمكنت من مهاجمتها من الخلف وفصل الحيوانات المدافعة – المهاجمة على هذا النحو عن بقية القطيع، أو إذا اندفعت من خلال ثغرة ما في القطيع فتخطف عجلاً، ويلاحظ أن الذئاب تتميز بالصبر والانتهازية، ولعل هذا هو سر بقاء نوعها عبر الزمن الطويل.

وتتبع فصائل أخرى من الحيوان هذا الأسلوب الدفاعي ذاته. وهذا ما يشجع على التفكير في

نشأته وأصله. ويذهب بعض الباحثين إلى أن ثيران المسك تفضل العيش في أراضٍ كثيرة التلال على العيش في السهول المفتوحة، ويستدلون على ذلك من حقيقة أنها عادة ما تهرول في اتجاه قمم أقرب التلال لها، قبل أن تتخذ تشكيلها الدفاعي. وعندما تجد الثيران المنفردة نفسها في مواجهة الذئاب، فإنها تحاول التراجع للاحتماء بأي كتلة جليدية قريبة، أو أي هيئات أرضية أخرى، أو تلقي بنفسها ببطء في مياه نهر سريع الجريان، وذلك لحماية مؤخرتها. أما في التشكيل الدفاعي الذي يشبه الوردة فإن كل حيوان يشكل حائطاً خلفياً وجانبياً للآخرين، وهذا يوحي بأن ثيران المسك في مرحلة ما من مراحل تطورها وتاريخها، كانت تعيش في أراضٍ مكشوفة، وفيها ومنها تعلمت كيف تتعاون من أجل الدفاع عن نفسها.

ويلاحظ أيضاً أن قطعان ثيران المسك تتغير حكماً وتشكيلاً على مدى العام. ففي الصيف تكون المجموعات صغيرة عادة، وتتألف من ثورين إلى عشرة، بينما يصل عدد الرؤوس في القطيع الواحد شتاء إلى ستين أو أكثر. وفي الصيف يزداد احتمال مشاهدة ثيران وحيدة (وغالباً ما تكون هذه ذكوراً)، وأيضاً مشاهدة قطعان وحيدة الجنس (ذكور فقط أو إناث فقط، وإن كانت الإناث عادة تصطحب معها العجول والصغار حديثة الولادة). فخلال الدورة النزوية يتضح وجود ثيران بالغة وسط القطيع، ولا يعني هذا استئثار ثور واحد بكل الإناث البالغة في القطيع. وإذا كان صحيحاً أن الثيران البالغة تتنافس بعنف خلال الدورة النزوية فإن العلماء لم يحددوا حتى الآن موقف الإناث، ولكن هناك ما يشير إلى أنها لا تقف متفرجة خلال ما يحدث بين الذكور(*).

ويمكن أن يظل تشكيل قطيع ما ثابتاً لعدة شهور، كما أنه قد يتغير من حين لآخر، وقد ينقسم القطيع الكبير إلى عدة قطعان، وهذه تنفصل عن بعضها تدريجياً، وقد يندمج قطيعان ليصبحا قطيعاً واحداً، وبعد يوم ينقسم هذا إلى ثلاثة قطعان. وهكذا يمكن القول بأن القطعان ليست منظمة تماماً، كما أنها ليست عديمة التنظيم كلية، فهي تجمعات متماسكة على مر الزمن. ويرى علماء البيولوجيا أن اختلاف تشكيل القطعان على هذا النحو يوفر للحيوانات مزايا عديدة من

(*) إذا حاولنا التعرف على سلوك القطعان ووضع قاعدة عامة له فسوف نواجه مشكلة كبيرة، وهي أن المعلومات المتوافرة متنوعة ومتباينة، فعلى الرغم مما ذهب إليه بعض العلماء والباحثين حول نسب أعمار الفئات في القطعان وتركيبها الجنسي فإن سلوك قطيع ما سوف يكون مختلفاً عن سلوك قطيع آخر في ظروف واحدة. ففي البيولوجيا الميدانية يحدث كثيراً أن يعجز الباحث عن تعرّف ما يفعله الحيوان بدقة. كما أنه يصعب تقدير أعداد القطعان بدقة تامة.

حيث الغذاء وتربية الصغار والمحافظة ذاتياً على النوع، ولكن العلماء لم يحددوا هذه المزايا تحديداً واضحاً حتى الآن.

وتوحي هذه التغييرات في تشكيل قطعان ثيران المسك، بأن لهذه الحيوانات «شخصية»، أفراداً ومجموعات. وبالنسبة للقطعان المختلطة يلاحظ أنها لا تتألف دائماً من إناث وصغار يقودها ذكور بالغة، إذا يمكن أن يكون للإناث البالغات بعض التأثير في حركة وسلوك القطيع. ويظهر قادة القطيع - كما أشرنا من قبل - عندما يقترب عدو ما، ولكنها تظهر كذلك كلما صادف القطيع عقبات، مثل نهر سريع التدفق عريض المجرى، أو منطقة شديدة الانحدار، أو كتل جليدية كبيرة تعوق الحركة. وفي كل تلك المواقف تتجلى معرفة الحيوان الفطرية «بشخصيات» الحيوانات الأخرى، كما تتجلى خبرته في التعامل مع أفراد مجموعته أو تجمعه، وتنعكس هذه المعرفة وتلك الخبرة فيما يصنعه الحيوان من تشكيلات دفاعية. والحيوانات التي تصاب بالذعر وتجري دون وعي عند اقتراب الخطر ،هي تلك التي لا يعرف بعضها بعضاً، الأمر الذي يترتب عليه تخلي الأمهات عن صغارها، أو انفصال الصغار عن أمهاتها. أما الحيوانات التي يعرف بعضها بعضاً جيداً فإنها تواجه الخطر بكفاءة ودقة، فترى الحيوانات البالغة تدفع الصغار المرتبكة والشاردة إلى داخل التشكيل حيث تتوافر لها الحماية.

وأحياناً ما نجد أنفسنا في حيرة من أمر هذه الحيوانات؛ لأننا نعتقد اعتقاداً راسخاً - وغير قابل للمناقشة - أن الحيوانات تتصرف غريزياً، وأنها تفتقر للدافع والقدرة على الاختراع والابتكار. ولكن يتعين علينا أن ندرس جيداً حالة ثور المسك وتطوره عبر الزمن، وعلينا أن نستنتج من هذه الحالة ما إذا كان هذا الحيوان ذكياً أو بليداً، وأن نبني استنتاجاتنا على مشاهداتنا لحركاته وتصرفاته، علماً بأن كثيراً منها كان سليماً.

والواقع أن مشاهدة ثيران المسك وهي في دورتها النزوية أمر يثير الدهشة والتأمل، فسلوك الثيران في هذا الأوان يتسم بالقلق وقدر من العنف. فهي تتناطح، وكأنما تستعرض قوة وجمال قرونها. وبطبيعة الحال فإن ذلك يحدث طوال العام، ولكنه يزداد بشكل ملحوظ خلال الدورة النزوية.

ولقد كان ديڤيد جراي، عالم البيولوجيا الكندي المتخصص في ثيران المسك، أول من لاحظ،

وسجل عن قرب سلوك هذه الحيوانات، على مدى عدة سنين في منطقة ممر الدب القطبي في جزيرة باتهرست. ولقد قدم جراي هذا وصفاً كاملاً لتناطح الثيران، وقد قسمه إلى فئات من حيث الشدة.

وأول هذه الفئات قيام ثور بإزاحة آخر سلبياً (دون صراع) من موقع للرعي. فعندما يقترب ثور يبتعد الآخر، هكذا بكل بساطة، ويتجه نحو ثالث ليزيحه من مكانه. وقد يرفع ثور رأسه ليراقب آخر كنوع من الإنذار، أو التهديد الخفيف. وقد يزداد التهديد جدية، فقد يخفض الثور رأسه ليحك إحدى غدتين (في شكل ثمرة الكمثرى) أسفل العين على باطن الرجل الأمامية (وهذه حركة تحتكرها ثيران المسك دون الحيوانات الأخرى، وتوحي بأن الثور يشحذ قرونه). ومن الحركات الدالة على زيادة التوتر نبش الأرض بأطراف القرنين، أو التصادم بالرؤوس حيث يتحرك كل ثور نحو الآخر بدون تركيز بصري، إلى أن يتمكن أحدهما من الالتفاف حول الآخر، أو يظلا في وضع متواز.

وأعنف تلك المواجهات التناطح الشديد بالرأس، وهذه تتفاوت في العنف، فقد تتشابك قرون ثورين معاً، ويظل كل منهما يدفع الآخر من دون عنف لعدة لحظات، أو قد يحدث احتكاك بين الأجزاء الأمامية للثورين مصحوب بضربات رأس قوية، وإذا فقد أحدهما اتزانه يصبح معرضاً لطعنات خطافية جانبية من قرون غريمه تصيبه بجروح. وعندما يشتبك ثوران بأي من هذه الطرق تصبح حركاتهما على نحو معين، فهما يختاران الأرض المنبسطة كميدان للنزول بينهما، ويبطآن الخطا، ويسبق النزال أرجحة الرأس من جانب لآخر، والتحفز من دون الاقتراب، كما لو كان الهواء الذي يفصل بينهما قد تمدد. وعادة ما يقف كل منهما على بعد يتراوح بين عشرين وثلاثين قدماً، ثم يبدأ الصراع الفعلي، وخلاله قد يضطر الحيوان للوقوف على رجليه الخلفيتين، أو قد يسقط على فخذه، ويحدث النزال بين الثورين صوتاً يشبه صوت تحطم الجليد.

وقد يتوقف النزال تماماً، أو يتوقف، ثم يستأنف بدرجة متزايدة من العنف. ومن شدة التوتر ينتصب شعر مقدمة الرأس (العرف)، وتتورم الرقبة، مما يجعل مقدمة الحيوان تبدو أكبر من حجمها الطبيعي. وإذا تصادف هبوب رياح في أثناء المعركة فإنها تزداد عنفا، وقد تؤدي إلى مصرع أحد الثورين أو كليهما.

وبالنسبة للتزاوج فهو مسألة أقل عنفاً. ومرة أخرى ينظر البشر نظرة خطأ أخرى للحيوان عندما يصورون ما يبدو وكأنه غَزَلٌ مقزز. فالذكور تتقرب من الإناث بشكل متكرر، وتبدو مجهدة من شدة الاهتياج والتذلل للإناث، حيث تقترب منها وتلامسها وتداعبها بأرجلها الأمامية وتشم فروجها. كذلك فإن الثيران تحرك رؤوسها يميناً ويساراً، حتى تمعن النظر في الإناث، وتخور بصوت متميز قبل أن يحدث الجماع. ولقد وصف ديفيد جراي هذا الخوار بأنه يشبه «زئير أسد إفريقي أسير».

ويحدث الجماع عندما تبقى الأنثى (التي تمت مغازلتها على النحو السابق) ثابتة، بما يعني أنها راغبة في الجماع، وهنا يقف الثور على رجليه الخلفيتين ويقفز عليها. ولا تستغرق هذه العملية سوى لحظة ويحدث التزاوج خلال الفترة من منتصف اغسطس حتى منتصف سبتمبر، وتولد العجول بعد فترة حمل تتراوح بين مائتين وأربعين، ومائتين وخمسين يوماً، اي خلال الفترة من منتصف إبريل حتى منتصف مايو. وكغالبية الأنواع المعرضة للافتراس تولد عجول ثور المسك ناضجة وقادرة على التوقف بعد ولادتها مباشرة، وسرعان ما تكون قادرة على الجري. وعلى الرغم من أن منتصف إبريل جزء من فصل الشتاء فإن العجول تنمو نمواً طبيعياً ما لم تتعرض للبلل، فهي تتمتع بنظام طبيعي للعزل الحراري، وتولد ومعها كمية كافية من الدهون المختزنة في أنسجتها تكفيها كمصدر للحرارة. وتقضي العجول الوليدة الجزء الأعظم من أيامها الأولى في الرضاعة والراحة، وتقوم الأمهات برعايتها وتحيطها بالحنان. وعندما يشتد البرد تحتمي العجول بأجسام أمهاتها الدافئة، وتلتف حول أرجلها بينما تعطي الأمهات ظهورها للريح.

وفي أثناء فترة الحمل والولادة تثبت القطعان في أماكنها، وقد يستمر ذلك لفترة شهر، وعموماً فإنها إذا تحركت لا تذهب بعيداً. ويلاحظ أن مراعيها الشتوية تبعد أميالاً قليلة عن مراعيها الصيفية، وفي الأولى تجد الحشائش التي تذروها الرياح، وفي الثانية تجد النباتات العصارية (المليئة بالعصارة). وتشير قلة التحركات الكبرى لثيران المسك إلى واحد من أبرز الجوانب البيئية في حياة ثيران المسك، فالمراعي التي تعيش عليها في المنطقة القطبية الشمالية القاسية قليلة نسبياً، ومبعثرة على نطاق واسع.

ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الدورة النزوية عند ثيران المسك قد تكون سبباً من أسباب

هجرة ذلك الحيوان، إذ قد يجبر ذكر واحد غيره من الذكور البالغين على الابتعاد عن المنطقة، وترحل هذه الثيران مصطحبة معها بعض الإناث، مشكلة قطيعاً منفصلاً. ومن بين النظريات التي طرحت لتوضيح قدرة القطعان الطريدة على تحديد وجهتها، أن بعض الثيران تنشق عن قطعانها، وتهيم على وجهها في مختلف الاتجاهات، وتمشي لمسافات بعيدة خلال فصل الصيف، وعندما تجد مراعي ملائمة دائمة الموارد، تعود إلى قطعانها الأصلية أو أخرى مجاورة لها. وعندما يحل الخريف تقود هذه القطعان عبر الأراضي ذات الخضرة الضئيلة والثلوج المتراكمة إلى المراعي التي سبق اكتشافها. فكيف عرفت هذه الثيران طريقها إلى المواقع التي اكتشفتها من قبل؟ معروف أن الحيوانات تفرز مواد كيماوية معينة تستطيع أنوفها التعرف عليها لاحقاً. ووفقاً لهذه النظرية فإن بول الثيران يحتوي على تلك المواد الكيماوية الحيوية، وتعمد هذه الحيوانات إلى التبول على الحشائش، والكتل العشبية النامية، والبقع المرتفعة عن الأرض، خاصة خلال دورتها النزوية. وإذا كان من الثابت بيولوجياً أن الحيوانات تستخدم هذه «الرسائل الكيمائية» في تحقيق التزاوج، فإنها على الأرجح كانت دليلها للوصول إلى مراعٍ جديدة. ولعله لهذا السبب أن المراعي لم تتعرض للزوال من جراء الرعي الجائر، لأن الحيوانات كانت تنتشر، ويجبر بعضها بعضاً على الانتشار.

والسؤال الذي يطرح نفسه استكمالاً لهذا الحديث هو: كيف تشق ثيران المسك طريقها في مراعيها الأصلية في الظلام ووسط الجليد، وكيف تميز المكان حولها؟ والرد على ذلك هو أن أحداً لم يتمكن من كشف هذا الغموض حتى الآن.

* * * * *

ومن خصائص ثيران المسك أن درجة حرارة أجسامها ثابتة عند مائة درجة واحدة فهرنهايت تقريباً، بغض النظر عن درجة حرارة الجو، وهذا أمر ملفت حقاً إذا أخذنا في الحسبان أن درجة الحرارة تثبت عند حوالي أربعين درجة فهرنهايت لفترات طويلة من السنة، الأمر الذي يدفع الدب القطبي، وحتى الثعلب القطبي، إلى الاحتماء. وتتولد الحرارة التي تعتمد عليها ثيران المسك بوساطة الأيض الطبيعي واحتراق الدهون المختزنة، وغير ذلك من العمليات الكيمائية الحيوية

المرتبطة بالتغذية. ومن ناحية أخرى، فإن جهازها الغطائي يشكل عازلاً ممتازاً، بحيث لا يتسرب من هذه الحرارة إلا القليل، ولعل هذا ما يفسر أن الجليد الذي يتساقط على ظهور الثيران في أثناء العواصف الثليجة لا يذوب.

ولدى علماء البيئة شبه يقين من أن حيوانات المنطقة القطبية الشمالية لا تزيد المعدل القاعدي للأيض حتى تصل درجة الحرارة إلى مستوى معين يختلف من حيوان لآخر، وإن كان في حدود خمسين درجة فهرنهايت (ويستثنى الطيور من ذلك). وبمعنى آخر فإن المناخ لا يجبر حيوانات المنطقة القطبية الشمالية على تناول كميات أكبر من الطعام. وهكذا يتضح أن دفاع الحيوان الأساسي ضد البرودة هو احتفاظ جسمه بحرارته، وليس زيادة إنتاجه من الحرارة. وفي عام 1847م طرح كارل بيرجمان نظرية مؤداها أنه طالما أن إنتاج الحرارة عملية ثلاثية البعد (فالحرارة تشع في كافة الاتجاهات)، وأن فقدان الحرارة ظاهرة ثنائية البعد (حيث تحدث على سطح الجلد فحسب) فإنه لشيء طبيعي ومعقول أن تكون الحيوانات التي تعيش في البيئات الباردة ذات أجسام ضخمة وتكون نسبة الكتلة فيها (إنتاج الحرارة) أعلى من نسبة السطح (فقدان الحرارة). ولقد عرفت هذه النظرية باسم «قاعدة بيرجمان»، وهي إلى حد ما فكرة قديمة ولا يُعْتَدُّ بها (إلى حد ما)، شأنها شأن مفهوم آخر طرحه آلين وعرفت هي الأخرى بقاعدة آلين، وتذهب إلى أن المخلوقات في البيئات الباردة تميل إلى التطور إلى الأقصر – آذان أقصر، وأطراف أقصر، وذيول أقصر، وأنوف أقصر. ولكل من القاعدتين أساس تجريبي راسخ على الرغم من كثير من الاستثناءات. ولكن الذي جعل العلماء اللاحقين يصرفون النظر عنها. أن هناك وسائل أخرى للتكيف الحراري أكثر فاعلية من تلك التي طرحها بيرجمان، وآلين. فالعزل الحراري الذي يوفره شعر الحيوان وفروته التحتية أحد مصادر الدفء في الجو الشديد البرودة. ولكل من ثيران المسك والثعالب القطبية شعر وفراء تحتي غير عادي. أما الدب القطبي فإن العازل ما تضمه أجسامها من دهون، كما أنها تلجأ إلى أوكارها عندما يصبح الطقس أشد من أن يحتمل. وتعمد حيوانات أخرى (خاصة الطيور) إلى تدفئة الدم البارد في عروقها، بجعله يسري خلال ملف من دم الشرايين الدافئ، قبل أن يصل إلى الجزء الرئيسي من الجسم. وبالمثل فإن الحيوانات تستخدم «التدفئة التفاضلية»، والتغييرات في قدرة أجهزتها العصبية على توصيل الكهرباء من أجل المحافظة على درجة حرارة أجسامها. فالثعلب

القطبي الشمالي -- على سبيل المثال – يمكنه أن يقلل درجة حرارة باطن أقدامه إلى نحو اثنتين وثلاثين درجة فهرنهايت. ولكن يلاحظ أن كلاً من هذه الآليات لا يكفي بمفرده، ولا تزال البحوث الفسيولوجية والكيميائية الحيوية مستمرة، لكشف ذلك الغموض الذي يكتنف قدرة حيوانات المناطق القطبية الشمالية على التكيف مع البرودة القارسة (ومن أمثلة ذلك كيفية التحكم في خروج الماء من أجسامها، وكيفية تعويض ما تفقده من الماء).

وعلى صعيد آخر فإن ثيران المسك وغيرها من الحيوانات تحافظ على الحرارة شتاء باتباع أسلوب اقتصادي في الحركة والنشاط. فعندما تشتد البرودة، وتتطلب أي حركة إحراق جزء من الدهون المختزنة والمحدودة، فإن الحيوانات تقف ساكنة لفترات طويلة، وهو ما أطلق عليه العلماء «البيات الشتوي وقوفاً». وعندما تضطر ثيران المسك للرحيل شتاءً، فإنها تتحرك في صف طولي واحد وراء الآخر، بحيث يستفيد كل حيوان من المسلك الذي حفره سابقه بإزاحة الثلوج. وعندما تهب عواصف ثلجية شديدة، فقد ترقد الحيوانات على الأرض لعدة أيام. ويروي أحد المستكشفين في جرينلاند ما حدث له ذات يوم، عندما حاول الاحتماء من عاصفة ثلجية شديدة، فآوى إلى ما اعتقد أنه رواب غطتها الثلوج، ولكنها لم تكن إلا ثيران المسك، هبت مذعورة عندما مشى عليها. ويذهب آلوين بيدرسون إلى أنه عند هبوب العواصف الأعنف تختار ثيران المسك منطقة مكشوفة ملاذاً لها؛ لأن الرياح تهب على مثل هذه المناطق من اتجاه واحد، وتحدث بها فلقاً ويكون زعيم القطيع في المقدمة بينما تتراجع العجول نحو المؤخرة. ولكن هناك من يشككون في حدوث ذلك، ومن بينهم ديفيد جراي، الذي يروي أنه شاهد ذات مرة قطيعاً من ثيران المسك في وقت هبوب عاصفة، وكانت الرياح في تقديره بسرعة أربع وعشرين عقدة، وكان الجليد يتناثر في كل الاتجاهات، وبلغت درجة الحرارة (-27) درجة فهرنهايت، كما بلغت درجة برودة الهواء المتحرك (-90) درجة فهرنهايت. ولكن الحيوانات واصلت الرعي أو ظلت راقدة معطية ظهورها وأجنابها للريح(*).

(*) معدل هطول الجليد بسيط في معظم أجزاء المنطقة القطبية الشمالية ويتراوح بين اربع وست بوصات، كما أن العواصف الثلجية الفعلية نادرة. وتهب عواصف ثلجية أرضية على المناطق الساحلية حيث توجد غالبية المستوطنات، وقد يستمر هبوب الرياح الشديدة وسقوط كرات الجليد الجاف التي تبقى على الأرض لعدة أيام.

ويذكر أن كِنْتْ جنجفورس، وهو عالم بيولوجي سويدي متخصص في ثيران المسك، قد أقام معسكراً عند مصب نهر سادليرو شيت في ألاسكا في فصل الشتاء في محاولة لتعرّف أسرار بقاء هذه الحيوانات على مر الزمن رغم قسوة البيئة. ولقد أشار هذا العالم إلى أيام كثيرة من البرد الرهيب والظلام الدامس كان خلالها يستطيع بالكاد القيام بما حدده لنفسه من مهام. وكانت الحيوانات تتحرك ببطء وسط أشجار الصفصاف، وكلها حذر من وجوده، وتابعها مستخدماً كشافاً ضوئياً وأمعن النظر حتى يتبين النباتات التي كانت تأكلها. واقترب منها بحذر وخوف، وخلص إلى القول بأنه لا يسع أي شخص حاول أن يعمل بفاعلية في طقس بلغت الحرارة فيه أربعين درجة فهرنهايت، وأن يصارع ظلام الشتاء لفترات طويلة، ويتحمل حدة الثلوج التي تقذف بها الرياح وهي في مثل حدة نصل السكين – أي شخص كهذا لا بد وأن يعجب ويعجب كيف يتحمّل أي مخلوق مثل هذه الظروف أسابيع تلو أسابيع، ناهيك عن أن يعيش في أمان وسكينة.

* * * * *

وبطبيعة الحال فإن الغذاء الذي تعيش عليه ثيران المسك، ومدى وتوقيت توافره يؤثر في قدرتها على البقاء تأثيراً بالغاً، وإن لم تُفَكُّ بعد شفرة أسراره كلها. ويلاحظ أن إيقاعها الأيضي على مدار السنة معقد بقدر تعقيد امتصاصها للعناصر الغذائية. ومع ذلك هناك بعض المؤشرات الدالة، ومنها أنها تصنع لنفسها فيتامين (ب) المركب في معدتها الأولى، وفي الشتاء تسحب فيتامين (أ) المختزن في الكبد. وخلال الشهور التي لا تسطع فيها الشمس فإنها تسحب من مخزونها من فيتامين (د) الذي تحتاج إليه لامتصاص الكالسيوم والفوسفور. ويستهلك كل ثور نحو عشرة أرطال من الحشائش والعلف يومياً، ويزداد المعدل في شهري يوليه وأغسطس حيث يقوم الحيوان بتخزين الدهون لفصل الشتاء. ولو تمكن علماء الحياة من تحديد النظام الغذائي الأمثل لثور المسك (المقدار والنوع والتوقيت)، ولو علموا على وجه اليقين كيف تستخدم الحيوانات النباتات المتوافرة لها في سنوات النمو وفي غير سنوات النمو؛ ولو تبينوا تفضيل الحيوانات لنباتات معينة على غيرها (مثل عشبة القمل ونبات الأوكسيتروب) ومغزى ذلك التفضيل، لو علموا هذا وذاك فإنهم يكونون قد اقتربوا كثيراً من الإجابة عن واحد من أكثر الأسئلة المحيرة حول ثيران المسك وهو: ما

هي المتغيرات التي يكون تكاثر ثور المسك استجابة لها؟ وثمة سؤال آخر يقتربون كثيراً أيضاً من الإجابة عنه وهو: كيف يمكن تحديد أماكن البيئة الممتازة لثيران المسك في مناطق لم تعد تلك الحيوانات تعيش فيها؟

وليس استعادة تجمعات ثيران المسك في جزيرة بانكس بواقعة منفصلة. ففي 1973 - 1974م هبت عاصفة مبكرة مصحوبة بالأمطار، وخلفت طبقة من الجليد، حالت دون حصول الثيران على الغذاء في أماكن كثيرة من أعالي المنطقة القطبية الشمالية، الأمر الذي ترتب عليه هلاك ثمانية وأربعين في المئة من القطعان في الأجزاء الشرقية من جزيرة ميلفيل، بما فيها غالبية الحيوانات التي كانت تعيش في المنطقة التي تعرف باسم شبه جزيرة دنداس، وحدث بعد ذلك بعدة سنوات أن اكتشف د. س. توماس (وهو من العاملين في هيئة الحياة البرية الكندية) أن قطعان ثيران المسك قد انتعشت، وازدهرت مرة أخرى في شبه جزيرة دنداس، وفسر ذلك بقدوم قطعان من الثيران من ملجأ قريب من المنطقة، وهو واحة قطبية شمالية في جزيرة ميلفيل تسمى بيلي بوينت. ولعل بيلي بوينت هذه أفضل بيئة لثيران المسك في أعالي المنطقة القطبية الشمالية.

فمعدل تراكم الجليد منخفض، ونادراً ما يتكون جليد أرضي، ويتمتع المكان بحماية ضد عواصف الشتاء. ويضاف إلى ذلك أن أراضيه المنخفضة ووديانه خصبة ومنتجة. ويوجد ثلاث مناطق مماثلة على أقل تقدير – في أعالي المنطقة القطبية الشمالية: خليج موركا الصغير على الساحل الشرقي لجزيرة آجزيل هيبرج، وشبه جزيرة فوشيم في الجزء الشمالي من جزيرة إلزمير، وفي ترولاف والأراضي المنخفضة المجاورة على الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة ديفون. ومن بين الأماكن المحتملة الأخرى وادي نهر تومسين، وبيري لاند على الساحل الشمالي لجرينلاند، وشبه جزيرة هوشسيتر على ساحلها الشرقي.

ولم تبدأ بعد أي بحوث لمقارنة الموارد الغذائية المتوفرة لثيران المسك في كل من هذه المناطق، أو لمقارنة ما بها بما هو متوافر في الأماكن التي توجد بها ثيران. وترى مورثا روباس، وهي عالمة أمريكية متخصصة في النبات، أن التغذية تلعب دوراً هاماً جداً في سرعة انتعاش تجمعات ثيران المسك في منطقة ما. ولقد ركزت بحوثها ودراساتها على منطقة ملفتة من حوض نهر سادليروشيت في المنطقة الشمالية الشرقية من الاسكا، وهي المنطقة ذاتها التي كانت موضوع

الدراسات العليا التي قام بها كنت جينجفورس. وكانت ثيران المسك التي تعيش على طول مجرى نهر سادليروشيت قد وصلت إلى تلك المنطقة في شهر يونية 1969م، بعد أن قامت هيئة الأسماك والحيوانات البرية في الولايات المتحدة بنقل واحد وخمسين ثوراً إلى جزيرة بارتر التي تقع على بعد أربعين ميلاً قبالة شاطئ الاسكا. ومنذ ذلك الوقت وثيران أخرى ترتع في مصارف نهر جاجو المجاورة، كما يوجد بعض من هذه الحيوانات أيضاً عند مصارف نهر كاننج، وهذه من سلالة الثيران التي نقلت لتلك المنطقة عام 1970م.

وقبل أن يبدأ جينجفورس دراسته حول قطيع ثيران المسك في سادليروشيت كان الاعتقاد السائد بالنسبة للنضج الجنسي لثيران المسك، هو أن الإناث تبدأ الولادة بعد عامها الرابع أو خلاله، وأنها تلد بنظام زمني معين، بحيث يفصل عام بين ولادة وأخرى، وأنها نادراً ما تلد توائم. ولكن جينجفورس قد لاحظ أن بعض الإناث تلد في العام الثاني من عمرها، وأن بعضها يلد سنة بعد أخرى. وكل هذا يعني أن تجمع ثيران المسك كان يتضخم بمعدل كبير جداً.

ومن الواضح أن مصارف نهر سادليرو شيت مكسوّة بخضرة كثيفة، ولكن العين الخبيرة هي التي تستطيع أن تحدد العلاقة بين وفرة النباتات وتنوعها والأعداد الكبيرة لثيران المسك.

ولنبدأ من قمة إحدى الروابي غربي النهر، حيث التربة جرداء في الغالب، وتنتشر الحُصي والركام الآتي من المنحدرات، وكرات الصقيع هنا وهناك، وقليل جداً من النباتات – حشيشة المبارك (وهي عشب من الفصيلة الوردية ذو زهر أبيض أو أرجواني أو أصفر)، وأشجار الصفصاف ذات الأوراق المجزعة وغيرها. وعندما يذوب الجليد في الربيع – أي خلال شهري مايو ويونية – يفيض النهر وتتسلق ثيران المسك قمة الرابية التي نحن عندها، وتبدأ في إطعام نفسها هنا وفي التندرة الجافة خلفنا، حيث تكثر الكتل العشبية وأشجار الصفصاف المورقة (والتي تشبه أوراقها أوراق أشجار الشاي)، وأشجار البتولا القزمة (شجر القضبان)، والحشيش القطني.

وعند سفح الرابية تجد مراعي تستمد حاجتها من المياه من تجمع جليدي مجاور. وفي الخلف في اتجاه النهر يوجد سهل مليء بأشجار البتولا القزمة، وأشجار التوت الجبلي، وشجر الصفصاف ذي الأوراق الماسية، والحشيش القطني. وبالقرب من خور صغير هناك نوع آخر من أشجار الصفصاف تفضله ثيران المسك، وتعرف باسم صفصاف ريتشاردسون. وهنا تتغذى ثيران المسك

حتى الإشباع.

وفيما وراء هذا السهل، يجري نهر سادليرو شيت نفسه، وعلى ضفتيه صنوف أشجار الصفصاف ذات الأوراق الزرقاء، وحقول من الحشائش، والبقوليات الغنية بالنيتروجين (مثل التُّرمُس)، والأعشاب التي تستخدم وقوداً. وبطبيعة الحال فإن ثيران المسك تجد ما يكفيها من الغذاء في تلك البيئة النباتية الوفيرة والمتنوعة. وتقبل هذه الحيوانات بنهم على أوراق أشجار الصفصاف، وهذه - وفقاً لما أكدته مورثا روباس - ذات قيمة غذائية عالية تمكن الثيران من المحافظة على توازنها الحراري لفترات طويلة، ويساعدها كذلك في المحافظة على معدل تكاثرها المرتفع.

وفي الأجزاء الأخرى من المنطقة القطبية الشمالية، والتي لا توجد فيها أشجار الصفصاف بالكثافة ذاتها، تعتمد ثيران المسك بدرجة أكبر على الحشائش والأعشاب. ولفترة طويلة من الزمن ساد اعتقاد بأن النظام الغذائي لثيران المسك نظام بسيط، ولكن ثبت بعد ذلك أنها تستهلك أنواعاً عديدة من النباتات ذات الزهور، والحشائش، والأعشاب، والطحالب، وأوراق وأغصان أشجار الصفصاف، والتوت الجبلي، والأراموس (ذيل الثعلب أو الذنيبة)، وشاي لابرادور. ويتنوع الغذاء بتنوع الموسم وأماكن وجوده، وأيضاً على وفق احتياجات الحيوانات وحاسة التذوق لديها.

وعادة ننظر للحيوانات في علاقاتها مع حيوانات أخرى في البيئة الواحدة من زاوية واحدة، هي الغذاء الذي يوفره كل نوع للآخر. إلا أن المراقبين الذين تابعوا ثيران المسك مشياً على الأقدام، وعلى اتساع التندرة عادة ما يتندرون بما لاحظوه حول علاقة هذه الثيران بالطيور. فالطائر (طويل المهماز) تستخدم صوف ثيران المسك في بناء أعشاشها على الأرض، وهذه وغيرها من الطيور مثل (الزقزاق)و(الكركر) تشاهد وهي تطير مذعورة ساخطة عندما تقترب الثيران من أعشاشها (الأرضية) مما يهدد بسحقها. وينتج عن دبيب أقدام الثيران في الشتاء نبش الأرض، بما يكشف عن موارد غذائية للأرانب الوحشية. كما أن الثيران عندما تأتي على أشجار الصفصاف، تسقط براعمها، وهذه غذاء لطيور الترمجان (دجاج الأصقاع الشمالية). وقد لوحظ كذلك أن الثعالب تجد متعة في مصاحبة ثيران المسك، وهذا أمر لم نجد له تفسيراً مقنعاً حتى الآن. ويضاف إلى ذلك أن حركة ثيران المسك تثير الحشرات، وتجعلها تخرج من جحورها لتجد الطيور في انتظارها. ومن ناحية أخرى فإن الحيوانات التي تعيش على بقايا غيرها تجد غذاء جيداً لها في جثث الثيران

النافقة، ومن بينها الحشرات التي تقوم بتفتيت لحوم هذه الثيران خلال فترة الصيف القصير، ومعروف أن الحشرات غذاء جيد للطيور.

ويوصف ثور المسك بأنه «عجوز»، عندما يصل عامه العشرين، وإن كان بعض الثيران يعيش أطول من ذلك، وعادة ما تكون هذه الثيران ضحية لبيئتها، فهي قد تقع فريسة لأعدائها من الحيوانات المفترسة، أو قد تغرق في مياه الأنهار، خاصة عندما يذوب الجليد في فصل الربيع. أو قد تموت جوعاً أو بسبب تعرضها لأحوال جوية بالغة السوء، أو تلقى حتفها بسبب كسر أعناقها عند السقوط من المنحدرات الشديدة، أو بسبب ما أصابها من جروح عميقة خلال الدورة النزوية، أو بسبب المضاعفات الناجمة عن كسور في قرونها. ويضاف إلى ذلك أن البعوض والذباب مصدر قلق وإزعاج لثيران المسك حيث إنها تغير على عيونها وآذانها.

وعموماً فإن ثيران المسك حيوانات هادئة، وإن ينبغ عدم الخلط بين الهدوء والخنوع، فلقد شاهد (جون تيل) ذات يوم ثوراً يقفز محاولاً الإمساك بحواف طائرة كانت تطير على ارتفاع منخفض. أما (مورثا روباس) فقد شاهدت ثوراً يطارد دباً رمادياً كان قد تعثر بالقرب منه. وتروي آن جَنّ كيف أنها ذات يوم وجدت نفسها في مواجهة مباشرة مع ثور هائج في جزيرة أمير ويلز، وكان ـ على ما يبدو ـ قد أصيب بجراح خلال معركة مع ثور آخر، وعلى الرغم من أنها كانت تحمل سلاحاً نارياً فقد أجبرها الثور على التراجع وظهرها تجاه النهر فحملت سلاحها وآلة التصوير والمذكرات إلى أعلى. وتذكر كم كانت برودة الماء والآلام التي تحملتها. إلى أن انصرف الثور بعيداً عنها. ولعل في هذه الروايات وغيرها ما يساعد الباحثين المتخصصين في ثيران المسك على التخلص من خرافات الماضي، واتباع طرق رحيمة في محاولتهم تعرّف سلوك وطباع مختلف الحيوانات. فقد حدث ذات مرة أن أراد أحد الرحالة تعرّف مدى مرونة قرون ثور المسك. فما كان منه إلا أن أطلق نيران بندقيته على رأس أحد الثيران، والغريب أنها كانت رصاصات من عيار 9,3 ملليمتر الخارقة للدروع!! وحدث أيضاً أن قام رحالة فضولي آخر بربط عجل لا يزيد عمره عن شهر واحد إلى زحافة جليدية، بعد أن أطلق نيرانه على الأم، وذلك من أجل أن يدرس «الأساليب الدفاعية الغريزية»، ثم قام بربط العجل بذئب ميت، ليرى كيف سيحاول تخليص نفسه!!! لقد عُدَّتْ مثل هذه التسلية السخيفة ضرباً من ضروب البحث العلمي. وللأسف فإن القواعد

الإحصائية الموثوق بها تشير إلى أن هذه الممارسات الغريبة مستمرة، وباسم العلم والبحث العلمي أيضاً.

وأسوأ الفترات في تاريخ ثيران المسك كانت خلال القرن التاسع عشر، عندما أبيدت تماماً في المنطقة الشرقية من شبه القارة القطبية على يد الأسكيمو والهنود (الحمر) من أجل توفير الغذاء لصيادي الحيتان الأمريكيين، ولأغراض التجارة والتبادل التجاري مع شركة خليج هدسون. كما تعرضت ثيران المسك لكوارث أخرى في أوائل القرن العشرين، عندما اعتاد الصيادون قتل قطعان بأكملها رمياً بالرصاص، من أجل أسر عجل أو اثنين لبيعها لحدائق الحيوانات، أو لتوفير الغذاء لصيادي الثعالب (من أجل فرائها)، والكلاب التي يستخدمونها في عملية الصيد في جرينلاند. ففي مطلع القرن العشرين عاش على طول الساحل الشمالي الشرقي لجرينلاند أعداد كبيرة من ثيران المسك (وربما كان عددها قرابة الفين، وتركزت في أماكن مثل هولد وذهوب، وشبه جزيرة هوشستتر، وجزيرة كلاڤارغ، وجزيرة چيمسون لاند. وكان صيادو الحيتان والفقمات الذين يعملون على طول تلك السواحل يعشقون صيد ثيران المسك بمجرد نزولهم إلى الشواطئ، للحصول على لحم طازج، وكانت طريقتهم في صيدها سهلة للغاية؛ حيث يطوقونها، ثم تقوم الكلاب بتثبيتها في أماكنها، وعندئذ يطلق الصيادون نيران بندقياتهم عليها فيقتلونها عن آخرها. وكما اعترف أحد العلماء المرافقين للصيادين فإنه «من الطبيعي بعد كل غزوة نقوم بها على هذا النحو، وبعد أن يتم ذبح الحيوانات كافة من أجل الحصول على الطعام، أن تمر عدة أعوام قبل أن ترتع الثيران في المنطقة ذاتها مرة أخرى».

وفي فترات لاحقة، تعرضت ثيران المسك لمجازر أخرى على يد صيادي الثعالب النرويجيين، وفي المناطق ذاتها. وكانوا يستخدمون لحومها طعماً لاستدراج الثعالب، وغذاء لكل من كلاب الزحافات، والحيوانات البرية التي كانوا يجمعونها لحساب حدائق الحيوان. وعلى هذا النحو قتلوا مئات من الثيران، الأمر الذي شكل تهديداً خطيراً لمستقبل ذلك الحيوان في المنطقة الشمالية الشرقية من جرينلاند. ومن جرّاء ما تعرض له النرويجيون من نقد حاد بسبب ممارساتهم هذه، بادروا إلى نفي مسؤوليتهم عنها، وزعموا أن الصياديين الدنمركيين (وكانوا قلة بينهم) هم المسؤولون بالدرجة الأولى، نظراً لأنهم كانوا يفتقرون لمهارة التزلج، الأمر الذي كان يضطرهم

للتحرك ببطء، ومن ثم فقد تعين عليهم قتل المزيد من الثيران ليقتاتوا بلحومها، حتى يعودوا أدراجهم إلى المعسكرات التي انطلقوا منها.

ثم ازداد الطين بلة عندما بدأت حدائق الحيوان تهتم بثيران المسك، فقد تبين الصيادون أن الوسيلة العملية الوحيدة لأسر عجل هي قتل الثيران البالغة في التشكيل الدفاعي. ولا بد أن عملية أسر آخر من يبقى على قيد الحياة من أفراد القطيع كانت من أقسى وأفظع ما صنعه الإنسان المتحضر. وفي تقدير إجنار ميكيلسون (وهو مؤرخ دنمركي يعمل مع عالمة أمريكية تدعى إليزابيث هون) فإنه لكي يتم أسر عجل واحد يقتل خلال العملية خمسة ثيران بالغة (1932م). أما زميلته هون فقد توصلت إلى أنه قد تم قتل ألفي ثور على هذا النحو خلال الفترة من 1899م حتى 1926م. وفي نهاية المطاف وقعت حدائق الحيوان اتفاقية وضعت حداً لتلك الأعمال، ومن ثم فإن صيادي الثعالب الذين كانوا وراء معظمها باتوا مجبرين على مغادرة تلك المناطق، خاصة بعد أن فرضت الدنمرك سيطرة وقائية على الساحل الشرقي لجرينلاند.

واليوم يعيش ثور المسك في ألاسكا. وعند وقت كتابة هذا الفصل من الكتاب كان عددها نحو ألف رأس، وهذه الثيران من نسل حيوانات تم نقلها إلى المناطق التي توجد بها وبنجاح تام. وفي كندا يوجد نحو أربعين ألف ثور على الحافة الشمالية للقارة وفي الأرخبيل الكندي، وفي شمال وشرق جرينلاند يوجد نحو ألف وخمسمائة رأس، حسب تقدير ب. س. لنت. ولكن من المؤكد أن هذه الأرقام يمكن أن تتغير على مدى الزمن، خاصة إذا تعرضت الحيوانات لعواصف ثلجية، أو تخريب أو عبث بملاجئها على يد الإنسان، وهذه كلها أخطار ليس لثيران المسك حماية ضدها.

ومرة أخرى هأنذا بالقرب من التلال المتآكلة جنوبي الموقع (Pj Ra-18) عند الأسكيمو النحاسيين، وقد تعلمت من رفاقي العلميين الجادين أهمية تدوين كل شيء في كل وقت. وتحت عنوان «البراءة» دونت ملاحظاتي حول قطيع مر من أمامي، وكان يتألف من سبعة ثيران بالغة، وثور في نحو عامه الثاني، وأربعة عجول، فقد شاهدت فيه ما لم أشهده قط في أي من مزارع ثيران المسك، فقد كانت على طبيعتها تماماً. وكلما أمعنت النظر فيها تبينت أنها جزء من المكان الذي تعيش فيه، لقد كان كل ما فيها رائعاً حقاً؛ لونها، وشعرها، وحركاتها، وباستخدام مصطلحات التطور، براءتها، فهي حقاً بريئة منا ومن مخططاتنا.

وبينما كنت ورفاقي على طريق العودة إلى الموقع (Pj Ra-18)، وجدت نفسي أفكر في الخطر المحدق بثيران المسك وغيرها من الحيوانات. فالصراع مستمر بين الصيادين وتلك الفئة من الثدييات الصامدة في المنطقة القطبية الشمالية.

وفي أحد الأيام، وبينما كنا نتناول طعام الغداء، دار حديث بيننا حول الأسكيمو النحاسيين، ولا زلت أذكر جيداً عبارة ذات مغزى، صدرت عن كبير علماء الأجناس في المجموعة، وهو كليف هيكي حيث قال: «عندما يواجه الإنسان خطراً، فإنه ينسى التنوع في الحضارات والثقافات البشرية». وبعد الغداء مشيت إلى أحد مصادر المياه لأغسل رأسي وأستريح قليلاً، ورأيت أمامي رأسين من حيوان الرنة ذات اللون الفضي – الرمادي يرعى على الجانب البعيد من النهر. كان الجو دافئاً، وكنت حافي القدمين، وعلى التلال من ورائي شاهدت بقعاً سوداء وأخرى بيضاء، فأما البقع السوداء فكانت ثيران المسك، وأما البقع البيضاء فكانت أرانب وحشية. وكان لصوت اندفاع الماء في مجرى النهر صدى في رأسي، كما كانت قطرات الماء تداعب صدري. وهنا تذكرت ما حدث ذات يوم، عندما سأل أحد افراد الأسكيمو (وكان يعمل معنا دليلاً) قسيساً فرنسياً عن الحياة الآخرة. قال الأسكيمو للقسيس: «لقد قلت فيما قلت إن الجنة رائعة. فهل هي أكثر روعة من تلك المنطقة التي تعيش فيها ثيران المسك صيفاً، عندما يحدث أحياناً أن يهب الضباب على البحيرات، ويكون الماء أزرق، ولا تكف طيور السامك عن الصياح؟ فإذا كانت الجنة أجمل وأروع من ذلك بالفعل فسوف أرضى بالعيش فيها حتى أصبح كهلاً».

وفي فترة الراحة بعد يوم من العمل، وفي ظل السكون التام في أمسيات الصيف، تكشف الدنيا عن مكوناتها، وعن قوتها وقدرتها على المحافظة على نفسها.

الفصل الثالث

تورنارسوك
الدب القطبي
(يوراسوس ماريتيموس)

كنا ثلاثة في قارب صغير مكشوف، على بعد ثلاثمائة ميل قبالة الساحل الشمالي الشرقي لالاسكا عند الحافة الجنوبية من المسطح الجليدي في بحر تشوكشي. وكان المنظر العام يوحي بلوحة عديمة اللون تقريباً. وكانت السماء مطبقة، وقد غلب عليها اللون الرمادي. ولم تكن هناك أمواج شديدة؛ لأنها كانت تتحطم على كتل الجليد الطافي فوق مياه البحر. وكان الضباب وزخات الجليد الرقيق تاتي وتروح في الهواء الساكن، وبدا سطح الماء وكأنه مطلي بورنيش أسود كالذي تطلى به الصناديق اليابانية التقليدية.

وكان الجو بارداً في ذلك اليوم من أيام شهر سبتمبر. وكنا (أنا واثنان من علماء البحار) نصيد الفقمات ذات الحلقات (عجول البحر). ولقد وجدنا في بطون هذه الفقمات الأسماك التي التهمتها، ومن قاع الشباك تعرفنا غذاء تلك الأسماك، ومن عينات العوالق تبين لنا العناصر الغذائية لما تتغذى عليه الأسماك(*).

كنا نقوم بدراسة استغرقت عدة أسابيع حول التسلسل الغذائي (الكائنات الحية التي يتغذى كبيرها على صغيرها على النحو الموضح آنفاً). وكنا نتحرك بقاربنا غرباً عبر الساحل الشمالي لالاسكا، من الطرف الغربي لجزر جونز إلى بونيت بارو. وفي بارو صعدنا إلى سفينة للبحوث يبلغ طولها ثلاثمائة قدم. وكانت تسمى «أوشيونوجرافر»، وعليها توجهنا إلى بحر تشوكشي. وفي كل صباح، وعلى مدى أسبوعين كنا ننزل بقاربنا للعمل في ثلوج البحر حتى المساء.

(*) كان هذا المشروع جزءاً من دراسة قام بها مكتب إدارة الاراضي / الرف القاري الخارجي / حول الحياة البحرية على ساحل الاسكا، وهي الدراسة التي ادت إلى توجيه عمليات استخراج النفط من البحار بحيث تكون الاضرار في اضيق الحدود.

ولمدة ثلاثة أيام متتالية، حاولنا صيد الفقمات، ولكن لم تكلل جهودنا بالنجاح. ولقد شاهدنا فقمة أو أخرى مرتين، ولم يستغرق ذلك سوى جزء من الثانية. وكنا نتحرك ببطء وتؤدة من دون أن يدور بيننا أي حديث، ومن حين لآخر كنا نستخدم نظارات الميدان لدراسة أي بقعة داكنة تظهر على سطح الماء، وأحياناً كانت تلك البقعة قطعة من الثلج، أو طائراً، أو حوتاً يحطم سطح الماء حتى يطل برأسه للتنفس. وليس من الصعب تعلم كيفية التمييز بين هذه الأشياء، خاصة بعد أن أمضينا عدة أيام في مراقبة حركة الحيتان والفقمات، ولكن الذي كان صعباً أن نتعلمه هو الانتظار في سكون تام، وتركيز الانتباه.

كنا ثلاث مجموعات من العيون الفاحصة، وكان لدينا دراية بالصيد، ومع ذلك لم نوفق حتى عندما انقشع الضباب، ثم سمعنا هدير الجليد. وفي المناطق التي اعتقدنا أنها تبشر بالخير، كنا نوقف محرك القارب، ونتركه ينساب مع التيارات. وعلى الرغم من بروز الجليد في أماكن متفرقة، فإن المسطحات الثلجية الشاسعة كانت تزيد إحساسنا بالفراغ، وبأن مفهوم الاتجاهات قد تبدد تماماً. وكانت كتل الجليد الطافية على الماء تبدو وكأنها قطع من الأرض، عشوائية وساكنة. وكانت البوصلة التي نحملها على استعداد لكي تلبي طلبنا، إذا ما كنا بحاجة لتحديد مواقع معينة على ذلك الأفق الذي خضع تماماً للجليد المنحدر والضباب المطبق.

وواصلنا تحركنا بالقارب اعتماداً على قوة التيارات، وما بين حين وآخر كنا نتناول المشروبات الساخنة، ونمعن النظر في هذا الجليد الذي اختلط لونه بين الأبيض والرمادي، والماء الذي بدا أسود، كأنه حبر. كانت الدلائل كلها تشير إلى وجود الفقمات؛ أعداد أسماك القد (وهي الغذاء المفضل للفقمات) في ذلك الوقت من السنة، ولكننا لم نر ولو فقمة واحدة.

كان الوقت أواخر الصيف، وبالتالي كان الهواء البارد الرطب يتسلل إلى أحذيتنا الكبيرة، والتي من المفروض أنها قد صنعت من مواد عازلة. كما كان يتسلل إلى عظامنا من خلال ملابسنا الصوفية. وفي عمل كالذي نحن بصدده، وفي موقف كالذي نواجهه، يشرد الذهن متطلعاً إلى قدر من الراحة. ثم أدرنا دفة القارب ببطء، وكانت هذه الاستدارة تعني نهاية اليوم، كما كانت تعني أشياء كثيرة أخرى: العودة إلى السفينة، الراحة والاسترخاء، تناول وجبة مسائية على مائدة ونحن في ثياب خفيفة، وفرصة لتجفيف ملابسنا. وهذه أمور يخفق لها قلب من تعود الحياة في

خيام بمعسكرات شاطئية.

وكان صديق بوب أول من شاهد الدب؛ لون رأسه أبيض عاجي ينزلق من ماء أسود زجاجي على بعد ثلاثمائة قدم، عند رأس مثلث ناقص ضلع (على شكل V) خلفته حركة إحدى السفن. وأبطأنا حركة القارب، واقتربنا بحذر إلى نحو ثلاثين قدماً، وبدا الدب واضحاً. وكما قال لي صديقي فإنه كان ذكراً، وقد قدر عمره بثلاثة أعوام، وهذا هو الصياد الأعظم للفقمات.

والتفت الدب في الماء ناظراً إلينا باستغراب وعدم ارتياح. ولما استبد به القلق – على ما يبدو – مشى بعيداً تجاه إحدى الكتل الجليدية الطافية، وبحركة واحدة تنم عن قوة ورشاقة معاً قفز من الماء إلى الثلوج، ثم تقدم للأمام عدة خطوات، وأخذ يهز رأسه عدة مرات، ثم عاد ليحملق فينا بعينيه الصغيرتين الداكنتين، ثم عبر الكتلة الجليدية الطافية، ومال على رجليه الأماميتين وانزلق إلى الماء على الجانب الآخر ثم سبح بعيداً.

ولقد تابعناه خلال الثلوج، وكأنما انجذبنا مغناطيسيا وراءه. كان وجودنا تطفلاً عليه. ولما اقتربنا منه ببطء التفت حول نفسه، ثم بدأ يحملق فينا بتركيز واضح، وظل يضرب الماء برجليه في توتر ملحوظ فاغراً فاه محدثا صوتاً يشبه فحيح الثعبان، فبدا لنا لسانه الرمادي، وفمه البنفسجي الباهت، وأسنانه البيضاء. وسرعان ما شق طريقه وسط الثلوج وبشكل مفاجئ متوجهاً صوب كتلة جليدية طافية ضخمة، ثم اندفع مرة أخرى من الماء وظل يهز فراءه ليخلصه من الماء، ثم مشى عبر الثلوج إلى المياه المفتوحة على الجانب الآخر.

وتركناه يذهب، وإن ظللنا نتابعه حتى اختفى تماماً عن أنظارنا. ولقد أطلق صيادو الحيتان على هذا الدب اسماً طريفاً هو «الفلاح»، وذلك لمظهره الزراعي وهو يرتع مرتاحاً عبر حقول الجليد المتجعدة. وبعد زيارة لتلك المنطقة ذاتها في عام 1899م وصف چون موير هذه الدببة بأنها «تتحرك كما لو كانت الأرض ملكاً لها دائماً».

والدب القطبي من المخلوقات التي تعيش عند حواف المنطقة القطبية الشمالية، وكأنه يصطاد هوامش الثلوج، وسطح الماء، والشاطئ القاري، ولهذا فقد سمي بالدب الجليدي أيضاً. ويتشكل عالمه تحته في الأيام التي يكون الضياء فيها قصيراً، ثم ينطلق في الربيع. ويغطس الدب القطبي إلى قاع المحيط بحثاً عن بلح البحر (نوع من الرخويات)، وعشب البحر (الغني باليود)، ثم يحطم

سطح الماء الزجاجي دونما ضجة في رحلة العودة إلى السطح، باحثاً عن فقمة ضالة أو نائمة. وقد يتوغل إلى مسافة عشرين ميلاً قبالة الشاطئ بحثاً عن الأسماك. ولعل هذا سر تسميته كذلك بدب البحار. وفي الشتاء وبينما الدب الرمادي في حالة البيات الشتوي، يخرج الدب القطبي إلى الثلوج من أجل الصيد. أما في الصيف فإنه يتوغل لمسافة تصل إلى مائة ميل في الداخل، حيث يتغذى على العنبة (نوع من العنب البري) والتوت الأسود.

وحتى أعوام قليلة مضت، كان هذا الصياد الماهر واسع الحيلة، يصنف في فئة تضمه بمفرده: الثالاركتوس. أما اليوم فقد أعاده العلماء من حيث أتى، حيث يضعونه في فئة الدب الرمادي نفسها: الأورسوس، فلهذه الفئة ينتمي، إن لم يكن على أساس نوعه فعلى أساس سلوكه.

ولعل الذي لفت نظرنا بشدة في ذلك الدب، الذي رأيناه في ذلك اليوم في تشوكشي هو رباطة جأشه. فهو على ما يبدو يقضي أول صيف في حياته وحيداً. ولكي يغذي نفسه كان عليه ان يتعلم الصيد، علماً بأن المساحات الجليدية الشاسعة والمكشوفة من أصعب البيئات، من حيث تعلم الصيد. وكنا في شهر سبتمبر، أي الوقت الذي تكون معظم الدببة فيه نحيفة، تنتظر تكون الجليد على البحار. فهذا هو مسرح عمليات الصيد بالنسبة لها. وخلال ثلاثة أيام من البحث الشاق المتواصل لم نشهد سوى فقمتين، وربما يرجع ذلك إلى أن الدب قد شد انتباهنا، فقد شاهدناه يتحرك عبر الثلوج وسط سهل يغلب عليه خليط من الرمادي والأبيض. كنا نرتعش قليلاً من البرودة، وكنا نحاول تدفئة أجسادنا باحتساء القهوة التي حملناها معنا في كظائم (ترامس)، ومرت علينا زخات من الجليد، وإن لم تدم هذه طويلاً. وبعد توقفها كان الدب الصغير قد غاب تماماً عن أنظارنا، ولم نستطع تحديد مكانه حتى باستخدام نظارات الميدان. ولم لا، أليس هو الصائد الماهر الذي يرتع في عقر داره؟ لكن المؤكد أنه قد وجد ضالته – الفقمات –.

ولقد كشف العلم أسرار الدب القطبي مؤخراً، وإن كانت بعض جوانب حياته تحتاج لمزيد من الدراسة والبحث، خاصة فيما يتعلق بحجمه وحركاته والتوزيع الجغرافي لتجمعاته. ولقد ازداد الاهتمام العلمي بهذا الحيوان بعد أن ازدادت المخاوف من تعرضه للانقراض

وكان الروس أول من دقّ ناقوس الخطر، فحظروا صيد الدب القطبي ابتداءً من عام 1956م، وفي عام 1961م قدّر سافا أوزبنسكي عدد الدببة القطبية في العالم كله بنحو خمسة آلاف. وإن كانت

في تقدير علماء الأحياء الأمريكيين ما بين سبعة عشر وتسعة عشر ألفاً. ولكن الحقيقة هي أنه لا يتوافر لأحد معلومات دقيقة يعتمد عليها في هذا الصدد، كما لا يتوافر لأحد التقنيات التي تمكن من تحديد أعداد هذا الحيوان تحديداً دقيقاً. وفي تلك الفترة كان الأمريكيون في الاسكا، والنرويجيون في سفالبارد(*) يكثفون عمليات صيد الدب القطبي، وحدث الشيء نفسه في كندا؛ ففي الاسكا وخلال حقبة الستينيات، بلغ معدل قتل الدب القطبي نحو ثلاثمائة دب في العام على أيدي السكان المحليين وهواة الصيد باستخدام الطائرات. أما في كندا فقد بلغ المعدل أربعمائة دب في العام، وفي جرينلاند مائتي دب، وأكثر من أربعمائة في سفالبارد على أيدي الصيادين التجاريين وهواة الصيد الأوروبيين. وهكذا فإن عدد ما كان يقتل من هذا الحيوان سنوياً بلغ ألفاً وثلاثمائة، أي ما يعادل خمسة وعشرين في المئة من إجمالي تجمعاته في تلك المناطق، إذا صحت تقديرات أوزبنسكي، علماً بأن الأعداد الفعلية أكبر كثيراً من الأعداد المفترضة.

ومن حسن الحظ أن أوزبنسكي هذا كان مخطئاً. ومع ذلك فقد تواترت الدلائل على الخطر الذي يتعرض له هذا الحيوان. وإزاء ذلك – مصحوباً بحقيقة عدم توفر الأسس العلمية لاتخاذ أي قرارات ولذلك قد عقد اجتماع دولي في فيربانكس في عام 1965م برعاية الولايات المتحدة لبحث هذا الموضوع، وتمخض الاجتماع عن اتفاقية دولية، للتعامل مع الدب القطبي تحت رعاية الاتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية. وبحلول عام 1968م تم تشكيل مجموعة متخصصة في شؤون الدب القطبي، بغرض تبادل المعلومات. وتنسيق برامج التعامل مع حيوان يتنقل بين عدة بلدان، ويحتل البحار العالية في ترحاله(**).

ولقد ترتب على البحوث التي قامت بها تلك المجموعة من علماء الأحياء المتخصصين في الدب القطبي ظهور معلومات جديدة (وبعضها كان مذهلاً)، ودحض بعض النظريات القديمة. فعلى

(*) الاسم الذي يطلقه النرويجيون على أرخبيل بالمنطقة القطبية الشمالية أكبر جزره سيتسبرجن، ويطلق أيضاً على الارخبيل بأكمله (في اللغة الإنجليزية).

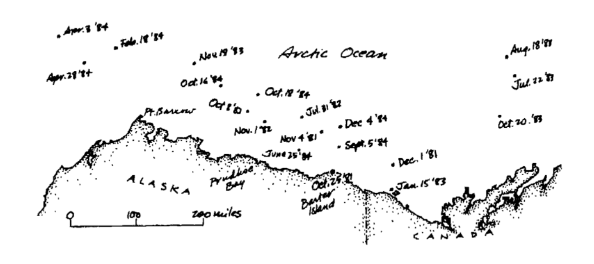
(**) في عام 1973 اعتمدت اتفاقية الدب القطبي التي صاغها الاتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية، ووقعت عليها روسيا والنرويج والدنمرك وكندا والولايات المتحدة، وأصبحت نافذة اعتباراً من السادس والعشرين من مايو عام 1976م، وهي الاتفاقية الوحيدة من نوعها بين الدول القطبية الخمس.

سبيل المثال فقد ساد اعتقاد في الماضي بأن الدب القطبي يتتبع – بشكل عام – حركة الجليد حول القطب، وهي حركة في اتجاه دوران عقارب الساعة، ويحدث الحمل في كندا (افتراضاً)، وتنتقل الحيوانات ومعها صغارها إلى المنطقة القطبية الروسية حيث تنمو هناك، ثم تنتقل مرة أخرى إلى سفالبارد وجرينلاند الشمالية في العام التالي حيث يتوفر الغذاء. وكانت هذه الفكرة أول الأفكار التي طرحت جانباً. صحيح أن الدب القطبي يرتع فوق ثلوج البحار ويتجول إلى مسافات بعيدة، لكن تجمعاته في المنطقة القطبية ذات وضع خاص ومتميز، فهي تبدي درجة عالية من الولاء للمناطق التي تعيش فيها شتاء، حيث تعيش على ما تصيده من الفقمات، وولاءً مماثلاً لمواطنها الصيفية حيث تتراجع إلى عرائنها التقليدية، مثل المناطق الواقعة على طول نهر أُولْ في مانيتوبا، ووادي بوجين في جزيرة كونجزويا في سفالبارد، وجبال دِرِمّ – هِدّ في جزيرة رانجل.

ومن بين هذه التجمعات يبدو أن واحداً ينتقل بين سفالبارد، وفرانز جوزيف لاند، والساحل الشرقي لجرينلاند، كما أن آخر يفضل البقاء حول الساحل الشمالي والشمالي الغربي لألاسكا، وثالث في المنطقة القطبية الكندية. وبطبيعة الحال هناك تجمعات أصغر لا يمكن تمييز مواطنها على هذا النحو. فعلى سبيل المثال؛ فإنه يبدو أن الدببة التي تعيش في المنطقة الجنوبية من خليج هدسون، وفي خليج جيمس تشكل تجمعاً مستقلاً، فهي أيضاً ذات نظام غذائي صيفي فريد، وعادات عرينية مختلفة عن عادات الدببة الأخرى، وديناميكيات تجمعية مختلفة، حيث تتكاثر بمعدلات أكبر، وتنمو صغارها أسرع، لتشق طريقها إلى الحياة المستقلة في وقت أقصر. وعموماً فإن الدب القطبي حيوان يحب العزلة ويتميز بالعداونية، خاصة إذا ما قورن بالدب الرمادي. وفي عام 1868م كتب الرحالة الإنجليزي روبرت براون رداً على الروايات الشائعة حول الدب القطبي، كتب يقول: «وإنني أفضل أن أصادف دباً قطبياً على الدب الرمادي، فالواقع أننا قد توارثنا انطباعات غير صحيحة عن ذلك الحيوان (الدب القطبي) ووحشتيه، وهي انطباعات بنيت على ما ينبغي أن يكون، وليس على ما هو كائن بالفعل».

وتتباين الدببة القطبية في الحجم، وتتغير أوزانها بشكل ملحوظ خلال العام الواحد. وقد يصل طول أكبرها إلى اثني عشر قدماً وهي واقفة، كما يصل الوزن إلى حوالي ألفي رطل. ولكن التقارير المتوفرة عن أعداد الدببة القطبية التي ترتفع عن الأرض بمقدار اثنى عشر إلى ثلاثة عشر قدماً،

والتي يتراوح وزنها بين (2,200)، (2,400) رطلاً تنطوي على مبالغة واضحة وموازين ومقاييس غير دقيقة. فالدببة تأكل بشراهة في فصل الربيع، ويقل مقدار ما تتناوله من غذاء في الصيف، وقد لا تأكل شيئاً في الشتاء (خاصة حين تلتزم عرائنها). وقد يتراوح وزن الذكر البالغ بين (550)، (1700) رطل، وطوله بين خمس وسبعين، ومائة بوصة من طرف الأنف إلى طرف الذيل. أما الأنثى فيتراوح وزنها بين (350)، (750) رطلاً، وطولها بين سبعين، وخمس وسبعين بوصة.



تجمعات الدب القطبي قبالة الساحل الشمالي لألاسكا في الفترة ما بين الخامس والعشرين من أكتوبر 1981م حتى الرابع من ديسمبر 1984م، والخريطة تقوم على أساس بيانات لم تنشر ومنسوبة إلى س. س. آمستروب، من هيئة الأسماك والحياة البرية في الولايات المتحدة / أنكوراج - الاسكا.

وإلى جانب كونها أصغر حجماً وأقل وزناً فإن لأنثى الدب القطبي جمجمة أضيق وأرجل أمامية أقصر. وتتميز الذكور البالغة حديثاً بان لها أرجلاً أطول من أرجل الإناث البالغة حديثاً، كما أنها أكثر جرأة وحركة. ولقد أفاد بعض الباحثين - الذين أمضوا وقتاً أطول في مراقبة الدب القطبي - بأن للإناث شعراً أطول على ظهورها، بينما للذكور شعر أطول عند مؤخرة أرجلها الأمامية. ويلاحظ أن شعر الحيوانات الكبريات سناً يكون ناعماً عادة. ويملك الأسكيمو مهارة في التمييز بين آثار أقدام كل من الذكور والإناث، ليس على أساس الحجم والوزن فحسب، ولكن لأن الشعر

الأطول يترك علامات خفيفة حول أقدام الذكور، ولأن وقع أقدام الإناث على الأرض يكون أخف قليلاً، وقد يصل طول مخلب الذكر إلى ثلاث عشرة بوصة، وعرضه إلى تسع بوصات.

ويمشي الدب القطبي منفرداً، وعندما يكون قريباً ممن يقوم بمراقبته تبدو أرجله الأمامية وكأنها تتأرجح، كما تبدو المخالب وكأنها تنطوي في اتجاه الجسم لتكون كالمجاذيف. كما تبدو الأقدام الخلفية وكأنها تركل الأقدام الأمامية إلى الأمام. ومن عند المؤخرة يبدو الدب وكأن أرجله مقوسة، وهي سمة تكون أكثر وضوحاً عند الذكور الناضجة. وتبدو الأرجل الأمامية أطول مما هي عليه فعلاً نظراً لضآلة الصدر، ولأن الشق بين الرجلين يمتد إلى الرقبة. والواقع أن الأرجل الخلفية أطول. وإذا نظرنا إلى الدب القطبي من ناحية الرأس نجد أن أوراكه تبرز وتتصل بأكتافه. أما بالنظر إليه من الجانب، أو من أعلى، أو من المقدمة، فإنه يبدو على هيئة إسفين، الأمر الذي يؤكد الحركات الملتوية لرقبة الدب الطويلة.

ويمشي الدب بسرعة حوالي ميلين ونصف الميل في الساعة. وعندما يهرول فإنه يحرك أيامنه وأياسره في وقت واحد تقريباً. وعندما يطارد فقمة يعدو لمسافات قصيرة وبسرعة تقترب من خمسة وعشرين ميلاً في الساعة. وعموماً، وأياً كانت المسافات تميل الإناث والأشبال إلى التقدم على الذكور.

وتتحرك الدببة برشاقة ومرونة، وتبدو وكأنها تطفو على الموانع المنحدرة والمتجعدة مثل سلاسل ثلوج البحار. ويضاف إلى ذلك أنها تتمتع بالقوة والمهارة. فالدب الذي يفترس حيواناً صغيراً بمخلب واحد يمكنه أن يضرب حوتاً بإحدى رجليه الأماميتين ضربة تفقده الوعي. والدب الذي لديه من الرشاقة والسرعة ما يمكنه من خطف حيوان اللاموس من وسط الحشائش، يمكنه أيضاً أن يطيح في الهواء بحوت يزن أربعمائة رطل.

وإذا كنا نرى فراء الدب القطبي عاجي اللون أو رمادياً فاتحاً، فإن ذلك يرجع إلى انعكاس ضوء الشمس على شعره (وهي الظاهرة ذاتها التي تجعل السحب تبدو بيضاء)، لكن الشعر ذاته شفاف أو عديم اللون. ويكون اللون الأبيض في أبهى درجاته خلال فترة طرح الإهاب في فصل الربيع، ويزداد البياض بهاءً عند الأشبال. ونتيجة لتعرض الشعر لضوء الشمس فإنه يتخذ ألواناً غريبة، إذ تظهر بقع تميل إلى الصفرة على أوراك الدب وعلى طول أجنابه وأسفل رجليه، وعادة ما يتراوح

هذه الصفرة بين الليموني الباهت، والمشمشي، والبرتقالي والأبيض القشي، وتزداد هذه البقع داكنة كل عام كلما ازداد عمر الحيوان. وفي ضوء الشمس في فترة ما بعد الظهيرة في أيام الخريف يوحي لون فراء الذكور الأكبر سناً بالسنابل الذهبية للقمح الناضج.

والواقع أنه ليس لفراء الدب القطبي مثيل بين الحيوانات الثديية الأخرى. ومن الأسرار المبكرة التي اكتنفت هذا الفراء أنه عازل ضعيف للحرارة نسبياً بالمقارنة بشعر الذئب أو الرنة. وعلى عكس فراء السمور (القندس) والذي يحتفظ بطبقة من الهواء بين الجلد والماء، فإن فراء الدب القطبي يفقد تسعين في المئة من قدرته على العزل الحراري عندما يكون الحيوان في الماء.

ولقد تبين للعلماء مؤخراً أن الدب القطبي يعتمد على طبقة من الدهون للمحافظة على دفئها وهي في الماء (وهذه توصل الحرارة بعيداً عن الجسم بمعدل يزيد عشرين مرة عن الهواء الساكن). وعلى الأرض يكون مصدر الحماية للدب طبقة سميكة تحتية من الصوف الكثيف، وطبقة مفتوحة نسبياً من الشعر الذي يبلغ طوله قرابة ست بوصات. وهذا الشعر جامد ولامع بدرجة تجعله يبدو وكأنه شعر صناعي، كما أن هذا الشعر اجوف، الأمر الذي يجعل فراء الدب مستقيماً ولا يتجعد عند الابتلال. وبالمثل فإن نعومة شعر الدب وما بينها من مسافات يمكن الحيوان من نفض الماء عن جسمه قبل أن يتجمد عليه. ومن الآليات الحمائية الأخرى أن الدب القطبي يتمرغ في الجليد، وهذا يساعده على تجفيف جسمه وامتصاص الرطوبة (وبوسع البشر الذي يسقطون على الجليد عَرَضاً أن يفعلوا الشيء ذاته).

وثمة وظيفة ثانية للشعر المسترسل للدب، وهذه - وقد اكتشفت بالمصادفة - تساعدنا في فهم قدرة الحيوان على الاحتفاظ بدفئه على الأرض. والواقع أن الدب الأبيض لا يظهر على هيئته الأصلية عند تصويره من الجو وهو وسط الثلوج البيضاء. وفي حقبة الستينيات طرح عالم أمريكي نظرية مؤداها أن الحيوان الثديي يشع حرارة أكبر من تلك التي تشع من الثلوج، ومن ثم فقد حاول تصوير الدب القطبي باستخدام تقنية الأشعة تحت الحمراء. لكن الدب لم يظهر في الفيلم، فهو يتمتع بدرجة عالية من العزل الحراري، وكانت البقعة السوداء الوحيدة التي سجلها الفيلم هي آثار أقدام الدب، فهذه كانت دافئة لعدة ثوانٍ بعد مرور الحيوان. ومن المعروف أن الدب القطبي يتخلص من الحرارة الزائدة في جسمه عن طريق مخالبه وراحة أقدامه. ولهذا الفشل حاول العالم

الأمريكي مرة أخرى باستخدام تقنية الأفلام الحساسة للأشعة فوق البنفسجية، إلا أن الدب يمتص الضوء على تلك الموجات ذاتها. وفي النهاية ظهر باللون الأسود على الثلج الأبيض، وهذا أدى إلى اكتشاف ثانٍ: إن شعر الدب القطبي يشبه الأنابيب الضوئية، فهي تمرر الطاقة الموجودة في الموجات القصيرة من الشمس إلى الجلد الأسود للدب حيث تقوم بدور – لم يفهم فهماً تاماً حتى الآن – في النظام المعقد لتنظيم الحرارة في جسم الدب(*).

* * * * *

ويبدو أن الدب القطبي قد جاء إلى المنطقة القطبية الشمالية حديثاً جداً نسبياً، قريباً من منتصف الدهر الحديث الأقرب. وتذهب النظرية السائدة في هذا الصدد إلى أن تجمعاً من الدببة بنية اللون وجد نفسه منعزلاً في سيبيريا، ثم سرعان ما تطور ليصبح الدب القطبي. ولكن النظرية – على هذا النحو – توحي بأن التطور كان سريعاً بشكل مذهل. ويلاحظ أن الدب القطبي «المعاصر» يتباين في حجمه من تجمع لآخر، وداخل التجمع الواحد، فهي تزداد في الحجم قليلاً كلما اتجهنا غرباً بداية من الشاطئ الشرقي لجرينلاند، ويصل إلى أكبر حجم في بيرنج / منطقة بحر تشوكشي. ومن ناحية أخرى فإن المسافة الجينية (الوراثية) بين الدب القطبي والدب البني ليست كبيرة بالدرجة التي تمنع التزاوج بينهما وإنجاب صغار تتمتع بالخصوبة والقدرة على الإنجاب. ومن ناحية أخرى فإن دماء هذين النوعين من الدببة متشابهة كيميائياً. ومع ذلك فهما حيوانان مختلفان تماماً.

(*) تشير الخبرة المستمدة من التعامل مع الدب القطبي في حدائق الحيوان إلى أن لون هذا الحيوان وحجمه أمران ينطويان على تضليل، وأن الشعر الأجوف لهذا الحيوان يلعب دوراً غريباً في عملية التضليل هذه. فالطحالب ذات الخضرة المائلة للأزرق والتي تنمو في البرك المعدة للدب القطبي في حدائق الحيوان تنتقل لتعيش في ثنايا الشعر، الأمر الذي يجعله يبدو أخضر اللون. كما أن عمليات التنظيف في حدائق الحيوانات والسيرك تزيل كثيراً من بهاء الفراء. ويزداد الأمر سوءاً في حالة وضع الدب القطبي في مناخ لا يمكنه من إنتاج الطبقة الدهنية.

فالدب البني، شأنه شأن الدب الرمادي مخلوقات أرضية، وتعيش بدرجة كبيرة على المواد النباتية، وتدرك طبيعة المناطق التي تعيش فيها إدراكاً يكفي لتحقيق الدفاع عن نفسها. أما الدب القطبي فغذاؤه الأساسي اللحوم، ويكاد يعيش عليها وحدها، كما أنه حيوان يتجول على الثلوج. ويتضح الفرق في غذاء كل من النوعين من فحص أسنانهما، فأسنان الدب القطبي تقول إنه حيوان مفترس ويتغذى على اللحوم، فأنيابه طويلة، وضروسه أصغر، وقواطعه خطافية، وكل هذه يمكن الدب القطبي (الأبيض) من الإمساك باللحوم وتقطيعها كما لو كانت هذه الأسنان مقصاً. ويضاف إلى ذلك أن لدى الدب القطبي أسناناً أخرى ليس لها وظيفة محددة. أما أنياب الدب البني فهي أقصر، كما أن ضروسه وطواحنه أعرض وهذه تمكنه من طحن النباتات.

ولقد امتد التغيير الذي صنعه التطور إلى الشكل العام للجسم، فبينما نجد الدب البني عريض الكتفين وذا وجه مطبوق، فإن للدب القطبي أكتافاً ضيقة وأنفاً رومانياً (أعقف قليلاً)، ورقبة أطول، ورأساً أصغر، كما أنه أطول من الدب البني، وإن كان أقل غلظة عند الصدر وبنية أخف بصفة عامة. وبالنسبة للأقدام فإنها أكبر عند الدب القطبي ومغطاة بفراء كثيف عند بطونها، وأصابعها مكففة (ذات وترات)، كما أن مخالبها ذات اللون البني الداكن أكثر حدة وأصغر من مخالب الدب البني. ويضاف إلى ذلك أن الدب القطبي يفتقر لذلك السنام الذي يوجد على ظهر الدب البني، وكذا إلى وجهه المعبر وشفتيه القابضيتن واللتين تناسبان عملية نزع الثمار من أشجارها القصيرة.

والشيء الملفت – مرة أخرى – أن هذين النوعين من الدببة قد أصبحا مختلفين هكذا في وقت قصير نسبياً. ونحن نسمي كلاً منهما «دباً»، ولكن عندما تشاهد دباً قطبياً يخرج بهدوء تام إلى السطح في ممر جليدي، ويركز عينيه الصغيرتين على فقمة نائمة، ثم يأخذ نفساً عميقاً دون أدنى صوت، ثم يغطس في الماء دون أن يحدث تموجاً فسوف تتعجب للإهمال واللامبالاة التي نسمي بها الأشياء.

* * * * *

وعندما شرعت الدول الخمس المعنية بالدب القطبي في تنفيذ برنامج الاتحاد الدولي، للمحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية والخاص بإجراء بحوث مشتركة، اتجهت كل دولة في اتجاه معين، وذلك بالاتفاق مع الأخرى. فالأمريكيون والنرويجيون ركزوا على أساليب مراقبة الدببة، ثم بعد ذلك إعادة توزيعها. كذلك عكف الأمريكيون على إنتاج تقنية للمراقبة والمتابعة الإلكترونية. أما الكنديون فقد ركزوا جهودهم على سلوك الصيد، وعلاقة الدب بالحيوان الذي يشكل المصدر الأساسي لغذائه وهو الفقمة. وأما النرويجيون فقد ركزوا جهودهم على فسيولوجية الدب، وذلك بمساعدة من الكنديين. وكان هذا العمل يتم في مختبر في تشرشل، مانيتوبا، وقام به نيلز أوريتسلاند على دببة حية كان قد تم أسرها من التجمعات التي تعيش في المنطقة الجنوبية من خليج هدسون.

وبالفعل توصل أوريتسلاند إلى حقائق مدهشة، فقد اكتشف أنه نظراً لأن الدب يقفز من الماء وإليه بانتظام فإنه يواجه مشاكل التبريد والتدفئة، ثم تبين له أن الأيض القاعدي للدب كان كافيا لتدفئته طوال السنة تحت ظروف مختلفة، كما أن إهابه الشتوي يوفر له حماية كافية تحت درجات حرارة تصل إلى (-40) درجة فهرنهايت، ورياح سرعتها خمسة عشر ميلاً في الساعة. (ويراعى أن النتائج التي تخرج من المختبرات تنطوي دائماً على مشاكل، نظراً لأنها تبالغ في التبسيط. أما في الطبيعة فإن الدب يميل إلى الرقود في اتجاه الريح للاحتماء بالركام المجروف والسلاسل الجليدية، أو تقوم بحفر عرائن في جو تصل الحرارة فيه إلى ما بين (-15)، (-20) درجة فهرنهايت، ورياح تبلغ سرعتها خمسة عشر ميلاً في الساعة).

ولقد وجد أوريتسلاند أن «مشكلة» الدب الوحيدة هي التخلص من الحرارة التي تنتج عن تشغيل العضلات، ووجد أن الدب يفعل ذلك بزيادة تدفق الدم لبواطن أقدامه ومخالبه، وإلى أنفه ورجليه (وهي الأجزاء المتدنية للعزل الحراري)، وأيضاً – وهذا هو الشيء الملفت حقاً – إلى طبقتين فريدتين من العضلات الرقيقة تقع بين ظهر الدب خلف لوحي الكتف، وبين الجلد وطبقة من الدهون. ويقوم الدم المحول لكل من هذه الأجزاء إما بإشعاع الحرارة إلى الجو، أو بتلامس مع الدم المبرد بنظام التبادل الحراري أو التيار المعاكس. وعندما ارتفعت درجة الحرارة بجسم الدب في تجارب أوريتسلاند وبلغت حدا أعلى من (101,6) درجة فهرنهايت، ازداد معدل ضربات قلب

الدب، وارتفع النبض من (45) نبضة في الدقيقة إلى نحو (148)، وتحول الدب من نمط للتنفس المنتظم إلى تنفس سريع ضعيف (لهث) بما يدخل هواءً بارداً إلى رئتيه. ومن ناحية أخرى فإن الدب لا يزداد حرارة في أثناء السباحة، ولذا فإنه يقفز إلى الماء لتبريد جسمه، كما أنه يأكل الجليد، وهذا عامل مبرد آخر. وطبقة الدهون هي التي تجعل الدب القطبي قادراً على رفع درجة حرارة جسمه بسهولة، وهي كثيفة جداً عند الجزء الخارجي من أرجله الخلفية، وعند الأفخاذ، وأسفل الظهر حيث يصل سمكها في هذه الأجزاء إلى نحو (4,3) بوصة. وتوجد كميات على الجزء الأعلى من الجسم، والأرجل الأمامية، والرقبة. ويعتمد الدب القطبي على دهونه لكي يظل دافئاً، خاصة عندما يكون في الماء، كما أنها أحد مصادر التغذية، فالأنثى تعيش كلية على مخزونها من الدهون طوال فترة البيات الشتوي، وعند الولادة ورعاية الصغار. وينطبق الشيء ذاته على الدببة التي تقبع في عرائن مؤقتة انتظاراً لتبدد العواصف، أو لتكون الجليد البحري في موسم الخريف. والحمية (نظام خاص للأكل) على هذا النحو تجعل إناث الدب في المنطقة الجنوبية من خليج هدسون تخرج إلى الشاطئ بعد البقاء فترة طويلة في عرائنها وقد بلغ وزن كل منها نحو (750) رطلاً في أوائل شهر اغسطس، وعندما يحدث الشيء ذاته في شهر إبريل يكون وزن كل منها نحو (350) رطلاً فقط. وبالمثل فإن الذكور التي تخرج إلى الشاطئ في الصيف قد تفقد ثلاثين في المئة من وزنها أو أكثر خلال الشهور الثلاثة التي تمر قبل أن يتكون الثلج، وعندها تكون قادرة على الصيد مرة أخرى.

وخلال فصل الصيف، وبصفة خاصة على تندرة ساحل خليج هدسون، تحفر الدببة جحوراً تنام فيها احتماء من ضوء الشمس المباشر، وقد يصل عمق هذه الجحور حتى موضع الصقيع الدائم، وذلك حتى تبرد أجسامها. وعندما تحاول النوم في الجو الدافئ فإنها غالباً ما تتدحرج على ظهورها حتى تعرض بطونها وأقدامها. أما في الجو البادر فإنها تطوق بطونها بأرجلها، وتدفن رؤوسها في صدورها، وبهذا تتمكن من استنشاق هواء دافئ، حيث تستقبل الرياح بظهورها.

والواقع أن ما اكتشفه أوريتسلاند من خلال تجاربه ينطوي على جاذبية خاصة؛ لأنه قد بسط الأمور ووفر أعداداً. ومع ذلك فإن مراقبة الدب القطبي في البرية يجعلنا نعجب لمدى التصعيد في فسيولوجية (نظام وظائف اعضائه) وسلوكه. فهو يسعى لحماية نفسه، أو يسعى لتعريض جسمه،

وينام ويرحل، ويصطاد أنواعاً معينة من الطعام، ويتزاوج، ويبيت بياتاً شتوياً، وهذا التفاعل بين الراحة وبذل الجهد والتغذية شيء لا يمكن تفتيته إلى أجزاء، فهو كالحركة الرشيقة التي يقوم بها هواة التزحلق على الجليد، كل متكامل وتعبير عن الحياة، وما أجمل ممارسة الحياة بشكل كامل متكامل!!

وقد يمتد عمر الدب القطبي إلى نحو ثلاثين عاماً، خاصة إذا ما كان «ناجحاً»، بمعنى أنه قادر على التكيف الواعي مع ما قد يستجد على حياته وبيئته من ظروف، وعلى أن يتصرف بالشكل السليم في الوقت السليم، وفصلاً بعد فصل. وإذا كان تعلُّم الدب القطبي كيف يؤمن الغذاء لنفسه من الأمور المثيرة للدهشة، فإن الأكثر دهشة تلك الخطوات التي تتخذها الإناث لضمان التكاثر. فقبل أن تعزل الأنثى نفسها في عرين – وعادة ما يحدث ذلك في أواخر أكتوبر، أو أوائل نوفمبر – فإنها تعمد إلى تخزين كمية كبيرة من الدهون داخل جسمها، حتى تعيش على هذا المخزون هي وصغارها لحين خروجها للصيد مرة أخرى في فصل الربيع. فإذا لم تتفاقم الأحوال الجوية (أي إذا لم تهب عواصف)، وكان الطعام وفيراً، فقد تؤخر الأنثى لجوءها إلى العرين. وإذا كان الغذاء شحيحاً، فقد تقرر عدم اللجوء في ذلك العام. وفي حالة هبوب عواصف مبكرة تحول دون حصولها على الغذاء، فقد تلجأ إلى عرين مؤقت انتظاراً لتحسن الأحوال الجوية، ثم تقرر ماذا تفعل. ويحدث الحمل عادة خلال الدورة النزوية للأنثى والتي تستمر ثلاثة أسابيع (خلال شهري إبريل ومايو)، ولكن البويضات المخصبة لا تستقر في جدار الرحم إلا بعد ذلك بفترة طويلة (ويتكهن البعض بأن ذلك يحدث عندما تدخل الأنثى في فترة لجوء طويل بعرينها).

ومن الملفت حقاً أن الدب القطبي يختار نوعاً معيناً من الجليد يصنع منه عرينه، تماماً كما يفعل الأسكيمو عند بناء أكواخهم الجليدية، وبين العرائن والأكواخ خصائص مشتركة كثيرة. فأنثى الدب عادة ما تختار موقعاً يتراكم فيه الجليد الذي تسوقه الرياح في الخريف المبكر، وعادة ما يكون قريباً من قمة ذلك الجزء من السلسلة الجليدية المواجهة للريح، وذلك لأن عواصف منتصف الشتاء غالباً ما تكون بعيدة عن هذا المكان، كما أن احتمالات انجراف العرين ودفنه تحت الثلوج في حالة حدوث انهيار جليدي قليلة. والغريب أيضاً أن الإناث تبني عرائن مختلفة الأشكال، وإن كانت للعرائن كلها سمات «معمارية» مشتركة: نفق للدخول طوله بين خمس وعشر أقدام، وعرضه ما بين أربع وعشرين وثمان وعشرين قدماً، وارتفاعه ببعد عرضه نفسه، وحجرة صغيرة في نهاية النفق

المنحدر لأعلى، تكفي بالكاد لتحرك الدب داخلها، وفتحة للتهوية. وهكذا فإن «تصميم» العرين على هذا النحو يسمح بتدفق الهواء والتحكم في سمك الجليد (بحيث يشكل عازلاً حرارياً ممتازاً)، ويمكن الأنثى من تنقية الهواء في كل أرجاء العرين طوال فصل الشتاء، والاحتفاظ بالحرارة عند درجة قرابة اثنتين وثلاثين فهرنهايت، مهما كانت البرودة في الخارج. ويتحقق ذلك عندما تقوم أنثى الدب بإشعاع قدر صغير من الحرارة (يعادل الحرارة التي يشعها مصباح كهربائي قوته مئتا وات)، واحتجاز تلك الحرارة داخل حجرة العرين ذات المدخل المنحدر والذي يوجد به ممر هوائي. وتقوم أنثى الدب بتعديل سمك سقف العرين كلما كان ذلك ضرورياً (ويستخدم الأسكيمو هذه الأساليب ذاتها).

والواقع أن الأنثى لا تكون في حالة بيات شتوي فعليّ خلال فصل الشتاء، فهي وإن قلت ضربات قلبها ومعدل تنفسها بشكل كبير، فإن درجة حرارة جسمها تهبط قليلاً، ومن ثم فإنها تستيقظ وتنتبه في لحظة. فإذا أصبح عرينها شديد الدفء يتكون الثلج على الجدران مبرداً الغرفة ومانعاً لنفاذ الأكسجين ودخول ثاني أكسيد الكربون من خلال الجدران، وعندئذ تقوم بكشط الثلوج وتعديل التهوية، أو تحفر غرفة جديدة بجوار الغرفة القديمة. ويعتقد چون توماسين (وهو باحث قام بمراقبة الدببة وهي في حالة بيات شتوي، ولعدة سنوات في سفالبارد) أن بعض الإناث أكثر توفيقاً من البعض الآخر في «تصميم وصيانة» عرائنها، وأن الدببة الكبريات سناً تتعلم من أخطائها، ومن ثم تبني عرائنها بشكل يسمح بدخول الأكسجين وخروج ثاني أكسيد الكربون، كما يمكن من المحافظة على الحرارة، وفي وقت لاحق تقوم بتوسيع العرين حتى يتمكن الأشبال من الحركة والتدريب قبل خروجها، والغريب أن كل هذا يتحقق بشكل «اقتصادي» تماماً.

وثمة ملاحظة أخرى، فالعرائن نظيفة على الدوام، فالإخراج ضئيل جداً لأن أيض أنثى الدب أيض دهون لا أيض بروتينات، وباستثناء قضمة جليد بين الحين والآخر، فإنها تستمد الماء الذي تحتاجه من مخزونها من الدهون.

وعادة ما تلد الأنثى جروين، وأحياناً ثلاثة أو واحداً فقط، ونادراً ما تلد أربعة. وتتم الولادة خلال شهر ديسمبر أو في أوائل يناير، وتولد الجراء عمياء صماء، ويكون فراؤها ضئيلاً (وبالتالي لا تتمتع الصغار بخاصية العزل الحراري كاملة)، كما أنها تولد بغير قدرة على المشي أو الشم. لذلك

فإن المواليد تعتمد اعتماداً كلياً على الأم خلال الأسابيع الأولى من حياتها، فهي التي تقوم بحماية العرين، وهي التي توفر لها الدفء، وهي التي تغذيها بلبنها الدسم. والمعروف أن للبن أنثى الدب القطبي قوام القشدة، والذين ذاقوه يقولون إنه ذو طعم يشبه طعم زيت كبد سمك القدّ، ورائحته كرائحة الفقمة أو السمك، وهو أغنى من لبن الحوت، ويتميز عن لبن الفقمة بما يحتويه من كميات أكبر من البروتين. ويرجع الفضل في ذلك إلى جودة تصميم وبناء العرين، فأنثى الدب القطبي تدين لعرينها المحكم بقدرتها على الاقتصاد في عملية الأيض وتوجيهها بحيث توفر لجرائها ما تحتاجه من حرارة وألبان.

وعند الميلاد تكون الجراء صغيرة جداً، ويكاد لا يزيد وزن الجرو عن رطل واحد، لدرجة أن بوسع الأم أن تخبئ جرواً في أصابع أقدامها المتكورة. وعندما تبلغ أربعة وعشرين يوماً أو نحو ذلك تكون قد اكتسبت حاسة السمع، وبعد ذلك بأسبوع تكون قادرة على الرؤية، وبمرور عدة أسابيع أخرى تستطيع المشي والشم. وفي أواخر شهر مارس وأوائل شهر إبريل يصل وزن الجرو إلى نحو خمسة وعشرين رطلاً، وحينئذ، وعلى وفق الأحوال الجوية وحالة الجراء، تخرج أنثى الدب من عرينها، وتقضي الأيام الأولى بعد خروجها مسترخية عند مدخل العرين للاستمتاع بأشعة الشمس، أو تتدحرج على الجليد لإحياء معطفها، أو تتجول حول العرين بحثاً عن حشائش أو نباتات تمضغها.

وتبقى الجراء في العرين، ولكنها بالتدريج تتجرأ على الخروج إلى مدخله بعد أيام قليلة من خروج الأم، وعادة ما يكون مدخل العرين محمياً من الرياح لأنه موجه أصلاً نحو الغرب والجنوب بحيث يستفيد من دفء الشمس في فترة ما بعد الظهر. لكن الجراء لا تبتعد كثيراً عن العرين، وتقوم الأم بمراقبتها من وضع الجلوس وقد أعطت ظهرها لكتلة جليدية، ويرقد الصغار على بطنها، بينما تتجول هي ببصرها، أو تهز رأسها، أو تقلب صغارها بلطف، أو تداعبهم بأرجلها الأمامية.

وعادة ما تكون الأسابيع القليلة الأخرى فترة حرجة بالنسبة للأم وصغارها، فالأم تعاني من صراع بين رغبتها في الخروج للصيد وحرصها على حماية ورعاية صغارها وتدريبها. وبالنسبة لغالبية الدببة يكون البحر على مسافة تقطعها في نحو يوم واحد، ولكن الرحلة تكون أطول بالنسبة لتلك الدببة التي بنت عرائنها على الساحل الجنوبي لخليج هدسون، وهذه قد تضطر لبناء عرائن مؤقتة تحتمي فيها في أثناء الرحلة.

ولقد قام راسموس هانسون، وچون توماسين بدراسة استمرت عدة أسابيع حول خروج الدببة من عرائنها، وأجريت هذه الدراسة في منطقة معروفة بكثرة العرائن هي منطقة وادي بوجين في سڤالبارد، حيث تبني الدببة عرائنها في صف طويل عند سفح سلسلة جبال ريتزاواس مباشرة. وعلى الرغم من كثافة العرائن على هذا النحو فإنهما نادراً ما شاهدا عائلتين خارج عرينيهما في وقت واحد، ولا يعرف أحد حتى الآن كيف يتم «التنسيق» بين العائلات على هذا النحو الذي يمكن كل أم من تدريب صغارها في حرية وسلاسة ودون مضايقة من أمهات أُخر.

وحيث أن بعضاً من أجزاء الوجه الجنوبي الغربي لسلسلة جبال ريتزواس تنحدر بزاوية مقدارها سبعون درجة فإن أول مشكلة تواجه الجراء هي الهبوط إلى أسفل وادي بوجين، ولذا فإنها تتعلم من أمهاتها كيف تنزلق بادئة بالذنب، رافعة الأكتاف وضاربة بمخالبها، أو الانزلاق على أجنابها دافعة باقدامها الأربعة، أو برأسها أولاً ثم على بطونها، وتبقى الأم عند السفح لتمسك بأي جرو يفقد توازنه.

وخلال الأيام الأولى التي تقضيها الأم مع صغارها بعد الخروج من العرين تميل الأم للراحة، بينما الجراء تلهو وتتدرب بعنف. وتلتقط الجراء كرات من الجليد وتلقي بها بعيداً ثم تجري في أعقابها، أو تتصارع معها بعنف، وتقضمها وتمضغها كالقطط. كذلك تقف الجراء على أرجلها الخلفية لمنازلة بعضها البعض، كما تتدحرج على الجليد وتقلب الثلوج بأرجلها. وفي تحليلهما لسلوك الجراء خلص العالمان النرويجيان (هانسون، وتوماسين) إلى أن الجراء تنمو على محاور ثلاثة هي: القوة والتنسيق، والعادات الاجتماعية ومهارات الاتصال (الأمر الذي يمكن الأم وصغارها من العيش والصيد معاً وبكفاءة خلال العامين التاليين)، وأساليب القتال (وهذه تمكن الذكور من خوض معاركها مع بعضها البعض خلال موسم التزاوج، كما تمكن الإناث من الدفاع عن عرائنها). ووفقاً لما يعتقده بعض الباحثين فإن ذكور الدب القطبي تحاول قتل أي جرو يصادفها، خاصة إذا تهاونت أمه في الدفاع عنه، أو لم تكن قادرة على ذلك.

وعندما تصبح الجراء على أعتاب مستوى معين من القوة والتنسيق، وبعد أن تكون قادرة على المشي والجري والاستجابة لتعليمات الأمهات بالبقاء أو الحركة، تهجر الحيوانات عرائنها، فقد انقضى عهد الاعتماد الكلي على مخزون الأم من الدهون.

ويطلق الأسكيمو القطبيون الذين يعيشون في المنطقة الشمالية الغربية من جرينلاند على الدب القطبي لفظة بلغتهم تعني «الجَوَّال العظيم». فعلى أساس الدراسات التي تتم بطريقة الملاحظة والتغذية الراجعة، والمعلومات التي يتم جمعها عن طريق المراقبة اللاسلكية، فقد توصل العلماء إلى معلومات هامة عن تحركات الدب القطبي، إذ تبين لهم أنه يفضل التجوال منفرداً ولأبعد حد ممكن داخل منطقة محددة. ولكن من الثابت أيضاً أن بعض هذه الدببة يقطع مسافات طويلة. فعلى سبيل المثال فإن دباً أمكن للباحثين وضع علامة مميزة على جسمه في سڤالبارد قد ظهر بعد ذلك بعام قريباً من نانورتاليك في جرينلاند، على بعد نحو ألفي ميل إلى الجنوب الغربي. كما أن دباً آخر (أنثى) قد مشى في خط مستقيم قاطعاً مسافة (205) أميال في يومين. وبالمثل فقد عثر على دببة قطبية في أماكن بعيدة ولا تعدّ مواطن محتملة لها، مثل عرف جبل نيوتون في سڤالبارد، وعلى ارتفاع (6,600) قدم فوق سطح البحر، ومثل المنطقة التي عند قمة جرينلاند الثلجية ثلاثين ميلاً إلى الداخل. ولقد روى أفراد طاقم أمريكي أنهم شاهدوا أنثى دب قطبي وجرواً واحداً في جزيرة ألفا الثلجية عند أربعٍ وثمانين درجة شمالاً في شهر ديسمبر عام 1957م (وكانت قد تعثرت في الأضواء المثبتة على جانبي مَدْرَج لأحد المطارات ولكنها نهضت وابتعدت في وقت كانت طائرة تحاول الهبوط. كذلك فقد رصد طاقم روسي أنثى دب وجراءها على بعد أكثر من مئة ميل من القطب (الشمالي) في صيف عام 1973م.

ونظراً لأننا نعدّ الدب القطبي حيواناً شمالياً وأيضاً لأننا ننظر للشمال على أنه منطقة لا تمتد كثيراً إلى الجنوب، فإنه لأمر مدهش (أحياناً) أن نكتشف أن هذا الحيوان يبني عرائنه في حدود ثلاث وخمسين درجة شمالاً في جزيرة آلكيمسكي عند الطرف الجنوبي لخليج هدسون، كما يبدو غريباً كذلك أن الدب القطبي يظهر بين حين وآخر على الساحل الشرقي لنيوفاوند لاند جنوباً حتى مدينة سانت جونز (عاصمة نيوفاوند لاند). وتؤكد القصص التي تروى حول تجوال الدب القطبي أنه ما من حيوان آخر يشاركه هذه القدرة، خاصة وانه يقوم بهذه الرحلات الطويلة وحيداً. فعلى سبيل المثال فقد أطلق الرصاص على أنثى متقدمة في العمر في عمق إقليم كيوبيك بالقرب من بيريبونكا على بحيرة سان جين، وعلى ما يبدو فإنها كانت قد عبرت نهر ساجويناي آتية من خليج سانت لورنس متجهة صوب خليج جيمس على بعد نحو (360) ميلاً إلى الشمال.

وفي أحد الأيام وبينما كنت أنظر من أعلى إلى المنحدرات الساحلية في جزيرة ديفون، قال لي رفيقي راي شويزنبرج (وهو كندي من المتخصصين في بيولوجيا الدب القطبي): «كنت أعتقد أن الأرض يمكن أن تحد من حركة هذه الدببة، ولكني الآن مقتنع بأنها قادرة على اجتياز أي نوع من الأرض تقريباً، والمكان الوحيد الذي يحد من حركتها هو ذلك الذي لا يتوفر به الغذاء».

فالدب القطبي «رحّال عظيم» بالفعل، ليس لأنه يذهب بعيداً، ولكن لأنه يرتحل بفضول ومن دون كلل. ولعل الصيادين الأسكيمو في جرينلاند كانوا يقصدون قدرته على اجتياز مختلف أنواع الأراضي بنجاح وذكاء، وذلك عندما أسموه بالجوّال العظيم.

ونظراً لطول وحدة مراقبة الأسكيمو للدب القطبي فقد طرحوا أفكاراً أخرى حوله، وتناولها العلماء بالشك، وأحياناً بالاحتقار. فالأسكيمو يؤكدون – على سبيل المثال – أن هذا الدب (في غالب الحالات) أشول المخالب، وأنه إذا تعين عليه القفز ليبتعد يائساً عن دب آخر فإنه لا بد أن يقفز إلى يمينه(*). كذلك فقد أكد الأسكيمو أن الدب القطبي يدفع كتلاً من الثلج أمامه كدرع يحتمي به وهو يطارد الفقمة، وأنه إذا أصيب بجرح فإنه يعمد إلى وقف النزيف باستخدام الجليد، وأنه يقذف حيوان الفَظّ بكتل الثلج والصخور لإصابته وتشتيت انتباهه، على أمل أن يظفر بعجل يفتقر للحماية، وأن الإناث تستخدم سدادات شرجية عندما تقيم في عرائنها.

والواقع أنه لأمر معقد أن ندحض أياً من هذه الروايات، لأنه ينطوي ليس على إنكار مصداقية الراوي فحسب، بل وإنكار وسع حيلة الدب القطبي كذلك. ويضاف إلى ذلك؛ أنه نظراً لسوء الترجمة فقد تجد نفسك تنكر أو ندحض شيئاً لم يقصده الرواة. ولذا فإن أحسن علماء الأحياء الميدانيين هم الذين يأخذون موقفاً لا يستبعد هذه الروايات، وإن كانوا لم يروها بأعينهم. ولدى عالم الأجناس البشرية ريتشارد نيلسون نصيحة يقدمها لنا في هذا الصدد، فقد كتب يقول: «وللأسكيمو خبرة طويلة بهذا الحيوان، وهي خبرة ذات مصداقية عالية وقد تبينت صحة كثير مما قالوه عن سلوك ذلك الحيوان من خلال ملاحظاتي الشخصية». ومن ناحية أخرى فقد ظل بعض العلماء يعارضون بشدة فكرة أنه من المحتمل أن الدببة تستخدم «أدوات»، إلى أن عثر عالم

(*) وعلى أساس ذلك يعترض اسكيمو جرينلاند على الخاتم الرسمي لشركة جرينلاند الملكية للتجارة لانه يتضمن رسماً لدب قطبي يمد مخلبه الايمن، فهذا من وجهة نظرهم غير صحيح.

بيولوجي كندي على أدلة تثبت ذلك في عام 1972م على الساحل الشمالي لجزيرة ديفون، فقد شاهد أنثى وبصحبتها جروان وهي تحطم سقف عريق فقمة بقطعة من الثلج وزنها خمسة وأربعون رطلاً. ولقد تبين العلماء كذلك أن الدب القطبي تتربص بحيوان اللاموس وغيره من الفرائس الصغيرة، وهو ما زعم الأسكيمو أنه يحدث، كما تبينوا كذلك أنه يهوى صيد البط البحري بأن يتسلل تحت أسرابها في الماء تماماً كالحوت القاتل.

ولعل من أبرز الأساطير الخاصة بالدب القطبي أنه يغطي أنفه الداكن بأحد مخلبيه، أو بقطعة من الجليد عندما يتربص بفقمة، وهي أسطورة ربما قد نشأت في أوساط الأسكيمو، وإن كانت تفوح برائحة الخيال. وتذهب الأسطورة إلى أبعد من ذلك، حيث تقول إن الفرد لا يستطيع من على بعد ألف ياردة أن يميز دباً قطبياً على ثلوج البحر وإن كان سيرى أنفه الأسود بوضوح. فكيف لا تستطيع الفقمة أن تراه؟ ومن الممكن جداً أنها تراه، وأن ذلك هو ما يقصده الدب على وجه التحديد، فالفقمة تستطيع تمييز دب مقترب في خط مستقيم، لأن حركة الأرجل الخلفية الدافعة لا تكسر محيط ظهره، أما إذا ما ركزت الفقمة على الأنف الداكن فإن هيئة الدب تندمج مع الثلوج المحيطة، كما أنه من تلك المسافة يبدو أنف الدب وكأنه فقمة أخرى على الثلوج. ولأسباب ترجع إلى ظاهرة بصرية لا تظهر هيئة الدب بوضوح إلى أن يكاد يكون قد أطبق على الفقمة.

ومن الممكن أن يجلس الدب على أجزائه الأمامية بحيث يمنع ظهور الأفق من بين أرجله، ومن الممكن كذلك أنه يقصد أن يكون أنفه الداكن على الثلوج حيث يبدو وكأنه فقمة. وعموماً فإنه في غيبة الدلائل المباشرة، وبدون إجراء تجارب فإن التكهن هو كل ما نقدر عليه.

ويحرص علماء الحياة دائماً على التأكد من صحة الحدس، ومشاهدة الأشياء والظواهر على الطبيعة، فمهما كانت دقة التجارب في المختبرات، ومهما كانت الآراء والأفكار التي تنشأ داخل المواقع الميدانية، فإنها لا تعادل أبداً المشاهدة الشخصية (بكل ما تنطوي عليه من دقة ومصداقية وثراء) لما يحدث على أرض الواقع. ويعلم الباحثون والعلماء الذين يعملون على أرض الواقع أن ما يشاهدونه يمكن أن يتناقض مع ما قرؤوه أو سمعوه(*). فالوقائع الفردية لا تمثل – عادة – أهمية

(*) بعد إجراء تجربة مختبرية مؤخراً خرج القائمون عليها بوصف للدب القطبي بأنه لا يجيد المشي، لأنه تعثر وارتفعت درجة حرارة جسمه على طاحون الدوس (أسطوانة متحركة). ولما سألت أحد العلماء المتخصصين في بيولوجيا الدب القطبي حول هذا الوصف أوضح أن الفرق شاسع بين الحركة على طاحون الدوس، والحركة على ثلوج البحر حيث يتحرك لمسافات طويلة دون تعثر، ومن دون ارتفاع في درجة حرارة جسمه.

إحصائية، كأن يكون دب قطبي قد ترصد فقمة وقتلها في المياه المفتوحة (وشك بعض علماء البيولوجيا أن يكون ذلك قد حدث على الإطلاق، إلى أن أعلن أحدهم وهو دونالد فيرنيل أنه ورفيق من الأسكيمو قد شاهدا هذا المنظر في عام 1978م). وبمعنى آخر فإنه قد لا يكون ممكنا أن نطلق تعميمات استناداً إلى وقائع كهذه، وإن كانت تؤكد ما يتمتع به الدب القطبي من وسع الحيلة، وخصائص الفصيلة التي ينتمي إليها بصفة عامة. وقد تكشف هذه الوقائع أن أساليب فريدة تسود بين تجمعات من ذلك الحيوان دون غيرها، فمهما طالت المراقبة لن نرى كل شيء يمكن أن يفعله الدب القطبي.

وأذكر أنني كنت يوماً أحلق بطائرة هليكوبتر (حوامة) بحذاء مضيق بارو، وكان معي راي شويزنبرج شاهدنا دباً وحيداً يتجه جنوباً عبر الثلوج، وقال شويزنبرج بصوت مرتفع (لأن أزيز محرك الطائرة يحول دون الاستماع العادي) إنه يود متابعة ذلك الدب على الأرض، ولكن عاد ليؤكد أن ذلك أمر مستحيل. وألقيت نظرة من نافذة الطائرة على تلك الأرض الشاسعة الممتدة أمام الدب، وجال بخاطري ما كتبه ويلفريد ثيسجر عن تجواله في الربع الخالي هو ورفاقه من البدو، والواقع أن المنطقة القطبية الشمالية تذكر الفرد بالصحراء، ليس بسبب قلة الرطوبة وعدم وجود هيئات أرضية مميزة، ولكن لما تمثله كل منهما من قيود على الحياة البشرية، ولا يستطيع العيش فيهما إلا بشر أشداء يتمتعون بقوة العزيمة ووسع الحيلة والتصرف بشكل عملي، ويدركون أي ملامح للحياة في بيئة تبدو مترامية وخالية من أية ملامح، بشر يتمتعون باليقظة والقدرة على تبين أدق التفاصيل. ولقد أشار كُتاب متنوعون إلى فقدان الثقافات المتمدينة لعين المواطن الأصلي، كما فعل ڤلاديمير آرسينيف في كتاباته حول سكان منشوريا الأصليين (درسوا أوزالا)، ولورنس ڤان در بوست حول سكان صحراء كالاهاري الأصليين.

ولا يقتصر الأمر على ضرورة أن يراقب الحيوان لفترة طويلة قبل أن يمكن وصف ما يفعله، لأن تعلّم عملية المراقبة في حد ذاته يحتاج لوقت أطول، وهذه مسألة كثيراً ما تفرض نفسها خلال مقابلاتنا مع الأسكيمو، فهو لا يشعرون بالارتياح حول قرارات يتخذها أناس يفتقرون للحس والإدراك والتمييز خلال قيامهم بمهامهم في تلك الأصقاع الشمالية، كما لا يبدون حماساً إزاء ما يشاهدونه على المدى الطويل. وعندما أستمع لتلك الملاحظات أومئ برأسي وكأنني أقول «نعم»،

ولكن هذا يجعلني أفكر في شيء آخر - كم نحن معتمدون على علماء الحياة الميدانيين كمصدر للمعلومات الكاملة والدقيقة عن الحيوانات وسلوكها في كل من المناطق التي وجدوا بها، وكلنا أمل في أن يستعيد هؤلاء بعضاً معقولاً من «عين المواطن الأصلي» وهم يقومون بدراساتهم وبحوثهم.

وسرعان ما اختفى الدب الذي كنا نراقبه من نوافذ طائرتنا العمودية. والواقع أن متابعة الدب، أو ببساطة شديدة اقتفاء أثره، يعني أنك تتعلم شيئاً، كما يقول الأسكيمو، ليس التعرف على وجه الدب فحسب، ولكن ردود فعله لكل ما حدث له على الطريق. فبعض آثار الأقدام قد تشير إلى قفزة للدب في الهواء ألقت به في اتجاه مختلف، ومن ثم فقد تبحث حولك لتتعرف أي دلائل تفسر تلك القفزة المفاجئة. وقد تلاحظ اختفاء آثار أقدام جرو ظلت واضحة إلى جانب آثار أقدام أمه إلى أن امتطى ظهرها ليحتمي من البرد. وقد تكون آثار أقدام الدب على ثلوج البحار بامتداد سلسلة من الكتل الثلجية (حيث يحتمل وجود عرائن للفقمات) وعلى مسافة مائة قدم أو نحو ذلك على الجانب الذي تأتي منه الريح. وقد ترى آثاراً حديثة لأقدام الدب وقد تحولت إلى حفرة ممتلئة بالماء (فيوردة)، ولن يعني ذلك شيئاً إلى أن ترى عشاً لطائر تسلل إليه الدب ونبشه بحثاً عن غذاء من طيور ميتة. وقد تلاحظ تشابكاً في آثار أقدام ذكر وأنثى، ثم تبين بعد مسافة قصيرة أن الذكر كان يتبع الأنثى. وقد يصادفك مجموعة من آثار الأقدام تدور فجأة ثم تتواصل في خط مستقيم تماماً تجد في نهايته فقمة، وقد انكشفت فتحة التنفس لديها، الأمر الذي يعني أن الدب قد «صبر ونال». أما آثار الأقدام التي قد تجدها أسفل جُرفٍ فقد تشير إلى مكان مارس فيه دبٌّ الصيدَ في صباح يوم من أيام شهر يولية.

ولسوف يتبين الباحث من آثار الأقدام أيضاً أن المشية العريضة لدب سمين في شهر يونية تختلف عن مشية دب نحيف في شهر أكتوبر. وبالمثل فسوف يتبين أن آثار أقدام الدببة تكشف عن حرصها الدائم على تجنب الجليد العميق، فهي في الربيع لا تعبر البرك الذائبة لأن هذه تكون مليئة بالثلج الشوكي الذي يخز أقدامها. وقد تجد آثاراً لأقدام دببة على مساحة من الثلوج رقيقة لدرجة لا تمكن إنساناً من المشي عليها، فهذه الحيوانات تتمتع برشاقة تجعلها تتحرك بسرعة فوق سطح الماء بالزحف على صدورها.

وتدل كل هذه العلامات على أن الدب القطبي يتمتع بحاستي شم وإبصار قويتين، وأنه حساس

للحرارة، خاصة في فصل الصيف، الأمر الذي يجعله يبحث عن أماكن باردة.

ولقد خرج العلماء المتخصصون في بيولوجيا الدب القطبي من تتبع ودراسة آثار الأقدام هذه بانطباعات معينة. فالذكور عامة تميل نحو البقاء بحذاء الساحل خلال فصل الصيف، بينما الإناث ذات الجراء والدببة غير البالغة فإنها تميل للتحرك والانتقال من مكان لآخر. كما أن الدببة تستغل الممرات الجبلية والوديان الصغيرة الضيقة شديدة الانحدار وغيرها من الهيئات الأرضية، مما يوحي بأن هذه هي المسالك التقليدية، وأقصر الطرق حول المناطق ذات الجليد «السيئ» أو المياه المفتوحة (ولكي يسلك أي مخلوق أقصر الطرق لا بد وأن يكون في ذهنه «خريطة» يعرف بها موقعه — فالذاكرة لن تفيد، ولا يزال سر صنع الدب لهذه الخرائط واستخدامه لها أكثر الأمور التي تحير العلماء المهتمين بهذا الحيوان).

فإذا طرحنا جانباً الاهتداء بالأجرام السماوية، والدراية بالرياح والتيارات السائدة (وهي التي ترشد الأسكيمو في تحركاتهم عبر مسطحات الثلوج البحرية الزاوية) فإن أحداً لا يعرف كيف تعرف الدببة القطبية طريقها، علماً بأنها ترحل بشكل منتظم إلى حيث توجد تجمعات الفقمة كل عام، كما أنها تختار مواقع عرائنها وتربية صغارها بدقة تدعو للدهشة، كما لا تخطئ أبداً طريقها نحو الساحل رغم أنها تقطع مئات الأميال وهي في سبيلها إليه. وإذا كان ذلك أمراً مذهلاً بالنسبة لحركتها على الأرض، فإنه مذهل بدرجة أكبر إذ يحدث على بحار متجمدة يتغير شكلها العام سنة بعد أخرى، فتزول هيئات وتستجد أخرى، فضلاً عن خاصية التشابه في المناطق التي يعيش بها ذلك الحيوان الذي قد يمشي لعدة أسابيع دون أن يرى اختلافاً فيما حوله: «سهول متجمدة مترامية الأطراف، وقبة سماوية مطلقة زرقاء وباردة، والشمس البيضاء الباردة» ومع ذلك يبدو الدب القطبي وكأنه يعرف كل شيء عن الأرض التي حوله، ويتحرك فيها كالملاح الماهر، ويتجول تجولاً ذا غرض ومغزى.

* * * * *

ومن خلال فتحات أنفه الأسود يستنشق الدب القطبي هواءً بارداً يزيد من قوة حاسة الشم لديه. وتتسلق الأنثى كتلة قديمة من الثلوج التي لا تذوب، ثم تقف على رجليها الخلفيتين لتلقي نظرة فاحصة على حقول الجليد حولها، وتحمي عينيها من ضوء مارس الساطع بوضع مخالبها. ثم تواصل السير عبر ممر ضيق متجمد، ثم تتوقف فجأة رافعة إحدى اقدامها عن الأرض، وتهز رأسها فتتراقص أذناها، ثم تعود قدمها لتلامس الأرض، وتشم الهواء عند مستويات مختلفة، ثم تثبت رأسها وتركز انتباهها. لقد وجدت فريسة تحت الجليد والثلوج، وتدرك الفريسة أن نهايتها باتت وشيكة.

وحديثاً بدأ علماء الأحياء يهتمون بالعلاقة بين الفريسة والمفترس في عالم الحيوان بمثل اهتمامهم بدراسة تاريخ وجوانب حياة كل من الأنواع المختلفة. فهذا هو عالم الأحياء الكندي، آيان ستيرلنج، المتخصص في الدب القطبي قد أضاف الكثير لفهم الإنسان للدب القطبي عندما أدمج في دراسته عن صيد هذا الحيوان للفقمة في دراسة أخرى عن الفقمة ذاتها وديناميكيات الثلوج. ففي عام 1974م طرح ستيرلنج هذا – بمعاونة توم سميث المتخصص في الفقمة – تفسيراً لتراجع تجمعات الدب القطبي في خليج آمندسن، فخلال شتاء 1973 / 1974م سقطت كميات قليلة من الجليد في المنطقة بحيث لم تتمكن الفقمات من حفر جحور جليدية تأوي إليها إلا في أماكن قليلة ومعزولة، كما أن الثلوج ذاتها ظلت مستقرة ومتماسكة في مناطق عادة ما يكون بها ممرات جليدية ضيقة خلال فصل الشتاء، واستنتج العالمان أنه ربما يكون الجليد المتصلب قد أثر في مصادر غذاء الفقمات. وعلى أية حال فقد ابتعدت الفقمات عن المنطقة، بل إن واحدة منها (تحمل العلامة التي وضعها سميث عليها) قد قطعت مسافات طويلة إلى أن وصلت إلى رأس دينيف في سيبريا، وترتب على ذلك أن قليلاً جداً من الفقمات هو الذي تمكن من بناء جحور لها تتم فيها ولادة الصغار، ومن ثم فقد عانت الدببة من الجوع الشديد فاستسلم بعضها له حتى نفق، وآثرت البقية التحرك بحثاً عن مصادر أخرى للغذاء.

والفقمة ذات الحلقات التي يهوى الدب القطبي صيدها حيوان ثديي بحري صغير يعيش على ثلوج البحر، وتوحي عيناه الكبيرتان وأنفه القصير بأن وجهه يشبه وجه القط، وإن كان رأسه الأملس بدون أذنين. ويشبه جسمه أجسام أقاربه من الأنواع الأخرى من الفقمات (القيثارية،

والشريطية، وذات البقع)، فهو يتميز برقبته القصيرة، وأكتافه العريضة وصدره الذي يشبه البرميل. وشأنه شأن أقاربه كذلك فإنه لا يشعر بالارتياح خارج الماء لأن زعانفه الخلفية لا تدفع للأمام، مما لا يساعده على المشي (على عكس حيوان القَظّ أو أسد البحر).

والفقمة ذات الحلقات أكثر ثدييات المنطقة القطبية الشمالية من حيث أعدادها. ويقدر الروس عددها بنحو (2,5) مليون على الأقل. ومع ذلك فإنها حيوانات غير اجتماعية نسبياً، ونادراً ما تتجمع في أعداد كبيرة. وتولد صغار هذا النوع من الفقمات في عرائن يغطيها الجليد، وفوق الثلوج، وتتم الولادة عادة في أوائل شهر أبريل، وتصبح الفقمات الوليدة مستقلة تماماً بعد فترة تتراوح بين ثمانية وعشرة أسابيع من ولادتها. ويحدث التزاوج عادة في أواخر أبريل وأوائل مايو، علماً بأنها تصل مرحلة البلوغ في سنتها السادسة تقريبا. وتلتهم الفقمات كميات كبيرة من الغذاء على مستويين من سلاسل الغذاء البحري في المنطقة القطبية الشمالية، حيث تلتهم الأسماك من نوع القدّ، كما تأكل كثيراً من العوالق الحيوانية التي يتغذى عليها هذا النوع ذاته من الأسماك. ولعل في اختلاف سن الفطام تفسيراً لاختلاف أحجام الفقمات ذات الحلقات، وذلك لأنه في حالة تفتت الجليد مبكراً تتوقف الأم عن إرضاع صغيرها. وعموماً يكون طول الفقمة البالغة ما بين أربعين وستين بوصة، ووزنها ما بين ثمانين ومائتين وخمسين رطلاً. وخلال فترة الحمل والرضاعة وطرح الإهاب القديم يقل مقدار الغذاء الذي تتناوله الفقمات، ومن ينقص وزنها بنسبة تصل إلى ثلاثين في المئة. وفي هذه المراحل ذاتها تعيش على الأرض، وتبقى قريبة من فتحات التنفس ويغلب عليها طابع الدفاع العدواني.

ومن الغرائب الكثيرة في هذا الحيوان كيفية عثوره على غذاء تحت الثلوج وفي ظلمة الشتاء، وكيف يتذكر مواضع فتحات التنفس، خاصة بعد غطس عميق في تيارات المحيط.

ويزداد تعرض الفقمة ذات الحلقات للخطر من جانب الدب القطبي، عندما تطفو إلى السطح للتنفس. وعندما تتحرك على الثلوج تكون متيقظة عادة، وتنظر إلى أعلى لمدة ست أو ثماني ثوان بفاصل زمني يتراوح بين عشرين وثلاثين ثانية. وإذا أخلدت للراحة أو النوم فإنها ترقد قريباً من فتحة التنفس، حتى تتمكن من الهرب عند اقتراب الخطر. وتشكل الفقمات الحوامل جحور

الولادة، والذكور (والإناث غير الحوامل) مجموعة من الظروف سوف نتعرض لها لاحقاً(*).

وبالنسبة للدب القطبي فإن الفقمة حيوان سريع متيقظ ولا يمكن التغلب عليه إلا في اللحظات التي يكون فيها فاقداً لمناعته – أي عندما يحطم سطح الماء ويطل برأسه منه للتنفس، أو عندما يكون مسترخياً في كهفه الجليدي. ويتربص الدب القطبي بالفقمة على الثلوج، أو يقترب منه بالسباحة الصامتة. والإنسان الذي يقدر له أن يراقب تلك العملية لا بد وأن يدهش إزاء ما يتحلى به الدب من صبر ودهاء. فعندما يسمع الدب ذلك الصوت الذي يدل على بروز الفقمة إلى سطح الماء أو الجليد يقترب من مصدر الصوت بهدوء بالغ ويساعده في ذلك أنه ليس لأقدامه أي وقع يذكر، حيث يكتم الشعر الذي يوجد في أقدامه صوت احتكاكها بالجليد، ويقوم الدب «بتقدير» البقعة التي تخلد فيها الفقمة للراحة، وعندما يصبح على بعد عشرين قدماً منها يبدأ في التقدم خطوة بخطوة مغيراً الفاصل الزمني بين الخطوات (عشر ثوانٍ، خمس عشرة ثانية وهكذا) ويسترق السمع حتى يمكنه تحديد موضع وحركة الفقمة، ثم يندفع نحو ما يعتقد أنه الموضع، ويضرب الجليد بأرجله الأربع فوق ما يعتقد أنه قبة جسم فريسته، وفي ثوانٍ معدودة تكون الفريسة تحت سيطرة الدب تماما. وأحياناً لا تتطلب هذه العملية سوى ضربة واحدة من قدم الدب (ويبلغ وزن القدم نحو أربعين رطلاً). أما إذا كان الدب من الحجم الصغير أو المتوسط فقد يحتاج لحفر طبقة الجليد، وهنا قد لا تزيد فرص نجاحه عن عشرين في المئة. ولكن الملاحظ أن الدب يفلح في تحديد موضع الفقمة داخل جحرها الجليدي، ومن ثم يكون اقتحامه ناجحاً.

وقد لا يكون هناك بين الحيوانات المفترسة الأخرى ما يتمتع بهذا التنوع الواضح في أساليب الصيد، وقد تستغرق عملية اصطياد دب لفقمة على هذا النحو نحو نصف ساعة يتحلى خلالها الدب بالصبر والتحفز ودقة الملاحظة، ويستخدم وسائل مختلفة للتمويه والإخفاء كأن يغطي جسمه بالثلوج (بالنوم والتدحرج عليها) بحيث يظهر للفقمة وكأنه قطعة أو كتلة ثلجية، أو الاختباء خلف كتلة من الجليد الطافي ثم الانقضاض على الفقمة حال ظهورها فيقضي عليها بضربة واحدة. وقد يبني الدب حائطاً من الجليد يختفي خلفه عندما يكون في انتظار بروز الفقمة إلى السطح.

(*) توصف الشديبات البحرية التي تخرج زاحفة إلى ثلوج البحار، أو تأتي إلى الشواطئ بأنها «قد سحبت»، كما يوصف الكهف الجليدي الذي تحفره الفقمة أعلى قبتها بأنه مكان مخفي للراحة.

ويؤكد ستيرلنج - بعد أن أمضى قرابة ألفي ساعة في مراقبة الدب القطبي خلال عملية الصيد - يؤكد عدة أمور في هذا الصدد، أولها أن الدب لا ينجح في محاولاته كافة، وإنما في بعضها فقط. وثانيها أن النجاح يعتمد في غالب الأحيان على نوعية الغطاء الجليدي، وعدد الفقمات الموجودة بالمنطقة، والوقت من السنة، وعمر وجنس الدب، وعمر الفقمة. وقدر ستيرلنج نسبة النجاح باثنين إلى خمسة عشر في المئة. وتزداد فرص النجاح بازدياد صبر الدب وقدرته على التربص بالفقمة لفترة طويلة انتظاراً لظهورها، علماً بان للدب القدرة على تبين قيمة الانتظار من خلال تفحصه لحالة الجليد ومن رائحة الفقمة التي يلتقطها أنفه، فهو ذو حاسة شم قوية، فهو لا ينتظر ويصبر إلا إذا كان متيقناً من جدوى الانتظار والصبر. كما لاحظ ستيرلنج أن الدب الأكبر سناً يكون عادة أكثر صبراً، فقد يظل متربصاً لفترة ثلاث أو أربع ساعات متواصلة، راقداً ومعطياً ظهره للريح وبعيداً عن خط بصر الفقمة، وخلال هذه الساعات يعمد إلى فرد عضلاته بين الحين والآخر بالوقوف ثم العودة لوضع الرقود من دون أن يحدث أدنى صوت، خاصة عندما يكون قد أيقن أن الفقمة قريبة منه.

وقبل أن تبرز الفقمة إلى السطح بلحظة أو عدة لحظات فإنها تزفر، ويكون صوت هذا الزفير وشكله ملفتاً للدب ويجعله يأخذ وضع الاستعداد للانقضاض على فريسته. ويبرز رأس الفقمة أولاً مشكلاً نفقاً مخروطي الشكل يصل إلى فتحة تنفسه والتي تبدو في الجليد السلس وكأنها ربوة صغيرة. وعندما تطل الفقمة برأسها تنثر قدراً صغيراً من الماء إلى أعلى وللأمام، وتقلب الجليد السطحي باقدامها حتى يظل النفق مفتوحاً، وحتى لا تتجمد فتحة التنفس. ولهذا فإنه يتعين على الدب أن يحس توقيت ضربته وأن يتحرك بسرعة غير عادية، وعادة ما يضرب بأحد مخلبيه أو كليهما، ثم يتبع الضربة بلطمة سريعة من الخطم، حتى إذا لم تكن الأولى قاتلة تكون الثانية مؤكدة لانهيار الفريسة. ويصف فرانز ڤان دي ڤيلد تلك العملية بأنها «معركة الأسلحة المتعاونة، فالدب يستخدم فيها كل أسلحته من مخالب، وخطم، وبراثن، وأسنان، ومن ثم تكون الضربة خاطفة ولا تترك أي فرصة لفرار الفقمة».

وعندما يهاجم الدب فقمة مسترخية تحت أشعة الشمس، أو في حالة راحة فإنه لا يجري بقدر ما ينقض. وعندما سألت ثور لارسن، وهو عالم بيولوجي أمضى أكثر من خمسة عشر عاماً في

مراقبة الدببة القطبية – عن سلوك الصيد عند هذا الحيوان رد قائلاً: «قطط. إنها كالقطط الكبيرة، سريعة بقدر لا يصدقه عقل، كما أنها عنيفة وحادة، وتحسب لكل خطوة حسابها، وتتميز بالصبر».

ومن الصفات التي طالما أثارت انتباه لارس، وستيرلنج، ودينيس أندرياشيك، وشوينزبيرج وغيرهم من علماء الحياة المتخصصين في الدب القطبي ما يبدو لهذا الحيوان من قدرة على تحليل ما يصادفه من مواقف غير مألوفة ومحاولته الوصول إلى حلول عملية، وكذا قدرته على التعلم بسرعة، خاصة عندما يواجه شيئاً جديداً، بل وقدرته على ابتكار طرق جديدة للتعامل مع مواقف مألوفة. يقول لارش: «الدب حيوان ذكي، ولعل هذا ما يبرر كثرة الأساطير التي نسجت عنه، والتي تنسب إليه قدرات غير عادية مثل استخدام الأدوات والتحرك من خلف السواتر».

وللدب القطبي فرائس كثيرة يتطلب صيد كل منها أسلوباً خاصاً، فهي تصطاد الفقمات ذات البقع والفقمات الشريطية في الأجزاء الغربية من المنطقة القطبية الشمالية، والفقمات القيثارية في الأجزاء الشرقية، والفقمات الضخمة ذات الذقون، والفقمات ذات القباب قبالة سواحل جرينلاند. وفي الممرات الجليدية الضيقة والخلجان الصغيرة (الفيوردات) تكون فرائسها حيوان النَّرْوَلْ والدلافن، كما تنقض أحياناً على ثيران المسك، وحيوان الفَظّ، والأرانب الوحشية، والإوز حين يطرح ريشه القديم ويكون فاقداً لقدرته على الطيران. ويخلف الدب وراءه بقايا الحيوانات التي يفترسها، وهنا يتضح جانب مثير من جوانب حياة الدب، فالدب البالغ الذي يتمتع بصحة جيدة عادة ما يلتهم دهن الفقمة ذات الحلقات مخلفاً باقي أجزائها وراءه ليتغذى عليها «أفراد حاشيته»، الذين عادة ما يكونون على مسافة ليست بعيدة – الثعالب القطبية وأنواع مختلفة من طيور النورس والغداف (وهذا غراب أسحم أو أسود). وفي فصل الشتاء تعيش الثعالب على ثلوج البحار وتعتمد في غذائها كلية على بقايا فرائس الدب القطبي.

ويختلف الحال بالنسبة للأنثى ذات الجراء، فهي عندما تصطاد حيواناً فإن «الأسرة» تلتهم لحمها عن آخره، كما تقوم أحياناً بالتهام بقايا فرائس الذكورالبالغين. ومن الواضح أن اقتسام الفرائس على هذا النحو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتجمع الدب القطبي، وإن كنا لا نعرف حتى الآن كيف يحدث ذلك.

والدب القطبي ليس حيواناً اجتماعياً، ولا يتحرك على هيئة قطيع، كما هو الحال بالنسبة للذئب أو الفهد – على سبيل المثال، ومجمل لغتها الحركية والصوتية يبدو محدوداً، ويستخدم في الغالب للتعبير عن رغبة الدببة في تجنب كل منها للآخر. ولعل هذا ما يفسر أن العلماء والباحثين نادراً ما شاهدوا أي تجمعات للدببة، فهي تفضل التحرك والعمل منفردة، ويستثنى من ذلك الإناث ذات الجراء. إلا أن الدببة تتجمع معاً في «مناسبات خاصة»، ولبعض هذه التجمعات قصص تروى.

ففي عام 1874م شاهد باحثان أمريكيان ما بين (250)، (300) دب قطبي في جزيرة سانت ماثيو في بحر بيرنج، وكانت «تأكل الحشائش في هدوء وسكينة وكأنها خنازير في مرعى». وروى أحد ربابنة السفن أنه شاهد عدداً من الدببة القطبية تتحرك معاً في وادٍ ساحلي ذي خضرة كثيفة في المنطقة الشرقية من جرينلاند وبدت له «كقطيع من الأغنام في أحد المراعي الإنجليزية». وفي كيب تشرشل في مانيتوبا تشاهد في شهري سبتمبر وأكتوبر أعداد كبيرة من الدببة القطبية تتحرك دائرياً في غير انتظام وكأنها تنتظر شيئاً، مثلما تفعل الدببة في منطقة سانت ماثيو عندما تنتظر تكوّن الثلوج حتى تغادر الشواطيء وتتخلى عن حياة النوم والرعي في هذه «المنتجعات الصيفية».

فالطعام هو الذي يجذب الدببة معاً، وهذا يحدث بطريقتين؛ فعندما يجد دب واحد منطقة ملائمة لصيد الفقمات فإنه من المحتمل أن يكون عشرة أو خمسة عشر دباً أخرى قد وجدت المنطقة ذاتها خلال نصف يوم أو نحو ذلك، فالذي هداه إليها هدى الأخرى أيضاً، كما أن الجيفة والخلجان الصغيرة الضيقة (الفيوردات) تجذب الدببة، فقد ذكر بعض العلماء الذي عملوا بتلك المناطق أنهم شاهدوا ستة وخمسين دباً (أحصوها وعدوها عداً هكذا) ملتفة حول بقايا حوت على ساحل سفالبارد. ويذكر لارش أنه ليس لدى العلماء تفسير لكيفية تعرف الدببة الأماكن التي يوجد بها مثل تلك الأشيا، وقد يكون لحاسة الشم دور في هذا الصدد، ولكن الدببة تأتي من مختلف الاتجاهات، وبعضها يأتي من أماكن بعيدة للغاية. ويعلق لارش على ذلك قائلا: «إنها بطريقة أو أخرى تصل إلى المكان الذي يحدث فيه شيء ما، ويكون وصولها إليه سريعا».

وحينما تجتمع الدببة معاً حول «المائدة»، فإنها لا تعبأ ببعضها بعضاً، فالدب يلتهم طعامه من دون اي تفاعل يذكر مع الآخرين، ثم يمضي كل دب في طريقه. ولكن الموقف يختلف عندما تحدث مواجهة بين انثى ذات جراء وذكر وحيد، فالأنثى في مثل هذا الموقف تؤثر الانسحاب الفوري. وعندما يلتقي ذكران بالغان على الطريق نحو انثى في دورتها النزوية تحدث معركة، وعادة ما تكون معركة عنيفة وطويلة. والواقع أن الصدام بين ذكور الدب القطبي أمر عادي إلى حد أنه ما من ذكر تعدى عمره خمس أو ست سنوات إلا تجد على وجهه آثار مثل هذه المواجهات. ومن الظواهر التي لم تفهم تماماً بعد تلازُم ذكرين صغيرين بحيث يصبحان رفيقين في الصيد والترحال.

وهكذا فإن الوحدة الاجتماعية التي تدوم لفترة هي الأم وصغارها، فهما متلازمان لمدة عامين تقوم خلالها الأم بتعليم الصيد للصغار. ويلاحظ أن التفاعل الاجتماعي بين «أفراد تلك الأسرة» متواصل وعميق. وغالباً ما يصدر عن الدببة الكبريات سناً أصوات معينة، خاصة عندما تكون في حالة توتر، فهي تفح وتنبح بصوت عالٍ، كما تصطك اسنانها، وعندما يزداد توترها فإنها تصدر صوتاً فظاً غليظاً. أما الجراء فإن لها لغة خاصة تعبر بها عن إحساساتها. فعندما تشعر بوجود بشر يراقبونها فإنها تصدر فحيحاً وصراخاً وأنيناً، كما تمصمص شفاهها محدثة صوتاً يشبه الفرقعة الخفيفة. ويذهب العلماء إلى انه من المحتمل أن تكون هناك إشارات صوتية بين الأم وجرائها باستخدام عدد من الأصوات البسيطة لتحديد أماكن الوجود، أو للاستدعاء أو التحذير من خطر مقترب مثل ذكر معتد، أو ثعلب، أو منطقة جليد متعفن.

وبطريقة ما تسيطر الأم على جرائها إلى أن تستطيع إطعام أنفسها، وحتى لا تفسد تدابيرها للصيد الذي تعتمد معها عليه. ولقد ذكر لي أحد العلماء أنه يبدو أن الأم تعمد إلى إجهاد جرائها بجعلها تمشي لوقت طويل حتى يغلبها النوم، ثم تمضي في سبيلها بحثاً عن فريسة.

ويبدو أن الدببة صغيرة العمرتتفهم المهارات الأساسية في التسلل والترصد والصيد في هدوء، ولكنها تحتاج لوقت وتدريب حتى تتقن هذه المهارات. وربما يحدث أن الأمهات تزود الصغار بالتعليمات وتقوم بتدريبها وتهيئة الفرص لها، وربما يتعلم الصغار كثيراً من مراقبتها لأمهاتها وتقليدها. وبطبيعة الحال فإن محاولاتها الأولى لصيد الفقمات تتسم بالتهور والعصبية ونفاذ

الصبر، فقد لا يتحمل الدب صغير السن مراقبة الفقمة لأكثر من عشر دقائق، وقد يندفع عابراً كتلة من الجليد الطافي ثم يغطس برأسه أولاً في ممر جليدي ضيق لتعقب فقمة. وكما هو الحال بالنسبة للحيوانات المفترسة الأخرى فإن الإحساس الشديد بالحاجة يلعب دوراً هاماً في تقوية العزيمة والإصرار على النجاح، ومعروف أن الأمهات توفر الغذاء لجرائها خلال عامها الأول وحتى قرب نهاية عامها الثاني.

وإذا كان الدب القطبي لا ينسل كثيراً فإن إناثه تبذل جهداً كبيراً وتمضي وقتاً طويلاً في تربية صغارها وحمايتها، الأمر الذي يضمن بقاءها. ولا تنفصم عُرَى الأسرة إلا عندما يصل عمر الصغار إلى ما بين أربعة وعشرين أو ثمانية وعشرين شهراً، وعندها يستقل الصغار عن أمهاتها، وغالباً ما تسعى الأم إلى التزاوج من جديد. وقد تبقى الجراء سوياً لفترة ثم سرعان ما تنفصل، وعند هذا الحد يصبح بقاء الدب القطبي مرهوناً بقدرته على العيش منفرداً، ولهذا فإن أعلى معدل وفيات بين مختلف فئات العمر هو ذلك الذي يخص تلك الفئة – الدببة في مرحلة الانتقال –.

وقد لخص عالم الأحياء تشارلز جونكل الموقف الذي يواجه الدب الصغير خلال أول صيف يقضيه وحيداً، فأوضح أنه في البداية يكون عديم الخبرة، وهي من أسس النجاح في الصيد، كما أن قدرته على توفير غذائه لنفسه تكون محدودة نظراً لصغر حجمه (مما يمكن الفقمات الكبيرة من الفرار)، وقد لا يتوفر له من القوة ما يلزم لاقتحام كهف الفقمة قبل أن تفر منه. ومن ناحية أخرى فإنه يكون بحاجة ماسة إلى الغذاء، ليس لمواصلة النمو فحسب، بل أيضاً لتكوين طبقة من الدهون يستمد منها الطاقة والغذاء خلال الأوقات العجاف. ويضاف إلى ذلك أنه يتعين عليه أن يتعلم كيف يشق طريقه ويحدد خط سيره، وأن يدرك – ثم بعد ذلك يتذكر ويسترجع – العلاقات بين التيارات، والرياح السائدة، ومواقع كتل أرضية معينة، وتعرجات الخطوط الساحلية. وأخيراً فإنه لا بد وأن يواجه منافسة مع دببة أكبر سناً، وصراعاً ضدها قد تحرمه مما يفلح في صيده من الفقمات.

ولعل أهم ما يميز أنثى الدب القطبي كفاءتها الفريدة في بناء عرينها وهي في منتصف عمرها تقريباً، وفي تعليم صغارها كيف تحافظ على حياتها، أما الميزة الكبرى في الذكور فهي نجاحها على

مدى العام في الصيد (هي أكثر ترحالاً من الإناث خلال فصل الشتاء)، كما تتميز أيضاً بفضولها الشديد، فالذكور تتحرى كل شيء يصادفها على ثلوج البحار، ومن منظور التطور فإن ذلك يندرج تحت سمة وسع الحيلة. ولعل هذه السمة هي التي تجعل الذكور تأكل كثيراً على فترات ليست متباعدة، والجانب المظلم في هذا الصدد اليوم أنه مع انتشار معسكرات التنقيب عن النفط واستخراجه، وترك المنشآت العسكرية مهجورة فقد يلقى الدب حتفه من جراء تذوقه الفضولي لأشياء ومواد يجدها في تلك الأماكن.

* * * * *

من بين التحف الشهيرة للفن الدورستي (وهو أحد نتاجات الحضارة الدورستية التي ازدهرت في المنطقة القطبية الشمالية ما بين عام 500 قبل الميلاد، وعام 1000 من الميلاد) التي يشير إليها علماء الآثار «بالدب العائم»، أو «الدب الطائر». ولعل أشهر هذه التحف ما عثر عليه في موقع يعرف باسم «آلير نيرك» بالقرب من القرية التي تعرف حالياً باسم «إيجلوليك» في شبه جزيرة ميلفيل في الجزء الشرقي من القطاع الكندي في المنطقة القطبية الشمالية. وهذه التحفة منحوتة من العاج طولها نحو ست بوصات، وترجع إلى قرابة عام 500 من الميلاد. وفي هذه التحفة ينساب الجسم والرأس، وتمتد الأرجل الأمامية للخلف بطول الأجناب، بينما الأرجل الخلفية في المؤخرة، وهكذا يبدو الدب وكأنه ينزلق أو يطير. ويلمح الناظر لتلك التحفة مسحة بشرية في شكل الأرجل الخلفية، وتبرز المنحوتة الهيكل العظمي للدب وعموده الفقري وضلوعه، وفقارات عنقه، ومفاصل أطرافه. أما الجانب السفلي - الصدر والبطن - فهو مقعر طولياً بما يوحي عدم وجود جسم، ويوجد على الرقبة حجيرة دقيقة لها غطاء خشبي منزلق، ويبدو أن هذه كانت ذات يوم مملوءة بالمغرّضة (أكسيد الحديديك المائي الطبيعي).

ويبدو أن الحضارة الدورستية - خاصة قرب نهايتها - قد خضعت لتأثير ونفوذ كهنة الشامان (الذين كانوا يستخدمون السحر لمعالجة المرضى وللكشف عن المخبأ والسيطرة عليه)، كما يبدو أن الشامان هم الذين نحتوا مثل هذه التماثيل. وعندما يكون الشامان في قمة النشوة - هكذا كانوا

يعتقدون – فإنه يطير بعيداً تاركاً جسده، ويذهب إلى عالم الروح في قاع البحر أو على سطح القمر، وهناك يتشاورون وينزلقون نيابة عن أنفسهم وعن مرضاهم، وأحياناً كثيرة كان يصحبون معهم في رحلاتهم هذه أرواحاً قوية مساعدة، ومن بين هذه الدب القطبي الذي لم يكن له نظير. فالدب كان يساعد الشامان على الخروج من جسده حتى يمكنه الطيران. ويدل الهيكل العظمي المنحوت على هذا الرحيل للروح دون الجسد.

ومن الأمور المدهشة في هذه المنحوتات درجة الواقعية، وفي البداية ظننتها نمطية كتلك المنحوتات التي يصنعها الأسكيمو المحدثون من الحجر الصابوني (وهو حجر ناعم الملمس). ولكن بعدما شاهدت الدب القطبي على الجليد. أدركت أن نظرتي ومفاهيمي هي التي تتسم بالنمطية. فالدب القطبي في بيئته الحقيقية يتخذ أوضاعاً ويأتي بحركات كالتي تعبر عنها المنحوتات بقليل من المبالغة، وهذا يذكرنا مرة أخرى بعين المواطن الأصلي. وببذور الواقعية التي تنطوي تحت افكار للمواطنين الأصليين تبدو مبالغة.

وذات مرة سألت راي شوينزبيرج عن الدببة القطبية التي تتجه للبحار وتسبح وتغطس حتى تصل إلى قاع المحيط مع رفاقها من «الأنجاكوك». ورد شويتزبيرج على سؤالي قائلاً: «لقد شاهدت ذات يوم مجموعة من آثار أقدام لدب، فتابعتها فوجدتها قد امتدت حتى حافة حفرة كبيرة في الثلوج حيث تلاشت، ولم يكن هناك اي آثار تدل على خروج الدب من تلك الحفرة، ولم يظهر ما يدل على أن الدب قد عاد إلى السطح. وهكذا فإنه يسهل عليك أن تتفهم الرأي الذي يذهب إلى أن هناك دببة تسير في قاع المحيط».

فإذا كنت قد شاهدت دباً قطبياً يسبح على عمق ثلاثين قدماً تحت السطح وفي مياه صافية، ووجدته يجدف بأرجله أو ينزلق، ثم يدور ويتدحرج هناك وكأنه قُضَّاعَة (ثعلب الماء طويل الذنب قصير القوائم) فلا تعجب إذا قيل لك إن الدب يستطيع الطيران!!

والواقع أن هذا التجسيد الفني والفلسفي للدب القطبي في حضارة الأسكيمو وما سبقها من حضارات يجعلنا نعتقد أنه مستمد من علاقة خاصة مع هذا الحيوان، فهناك أوجه شبه كثيرة بين الأسكيمو والدب القطبي من حيث توازي خطوط تكيفهما الناجح مع بيئة المنطقة القطبية الشمالية. فكلاهما يعتمد على الفقمة ذات الحلقات (وإن كانت هذه ليست المصدر الأساسي

لمعيشة بعض جماعات الأسكيمو) . كما أن ثمة تشابهاً كبيراً بين طرقهما في الصيد : التربص في صبر ولفترة قد تطول، ثم التسلل في هدوء نحو الفريسة . ومعروف أن الدب القطبي قد وصل إلى المنطقة قبل الأسكيمو بوقت طويل، ويرجح أن الأسكيمو قد تعلموا كثيراً من مراقبة الدببة أثناء عملية الصيد، وبطبيعة الحال فقد أدخلوا تحسينات كثيرة على طرق الدب في الصيد .

ومن ناحية أخرى فإن بعض جماعات الأسكيمو تتحرك شتاء في اتجاه ثلوج البحر تماماً كما تفعل الدببة، وبعد حوالي أسبوعين – أي عندما تنضب المنطقة ولا تجد كلا الفئتين من الصيادين (الأسكيمو والدببة) ما تصطاده – يرحلون إلى مكان آخر . والأسكيمو – شأنه شأن الدب القطبي – يحبذ العيش على حافة ثلوج البحار وعلى طول الشواطئ . وأخيراً فإن الأسكيمو – شأنه شأن الدب القطبي كذلك – مهدد دائماً بخطر الموت جوعاً إذا ما اختفت الفقمات .

وبالمثل، فإن الإنسان والدب يعانيان معاً من قسوة المناخ، الأمر الذي يبدو أنه قد وهب كلا منهما قدرة هائلة على التحمل الناجح، ولا غرابة إذاً أن استخدم كل من علماء الأجناس البشرية وعلماء الحياة الألفاظ ذاتها في وصفهما : « شديد »، « واقعي »، « عنيد »، « مبدع »، « سريع التعلم » . ولكن ثمة فرقاً جوهرياً، فالدب أحياناً يخرج عن شعوره خلال عملية الصيد . وحول هذه الظاهرة كتب أحد الرحالة يقول : « لقد شاهدت دباً قطبياً ظل يراقب فقمة قرابة نصف يوم، ولما فشل في اصطيادها بكل الوسائل أخذ يزأر بشكل فظيع، ويقذف بالجليد في الهواء ثم هرول بعيداً عن المكان » . وأفاد بعض المراقبين كذلك بأنهم قد شاهدوا دببة تحطم النتوءات الجليدية حولها، أو تضرب الماء بأقدامها مراراً من شدة ما أصابها من إحباط إزاء فشلها في اصطياد الفقمات . أما الأسكيمو فإنهم نادراً ما يخرجون عن شعورهم، وبالتأكيد يحافظون على هدوئهم ورباطة جأشهم في أثناء عملية الصيد .

والارتباط بين الأسكيمو والدب القطبي أمر يسهل فهمه على ضوء الخطوط المتوازية للبيئة العامة على النحو الذي أوردناه آنفاً، وأيضاً على ضوء الاحترام الذي يكنه الأسكيمو لكل صياد ماهر . ولكن ثمة أمراً آخر على قدر أكبر من الأهمية، وهو أن كلاً منهما فريسة للآخر . ففي الماء يخشى الدب القطبي كلاً من الحوت القاتل والفقظ نظراً لأنه يفتقر لأسلحة فعالة للقتال في الماء . أما على الأرض فإنه يأخذ حذره من كل من الإنسان والفقظ، ولكن بوسعه أن يناور ويتسلل ويترصد،

وإذا كان جائعاً فإنه يعمد أولاً إلى استكشاف قدرة كل منهما على المقاومة. ولا بد أنه قد دار بخلد كل إنسان أحس بمدى تعرضه للخطر وهو على ثلوج البحار صورة ذلك الحيوان القوي الماكر ذي العزيمة والإصرار والصبر، ففي هذه المناطق غير المستوية يستطيع الدب أن يقترب من فريسته من دون أن تحس به. ومنذ ارتياد الأوروبيين للجنوب الأفريقي أصبح خوف الإنسان من الوقوع في براثن الحيوانات المفترسة أمراً متوارثاً. ولا بد أن يزداد الشعور بالخوف عندما يكون الإنسان وحيداً في مناطق كتلك يراقب حركة الفقمات وحيداً في عصر يوم من أيام الشتاء، ويتلفت حوله في مكان نصف مضيئ، وقد استبدت به يقظة فطرية وهو يتوقع أن يسمع في أي لحظة وقع أقدام دب قطبي.

ويقترب الدب من الإنسان وكأنه فقمة في حالة استرخاء، ولا بد أن بعض تلك المواجهات قد انتهت بانقضاض الدب على الإنسان، وبضربة واحدة يرديه قتيلاً. ولكن بعض المواجهات قد انتهت بانتصار الإنسان حيث يتمكن من رمي الدب بحربون (حربة تستخدم في صيد الحيتان) أو سكين فيخر صريعاً من جراء سوء التقدير. وبطبيعة الحال فقد سعى بعض المغامرين والصيادين إلى افتعال مثل تلك المواجهات، وربما لمجرد تأكيد سطوة البشر وتفوقهم على سائر المخلوقات. فعندما يواجه إنسان دباً فإنه يواجهه بحياته كلها، فإذا نجح الإنسان في تلك المواجهة يزداد اعتزازه بنفسه وببني جلدته عموماً، وإذا انسحب يكون قد آثر البقاء حفاظاً على نفسه الغالية، خاصة في تلك البيئة القاسية.

ولقد سأل كوندا راسموسين (وهو من مرتادي المنطقة القطبية الشمالية) أحد الأسكيمو عن السعادة فرد الأخير قائلاً: «السعادة هي أن تصادف آثار أقدام حديثة لدب، وأن تسبق بزحافتك الزحافات الأخرى كافة». أما بالنسبة لهؤلاء الذين صبوا جل اهتمامهم على المجردات الجغرافية، والذين غرقوا في أحلام الفوز بثروات طائلة من العالم الجديد. فقد كان للدب صورة أخرى. ففي شتاء عام 1597م شاهد بارنتس(*) ورجاله الشمس وقد سطعت مبكراً، الأمر الذي جعلهم يوجسون خيفة، وكانوا يخشون الدببة بعد أن قتلت اثنين منهم في العام السابق، ومن ثم ازدادوا

(*) ويليم بارنتس ملاح هولندي من القرن السادس عشر قام بثلاث حملات استكشافية في المنطقة القطبية الشمالية بحثاً عن ممر في الشمال الغربي، واشتهر بدقة خرائطه واتساع مدى حملاته. (المترجم)

يقظة خشية أن تكون الدببة قريبة منهم. وشاهد الرجال الدببة وهي تجر قطعاً كبيرة من اللحم (لحم حوت قذف بنفسه إلى الشاطئ، أو ضل طريقه إليه)، فازدادوا اضطراباً.

وفي أبْريل 1597م وبعد أن غابت الدببة تماماً عن الأنظار لمدة أسابيع متتالية، تجرأ أحد الرجال وزحف إلى داخل عرين، لكنه لم يتوغل بداخله إذ استبد به الرعب، على حد وصف جيريت دي ڤير في حولياته عن تلك الحملات الاستكشافية. وبالمثل فقد كتب جاكوب ڤان دربرَجّ لاحقاً (عن حملة عام 1634م) مشيراً إلى ما تعرض له الملاحون من خطر من جانب الدببة، وكانت الصورة التي رسمها للدب القطبي مخيفة حقاً، وهي الصورة التي ثبتت تماماً في قول الملاحين طوال فترة الاستكشاف في المنطقة القطبية الشمالية. فقد ذكر ڤان دربرَجّ أن الدببة كانت تظهر في مجموعات بشكل مفاجئ تماماً، خاصة عندما يطبق الضباب على الشاطئ، وتبدو كأنها ذئاب بيضاء، وكانت تنبش القبور وتنتزع الجثث منها، ولكنها لم تكن تأكلها، وهو ما استبشر به الملاحون خيراً. وكانت الدببة تدخل المعسكرات بجرأة غريبة وفي هدوء تام، ولم يفزعها صوت طلقات البنادق نظراً لأنها قد تعودت على صوت فرقعة الجليد عندما تدوسه بأقدامها. وقد روي المكتشفون أن الدببة كانت تتسلل إلى المخازن الملحقة بالمعسكرات وتعبث ما بها من مؤن وتحطم المعدات، وتبينوا أنها قد تمكنت من فتح علب الطعام بمخالبها. والذين أكلوا لحم الدب من دون تفكير تبينوا أن ضحاياهم قد خدعوهم وأصابوهم بالتسمم فباتوا يعانون من الخمول المرضي، والصداع الشديد، وتقشر الجلد، وسقوط الشعر من جراء أكل كبد الدب، ومرض التريشينا الذي ينجم عن أكل لحم الدب (ديدان صغيرة تعيش في الأمعاء وفي الأنسجة العضلية)(**).

ولقد لجأ الأوروبيون لقتل كل دب صادفهم، وربما كان ذلك راجع لكونهم بعيدين بآلاف الأميال عن أوطانهم، ومجهدين ومحبطين بسبب طول مدة الرحلات والحملات وسوء الأحوال المعيشية على ظهر السفن. وقد يرجع أيضاً إلى أن العملية كانت نوعاً من التسلية، وما أقلها خلال الرحلات إلى المنطقة القطبية الشمالية في تلك الأوقات. وكان الرحالة يطلقون النار على الدببة وهم على ظهر سفنهم، وأحياناً لمجرد التدريب على الرماية. ويروى أن أحد ربابنة سفن صيد

(**) يحتوي كبد الدب القطبي على تركيزات سامة من فيتامين (أ) ويترتب على أكله الإصابة بكافة أعراض الإفراط في تناول هذا الفيتامين، كما أن نحو ستين في المئة من الدببة الموجودة حالياً مصابة بديدان التريشينا.

الحيتان في خليج أمندسن لم يجد شيئاً يفعله في يوم من أيام صيف عام 1896م، فالتقط بندقيته وقتل خمسة وثلاثين دباً دفعة واحدة. ومما يسهل مهمة القتل – والرغبة فيه – أن الدببة تحت تأثير فضولها الشديد كانت تتجه نحو السفن، وهكذا كانت تمضي إلى حيث تلقى حتفها. ويحكى أنه في عام 1875م وبينما كان أفراد طاقم إحدى السفن يلعبون كرة القدم على سطح جليدي وتحت ضباب كثيف إذ بدب قطبي يظهر فجأة وظل يطارد الكرة، فلاذوا بالفرار إلى سفينتهم. ومثل هذه الروايات جعلت البعض يتجاوزون كل الحدود في تعاملهم مع الدب القطبي فراحوا يقتلونه من دون مبالاة.

والأسوأ من ذلك كله استغلال صيادي الحيتان والفقمات، وأيضاً المستكشفين والمغامرين خلال القرن التاسع عشر للعلاقة الحميمة بين أنثى الدب وصغارها، واتخاذهم إياها وسيلة للتسلية. ويروي وليام سكورسبي واقعة مؤداها أن مجموعة من صيادي الفَظّ أشعلوا النار في كومة من دهون ذلك الحيوان لجذب الدببة إليها، وكان بالقرب من المكان أنثى دب وبصحبتها جروان، فما كان منها إلا أن تركت الجروين عند مسافة قصيرة، ثم اتجهت نحو النار وحاولت انتزاع أجزاء من الدهن منها. فألقى الصيادون – وكانوا على ظهر سفينتهم – نحوها بقطع أخرى من الدهون حملتها سريعاً إلى جرائها. وعندما كانت الأم وأشبالها يتناول آخر قطعة أطلق الصيادون رصاص بندقياتهم على الجروين فخرا صريعين على الفور، ولمدة نصف ساعة ظلت الأم تضع مخالبها على شبل ثم على الآخر محاولة إيقاظهما ظناً منها أنهما في غفلة، ثم ابتعدت عنهما قليلاً وأخذت تئن، ثم عادت لتضع مخالبها برفق على وليديها. ولما أحس الصيادون بالملل – أو ربما الندم – أطلقوا النار على الأم فأردوها قتيلة إلى جوار جرويها الصريعين.

وأحياناً كان الصيادون يأسرون الجراء حية لبيعها لحدائق الحيوان أو لإهدائها. ويروى أن شخصاً يدعى السير آلين يونج قد أطلق النار على أنثى دب وأحد صغارها على سطح سفينة بخارية، وبالحيلة تمكن من أسر الجرو الآخر وأهداه لأمير ويلز(*). وتذهب الرواية ذاتها إلى أن الجرو الأسير

(*) إعتاد أعضاء الأسرة الملكية البريطانية تلقي دببة قطبية حية على سبيل الهدية من المكتشفين والمغامرين، وذلك منذ القرن العاشر فصاعداً، وقد استخدمها أعضاء الأسرة الملكية بدورهم كوسيلة أو اداة دبلوماسية حيث كانوا يهدونها بدورهم لحكام شمال افريقيا والشرق الأوسط ومعها حاشية من طيور السنقور.

ظل يقاوم بعنف إلى أن تمكن البحارة من قيده بالسلاسل إلى جدار السفينة، ثم قاموا بفصل رأس الأم عن جسدها وسلخوا جلدها ولفوا الجرو القتيل به عله يرتاح!!

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام تمكن الجرو الأسير من تحطيم قيوده، الأمر الذي جعل البحارة يضعونه في قفص صغير أمضى فيه بقية أيام الرحلة، وإن ظل يصرخ ويشد السلسلة التي كانت لا تزال تطوق عنقه. وفي الوقت نفسه فقد ذاق الأمرّين على يد كلب السفينة الذي كان يسرق طعامه ويعض مخالبه. ويمكن تخيل مصدر اللحم الذي كان يقدم إليه، إذ ما أن وصلت السفينة إلى وجهتها في إنجلترا حتى كان الجرو راقداً في قفصه يتشنج ويلهث، ونفق بعد ذلك بأسبوع. وعلق فرانك باكلاند على تلك الواقعة التي تعكس موقف الأوروبيين من ذلك الحيوان في ذلك العصر - علق قائلاً: «ولو أنه - أي الجرو - قد عاش لكان شرفاً كبيراً لوطنه ولجنسه...».

وإذا كانت هذه الروايات تعود إلى عصر غير عصرنا، فإن ما تكشف عنه من جبن، وافتقار للحس، وتصور خطأ لماهية المغامرة أمر لا يزال يؤرقنا ويضرّ بنا وببيئاتنا. فبالنسبة لهؤلاء الناس لم يكن للدب قيمة ولا فائدة، ومن ثم كانت تلك الوحشية في تعاملهم معه. وفي تلك الفترة ذاتها كان الأسكيمو يقتلون الدب القطبي باحترام، وفي إطار من التزامات روحانية معينة، وجرت عادتهم على «استرضاء» الدب الصريع بالهدايا، وهي عادة نظر إليها الأوروبيون الذين ارتادوا المنطقة مبكراً على أنها «خرافة»، وإن كانت تنم بالفعل عن إدراك بما كانوا يفعلون. ولا ينكر أحد أن الأوروبيين لم يتوافقوا تماماً مع البيئة القطبية الشمالية، وكان الدب في نظرهم رمزاً لتلك الأرض العنيدة غير الكريمة، والقليل من الندم الذي أحسوا به من جراء تعاملهم الفظ مع الدب القطبي قد تحول في النهاية إلى إعجاب بذلك الحيوان الذي تعكس بعض جوانبه صورة لهم أنفسهم. ولقد مرت نظرة الأوروبيين للدب القطبي بعدة مراحل، حيث كان في البداية شبحاً مخيفاً، ثم بات عقبة في سبيل التوغل الغربي في المنطقة، ثم مصدر إزعاج وقلق، وأخيراً أصبح مخلوقاً ينطوي على نبل غامض وهو يتجول في أراضي موحشة تبعث على الاكتئاب والأفكار السوداء. مخلوق رومانسي يعيش وحيداً ومستغرقا في ذاته!!

أما في روايات الأسكيمو - منذ قديم الزمان وحتى الآن - فإن للدب شكلاً آخر، فهو يصور على أنه رفيق ومعاون من نوع أو آخر، ولعل هذا ما جعلهم يصورونه كمخلوق له عشر أرجل أو

أكثر من ذلك. وجاء في إحدى روايات الأسكيمو الشائعة أنه «ذات شتاء لم يعد الناس الذين خرجوا للصيد بعيداً هناك، فقد صادفهم دب ذو عشر أرجل (الكوكوجياك بلغة الأسكيمو)، وبدا وكأنه عدة رجال يمشون على الثلوج، وخرج آخرون لاقتفاء أثر المفقودين، وشاهدوا ذلك الدب واندفع رجل نحوه بقصد أن يجعله يجري وراءه حتى مكان لا يستطيع فيه الكوكوجياك الحركة، وهناك جرى الرجل حوله وهاجمه من الخلف بحربة. ومنذ ذلك اليوم يخرج الصيادون ثم يعودون سالمين». وهناك قصص كثيرة أخرى على المنوال نفسه.

وغالباً ما تتضمن هذه القصص إشارات واضحة إلى بيولوجية الدب (وكيف أن جسمه الذي يأخذ هيئة الإسفين لا يغوص في الثلوج مثلما ما يحدث للإنسان)، وأيضاً إلى شخصيته. ففي إحدى قصص الأسكيمو إشارات واضحة هي محاولة لتفسير تجوال الدب القطبي وحيداً مكتئباً، فالقصة تقول إن دباً قد وقع في حب امرأة شابة متزوجة، وحذرها من إخبار زوجها بأمر لقاءاتهما وإلا فإنه سيحاول أن يقتله. ولكن المرأة – وقد أخذتها الشفقة على زوجها لفشله المتكرر في صيد الدببة – تخبره بمكان اختفاء عشيقها، ومن بعيد سمع الدب همساتها لزوجها في الظلام فيترك عرينه قبل أن يأتيه الزوج، ويتوجه مباشرة إلى المنزل الجليدي لتلك المرأة، ويرفع مخالبه ليحطمه، ولكنه يتراجع في آخر لحظة، ولشعوره بأن المرأة قد خانته سيطرت عليه حالة من الحزن الشديد جعلته يهجر المكان ويهيم على وجهه وحيداً في رحلة لا نهاية لها.

وقد تبدو قصة كهذه مؤثرة بالنسبة للعقل الأوروبي، ولكنها بالنسبة للأسكيمو تنطوي على خطر جسيم، فالدب الذي هام على وجهه هكذا، وشغل باله بأمور كتلك، لن يلتفت لوجهته وقد تزل أقدامه في الجليد الرديء، وقد لا يتبين العلامات الدالة على وجود الفقمات التي هي غذاؤه.

لكن العلم الحديث لا يقر مثل هذه التفسيرات الخيالية لرحلات الدب القطبي الطويلة عبر المحيط المتجمد، والتي يقوم بها وحيداً عادة، فأينما ذهب الدب سوف يجد شيئاً في الطريق. ففي (الفترة من عام 1978م حتى عام 1981م قتل أربعة وثمانون دباً قطبياً في القطاع الكندي من المنطقة القطبية الشمالية بحجة أنها تشكل خطراً على حياة البشر. ولا نستطيع أن ننكر أن الخطر قائم بالفعل، ففي عام 1973م قتل دب سائق جرار بالقرب من جزيرة كِندال في بحر بيفورت. وفي المنطقة ذاتها وفي عام 1975م صرع دب عامل إنشاءات كان موجوداً على سطح صندل. وفي

أغسطس من عام 1975م أيضاً دهس دب قطبي رجلاً بقوة كان ضمن مجموعة علمية تقوم ببعض البحوث والدراسات في جزيرة سومرست. وفي عامي 1966م، 1967م، وفي تشرشل بمانيتوبا دهست الدببة بعض الناس، وفي عام 1968م قتلت صبياً، ثم في عام 1983م صرعت رجلاً.

وترتبط هذه «الخسائر» البشرية بعمليات التنمية الصناعية في المنطقة القطبية الشمالية، وإن كان للهجمات التي «شنتها» الدبب في تشرشل مجموعة من الملابسات الغريبة. فلعدة سنوات كانت الدببة في المنطقة الواقعة عند الطرف الجنوبي لخليج هدسون ترتاد الشواطئ في أواخر شهر يولية وأوائل شهر اغسطس، مع الثلوج المنجرفة في اتجاه الجنوب. وعادة ما كانت الإناث تبني عرائنها لتقضي فترة الشتاء بها في المنطقة الواقعة بين نهري نلسون، وتشرتشل، بينما تتجه الذكور البالغة والحيوانات شبه البالغة من الجنسين شمالاً بطول الساحل إلى المناطق المجاورة لكيب تشرشل على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من القرية، حيث يزداد احتمال تكون الجليد الساحلي مبكراً، وتبقى هناك بعيداً (مؤقتاً) عن المناطق التي تكثر بها فرائسها طوال شهري سبتمبر واكتوبر. ولم يكتشف هذا الترتيب إلا في حقبة الستينات عندما بدأت الدببة تظهر في قرية تشرشل. ويذهب العلماء إلى أن عمليات صيد الدب القطبي قد قلت بشكل واضح في عام 1957م وما بعده نظراً لأن شركة خليج هدسون قد أغلقت موقعاً لها عند مصب نهر نلسون، كما أُغلقت قاعدة تابعة لقيادة القوات الجوية الاستراتيجية الأمريكية وتوقفت المناورات والتحركات العسكرية في فورت تشرشل، الأمر الذي جعل عدد الدببة يتزايد بشكل واضح. وفي منتصف الستينات بدأت الدببة القطبية ترتاد الأماكن التي تحرق فيها القمامة في تشرشل مما سبب الرعب للسكان، الذي بدؤوا بدورهم يعذبون الدببة بإطلاق الرصاص عليها من أسلحة ذات عيار صغير، ومطاردتها بالسيارات.

وعلى الرغم من ازدياد عدد الدببة في السنوات الأخيرة، وعلى الرغم من أن هذه الزيادة مستمرة فإن السلطات المحلية في تلك المناطق قد بدأت في اتخاذ سلسلة من الإجراءات لحماية الدب من الانقراض، من بينها برامج للتوعية، والتحذير، والردع، والإدارة، الأمر الذي أدى إلى انخفاض ملموس في عدد «الضحايا» من الدب القطبي، وفي الوقت نفسه قل عدد هجمات الدببة على القرى ومواقع العمل. واليوم ينظر سكان تشرشل للدببة نظرة مختلفة، فهي قد أصبحت عاملاً من عوامل الجذب السياحي ويجد الزائر والمقيم على حد سواء متعة في مشاهدتها ومتابعتها، ناهيك

عن تفاؤل البعض بها. لكن يبقى الفضول ملازماً للدب القطبي إذ تشد انتباهه مظاهر الحضارة الحديثة وتجذبه نحوها، مثل السنة اللهب والدخان المتصاعد من مواقع صهر المخلفات المعدنية حيث لقي دب حتفه من جراء محاولته التهام أجزاء من بطارية سيارة!!

وهناك دائماً عشرات من المصورين الهواة والمحترفين، ومخرجي الأفلام السينمائية والتليفزيونية الذين يقذفون الدببة بمختلف ما يتوفر لهم من أشياء، ويزعجون سكان تشرشل حيث يلحون عليهم لمساعدتهم في إعداد مختلف المناظر على خلفية الأفلام التي يصورونها وفوق هذا كله وأهم أن قرية تشرشل هذه تمثل لحظة في الزمان يواجه فيها حيوان يمر بمرحلة تطور متسارع نسبياً مخلوقاً آخر يتغير بسرعة هائلة. فقرية تشرشل خير رد على سؤال حول ما تعنيه التنمية الصناعية بالنسبة للمنطقة القطبية الشمالية، وما يعنيه قتل ثلاثين دباً أو نحو ذلك كل عام في شمالي كندا بحجة أنها تشكل خطراً على حياة البشر وتسبب مضايقات لهم. وينبغي الا ننسى أن الدببة في تشرشل ترحل عنها في اليوم الذي تصبح فيه الثلوج على الأرض من القوة بحيث تتحمل وطء أقدامها.

ولقد أدت البحوث التي أجريت مؤخراً حول حجم وديناميكية تجمعات الدب القطبي إلى تعليق نشاط الصيد في سفالبارد، وحظر جزئي في الولايات المتحدة الأمريكية(*). وتتواصل عمليات صيد الدب القطبي على يد السكان الأصليين في جرينلاند، أما في كندا فقد تم تحديد حصة للصيد، وهو نظام سار تطبيقه على ما يرام، وإن كانت الحصص تخضع لمزايدات سياسية، وكما ذكر لي أحد العلماء فإن نظام الحصص هذا يقصد به ضمان صيد عدد كافٍ بأكثر مما يهدف إلى وضع قيود على عملية الصيد.

وفي اجتماع ضم العلماء المتخصصين في بيولوجية الدب القطبي عقد في رحاب جامعة الاسكا عام 1965م لتبادل المعلومات والمشورة، صدر تحذير بانه قد يكون من الضروري اتخاذ سلسلة من الإجراءات لحماية الدب القطبي من الصيد الجائر. لكن الخطر الأعظم – باتفاق آراء العلماء – لا

(*) على وفق احكام القانون الخاص بحماية الثدييات البحرية والذي يتضمن البنود الاكثر تشدداً من اتفاقية الاتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية ليس هناك حدود موسمية للصيد، ولا حدود بالنسبة لعدد الدببة التي يحق للصيادين من اهالي المنطقة قتلها، ولا يكفل هذا القانون اي حماية الجراء، ولا للامهات ذات للجراء، ولا للإناث الملتجئة للعرائن.

يكمن في الصيد وإنما في التنمية الصناعية وما يترتب عليها أو يرتبط بها . فالقائمون على أمر التنمية الصناعية يطلبون بيانات ومعلومات حول بيولوجية الدب القطبي ونظامه البيئي(*) . وأشد ما يقلق العلماء ثلاثة أمور؛ أولها التسمم البيئي، فالدببة تتغذى الآن على الطبقة العليا من سلسلة غذائية بحرية ذات تركيزات عالية من مركبات سامة (PcBs)، ومعادن ثقيلة، وهيدروكربونات مُكَلْوَرة مثل الدايلدرين (وهذا مركب مُتبلِّر أبيض يستخدم كمبيد للحشرات)، وكلها قد وجدت في الدببة القطبية . وبالمثل فإن النفايات الناجمة عن عمليات الحفر والتعدين تشكل خطراً بالغاً على الدب القطبي . أما مصدر القلق الثاني فهو تدمير عرائن الإناث وهي بداخلها نتيجة للحركة الجوية الكثيفة (خاصة عندما تحلق الطائرات أو تحوم على ارتفاع منخفض)، وإنشاء ممرات وطرق للنقل، والمسوحات السيزمية (الزلزلية) المتكررة . وأما مصدر القلق الثالث فهو تأثير التنمية الصناعية في توزيع الفقمات، ومن ثم توزيع الدببة ذاتها .

وأكثر المشاكل إلحاحاً إيجاد طريقة لمنع الدببة من التسلل إلى المواقع الصناعية، وإن كان يتعين ألا تسبب أي طريقة أو وسيلة في إلحاق أذى بالدببة . ولقد أثبتت السياجات المكهربة والرصاصات المطاطية قدراً من النجاح، لكن ليس من السهل إيقاف الدب القطبي أو خداعه .

وفي ضوء هذه المشاكل القائمة والمحتملة فقد طالب علماء الأحياء المتخصصين في بيولوجيا الدب القطبي والتابعين للاتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة والمواد الطبيعية بمنع كافة الأنشطة في مناطق محددة، أو ما أسماه عالم روسي « مناطق سلام »، حيث تتجول الدبب بحرية ولا يقلقها أو يثير فضولها أي مشروعات بشرية .

* * * * *

(*) يصاب ويقتل عدد من الدببة خلال إجراء البحوث والتجارب بسبب الإهمال وسوء تصميم البحوث والتجارب .

وبعيداً عن كل تلك المشاكل، وكل ذلك القلق فقد اصطحبت في عصر يوم من أيام شهر مايو اثنين من علماء الأحياء المتخصصين في الدب القطبي في رحلة بالهليوكبتر، وكانا يبحثان خلالها عن إناث ترعى جراءها على ثلوج البحر في منطقة لانكاستر ساوند. كنت على صلة وثيقة بهما، ولكني دهشت إزاء التضارب بين نظرة كل منهما لعمله. فقد روى لي أحدهم أنه قد شاهد ذات يوم أنثى دب ترضع جراءها، قريباً من كتلة جليدية وكانت تحملق بهدوء في الثلوج المترامية، ويبدو أنها لم تلحظ وجودي على مسافة منها. ومضى يقول: «ولما شاهدت ذلك المنظر قلت لنفس: بحق السماء لماذا جئت لأكدر صفو هذه الحيوانات»؟.

ولقد اختلف هذا العالمان كذلك في المخدر الذي يستخدم لشل حركة الدببة، على الرغم من أن هذا المخدر (الكيتامين أو الرومبون) أفضل بكثير من الذي كان يستخدم في الماضي (السيرنيلان) والذي كان يسبب مضاعفات نفسية واضطرابات في التنفس. ولا تزال هذه المسألة محل جدل بين العلماء، ويقول أحدهم: «في كل مرة طاردت دباً لكي أغرس في جسمه سهماً يحمل المادة المخدرة كان يدور في داخلي صراع: كيف أبرر حصولي على المعلومات بطريقة كهذه؟».

وفي عصر ذلك اليوم أيضاً، واستكمالاً لواجباتنا «الكئيبة» لجمع وترتيب المعلومات والبيانات، ووضع أطواق لاسلكية حول أعناقها تمكننا من مراقبتها لاحقاً بوساطة الأقمار الصناعية، شاهدنا دبباً كثيرة. وهبطنا لبرهة لنفحص بقايا فظ قتله دب، أو نبشها آخر، وشاهدنا من الجو جراءً في صحبة أمها تجري بعيداً عن الطائرة وأزيزها، كما شاهدنا ذكوراً وإناثاً معاً (فقد كان ذلك موسم التزاوج) وكانوا ينظرون إلى أعلى في دهشة وذهول.

وخرت إحدى الإناث التي رميناها بسهم مخدر بالقرب من جليد متناثر، وبينما قام العالمان بالقياسات المطلوبة نظرت إليها وتفحصت مخالبها، وكنت قد علمت أن بمخالب الدب القطبي حلقات باهتة اللون يستدل منها على عمره (كما هو الحال بالنسبة للفقمة ذات الحلقات. ولكني لم أجد شيئاً، أو - لكي أكون دقيقاً - لم أتبين شيئاً. وقمت أيضاً بفحص فرائها وكأنني أتفحص قطعة فنية في متحف للفنون الجميلة. وأقر بأنني قمت بذلك كله على مضض، وبعد الانتهاء منه ذهبت بعيداً لأجلس على شريحة من ثلوج البحر. وكان النهار جميلاً، والسماء صافية، والحرارة

نحو خمس درجات فهرنهايت، ولم تكن هناك رياح.

وبينما أنا جالس هكذا كان العالمان يقلبان جسم الدب الغائب عن الوعي، ومن بعيد لمحت عضوها التناسلي بلونه الأحمر الفاتح وقد بدت شفتاه متورمتين. وأحسست بأنني قد تخطيت حدودي بالاطلاع على أدق أسرارها، وطوال الجزء المتبقي من اليوم لم تفارقني تلك الصورة المؤلمة والتي تكشف عن بعض مما يتعرض له مثل هذه الحيوانات.

الفصل الرابع

لانكاستر ساوند

النرول: كركدن البحر
(موندون مونوسيروس)

أنا الآن واقف عند حافة ثلوج البحر، والتي تعرف بحافة الجليد الطافي عند مصب خور أدميرالتي، في شمال جزيرة بافين على بعد ثلاثة أو أربعة أميال من الشاطئ. والصلابة التي أحس بها تحت قدمي تكذب المعنى الغائي لعبارة «الخروج إلى البحر». وعلى طول الحافة البيضاء - السوداء للثلوج والماء تنتشر معسكرات الأسكيمو، وجميعنا قد أتى إلى هذا المكان من منطقة أخرى - نوفيوا التي تبعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب عند طرف شبه جزيرة أولوكسان. فنحن هنا من أجل اصطياد النرول، أما الأسكيمو فقد خرجوا إلى المياه المفتوحة عند لانكستر ساوند في انتظار تحطم آخر الحواجز الجليدية هنا حتى يستطيعوا الولوج إلى مواضع غذائهم الصيفي في خور أدميرالتي.

وأتابع سيري على طول حافة الكتلة الجليدية الطافية. الضوء ساطع ودائم، فشهر يولية لا يعرف الظلام هنا. ولكنني بعد أن أمضيت عدة أسابيع بدأت أشعر بالملل، أحملق في تلك الظلال القليلة على الثلوج بإحساس يشبه الجوع، ويراودني شعور مزدوج بالخوف والعجب، وهو ازدواج يحدث عندما يكون الإنسان في مثل تلك المناطق النائية، حيث يسيطر عليه إحساس بأنه مكشوف تماماً، وأن الطقس غادر، وقد يكون من أسباب الهلاك. كانت الرياح خفيفة وتهب من الشمال وتحدث تموجاً خفيفاً على سطح الماء، وإذا ما قدر لها أن تهب من الجنوب فسوف تفتح الثلوج التي خلفنا، ويترتب على هذا اتساع الشقوق التي لم تتجاوز عدة بوصات بالأمس، ومن ثم نصادف مصاعب في طريق عودتنا إلى نوفيوا، حتى لو بدأنا تحركنا بمجرد ظهور أول علامة على تغيير اتجاه الريح.

وقبل عدة أيام قليلة ، كان أحد هؤلاء الأسكيمو قد وجد نفسه محصوراً على هذا النحو، وقد استنتج من صوت انفجار بعيد (كصوت تفجير الديناميت) مثل ما استنتج من الاتجاه الذي أشارت إليه البوصلة (نحو شبه جزيرة بوردن) - أن المسطح الثلجي الذي تبلغ مساحته خمسة أميال مربعة، والذي كان قد أقام عليه معسكره، يتعرض للاكتساح وينجرف بشدة من خور أدميرالتي في اتجاه المياه المفتوحة في لانكاستر ساوند . ولأنه ورفاقه كانوا على دراية بالتيارات المحلية، فقد بادروا بالتحرك شرقاً، وبعد ذلك باثنتي عشرة ساعة، وكانوا على شفا الإجهاد، وصلوا إلى مكان انهارت عنده الكتلة الجليدية الطافية في المياه الساحلية الضحلة، فما ترتب عليه انحراف كبير (وإن كان قد حدث ببطء) في التيار قبل أن تشق طريقها إلى لانكاستر ساوند . وهنا قفز الرجال وخاضوا خلال شطائر الجليد حتى وصلوا إلى الشاطئ اليابس.

ولم يحول انتباهي عن هذه الأمور والظواهر سوى روعة الطيور حولي. فهذه طيور زُمّج الماء (نوع من النورس أسود السيقان)، وهذه هي الغولمرات الشمالية (طيور بحرية متوسطة الحجم، ممتلئة الجسم ذات ذيل مدور ومنقار حاد)، وهذه طيور الغملوت، تطير وتحط في حركات رشيقة فوق المجاري المائية بحثاً عن قوت مناسب - العوالق الحيوانية وسمك القد القطبي. وعلى مسافة قريبة تتقاتل طيور النورس حول قطع من بقايا نرول، فيدفع كل منها الآخر حتى يضمن لنفسه قطعة من لحم شهي.

وتحلق هذه الطيور في أسراب كبيرة، وتنهي بعض الأنواع رحلتها صوب الشمال في هذه المنطقة حيث تبني أعشاشها، بينما أنواع أخرى تواصل الرحلة إلى أن تصل إلى جزر ديڤون، وإليزمير، أو إلى الجزء الشمالي الغربي من جرينلاند. ومن الموقع الذي أنا به الآن أستطيع أن أقوم بدراسة حول بعض أنواع الطيور التي تنهي رحلتها في هذه المنطقة، وتبني أعشاشها في صف طويل يمتد لقرابة عشرة أميال من خليج بلريج إلى خور إلوبين، وهي منطقة عبارة عن جدار خشن من الصخور الرسوبية والبركانية تتخلله فجوات عميقة، ويرتفع بزاوية مقدارها ثمانون درجة عن الماء. ولقد قدرت عدد طيور الغولمر من الموقع الذي كنت به بما لا يقل عن (50,000) طائر. وفي مواقع أخرى من لانكاستر ساوند تتجمع لكي تبني أعشاشها وتقتات خلال فصل الصيف القصير. وقبل أيام كانت أسراب النورس، والإوز، والبط بأنواعها المختلفة قد مرت فوق المنطقة، وأعداد بعضها تقدر

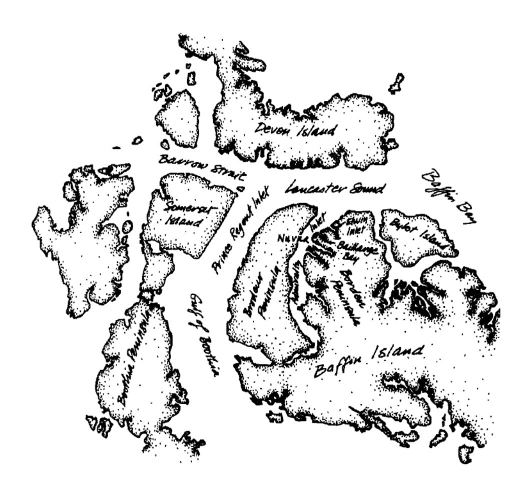
بالملايين، خاصة خلال شهري مايو ويونية.

وعلى السهل الجليدي الأبيض - حيث يوجد معسكرنا - ينبض المكان بالحياة، فالطيور لا تهدأ وتقوم بحركات بهلوانية، تارة تنطلق في الهواء، وتارة تغطس برأسها في الماء، وتارة تدور فوق رؤوسنا، وتارة تمرق في السماء بعيداً، وتارة تبدو كخيط أسود رفيع في السماء البعيدة، ثم يزداد سمكاً كلما اقتربت من حيث نقف، حتى تتضح معالم السرب تماماً، وهو يحلق فوقنا وحولنا. ولا تنقطع صيحات الطيور بمختلف أنواعها وطبقات صوتها، ويصدر عن حركة أجنحتها صوت أشبه بأزيز طلقات الرصاص وطنينها، ويختلط بصوت ارتطام الطيور بالماء. والواقع أن لانكستر ساوند هذه محمية طبيعية بحرية قطبية نادرة الوجود، وتوجد فيها المخلوقات بكثافة شديدة تذكرنا بقارة أنتاراكتكا في القطب الجنوبي حيث أكثر مياه العالم ثراءً. ولم يضع علماء البيولوجيا البحرية يدهم على السر الحقيقي لكون لانكستر ساوند تعج بالحياة على هذا النحو، وإن كان للتيارات المحلية الشديدة، وتوافر العناصر الغذائية من مجاري الأنهار الجليدية في جزيرة ديفون دورٌ هام في هذا الصدد(*).

ففي فصل الصيف توجد بهذه المنطقة قرابة ثلاثة ملايين طائر بحري من مختلف الأنواع، وبهذا لم تعد حكراً على عشرة آلاف حوت أو نحو ذلك كما كان الأمر في الماضي. ويقدر العلماء أنها تستوعب أكثر من ثلاثين في المئة من إجمالي تجمعات الحيتان الصغيرة نسبياً في أمريكا الشمالية، وأكثر من ثلاثة أرباع النرول (كركدن البحر) في كل أنحاء العالم. ولا يعرف أحد على وجه الدقة أعداد الحيتان القيثارية وذات اللّحَى، وذات الحلقات، وإن كانت أكثر من ربع مليون على الأرجح. ويضاف إلى ذلك أن بالمنطقة آلافاً من حيوان الفظ الأطلس، كما أن القطاعات الساحلية مكان مفضل للدب القطبي، وموطن للثعلب القطبي، خاصة في فصل الصيف.

فهذا الخليط الفريد من مختلف المخلوقات (بما فيها تلك التي تختفي في الماء) يشكل تداخلاً (فريداً كذلك) بين الأرض والماء والهواء. وهذه المنطقة نقطة التقاء من نوع خاص جداً تذكرني

(*) اقترح البرنامج البيولوجي الدولي أن تكون لانكاستر ساوند محمية بيولوجية، كما أعلنتها الأمم المتحدة واحداً من المواقع الطبيعية ذات الأهمية للتراث العالمي. إلا أن استقرار هذا النظام البيئي بات مهدداً بسبب العمليات البترولية البحرية وزيادة حركة الملاحة. وينادي عالم الطيور الشيهر ديفيد نيتلشب بوضع ضوابط شديدة لمثل هذه العمليات لمنع تدهور هذه الواحة القطبية الفريدة، وإلا تحولت إلى صحراء جليدية جرداء.



بالتقاء المياه العذبة بمياه البحر المالحة. ولعله في مثل تلك المناطق التي تتميز باختلاط عجيب بين المخلوقات شواهد على التطور. فالمخلوقات الطائرة هنا عند خور أدميرالتي تمشي على الثلوج، وتكسر صفحة الماء عندما تغطس فيه بحثاً عن الغذاء، كما أن الثدييات البحرية تكسر هي الأخرى صفحة الماء عندما تبرز منه لكل تتنفس.

ومن اختلاط الأنواع إلى اختلاط التضاريس – آفاق ووديان، وأنهار متعرجة، وأودية ضيقة منحدرة الأجناب يجري في أدناها جداول – شيء يثير العجب والفضول – وعندما أسير على حواف كتلك أشعر ان الطيور تتلاعب بجاذبية الأرض، وأن الأمواج تتحدى نظريات الميكانيكا الكمية، وأن هناك صراع بين ما هو كائن بالفعل وما يمكن أن يكون على حافة من الزمن تتحدى كل معارفنا الهندسية. فعلماء الحياة يتحدثون عن مناطق انتقالية بين مجتمعين مختلفين وهو ما يطلقون عليه لفظة « إيكوتون – ecotone » .

وتمتد المنطقة الانتقالية عند الكتلة الجليدية الطافية في خور أدميرالتي في مستويين. فلكي يتسنى لحيوان ما أن يمر تحت الثلوج من البحر المفتوح لا بد أن يكون على اتصال بأكسجين الغلاف الجوي، ومن ثم فإن حافة الكتلة الجليدية الطافية تشكل مانعاً للهجرة الأفقية للحيتان. أما على المستوى الرأسي فإنه ما من طائر يستطيع اختراق الثلوج، ومن ثم فإن طيور كالنورس لا تستطيع أن تذهب تحت الماء مع طيور (الغلموت) للتغذي على الأسماك، كما أن ضوء الشمس يحتجز عن تلك الحدود.

والوقوف عند حافة هذا الرصيف الجليدي، والذي يبلغ سمكه أربع أقدام، يعني الوقوف على منطقة ذات ثراء بيولوجي فريد. فعند قاع ثلوج البحر تنمو أنواع مختلفة من الطحالب فتحيله إلى اللون البني – الذهبي، وتجعل الحياة تدب فيه، فهذه الطحالب الدقيقة غذاء للعوالق الحيوانية التي تتحرك خلال الطبقات العليا للماء كما لو كانت سحباً كثيفة، وهذه تشكل مجرات تحت سطح الماء من مجدافيات الأرجل (نوع من القشريات)، والقدميات البرمائية وغيرها، وهذه بدورها تغذي تجمعات أسماك القدّ التي هي غذاء للطيور والنرول، والحوت ذي الحلقات، وهذه غذاء الدب القطبي، ومن ثم الثعلب. وتعرف الطحالب التي تنمو عند قاع هذا الشبكة الغذائية بطحالب ثلوج البحر. فالثلوج هي التي تربط بين كل أنواع الحياة هذه. فبالنسبة للفقمات المرتبطة بالثلوج والتي تتعرض للخطر على الشواطئ فإن الثلوج هي المكان الذي تجد فيه الراحة والأمان، وتقع فوق مواقع غذائها مباشرة. وبالنسبة للطحالب فإن الثلوج تهيئ لها سطحاً تنمو عليه. وبالنسبة لأسماك القد فإنها توفر لها الحماية من الطيور الصيادة وقطعان النرول، وفي الوقت نفسه تحمي النرول من الحوت القاتل. وبالنسبة للدب فإنها طريقه الخارجي إلى البحر. أما بالنسبة لي شخصياً فإنها تهيئ لي مكاناً للوقوف فوق سطح المحيط لأتأمل وأتعجب!!

وأواصل سيري مثلما أواصل تركيزي على الطيور، من دون دراية كاملة بالأسرار والألغاز البيولوجية في هذه المياه الهادئة والتي لا عمق لها، وما بين حين وآخر ألمح أسراباً من أسماك القد ذات اللون الفضي. وأحسست بأنني إنسان محظوظ، يستنشق هذا الهواء المشبع برائحة الملح والبحر، وأستمتع بالدفء المنبعث من ضوء الشمس وهو يسقط على وجهي. وهنا تعود بي الذاكرة إلى أيام الصبا عندما كنت أقضي أيام الصيف على شواطئ كاليفورنيا، وسط إحساس غامر

بثراء هذه الدنيا وعظمتها.

ومع ذلك فالدنيا ليست دائماً، كلها طيبة ورقيقة عند هذه الحافة الجليدية، إذ لا يمكنك كما لا يمكنني - أن أطرح جانباً إحساساً بالبعد عن الأرض. كما أنني أخشى حيوان الفظ، فذكر هذا الحيوان ضخم للغاية ويقترب من حجم سيارة، ويسبح بسرعة ومهارة تبثان الرعب في قلب من يراقبه عن كثب. وعادة ما تتغذى حيوانات (الفظ) على الكائنات التي تعيش في قاع البحار فحسب، مثل البطلينوس (وهو من الرخويات) وسرطان البحر، والديدان. إلا أن ثمة نوعاً غير عادي من الفظ - غالباً ما يكون من الذكور ويتحرك منفرداً - يصطاد ويقتل الفقمات. ولهذا الحيوان نابان عاجيان يتقاطعان مع علامات مخالب الفقمات عندما تقاتل من أجل النجاة. وينطلق آكل اللحوم هذا من كتلة جليدية طافية، وبإمكانه مهاجمة القوارب الصغيرة، ويحاول دائماً وبنشاط ملحوظ تتبع البشر وقتلهم في الماء. ولقد روى لي صديق انه بينما كان واقفاً ذات مرة عند حافة جليدية وبصحبته دليل من الأسكيمو حذره الدليل من خطر مقترب، وطلب منه التراجع قليلاً إلى الوراء، وتراجع الاثنان فعلاً لمسافة خمس عشرة قدماً أو عشرين، وبعد أقل من دقيقة ظهر فظ عند السطح محدثاً ما يشبه الانفجار في الماء حيث كانا يقفان. ولعل هذه حيلة من حيل الدب القطبي.

وكلما سرت عند حافة كتلة جليدية طافية تذكرت هذه الرواية، علماً بأن أذني ليست مدربة كأذن ذلك الأسكيمو، ومن ثم لا أستطيع توقع ظهور الفظ على هذا النحو من المهارة والسرعة. إنها إذن المواطن الأصلي وخبرته. وهكذا فإنني أسير هاهنا وأنا أعلم أنني على موعد مع المجهول، شأني شأن كل من يأتي لهذه المنطقة باحثاً أو مغامراً أو سائحاً.

وما بين الحين والحين كنت أتوقف لأتنصت، ويترامى إلى مسامعي هدر الطيور. وبعدة برهة كان هناك شيء آخر، صوت لم أسمعه من قبل، صوت قرقرة غريبة أدركت بالغريزة مصدرها، وهب كل من في المعسكر مذعوراً. وسرعان ما برز من سطح الجليد طرف ناب حيوان الفظ. ولا بد أن الفظ كان في مكان ما قريب منا وقد غطت جسمه شظايا الثلوج. ثم ذهب. ذهب إلى غير رجعة، وعادت البسمة تعلو شفاه الرجال.

* * * * *

وكانت أول نراول رأيتها تعيش بعيداً عن هذه المنطقة، إذ شاهدتها في مضيق بيرنج، ولما وقعت عيناي عليها أدركت أن ما من عنصر من عناصر تاريخ تطور الأرض، قد أخذني إلى أبعد مما أخذني منظر تلك النراول، هكذا فجأة. وظننت أنني بصدد مخلوق خرافي، واحد من تلك الحيوانات الغريبة التي نسج حولها العديد من القصص. ولكن الخرافة صارت واقعاً في لحظة.

وكنت أرافق عالم أحياء متخصص في الحيتان ويدعى دون لنجيلاد، في جولة استطلاعية بطائرة هليوكبتر فوق بحر بيرنج، وكان الوقت شهر مايو، وكانت الحيتان - حيتان الربيع - تشق طريقها ببطء في اتجاه الشمال عبر مضيق بيرنج متجهة إلى الأماكن التي يكثر بها غذاؤها الصيفي في بحري تشوكشي، وبيفورت. وتكررت الطلعات الجوية هذه عدة أيام، وفي كل يوم كنا نرى الحيتان الصغيرة والفظ، وأنواع مختلفة من الحيتان الكبيرة، وأسراب من الطيور المهاجرة إلى سيبريا. ولا يوجد - على حد علمي - منطقة أخرى في أمريكا الشمالية يمكن أن تصادف فيها الحيوانات بمثل هذه الأعداد. ولربما كان بحر بيرنج ذاته أغنى البحار الشمالية كلها، وربما كان في مثل ثراء مضيق تشيزابيك، أو منطقة جراند بانكس وقت اكتشافهما، إذ أن به ثروة لا تحصى من سرطانات البحر، وأسماك القد، والبطلينوس، والرنجة والسلمون وغيرها، كما يزخر بأنواع عديدة من الطيور والثدييات البحرية، وبأعداد لا يمكن تخيلها. وفي ذروة الهجرة في فصل الربيع، تعج المنطقة بالحياة وتأخذ الطبيعة أبعاداً مذهلة.

ولقد زودتني رحلاتي الجوية فوق هذه المنطقة، والتي استمرت لمدة أسبوعين، بخبرات ومعلومات وفيرة. فلقد شاهدت قطعاناً من الحيتان الصغيرة تنزلق في المياه الضحلة الهادئة تحت ملاءات شفافة من الجليد حديث التكوين. كما شاهدت أسراباً من البط سريع الطيران تحلق هنا وهناك. ومررت على كتل من الجليد الطافي وقد تلطخت ببقع حمراء في مئات المواضع من جراء قذف إناث الفظ بمشيماتها عليها. ولعدة أيام بعد تلك الرحلات شعرت وكأنني كنت أحلم، وزاد من هذا الشعور ما عانيته من جراء الحملقة المتواصلة في الضوء الباهر المنعكس من الثلوج والماء، والضغوط الزمنية التي عادة ما تصاحب مثل هذه الرحلات وما تنطوي عليه من إثارة بالغة.

وجال بخاطري وأنا أحلق فوق بحر بيرنج تلك الملامح كلها التي تميز المنطقة - واحة غنية نادرة تنبض بالحياة في وسط صحراء جليدية قاحلة، وتنوع بيولوجي فريد.

وفي اليوم الذي شاهدنا فيه النرول كنا نطير في اتجاه الجنوب، وعلى ارتفاع منخفض فوق مضيق بيرنغ. كانت الثلوج في بحر تشوكشي وراءنا قريبة جداً حتى بدا مستحيلاً أن تكون الحيتان قد توغلت إلى هذا الحد، ومع ذلك فقد كان البحث ضرورياً لأنها تستطيع أن تشق طريقها في ثلوج بمثل هذا السُّمْك والثقل، كما أنها قادرة على قطع مسافات طويلة في اتجاه الشمال دون أن يكتشفها أحد حتى تصل إلى الثلوج الأقل كثافة على الجانب الروسي من المنطقة. ودهشت لأمر هذه الحيتان، وكنت قد شاهدت اثنين من حيتان «الباوهد» ذلك الصباح، وكانا يطفوان جنباً إلى جنب في ممر عريض من مياه صافية (على غير العادة) بين رف من الجليد وكتلة من الثلوج، وبينما كنا نحلق فوقهما قاما بحركة واحدة معاً، لغة بطيئة ثم انزلاق رشيق وكأنهما يرقصان على الجليد، رغم أن وزن كل من هذه الحيتان نحو خمسين طناً. وعبر سماعات الأذن صاح رفيقي قائلا: «إنهما ينتظران انكشاف الجليد في المضيق، ولقد شاهدت خلال هذا العام ثلاثمئة حوت تنتظر على هذا النحو، وبعضها كان مستقلياً على ظهره، وبعضها اتكأ على الجليد بذقنه وكأنما يأخذ قسطاً من الراحة.

وظهرت النراول، ذكران من ذوات الأنياب المتلولبة والبارزة من الجبهة، وذكرني منظرهما بوحيد القرن الخرافي (له جسم فرس وذيل أسود وقرن وحيد في وسط الجبهة) الذي طالما ربط التاريخ بينه وبين النرول. كان الحوتان من حجم متماثل ولون متشابه، وكانا يرقدان كل منهما بمحاذاة الآخر في ممر جليدي طويل ومستقيم، وكانا بلا حركة تماماً. وشاهدتهما عيناي قبل أن أدركهما بعقلي الواعي. ولم يكن الحوتان هما كل ما شد انتباهي، فالمكان الذي كانا فيه، والذي يقع عدة أميال قليلة شمال غرب جزيرة كينج في بحر بيرنغ لم يكن يقل غرابة وروعة. فطول السنوات التي تابع خلالها العلماء المياه في هذا البحر لم يذكر أي منهم أنه قد شاهد نرولاً حياً، فبالقياس إلى كثافة الثلوج يبدو أن النراول قد اضطرت لتمضية الشتاء هنا(*) فهذان الحوتان اللذان شاهدتهما إما أنهما من «سكان المنطقة» – وهذه فكرة شاردة – أو أنهما قد قدما إليها من أقرب مركز لتجمعات النراول في الخريف السابق، أي من المياه شمالي سيبريا، أو من المنطقة الشمالية الشرقية من كندا.

(*) لا يرقى النرول في القوة على اختراق الجليد إلى مستوى الباوهد، فالاول يستطيع اختراق ثلوج سمكها نحو ست بوصات، بينما الثاني يمكنه اختراق ثلوج يصل سمكها إلى نحو ثمانية عشر بوصة باستخدام جبينه وأحياناً ذقنه الضخم القوي.

ومن شدة الإثارة حلقنا فوق الحوتين بشكل دائري، دورة بعد أخرى حتى سبحا بعيداً تحت الثلوج واختفيا تماماً عن أنظارنا. ونظر كل منا للآخر في صمت، إذ من ذا الذي يستطيع أن يصف أو يفسر ما شاهدناه؟ فليس معنى أنك قد رأيت شيئاً أنك بقادر على تفسيره، ولسوف يكون هناك دائماً تفسيرات عديدة ومختلفة، حتى ولو تدخل العقل في الأمر. فنواة المعلومات المؤكدة ليست سوى نقطة في الفضاء، وتنبت التفسيرات من الرغبة في تحويل هذه النقطة إلى خط، أو تحديد اتجاه لها، وليس للاتجاهات التي يمكن أن تترتب على ذلك، ولا للاستخدامات التي يسخرها مجتمع متنوع ثقافياً ومهنياً وجغرافياً أي حدود على ما يبدو. وهكذا فإنه إزاء كثرة الاحتمالات لا بد وأن يتوخى العالم الحذر، ففي منطقة كالشمال الأقصى قد يفلت الزمام من العالم ويفقد سيطرته على التفسير تحت ضغط الجشع والخوف من الوقوع في أخطاء. فعندما تسأل عالماً عن معنى حدث بيولوجي – ماذا كانت تفعله هذه الحيوانات في ذلك المكان؟ ومن أين أتت؟ وإلى أي المناطق تنتمي؟ – تجده يتجنب إعطاء أي رد قاطع. وأحياناً لا يكون لدى العلماء استعداد لطرح تفاصيل ما شاهدوه، نظراً لأنه ليس بوسعهم تفسيره، كما أنهم ينظرون بعين الشك لهؤلاء الذين يقولون إنهم يعرفون. بل إن بعض العلماء يسيئون الظن بالنسبة للدوافع التي تقف وراء مثل هذه الأسئلة.

ولعلي على هذا الطريق ذاته في هذه اللحظة، والسبب في ذلك هو الحيوان. فلم يتعرض وجود حيوان ثديي ضخم في نصف الكرة الشمالي للشكوك مثلما تعرض النرول. فبالنسبة للبعض فإن مجرد احتمال أن يعيش هذا الحيوان بالفعل في مياه بحر بيرنج المضطربة أمر يثير الجدل، وقد لا يكون في رأيهم أكثر من طيف أو خيال يراود العاملين في مواقع الكشف عن البترول. وبالنسبة لبعض آخر – مثل العاملين في البحث عن البترول والغاز الطبيعي في حوضي ناڤارين، ونورتون – فإن النرول مصدر قلق وإزعاج بيئي، فقد حدث في عصر اليوم السادس عشر من شهر أبريل 1982م أن رأى خمسة من هؤلاء الرجال نرولين في مكان لا يتوقع أحد ظهور مثل هذا الحيوان فيه، الأمر الذي أصابهم بالذهول، وظلوا يدورون حولهما دون همس وقد تملكهم العجب. وفي لحظة كتلك لا يعني الحيوان شيئاً على الإطلاق.

* * * * *

ولعله من الغريب أننا نعرف عن حلقات زُحَلَ أكثر مما نعرف عن النرول. إلى أين تذهب هذه الحيوانات؟ وماذا تأكل في الشتاء عندما يتعذر علينا مشاهدتها ومراقبتها بسبب شدة البرودة والظلام الدامس؟ ولقد أعرب الشاعر والكاتب التشيلي بابلو نيرودا في مذكراته عن دهشته إزاء ضآلة معرفتنا بهذا الحيوان الضخم وعدم اكتراثنا به، مع أن اسمه - على حد قول ذلك الشاعر «أجمل اسم في عالم الحيوانات التي تعيش تحت سطح البحر، فهو اسم لزهرة بحرية تُغَنّي، أو اسم لشكل بللوري». ثم يمضي الشاعر ليتساءل: «لماذا لم يفكر أحد في أن يجعل كلمة نرول لقباً له، ولماذا لم يدر بخلد أحد أن يشيد بناء نرولياً جميلاً؟!».

ويكمن جزء من الإجابة عن مثل هذه الأسئلة في ارتباط اسم هذا الحيوان بالموت، فاللون الباهت لجلد النرول أشبه بلون جثة غريق، ويسود اعتقاد بأن هذا الاسم ينحدر من كلمتين في لغة الشمال القديمة، الأولى تعني «جثة»، والثانية تعني «الحوت». ومما يساعد على تأكيد ذلك التفسير أن اعتقاداً قد ساد في العصور الوسطى بأن لحم النرول مليء بالسموم، كما ساد اعتقاد آخر بأن «قرنه» كان - في ذلك الوقت - يحمي من التسمم.

ولقد وصف عالم الطبيعة بَفُون (وهو من القرن الثامن عشر) النرول وصفاً غريباً لا بد أنه قد ترك انطباعات بالغة السوء لدى قرائه من جيله والأجيال اللاحقة، فهو «حيوان عربيد قاتل، يهاجم دون أن يستفزه أحد، ويقتل من دون حاجة إلى القتل». ومن الأمثلة الدالة على الربط بين هذا الحيوان وسوء الطالع في الشمال الأقصى (الذي هو غير مضياف بطبيعته) تلك الواقعة التي تعود لعام 1126م، حيث غرقت سفينة كان على متنها آرنالد - أول أسقف لأيسلندا - قبالة الساحل الأيسلندي. وقذفت الأمواج ومياه البحر بجثث الغرقى وجزء من حمولة السفينة إلى مستنقع في منطقة عرفت فيما بعد باسم «بركة الجثث»، ومن أبرز الأشياء التي تم العثور عليها في ذلك الموقع عدد من أنياب النرول، وقد لصق على كل منها حروف أو علامات تبين صاحبها حتى يسهل كل ملاح التقاط ما يخصه في نهاية الرحلة.

ويذهب و. ب. ليمان، أستاذ اللغات الجرمانية إلى أن ارتباط اسم النرول بالموت مجرد مصادفة لغوية، فالكلمة الأصلية «نارڤالر» في لغة الشمال القديمة هي التي اشتق منها الكلمة الإنجليزية «ناروال»، والفرنسية «نارڤال»، والألمانية «نارڤال». والمعنى الأصلي للكلمة بلغة الشمال هو

«الحوت الذي يتميز بنتوء طويل ضيق» أي (الناب).

ومع ذلك لا يزال البعض يطلقون على النرول اسم «حوت الجثة»، ولا يزال الارتباط بين هذا الاسم والموت قائماً في بعض الأوساط إلى اليوم، ومعه اعتقاد بأن هذا الحيوان أحد أسباب الوفاة، وبأنه نذير شؤم ورمز للفناء. وعلى مر التاريخ ربط الناس بين الموت وبعض الحيوانات الأخرى، كما أن البعض يتشاءم من حيوانات معينة، وإن كانت كل هذه الارتباطات من وحي الخيال ولا تمت للواقع بصلة. ومن حسن الحظ أن التفسيرات العلمية التي تزودنا بها البيولوجيا الميدانية تساعد في التغلب على كثير من هذه الخرافات، التي جعلت الناس يسمون الحيوانات كيفما يشاؤون. ومع ذلك – وكما قال الشاعر نيرودا – فإن من مهام الأدب أن يأخذ الحيوانات من على الرفوف التي وضعت عليها كالتحف أو الساعات ذات الشكل الغريب، ونقلها إلى الحياة.

وليس من السهل على العلم كشف كل الجوانب الغامضة من حياة النرول. فبادئ ذي بدء يعيش هذا الحيوان تحت الماء، ويقضي السنة بأكملها في الثلوج القطبية، ومن ثم فإن الترتيبات التي يتطلبها البحث العلمي الميداني معقدة، والتكاليف باهظة، حتى في فصل الصيف. ولهذا السبب فقد اقتصرت جهود العلماء (حتى الآن) على مراقبة ما يحدث عند سطح الماء في البحر المفتوح القريب من نقط المراقبة المنتشرة أعلى المنحدرات الساحلية، والوسيلة المثلى (حتى الآن أيضاً) هي وضع سماعات في الماء لتتنصت على النراول، ومقارنة النرول بالحيتان الصغيرة، فهو أحد أقاربها المعروفين تماماً. ونكاد لا نعلم شيئاً عن النشاط الدوري المنتظم للنرول – مثل الهجرة، والتزاوج، والولادة، وتربية الصغار، وعلاقة هذه الأمور بالتغيرات والتقلبات المناخية(*).

وهكذا فإن العلماء يتحدثون بدقة إذا كان الأمر يتعلق بالحيوان فيزيقياً، ولا يرقى الحديث لمستوى الدقة ذاته إذا كان يتعلق ببيئته وسلوكه، وخصائص تجمعاته في قطعان أو أسراب «اجتماعية». ومع ذلك فإن الأمر الثاني هو الأهم من حيث تبين التأثيرات المحتملة للتنمية الصناعية في النرول. فذكر النرول البالغ يصل طوله إلى ست عشرة قدماً ووزنه قرابة (3,300) رطل،

(*) ومن سوء الحظ أن معرفة الأسكيمو بهذه الأمور، وأفكارهم وانطباعاتهم عنها لا تفيد بشيء، فعلى الرغم من خبرة الصيادين من السكان الأصليين فإن نقطة الضعف الواضحة هي قلة أو عدم فهمهم لديناميكيات التجمعات عند الحيوانات المهاجرة. والسبب في ذلك واضح وبسيط، وهو أن الحيوان يقضي جزءاً كبيراً من وقته خارج المنطقة التي يعيش فيها كل مجموعة من الصيادين.

وبهذا يكون في ربع حجم الأنثى البالغة. كما تتميز الذكور كذلك بناب عاجي يخترق الشَّفَةَ العليا من الجانب الأيسر، ويمتد بطول يصل إلى عشرة أقدام للأمام. ونادراً ما يكون للأنثى ناب، ويندر – وبدرجة أكبر – وجود ذكور وإناث بنابين على جانبي الفك العلوي.

ويبدو رأس النرول من الجانب – بالمقارنة بباقي الجسم – صغيراً وحاداً، ويتكوّن الجزء الأكبر منه من جبهة عالية مستديرة مليئة بالليبيدات الحيوية السمعية (وهذه مركبات عضوية تشتمل أساساً على الدهن والشمع)، التي تمكن النرول من استخدام الموجات الصوتية للاتصال بالحيتان الأخرى لتحديد موضعه ومواضع أشياء أخرى في عالمه ذي البعد الثلاثي. أما زعانفه الأمامية القصيرة فليست أكثر من مجدافات لتسهيل الغطس. ويتضاءل الجسم المخروطي تدريجياً ابتداءً من عند هذه الزعانف مباشرة حيث يكون محيطه عند أكبر درجاته (نحو ثماني أقدام، إلى قطع ناقص عمودي عند الذيل. وعند زعنفة الظهر تمتد سلسلة ظهرية منخفضة طولها نحو خمس أقدام، وبشكل ذي حَزٍّ غير منتظم. أما فَصَّيْ الذيل فهما شيء فريد حقاً. فمن أعلى يبدوان على شكل قلب، أو ما يشبه ورقة من شجرة الجنكة (الصينية)، وللذيل وسط محزوز، وحواف ممتدة منحنية للأمام. وبالنظر إلى رأس النرول من الأمام فإنه يبدو مربعاً إلى حد ما وغير متماثل الأجزاء، كما يبدو صغيراً بالنسبة للصدر العميق. وبالمثل يبدو فم النرول أصغر مما ينبغي لحيوان بمثل هذه الضخامة، حيث تغطي الشفة العليا بالكاد حافة فك قصير على هيئة إسفين. وتوجد العينان فوق وخلف الأركان المقلوبة للفم مباشرة، الأمر الذي يجعل وجه النرول معبراً عن الدهشة أو الذهول أو الارتباك. ويذهب عالم الطبيعة بيتر وارشال إلى أن النرول خلال مراحل تطوره فقد عضلات الوجه مما أدى إلى اختفاء التجاعيد على جبهته، وبالتالي فإن « حواجبه لا ترتفع تعبيراً عن عدم التصديق »، كما أن شفاهه لا تنضغط تعبيراً عن العزيمة). وأخيراً فإن للنرول فتحة أنفية واحدة على شكل هلال، وتوجد أعلى الرأس في خط مستعرض مع العينين.

وغالباً ما يكون لون عجول النرول رمادياً، وعندما تقترب الذكور من سن البلوغ يظهر على بطنها بقع بيضاء، وعروق بيضاء كذلك على الأجناب. أما النراول البالغة فلونها رمادي داكن من قمة الرأس حتى الظهر، بينما يسود اللون الرمادي الباهت أعلى الزعانف فصّي الذيل. وقد يتحول النرول، خاصة الذكور، إلى اللون الأبيض كلية تقريباً عندما يتقدم في العمر. ويذهب البعض إلى

أن أجناب الإناث عموماً تكون ذات ألوان باهتة.

والواقع أن خواص جلد النرول (وهو ناعم الملمس مثل الحجر المُزَيَّت) قد حيرت العلماء.

فَعَلى فَصَّي الذنب بصفة خاصة، حيث تتداخل خطوط رمادية داكنة ومنحنية مع خطوط اخرى رمادية فاتحة تماماً، تزداد البقع، وتزداد الألوان روعة. وتسود البقع أجزاءً أخرى من الجسم. وحول هذه السمة يقول وليم سكورسبي إنها «ذات شكل مستدير أو مستطيل. فعلى الظهر - حيث نادراً ما يزيد قطرها عن بوصتين - تكون داكنة تماماً وأكثر كثافة، وإن تخللها بقع بيضاء تماماً. أما على الجانب فتكون البقع فاتحة اللون، كما تكون أصغر حجماً وأقل كثافة. وعلى البطن تقل البقع عدداً وتكون باهتة اللون. وفي مناطق معينة لا ترى على الإطلاق». وتتخلل هذه الأنماط الجلد تماماً، علماً بأن سمكه نحو نصف بوصة.

وفي الماء يعتمد لون النرول على ضوء الشمس، وعلى لون الماء ذاته. وكما ذكر مؤرخ صيد الحيتان البريطاني بازل لوبوك فإن «ألوان الحيتان في الماء تختلف وتتراوح بين خضرة أعماق البحار وزرقة البحيرات».

ويعيش النرول مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحواف الجليدية، وإن يشاهد أحياناً وقد توغل بعيداً عن المياه المفتوحة. ولا زلنا نجهل كيف تعرف النراول ما إذا كان نظام الممرات الثلجية التي تسلكها نحو الثلوج سوف يظل مفتوحاً بعد مرورها منه بما يضمن عودتها سالمة. كما أن للنرول القدرة على البقاء حياً في مناطق تتسم بالتيارات القوية والرياح الشديدة حيث تكون حركة الثلوج على السطح عنيفة، وحيث تنفتح الممرات وتنغلق، أو تتجمد تماماً وبسرعة هائلة. وشأنها شأن طيور البحر، فإن للنراول على ما يبدو إحساساً دقيقاً بالوقت الذي يوشك فيه ممر جليدي على أن يغلق نفسه، ومن ثم فإنها تبادر بالمغادرة. ولكنها ليست «معصومة» من خطأ الإحساس و (التقدير) وهذا ما تدل عليه تلك الظاهرة المؤلمة والقاتلة والتي تعرف بـ «السافاست»، حيث تنحصر النراول في الجليد فتحرم من الهواء والأكسجين.

وتحدث ظاهرة السافاست هذه بصفة خاصة على الساحل الغربي لجرينلاند. ففي أواخر فصل الخريف، وبينما النراول لا تزال تتغذى في عمق الفيوردات الساحلية قد تتكون كتلة جليدية في المياه الهادئة عند مصبات هذه الفيوردات، وعندئذ قد يمتد المسطح الجليدي في اتجاه رؤوسها.

وعند نقطة معنية تزداد المسافة من حافة الفيوردة في اتجاه الأرض، وحافتها في اتجاه البحر، وبهذا تصبح أطول من المسافة التي يستطيع النرول قطعها في نفس واحد. وعندئذ كذلك قد يتكون نوع آخر من الثلوج عند رأس الفيوردة، مما يجعلها تبرز ثمّ تلتقي بثلوج البحر، وهكذا تصبح النراول محشورة في حيز أصغر فاصغر من المياه المفتوحة، لدرجة أنه يمكن سماع خوارها وصفيرها وأنينها، بل وأنفاسها من مسافة بعيدة.

ويذكر أن العالم الدنمركي كريستيان ڤايب قد زار في السادس عشر من مارس 1943م ساڤاستا على الساحل الغربي لجرينلاد الوسطى حيث «وقع مئات النراول والحيتان في مصيدته في فتحة لا تزيد عن عشرين قدماً مربعاً. كان سطح الماء أسود ساكناً وهادئاً تماماً، وسرعان ما تحطم السطح وكانت تعلو إليه أشباح سوداء وحيوانات بيضاء ثم تختفي في حركات رشيقة – نراول وحيتان بيضاء بأعداد كبيرة – وكانت تطفو إلى السطح معاً وبشكل يقترب من الالتصاق حتى أن بعضها كان يحمل بعضاً على ظهوره، ثم تتشقلب وذيولها الجميلة تلوح في الهواء. كانت منتظمة في صفوف، صف من النراول يليه صف من الحيتان، ثم صف من النراول وهكذا. فعلى الرغم من الازدحام ظلت الأفراد من كل من النوعين منفصلة. وعند الفتحة كان الاضطراب بعينه، مياه تعلو وتسقط، أمواج تتحطم على أجسام الحيوانات، وأصوات غريبة ناجمة عن استنشاق الحيوانات للهواء وكأنها تمتصه من خلال أنابيب حديدية طويلة. وكانت المياه التي تتناثر من جراء حركة الحيوانات تتجمد عند حافة فتحة التنفس، وحدث الشيء نفسه للرطوبة الناتجة عن عملية الزفير، الأمر الذي كان يزيد الساڤاست الضيق ضيقاً. وعلى الرغم من هذا كله لم يتعرض أي حيوان مما شاهدت لجروح من الأنياب الكبيرة(*).

والنرول من الحيوانات التي تقع ضمن قبيلة الثدييات البحرية ذوات الأسنان، مع الحيتان من الفصيلة العليا، ومع خنازير البحر والدلافن. وعلى العكس من الحيتان (التي يبدو أنها قد تكيفت

(*) قتل الاسكيمو (340) نرولاً وحوتاً في هذه المصيدة خلال أسبوع واحد وقبل أن يتحطم الجليد الذي مكّن بقية الحيوانات من الفرار. وفي ربيع عام 1915م اصطاد الاسكيمو أكثر من ألف نرول وحوت في مصيدتين مماثلتين في خليج دسكو خلال عدة شهور. ويلاحظ أن بعض الطيور – خاصة المور ذوات المنقار السميك – والتي تحتاج مساحة كبيرة من الماء المفتوح حتى تتمكن من الطيران قد تجد نفسها أيضاً وقد انحشرت في مكان ضيق وتقع في مصيدة مشابهة.

ساحلياً)، يعتقد العلماء أن النرول نوع من حيوانات المحيطات المفتوحة، أكثر تكيفاً مع الثلوج، ويقضي شتاءه في مناطق شمالية بعيدة. وعلى أساس ما يتوفر من معلومات حول الحيتان الصغيرة فإنه يعتقد أن النرول يتزاوج في شهر أبريل، وتولد صغاره بعد ذلك بأربعة عشر شهراً في شهر يونية أو يولية، ويكون طوال النرول الوليد خمس أقدام، ووزنه نحو مائة وسبعين رطلاً. وعند الميلاد يحمل كل عجل طبقة من الدهون سمكها قرابة بوصة، وهذه تكفل له الحماية في المياه الباردة. ويبدو أن الأم ترضع صغارها لمدة عامين تقريباً، وقد تبقى الصغار مع الأم لفترة تصل إلى ثلاث سنوات أو أكثر. واستناداً – مرة أخرى – لما هو معروف عن الحيتان الصغيرة فإنه من المعتقد أن أنثى النرول تصل سن البلوغ في الفترة من عامها الرابع حتى عامها السابع، أما الذكور فتصل إلى النضج الجنسي في عامها الثامن أو التاسع.

وعادة ما تشاهد النراول في مجموعات صغيرة يصل عددها إلى ثمانية، وعادة أيضاً ما يكون أفراد المجموعة الواحدة من الجنس ذاته والعمر ذاته. وفي الصيف تكون مجموعات الإناث – أحياناً – صغيرة، وتضم الصغار، وغالباً ما يكون الارتباط بين أفراد مجموعة الإناث أقل قوة منه في مجموعات الذكور. وخلال موسم الهجرة في الربيع قد يتألف القطيع الواحد من ثلاث مئة حيوان أو أكثر.

وتعيش النراول أساساً على أسماك القد، وهلبوط جرينلاند، والسمك الأحمر، والحبَّار، والروبيان (الجمبري) من مختلف الأنواع، والأخطبوط والقشريات، وتهوى بصفة خاصة عظام آذان الأسماك وعدسات عيونها، ومن هذه العناصر استدل علماء الأحياء على النظم الغذائية لهذه الحيوانات.

ويَعْلُقُ بجلود النرول نوعان من «قمل الحيتان»، وهذه في الحقيقة أنواع دقيقة من القشريات، كما تعلق أيضاً بالتجويف الذي يمر الناب من عنده عن طريق الشفة، وبطرف الذيل، وبالجروح (وعموماً كل الأماكن من جسم النرول تكون فيه هذه الطفليات أقل تعرضاً لتدفق الماء على جسمه) وأحياناً تكون آثار تلك المخلوقات الدقيقة واضحة تماماً على جلد النرول.

وإذا قُدِّرَ لك أن تقف عند حافة منحدر بحري على الساحل الشمالي لشبه جزيرة بوردين بجزيرة بافين فسوف ترى النراول وهي تهاجر طوال اليوم تقريباً مستفيدة من ضوء شهر يونية.

ولسوف تدهشك رشاقتها وسرعتها وتناغم حركاتها وهي تسبح أو تغطس في انسجام تام، كما سيدهشك يقظتها وقدرتها على مواجهة كل الاحتمالات. ولعل ما يلفت النظر بشدة أن حركة النرول الرشيقة تتم في ثلاثة أبعاد، مثل انزلاق الطيور في يوم بلا رياح. ومن الأشكال الملفتة أيضاً، والدالة على الانسجام التام قدرة هذه الحيوانات على الغطس العميق في مجموعات، فهي تختفي في الماء وكأنها كتلة واحدة، وتصل إلى عمق ألف قدم أو يزيد، ولعلها تقصد من ذلك دفع تجمعات أسماك القد نحو السطح وبمعدل يجعل هذه الأسماك تفقد الوعي نظراً لتضخم مثانات السباحة لديها، وعند سطح الماء تتحول آلاف من تلك الأسماك إلى غذاء للحيتان القيثارية والنرول وأسراب من طيور الفلمر والنورس.

ويعجب المراقب كذلك من التفاعلات الاجتماعية بين النراول، وهي تفاعلات ممتدة جيدة التنظيم، وغالباً ما تخضع لنظام هرمي من حيث العمر والجنس. وعموماً فإن التفاعل الاجتماعي بين الذكور ينطوي على استخدام الأنياب، فهي قد تتشابك كالسيوف فوق سطح الماء، أو قد يدفع نرول نرولاً آخر إلى عمق الماء بالضغط على ظهره بنابه، أو قد تكون المواجهة بالرأس وجعل الأنياب عند الجانب.

ولقد طرحت الباحثة هيلين سيلفرمان (وكان برنامج الدراسات العليا الخاص بها قد تضمن دراسة للتنظيم الاجتماعي للنراول وسلوكها) وصفاً جيداً للحياة الاجتماعية لهذه الحيوانات من واقع ما لاحظته في لانكستر ساوند. تقول الباحثة: «وفي إحدى المرات شاهدت مجموعة مؤلفة من خمسة نراول: ذكرين بالغين، وأنثى بالغة، وعجل، ونرول حديث الولادة، وكانت تتحرك غرباً والذكران في المقدمة. ثم توقفت المجموعة كلها وظلت على السطح زهاء ثلاثين ثانية، ثم التف أحد الذكرين، وتحرك إلى أن أصبح تحت العجل ثم رفعه خارج الماء مرتين. ولم تبد الأنثى رد فعل واضحاً، ثم لمس الذكر جانب الأنثى بطرف نابه، وواصلت المجموعة رحلتها».

وفي لغة الأسكيمو كلمة واحدة تلخص مختلف أحاسيس شخص يجلس عالياً على منحدر بحري، في يوم مشمس، وجو عاصف كالذي تشهده المنطقة في أواخر شهر يونية، ويرى أمامه تلك المسطحات الشاسعة، ويسمع صوت زفيره، ويرى العديد من أنواع الحيوان، وهذه الكلمة هي «كوفيا نيكوموت» – وتعني «الإحساس بسعادة غامرة». وفي موقف كهذا لا يجد الإنسان مفراً

من تأمل هذه النراول «الغامضة». ومنذ اللحظة التي شاهدت فيها فم النرول لأول مرة، وتبينت الطبقات المرنة في لسانه وكأنها آلة الأوكورديون الموسيقية، تبادر إلى ذهني علاقة قرابة بينه وبين الحوت ذي الأسنان والذي يشبه فمه فم النرول من حيث اللون، وكلاهما من الثدييات البحرية التي تغوص عميقاً، وكلاهما ينام على السطح لعدة ساعات في المرة الواحدة (وهي ميزة ينفردان بها بين سائر الحيتان). ويضاف إلى ذلك أن رقود كل منهما على السطح متشابه إلى حد كبير حيث يكون الجسم غاطساً في الماء، ما عدا ذلك الجزء من الظهر، والذي يمتد من فتحة الأنف وحتى سلسلة الظهر. وأخيراً فإن كليهما مشهور بأسنانه والزيوت النقية التي توجد في جبهته والتي كانت لفترة من الزمن أحد أسباب اصطيادهما.

وشأنه شأن الحيتان كافة فإن جذور النرول وتطوره ترجع إلى العصر الطباشيري (وهو العصر الثالث والأخير من الدهر الوسيط)، ومعه أيضاً اللواحم آكلة الحشرات. ولقد اتبع النرول في مسيرة تطوره خلال العصر الطباشيري، والعصر الحديث الأسبق (الباليسوين) المسار ذاته الذي اتبعته الثدييات المزدوجة الأصابع مثل جاموس البحر (فرس النهر) والظباء، وبعد ذلك يأخذ مساراً مختلفاً تماماً، إذ بعد نحو (330) مليون سنة على اليابسة ومنذ خروجه من البحر خلال العصر الديفوني(*) قبل نحو (380) مليون سنة، وهو خط التطور الجيني (الوراثي) الذي أعاد الحيتان إلى المحيطات. وكان الحوت البدائي الأول قد ظهر خلال العصر الحجري (العصر الحديث السابق - الإيوسين) قبل خمسة وأربعين مليون سنة. أما أول حوت ذي أسنان فقد ظهر قبل ثمانية عشر مليون سنة خلال العصر الحديث اللاحق (الصُّخوري أو الأوليجوسين). وعندئذ اكتملت سلسلة التطورات غير العادية والتي مكنت الثدييات التي تتنفس الهواء من المعيشة في البحر.

ومن بواعث التأمل ذلك المنظر الفريد - والذي يمكن أن تشاهده من المنحدرات البحرية - منظر حوت وحيد يسبح في هدوء وسكينة في المياه التي يختلط فيها اللونان الأزرق والأخضر. لا بد أن هذا المخلوق قد مر بمراحل تطور عديدة على خط تطور الثدييات، فما كان يوماً أرجلاً خلفية قد اختفى، وإن ظل بالهيكل العظمي بقايا الحوض القديم. ولقد أكسبته مياه البحر قدرة هائلة على

(*) العصر الرابع من الدهور الباليوزي في أعقاب العصر السيلوري وقبل العصر الكربوني، وامتد لفترة تتراوح بين (380)، (408) مليون سنة، وخلاله كثرت الأسماك، وظهرت أوائل المخلوقات البرمائية، وبشائر الغابات. (المترجم)

الطفو جعلته في غنى عن بناء هيكلي بالمعنى المفهوم، ومن ثم فقد ازداد هذا الحيوان في الحجم على مراحل تطوره، ولكن زيادة الحجم هذه لم تكن على حساب الرشاقة وخفة الحركة. وبالمثل فقد ترك الحيوان وراءه عالماً يتسم بتقلبات الحرارة إلى آخر نادراً ما تتقلب فيه الحرارة، ومع ذلك فإنه لم يتخلّ عن أسلوب معيشته القائم على كونه من المخلوقات ذات الدماء الحارة، فهو يتمتع بخاصية العزل الحراري التي تحميه من برودة الماء حيث إن له طبقة من الدهون يتراوح سمكها بين بوصتين وأربع بوصات.

وأكبر ما حدث من تغيير في جسم النرول طريقته الحالية في تخزين الأكسجين واستخدامه، وإعادة ترتيب حواسه بحيث تتناسب مع عالم الحاسة الأهم فيه وهي السمع، وليس البصر أو الشم. ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي: إذا تنفس إنسان يعيش في المنطقة القطبية الشمالية فإن ثلاثين في المئة من الأكسجين الذي يستنشقه يخزن لفترة قصيرة في رئتيه، وواحد وأربعين في المئة في دمه، وثلاثة عشر في المئة في عضلاته، واثنى عشر في المئة في عضلات أعضاء الجسم الأخرى. ولا يأخذ هذا الإنسان نفساً عميقاً إلا عندما ينفخ أو عندما يكون في حالة انفعال شديد. أما النرول فأنفاسه كلها عميقة، ويملأ الأكسجين الذي يتنفسه رئتيه الصغيرتين بالكامل، ويخزنه بطريقة مختلفة تمكنه من الاعتماد عليه خلال غوص يستمر لخمس عشرة دقيقة، ولا يتبقى في الرئتين سوى تسعة في المئة فقط، بينما يذهب واحد وأربعون في المئة إلى الدم. ومثلها إلى العضلات، ونحو تسعة في المئة إلى الأنسجة الأخرى. ويتحد الأكسجين مع جزئيات الهيموجلوبين في الدم (مثلما يحدث عند الإنسان)، وجزيئات الميلوجلوبين في العضلات. ويعزى اللون الأحمر الداكن للحوم النرول إلى ارتفاع نسبة الميلوجلوبين في عضلات هذا الحيوان، وهي سمة عامة في لحوم الثدييات البحرية.

كذلك فقد حدثت بعض التغييرات في الجهاز الدوري للنرول، أولها تطور شبكة الأوعية الدموية، واتساع الشرايين الكبدية، والتدفق العكسي للدم في أماكن معينة، وكل هذه مكنت الحيوان من التكيف المريح مع الضغوط الهائلة التي يواجهها خلال الغطس في الأعماق. ويلاحظ أن دم النرول يحتوي على كمية ضئيلة جداً من النيتروجين، ومن ثم فهو يختزن ثاني أكسيد الكربون الناتج عن عملية الزفير إلى أن يطلقه بقوة عندما يطفو إلى السطح.

وإذا أردنا استكشاف هذه الأمور بدقة فسوف نحتاج إلى أجهزة متطورة للغطس، وزعانف للسباحة، وأوعية لتخفيف الضغط، وملابس وأحزمة خاصة. ومع ذلك لن نتمكن من استيعاب هذا التغيير الجذري الذي حدث للنرول على طريق التطور البيولوجي. ولعل السبب في ذلك أن عالمنا ثنائي البعد، فنحن مخلوقات لا تنظر لأعلى دائماً، ومن ثم فنحن معتادون على استكشاف «طول»، و«عرض» الأشياء وليس ارتفاعها. أما بالنسبة للنرول فإن الخبرات الثنائية البعد على هذا النحو قليلة للغاية، وتقتصر على الإحساس بالماء على سطح الجلد، والمستوى الذي يتعين عليه تحطيمه لكي يستطيع التنفس.

والقيد الثاني الذي يحد من فهمنا الكامل لدنيا النرول أن ذلك الحيوان «يدرك» من خلال نظام هرمي للإحساس يختلف عن ذلك الذي تعودنا عليه. فقد تلاشت الحواس الكيمائية تقريباً – التذوق والشم – على حد ما نعرف، وإن ظل للنرول القدرة على تحديد درجة الملوحة. أما حاسة اللمس فقد ظلت حادة، كما أن النرول حيوان بالغ الحساسية بالنسبة للضغط، ولديه إحساس قوي بالعمق، ويشعر بأقل اضطراب في الماء تحدثه أفواج أسماك القد وهي تسبح أمامه في عالمه المعتم. أما حاسة الإبصار فهي ضامرة نظراً لقلة أو عدم وجود الضوء. والواقع أن عين النرول قد تغيرت بحيث تتحمل الضغط العالي والمتاعب التي تسببها لها أملاح البحر وتدفق المياه المستمر، والاختلاف في زاوية انكسار الضوء تحت الماء. فالنرول يرى العالم فوق سطح الماء بعيون لا تتحرك في تجاويفها، ونظر لا بؤري، وقدرة محدودة على تغيير البعد البؤري.

ولك أن تتخيل مدى غرابة عالم مثل هذا المخلوق الذي لا تمثل فيه حاسة البصر شيئاً ثميناً، والذي يعيش في حيز صوتي ثلاثي البعد، حيز لا يقدره حق تقديره سوى الموسيقيين الذين يدركون العواطف والدوافع التي تنطوي على مثل تلك الحاسة.

وقد يبدو المحيط المتجمد الشمالي في أيام الصيف صامتاً تماماً لمراقب يقف عند نقطة عالية. وإذا أنزل هذا المراقب مكبراً للصوت (من النوع الذي يستخدم تحت سطح الماء) فسوف يكتشف منطقة «ضوضاء» لا يستطيع فك أسرارها سوى أجهزة تحليل الطيف وأجهزة تسجيل الصوت. فهذه الأصوات خليط من الاهتزازات التي تحدثها الحيتان ذات الذقون، والفرقعة الكهربية التي تصدر عن الروبيان، وجهير الفظ، وعويل ونباح الفقمات ذات الحلقات، وأصوات النراول والحيتان

الصغيرة التي تشبه تغريد الطيور، وصيحات الحيتان الحدباء، وهي صيحات أشبه بصوت النعير الذي يصدر عن الفيلة. ويضاف إلى كل هذه صوت انتقال الرواسب من مكان لآخر في قاع البحر، وصوت تحطم ثلوج البحار، وصوت الصخور الجليدية وهي تتصارع مع المياه الضحلة ثم تسقط فيها.

ويشعر النرول بالألفة التامة وسط هذه الأصوات المتنافرة، بل ويشعر بأن له العديد من الجيران، وإن كانت له القدرة على أن يظهر وكأنه «مستغرق في النوم» عند سطح الماء في أيام الصيف في لانكاستر ساوند.

ولعل أهم تغيير حدث في النظام الصوتي للنرول انفصال كل من قنواته السمعية عن بعضها، الأمر الذي مكنه من العيش في مثل ذلك العالم، فهذا الانفصال يجعله يدرك الأصوات التي يحملها الماء بشكل مستقل على كل من جانبي رأسه، ومن ثم يتمكن من تحديد الاتجاه الذي يأتي منه الصوت. وبالنسبة للإنسان فإن بوسعه أن يفعل ذلك في الهواء الطلق فحسب، أما تحت الماء فإن الصوت يتذبذب بقدر متساوٍ خلال عظام الرأس. وبطبيعة الحال فإن النرول يتلقى أصواتاً كثيرة، ومن ثم يمكن التكهن بتلك التي يلتفت إليها بشكل خاص، كما يمكن التكهن بالمعلومات التي قد يحصل عليها من كل ما يسمع. وعلى الجانب الآخر فإن النرول نفسه يطلق أصواتاً عديدة، وهذا على ما يبدو يعني شيئاً ما لغيره من نوعه ذاته، وللحيوانات الأخرى.

ويقسم علماء الأصوات ما يصدر عن النرول من أصوات إلى فئتين. فالأصوات الناجمة عن التنفس تصل إلى آذاننا كما لوكانت حشرجة أو أنين أو صفير أو قرقرة، وهذه هي الفئة الأولى. أما الفئة الثانية فهي على الأرجح تلك التي ترتبط بتحديد الأماكن عن طريق صدى الصوت، وبالاتصالات، وهذه بدورها تنقسم إلى ثلاث مجموعات: طقطقة تُولّد بمعدلات تصل إلى خمس مئة طقطقة في الثانية، ونغمات نبضية، ونغمات صافية. ويلاحظ أن هذه الأصوات تصل إلى أي شخص يكون في قارب في الهواء الطلق ويسمعها وكأنها صوت فوار يرتفع من سطح المياه.

ويعتقد أن النراول تستخدم الطقطقة لتحديد مواضعها ومواضع رفاقها ومواضع فرائسها، وكذلك لتحديد أشياء مثل حواف كتل الجليد الطافية، ومسارات الممرات الثلجية الضيقة. أما النغمات النبضية فيعتقد أنها ذات طابع اجتماعي، وأنها عرضة للتعديل الفردي، بمعنى أن يكون

لكل نرول نغمة أو نداء خاص به وكأنه « توقيعه » أو « بصمته » المميزة. وبالمثل فإن للنغمات الصافية على ما يبدو وظيفة اجتماعية. وعموماً يعتقد العديد من علماء الأصوات ان النرول حيوان أقل صخباً من غيره من الثدييات البحرية (مثل الحيتان)، وأن تشكيلة الأصوات لديه محدودة للغاية، وكثير مما ينتجه من الأصوات لا يصل إلى أسماع البشر. ولكن دراسة لاحقة قد أوضحت أن النرول كثير « الثرثرة » عندما يكون تحت الماء، وذكروا أن التسجيلات الصوتية التي أجريت تحت الماء قد كشفت عن كثير من الإشارات الصوتية ذات الترددات المتغيرة والمدد المتفاوتة، الأمر الذي يجعل فهم السلوك الصوتي لهذا الحيوان مجرد تكهنات وتخمين حتى الآن.

وإذا كنت قد أسهبت في وصف الجوانب الصوتية في حياة النرول فإن ذلك راجع إلى افتراض تقليدي بأن قدرة النرول على استقبال وإرسال أصوات توضح أنه مخلوق « ذكي »، وافتراض تقليدي مضاد – يتضح من تقرير للحكومة الكندية – ويذهب إلى أن عمليات الحفر المتواصلة في قاع البحر وما يصاحبها من حركة ملاحة بحرية وجوية « لن تشكل اي خطورة على النرول بالقياس إلى تلك الضوضاء الكثيفة تحت سطح الماء في لانكستر ساوند ».

والحقيقة أنه يصعب تصديق خيال ضيق الأفق على هذا النحو، خيال لا يقدر قيمة الحياة بهذا الشكل الذي تشير إليه السطور السالفة. فالحيتان قد تكون أقل « ذكاءً »، وقد لا تتمتع بالإرادة والخيال والمنطق مقارنة بالإنسان. لكن فكرة أنها « ذكية »، وأنها يمكن أن تتأثر بتلك الجلبة الصادرة عن الإنسان ونشاطاته المختلفة ليست مجرد افتراض بقدر ما هي تعبير عن شيء ممكن، وهو أن نتخذ موقفاً ينطوي على احترام نحو ذلك الشيء الغامض والذي لا نملك إلا أن نسميه النرول. والحق أنه مخلوق جدير بمزيد من اهتمام الإنسان.

وها أنذا أحملق في لانكستر ساوند، وأرى أمامي أربعة أو خمسة حيتان نائمة على البحر الهادئ المسطح، ويبدو لونها خافتاً على السطح وكأنها النجوم التي تظهر في بداية المساء. وأرى أسراباً من الطيور تمرق أمامي وكأنها قطع من الحياة تزدهر ثم تضمحل ثم تتلاشى. وتحت النراول النائمة تنزلق الأسماك مع التيارات، وسرعان ما يخفت الضوء ثم يتلاشى تماماً.

* * * * *

لقد ورد أول وصف لوحيد القرن في كتابات ستسياسي، ذلك الطبيب الإغريقي الذي عاش في بلاد فارس في القرن الخامس قبل الميلاد (وذلك وفقاً لما ذكره عالم بريطاني يدعى أوديل شيبرد). وازداد الاعتقاد بوجود هذا الحيوان «المتوحش»، شبيه الحصان، وحيد القرن، ذي الطبع الشجاع» من خلال كتابات أرسطو، وبليني، ومن بعدهم إيزيدور السفيلي، الكاتب الموسوعي. ثم جاء الكتاب المقدس ليؤكد وجود هذا الحيوان، حيث أورد المترجمون اليونانيون للعهد القديم اللفظ العبراني «ريم» (والذي يعني على الأرجح الرُّخُص (ثور أوروبي شبه منقرض) بمعنى «وحيد القرن».

والواقع أن أسطورة وحيد القرن، وارتباطها لاحقاً بالنرول تنطوي علىٍ قدر من التضليل عند عدة مستويات. فحتى وقت متقدم من العصور الوسطى انتقلت هذه الأسطورة من كتاب لآخر، ومن مثقف لآخر، ولم تكن جزءاً من الثقافة الشعبية الأوروبية. وخلال عصر النهضة طرح العلماء والأساتذة وفقهاء الدين عدة «تفسيرات علمية» حول وجود وحيد القرن. ومهما بدت هذه التفسيرات بعيدة الاحتمال في نظر المتشككين فإن الأدلة المادية على وجود النرول بدت أقوى من كل شك. ويضاف إلى ذلك أن أي مسيحي ينكر وجود وحيد القرن إنما يضع نفسه في موقف نكران لما جاء بالإنجيل.

ويذهب المثقفون إلى القول بأن الحيوان الذي وردت الإشارة إليه في تقرير ستيستاس الأصلي والذي مصدره بلاد فارس يمثل الفكرة المنقولة حول حيوان المارية (وهو نوع من البقر الوحشي)، أو الكركدن. وظلت هذه الفكرة ثابتة في عقول الناس لفترة طويلة من الزمن لم ينبر أحد خلالها لانتقادها أو الطعن فيها، خاصة وأن الإغريق من أمثال ستيستاس قد نقلوا صوراً عن «حيوانات غريبة وضخمة عن الفن الديني الهندي» منقوشة على السجاجيد الفارسية، واعتقدوا أنها صور لحيوانات حقيقية. وفي أوروبا العصور الوسطى اكتسبت الأسطورة مزيداً من المصداقية لعدة أسباب منها التجارة في أنياب النراول والحيتان (وكانت هذه تعتبر من السلع النادرة)، والخلط بين هذه الحيوانات وتلك الحيوانات الأسطورية التي وردت إشارات إليها في تقاليد زردشت(*) والتقاليد المسيحية، وعبرت عنها كذلك بعض ممارسات الرعاة حيث كانوا يهوون إحداث تغييرات

(*) زردشت فيلسوف فارسي من القرن السادس قبل الميلاد، وكان يدعو للتوحيد.

غريبة في قرون الحيوانات الأليفة. وعلى صعيد آخر فإن اهتمام الأثرياء والمثقفين بهذا الحيوان قد تعدى مجرد الإعجاب به، فقد وجدوا فيه أشياءً مفيدة كذلك. ونظراً لما ساد من اعتقاد حول تعرض أفراد الأسر المالكة في أوروبا لمحاولات الاغتيال بالسم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر فقد كان قرن وحيد القرن هو سلاحهم ضد مثل هذه المؤامرات.

ولقد كتب أوديل شيبرد عن وحيد القرن موضحاً ولع الناس بقرنه خلال عصر النهضة فقال: «كان رفيقهم في الليالي المظلمة وفي الأماكن المحفوفة بالخطر، وكانوا يضعونه قريباً من قلوبهم، ويتناولونه برفق كما لو كان كنزاً، ولقد كان كذلك بالفعل، فقد كان يوفر الحماية للناس من الأسهم الطائرة نهاراً، والطاعون الذي يمشي ليلاً، كما كان يحميهم من دس السم ومن الصرع وغيره من الأمراض. وباختصار فقد كان تعويذة، وطلسماً، وسلاحاً ودواءً، كل ذلك في آن واحد».

وهكذا فقد كان ناب النرول في العصور الوسطى سلعة تجارية ثمينة تباع وتشرى قطعاً مجزأة على أنها قرن وحيد القرن، وكانت هذه تجارة رائجة ورابحة، إذ كان ثمن القطعة الواحدة منه يساوي عشرين مثلاً من وزنه ذهباً. وفي تقدير شيبرد فقد كان هناك ما لا يقل عن خمسين ناباً كاملاً في أوروبا في منتصف القرن السادس عشر، ومع كل منها تقرير مفصل عن مصدره وأصله. وهذه كانت تقدم للملوك والأمراء على سبيل الهدية، كما كانت تقدم كهبات للكنائس. وبالمثل كانت الحملات الاستكشافية الأولى تأخذ أنياب النراول غنيمة حيث كان أفرادها يعلمون بوجود هذا الحيوان. وفي عام 1204م سرق الصليبيون قرنين من القسطنطينية وأهدوهما لكاتدرائية القديس مرقص في البندقية، وهي لا تزال هناك، وتعد من عوامل الجذب السياحي في تلك المدينة.

ويلاحظ أن مصدر هذه القرون التجارة الأوروبية كان كلاً من جرينلاند وأيسلندة. ولكن الأمر الغريب أن الذين أحضروها إلى أوروبا كانوا من أمثال الرجال الذين لقوا حتفهم غرقاً مع أسقف أيسلندة، وهؤلاء كانوا ملاحين لا يعرفون شيئاً عن وحيد القرن، وبالتالي لم تكن لديهم أي فكرة عن قيمة قرنه. ومن ناحية أخرى كان الناس الذين يشترون هذه القرون لا يعلمون شيئاً عن وجود

وحيد قرن آخر يسمى النرول.

وعلى ما يبدو فإن رسام الخرائط جيرهارد ميركاتور كان أول أوروبي يلم شمل تلك المفاهيم المتفرقة، ويوضح أن مصدر القرون التي تباع وتشرى في أوروبا ليس سوى النرول، وكان ذلك في عام 1621م. وفي عام 1638م أيد عالم دانمركي اشتهر بمعرفته الواسعة بالحيوان والآثار ما ذهب إليه ميركاتور، فقد أعلن أوليه ورم رأيه هذا في خطاب ألقاه في كوبنهاجن. ولكن قصة وحيد القرن كانت قد ترسخت تماماً في عقول الناس في ذلك الوقت بحيث لم يكن من السهل دحضها، كما أن القرون كانت – كما ذكرنا – سلعة ثمينة ولا يمكن أن يعلن عن افتقادها لأي قيمة هكذا فجأة. وأبدى التجار وغيرهم دفاعاً قوياً على أساس أن قرون وحيد القرن البحري لا يقل قوة عن وحيد القرن البري!.

وبمرور الزمن فَقَدَ قرن النرول «نفوذه» في الأوساط الطبية، فبارت تجارته، وتخلى رجال الدين والمثقفون عن الأسطورة التي باتت في أيدي عامة الناس، واقتصر المتمسكون بها على فئات قليلة من الشعراء والفنانين وأصحاب الطابع الرومانسي. ولكن يلاحظ أن انتقال الأسطورة على هذا النحو جعلها تأخذ شكلاً مخالفاً تماماً لما ورد في كتابات ستيسياس، حيث كان يشار إليه كمخلوق نبيل مخيف وإن كان ذا قوة حميدة نافعة، مخلوق ذي إحساس وإن كان يفضل المعيشة وحيداً، مخلوق وحشي لا يقهر، ومن ثم فقد أصبح رمزاً للملوك والفرسان. فلا غرابة إذا كان جزءاً من شعار النبالة أمر به الملك جيمس الأول (ملك بريطانيا) في عام 1424م. وفي عام 1671م كان الملك كريستيان الخامس أول ملك دنمركي استخدم في حفل تتويجه عرش صنع بأكمله من أنياب النرول.

وفي ظل النفوذ المسيحي أصبحت قصة وحيد القرن رواية عن حيوان أسير تم ترويضة تماماً، وبالتدريج فقد الصفات التي التصقت به في الماضي: القوة والشجاعة والمعيشة المستقلة مثل الحصان الوحشي، وأصبحت صورته صورة لحيوان صغير الحجم يشبه الماعز وقد سيطرت عليه فتاة في حديقة رعوية. وهكذا تبددت صورة وحيد القرن الخرافي ذي القدرة على تحويل نهر مسموم إلى مياه عذبة تشرب منها المخلوقات، مثلما فعل موسى (عليه السلام) بعصاه في مياه ماراه، وأصبح رمزاً للعذرية والإجلال، فهو الحيوان الذي كتب عنه في مجلد «التاريخ الجامع» الذي ألفه سولينوس إنه «حيوان لا يؤسر حيًّا. قد يصرع لكنه لا يؤسر».

وفي مساء أحد أيام الشتاء التي قضيتها في ڤانكوڤر بكولومبيا البريطانية كان لي حديث مع الشخص الوحيد الذي نجح في عرض نرول بالغ لفترة قصيرة (وكانت النراول الستة التي أحضرت من شمال كندا في عام 1970م قد ماتت بسبب إصابتها بالالتهاب الرئوي خلال شهور قليلة). ولقد فسر موري نيومان، مدير متحف الأحياء المائية في كولومبيا البريطانية - فسر الصعوبات البالغة بالنسبة لصيد مثل هذه الحيوانات، والمحافظة عليها في الأسر إذا تم صيدها حية، خاصة الذكور منها والتي تتميز بضخامة أنيابها. وشكك نيومان في قدرة أي متحف للأحياء المائية على تحقيق نجاح يذكر في هذا الصدد. وهكذا فقد راودني في ذلك اليوم وصف النرول في كتاب سولينوس.

وإذا أمسكت ناب النرول فسوف تجده ثقيلاً وإن كان مرناً، مستديراً وذا حواف مستوية، وأجوف في معظم أجزائه. ومعروف أن تجويف الناب في الحيوان الحي يكون مملوءاً بلب الأسنان. وقد يزن الناب الكبير نحو عشرين رطلاً، ويتراوح طوله بين ثماني وتسع أقدام، كما يتراوح قطره بين أربع بوصات عند المغرز، ونصف بوصة عند الطرف، ويلاحظ أن هذا الطرف أملس ومصقول ويتراوح طوله بين بوصتين وثلاث بوصات، وقد يكون على شكل إسفين. أما باقي الناب فهو مستقيم النمط ويتلولب من اليمين لليسار، وقد يلتف خمس أو ست مرات حول القصبة قبل أن يبدأ في التضاؤل. كذلك يظهر على الناب تموج خفيف من طرف لآخر. والجزء الضيق من الناب خشن الملمس، وعادة ما تتخلله الطحالب التي تكسبه لوناً مائلاً للخضرة، أو للحمرة الخفيفة جداً، وذلك على النقيض من الطرف الأبيض والعاج المائل للصفرة والذي عادة ما يمتد بطول عشر إلى اثنتي عشرة بوصة عند الطرف العلوي الأيسر من جمجمة الحيوان.

وحتى وقت متقدم من القرن التاسع عشر لم يكن معروفاً ما إذا كان الناب سمة من سمات الذكور أو الإناث، أو ما إذا كان للجنسين أنياب. فعلى الرغم من أن كثيرين قد اعتقدوا أن الناب للذكور فقط، فقد أفادت تقارير موثوق بها أن للإناث أنياباً أيضاً. فقد تسلم متحف هامبورج في عام 1684م جمجمة لأنثى نرول لها نابان كبيران، وكان ربان إحدى السفن قد عثر عليها في إحدى رحلاته. وفي عام 1700م أعلن العالم الألماني سولومون ريزيل أن لبعض النراول «أنياباً لبنية». ومما ساعد في زيادة الأمر تعقيداً أن العلماء لم يتفقوا حول وظيفة الناب، وإن كانوا قد طرحوا العديد

.من التخمينات. ثم شاع خطأ أدى إلى زيادة البلبلة عندما عكس بعض عمال الطباعة صورة النرول بحيث بدا وكأن الناب يبرز من الجانب الأيمن للرأس وليس من جانبه الأيسر، وأنه يتلولب من اليسار إلى اليمين.

وبمرور الزمن ظهرت بعض الحقائق المؤكدة، ومنها أن الناب يتلولب من اليمين إلى اليسار. وفي النمو العادي للحيوان يتكون نابان يبدوان كالأسنان في الفك العلوي للنرول من كلا الجنسين، ناب على كل جانب. ولدى الأنثى تتصلب السّنّان ويتحولان إلى قضيبين من العاج الصلب لهما بروز عند أحد الطرفين يشبه الغليون المِرشُومي(*)، وهذه هي الأسنان اللبنية التي أشار إليها ريزيل. أما في الذكور فإن الناب الذي يوجد على اليمين يتوقف عن النمو، بينما يواصل الآخر نموه ليصبح عضواً حياً تصل إليه الأوعية الدموية. وفي حالات نادرة تماماً ينمو النابان معاً، وفي كلا الجنسين، وفي هذه الحالة يكون التلولب على نحو واحد، أي من اليمين إلى اليسار (على عكس الحال عند الفيل والفظ). وبالنظر إلى النابين التوأمين من أعلى يلاحظ أن كلامنهما ينحرف قليلاً عن الآخر. وقد لا ينمو الناب الأيسر عند بعض الذكور (وقد لا ينمو الناب الأيمن في مثل هذه الحالات الشاذة). ويقدر العلماء أن ناباً وحيداً ينمو لدى ثلاثة في المئة من الإناث.

والواقع أن تعرّف هذه الحقائق كان أبسط وأسهل كثيراً من محاولة تحديد وظيفة الناب. فقد ذهب البعض إلى أن وظيفة الناب العمل كمذراة لنبش وتحريك الأسماك في قاع البحر، أو كحربة لتطويق الفريسة، أو كسلاح دفاعي. لكن كل هذه التكهنات تتجاهل حالة النراول العديمة الأنياب. ويعترض عالم الأحياء الكندي روبين بست (وله باع طويل في هذا الموضوع) على هذه التكهنات موضحاً أن الناب هش للغاية، ولا يمكن استخدامه كمِجسّ أو كمذراة بشكل متواصل، وأن النرول ليس بحاجة إلى مهاجمة الأسماك التي يتغذى عليها، فهذا طريق أصعب للحصول على الغذاء، كما أن النرول يجد صعوبة في إخراج الأسماك الكبيرة نسبياً من نابه. وأخيراً ليس هناك ما يثبت أن النرول يستخدم نابه في الدفاع عن نفسه أو في مهاجمة حيوانات أخرى.

وذهب بعض العلماء إلى القول بأنه قد يكون ثمة علاقة بين الناب وتلقي أو إرسال الأصوات، ويستدلون على ذلك بوجود قاعدة الناب في المنطقة التي تصدر الصوت في جمجمة النرول،

(*) المِرْشُوم معدن قوامه سليكات الماغنسيوم تصنع منه غلايين التدخين. (المترجم)

وأيضاً بحقيقة أن النرول يخرج نابه من الماء من حين لآخر. ولكن هذا الافتراض يتجاهل هو الآخر إناث النرول. وبالإضافة إلى ذلك فإن جراحي الأسنان قد تبينوا أن لب الأسنان لا يحتوي على الليبدات(*) اللازمة لتحديد مصدر الصوت، وإن كان هذا لا ينفي أن النرول يستطيع بشكل ما توجيه الصوت بنابه. وكما أوضح بعض العلماء فإن ذكور النرول «تتصارع بالأصوات». وإذا كان جراحو الأسنان يقولون إنه نظراً لأن الأوعية الدموية تصل للناب، فإن النرول يستخدم هذا العضو في التخلص من قدر ملموس من حرارة جسمه، وبهذا تتمكن الذكور من الصيد بهمة ونشاط، فإن علماء الأحياء لا يقبلون هذا الافتراض.

أما وليم سكورسبي المشهود له بدقة الملاحظة، فقد طرح فكرة أخرى في عام 1820م مؤداها أن الناب مجرد علامة ثانوية للدلالة على الجنس (مثل اللحية عند البشر)، وأنه ربما يستخدم لتفتيت الثلوج الخفيفة عندما يكون النرول (بجنسيْه) في حاجة للتنفس. ويتفق العلماء اللاحقون مع سكورسبي فيما يتعلق بالشق الأول من فكرته هذه، ويرفضون الشق الثاني على أساس أن النرول حريص على نابه ولا يعرضه لأي احتكاك كهذا.

وكغيرها من ذكور الحيوانات الأخرى فإن ذكور النرول تستعرض أنيابها، وأحياناً يحدث احتكاك بينها تستخدم فيه الأنياب. ولقد استدل العلماء على ذلك من وجود آثار جروح في رؤوس كثير من الذكور الناضجة جنسياً، وأيضاً من العثور على أطراف أنياب مكسورة. ولقد ذكر أحد العلماء الذين قاموا بدراسة مستفيضة حول الجهاز العضلي للنرول أن العضلات الموجودة في الرقبة لا تساعد الحيوان على الاقتحام أو تفادي الضربات. وذكر العالم أيضاً أن الذكور تحرك أنيابها بطريقة واعية وماهرة، خاصة عندما تكون محاصرة في ممر جليدي ضيق (ساڤاست). وإذا كان العلماء قد تعرفوا الظروف التي قد تؤدي إلى جروح (وبالتالي آثار جروح) برقبة ذكر النرول، فإن الجدل لا يزال مستمراً بينهم فيما يتعلق بكيفية حدوث الجروح، ومعدل حدوثها. وقد يكون التفسير المحتمل هو أن الذكور تواجه بعضها بالرأس، ومن ثم يتعرض النرول الأقصر ناباً لخطر الإصابة.

ويلاحظ أن نسبة النراول ذوات الأنياب المكسورة تتراوح بين عشرين وثلاثين في المئة، وأن لبعض الأنياب المسكورة حشوة غريبة تسد تجويف اللب تماماً. ويقول جراحو الأسنان أن هذه

(*) الليبدات مركبات عضوية تشمل بالضرورة الدهن والشمع. (المترجم)

السدادة تكون على شكل قضيب، وهي ببساطة نوع من الترسيب العادي الذي « يرمم الأنياب » . ولكن آخرون يذهبون إلى القول بأن هذه الحشوة ليست سوى طرف ناب لنرول آخر أو حصوات ورواسب.

وإذا انكشف لب الأسنان فإنه يصبح موضعاً لانتقال الأمراض، ناهيك عما يسببه من ألم، ومن ثم فإنه من المعقول أن يسعى الحيوان لملء التجويف الناتج عن كسر طرف الناب إذا لم تقم الطبيعة بهذه المهمة (ترميم الناب) . وفكرة أن النرول الذي كسر طرف نابه يستدرج آخر لمساعدته وإسعافه فكرة مضللة بقدر الضلال الذي تنطوي عليه فكرة أن ذكر النرول يضع طرف نابه على بطن ذكر آخر (وهي المنطقة الحساسة للصوت) على سبيل التصارع بواسطة الأصوات. ومن الخطأ أن ترفض رفضاً مطلقاً فكرة أن النرول قد يفعل شيئاً غريباً باستخدام نابه مثل تحريك سمكة مفلطحة من قاع البحر. ويعتقد هيرمان ميلفيل أن النرول يستخدم نابه بمثل ما نستخدم نحن فتّاحة الخطابات. وعموماً فإنه من الواضح أن الوظيفة الأساسية – وربما الوحيدة – لناب النرول وظيفة اجتماعية. ويذهب روبين بست إلى القول بأن الناب قد وصل إلى نهاية تطوره نظراً لهشاشته وطوله والنسبة العالية للأنياب المكسورة.

ويبقى سؤال هام: لِمَ هذا الالتواء في ناب النرول؟ لقد طرح عالم الأحياء الإنجليزي داركي ونتويرث تومسون (توفي في عام 1948م) إجابة ممتازة لهذا السؤال، حيث ذهب إلى أن حركة ذيل النرول لا تساعده كثيراً في الالتواء والدوران، ومن ثم فإن الناب المغروز جيداً في تجويفة الفك العلوي يقاوم هذه الحركة بدرجة ضئيلة من النجاح، وبالتالي فإن النرول طوال حياته يدور ببطء حول نابه، وبمرور الزمن يتغير شكل التجويف، ويترتب على الاحتكاك تآكل في خطوط الناب.

ولقد أوضح طومسون أيضاً أن الناب ذاته ليس ملتوياً، فهو قطعة مستقيمة من العاج مثبتة بسلسلة من الخيوط المنحدرة قليلاً. ولم يعلن أحد اعتراضه أو موافقته على ما ذكره تومسون، كما لم يطرح أحد أي تعديل أو تحسين منذ أن أعلن طومسون عن نظريته في عام 1942م.

* * * * *

ونظراً لأن العاج يجف، ومن ثم يصبح هشاً وغير قابل للتشكيل فإن القيمة العظمى للنرول بالنسبة للأسكيمو الذين اعتادوا على صيده هي أن أنيابه كانت بمثابة الخشب. ويستدل العلماء على ذلك بحقيقة أن بعض المناطق التي كان الصيد فيها كثيفاً اتسمت بخلوها من الأشجار وعدم وصول أخشاب طافية إليها. ومن هنا كان أسكيمو تلك المناطق يستخدمون ناب النرول في صنع قصبات للرماح، وأعمدة للخيام، ومكابح للزحافات، وغيرها من الأشياء والأدوات التي كانت تتطلب مادة خام طويلة ومستقيمة.

ولقد اعتاد الأسكيمو تكثيف صيد النرول خلال هجرتهم القريبة من الشاطئ في فصل الربيع، وفي الخلجان والفيوردات في فصل الصيف. وعلى حد معرفتي فإن الأسكيمو لا يعلقون أهمية روحية تذكر على ذلك الحيوان. فهو كالرنة حيوان يهاجر بحثاً عن الطعام، ويسهل استرضاء روحه، ولا يملك القدرة على الشفاعة وغيرها من القوى الداخلية التي يتميز بها الدب القطبي، والذئب، والفظ، والغداف.

وبالنسبة لسكان جرينلاند فإن جلد النرول يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الناب، فهو أكبر قيمة من جلود كافة الحيوانات الأخرى في صنع الحبال التي تشد بها كلاب الزحافات نظراً لأنه يحتفظ بمرونته حتى في الجو شديد البرودة، ولا ينفرد عندما يبتل. ويضاف إلى ذلك أن أوتار ظهر النرول تستخدم كخيوط قوية لا يؤثر فيها الزمن، خاصة وأنها تتميز بطول كبير. كما أن الطبقة الخارجية من الجلد مصدر هام من مصادر فيتامين (ج)، وهي غنية به تماماً ككبدة الفقمة الخام. ومن ناحية أخرى فإن دهون النرول توفر الضوء والدفء حين تحترق، حيث ينتج عن احتراقها ضوء أصفر ساطع يمكن الأسكيمو من القيام بأعمال دقيقة مثل صنع الخطاطيف لصيد الأسماك، أو حياكة القفازات داخل الأكواخ المصنوعة من الثلوج. وأخيراً وليس آخراً فإن نرولا واحداً يكفي لإطعام فريق من الكلاب لمدة شهر كامل.

ولكن الأمور قد تغيرت الآن. فالبعض يرى أن صيد النرول ليس له ما يبرره اقتصادياً في هذه الآونة، خاصة وقد أصبح صيداً جائراً نظراً لتزايد معرفة الإنسان بخصائص هذا الحيوان وبيئته، ومن ثم فإن الصيد لم يعد هواية ممتعة أو مغامرة مثيرة. وطوال الفترة التي أمضيتها في مشاهدة النراول على طول حافة الكتلة الجليدية الطافية في لانكستر ساوند في عام 1982م لم يذبح نرول واحد

لإطعام الكلاب، فقد انقضى زمن الزحافات التي تجرها الكلاب وحل محلها مركبات ميكانيكية. ولم تعد أوتار ظهر النرول تستخدم كخيوط. والجزء الوحيد من جسم النرول الذي لا يزال سلعة رائجة هو الناب الذي يستبدل به في القرى نقوداً. وربما أضيف إلى الناب في بعض المناطق جلد النرول الذي يحتوي على طبقة رقيقة من الدهون، وهذا ينقل إلى معسكرات الصيد في نوفوا (ويترقب الناس وصول هذه السلعة كل ربيع حيث يتلذذون بأكلها لأنها ذات مذاق طيب يشبه مذاق البندق).

ويرتبط مصير النرول في لانكستر ساوند ارتباطاً واضحاً بمشاريع التنقيب عن النفط والغاز واستخراجهما هناك. ومع ذلك لا يمكن إغفال الصيد الجائر والمتواصل والذي يشكل عاملاً آخر في تحديد مستقبل هذا الحيوان. ففي السنوات الأخيرة لوحظ سوء تصرف وعدم انضباط الصيادين الأسكيمو خلال فصل الصيد الربيعي في المناطق الشمالية من جزيرة بافين، إذ استخدموا أسلحة نارية مختلفة العيار، وطلقات مختلفة الأنواع وكلها لا تقتل الحيوان وإنما تصيبه فقط. وفي بعض الأحيان كانوا يتجاوزون الحصص التي تقررها إدارة مصايد الأسماك والمحيطات في كندا، والتي تتولى مراقبتها اللجنة الدولية لصيد الحيتان(*).

وعلى صعيد آخر تستبعد الحكومة الكندية الأسكيمو من الدوائر العليا لصنع القرارات التي تتعلق بهذه الأمور، كما لا تقدم لهم أي مساعدة أو إرشاد فيما يتعلق بسلوك ووسائل الصيد التي تتماشى مع قوة ومدى الأسلحة الحديثة. وبالنسبة للأسكيمو فإنهم ينظرون لمحاولات تعديل حضارتهم وربطها بالحضارة القادمة من الجنوب بعين الشك أحياناً، وعين الحذر أحياناً أخرى، ولعل هذا ما يفسر كيف أنهم قد يفقدون هدوءهم المعهود. وفي هذا السياق يقول كيري فنلي، وهو عالم أحياء متخصص في الثدييات البحرية، إنه «من الأهمية بمكان إشراك الأسكيمو في إدارة الموارد البحرية». ويذهب أيضاً إلى أن المشاكل المتعلقة بهذا الحيوان وصيده لن تجد حلاً شافياً إلا بمشاركة هؤلاء الناس.

(*) أوضح ك. ج. فينلي، ر. ا. ديفيس، هـ. ب. سيلفرمان هذه الاتهامات بالتفصيل في كتاب حول «جوانب صيد النرول في القطاع الكندي الشرقي من المنطقة القطبية الشمالية»، وفي التقرير رقم (30) للجنة الدولية لصيد الحيتان (1980)، وكذا في التقرير رقم (32) الصادر في عام 1982. كما وردت في كتابات أخرى حول الوسائل والأدوات المستخدمة في الصيد، خاصة بندقية الحربون.

وإني إذ كنت أمشي بحذاء حافة كتلة الجليد الطافية في تلك الأيام، كنت أتمنى أن أرى النراول أو أسمع أصواتها، ويراودني في الوقت نفسه أمنية مضادة بألا تأتي. فالنرول حيوان يقاتل بضراوة من أجل حياته، ومن المؤلم حقاً أن تشهده وهو في حالة صراع. ولطالما تناولت لحم النرول احتراماً لمشاعر من حللت ضيفاً عليهم من أهالي المنطقة، فهذه تقاليد تعود إلى ماضٍ بعيد.

وبعيداً عن النرول فقد لفت نظري طائر النورس العاجي، وهو طائر صغير يصدر صفيراً عالياً، وله قدرة غريبة على الظهور فجأة في المنطقة وكأنه قد أتى من فراغ. فقد مسحت بنظارة الميدان مجالاً يقدر بعشرات الأميال المربعة من السماء الزرقاء المفتوحة ولم أشاهد أي طيور، وعندما ألقيت بقطعة من لحم الفقمة في ماء أحد الممرات الجليدية الضيقة لم تمض دقائق حتى كانت طيور النورس العاجي فوق رأسي، وكان من الصعب عليَّ تبين من أين أتت.

وظللت أراقبها وهي تطير فرادى وجماعات صغيرة، وتعجبت كيف أنها هي الأخرى قد تكيفت تماماً مع البيئة التي تعيش فيها. فلكي تختزن هذه الطيور الحرارة فإن أرجلها السوداء قصيرة بالنسبة لأجسامها، وبالتالي فهذه الأرجل أقصر من أرجل الأنواع الأخرى من النورس. كما أنها ذات أقدام بها وترات أقل، ومخالب أطول وأكثر حدة تمكنها من الإمساك بطعامها جيداً (وغالباً ما يكون الجيفة المجمدة)، كما تساعده على التحرك فوق الثلوج. وتستخدم هذه الطيور الطحالب والأعشاب البحرية في بناء أعشاشها، وهذه تحتجز الطاقة الشمسية وتسهل عملية احتضان البيض. ولتجنب الماء في فصل الشتاء فقد اكتسب هذا الطائر رشاقة بالغة تمكنه من التقاط غذائه دون أن يحط على السطح. وفي فصل الشتاء يتتبع خطى الدب القطبي، وعندما لا يجد جيفة يقتات عليها فإنه يتغذى على روث الدب القطبي. ويقضي النورس العاجي فصل الشتاء على أكوام الثلوج، فهو من تلك الفصيلة التي تسمى «عاشق الثلوج».

وأواصل سيري وتأملي، ويتبادر إلى ذهني ما قرأته عن حيوان أسطوري منسوب إلى الصين، مخلوق يشبه في عاداته وحيد القرن وإن كان قنوعاً مثل النورس العاجي، ويطلقون عليه اسم «كي – لين»، وتصوره الأساطير على أنه له حُنُوّ وحيد القرن وروح المناضل الروحاني أو الراهب في آنٍ واحد. ولقد كتب أوديل شيبارد عنه فقال: «لم يكن لكي – لين أي قيمة تجارية، ولا يصنع من أي جزء من جسمه دواءٌ، ويعيش لنفسه فحسب، وبالتالي فهو ليس بمصدر للعلاج أو الشراء أو

الترفيه أو التثقيف لبني البشر، وبهذا فهو على النقيض من وحيد القرن». وباختصار فإن هذا الحيوان الخرافي يجسد كل ما هو رائع ومثالي.

وفي ضوء نظرتنا الأرسطوطالية والديكارتية(*) للحيوانات على أنها أشياء، ونظرتنا الدينية لها على أنها أدوات للرمزية البشرية، وفي ضوء اختلاف مساعينا للكشف عن جوانب حياتها كافة، فلنا ثقافة يمكن أن تأخذ هذا الكي - لين مأخذ الجد. فنحن ثقافة مختلفة، كما أننا نعيش في زمن مختلف تماماً. وحتى في الصين الحديثة لم يعد الكي - لين موضع الاحترام والتبجيل كما كان في الماضي. ولكن فكرة هذا الحيوان الأسطوري، ومجرد حقيقة أنه قد تقمص شكلاً ما لا تزال قائمة لأنه قد ظهر بعد أن تغلب الناس على مخاوفهم من الطبيعة وعدم ثقتهم فيها، وظهور رغبتهم ومساعيهم للتحكم فيها بشكل تام من أجل تحقيق مآربهم.

والواقع أن تاريخ امتزاج الحضارات يسير في خط متوازٍ مع تاريخ التجارة في أشياء مثل أنياب النرول، وفي الأفكار، وفي القصص والروايات. ولقد اعتدنا أن نأخذ من هذا التراث كما شئنا، وعادة ما نأخذ أحسن ما نجد. وفي اعتقادي أن الكي - لين يجسّد فكرة رائعة وثيقة الصلة بموضوعنا هذا، فهو كائن لا يمكن امتلاكه وإن كان يخدم البشر عندما يكونون بحاجة إلى الحكمة، ويحض على الكرامة والاحترام في المعاملات البشرية، ويؤكد على ذلك الغموض الأساسي الذي تقابل به الحياة - كل الحياة - أي محاولة لتحليلها.

ولا أقصد بهذا الكلام أن نجعل من النرول حيواناً رمزياً مثل الكي - لين. ولا أقصد كذلك أن تذوق الأسكيمو البدائي للحياة ينطوي على إجابة لشكوكنا التي لا تنتهي حول صحة أو ملاءمة غزواتنا لتلك المناطق التي ليس لنا بها عهد أو تاريخ، وما نفرضه على الحضارات الأخرى. وكل ما أريد أن أقوله هو أنه في تقديرنا البسيط لعالم ليس عالمنا ولا يحق لنا أن نحدده أو نُعَرِّفه - تلك المناطق القطبية الشمالية - قد نجد بعض العزاء إذا اكتشفنا كي - لين مختبئاً بداخلنا كقصبة مضيئة.

(*) نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو، والفيلسوف الفرنسي ديكارت، والأخير من أعلام عصر النهضة الأوروبية. (المترجم)

الفصل الخامس

الهجرة
عندما تتنفس الأرض

كان الظلام دامساً، والسماء تنذر بمطر خفيف. فتحت باب الخيمة، وتلفت حولي، وتمنيت أن يصفو الجو عند طلوع الفجر. ولم يكن الصوت الذي ترامى إلى مسامعي صوت مطر، فقد كان صوت الريح. وأدركت أن عاصفة سوف تهب على مكان ما في المنطقة.

وتزايدت الأصوات من حولي، ورغم أنني كنت شبه متيقظ فقد تبينت نوعيتها: أصوات عالية متنافرة، تجيئ، وتذهب، وتذكرني بتلك الأصوات التي نسمعها عندما نمر بالقرب من استاد مليء بالمتفرجين.

كانت هذه أصوات إوز الجليد خلال الليل، وشاهدتها تطير بحذاء الساحل الشمالي لألاسكا. كان الوقت شهر سبتمبر، موعد بدء حركة هذه الطيور في اتجاه الغرب. وكان قد سبق لي مشاهدتها في جزيرة بانكس وفي الموعد ذاته تقريباً وهي تهاجر شمالاً في أسراب صغيرة يتراوح عدد كل منها بين عشرين وثلاثين. وفي ربيع ذلك العام نفسه توجهت إلى المنطقة الشمالية من كاليفورنيا لقضاء بضعة أيام مع هذه الطيور في أماكن وجودها الشتوي عند بحيرة تول في حوض نهر كالاماث.

وبحيرة تول هذه ليست معروفة بقدر كبير في أمريكا، ولكن الإوز والبط يتجمع عندها بأعداد كبيرة في كل خريف، الأمر الذي يعطي انطباعاً بأرض تغص بالحياة وتتسم بالصحة والعافية. ففي أي يوم من أيام الخريف يقع بصر الزائر على ما لا يقل عن مليون طائر من أنواع مختلفة: ذوات الريش الطويل في وسط الذيل، والبط النيروقي (الغواص)، والحذف (بط نهري صغير)، والبط ذو الرأس الأحمر، والبط الجارف، والبط البري، والبُركَة، وأنواع عديدة من الإوز الكندي، والإوز ذو المقدمة البيضاء، والإوز الجليدي الأصغر، وإوز روس، وبجع التندرة. وفي الحقول المفتوحة، وبين

البحيرات والمستنقعات حيث تتغذى هذه الطيور وتستريح تجد العديد من الطيور السوداء ذات الأجنحة الحمراء، وعصافير الساڤانا وغيرها من الطيور مثل النسور والصقور من مختلف الانواع والأحجام.

وفي وادي نهر كالاماث هناك أربعة أمكنة أخرى تلجأ إليها الطيور المهاجرة، إضافة إلى بحيرة تول، مما يجعل المنطقة واحدة من أكبر واغنى البيئات التي تأوي الطيور المهاجرة في أمريكا الشمالية. وإلى الغرب من بحيرة تول توجد بحيرة كبيرة أخرى - وإن كانت ضحلة - وهي بحيرة كلاماث السفلى. وإلى الشرق، وبالقرب من المناطق التي يكثر فيها المستنقعات ذات الأعشاب والطحالب يوجد جرف منخفض تقيم فيه بوم الأجران أعشاشها. ويرى الزائر علامات محفورة على الصخور، وهذه كانت الأرقام عند السكان الأصليين في الماضي البعيد. وإلى الجنوب الغربي هناك بقايا متناثرة لمعسكر ياباني يعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية. وفي الحقول الممتدة إلى الشمال والشرق والجنوب يزرع الفلاحون الشعير والبطاطا الشتوية في تربة بركانية داكنة.

وفي تلك الليلة التي ظننت أنني أسمع صوت تساقط المطر، غالبني النوم مرة أخرى، ربما لكثافة صياح الإوز. ثم استيقظت مرة أخرى على صوت طيرانها الليلي، وهو خليط من الطرق القوي للهواء، وحركة الأجنحة الجامحة. ولعل هذه الأصوات مجتمعة هي التي تجعل هذه المنطقة تبدو وكأنها غير ماهولة بالبشر، ومرتعاً للحيوانات التي تأتيها كل عام. وبعد مدة قصيرة لم أشعر بانني أتطفل على المنطقة، وأحسست بالهدوء والسكينة التي يمكن للإنسان أن يستمدها من الطيور، كما أحسست بأن هذه المنطقة تحتضن بعضاً من أقدم أسرار هذا الكون: طبيعة، ومدى الفضاء، وسقوط النور من السماء، وانسياب الزمن من الماضي إلى الحاضر وكأنه ماء يجري.

كان هناك نحو (25,000) إوزة جليدية صغرى في بحيرة تول. وعند الفجر كنت أجدها تطفو نحو سطح الماء، وقد اقتربت كل منها من الآخر، وفي صفوف لا يقل طول كل منها عن ثلاثة أرباع الميل، وبمواجهة تصل إلى خمسمائة ياردة تقريباً. وعندما يبدأ سرب من هذا الإوز الانطلاق من سطح الماء فإنها تحدث صوتاً يشبه ذلك الصوت الذي تحدثه الرياح المقتربة. وإذا حاولت فصل هذه الأصوات عن بعضها فسوف تجد أنها تشبه صوت هفيف القُوَط القطنية الجافة وهي منشورة على حبل للغسيل. وما إن تصبح الطيور في الهواء حتى تشاهد منظراً غاية في الروعة من حيث الشكل

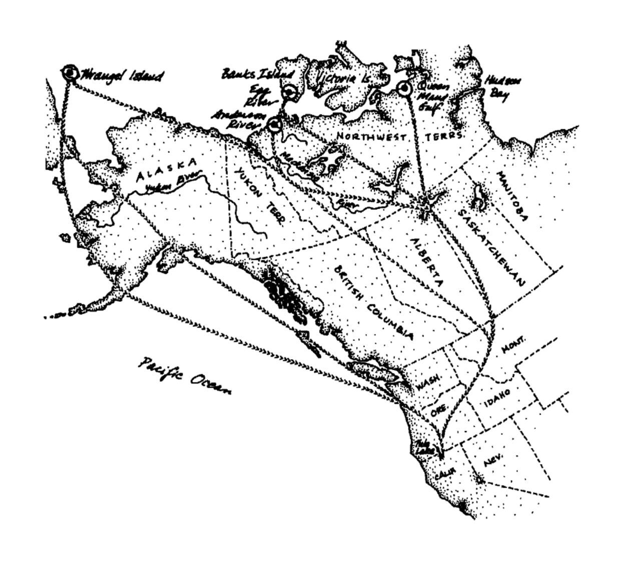
والألوان.

وعندما يأتي الإوز إلى حقول القمح المنتشرة حول بحيرة تول لكي تتغذى، فإنها تأتي في أسراب يتألف كل منها من نحو خمسة إلى عشرة آلاف، وأحياناً تجد في السماء ما بين أربعين أو خمسين ألف طائر في المرة الواحدة، فهي تطير من الحقول وكأنها ألسنة من الدخان المتصاعد في تيارات ملتوية، ويزداد ارتفاعها في السماء، وتنتشر طولاً وعرضاً، ولا يمكن للعين المجردة تتبعها. ويتقاطع سرب مع آخر في السماء، بينما يمر وراءهما سرب ثالث، فرابع، وهكذا حتى يفقد المراقب عمق المجال ويشعر وكأنه ينظر إلى السماء من قاع المحيط ومن خلال موجات من الأسماك.

ولهذه الطيور سمات جذابة: لونها الأبيض الجميل، وأعدادها التي تفوق كل خيال، والقوة التي تتمتع بها، وفوق هذا كله تلك البراعة الغريبة التي تمكن كل طائر من الانضمام إلى السرب الأكبر أو الانفصال عنه، وكيف أن الطائر داخل السرب يبدو أكبر مما هو عليه فعلاً، وكأنه مخلوق آخر. ولم أشهد طوال مدة إقامتي في هذه المنطقة إوزة تعرقل هبوط أخرى إلى السطح، أو إوزات في الماء تعوق انطلاق أخرى إلى السماء، ويتحقق هذا «الانضباط» على الرغم من شدة الازدحام. ولم أشهد أي اصطدام بين أطراف أجنحة طائرين في الجو، وإن كان من المؤكد ان ذلك أمر وارد. وتنطلق الطيور في اتجاه الريح في حركة منسجمة تماماً لدرجة أنها (وكلّ سرب منها يقدر بالآلاف) تحط على السطح برفق غريب وفي ثوان معدودة وكأنها أوراق أشجار. ولا يستطيع الإنسان أن يتوقف عن مراقبتها، نظراً للتوتر الذي تحدثه بين خطوط طيرانها الممتدة ذات القطع المكافئ، وحركتها الرشيقة المفاجئة وكلها ثلاثية البعد.

وثمة شيء آخر يلفت النظر؛ فهذه الطيور تأتي من نهايات الأرض لتجد هذه البحيرة الصغيرة كل عام وبدقة متناهية. فهي تصل قادمة من أماكن تكاثرها عند الحافة الشمالية للقارة في كندا، ومن وديان الأنهار في جزيرة رانجل في القطاع الروسي من المنطقة القطبية الشمالية. والمسالك القديمة لهجرتها عبر مضيق بيرنغ حتى ساحل المحيط الهادي والجانب الشرقي لسلسلة جبال روكي أقدم كثيرا من البلدان التي تطير منها. وإذا كانت حياة كثير من الحيوانات أصبحت تحت رحمة الإنسان ومشروعاته وخططه، فإن ما تتميز به هذه الحيوانات من قوة الإرادة، والنمط التقليدي لحركتها جعلها تقاوم وتحافظ على بقائها. وعندما تكون في رفقة هذه الطيور تحس بالبراءة في

أجمل صورها، وبسمو الروح والعواطف. فالطيور تعلق بالعقل والقلب معاً وبشدة غريبة. لا زلنا نجهل السر الكامل لقدرتها على الاندماج معاً في أسراب، وكذا لقدرتها على « الملاحة » فيما نراه أراضي شاسعة خالية من التضاريس. ومجرد مشاهدة أي سرب من أي نوع من الطيور متعة كبيرة في حد ذاتها. وفي المنطقة القطبية الشمالية تجد الطيور بأعداد هائلة، ومن ثم تتعاظم تلك المشاعر. ففي فصل الربيع، وفي خليج أنادير قبالة الساحل الروسي يكتسب سطح الماء لوناً فضياً من جراء وجود تجمعات هائلة لأسماك الرّنجة، وهذه الأسماك تجتذب أسراباً من مختلف أنواع الطيور التي تتغذى عليها، ويعود كل طير بما ظفر به من أسماك ليحط على السلاسل المنحدرة، وهذه هي الأماكن التي تضع فيها الطيور بيضها، وعندما يفقس البيض تتناثر قشوره وتعصف بها الرياح على البحر وكأنها قطع من جليد. وفي السادس من أغسطس 1973م تمكن عالم الطيور ديڤيد نتشليب من الالتفاف حلو نقطة سكرويس على الساحل الشمالي لجزيرة ديڤون حتى أصبح وجهاً لوجه مع مستعمرة « مفقودة » لطائر الفلموت الأسود. ولقد شاهدها تمتد أمامه في اتجاه الجنوب الغربي لمسافة أربعة عشر ميلاً. وفي السهل الأعظم « كوكديجوك » في جزيرة بافين يرى الزائر – وهو يعبر الأنهار ويخوض البرك والجداول – كميات هائلة من ريش الإوز، الإهاب القديم الذي طرحته هذه الطيور – وإذا أخذ حفنة أو اثنتين منه ونشرها في الهواء فسوف تتطاير وتسقط كما لو كانت قشراً أو تبناً. ولسوف يعرف أن الحركة في هذه المنطقة قد أجهدت الثعالب وتمكنت من هزيمتها. ومن السلاسل الجليدية في جزيرة ديجيز، ورأس وولستين هولم القريبة في مضيق هدسون يوجد نحو مليونين من طيور المورّ ذات المنقار الأسود، تسبح إلى بعيد متجهة إلى ملاذها الشتوي في منطقة جراند بانكس.



هجرة الخريف لطيور الإوز الجليدي الصغرى من مناطق أعشاشها في جزيرة رانجيل، وفي شمال كندا إلى بحيرة تول في كاليفورنيا.

ويلاحظ أن هذه التجمعات الهائلة مؤقتة ومن ثم فهي مضللة، إذ يمتد بين هذه الواحات مئات من الأميال من السلاسل الجليدية الساحلية، والمستنقعات ووديان الأنهار التي تخلو تماماً من الطيور. كما أن أسراب البط والإوز المهاجرة تذهب بالسرعة ذاتها التي أتت بها، تضع بيضها وتطرح ريشها، ثم تعلم صغارها كيف تطير، وفي غضون أسابيع خمسة أو ستة تكون قد طارت، ومن ثم يصبح المكان خاوياً تماماً. وهكذا فإن ما يراه الإنسان في تلك المستعمرات عملة ذات وجهين. فلفترة من السنة تختفي الثلوج والجليد، الأمر الذي يسمح للحياة بالازدهار، وللطيور بالحصول على الغذاء. والأهم من ذلك أن هذه الواحات توفر الحماية للطيور، مما يمكنها من بناء أعشاشها على الأرض وطرح ريشها القديم دون خوف في تلك السهول الساحلية المغمورة بالمياه. ومعروف أنه بعد أن يطرح الطائر ريشه على هذا النحو يفقد القدرة على الطيران لعدة أسابيع. والطيران هوسبيل الطير الوحيد للهروب من الحيوانات المفترسة. ويضاف إلى ذلك وفرة الطعام في هذه الواحات، ومن ثم تحصل الطيور على حاجتها منه، وبهذا يتوافر لها كمية إضافية من الطاقة هي في أمس الحاجة إليها لطرح ريشها القديم ولتكوين كمية احتياطية من الدهون تعينها على رحلتها في اتجاه الجنوب.

وبالنسبة للطيور فإن الأسابيع المعدودة التي تقضيها في تلك الواحات على درجة كبيرة من الأهمية. فإذا كان الجو ملائماً، وأحسنت الطيور التوقيت فإنها تصل إلى موطنها الشتوي يغمرها إحساس غريب وقوي بأنها قد أنجزت شيئاً كبيراً. فعندها يحط الإوز الجليدي في بحيرة تول في شهر أكتوبر لا يهم المراقب أو الباحث أين ولد كل منها – في نهر إيج بجزيرة بانكس، أو عند مصب نهر أندرسون في الأقاليم الشمالية الغربية، أو في وادي نهر تندوڤايا، أو في جزيرة رانجل. فالشيء الهام حقاً هو أن كلاً من هذه الطيور قد بدأ حياته والتقط أول أنفاسه في تلك المناطق القطبية الشمالية القاسية، وأنه قد حَطَّ هاهنا لأول أو ثاني، أو خامس، أو عاشر مرة. ويثير نجاح هذه الطيور دهشتنا، ويدعونا للتأمل في حياتها، فهي في معيشتها تطير لمسافات تقدر بعدة آلاف من الأميال، وتنتقل من مكان لآخر كل أربعة أو خمسة أسابيع، وتنفد مواردها من الطعام والضوء في فصل الخريف، وتطير إلى بعيد في فصل الربيع.

وكم كان يطيب لي مراقبة طيور الإوز وهي « تقلع » في الصباح من « قواعدها » في البحيرات،

. ثم تتحرك بشكل لولبي فيختلط لونها الأبيض بزرقة سماء كاليفورنيا، وتتجه نحو حقول الشعير بحثاً عن الغذاء. إن هذه الطيور تذكرني بالبدو الرُّحَّل، وتجعلني أتعجب لهذا التوافق الزمني الدقيق، وأتأمل الفضاء بين الأرض والسماء، بين المكان الذي أنا فيه الآن والشمال الأقصى. كانت الطيور تحلق في السماء بشكل رائع خلاب، متجهة إلى حيث تقصد، فحركاتها حركات تنم عن رغبة معينة.

* * * * *

ولن يمر وقت طويل حتى يدرك الإنسان أن مقياس الزمان والمكان عند غالبية الحيوانات يختلف عنه في الإنسان. ويرجع ذلك إلى الاختلاف في الحجم، وفي طرق السفر والانتقال، وفي الوسائط التي تتحرك خلالها، وفي مدة الحياة ذاتها. وفي البداية نظر العلماء إلى هجرة الحيوانات بالقياس إلى هجرة الإنسان، وبمعنى آخر فقد عدّها علماء الأحياء حدثاً خاصاً في حياة الحيوانات. ومن هنا فقد ركزوا على المسافات الطويلة التي تقطعها الحيوانات في رحلات الهجرة، وأيضاً على الحقائق المدهشة المتعلقة بالملاحة (تحديد الحيوانات للاتجاهات والوِجْهَات). أما اليوم فإن العلماء لا يميزون بين الهجرة والأشكال الأخرى لحركة الحيوانات (والنبات): فهذه بذرة نبات القيقب (الخشبي) تتلولب إلى أسفل متجهة إلى أرض الغابة؛ وهذه فراشة تحوم حول مرعى صيفي؛ وهذا طائر الخرشنة (شبيه النورس) وقد بدأ رحلة الخريف التي يقطع خلالها (12.000) ميل – وكل هذه تحركات ذات غرض واحد: الوصول إلى بيئة أكثر تلاؤماً مع متطلبات النمو والبقاء. ويضاف إلى ذلك أن العلماء في الوقت الحاضر يفهمون تحركات الحيوانات على ضوء غريزة التوجيه التي لم نفهمها فهماً كاملاً بعد، وهذه الغريزة تنطوي على عدة أحاسيس؛ مثل التعرف على المجال الكهرومغناطيسي، واستخدام صدى الصوت والاختلافات في الضغط الجوي كموجهات.

وفي دراسة هجرة الطيور والحيوانات على نطاق واسع (مثل هجرة الإوز الجليدي) يفترض علماء الأحياء «منطقة مألوفة» لكل حيوان، ثم يتحدثون عن مجال حياته في إطار تلك المنطقة، وهذا يشمل مأواه في كل من الشتاء والصيف، والمكان المفضل لتزاوجه، ومسارات هجرته. وتشمل «المنطقة المألوفة» كل الأراضي التي يكون للحيوان أي معرفة بها، وهي المعرفة التي

يكتسبها أساساً من خلال «استطلاع الأرض» القريبة من مجال حياته خلال الفترة المبكرة من وجوده. وعلى حد معارفنا فإن الاستكشاف المكثف ظاهرة عامة بين الحيوانات. ويعتقد العلماء أن مثل هذا الاستكشاف يضمن البقاء لمجموعة الحيوانات عن طريق تعريفها بأوطان بديلة يمكن أن تلجأ إليها في حالات الطوارئ.

والسؤال الذي يطرح نفسه حول «مجال الحياة» واستغلاله هو: كيف تشق الحيوانات طريقها إلى أجزاء من مجال الحياة لم تره من قبل؟ وكيف تعرف الموعد الأنسب للتوجه إليه؟ وإذا كانت الإجابة عن هذا السؤال المزدوج تنطوي على قدر من الخداع والتضليل، فإنها في الواقع تشكل ما نسميه «هجرة»، ولدينا بعض المعرفة بكيفية قيام الحيوانات برحلات الهجرة. فلكثير من الحيوانات – بما فيها المخلوقات البدائية مثل الشُّعَار – ذاكرة مكانية من نوع ما، وتستخدمها في شق طريقها في العالم. وجزء من هذه الذاكرة المكانية له أساس جيني، بينما الجزء الآخر يكتسب من خلال التنقل مع الآباء والأمهات، وأيضاً من خلال عملية الاستكشاف الفردية. ونحن نعلم أن الحيوانات تستخدم عدداً كبيراً من الحواس في التنقل الواعي من مكان لآخر، وهذه تمكنها من تحديد موضعها في الفضاء، والتعرف على البيئة. ولكن حتى الآن ليس بوسعنا سوى التكهن بأي الحواس، أو بأي تجمعات منها على وجه التحديد، هي الخاصة بالملاحة، وأي المعلومات التي تختزن في هذا الصدد.

والرؤية التي لدى معظمنا عن الهجرة هي أنها تحركات على نطاق واسع: طيور تنتقل في أعداد كبيرة إلى مأواها الشتوي، وأسماك مثل أسماك السلمون تسبح مع التيار لتضع بيضها، وقطعان لحيوانات مثل النُّوّ (وهو حيوان يشبه الثور وله قرنان معقوفان وذيل طويل)، والحمار الوحشي، والغزال – وهذا الأنواع الثلاثة الأخيرة ترتبط حركياً مع نظام بيئي معين لسقوط الأمطار في شرق إفريقيا. ويلاحظ أن هجرتها السنوية شبه الدائرية في أعقاب سقوط الأمطار تكشف عن شبكة غريبة ومعقدة من المنافع للكائنات الموجودة في ذلك النظام البيئي كافة – الحشائش وآكليها من مختلف الحيوانات، والفرائس ومفترسيها. فالحيوانات خلال رحلات الهجرة تقلب الأرض، وتستفيد الأرض كثيراً من روث الحيوانات الذي يكون بمثابة سماد طبيعي، وفي الوقت نفسه تسقط الأمطار فتنبت البذور، وتنمو النباتات على اختلاف أنواعها، فتجد الحيوانات وصغارها ما تتغذى عليه. أليس في هذا كله اتفاق وتصادق رائع ونافع للجميع؟ أليس هذا بمدعاة للتأمل في

خالق هذا الكون وتلك المنظومة الفريدة المتجانسة؟.

ومن الأمثلة البارزة للهجرة وصول أسراب هائلة من طائر الخطاف (السنونو) إلى منطقة سان جوان كابيسترانو، وظهور الحيتان الرمادية قبالة ساحل أوريجون في شهر مارس، وتحركات حيوانات مثل الإلك (ظبي كبير الحجم) في وايمنج في فصل الخريف. ولما ذهبت إلى المنطقة القطبية الشمالية للمرة الأولى لم أكن مسلحاً بغير تلك الأفكار، وهذه كانت الدليل بالنسبة لي. والحق فقد كانت كافية لتفتيح عينيّ على تحركات أكبر وأكثر شمولاً في المنطقة، كما أنها جعلتني أدرك أن هذه الهجرات (التي تبدو بسيطة أو مجرد حدث في حياة الحيوان) أمر بالغ التعقيد. وعندما أمعنت النظر في تحركات الحيتان والطيور والرنة، أدركت المصدر الذي استقى منه بعض الناس فهمهم المجازي للتناسق والتماثل والتناغم والانسجام في الكون.

وإذا كانت المنطقة القطبية الشمالية تشهد أنواعاً عديدة من الهجرات المختلفة في وقت واحد، فإن بعضاً من هذه الهجرات لا يرتبط بدورة الأرض السنوية. فالحيوانات لا تزال تتكيف مع تراجع الأنهار الجليدية في العصر الحديث الأقرب (البلستوسين)، والذي بدأ قبل نحو عشرين مليون سنة. ويلاحظ أن بعض الحيوانات والطيور التي تعيش في المناطق المعتدلة تتحرك تدريجياً بشكل منتظم نحو الشمال، الأمر الذي يترتب عليه حدوث تغيير في سلوكها، أو تكتسب خصائص جديدة، مثل اللاموس ذي الياقة، والثعلب القطبي الذي ازداد فراؤه الأصلي كثافة.

وللتقلبات المناخية المسجلة في فترات أقصر كثيراً – مئات السنين – دور في الانتقال الدوري لبعض التجمعات الحيوانية شمالاً وجنوباً خلال تلك الفترات. فعلى مدى الخمسين سنة الماضية – على سبيل المثال – وأسماك القد وأنواع مختلفة من الطيور تتحرك شمالاً على طول الساحل الغربي لجرينلاند، بينما تجمعات الثعلب الأحمر تثبت نفسها في أقصى الشمال عند تندرة أمريكا الشمالية(*). وكنوع من استجابة الحيوانات المقيمة في منطقة ما منذ زمن بعيد لكوارث بيئية

(*) انتقل طائر «أبو الحناء» الامريكي – وهو طائر صغير صدره أحمر ضارب إلى الصفرة – إلى مناطق شمالية بعيدة ووصل حتى جزيرة بافن مؤخراً. ولقد شاهده الاسكيمو الذين يعيشون بالقرب من خور بوند والخليج القطبي لاول مرة نحو عام 1942م وكانوا قد علموا بوجوده من خلال ما رواه الرحالة الاوروبيون من قصص حوله. ويقول الاسكيمو إن هذا الطائر قد اتى إلى هذه المنطقة الشمالية النائية بسبب «كثرة القتال في الجنوب» في تلك الفترة.

قصيرة الأجل (كما حدث لثور المسك في شتاء 1973 - 1974م)، أو كرد فعل لتصلبات عنيفة في تجمعاتها (كما حدث للاموس) فإنها بمرور الوقت تعود إلى مواقعها الأصلية وتهجر بعضاً من المواقع التي كانت قد لجأت إليها.

ولكي تتمكن حيوانات المنطقة القطبية الشمالية من التكيف مع الدورات السنوية – هبوط درجات الحرارة، وفقدان الضوء، ووجود غطاء جليدي، وتضاؤل كميات الغذاء المتوفر – فقد اتبعت عدة أساليب. فاللاموس قادر على الحركة تحت الجليد، والنحل الطنان يبيت بياتاً شتوياً، والثعالب القطبية تتحرك فوق ثلوج البحار. وتهاجر حيوانات كثيرة أخرى لمسافات طويلة، ومن بينها الفظ والرنة والحيتان والطيور. فعلى سبيل المثال فإن طيور الخرشنة تطير إلى المحيط الجنوبي قرب نهاية الصيف بالمنطقة القطبية الشمالية، وهذه دورة سنوية يراها أي حيوان آخر على الأرض. ويلاحظ أن بعض الطيور المهاجرة الأخرى، التي تتجه نحو البحر تغيّر من أوضاعها البيئية، فعلى سبيل المثال إنّ الكركر ذا الذيل الطويل والذي يعيش على صيد القوارض في التندرة صيفاً يصبح قمّاماً أوقيانوسياً في أعالي البحار شتاءً.

وعلى نطاق أصغر من تلك الدورات السنوية هناك هجرات للحيوانات خلال موسم معين، مثل تحركات ثور المسك، والنمط المنتظم للحركة ذات الطابع المحلي لإيقاعات الحيوان النهارية، مثل عادة بعض أنواع الذئاب على ترك أوكارها كل مساء من أجل الصيد. وكما ذكرنا آنفاً فإن لحيوانات المنطقة القطبية الشمالية نظاماً أو نمطاً يومياً حتى عندما لا ينقطع الضوء خلال فصل الصيف.

وكل هذا الذهاب والإياب مدعاة للتأمل: ثور المسك الذي قد يكون له صلة بالعديد من هذه الدورات في وقت واحد، وتجمعات اللاموس التي تتهاوى، والبوم الجليدي الذي يتعين عليه أن يطير بعيداً في اتجاه مصدر بديل للغذاء، وحركة الحيوانات في اتجاه حواف الكتل الجليدية الطافية في فصل الربيع، والحشرات التي تنتشر بأعداد كبيرة جواً في التندرة صيفاً. فهذه جميعاً تكشف عن نمط لحركة الحيوانات بالغ التعقيد. ومن دواعي التأمل أيضاً انطلاق الاسماك والمفصليات البدائية مع ذوبان الثلوج في البحيرات وعلى سطح الأرض، ورحلات الدببة، وأخيراً وليس آخراً ذلك العالم شبه المستقل للعناكب والمخلوقات اليرقية الدقيقة والتي تنجرف نحو الأرض في فصل الصيف.

وباختصار فإنه لمن الصعب استيعاب كل هذه التحركات، ومما يزيد الأمر صعوبة أنه حتى في الإطار العام المحدد لسلوك الحيوانات فإنها دائماً ما تكون في حالة اختبار للأرض التي تعيش عليها وتلك المحيطة بها، كما أنها دائماً تتحرك استجابة لإشارات أو تحذيرات ليست بادية بالنسبة لنا.

وحركة الحيوانات في المنطقة القطبية الشمالية تثير الدهشة؛ لأن أحداثها تقع خلال فترة لا تتجاوز شهوراً قليلة. فالحيوانات المهاجرة مثل الحوت الأحدب والإوز الجليدي غالباً ما تصل إلى وجهاتها عندما يكون الشتاء يلفظ نفسه الأخير. وهناك تستريح وتتغذى، وتحمل وتلد صغارها، ثم تبدأ الاستعداد لرحلة العودة جنوباً خلال الفترة المضيئة وقبل أن يتجمد كل شيء مرة أخرى، وتهل بشائر الجليد. وهي تهاجر شمالاً في أعداد طائلة، وترحل مئات وأحياناً آلاف الأميال لكي تقضي أسابيع قليلة، حيث تدب الحياة في المياه وعلى التندرة وفي الهواء العليل الشافي كالبلسم. وعندما يقف إنسان على الأرض في هذا الوقت من السنة، فإنه يشعر وكأن الفراغ يمتلئ، وأن شيئاً ما يرتفع تحت تأثير الضوء. فإذا تأملت في تلك الحيوانات وهي تذهب ثم تعود، فسوف تشعر وكأن الأرض تفتح ذراعيها مرحبة بعودة سكانها المهاجرين، وتواصل حياتها في صمت بعد رحيلها. إن العملية على هذا النحو أشبه بالتنفس، حيث يكون الشهيق في الربيع فتستنشق الأرض الضوء والحيوانات، بينما الزفير في الخريف حيث تدفع الأرض بسكانها إلى أراضٍ أخرى. ويكون التنفس أكثر عمقاً في فصل الصيف.

* * * * *

والواقع أن الحيوانات هي التي تحدد الكثير من الأراضي التي تقع في المنطقة القطبية الشمالية، فالأرض هناك كالبحر شاسعة ويسكنها عدد قليل جداً من الناس. ويتضح ذلك أكثر ما يتضح في شمالي بحر بيرنج في فصل الربيع. ويلاحظ أن هناك مناطق معينة من العالم توجه حركة الحيوانات المهاجرة، وهذه المناطق هي المضايق البحرية بصفة خاصة. فعلى سبيل المثال، يحدث في مضيقي البوسفور وجبل طارق أن الطيور البرية تتجه شمالاً وجنوباً، بينما تتجهه المخلوقات البحرية شرقاً وغرباً كما لو كانت تمر من عنق الساعة الزجاجية. لكن مضيق بيرنج فريد من حيث تركيزه للحياة.

فالكتل الأرضية مرتبة بحيث لا تكاد تتقابل إلا في الشمال، وعند مضيق بيرنج تكاد شبه جزيرة تشوكشي في النصف الشرقي (بكل ما بها من حيوانات وطيور) - تكاد تلامس شبه جزيرة سيوارد في النصف الغربي (بكل ما بها من حيوانات وطيور كذلك). ويضاف إلى ذلك أن السواحل الشمالية للمحيط الهادي تلتقي هنا وتمتزج عندها هجرات الحيتان والطيور البحرية الأوقيانوسية بعيداً عن الشواطئ، وهجرات الفقمة والفظ القريبة منها، والهجرات الساحلية لطيور مثل البط(*).

ولقد أمضيت فصول الربيع والصيف والخريف من سنين مختلفة، إما على الماء في شمال خليج بيرنج، أو طائراً فوق قطاعات عرضية منها في صحبة علماء البحار. وخلال تلك الأوقات تعجبت لكون تركيز الحياة هناك في فصل الربيع أمراً غير معروف بالنسبة لكثير من أهالي أمريكا الشمالية، فهذه التركيزات مذهلة في الواقع. فإلى الجنوب الشرقي - بداية - هناك نحو أربعة وعشرين مليون طائر بحري مهاجر، كما أن الطيور الشاطئية تعشش وتتغذى في دالات الأنهار مثل نهر يوكون، ونهر كسكوكويم ما بين شهري مايو وسبتمبر. ومن بين هذه الطيور البرنيطة السوداء (نوع من الإوز البري)، وأنواع مختلفة من البط، والسامك (آكل السمك) والبط الغواص، والزقزاق (السقساق)، والقلروب، والحذف، وقبّرة الماء، والإوز الإمبراطوري، والبط ذو البقع المختلفة الألوان(**).

وفي بحر بيرنج ذاته توجد تجمعات هائلة لأسماك الرنجة، والبولاك، والهلبوت، والأسماك ذات الزعانف الصفراء، وأكبر أنواع البطلينوس في العالم، وهي تجمعات تضع هذا البحر في رتبة فريدة يكاد لا ينافسه فيها أي بحر آخر. فمن هنا، ومع اقتراب شهر مايو من نهايته تبدأ مئات الآلاف من أسماك السلمون الشينوك رحلتها في أنهار غرب الاسكا، ويتبعها بسرعة أعداد أكبر من السلمون الكلبي (تشوم)، ويلي هذه بعد نحو أسبوع أعداد مماثلة من السلمون ذي السنام، وأخيراً وفي

(*) تعبر الشدبيات البحرية الحاجز الأليوني (جنوب غربي الاسكا) عند ممر يونيماك في منظر فريد للغاية. وعند الجزء الشرقي من المنطقة القطبية الشمالية فإن التقاء جرينلاند بجزيرة بافن عند مضيق ديفز، ووجود كتلة جليدية كافية كبيرة في النكستر ساوند يركزان هجرة الشدبيات البحرية والطيور، ويحدث الشيء نفسه عند رأس هاي في جزيرة بايلوت.

(**) يطير الكثير من هذه الطيور إلى حوض كلامات في فصل الخريف، ومعها الإوز الجليدي، وتتوقف قليلاً عند دلتا نهر يوكون، ودلتا نهر كسكوكويم للحصول على قدر كافٍ من الغذاء وهي في طريقها قادمة من سيبيريا.

شهر يولية تأتي موجات من السلمون الفضي (كوهو)، والسلمون الأحمر (سوكي).

ويعتقد علماء الطيور أنه بالإضافة إلى نحو أربعة وعشرين مليون طائر مهاجر تعشش في دلتا نهر يوكون، ودلتا نهر كسكوكويم خلال فصل الربيع، هناك نحو خمسة ملايين طائر بحري تعيش شمالي بحر بيرنج، ومعظم هذه من الأوك، والموُّر والزُّمج، وأعداد صغيرة من البَفِنْ ذي الخصلة، والبفن ذي القرون، والغاق الأوقيانوسي، والحمام، والفلموت. ويضاف إلى ذلك كله نحو (500,000) بطة بحرية تقضي الشتاء جنوبي جزيرة سانت لورنس. وحول حواف بحر بيرنج وفي مستنقعات المياه المالحة والبحيرات يوجد المزيد من الطيور المهاجرة مثل بط ستلار، والدُّنشر (طائر طويل المنقار)، و الدُّريجة (طائر مائي يشبه الطوطوي)، والفَيُّوب (نوع من الكروان صغير الحجم)، وكلها تبحث عن طعامها في المياه الضحلة، ومعها الزقزاق، والزمار، وقبرة الماء، وكثير من أنواع البط البحري التي أشرنا إليها آنفاً. ويمكن للمشاهد الذي يزور أيّاً من البحيرات الساحلية أن يرى عشرة آلاف، بل عشرين ألف طائر، في نظرة واحدة، وكثير منها ذو ريش زاهي الألوان. وعندما تتضاءل الأعداد يتبادر إلى الذهن وقوع حوادث خطيرة، مثلما حدث في أحد أيام شهر مايو 1982م حيث مرت أسراب من الكرك فوق قرية نومي لمدة ساعتين متواصلتين تقريباً وهي في طريقها إلى روسيا، وأيضاً عندما مر قرابة (75,000) بطة عبر دول بوينت ولمدة ساعتين أيضاً (وتقع دول بوينت هذه عند دلتا نهري يوكون ، وكسكوكويم).

هذا فيما يتعلق بالطيور والأسماك. فماذا عن الثدييات البحرية؟ في شهر مارس يتركز أكثر من ثلاثة أرباع مليون حيوان من هذه الأنواع عند الحافة الجنوبية لبحر بيرنج، في منطقة يسميها العلماء «جبهة الثلوج»: (300,000) فقمة من ذوات الذقون، (75,000) فقمة من ذوات الحلقات، (225,000) حوت من ذوات البقع، (250,000) فظاً، (4,400) حوت أحدب، (15,000) حوت من الحجم الصغير (بيلوكا). وعلى مسافة بعيدة وبامتداد ساحل بحر بيرنج يعيش في الثلوج أكثر من مليون فقمة من ذوات الحلقات، وهذه أكثر الفقمات تأقلماً مع الثلوج.

وفي فصل الربيع تتهيأ هذه الحيوانات والطيور والأسماك كافة للتحرك شمالاً، وتنتظر تحطم الثلوج وذوبانها، وإلى أن يحين ذلك تبقى محصورة في المياه المفتوحة في اتجاه الجنوب. وتتداخل مجالات مختلف أنواع الحيتان بالقرب من الجبهة الثلجية (وهي منطقة يتراوح عرضها ما بين عشرة

أميال وأربعين ميلاً، حسب الرياح السائدة وأحوال العواصف في شمال المحيط الهادي). أما الفظ فيقضي الشتاء في عمق جبهة الثلوج حيث توجد كتل جليدية متماسكة وبالحجم الذي يتحمل ثقل وزنه. ويستطيع الفظ أن يطفو إلى السطح مخترقاً طبقة من ثلوج البحر يصل سمكها إلى ثماني بوصات، ويستخدم في ذلك رأسه الضخم كَمِدَكٍّ. وإذا وجد نفسه حبيساً على الجليد بفعل تجمد مفاجئ فإنه يمشي إلى مناطق أخرى يستطيع اختراق ثلوجها حتى يجد ما يتغذى عليه، وهو الأمر الذي يتعذر على فقمات المناطق القطبية الشمالية. أما الحيتان فإنها تتحرك بطول جبهة الثلوج وعرضها خلال شهور الشتاء أواخر شهر إبريل. وعندما تكون الثلوج شمالي جزيرة سانت لورنس لا تزال صلبة، تبدأ الحيتان الحدباء في المرور في اتجاه الشمال على الجانب الروسي من بحر بيرنج. فإذا لم تكن الثلوح ثقيلة فسوف يصحبها أو يتبعها قطعان من الحيتان الأصغر حجماً (البيلوكا). وعندما تبدأ الثلوج في الانكسار في أواخر إبريل ومايو يبدأ الفظ في التحرك شمالاً، ويتبعه بعد ذلك بأسابيع قليلة ثلاثة أنواع من الفقمات. وبمجرد ما يبدأ ظهور الشروخ والممرات الجليدية تتجه إليها أنواع مختلفة من البط حيث تجد غذاءً وفيراً هناك.

ويلاحظ أن سطح المساحات الشاسعة من الثلوج والتي تغطي بحر بيرنج في شهري إبريل ومايو سطح متنوع بشكل مطلق. ويتميز هذا السطح بكثرة الشروخ والكتل الثلجية الطافية، والمناطق المتجمدة، ومن ثم فإن ألوانه تتراوح بين الرمادي الباهت والرمادي الداكن، وتتفتت الثلوج بنمط مذهل. فقد تشهد عشرات الأميال المربعة من الثلوج المتماسكة تحت طبقة من الجليد، ويكون الأبيض هو اللون الغالب، ولا تلحظ تضاريس سوى القليل من الروابي الثلجية، أو صفوف أسطوانية من قطع الجليد نتجت عن اصطدام كتلتين جليديتين عائمتين. وقد تشاهد ممراً جليدياً طوله نصف ميل تقريباً وعرضه عشرون قدماً، ويظهر أمامك فجاة كاشفاً عن مياه داكنة وكأنها حبر، وترى حواف الجليد وكأنها صورة طبق الأصل. وسرعان ما يتضح أن غالبية الشقوق الجليدية الطويلة والعريضة تحدث على طول المحور الجنوبي الغربي – الشمالي الشرقي. وأحياناً تمتد هذه الشروخ إلى مناطق من المياه المفتوحة وتكون عادة في حجم البحيرات. وفي منتصف شهر مايو تقريباً ترى الحيتان الحدباء وهي تتحرك عبر هذه الممرات الجليدية التي تتكون سنوياً، وفي اتجاه الشمال الشرقي عبر مضيق بيرنج، وشمالاً إلى بوينت بارو. وتترك حركة الحيتان هذه آثاراً واضحة

ناجمة عن احتكاك ظهورها بالجانب السفلي للثلوج، أو اقتحامها للممرات التي تجمدت من جديد، من أجل التنفس. وهذه الآثار دليل على قدرة الحوت الأحدب الهائلة على شق طريقه من نظام للممرات المفتوحة إلى آخر في الثلوج الكثيفة. ونظراً لذقونها البيضاء، وما على بطونها من علامات فإنه يمكن أحياناً تمييز الحيتان الحدباء وهي تتحرك تحت الثلوج الشفافة مباشرة. وكثيراً ما تشاهد قطعان الحيتان الصغيرة البيضاء بصحبة عجولها ذات اللون الرمادي.

فإذا كانت الثلوج لا تزال متصلبة (وهذا أمر تتعرفه الحيتان الحدباء بطريقة ما) فسوف تتجول معاً داخل قطعانها الكبرى، أو تقفز في مجموعات صغيرة. وهذا هو وقت التزاوج. وقد تسبح الفقمات ذوات الذقون، والفقمات ذوات الحلقات، والفظ، كلها في وقت واحد في تلك الممرات، ويستدل على ذلك من اختلاف شكل الفتحات في طبقة الثلوج، الأمر الذي يعني أنها قد حدثت بفعل أنواع مختلفة من الحيوانات من أجل التنفس.

ونظراً لأن النظم السائدة للممرات تشجع الثدييات البحرية على السباحة في اتجاهات معينة، ونظراً لأنها أماكن تتركز فيها هذه الحيوانات إذا كان الجليد أمامها لا يزال متصلباً، فللمراقب أن يتوقع مناظر لا تنسى. ففي أبريل 1981م تمكن أحد العلماء (وكان يحلق بطائرة على طول مجرى عرضه ثلاثة أرباع الميل، وطوله خمسة عشر ميلاً) من إحصاء ثلاثمائة واثنين وثلاثين حوتاً أحدب، وهذا العدد يمثل عُشر تجمع هذا الحيوان في المحيط الهادي، وذلك قبل أن يضطر للعودة من حيث أتى حيث كان قد اقترب من الحدود البحرية الروسية.

وبعد أن تمر الحيتان المحدبة شمالاً، ومعها عدد كبير من الحيتان الصغريات حجماً (البلوكا) وتجمعات الفظ، وأعداد كبيرة من الفقمات ذوات الذقون، وذوات الحلقات، وذوات البقع يصبح بحر بيرنج الموطن الصيفي لأنواع عديدة أخرى من الحيتان، إذ تصل إليه الحيتان الرمادية من السواحل الأمريكية الشمالية والكورية، كما تصله أيضاً حيتان المنك من المحيط الهادي. وقد تصل بعض أنواع من هذه الحيتان إلى أماكن أكثر بعداً مثل جزيرة سانت لورانس، وهي المياه ذاتها التي يحدث فيها تزاوج الحيتان الحدباء في مايو، وتتحول إلى نذير شؤم في يونية عندما تبدأ الحيتان القاتلة (الأوكرا) في صيد الفظ والحيتان الرمادية بدقة تدعو للدهشة. فأما الفظ فقد لا تأكل منه شيئاً، وأما الحوت الرمادي فإنها تكتفي بالتهام قطعة من لسانه بعد أن تغرقه. وعموماً فإن وجود

أنواع عديدة من الحيوانات في هذه المنطقة كل عام يؤكد وجود مجموعة من العلاقات المتكافئة مما بدت لنا غير ذلك في أوقات أخرى.

ولا يزال فهمنا للنظام البيئي في بحر بيرنج غير كامل، الأمر الذي يتضح من الاختلاف الراهن حول طبيعة بعض من أجزائه الكبرى. ففي هذا البحر يسبح حوت لا اسم له حتى الآن، أصغر من الحوت الأحدب، ورأسه مسطح أكثر مما هو محدب، وضلوعه أكبر كثافة، وعظام فكه أشد صلابة وأخف لوناً. وإذا كان الأسكيمو يسمون الحوت الأحدب «إنجيتيفاك» فإنهم يشيرون لهذا الحوت المجهول باسم «إنجوتك». ويرجع تاريخ معرفة العلماء به إلى حقبة السبعينيات من القرن التاسع عشر، أي إلى زمن ربان سفينة صيد الحيتان ومؤرخ هذا النشاط تشارلز سكامون، ومع ذلك لم يتم وصفه وصفاً كاملاً حتى الآن. وهناك حوت آخر تقل معرفتنا به عن ذلك، وهو من نوع الحوت الأحدب ذو حجم كبير ولون بني، وقد يكون الحوت الأحدب ذاته في مرحلة لونية.

وإذا وقف زائر لقرية نومي (بشبه جزيرة سيوارد) في يوم من أيام الربيع عند حافة هذا المصدر الهائل من مصادر الحياة في بحر بيرنج فسوف يشهد مناظر رائعة وعجيبة. فمن عند رأس نومي شرقي تلك القرية يشهد تدفق الحيتان، ومرور الفظ والفقمات، وطيور تغطس في الماء لالتقاط الأسماك، وبط يطير ويحط على الخط الساحلي. كما يمكنه أن يرى أسماك السلمون وهي تسبح في نهر نومي. وبالقرب من سيفتي ساوند يرى البجع والبط والإوز وهي تلقط غذاءها، كما يرى بعضاً من الفقمات ذوات البقع وقد استلقت على الشواطئ. وفي أعلى التندرة شمالي القرية قد يسعد الزائر حظاً برؤية طائر الأبلق (أبو بلتق)، وهو طائر صغير ومع ذلك يهاجر في رحلة طويلة يباري بها طائر الخرشنة، ويأتي من روسيا كل ربيع مصاحباً لأسراب من طيور الذُّعَرة (وهذا طائر صغير ذو ذيل طويل جداً يرفعه ويخفضه على نحو انتفاضي وكأنه مذعور)، وطيور المغني (الشادي)، وذوات الرقبة الزرقاء. ويعتقد بعض العلماء أن أسراباً من هذه الطيور تأتي من شبه الجزيرة العربية، وربما من الحافة الشمالية للصحراء الكبرى. وتذهب هذه الطيور أيضاً شرقاً إلى أمريكا الشمالية وتصل إلى نهر ماكينزي.

والواقع أن طائر الأبلق الشمالي ينبهنا إلى أن الهجرات لا تقتصر على الشمال والجنوب. ونظراً لأنه وافد جديد على أمريكا الشمالية فإنه ينبهنا كذلك إلى حقيقة أن الحيوانات مخلوقات

تجريبية، وأنها تتحرك خارج مواطنها المألوفة استجابة لمتغيرات في بيئتها، ومن هنا يمكن القول. بأنه ليس ثمة شيء ثابت بالنسبة لها. وأذكر أنه في أحد الأيام قال لي رجل من قرية نومي إن هجرة الحيتان الحدباء قد تأخرت «هذا العام» في مضيق بيرنج. والحقيقة أنها لم تتأخر، ولكن هناك اختلافات طفيفة تحدث من عام لآخر، فهذه الحيوانات لا تتحرك وفقاً لجداول زمنية كما نفعل نحن البشر، فهي ليست على مواعيد معنا!!

* * * * *

وبعد مرور الأسماك والثدييات البحرية في منطقة بحر بيرنج، ووصول الطيور إلى دالات الأنهار التي اعتادت عليها، وأماكن توالدها، تبقى هجرة كبرى ثالثة في المنطقة القطبية الشمالية، هجرة الرنة.

وتنقسم حيوانات الرنة في أمريكا الشمالية إلى ثلاث مجموعات، أكبرها رنة الغابات، وهذه تعيش في الغابات الصنوبرية في الأماكن المجاورة للمنطقة القطبية الشمالية، وتكون هجرتها لمسافات قصيرة نسبياً. أما أصغرها فمجموعة رنة البيري، وهذه تحتل أجزاءً من ساحل جرينلاند والجزر الشمالية من الأرخبيل الكندي، وترحل لمسافات قصيرة نسبياً كذلك كل عام. أما المجموعة الوسطى فهي رنة الأراضي القاحلة، وهذه هي التي ترحل لمسافات بعيدة، إذ يقطع نحو مليونين منها مئات الأميال كل عام من موطنها الشتوي قرب الخط الشجري إلى مراعٍ محددة تحديداً واضحاً على التندرة(*).

(*) هذه الأنواع الثلاثة من الرنة ليست من فصيلة الظباء المعروفة في أوروبا الشمالية وآسيا، وإن كان كثير من هذه الظباء التي جلبت إلى الاسكا قد انضمت للرنة المحلية.

ولقد حدد العلماء المتخصصون في الرنة أكثر من ثلاثين قطيعاً يحتل كل منها منطقة مختلفة. فالرنة التي ترحل لمسافات طويلة كل عام هي القطعان التي تعيش في الأجزاء الغربية والوسطى من المنطقة القطبية الشمالية (شمال الاسكا) . أما قطعان البوركيباين فتسير بشكل غير منتظم على الحدود بين الولايات المتحدة وكندا. وأما قطعان الرنة ذوات الأنوف الزرقاء فتتحرك من الغرب إلى الشرق في كندا، ومعها قطعان باثرست، وبيفرلي، وكامينورباك.



توزيع قطعان الرنة الكبرى في المنطقة المتجمدة الشمالية (أمريكا الشمالية).

ولم يحدد العلماء على وجه اليقين بعد كيف ومتى تبدأ الرنة رحلتها في اتجاه الشمال، وإن كانوا يرجحون أن هذا الحيوان لا يبدأ هذه الرحلة إلا عندما يدرك (غريزيا) أنه قد اختزن القدر الكافي من الدهون الذي يعينه عليها. فخلال هذه الرحلة تتعرض حيوانات الرنة للعواصف الثلجية التي تهب في فصل الربيع، كما أنها تعبر أنهاراً مختنقة بالثلوج بعزيمة وإصرار، وإن كانت عادة تختار المسار الذي ينطوي على أقل قدر ممكن من المقاومة على الأرض، وغالباً ما تتحرك وراء بعضها بعضاً، خاصة عندما يكون

الجليد عميقاً. وعادة تتقدم الإناث الحوامل القطيع، أما الذكور البالغة فتتخلف عنها بمسيرة شهر، وقد لا تصل إلى أماكن ولادة الصغار أبداً. وعندما تنتهي الرحلة الشاقة تكون الإناث قد اصيبت بالنحافة وتبدو مهزوزة. وعلى طول الطريق يمكن مشاهدة بقايا مئات من الحيوانات التي غرقت أو لحق بها إصابات مميتة. ويصف عالم الأحياء جورج كالف أماكن التوالد بأنها «جرداء مكشوفة ولا تجود بكثير. وتتراكم المياه الناجمة عن ذوبان الثلوج في برك على الأرض المتجمدة التي عادة يغلفها ضباب كثيف، وتهب عليها الرياح بلا انقطاع». ومع ذلك فإن لهذه الأرض الموحشة عدة مزايا، أولها قلة عدد الحيوانات المفترسة (حيث تكون الذئاب قد فارقت قطعان الرنة كلما وجدت أماكن ملائمة لبناء عرائنها وهي في اتجاه الجنوب. وثاني تلك المزايا وفرة النباتات التي تتغذى عليها الرنة، وثالثها أنها توفر لها الحماية من عواصف الربيع، ورابعها أن الرنة لا تواجه كثيراً من تلك العواصف بالمقارنة بما يحدث في المناطق المجاورة.

وتولد صغار الرنة بفاصل زمني قصير (أيام قليلة)، وتحدث الولادة قبل شهر تقريباً من ظهور جيوش من البعوض والذباب الأسود (القَرْس)، والذباب النَّبْرِي (الذي تعيش يرقاته تحت جلد ظهور الماشية والخيل وتسبب الانتفاخ النبري)، وهذه كلها

تشكل إزعاجاً كبيراً للرنة يجعل مشاهديها من البشر يشفقون عليها. وما أسعد الرنة حين يهب ريح يعصف بالبعوض والذباب ويريحها منها!.

وبعد الولادة تنضم الأمهات وصغارها إلى الحيوانات غير الناضجة، والإناث اللاتي لم تحمل، والذكور، ويصل عدد أفراد القطيع إلى نحو (75,000) رأس أو أكثر.

وتتحرك القطعان ببطء تجاه الجنوب، وفي الطريق يتفتت القطيع الكبير إلى قطعان أصغر، ثم تأتي بشائر عواصف الخريف بينما الحيوانات تتحرك في أرض مكشوفة، وفي جو بارد وجليد متساقط، وتمر الحيوانات وكأنها «جزر من دخان»، على حد وصف چون هينز، وهو شاعر من الاسكا. وتتخذ الحيوانات من الأشجار القصيرة ملاذاً لها من العواصف في فصل الشتاء.

وبعد أن يبرح آخر قطيع، تصبح الأرض مهجورة تماماً، وربما لا يوجد في العالم كله ما هو أكثر كآبة منها، رغم الإحساس بأنها سوف تفيض بالحركة والحياة بعد أقل من عام. وعندما تعود الرنة مرة أخرى في العالم التالي فسوف تجد كل شيء على حاله تقريباً. فروث الرنة قد يحتاج ثلاثين عاماً لكي يتحلل، وبالمثل فقد لا تتحلل بقايا حيوان قتله ذئب إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات، فالزمن يصب في بحر السكون هاهنا ثم يتبدد، وتخلو الأرض من كل حركة.

وهكذا فإن مجيء الحيوانات وذهابها على هذا النحو خلال فصل الصيف القصير يعطي المنطقة القطبية الشمالية شكلاً فريداً، وإن كنا لا نحس بذلك إلا في مناطق معينة. ففي معظم أيام الشتاء والصيف تكون الأرض ساكنة، وعلى حد وصف المستكشف چورج دي لونج فإنها «أرض مجيدة يتعلم فيها الإنسان الصبر». فالزمن هنا كالضوء، مجرد حيوان عابر، فهو يحلق فوق التندرة كما لو كان صقراً من ذوات الأرجل الخشنة، أو ينهار تماماً كما لو كان طائراً أصيب فجأة بأزمة قلبية، مخلفاً وراءه ذلك السكون الأبدي الذي نسميه الموت. وباستخدام عدسة مكبرة قوية تستطيع أن ترى من خلال غشاء الرطوبة الرقيق الذي يغلف قطعة من طحلب ملقاة على حجر من أحجار التندرة عالماً يغص بالحركة مدفوناً داخل العالم المعلق الأكبر: أحياء دقيقة لا عمر لها يسمونها «دب الماء»(*) وتهاجر عبر السهول المبتلة والوديان الضيقية المليئة بالخضرة. وحتى هنا نجد الزمن

(*) «دب الماء» حيوان دقيق يعيش في المياه العذبة وينتمي لفصيلة بطيئات الخطو، وهي قسم من المفصليات الجهرية المائية، ولكل حيوان منها أربعة أزواج من الأرجل. (المترجم)

على حافة الانهيار كذلك، إذ سرعان ما تتجمد الرطوبة في الشتاء، أو قد تعصف رياح الصيف بدب البحر بعيداً وتلقي به وسط أحجار جرداء، وبوسعه أن يعيش هكذا لمدة ثلاثين أو أربعين سنة حيث ينتظر الوقف المناسب لكي يعود مرة أخرى.

وتمر ساعات طويلة على كل هذه المخلوقات تتميز بالسكون والهدوء الذي لا يعكر صفوه سوى حركات مفاجئة للذئاب المهاجمة، والرنة التي تفر مذعورة منها، وقفزات عجول ثيران المسك، وعدو الثعالب، وانقضاضات طيور الكركر. وفي فصل الصيف لا تهب أي عواصف رعدية وبالتالي لا يشاهد البرق، وتنجرف الكتل الثلجية الطافية وينجرف معها حيوانات الرنة وثيران المسك. فإذا استلقيت على ظهرك في أي مكان في التندرة وقد غمرها الضوء في أحد وديان جزيرة إليزمير فسوف يراودك شعور بأن عصور الجليد قد انتهت منذ أيام قليلة فحسب. فبعيداً عن صخب الحياة الحديثة واضطراباتها يشعر الإنسان هنا بانحدار الزمن، ويدرك كم هو بعيد عن أرض ما بين النهرين (نهري دجلة والفرات فيما هو الآن العراق، وهي مهد الحضارات السومرية والآشورية والبابلية). فنحن نتحرك الآن بسرعة بالغة، ونرسم الخرائط الجغرافية في لحظات لنتبين وجود النفط في الصخور التي تعود للعصر الثليثي (الترتياري) في حوض سفيردراب تحت تندرة إليزمير، ونحدد تاريخ السنجاب الأرضي، ونضع قوائم بأنواع الفراشات، ونحصي النباتات، ونعطي لكل شيء اسماً، ثم نطوي الصحف ونضع الكتب على الرفوف وكأنما قد فرغنا من وصف كل تلك الأشياء والمخلوقات، عدا واحد أو اثنين. لكن الأرض ليست لوحة ترسم، والصورة لا يمكن أن تكتمل بهذه الطريقة.

ومرة أخرى فإنك إذا استلقيت على ظهرك في تندرة إلزمير المنحدرة في منطقة تخلو تماماً من الحيوانات ومن البشر فسوف تستشعر السكون الممتد حتى آسيا، وتستغرق وقتاً طويلاً في التأمل في تاريخ الإنسان وكأنه حجر تقلبه بين يديك.

* * * * *

ولسنوات طويلة كان العلماء على دراية بإيقاعات الحياة المختلفة في المنطقة القطبية الشمالية، وإن كانت هذه من الناحية العملية ليست إيقاعات خاصة بهذه المنطقة وحدها. فقد أثبتت الفحوصات التي أجريت على تربة التندرة أن ما حدث من تغييرات في تركيب التجمعات النباتية بالمنطقة قد حدث بشكل دوري مع كل تغير في المناخ. كما أن الثقوب الموجودة في القمم الثلجية في جرينلاند قد كشفت عن تقلبات متناغمة في متوسط درجات الحرارة على مدى القرون. وبالمثل فقد كشف البحث الدقيق في روابي النفايات عن سلسلة من حضارات بشرية متقدمة (وقد قام بتلك البحوث علماء متخصصون في الآثار والإحاثات النباتية والحيوانية). وقد ربط البحث أيضاً بين تعاقب الحضارات والتغييرات المناخية. وبالمثل فقد كشفت عظام الحيوانات التي جمعوها ونقلوها لمعسكراتهم عن تقلبات موازية في تجمعات الحيوانات التي كانت شعوب تلك الحضارات المبكرة تعيش على صيدها.

ويرى بعض العلماء أنه ينبغي الربط بين كل هذه المعلومات، وبمعنى آخر ينبغي الربط بين إيقاعات الهجرة البشرية، والتغيرات المناخية، ودورات التجمعات الحيوانية. فباستخدام الأساليب والمعادلات الرياضية الدقيقة قد نجد أن دورة حيوان الوشق ذي تسع السنوات تدخل في الإطار ذاته الذي يضم دورة حيوان الرنة ذات السبعين عاماً. والواقع أن قلة من العلماء هي التي سعت لدمج هذه المعلومات، وكثير منهم لا يعتقد بوجود علاقات بينها على الإطلاق، أو على أكبر تقدير فهي علاقات ذات طابع عام. ومع ذلك فمنذ حقبة الثلاثينيات والعالم الدانمركي كريستيان ڤايب يأخذ هذا الاحتمال مأخذ الجد، وقد سعى بكل جهده لتعرّف فترة أساسية من الدورة القطبية، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لعلماء الحياة، والمؤرخين، والمهتمين بتنمية المنطقة القطبية الشمالية.

فالتغير المناخي - تقدم وتراجع الثلوج في نصف الكرة الشمالي - هو جوهر العصر الحديث الأقرب (البلستوسين)، الذي هو أيضاً الدهر الذي ظهر فيه الإنسان على وجه الأرض(*) وعلى هذا الأساس، ونظراً لاعتقاده بأن كل ما تعلمه يمكن تطبيقه لفهم المستقبل المناخي لأوروبا وأمريكا،

(*) الفترات الجليدية نادرة نسبياً في تاريخ الارض، إذ لم يكتشف العلماء منها سوى أربع فترات خلال الـ (600) مليون سنة الماضية، وآخرها ما يزال مستمراً. وعلى حد معرفتنا فإن الدهر الحديث (الهولوسين - عشرة آلاف سنة مضت) ليس سوى مرحلة جليدية بينية، أي فترة وسيطة بين تراجع ثلوج وسكونسين في أوروبا، والزحف الجليدي التالي.

فقد طرح ڤايب على نفسه أسئلة معينة: ما هو سبب ندرة الفقمات في أماسالك على الساحل الشرقي لجرنلاند قرب بداية القرن العشرين، بينما في الوقت نفسه كان وجودها كثيفاً على طول الساحل الجنوبي الغربي؟ لماذا تدهور تجمع حيوانات الرنة في غرب جرينلاند فجأة عند نهاية كل من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؟ وما الذي يفسر التحركات الدورية في اتجاه الشمال لأسماك الرنجة والقد في شمال المحيط الأطلسي؟.

وفي إطار سعيه للعثور على إجابات شافية لتلك الأسئلة قام ڤايب بفحص سجلات شركة جرينلاند الملكية للتجارة، وهي التي كانت تتاجر في جلود الفقمات، وفراء الثعالب، وعاج التراول وغيرها. ثم قارن محتوى تلك السجلات، بمحتوى سجلات أخرى خاصة بالحركة السنوية لثلوج البحر، والمعدل السنوي لسقوط الأمطار والجليد. وفي ضوء تلك المقارنة راوده اعتقاد قوي بأنه سوف يكشف عن أنماط محددة. ولمزيد من الدقة راجع السجلات الخاصة بتجارة الفراء على مدى (232) سنة من واقع أرشيف شركة خليج هدسون في كندا، وكذا السجلات التي كان يحتفظ بها صناع الصوف في جنوب غربي جرينلاند.

وكان أول نمط يتضح أمام عيني ڤايب هو دورة لتَكوّن ثلوج البحر وحركتها استمرت نحو مائة وخمسين عاماً، وهو الأمر الذي أكدته سجلات سفن الاستكشاف. وكان ڤايب قد أيقن بداية أن التقلبات في مناخ المنطقة القطبية الشمالية هي المسؤولة عن التحولات في الحيوانات البرية والبحرية تجاه الشمال والجنوب على مدى فترات طويلة من الزمن، وأن هذه التقلبات مرتبطة بدورة قمرية مدتها (18,6) سنة (وهو الوقت الذي يستغرقه القمر لكي يتقاطع مع مدار الأرض حول الشمس مرة أخرى من النقطة ذاتها). ونظراً لأن طول هذه الدورة لا يشكل عدداً صحيحاً، فإن أقصى وأدنى تأثير لها في المد والجزر في الكرة الأرضية (ومن ثم في تكوّن الثلوج، والطقس) يمكن أن يحدث في فصول مختلفة من السنة، وعلى فترات متعاقبة طول كل منها (18,6) سنة. ولقد ساعد ذلك ڤايب على تحديد فترة مبدئية طولها (698) سنة للنمط المناخي في المنطقة القطبية الشمالية، وفترات ثانوية طول كل منها (116,3) سنة، وما أسماه «الفترة الحقيقية للتدوير البيئي» ويبلغ طولها (11,6) سنة.

ولسوف يعتمد حكمك على ما طرحه ڤايب على وجهة نظرك الخاصة، فهو إما أن ينطوي على

بصيرة ثاقبة ورياضيات دقيقة. أو ترى فيه تعميماً وتعقيداً يجعله أمراً مستحيلاً، ولا يفيد كثيراً في فهم ما حدث ويحدث (ويمكن أن يحدث) في المنطقة القطبية الشمالية. ولولا اعتباران هامان لصرفنا النظر عن عمل ڤايب هذا على أساس أنه يخص فئة قليلة من العلماء. ففي المنطقة القطبية الشمالية يشعر الفرد دائماً بتذبذب حاد، وهذا التذبذب نمط مألوف للبشر والحيوانات بمثل اعتيادنا نحن سكان المناطق المعتدلة على تعاقب الفصول الأربعة خلال السنة الواحدة. وعلى الرغم من الدلائل الكثيرة على هذا النمط، وتاثير التذبذب الحاد ليس في الحيوانات المقيمة فحسب، وإنما في الحضارات التي نضجت في تلك المناطق، يبقى ما طرحه ڤايب المحاولة الجادة الوحيدة لوصفه. وأما الاعتبار الثاني فهو أنه طالما أن نظريات ڤايب تفسر التذبذب في أنماط مناخ المناطق المعتدلة، أو تشير إلى بوادر قدوم عصر جليدي آخر، فإن لها صلة واضحة بالأنماط المتطورة للتجارة والاقتصاد، خاصة في المنطقة القطبية الشمالية.

ومن السهل أن نقول إن المنطقة القطبية الشمالية تتسم بتذبذب حاد، تماماً كما أنه من السهل أن نقول إن هواء الربيع في المناطق المعتدلة هواء عليل. ولكن من الصعب أن نحدد الأسباب تحديداً دقيقاً. فالإيقاع الأساسي السنوي في الشمال هو الشتاء / الصيف. وفترات تحطم الثلوج وتجمد الماء تماما فترات قصيرة، وهذه عادة هي فترات الخطر، ويحدث خلالها ارتباك في أساليب الصيد التي يستخدمها البشر، والحيوانات على حد سواء. وهكذا فإن الشتاء الطويل، والصيف القصير يشكلان نمطاً مؤقتاً ترتب الحياة نفسها على أساسه، ومن ثم فإن الاستعداد للشتاء يكون على قدم وساق في كل أرجاء المنطقة، فهذه هي العرسة قصيرة الذيل تنمي فراءها، وهذا هو اللاموس ذو الياقة يطيل مخالبه (التي يشق بها طريقه وسط الثلوج)، وهذه هي قوارض التندرة تنتقل من نمط الصيف الناشط ليلاً إلى نمط الشتاء الناشط نهاراً، ويتخلل النمطين أيام قليلة يختلط فيها هذا بذاك.

وثمة نمط ثانٍ يكمل التذبذب، وهو فترات سكون طويلة تتخللها حركات مفاجئة. فقد تتحرك بالزحافة على سطح نهر متجمد كل أسبوع ولمدة ثمانية أشهر وكأنه قطعة من الأرض اليابسة، وتصحو ذات يوم فجأة لتجد أكواماً من الثلوج. فسكون الربيع يتبدد فجأة بحدوث شروخ في النهر وصوت سقوط فروع من الأشجار، أو صوت سقوط أشجار بأكملها. وعلى الثلوج

الساحلية تشاهد ظاهرة ذات صلة بهذا، وإن كانت مخيفة بدرجة أكبر، إذ يحدث فجأة في منتصف فصل الشتاء أن تقترب كتلة ثلجية كبيرة من الشاطئ، بل وتتوغل داخل الأرض لمسافة تبلغ عدة مئات من الأقدام، وكأنها شيء حي. ويسمي الأسكيمو هذه الظاهرة بـ «إيڤو»(*). ومن الظواهر الأخرى الملفتة للنظر الوصول المفاجئ لقطعان الرنة إلى أرض جرداء، والانتظار الطويل للحيوانات المفترسة التي تترقب ظهور فرائسها، أو انتظار انغلاق ممر جليدي. ولدى الأسكيمو كلمة تعبر عن الانتظار الطويل استعداداً لحدث مفاجئ، وهي «كوينوتوك» – أي الصبر الشديد.

وكنت خلال تجوالي في المنطقة الشمالية أتأمل إيقاعاً أصيلاً لهذه الأرض، بخلاف ما هو مفروض عليها. فمهما كانت البراءة التي ينطوي عليها رأي مفروض فرضاً، فإنه دائماً يحجب الكثير. فالدلائل على وجود إيقاع مختلف هاهنا بدت وكأنها جزء لا يتجزأ من الحيوانات التي صادفتها، وإن كنت لا أستطيع أن أحدد السبب بدقة.

والإيقاع الأصيل، أو الإيقاعات الأصيلة للحياة في المنطقة القطبية الشمالية أمر ينبغي دراسته، ليس للأغراض الأكاديمية وحدها. فلكي نفهم اختلاف منطقة ما عما هو مألوف لنا، لا بد من أن نتخلص من النظرة المحلية الضيقة التي تفسد الخيال، وتحد من قدرتنا على استيعاب أوجه الخلاف.

ومن الأسباب الأخرى التي تجعلنا نميز بين الإيقاعات الأصيلة والإيقاعات المفروضة، أن ذلك أمر يرتبط باستمرار قدرتنا على تخيل مجال أبعد مما هو مألوف لنا. فلطالما اعتبرنا الحيوانات نوعاً من الآلات، والأرض التي تتحرك عليها مجرد خلفيات أو صور أو لوحات. ولكن هذه النظرة العتيقة بدأت تتغير في السنوات الأخيرة إذ ازداد اقتناعنا بما يكتنف كثيراً من الحيوانات من غموض، وبالتالي كشف العلم الغربي مباحثه في أمور مثل الكيمياء الحيوية والوراثة. فالحيوانات كيانات متغيرة، ويمكن التنبؤ بسلوكها في حدود معينة. وعالم المتغيرات الذي تعيش فيه معقد للغاية، كما أن استجاباتها تكون أحياناً على الدرجة ذاتها من التعقيد وكلما اقترب علماء الحيوان من

(*) حتى عام 1982 لم يكن أحد يأخذ وصف الأسكيمو لمثل تلك الظواهر مأخذ الجد. وفي ذلك العام اكتشف علماء الآثار الذين كانوا يعملون في أوتكياڤيك، وهي موقع قروي من عصر ما قبل التاريخ بالقرب من بارو في الأسكا، جثث لأفراد عائلة (خمسة أشخاص) وقد حطمهم الجليد في حادث كهذا.

المخلوقات التي يقومون بدراستها تبينوا أن هناك فوارق فردية بين أفراد النوع الواحد، تماماً كما أن هناك فوارق فردية بين البشر، وأن كل فرد يعكس ذلك التنظيم الخاص بالطاقة والذي تفترضه الميكانيكا الكمية بالنسبة للجسيمات التي تتشكل منها الذرة.

وفي دراسة الحيوان – أي حيوان – لا يجوز الفصل بين الحيوان وبيئته. وإذا حاول أي عالم أو باحث دراسة الحيوان بعيداً عن بيئته، أو البيئة بعيداً عن الحيوان فإن ذلك يعني الفشل في التعرف الجيد على كليهما، فلكي يكون كل من العنصرين على ما هو عليه بالفعل فإنه بحاجة إلى الآخر.

فالإدراك المكاني وطبيعة الحركة، والشكل والاتجاه الذي يأخذه الشيء موضوعات قد تناولها علماء مثل ويرنر هيزنبيرج، وإرڤين شرودندجر، وبول ديراك، وديڤيد بوم، وكلهم قد كتبوا عن ظواهر ما دون الذرى. وفي اعتقادي أن أفكاراً مماثلة لا تقل جمالاً وتعقيداً يمكن أن تنشأ من خلال دراسة حركة الحيوانات في الأراضي التي تعيش عليها، مثل مسار غُدَافٍ (غراب أسود) عبر وادٍ، والخط المتعرج الذي يسير فيه حيوان الرنة، والتحركات الشتوية لدب على ثلوج البحار. ونحن نكاد لا نعرف شيئاً عن المثيرات التي تأتي مثل هذه التحركات استجابة لها، وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نحدد الأبعاد المكانية والفترات الزمنية التي نراها مناسبة لوصف هذه التحركات، ولكننا لسنا على يقين من أن لهذه الأمور ارتباطاً بالموضوع الأصلي. فإذا شاهدت سنقراً يمر من أمام بومة جليدية في سماء واحدة فسوف يدعوك ذلك للتأمل في مدى تأثير كل منهما في الآخر. وبالمثل فإنك إذا شاهدت قطيعاً من ثيران المسك يخترق قطيعاً آخر في أحد المراعي، وحاولت تفسير ما حدث فإنك تكون كمن يصارع عدم اليقين. وأخيراً فإنك إذا شاهدت سرباً من الإوز الجليدي ينزلق في اتجاه الريح فسوف تعجب أين تبدأ إوزة وأين تنتهي أخرى؟ فالحيوانات تحيرنا، ليس لأنها مخادعة ولكن لأنها – في النهاية – جزء لا يتجزأ من تعقيدات الحياة. ولعل هذا هو جوهر فيزياء الجسيمات كذلك، والفيزياء الجسيمية هي جوهر الفلسفة الطبيعية في عصرنا هذا. فالحيوانات تتحرك بأبطأ مما تتحرك الجسيمات البائية (جسيمات بيتا)، وفي مجال أكبر كثيراً من ذلك الذي يظله سحابة من الإلكترونات. ومع ذلك فإنها (أي الحيوانات) تحثنا – إذا سمحنا لها بذلك – على دراسة المسائل ذاتها حول الطبيعة الأساسية للحياة، وحول العلاقات التي تربط أشكال الطاقة وتجعل منها أنماطاً يمكن تمييزها.

وفي محاولتهم لاكتشاف خط سير وتوقيت وصول الإنسان إلى العالم الجديد، لم يتوفر للعلماء سوى القليل من الأدوات مثل قطع من فحم نباتي، وأدوات أو أسلحة محطمة أمكن استخلاصها من مواقع الصيد القديمة. ومع ذلك يكاد يتفق العلماء حول كيفية وصول الإنسان إلى أمريكا الشمالية، والنظرية المرجحة هي أن بشراً قد هاجروا من آسيا عبر سهل عريض جاف (يسمى بيرنجيا) خلال فترات مختلفة من العصر الحديث الأقرب (البلستوسين). ولا يزال الخلاف مستمراً حول الدلائل التي تشير إلى وصول الإنسان لأمريكا الشمالية قبل خمسة وثلاثين ألف سنة، أو حتى قبل ثلاثة وعشرين ألف سنة. ويلاحظ أن جسر بيرنج البري كان موجوداً قبل خمسة وعشرين ألف سنة، أو قبل أحد عشر ألف سنة، أو في أي وقت بين الاثنين. ولكن عبور الإنسان من آسيا وانتقاله جنوباً إلى السهول الوسطى في أمريكا الشمالية لم يكن ممكناً إلا خلال الفترة التي تتراوح بين خمسة وعشرين، وثلاثة وعشرين ألف سنة مضت. وبعد ذلك كان عصر وسكونسين الجليدي قد وصل إلى ذروته، والتقت المسطحات الثلجية الشرقية والغربية في أمريكا الشمالية، الأمر الذي أدى إلى إغلاق الطريق إلى الجنوب وفصل البراري الأمريكية عن المنطقة القطبية الشمالية. وظلت المنطقة غربي الاسكا خالية من الثلوج خلال تلك الفترة، ومن المرجح أن الناس ظلوا يعيشون في المناطق الشرقية البعيدة، في بيرنجيا إلى أن فاض بحر بيرنج إثر ذوبان المسطحات الجليدية، فغمر الجسر البري وفصل آسيا عن أمريكا الشمالية.

ويعتقد الكثير من علماء الآثار أن الإنسان قد أتى إلى أمريكا الشمالية في موجتين، الأولى، وهي التي يرجح أنها قد عبرت فيما بين خمسة وعشرين، وثلاثة وعشرين ألف سنة مضت، أو قبل ذلك، وقد حملت معها الأدوات المصنوعة من الأحجار والعظام الشبيهة بالأدوات التي استخدمها الإنسان النياندرتالي والمسماة بالأدوات الموستريانية(*). أما الموجة الثانية فقد أتت بعد ذلك بنحو ثلاثة عشر ألف سنة، وحملت معها أدوات أكثر تقدماً مقارنة بالأدوات الأوريجناسية(**) التي

(*) نسبة إلى وادي نياندرتال قرب دوسولدورف بالمانيا حيث اكتشفت بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم (المترجم). وأما الأدوات الموستراينية فهي تلك الأدوات التي اكتشفت بالقرب من لي موستير في دور دوجن بفرنسا، وتعكس قمة حضارة الإنسان النياندرتالي في منتصف العصر الحجري القديم (ما بين اربعين الف، ومائة الف سن مضت).

(**) برز هذا الطراز من الادوات خلال العصر الحجري القديم الاعلى في غربي أوروبا ما بين عشرة آلاف، وأربعين الف سنة مضت، عندما أطاح توم كروماجنون بالحضارة النياندرتالية.

كان يستخدمها إنسان كروماجنون. وكان لكلا الموجتين تقاليد في الصيد حيث كانوا يقتاتون على حيوانات مثل ثور البسون ذي القرون الطويلة، والكسلان الأرضي، والماموث (فيل ضخم منقرض) ذي الصوف الغزير.

ولا يعلم أحد كيف أصبحت المنطقة القطبية الشمالية ذاتها - تلك الأرض الواقعة شمال وشرق الجسر البري - مأهولة بالسكان. فحضارة الصيد المبكرة في الاسكا قد اندثرت قبل خمسة آلاف سنة تقريباً، وحلّت محلها حضارات أقل عنفاً وأكثر تقدماً على حد ما يعتقد علماء الآثار الذين يستدلون على ذلك من دقة صنع الأدوات، وهذه هي الحضارات التي يرجح أنها كانت الأولى التي انتقلت إلى المنطقة القطبية الشمالية.

ولقد رصد علماء الآثار فترتين في الماضي القريب نسبياً شهدتا سخونة في الجو، الأمر الذي مكن البشر من الوصول إلى جزر الأرخبيل الكندي باستخدام زوارق مصنوعة من جلود الحيوانات. ويقدر العلماء حدوث هاتين الفترتين فيما بين (3,500)، (4,500) سنة مضت بالنسبة للأولى، وما بين (1,100)، (900) سنة مضت بالنسبة للثانية، وكان هذان الحدثان حافزاً للبشر على الهجرة إلى أعالي المنطقة القطبية الشمالية.

وكان لويس جيدنجز (وهو عالم آثار مشهود له بالدقة في تحديد المواقع الهامة في عصور ما قبل التاريخ) قد اكتشف متتاليات حضارية في راوينون بورتيج على نهر كوبك في الاسكا، وفي رأس كروسنتيرن في الاسكا كذلك، وهذه كانت بمثابة التاريخ الاساسي للمراحل الحضارية في المنطقة القطبية الشمالية. وبفضل هذا الاكتشاف وأعمال أخرى قام بها علماء الآثار في شمال كندا وجرينلاند أصبح من الممكن رسم صورة متكاملة نسبياً للاستيطان البشري المبكر في المنطقة القطبية الشمالية.

وقبل أن أعرض هذه الصورة أرى من الضروري الإشارة إلى نقطتين، أولاهما أن البشر الذين هاجروا إلى تلك المنطقة كانوا يقومون بتحرك جريء للغاية. فالبقاء هاهنا قد تطلب مهارات وتقنيات لم تتوفر لهؤلاء الصيادين، وليس أقل هذه المتطلبات طبيعة نفسانية محددة. وثانيها أن الهجرات إلى المنطقة القطبية الشمالية تمثل تحركات أعداد صغيرة جداً من الناس، فمن الأمور ذات الدلالة أن كافة المواقع التي اكتشفها علماء الآثار حتى الآن من غرب كندا إلى شمال جرينلاند

كانت تخص عدداً من الناس لا يزيد عن خمسمائة. فالمنطقة شحيحة الموارد، والقليل الذي كانت تجود به كان مبعثراً وصعب الاستغلال أحياناً. وحتى في أوج نجاح المهاجرين خلال مرحلة حضارة الثولي (حوالي ألف سنة بعد الميلاد) لم يتجاوز عدد المقيمين في المنطقة الممتدة من بوينت بارو حتى بيري لاند خمسة آلاف شخص.

ولربما كان أول قوم يعبرون إلى أمريكا الشمالية هم هنود العصر الحجري القديم الذي استقروا في المنطقة الداخلية من ألاسكا ثم انتشروا جنوباً. ونقطة الأصل الجغرافية بالنسبة لأسكيمو العصر الحجري القديم الذين بقوا في المنطقة القطبية الشمالية غير معروفة، وإن رجح غالبية علماء الآثار أن تكون منطقة بحر بيرنغ وشرقي سيبريا، وقد يكون هؤلاء القوم المغوليين الأجداد الأول للأسكيمو المحدثين. وعلى أية حال فإن أسكيمو العصر الحجري القديم قد عاشوا في ألاسكا قبل نحو خمسة آلاف سنة، وربما يكونون قد عبروا المياه المفتوحة في مضيق بيرنغ في قوارب مصنوعة من جلود الحيوانات. فحضارة هؤلاء هي الحضارة التي أمكن تعرّفها من خلال الأدوات المصنوعة من الشيرت (صخر صُوّاني غير نقي) والسّبج (زجاج بركاني أسود عادة)، وهذه أدوات للتقطيع يبلغ طول كل منها بوصة واحدة وعرضه نصف بوصة. ويشار إلى تلك الحضارة والنسخ المنبثقة عنها بأنها «حضارة الأدوات الصغيرة». ولقد اكتشف علماء الآثار مواقع لتلك الحضارة في أماكن مختلفة امتدت حتى بيري لاند في شمالي جرينلاند، حيث تعرف الحضارة باسم «الاستقلال – 1»، نسبة إلى موقع على فيوردة تحمل اسم «الاستقلال Independence»، كما امتدت بطول وعرض القطاعين الأمريكي والكندي من المنطقة القطبية الشمالية. ويبدو الكثير من هذه المواقع وكأنه قد شُغِلَ لليلة واحدة، أو أسبوعين على الأكثر وبعدها يواصل القوم تحركهم. لقد عاش هؤلاء الناس على صيد ثيران المسك، والدب القطبي، والثعالب والأرانب الوحشية والبط. وتوحي الأدوات التي خلفوها وراءهم بأن حياتهم كانت خشنة وهزيلة. ولقد كتب عالم الآثار الكندي روبرت ماجهي عن هؤلاء الناس فقال إنهم «قد هاجروا إلى أقدم المناطق التي عاش بها الإنسان، وأكثرها ظلاماً وقحلاً». ويذهب إلى حد قوله إنهم كانوا «يختفون في مساكنهم غير المضاءة وغير المدفئة طوال فصول الشتاء عندما لم يتوفر لهم ما يكفيهم من غذاء للعيش خارجها». واليوم لا يسعنا إلا أن ننظر باحترام لبقايا مساكنهم: مخراز من عظام الثعالب، ورؤوس أسهم مصنوعة من الكوارتز

(المورّ)، وحلقات من الأحجار التي كانوا يثبتون بها خيامهم المصنوعة من جلود الحيوانات.

ومع التبريد المتدرج تحركت جبهة الثلوج في المحيط المتجمدْ الشمالي جنوباً، وعلى ما يبدو فقد تراجعت شعوب حضارة الأدوات الصغيرة، وبالتدريج ظهرت حضارة جديدة هي في الواقع فرع جديد من تلك الحضارة، وتعرف باسم « حضارة ما قبل دورست »، وهذه كانت قد ظهرت قبل (3,500) سنة، واتسمت بأنها أكثر تقدماً وتماسكاً اجتماعياً. ومن آثارها الأوعية التي صنعت من الحجر الصابوني وفيها كانوا يحرقون الزيت (الذي يستخلصونه من دهون الثدييات البحرية) للتدفئة والإضاءة، كما صنعوا زحافات صغيرة من الخشب كانوا يستخدمونها في نقل ممتلكاتهم. ولقد عثر على كثير من المواقع الخاصة بحضارة ما قبل دورست عند مخاضات الأنهار التي تستخدمها حيوانات الرنة، وعند مواقع مصايد الأسماك التي استخدمتها الحضارات التالية وحتى الأزمنة الحديثة.

وعلى ما يبدو فقد تركزت شعوب ما قبل دورست في منطقة محددة حول حوض فوكس، وهي منطقة تزخر بالثدييات البرية والبحرية. وربما هاجرت هذه الشعوب إلى مناطق أخرى كلما تحسن المناخ. ولقد تم اكتشاف الكثير من بقايا « التقنيات » التي استخدموها في حياتهم اليومية. ويقصد بالتقنية مجموعة من الأدوات والأواني والأسلحة وغيرها تصمم لغرض أو مجموعة أغراض، مثل إعداد الجلود لصنع الملابس أو لصنع أدوات خاصة بالصيد.، وتشمل المواد التي استخدموها في البناء والتشييد الحجارة، وعظام الحيوانات وجلودها، والعاج، والقرون، ونادراً ما كانت تستخدم الأخشاب. وبعض الأدوات كان على درجة عالية من « التخصص »، كأن تكون الأداة مصممة لصيد حيوان بعينه في فصل بعينه، أو ظروف بعينها (مثل صيد فقمة في المياه المفتوحة، أو صيدها وهي في عرينها الشتوي). ومنذ نحو (2,800) سنة أخلت حضارة ما قبل دورست مكانها لحضارة جديدة تعرف باسم « حضارة دورست ».

ويذهب كثير من علماء الآثار إلى أن حضارة دورست قد نمت في الأصل من عدة عناصر من حضارة ما قبل دورست، وربما تضمنت كذلك بعض الأفكار والتقنيات المستمدة من حضارة معاصرة لها قامت في جرينلاند وعرفت باسم « الاستقلال – 2 »، أو من حضارات الاسكا، أو حضارات هندية مندثرة لشعوب عاشت في الجنوب. ومهما يكن أصل أقوام حضارة دورست فإنه

يبـدو أن أول ظهـور لهـم كـان في منطقـة حـوض فـوكس شـمـال كندا، وأنه كـان لديهـم قـوارب مصنوعة من جلود الحيوانات، وزحافات صغيرة، ومعدات للصيد البحري أفضل من سابقتها، وأنهم قد بنوا بيوتاً من جليد .

ومن ناحية أخرى فإن المنحوتات التي خلفتها حضارة دورست هي الأكثر تطوراً من بين فنون أسكيمو ما قبل التاريخ، ويتفق غالبية علماء الآثار حول ظاهرة فريدة في هذا الفن. فعلى النقيض من حضارات أخرى فقد اهتم أقوام دورست بتزيين عدد قليل من الأشياء ذات النفع. والقطع الفنية المنفردة النادرة، وكلها منحوتات. والرأى السائد هو أن لهذه المنحوتات ارتباطاً بالسحر الشاماني، ويعتقد كثيرون أن هناك شيئاً داكناً يغلفها. فهذه المنحوتات التي صنعت من قرون الرنة وأنياب الفظ تمثل حيوانات منفردة (غالباً ما كانت الدب القطبي)، أو تمثل إنساناً / حيوانياً، أو تعبر عن وجوه لبشر. وهذه المنحوتات واقعية وذات نمط واضح، كما أن غالبيتها ليست ذات حجم كبير.

ويتميز هذا الفن أيضاً بدقة التفاصيل ومهارة الصنع، لدرجة أنك تستطيع عند مشاهدتها أن تميز بين نوعين من السامك (طائر يعيش على السمك): السامك العادي، والسامك ذي الرقبة الحمراء. ويقول الفنان والناقد الكندي چورج سوينتون إن هذا الفن «ينطوي على عمق وقوة، بالإضافة إلى المهارة والدقة». ويشبّه سوينتون هذه المنحوتات بما أنتجته المدرسة التعبيرية الألمانية.

ولقد قيل الكثير حول «ظلمة» الفن الدورستي، ويسود اعتقاد بين علماء الآثار بأن هذا الفن غير مشوش، على عكس كلٍ من سابقه ولاحقه. ويصف جيدينجز الفن الذي أنتجه أقوام الايبيوتاك الذين عاشوا في الغرب في الاسكا بأنه غريب وعجيب»، بينما يصف حضاة بحر بيرنغ القديم التي أعقبت الحضارة الدورستية بأنها «متوازنة وبهيجة، كما لو كان فنانوها قد تمتعوا بمزيد من الأمن والأمان والسكينة». وأحياناً تثير ظروف وملابسات اكتشاف مثل هذه المنحوتات قدراً من الخوف والرهبة. ويذكر فروليك ريني أنه خلال قيامه بحفريات في موقع للدفن في بونيت هوب في الاسكا وجد حافراً صغيراً لحيوان رنة وقد نحت على قصبة تخترق منطقة الحوض من هيكل عظمي بشري. وبعد أن نفض عن المنحوتة التراب وجد أن هذه القصبة الطويلة المصنوعة من العاج تخترق السلسلة الفقرية باكملها، وتخرج من الجمجمة، ثم تنثني إلى الأمام نحو المكان الذي

يفترض أن الفم كان به، ثم تنتهي عند يد بشرية مصغرة مفتوحة في تضرع.

وفي يولية 1979م اكتشف عالم آثار شاب كان يعمل في موقع دورستيّ في أعالي المنطقة القطبية الشمالية بقايا عظام كتف لحيوان رنة جعلته يرتعد، فعلى سطحي هذه العظمة المسطحة حفر العديد من وجوه بشرية ذات أفواه فاغرة. ويحكي عن شعوره عندما جلس في صباح يوم بارد واكتشافه في يده، وقد راعه ما عبرت عنه الوجوه المحفورة من عذاب وأسى. ولما شاهدت القطعة بنفسي تعجبت أكثر ما تعجبت لمهارة صانعها.

* * * * *

ولقد وصلت الحضارة الدورستية إلى ذروتها خلال فترة تميزت بالجو البارد في المنطقة القطبية الشمالية. وخلال الفترة الدافئة التي تلت ذلك (900 إلى 1100م) تلاشت ليحل محلها حضارة مختلفة تماماً هي حضارة الثولي. ولا يعرف علماء الآثار حتى الآن ما إذا كانت حضارة الثولي هذه قد استوعبت بداخلها حضارة الدورست، أو أنها قد طردت بالقوة صوب الشرق والشمال بعيداً عن منطقة حوض فوكس. ويلاحظ ان فلول قدوم الدورست قد بقوا في الأراضي الشاسعة شمال كيوبيك ولا برادور حتى نحو عام 1400م).

أما الثولي فقد كانوا قوماً أقوياء وعلى درجة عالية من المهارة، وكانت حضارتهم تقوم أساساً على صيد الحيتان، ويرجح العلماء أنهم قد نشؤوا في منطقة مضيق بيرنج، ومن ثم فلهم جذور في حضارة بيرنج القديمة. ويذكر روبرت ماجهي أن قوم منطقة بحر بيرنج القديم كانوا يستخدمون تقنية للصيد «وفرت لهم اقتصاداً ورزقاً كثيراً ومضموناً، وأنهم قد عاشوا حياة رغد لا تقل ثراءً عن سواها في العالم غير الزراعي، وغير الصناعي».

ولقد جاء في أعقاب حضارة بحر بيرنج القديم حضارة أكثر ثراءً قامت في المنطقة المحيطة بجزيرة سانت لورنس، وهذه كانت تسمى حضارة البونوك. ويعتقد أن قوم البونوك قد رحلوا شمالاً نحو عام 900م، وذلك من أجل صيد الحيتان وغيرها من الثدييات البحرية على طول الساحل الشمالي الغربي لألاسكا خلال الفترة الدافئة. وهناك حدث واحد من أمرين: إما أنهم قد اندمجوا مع حضارة أخرى هي حضارة البرنرك، أو قضوا عليها تماماً. ثم واصلت مجموعة من البونوك أو البرنرك

/ بونوك زحفها شرقاً عبر بحر بوفورت في قوارب كبيرة مصنوعة من الجلد، ثم استقروا في شمالي كندا وأصبحوا ما يعرف باسم «الثولي».

ثم تحرك الثولي (وهؤلاء هم الأسلاف المباشرون للأسكيمو المحدثين) سريعاً صوب الشرق، ويرجح أنهم قد ارتحلوا لمسافة نحو (2,600) ميل من بوينت بارو إلى بيري لاند، وقد تم ذلك خلال جيلين أو ثلاثة فحسب. وعندما أصبح المناخ دافئا التقى في باري تشانل (مضيق ماكلور، الكونت ميلفيل ساوند، ومضيق بارو، ولانكستر ساوند) تجمعات الحيتان الحدباء القادمة من غربي وشرقي المنطقة القطبية الشمالية، بقطعان النرول والحيتان البيضاء والفظ، واتجهت جميعها صوب الشمال الأقصى إلى داخل الأرخبيل الكندي. وفي الغرب يرجح أن الفقمات ذات البقع وذات الحلقات قد أمضت فصول الشتاء والصيف في الشمال الأقصى، وكذلك فعلت الفقمات الرمادية والقيثارية في شرق المنطقة القطبية الشمالية. وهكذا فقد انتقل النظام البيئي بأكمله شرقاً، ومن ثم لم تصبح ثلوج البحار وندرة الحيوانات في فصول معينة من السنة عائقاً للتنقل بين الشرق والغرب. وعلى الرغم من أن معدل الزيادة السنوية في درجات الحرارة لم يزد عن ثلاث درجات فهرنهايت فقد كانت له آثار بعيدة المدى، فعلى سبيل المثال إن الخط الشجري في أمريكا الشمالية قد انتقل شمالاً لمسافة نحو ستين ميلاً.

ولقد كان قوم الثولي صيادين على درجة عالية جداً من المهارة، وكانت لديهم تقنية متطورة لصيد الثدييات البحرية، وكانوا يستخدمونها وهم في قواربهم المصنوعة من جلود الحيوانات. وكان هناك نوعان من القوارب، الأول هو اليومياك وكان يستخدم لصيد الحيتان والفظ على ثلوج البحر، والثاني هو الكاياك(*). وبالمثل فقد اخترع الثولي الزحافات التي تجرها الكلاب، وأدخلوا تحسينات كثيرة على الحربون (سهام الصيد) وكانت منازلهم الشتوية دفاى، وكانت عبارة عن مساكن نصفها فوق سطح الأرض والنصف الآخر تحتها، وكانت الأسقف منخفضة، واستخدم في بناء الحوائط والأرضيات أنواع مختلفة من الحجارة، كما استخدمت جلود الحيوانات كعوازل،

(*) اليومياك قارب من اختراع الثولي مصنوع من جلود الفظ أو الفقمة، وطوله نحو ثلاثين قدماً، وأحياناً كان يثبت عليه شراع مربع وصار ذو خطوة واحدة. وفي الرحلات الطويلة كانت النساء عادة يقمن بالجدف، بينما الرجال يتبعونهن في قوارب أصغر يتسع الواحد منها لفرد واحد بما يسمح له بالصيد بحرية، وهذا النوع الثاني هو الكاياك. ولعله لهذا السبب ان اليومياك يعرف أيضاً «بقوارب النساء».

وضلوع الحيتان وعظام فكوكها كدعائم.

ويبدو ان الثولي كانوا أقواماً ناجحة تماماً، ويمكن مقارنتهم روحاً – وإن لم يكن حقيقة – بالحضارة المجدلينية في أوروبا خلال المرحلة النهائية من العصر الحجري الأعلى (في آلتاميرا، ولاسكو على سبيل المثال)، وكانت هي الاخرى حضارة قائمة على صيد الرنة. وتتميز الحضارة المجدلينية (عشرة آلاف سنة قبل حضارة الثولي) بالصبغة العقائدية في الرسومات والمنحوتات التي عثر عليها في الكهوف، والزينة المفرطة والماهرة التي اكتست بها أسلحة الصيد وغيرها من الأدوات والأشياء، ومن بينها إبر ذات عيون دقيقة للغاية. ويلاحظ أن حضارة صيادي الحضارة المجدلينية قد ازدهرت هي الأخرى في فترة التحسن المناخي.

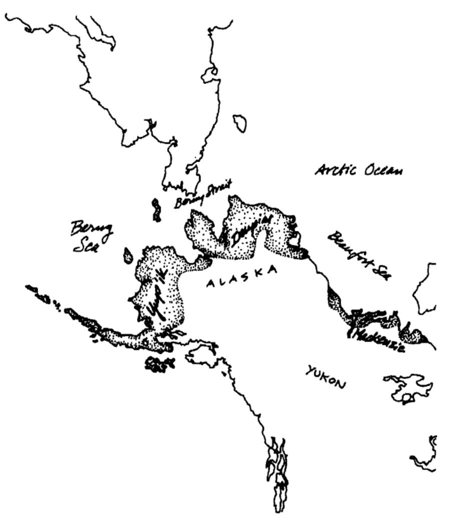
وفي الشمال الاقصى احتفظت حضارة الصيد بملامحها الأساسية، حتى بعد ظهور الحضارات القائمة على الزراعة والرعي في أوروبا خلال العصر الحجري الحديث. والواقع أن التسلسل الأوروبي للعصور من العصر الحجري القديم، إلى العصر الحجري الوسيط، إلى العصر الحجري الحديث – والذي عُدّ شيئاً طبيعياً بل وضرورياً في تطور الإنسان – نموذج لا ينطبق على أرض الصقيع السرمدي والشتاء الطويل. فالفلاحون والرعاة لم يُشاهَدُوا في المنطقة القطبية الشمالية، ولذلك أسباب معقولة، مع مراعاة أن أقوام السامي، واللاب في شمالي اسكانديناوة، وفي شبه جزيرة (كولا هم) هم الوحيدون من أقوام الشمال الأقصى الذين تحولوا طواعية إلى حياة شبه رعوية.

ولقد انتهت فترة التحسن المناخي، التي أتت بحضارة الثولي، سريعاً إلى شمال جرينلاند، وحضارة اسكانديناوة (النُّورس) إلى جنوبها في وقت واحد، وانتهت نحو عام 1100م، وجاءت فترة باردة جديدة دفعت بالثولي بعيداً عن أعالي المنطقة القطبية الشمالية، كما أنها تسببت في كارثة بعيدة المدى بالنسبة لحضارة اسكانديناوة، والتي كانت تعتمد جزئياً على الزراعة، ولم يتمكن قومها من التكيف مع التغير المناخي الشامل. وهكذا تفتتت حضارة الثولي إلى حضارات عديدة يتميز كل منها عن الأخرى، فاصبح هناك الأسكيمو القطبيون الذين عاشوا حول فيوردة إنجلفيلد في جرينلاند، وأسكيمو المنطقة الوسطى الذين عاشوا في جزيرة بافين، وأسكيمو الرنة الذي عاشوا على الأرض الرئيسية غرب جزيرة ساوثها مبتون. وهذه هي القبائل التي التقت مع الموجة الثانية من المستكشفين الأوروبيين (وكانت الأولى موجة الاسكانديناقيين – النُّورس) في

القرنين السادس عشر والسابع عشر.

والمناخ البارد الذي وصل ذروته في العصر الجليدي الأصغر (1650 - 1850م) قد أدى إلى تغيير ملموس في أعداد وأنواع الحيوانات التي كانت تتخذ من المنطقة القطبية الشمالية موطناً لها، ومن ثم فقد تعيّن إما تعديل تقاليد الصيد التي ورثها الأسكيمو عن الثولي، أو التخلي عنها تماماً حتى يتسنى للمجموعات المختلفة والمنعزلة أن تحافظ على كيانها وبقائها، ويدخل ضمن تقاليد الصيد الأدوات والطرق. وهكذا فقد التقى هؤلاء القوم بالاوروبيين الأوائل خلال فترة انتقال من مرحلة الثولي إلى مرحلة مختلفة عنها. وكان لهذا الانتقال أهمية خاصة وكبيرة، لأن العلماء يعدّون الثولي أسلاف الأسكيمو المحدثين. ولعل هذا هو الاعتقاد الذي ساد بين الأوروبيين في هذه الفترة بأن الأسكيمو قوم متوحشون همجيون يعيشون حياة خشنة. وهكذا فقد افتقر الأوروبيون إلى النظرة السليمة لهؤلاء الناس، فلم يتبينوا طبيعة الازدهار والاضمحلال كمراحل في أي حضارة، ولا الاختلاف بين حضارات الأسكيمو المتعددة. وللأسف فإن هذه الأحكام الأولى قد رسمت صورة للأسكيمو كجنس متخلف، وحفرت هذه الصورة عميقاً في الخيال الأوروبي. ولو أن الموجة الثانية والحاسمة من الحضارة الأوروبية قد التقت مع قوم الثولي بمثل ما التقى بهم أهالي الشمال الاوروبي (النُورس) لاختلفت الصورة التي تكونت حول الثولي حضارة وشعباً.

وعندما يضع علماء الآثار الخطوط العريضة لما قبل تاريخ المنطقة القطبية الشمالية فإنهم يميلون لعقد مقارنات بين مختلف المراحل الحضارية على أساس جزئي هو ثراء الحضارة المادية، كما يؤكدون على أن مراحل الانتقال بينها قد حدثت في أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة. واستناداً إلى ذلك فربما كان القوم الذين التقى بهم الأوروبيون الأوائل بقايا حضارة دورستية قديمة، خاصة وأن هذا الالتقاء قد تم في أماكن مثل ساحل لابرادور جنوبي جرينلاند، وشبه جزيرة أونجافا، وهذه أماكن لم يرتدها أسكيمو ما بعد الثولي. ومن ناحية أخرى فإن حضارات الأدوات الصغيرة كانت فقيرة بالمقارنة بحضارات الثولي اللاحقة، أو بحضارات الصيد السيبيرية التي سبقتها إلى أمريكا الشمالية. ويلاحظ أن المجتمع الغربي بصفة عامة كان لا يحمل احتراماً كبيراً لأي حضارة نشأت وازدهرت خارج نطاق المناطق المعتدلة، وهذا اتجاه يعكس قصوراً شديداً في فهم ما تتطلبه الأرض – أي أرض – من الشعب الذي يعيش عليها.



توزيع قبائل الأسكيمو في أمريكا الشمالية وجرينلاند في الأزمنة التاريخية.

ويلاحظ أن هناك اتجاهاً بين علماء الآثار، وكثير من المهتمين بشؤون المنطقة القطبية الشمالية لإعادة النظر في عهد حضارة الثولي بحيث نراها على حقيقتها: حضارة ذات إنجازات على درجة أعلى كثيراً من حضارات الجماعات الصغيرة من الأسكيمو الرحل، وأكثر تماسكاً. حضارة كانت آخر الحضارات التي أغلقت أبوابها قبل وصول الإنسان الغربي. ولهذا السبب، وعلى ضوء المقارنة الواضحة لهذه الحضارة وبالحضارات الأوروبية العالية في العصر الحجري القديم، فإن لحضارة الثولي بريقاً خاصاً يغري بمزيد من الدراسة والبحث. فمنازل هؤلاء القوم وأدواتهم توحي بإحساس هائل بالطاقة والحماس. وفي هذا السياق أذكر ما قالته لي طالبة كانت ضمن فريق يعمل في موقع ثولي بجزيرة إلزمير: «لقد عثرت على رأس حربون. وكان كل ما يفعلون به هو صيد الفظ، ولكنهم

صنعوه شيئاً جميلاً حقاً. وهكذا فإن الآثار المتبقية في مواقع المعسكرات المبكرة لحضارات الأدوات الصغيرة تعني أكثر مما تبدي، إنها تعني التماسك والقوة و،الشجاعة، وهذه صفات تدعو للاحترام، فقد كانت تلك الأقوام بشراً أقوياء، مزجوا القوة بالجمال، على حد وصف الطالبة. ويذكرني ذلك أيضاً بما قاله لي بيتر شيلدر مان. عالم الآثار الذي نقب كثيراً عن آثار ما قبل التاريخ عبر معظم أجزاء القطاع الكندي من المنطقة القطبية الشمالية: «إن كل صفة نتمتع بها تكمن في أرواحنا. وفي علم الآثار نقوم بدراسة وفحص ما نتمتع به من صفات».

والواقع أننا ندين بالكثير من فهمنا للاختلافات بين جماعات الأسكيمو في عصور التاريخ لحفنة من علماء الأعراق الذين عاشوا بين هؤلاء الأقوام لفترات مختلفة، وهؤلاء هم (كنود راسميوس، وكاج بيركيت – سميث، ودياموند جينيس، وفرانز بُواس، هانز ستينزبي).

فإذا ابتدأنا من الغرب فإن هذه الجماعات تشمل أسكيموالمنحدر الشمالي (وهؤلاء أكثر جماعات الأسكيمو احتفاظاً بتراث الثولي، ويضمون فيما بينهم جماعات عاشت بعيداً عن السواحل ويسمون النوناميوت)، وأسكيمو ماكنزي الذين عاشوا بالقرب من دلتا نهر ماكنزي، والأسكيمو النحاسيين الذين عاشوا في جزيرة فكتوريا ومنطقة خليج التتويج (كورنيشان) وكانوا يقومون برحلة سنوية لالتقاط محتويات السفينة المهجورة «انفستيجيتور» في خليج الرحمة، وكانوا آخر الجماعات التي تم اكتشافها، وأسكيمو المناطق الوسطى في جزيرة بافين وشبه جزيرة ميلفيل، وشبه جزيرة بوثيا، وأسكيمو الرنة الذين عاشوا على التندرة شمال شرقي خليج هدسون، والأسكيمو القطبيون، وهم أكثر الجماعات انعزالاً وعاشوا شمال غربي جرينلاند. ولقد قدم أفراد هذه الجماعة الأخيرة خدمات جليلة للمستكشفين، خاصة حملات روبرت بيري، وفردريك كوك. وفي عام 1949م أمرت الحكومة الدنمركية بتحريك مستوطنتهم الكبرى «أوماناك» ستين ميلاً إلى الشمال حتى يمكن إنشاء قاعدة جوية استراتيجية لحلف شمال الأطلسي (ناتو).

وفي إطار أسكيمو المناطق الوسطى كان هناك عدة حضارات صغيرة ومتميزة منها أسكيمو النتسيليك الذين اشتهروا بمنحوتات الحجر الصابوني، والرجلوليك وهم القوم الذين التقى بهم صائدو الحيتان البريطانيون في خليج بوند، والسادلرميوت الذين عاشوا في جزيرة ساوثهامبتون وماتوا جميعاً من جراء وباء حل بهم في عام 1900م بعد زيارة سفينة صيد الحيتان «آكتيف»

للمنطقة. وتوحي المعلومات المتناثرة المتوفرة بأن أسكيمو السادلرميوت قد امتصوا قدراً كبيراً من حضارة الدورست في حضارتهم. واليوم يعيش أسكيمو الايفيليك (وهم ينتمون بصلة قرابة لأسكيمو الرنة) في جزيرة ساوثهامبتون.

وفي العصور الحديثة تلاشت بعض قبائل الأسكيمو، مثل السادلرميدت، وبشكل يكاد يكون منتظماً، وانتشر أفرادها في أجزاء مختلفة من العالم، أو اندمجوا كلية في الحضارة الأوروبية بشكل قضى تماما على كل صلة لهم بحضاراتهم الأصلية، وهو أمر يدعو للأسف حقاً، خاصة إذا ما كانت الدوافع مجرد الجشع أو اللامبالاة، وليس الظروف البيئية كما حدث لحضارة الثولي. وفي اعتقادي أن اضمحلال حضارة وقوم السادلرميوت اضمحلال لنا لأننا معاصروهم، ولأننا نزعم أننا مستنيرون وندرك القيمة الأساسية للحياة، ونفهم معنى الرحمة والتراحم، ناهيك عن كون السادلرميوت مفتاح لفهم جزيرة ساوثهامبتون. وإذا تأمل الإنسان قسوة الأرض ودلائل نجاح هؤلاء القوم فسوف يدرك أننا قد فقدنا بعضاً من الحكمة حول الحياة عندما تلاشت حضارتهم، إذ لم يعد هناك من نسأله عن طبيعة الحياة في تلك المنطقة، ونحصل منه على إجابات شافية، إجابات تفتح لنا عقل الإنسان الذي لا يعرف للزمن معنى، ويهدم قروناً من المسافات، ويتعدى الأشياء التي بين أيدينا.

وأينما ذهبت أشعر بمرارة الخسارة وفداحتها، ومن ثم يزداد امتناني وعرفاني بفضل هؤلاء الذين سجلوا ملاحظاتهم حول المنطقة القطبية الشمالية والشعوب التي عاشت فيها، ووصفوا مهاراتهم، وحرصوا على المحافظة على مكونات حضارتهم. وحتى إذا ما تعذر علينا تفسير ماهية أي شيء خلفته تلك الحضارة فإن بوسعنا أن نعجب كيف صُنِعَ ذلك الشيء ولأي غرض أو أغراض. فالأسكيمو قد صنعوا الكثير، من مواد قليلة، وما ضيعوه يتميز بالأصالة في التصميم، ووضوح الغرض، وحسن اختيار المادة(*).

(*) بطبيعة الحال قد كانت الحيوانات التي اعتادوا صيدها المصدر الأكبر للمواد، وكانوا يعتبرونها هبة في إطار التزامهم الاخلاقي نحو الحيوانات. ولقد تم الربط بطرق بيولوجية بين سلوك الإنسان وعادات الحيوان. وبالنسبة للأسكيمو فإن هذا الربط كان قد تم على أساس اخلاقي لم نستطع كشف أسراره كلها حتى الآن. فالصيد من وجهة نظر الأسكيمو كان يتم على أساس ان الحيوانات هبة، ولم يكن القتل هو المحرك الاساسي لعمليات الصيد.



وأول ما يلتف نظري هو الملابس، فغالبية الملابس كانت تصنع من جلود الرنة. وإذا كانت فراء الثعالب وجلود الأغنام البرية تعطي دفئاً أكبر فقد كانت غير عملية، فشعر الرنة ليس أجوف مثل شعر الدب القبطي، ويتكون من خلايا كبيرة متعددة الغرف، لكنه يوفر المزايا ذاتها: مادة عازلة خفيفة الوزن. ولتحقيق المعادلة الصعبة: أكبر قدر من الدفء مع أقل وزن، كان الأسكيمو يسلخون جلد إناث الحيوانات البالغة في فصل الخريف قبل أن تزداد كثافة معاطفها الشتوية. أما جلود الذكور البالغة فكانت تستخدم في صنع ما يشبه البطاطين والملاءات، لأنها كانت أثقل من أن توفر ملابس مريحة، خاصة إذا تم السلخ في أواخر الخريف. أما جلود العجول فقد كانت تستخدم في صنع الملابس الداخلية وبطانات الأحذية، وأما جلود الأرجل الأمامية فكانت تستخدم في صنع الأجزاء العليا من الأحذية الكبيرة والقفازات التي تكسو الأصابع معاً والإبهام منفرداً،

وذلك لأنها كانت تقاوم الاحتكاك. ومن فراء الشّره والذئب كانوا يصنعون أطواق السترات ذات القلنسوة، لأن هذا النوع من الفراء كان يطرد بللورات الثلج التي تتكون عليها بفعل التنفس. وكانت الجلود تحاك بغرز متقاربة جداً. عمياء أو ملفوفة حسب ما يتطلبه الموقف، للوقاية من الريح والجليد، ولمنع التفتل بفعل الرطوبة. وفي الصيف كان البديل لجلود الرنة هو جلود الفقمات لصنع الملابس الصيفية، لأن هذه كانت مضادة للماء. أما الخفف التي كانت تبطن الأحذية الكبيرة فكانت تصنع من جلود طيور كاملة مقلوبة، ومن أمعاء الفقمات كانت تصنع الملابس الواقية من المطر. وللمشي دون إحداث صوت كانت تركب نعال من فراء الدب القطبي للأحذية الكبيرة.

ويلاحظ أن ملابس الأسكيمو كانت تحتاج لرعاية يومية: حياكة، وتجفيف وتنعيم، وذلك نظراً لأنها كانت هشّة إلى حدٍ ما. ولقد تميزت هذه الملابس بخفة الوزن وتوفير الدفء بدرجة لم تصل إليها الملابس التي أحضرها المستكشفون الغربيون معهم عندما جاءوا إلى المنطقة القطبية الشمالية، وبعد دروس كثيرة بعضها كان مهلكاً، كان قادة الحملات يصرون على أن يرتدي كل فرد ملابس الأسكيمو. ولا تزال ملابس الأسكيمو تحافظ على تفوقها هذا رغم كل التقدم في المصنوعات الغربية.

ولقد استغل الأسكيمو حيوان الرنة استغلالاً كاملاً. فمن جلودها صبغوا الملابس والمفروشات والحاويات، ومن عظامها وقرونها صنعوا الأدوات والأسلحة، ومن دهون أقدامها صنعوا الشحوم لشحذ أوتار الأقواس في درجات الحرارة المنخفضة إلى درجة التجميد. (وقد توصلت الحضارات الغربية إلى ذلك الاكتشاف ذاته حيث يستغل دهن أقدام الماشية لأغراض مشابهة). كذلك فقد استخدم الأسكيمو نخاع عظام الرنة وقوداً، ودمها غراء، وأعصابها خيوطاً وسياطاً وحبالاً. وإذا تبقى من لحومها شيء كانوا يختزنونه لشهور الربيع العجاف. وفي هذا السياق أبدى عالم الأجناس البشرية ريتشارد نيلسون دهشته البالغة مما شاهده خلال دراسة ميدانية حديثة من فهم نساء الأسكيمو الكامل للصفة التشريحية لحيوان الرنة وغيره، وقدرتهن على تقطيع حيوان ضخم إلى قطع أصغر وأصغر دون استخدام المنشار، ودون كسر أي عظمة.

والمدهش – حقاً فيما يتعلق باستخدام الأسكيمو لأجزاء الحيوان – فهمهم الكامل لخصائص كل جزء في كل حيوان. فعلى سبيل المثال كانوا يدركون أن قرون ثيران المسك أكثر مرونة من قرون

الرنة، ولذا فقد فضلوا الأولى في صنع الشوكات الجانبية لحراب صيد الأسماك. وبالمثل فقد استخدموا جلود أسماك السلمون في صنع الحاويات التي لا تتشرب الماء والتي كانوا يحملون فيها الأعصاب التي تستخدم في ترقيع الملابس. كما اختاروا أمعاء الفقمة ذات الذقن لصنع شبابيك لمنازلهم الجليدية، نظراً لما تتسم به هذه من قوة فائقة، تجعلها سهلة الطيّ عند الرحيل، كما أنها لا تتجمد في الجو الشديد البرودة. ولكي يصنعوا أفخاخاً صغيرة لصيد البط البحري، فقد احتاجوا لمادة مطاطة لا تتعفن في المياه المالحة، وهذه قد وجدوها في ألياف عظام فك الحوت. وحتى ريش البط كانت له فائدة حيث كانوا يثبتونه إلى عصاة مغروسة في الجليد أو إلى كوخ جليدي بحيث تكشف حركته عن زفير فقمة تشق طريقها إلى السطح في هدوء. أما عظام الدب القطبي فقد استخدمت حيثما كان الموقف يتطلب نقطة بارزة أو حادة، فقد ثبت للأسكيمو أن عظام هذا الدب أقوى من عظام أي حيوان آخر من حيوانات المنطقة القطبية الشمالية.

ولا يخفى على الباحث ما تتسم به هذه الأدوات والمعدات من تشبه دقيق بالحيوانات. فَيَدُ السحب في نهاية الحبل الذي يستخدم لسحب الفقمة إلى البر منحوتة على شكل دب قطبي، كما أن طائر السامك يشكل رأس الحربة المستخدمة في صيد الأسماك. كما لا يخفى تفضيل الأسكيمو لمادة خام على أخرى: تفضيل أمعاء الحيتان الصغيرة على أمعاء الرنة عند خياطة جلود الفقمة، وتفضيل ريش بوم الجليد أو ريش الغاق على ريش ما عداها من طيور في صنع السهام. ولا يخفى - أخيراً - وسع الحيلة التي تنطوي عليه كل هذه الأدوات: ربط كمية من الفحم النباتي الحديث الصنع ربطاً محكماً، ثم قلبه رأساً على عقب داخل جلد فقمة مبلل، ثم تركه ليتجمد حتى يشكل ساقاً جارية (جرار) للزحافة.

أما الزحافة ذاتها فقد كانت (معدّاية) رائعة حقاً، وكان يدخل في صنعها عدة مواد: قرون الرنة، وجلود الفقمة، ومسحوق الطحالب الجافة، وجليد مصقول مشذب، وهذه مصحوبة بدقة الصنعة - تجعل الزحافة مرنة ويمكن دفعها على الثلوج بدفعة من اليد، وقادرة على التحرك عبر تضاريس ثلجية من دون أن تنحرف أو تنقلب.

وبالنسبة للعاج المستخلص من حيوان الفظ فقد وضع أوتو جيست (وهو عالم آثار قام بحفريات في موقع بونوكي بجزيرة سانت لورنس في فترة العشرينيات) قائمة بالأدوات التي صنعها

الأسكيمو من هذه المادة الخام وحدها، ولكل منها غرض خاص: حلية لمكابح الكلاب، وخيوط جراحية لمنع النزيف عند الفقمة، وجزء من فخ الثعالب، وغيرها، علماً بأن هذه القائمة تضمنت أكثر من مائة صنف.

ويذكر إدمون كاربنتر في كتابه «واقع الأسكيمو» أن الأسكيمو يتميزون بظاهرة معروفة تماماً، وهي أنهم عندما يواجهون مشكلة ميكانيكية، يستوعبونها بسرعة ويجدون لها الحل المناسب، وحتى إذا ما كان الشيء موضوع المشكلة غريباً تماماً عليهم، فإنهم يختارون المادة المناسبة من «الخردة» أو من «النفايات» وغالباً ما تكون للمادة المختارة ما يتطلبه الأمر من قوة للشد، أو مرونة للالتواء، أو مقاومة للحرارة والتجمد المتكرر والتآكل، ثم يشكلونها بأدواتهم البسيطة، وبهذا تكون حلاً مؤقتاً أو دائماً للمشكلة. ولقد سجل المكتشفون في القرن التاسع عشر ملاحظات عديدة حول هذه الظاهرة.

* * * * *

وفي المنطقة الوسطى من بروكس رينج قرية صغيرة تحمل اسم «ممر أناكتوفوك» ويُسمّى الأسكيمو الذين يعيشون فيها «النوناميوت»، وهم جماعة ظلوا يعيشون حتى وقت قريب على الرنة، وأغنام دال، والموظ. ولأنهم في الأصل كانوا قوماً رُحَّلاً، فقد كانوا يقضون الشتاء في بروكس رينج، والصيف مع أقاربهم على ساحل بحر بنغورت، حيث يتاجرون في جلود الرنة مقايضين إياها بجلود الفقمة ودهونها. وكانت خبراتهم الأولى في التجارة في السلع الحديثة تنحصر في الحصول على أشياء بسيطة مثل التبغ الروسي (في القرن الثامن عشر)، حيث كانوا يجلبونه من الأسكيمو الذين يعيشون حول مصب نهر كولفيل، وهؤلاء كانوا يحصلون عليه بدورهم من أسكيمو بحر بيرنغ. وبعد عام 1850م بدأ صيادو الحيتان الأمريكيون يجلبون كميات كبيرة من الدقيق والشاي والبن والسكر والتبغ، والأسلحة والذخيرة والخمور إلى المنطقة الممتدة شمال غربي الاسكا. وعلى الرغم من أن النوناميوت لم يشاركوا بشكل مباشر في هذه التجارة إلا أنهم قد تأثروا بها. فقد كانت موارد الرنة التي يعتمدون عليها تقسم بحيث يمكن توفير الطعام

لأفراد أطقم سفن صيد الحيتان. ومن ناحية أخرى فقد اضطر النوناميوت لنبذ حياة الجبال، ومن ثم فقد انتقلوا من اقتصاد يعتمد على الصيد إلى آخر يعتمد على التجارة. وقليل منهم قد تمكن من الحصول على أعمال موسمية على الساحل، واتجه غالبيتهم لصيد الثعالب طمعاً في فرائها الثمين.

وفي حقبة الثلاثينات حدث تغيير في حياة النوناميت عندما انهارت تجارة الفراء، وأغلقت بالتالي مراكز التجارة بعد أن امتدت آثار الركود الاقتصادي في الولايات المتحدة حتى طالت هذه المنطقة. وفي عام 1934 سعت بعض العائلات للعودة للجبال، خاصة وقد علموا بأن تجمعات الرنة قد انتعشت مرة أخرى وأنها تهاجر عبر الجبال. وخلال العام الأول من عودة هذه العائلات للجبال اقاموا معسكراً عند نقطة التقاء نهري أناكتوڤوك وكولڤيل. ولعدة سنوات ظلوا يسافرون بانتظام إلى الساحل، حيث كانوا يصطادون الأسماك والحيوانات، ثم يعودون إلى موطنهم في بروكس رينج. وبعد ذلك بعشر سنوات تجمعت هذه العائلات حول مكان يسمى بحيرة تولوجاك عندما تبينوا إمكانية جلب البضائع للجبال بوساطة الطائرات، والإفادة من وجود أحد المدرسين هناك بصفة مؤقتة. وفي عام 1951م انتقلت هذه المجموعة المؤلفة من خمسة وستين شخصاً عدة أميال صوب الجنوب، وأنشأت الحكومة الأمريكية مكتباً للبريد في ممر اناكتوڤوك في خيمة مصنوعة من جلود الحيوانات كانت تخص صياداً يدعى هومر ميكيانا. ثم أنشأت مدرسة دائمة في عام 1961م، وكان غالبية النوناميوت قد استقروا في القرية أو حولها طوال السنة. واليوم يعيش نحو مائة وثمانين شخصاً هناك، ويوجد بالقرية مخزن، وتوفر الأقمار الصناعية لأهلها الاتصالات الهاتفية والخدمة التليفزيونية، كما يوجد مدرسة حديثة مزودة بحمام للسباحة، وحمامات السونا، وقد تم تمويل بنائها من الأموال التي تدفقت بعد اكتشاف البترول في الاسكا.

وتكررت هذه القصة ذاتها مرات كثيرة وبالتسلسل ذاته عبر المنطقة القطبية الشمالية خلال الخمسين عاماً الماضية. ويلاحظ أن الصيادين الرُّحل يتركزون الآن في مكان واحد لأغراض التجارة، وأن تغييرات جذرية تحدث في أسلوب الحياة من أجل التكيف مع الاقتصاد القائم على التجارة والمدفوعات. ويحاول بعض الأسكيمو جاهدين العودة إلى ما يشبه أسلوب حياتهم الأصلي، وفي الوقت نفسه تتلاشى أجزاء كبيرة من اللغة الأصلية، كما يحدث تآكل عميق في العادات الاجتماعية والدينية والسياسية والغذائية تحت الضغط الشديد والمتواصل من جانب المبشرين

(المنصّرين) والبيروقراطيين، والمغامرين الأجانب، الذين لم يحملوا احتراماً يذكر لمهارات الصيد، وقدرة الزوجين على رعاية الأسرة، والمعرفة بالحياة التي استمدها الأسكيمو من الصبر والعزيمة والإرادة، وبدلاً من ذلك سعى الدخلاء إلى غرس قيم وفضائل جديدة مثل سرعة التلبية، والنظافة الشخصية، والتحسين الذاتي، والنظام، والجدولة في الحياة اليومية(*).

ومن بين هؤلاء الأجانب الذين عدّهم الأسكيمو أصدقاء في العصور الحديثة العديد من علماء الأجناس البشرية وعلماء الحياة الذين وجدوا في النونامیوت بصفة خاصة مصدراً هائلاً للمعلومات، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الطبيعي للمنطقة، والذين يعترفون بفضل هؤلاء الناس. فبعض الرجال والنساء النوناميوت الذين عاشوا حياة متوازنة وكريمة رغم كل ما تعرضوا له من تغيرات وتحولات قد أصبحوا رموزاً للحكمة الاصيلة، وقدموا عوناً لا يقدر بثمن لمختلف العلماء. ولا يقتصر ذلك على أسكيمو الأناكتوڤاك، فالكثير من العلماء ذكروا في كتبهم وبحوثهم وأحاديثهم الخاصة السمات الطيبة التي وجدوها في رفاقهم من الأسكيمو، وأبدوا إعجابهم بذكائهم المتواضع، وأمانتهم وخفة ظلهم. ولقد أوضح هؤلاء العلماء أنهم كانوا يشعرون بقوة إضافية وهم في صحبة هؤلاء الناس الذين إذا تكلموا لا يعممون ولا يطرحون عبارات مجردة، بل يركزون على كل ما هو عملي ومحدد ومادي.

ففي عام 1978م قمت بزيارة لعالم أحياء متخصص في الذئاب، وكان قد اتخذ لنفسه منزلاً مؤقتاً في منطقة ممر أناكتوڤوك، وكان السكان المحليون يحملون احتراماً كبيراً له لدوره الكبير خلال فترة انتشر فيها وباء الأنفلونزا بالقرية، وللباقته وحسن استماعه. وامضيت معه عدة أسابيع نراقب الذئاب والرنة في الوديان القريبة، ونزور منازل عديدة وخلال تلك الزيارات تحدث الناس كثيراً عن الصيد، واستمعنا للعديد من القصص. وفي أحد الأيام توجهنا سوياً إلى منابع نهر أوتوكوك،

(*) من السهل تفنيد قيمة هذه الفضائل الهلامية، كما أنه من السهل أن نجد بين المتطفلين أناساً فاسدين يحاولون الظهور بمظهر العظمة. وبالمثل فإننا نحط من قدر الاسكيمو إذا ما نظرنا إليهم كبشر عاجزين إزاء ذلك الموقف. فغالبية الاسكيمو لا يعارضون عملية تغيير أسلوب حياتهم، ولكنهم يرغبون أن يترك لهم اختيار التوقيت المناسب والوِجْهَةَ المناسبة لها. وكما ذكر لي أحدهم ذات مرة «ليس هناك إصرار على تلك الحياة القاسية». وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن أناساً كثيرين قد قدموا العون للاسكيمو. ففي القطاع الكندي من المنطقة القطبية الشمالية تسمع الكثير من الثناء على الجهود التي يبذلها المبشرون الكاثوليك الذين يتبعون أسلوب الالتزام الطويل المدى بقرية معينة، وحرصهم على تعلم لغة الاسكيمو وحرفة الصيد، وتركيزهم على التعليم الجيد.

حيث أنشأت إدارة الأسماك والصيد في ولاية ألاسكا معسكراً صغيراً عند حافة مهبط للطائرات. وكان من بين فريق العلماء في ذلك المعسكر متخصصون في الذئاب، والرنة، والموظ ودب التندرة، والشَّرِهْ – فالأرض حول أوتوكوك ومنابع نهر كوكوليك أرض شاسعة ساكنة خلال فصل الصيف، وفيها ترى بعض قطعان الرنة وهي تنحدر على التلال عائدة من المنطقة الغربية التي كانت ترعى فيها. وفي هذه المنطقة يتواصل سطوع الشمس التي تختبئ في مكان ما في السماء. ولمدة أسبوع أو نحو ذلك استمتعنا بطقس رائع وصافٍ، وكنا نشاهد النسور الذهبية تحلق فوق رؤوسنا وتجوب التندرة بحثاً عن فرائس، كما كانت البومات تراقبنا من بعيد من أوكارها التي بنتها من كتل الأعشاب. وهذه البومات ذوات الآذان القصيرة، ومعها السناقي.ر مخلوقات مألوفة في هذه المنطقة.

وبعد عدة أيام قضيناها في ذلك المعسكر توجهت ورفيقي إلى منطقة أخرى تبعد ستة أو سبعة أميال إلى الجنوب، وأقمنا معسكراً صغيراً حتى نتمكن من مشاهدة عرين لذئب يقع على مسافة قريبة منا. وفي تلك الأرض المكشوفة كنت أتصور أن شيئاً لا يمكن إخفاؤه. وذهبت في نزهات على طول سلسلة جبال إلينجنوراك و «زرت» الطيور التي تبني أعشاشها على الأرض، وكنت قد اعتدت على الانحناء تحية واحتراماً لكل ما هو رائع وغامض في حياتها.

فالحيوانات المنفردة التي شاهدناها كانت تختبر الأرض وما حولها، وكانت تحاول أن تفعل أشياء ربما لم تفعلها من قبل، وربما لم يفعلها أي حيوان يشبهها، وهذا يكشف عن استعداد هذه الحيوانات لما هو جديد، ولعل قدرة الحيوان على التكيف – وهي قدرة تمكن كثير من الأنواع من الاحتفاظ بها على الدهور – أحد الأسرار الكبرى للتطور.

ولقد شاهدنا الذئاب وهي تصيد الرنة، كما شاهدنا البوم وهي تصيد اللاموس، والسناجب وهي تتغذى على نبات الحماض الأسمر، وفكرت كثيراً في الصيد، وتذكرت قصة مدهشة رواها لي روبرت فلاهرتي، ونجح إدموند كاربنتر في نشرها لاحقاً، وكانت حول رجل يدعى كوموك. ففي عام 1902م واجه كوموك هذا وعائلته الجوع، ومن ثم فقد قرر الرحيل على ثلوج البحر لجزيرة كان يعرفها، وكان يتوقع أن يجد فيها طعاماً (وهي جزيرة صغيرة قبالة رأس ولستنهولم عند طرف شبه جزيرة أونجافا في منطقة كيوبيك). وأثناء هذه الرحلة الشاقة فقدوا كل ما كانوا يملكون تقريباً

– السكاكين والحراب، والسهام، والمصابيح الحجرية، والجلود، ومعظم الكلاب، وذلك عندما انشقت ثلوج البحار فجأة في إحدى الليالي تحت خيمتهم، فأصبحوا بلا أسلحة للصيد، وبلا مصابيح حجرية لإذابة الثلوج للحصول على ماء يشربونه، وبلا طعام أو ملابس إضافية، ولم يتبق معهم سوى زحافة واحدة، وعدة كلاب، وسكين جليدي تمكنوا بوساطته من قطع الجليد لصنع منزل جليدي، وقطع الأحجار ليصنعوا منها شرارات لإشعال النار.

وعاشت عائلة كوموك على لحوم كلابها التي كانوا يذبحونها واحداً تلو الآخر، وأخيراً وصلوا إلى الجزيرة، ومما توفر لهم من موارد (غير ملائمة) صنعوا أسلحة جديدة للصيد، وبنوا ملاجئ تحميهم وتوفر الدفء لهم. وحالفهم النجاح في الصيد، وأعادوا بناء حضارتهم المادية من نقطة الصفر تقريباً بالإبداع والاختراع كلما دعت الضرورة لذلك. وهكذا تمكنوا من البقاء، وتكاثرت كلابهم.

وعلى مر السنين كانوا يحرصون على جمع الأخشاب التي تقذف بها المياه، وكذلك العظام إلى أن توفر لهم ما يكفي لبناء قارب طويل، وادخروا جلود الفقمات ذوات الذقون والتي صنعت زوجة كوموك منها هودجاً. وفي يوم من أيام الصيف أبحروا بالقارب بعيداً عائدين في اتجاه شبه جزيرة أونجافا، حيث كان روبرت فلاهرتي يقوم بالاستكشاف بطول الساحل، ولمح كوموك وأفراد أسرته وكلابهم يقتربون عبر الماء. ولما دنوا منه عجب كثيراً لأمرهم، فالقارب والملابس تحمل سمات الأسكيمو، ولكن المواد المصنوعة منها كانت غير المواد التقليدية. وبادر فلاهرتي الرجل سائلاً عما يكون، فذكر له اسمه، ثم سأله عن المكان الذي أتى منه فأجابه قائلاً: «من بعيد جداً، من جزيرة كبيرة هناك» مشيراً بإصبعه لأحد الاتجاهات، ثم ابتسم وأطلق نكتة حول الحالة المتواضعة للقارب، وانفجر كل أفراد الأسرة ضاحكين.

والحقيقة أنني دائم التأمل في هذه القصة ومغزاها، فهي ترمز لجوهر الصناعة والكفاءة والإصرار والعزيمة والقدرة على الاختراع والإبداع التي تتميز بها أي أسرة من البشر، وأيضاً لأنها تحكي عن أناس عاشوا بإصرار في قلب كل لحظة وجدوا أنفسهم فيها، سواء كانت تنطوي على كارثة أم ازدهار.

وخلال تلك الأيام التي أمضيتها في سلسلة جبال إلينجنوراك لم يكن لدي من معرفة بالصيد

مثل ما لدي الآن، ولكنني بدأت أحس بإطار ما يمكن أن أتعلمه من خلال تعايشي مع الأسكيمو في السنوات المقبلة، ومن تعرضي لمواقف مختلفة لم أكن لأتعرض لها لو كنت بمفردي. فلقد ازداد تأملي في الصيد وطبيعته، وفي حركة البشر على سطح الأرض، وفي الخوف، فمشاهدة الحيوانات كانت خير باعث على مثل هذا التأمل.

وهناك أدلة جيدة على أن غالبية الصيادين من سكان الشمال الأقصى الأصليين كانوا يرون أنهم يرتبطون بالحيوانات التي يصيدونها بعلاقة مقدسة، وهي علاقة تنطوي على مسؤوليات عديدة – نحو الحيوانات، ونحو أنفسهم، ونحو أسرهم. ومن الأمور التي لم نهتم بها دور المرأة في عملية الصيد، ويمكن أن نفترض – استناداً للعلاقة بين الإنسان والحيوانات التي يصطادها – أن عملية الصيد كانت بمثابة عقد اجتماعي لا يكتمل إلا باشتراك زوجة الصياد فيها. ففي أي مجتمع يعيش على الصيد فإن الصيد لا يكون ناجحاً إذا قام به الصياد منفرداً، ومن ثم فخير شريك له هو زوجته التي تقوم بإعداد الطعام وحياكة الملابس، وتوفر له الصحبة، وتمده بالقوة، وترفع روحه المعنوية. ويمكننا كذلك أن نتكهن باعتبارات ذات طابع ديني.

فالصيد من واقع خبرتي – وأقصد بالصيد مجرد الخروج إلى الأرض – حالة ذهنية. فالصياد يستجمع كافة قواه وقدراته لكي يندمج تماماً مع الأرض. فهي عملية تنطوي على ما هو أكثر من الإنصات لأصوات وهمسات الحيوانات، أو متابعة آثار حوافرها، أو مراقبة أي تغيرات في حالة الجو. وهي أكثر من مجرد تحليل لما يحس به الصياد. فالصيد يعني أنك تلتحف بالأرض التي حولك وكأنها جزء من ملابسك، ويعني أيضاً أنك تحاور بدون كلام، وأنك تستغرق تماماً فيما أنت بصدده، وتتوقف عن الحديث إلى رفاقك. وأخيراً وليس آخراً فإن الصيد يعني أنك تطلق سراح نفسك من سجن الصور العقلانية لما يعنيه شيء ما، وتركز على ما هيته فحسب، كما يعني أنك تدرك أنه ليس للأشياء معنى أو مغزى إلا بربطها، بعضها ببعض. فهذه العلاقات تصبح أنماطاً: قطرات جديدة من الرطوبة على قمة الصخور عند مخاضة في نهر، أو صوت غداف (نوع من طائر الغراب) يأتي من بعيد. ويلاحظ أن الأنماط دائمة الحركة، إذ سرعان ما يستوعب النمط عناصر أخرى، فعلى سبيل المثال فقد تنضم الرنة إلى نمط يتضمن الجوع، وذكريات أسرية، وذكريات حول الوادي الذي كنت تعيش فيه بكل ما فيه من نباتات وروائح. وبالمثل فإن انطلاق

سهم أو رصاصة يكون بمثابة كلمة تنطق بها بصوت مرتفع، فهي أمور تحدث على هامش تركيزك.

وفي اعتقادي فإن العقل العامل الواعي للصياد من السكان الأصليين يشبه إلى حد كبير عقل الإنسان في حالة الحلم: إدراك غير عقلاني وغير خطي للأحداث، وتكون قفزات الزمان والمكان فيه شيئاً عادياً. فالأمر ليس سوى إطار عقلي يعيد تعريف الصبر، والتحمل، والتوقع.

فالصياد في مجتمع يعتمد على الصيد لا يرى الصيد قتلاً لذات القتل، وإنما إعمالاً لعلاقات متعددة تربط بينه وبين العالم الذي يجمع بينه وبين الحيوانات التي يصطادها، ومن ثم فإنه يقوم بواجباته بعناية، لأنه يرى فيها كل شيء قد فهمه حول البقاء. ولا يعني هذا أن كل صياد كان على هذا النحو، أو أن الناس الطيبين لم يتضوروا جوعاً، كما لا يعني أن الشامان (الكهنة) والذين كان واجبهم الشفاعة لدى القوى التي هي أساس تلك العلاقات لم يفكروا أحياناً في المكاسب الشخصية، ولم يأتوا بحيل وذرائع. ولكنه يعني ببساطة أن غالبية الناس قد فهموا كيف يسلكون.

ومن الفروق الأساسية بين حضارتنا وحضارة الأسكيمو – وهو فارق يمكن رصده إلى اليوم في مواقف معينة – هو أننا قد انفصلنا تماماً عن عالم الحيوان، إذ حَوَّلْنَا الحيوانات كافة وسائر عناصر العالم الطبيعي إلى أشياء، نخضعها لخدمة أغراضنا المعقدة. ولكن الأسكيمو لا يستوعبون هذا الانفصال بسهولة، ويجدون صعوبة بالغة في تصور أنفسهم، وقد انفصلوا كلية عن عالم الحيوان. وبالنسبة لكثير منهم فإن هذا الانفصال يشبه انعزال الإنسان عن الماء والضياء، وهذا شيء يصعب تخيل حدوثه.

وثمة فرق ثانٍ، وهو أننا – وقد جعلنا الحيوانات مجرد أشياء – نتعامل معها بشكل غير شخصي، بمعنى أن نظرتنا هذه لا تنطبق على الحيوانات المحيطة بنا فحسب، بل على الحيوانات كافة وأينما كانت. أما بالنسبة للأسكيمو فإن غالبية العلاقات مع الحيوانات ذات طابع محلي وشخصي. فالحيوانات التي صادفوها جزءٌ من البيئة، ومن ثم فهناك التزامات معينة قِبَلها. ومن الجوانب التي تحير الأسكيمو، وتثير قلقهم، ويتعذر عليهم استيعابها اتجاه الحضارة الغربية نحو تجريد العلاقات بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والحيوان من طابعها الشخصي.

ويلاحظ أن الأسكيمو يدفعون ثمن ألفتهم مع الطبيعة. فعندما كنت أفكر في أوجه الخلاف

بين الأسكيمو وشعوب الحضارة الغربية تبينت أن الخوف يسيطر عليهم بأكثر مما يسيطر علينا، والخوف الذي يعانون منه قد امتد إلى حياتهم اليومية، وليس مجرد انقلاب قارب وغرقهم في المياه الباردة، أو خوف من الإصابة بالعجز الجسدي، وإنما خوف ناجم عن قبولهم الكلي بما هو عنيف ومفجع في الطبيعة. فهو خوف يرتبط بإدراكهم بأن الحوادث المفاجئة والمزلزلة جزء من الحياة تماماً كما أن الأحداث الطيبة والسارة جزء منها. وفي هذا السياق فقد سأل كوند رمسيوس ذات مرة كاهناً (شامانا) من الأسكيمو عن معتقدات هؤلاء القوم فقال: «إننا لا نعتقد، إننا نخاف فحسب».

ومن الخطأ ونحن نتناول هذه الأفكار بالتفصيل أن نعتقد أن الحضارات القائمة على الصيد – مثل حضارة الأسكيمو تعيش في توافق وانسجام تام مع الطبيعة. فاحترامها للحيوانات وتنبهها للفوارق الدقيقة في الأرض لم يكونا بالقوة ولا بالكمال الذي يجعلها تقترب من التوازن المثالي. فشعوب تلك الحضارات كانت تواجه الطبيعة بالخوف، وباستخدام لغتهم: «إليرا» ومعناها الرهبة العصبية، «كابيا» ومعناها ترقب الشر. ولكنهم كانوا يواجهون الطبيعة بالحماس كذلك، وإذا كانوا قد قبلوا الصيد أسلوباً للحياة فإنهم كانوا يدركون ما ينطوي عليه من عنف، وإن كانوا لا يلجؤون للعنف إلا في حالات الضرورة. ولم يكونوا شعوباً عاطفية، وحتى الغرباء ظنوهم شعوباً قاسية، خاصة في تعاملها مع الكلاب (وهي حيوانات مدللة في الغرب). كما أن البراءة ليست من صفاتهم، فتاريخهم مليء بالقتل والحروب الثأرية القبلية، ولقد شاهدت خلال تجوالي بالقرى المختلفة عائلات وقد مزقها إدمان الخمر والمخدرات والطموح الجامح. وإذا كنا لا نعفي الأسكيمو من مسؤولية ذلك، فإننا – بعيداً عن الأفكار والتأملات الرومانسية حول الصيد – ينبغي أن نأخذ في الاعتبار صراع هؤلاء الناس مع الطبيعة في أقسى صورها. صراع من أجل البقاء والعيش في كرامة وتحسين الأحوال والظروف. ولعله من المفيد في هذا الصدد أن نتخيل كيف يفسر هؤلاء الناس قوى الحياة، وكيف يعيشون في عالم ينطوي على تهديد حقيقي ومستمر بالفناء من جراء الانهيارات الجليدية. فالأرض تجبر عقول من يعيشون عليها على التفكير بطريقة معينة.

وإلى جانب مزايا الحصول على أدق التفاصيل، فإن التنقل في صحبة الأسكيمو يعطي إحساساً قوياً بقوم يعرفون الكثير عن البقاء (وذلك على الرغم من بعض المتاعب مثل تناول طعام غريب،

والافتقار للتخطيط السليم). فالأسكيمو في أحسن حالتهم قوم يتسمون بالمرونة والحماس والسلوك العملي، ويبدون اهتماماً كبيراً بكل شيء يستطيعون فهمه واستيعابه، ويستمتعون بالحياة إلى أقصى درجة، ويبهجهم أن يروا بشراً ينعمون بهذه الصفات ذاتها. وباختصار شديد فإنهم قوم يطيب لك معرفتهم.

وخلال العمل الميداني الذي قمت به، والوقت الذي أمضيته مع الأسكيمو أعجبني فيهم وعيهم بضرورة التعايش، وانخفاض أصواتهم لدرجة الخجل عند ذكر سفك الدماء وإزهاق الأرواح، وإذا كنت لم أفهم تماماً فلسفتهم في هذا الصدد فقد قبلتها احتراماً لجديتهم في تطبيقها، وكلما انتابتني الحيرة، وكلما أحسست بأني أتعامل مع نظام غير النظام الذي تعودت عليه أعدت اكتشاف واستخدام الأقسام الرسمية للفلسفة الغربية: الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)، ونظرية المعرفة، وعلم الأخلاق، وعلم الجمال، والمنطق، وهي الأقسام التي تطرح الأسئلة الآتية على الترتيب: ما هو الشيء الفعلي؟ ماذا يمكن أن نفهم؟ كيف ينبغي أن نتصرف؟ ما هو الشيء الجميل؟ ما هي الأنماط التي يمكن أن نعتمد عليها؟.

وعلى الطريق خلال الترحال كنت أسأل نفسي: ماذا يرى رفاقي حيثما أرى أنا الموت؟ وهل ضوء الشمس جميل بالنسبة لهم بمثل تلألئه على صفحة الماء؟ وما هي الأنماط التي يثق بها الصيادون الأسكيمو؟ قد تكون الأنماط مختلفة عن تلك التي تخيلت أنها قد بدت أمامنا، وقد تكون هناك رؤى مختلفة إلى حد بعيد.

* * * * *

وفي تلك الأيام التي أمضيتها في سلسلة جبال إلينجنوراك، والتي شاهدت خلالها دببة التندرة وهي تنبش الأرض بحثاً عن السنجاب الأرضي، والذئاب وهي تصطاد فرائسها، والقبرات ذوات القرون وهي تجلس في إصرار واضح على أعشاشها، وحيوانات الرنة وهي تعبر النهر ثم تهز أجسامها المبتلة فتنتثر الماء في الهواء، فيبدو وكأنه جواهر في ضوء شمس الأصيل - في تلك الأيام كنت راضياً بمجرد المشاهدة، فتلك كانت لحظات للتأمل في الأرض وما ومن عليها، فكل شيء

مرتب في تكامل فريد . وعند نقطة ما أسفل النهر تذكرت عالماً يدعى إدوارد سابل كان قد توقف في إحدى رحلاته عام 1947م ليتأمل رأس حربة من فولسون(*)، وهي عبارة عن أداة مخددة مصنوعة من الشَّرت (حجر صواني غير نقي) بدقة متناهية وقد استقرت على صخرة من الحجر الجيري . فالناس تتحرك على الأرض .

(*) فولسون اسم القرية في ولاية نيومكسيكو، وقد اطلق على الادوات التي تم العثور عليها بها وتنتمي لعصور ما قبل التاريخ، وكانت أول الاكتشافات من هذا النوع، وهي أدوات صنعت من الاحجار . (المترجم)

الفصل السادس

الثلوج والضوء

كان التقرير الإذاعي عن الأحوال الجوية في المساء السابق مقتضباً وينذر بسوء: تحذير من هبوب عاصفة ثلجية في شمال بحر لابرادور. كانت مخاوفنا أكبر كثيراً من مجرد ارتفاع الأمواج، فقد كان هناك – وعلى بعد متوسط منا – بعض الجبال الثلجية، وكان علينا أن نبحر في تلك المياه في الظلام لنجتاز خطاً من الخوازيق الثلجية كل منها في حجم كاتدرائية. وحملتنا السفينة صوب الجنوب وهي تتحرك ببطء مع «التيار الكندي». وكانت الجبال الثلجية أقوى من أن تزحزح، وكانت قد تكونت من مياه المد في الأنهار الجليدية في غربي جرينلاند. وما أشبهها بالجدران العملاقة ذات اللون الرمادي الرخامي في سافيسيڤيك، وتورسوكتاك، وأوبرناڤيك. وفي البحار ذات الموج المرتفع على هذا النحو لا يستطيع رادار السفينة تمييز تلك الجبال الثلجية التي يبلغ حجم كل منها خمسين ضعف حجم السفينة، وذلك بسبب ذروات الموجات الجامحة التي تقذف بها الرياح إلى ارتفاعات كبيرة.

كانت السفينة «سودوك» تحمل كمية كبيرة من المعدات ومؤن عام كامل للأطقم العاملة في منجم كان قد تم حفره بإصرار وعزيمة في المياه الداكنة. كانت الرياح شديدة، ومن قوة وارتفاع الأمواج كانت المياه تتساقط علينا في وسط السفينة، مما اضطر طاقمها إلى تأمين الفتحات في جوانبها وأعلى سطحها، وبدأوا في إعداد أنفسهم لما هو آت.

وعبرنا مضيق ديڤز في أمان، فقد اجتازتنا العاصفة وتحطمت بعيداً، وكانت واحدة من تلك اللحظات التي يحس فيها الفرد بأنه قد نجا من الموت بأعجوبة لا تصدق. وفي الصباح وقفت عند مقدمة السفينة وراقبت القيدوم وهو يشق الماء الداكن في بطء ومن دون عنف. ومن خلال الضباب بدت الأجزاء الرئيسية من سلسلة جبال جليدية وكأنها أشباح، وهي التي حرمت بعضنا من النوم، وكانت تتحرك جنوباً في هدوء غريب بفعل الرياح الباردة. ولو أن السفينة قد لمست هذه السلسلة من الجبال الجليدية – مجرد لمس – لانطلقت صفارات الإنذار بقوة، واندفعنا صوب الدرج الذي

يصل السطح بالحجرات لإنزال قوارب النجاة، وارتداء الملابس الملائمة، وهي لحظات يكون فيها الفرد على حافة الحياة. فالنزول إلى الثلوج والظلام في موقف كهذا يثير الرعب والفزع وكأن كلباً مسعوراً قد قفز إلى داخل قلبك.

وواصلت السفينة سيرها في أمان، وأطلقت العنان لخيالي وتأملاتي، ثم توجهت لتناول الوجبة الأولى لذلك اليوم. كانت مدينة مونتريال بعيدة خلفنا، وكنا متجهين صوب الممر الشمالي الغربي، وشاهدنا الألوان والحيوانات والتيارات ذاتها التي شهدها فروبيشار، وديفز، وبافين، وكان ذلك في الواقع سبب رغبتي في القيام بتلك الرحلة، وكنت أرغب كذلك في رؤية الثلوج التي أسكتت هؤلاء جميعاً، وعلى وجه التحديد جبال الجليد، وعندما شاهدتها بالفعل أحسست وكأني كنت أنتظر ذلك المشهد منذ وقت طويل، وكأني كنت أنتظر لقاء الدالاي لاما(*).

وفي عصر اليوم الذي علمنا فيه أن العاصفة قد مرت، وقفت عند ميمنة السفينة لأراقب أول ما شاهدناه من جبال جليدية وهي تميل ثم تختفي في المياه في المنطقة الواقعة شمال مضيق جزيرة بيل، وبدت وكأنها كيان حزين أجهدته كارثة غير معلومة. وأبحرت السفينة مارة بها في اتجاه الشمال، ومرة أخرى بدت وكأنها أفراد شاردون تخلفوا عن جيشهم، وقد انجرفت في الماء فانعزلت تماماً عن بعضها البعض. لقد أحسست وكأن هذه الجبال الجليدية قد هوت من عالم الأساطير، أو كأنها قطع قد انفصلت عن القمر وهوت إلى أعماق المياه.

وكلما تعمقنا شمالاً كنا نجد الجبال الجليدية أكبر وأقوى، فبدت كالمسلات الفرعونية الشاهقة، أو كقصر بوتالا في لاسا بالتبت (وهو معبد يقصده الزاهدون للتأمل). وكانت السفينة تمر وسط هذه الجبال الجليدية بحيث لم يكن يبعد أي منها بأكثر من مسافة نصف ميل. وكنت أمشي من جانب السفينة لآخر متعجباً من كيفية اقترابنا منها لهذه الدرجة، ومع ذلك تبدو بعيدة.

ولم يكن وهماً أنني تصورت وجوداً للحياة حول هذه الجبال الجليدية. فالحيتان القيثارية وأسراب من طيور البحر كانت تنجذب نحو المياه عند قاعدتها حيث تكثر الأسماك من مختلف

(*) الزعيم الروحي للبوذيين في إقليم التبت، ومقابلته ليست بالأمر السهل. (المترجم)

الأنواع نظراً لاندفاع مياه عذبة من الجبال الجليدية تخفف من حدة الملوحة في مياه المحيط، وباستخدام نظارة الميدان كنت أشاهد المياه الناتجة عن ذوبان قمم وأجناب الجبال الجليدية وهي تتساقط من ارتفاع نحو أربعمائة قدم فوق سطح البحر، وكانت تتميز بلون أزرق مخضر (تركوازي أو فيروزي).

ومن حين لآخر كنت أبتعد عن ميمنة السفينة لرسم خريطة أو منظر، أو لإحضار شيء من قمرتي، وفي كل مرة كنت أعجب لسلوك الضوء حول الجبال الجليدية وعلى صفحة الماء. فهذه الكتل الثلجية العظمى كانت تستمد ألوانها من الشمس، ومن السحب، ومن المياه. ولكنها كانت تأخذ أبعادها من الضوء، فكلما كان الضوء أقوى ومباشراً ازداد تناقص الألوان على صفحة المياه، وتناقص لون الثلوج مع لون مياه البحر، وكلما اتضحت أسطح جوانب الجبال الجليدية. وكلما ازدادت السماء زرقة اتضح شكلها العام. ووجدت نفسي مبهوراً بتلك الألوان، فأخذت أدوّن في مفكرتي تشبيهات تقربها إلى الأذهان: الرمادي اليمامي والرمادي اللؤلؤي، والرمادي الدخاني. كما أخذت أدون تشبيهات لأشكال الجبال الثلجية من حولي: واحد على شكل ميسا (هضبة مستوية السطح منحدرة الجوانب)، وآخر متكور، وثالث به كثير من الخطوط والبثور، ورابع عبارة عن سلسلة جبال لكل منها قمة حادة. وعندما تسقط «جدران» أي من هذه الجبال في الماء تستقبلها الأمواج بكل عنف وتنشأ عن ذلك كهوف وتجويفات وجسور جليدية، الأمر الذي يذكرنا بالمنحدرات البحرية. وعند خط الماء يصبح لون الجليد مثل لون الزبرجد (أزرق مخضر) بالمقارنة بالحوائط التي تعلوه والتي يكون لونها أبيض مائلاً للرمادي. ويترتب على ذوبان الجليد امتلاء الشقوق بالماء، أو تكوّن برك ذات ماء لَبنيّ اللون، أو أزرق بحري فاتح حسب سمك الثلوج. وإذا كان الجبل الجليدي قد تكسر مؤخراً فإن وجهه الجديد يكتسب اللون الأزرق المخضر، بينما كان من قبل أخضر مائلاً للرمادي. وفي وقت الشفق (حمرة لون السماء قرب الغروب) يأخذ الجليد ألوان الشمس: (وردي، وأصفر مائل للاحمرار، وبنفسجي مائي، ووردي فاتح). فالثلوج تعكس الضوء وتحتجزه أيضاً داخل أركانها وحوافها البلّورية، حيث يتكثف ويتعاظم.

وعندما يذوب جبل جليدي تتناثر «الأعباء» التي كان يحملها: الصخور والحصى والغرين (الطمي) والرمال، وترتفع في الهواء ثم ترتطم بالأرض، ويترتب على ذلك علامات على خط

المياه. وعندما تتفتت وتميل، تتداخل هذه العلامات وتبدو وكأنها تتجه نحو السماء.

كان الأمر غريباً حقاً وجعلني أطلب من الضابط الثالث للسفينة أن يستخدم السدسية (وهذه آلة تستخدم لقياس ارتفاعات الأجسام من سفينة متحركة) لقياس ارتفاعات تلك الجبال الجليدية، وجاءت البيانات كالتالي: جبل ارتفاع 64,7 متراً وطوله 456,4 متراً، وثانٍ 70,4، 371 متراً على التوالي، ولكن ذلك لم يكن قياساً واقعياً نظراً لأن الجليد يمتد إلى بعيد تحت سطح الماء مكتسباً بعداً ثالثاً، ومن غير الممكن أن نعرف حجم الجبل الجليدي تحت سطح الماء: هل هو أربعة أخماس طوله الكلي، أو سبعة أثمان حجمه الكلي؟ تلك هي تقديرات البحارة بصفة عامة. ولقد لاحظت كذلك أن شكل كل جبل جليدي يتغير بتغير زاوية النظر إليه وتحرك السفينة بالقرب منه، فهو قد يتلولب، أو يكون عمودياً، أو قد يبدو كوادٍ أو منحدر، وكلها على أية حال خدع بصرية، فقد تكون مجموعة أخرى من القياسات للجبل الجليدي الواحد مختلفة تماماً. وتختلف مناظر الجبال الجليدية باختلاف حالة الجو. فعندما تكون السحب منخفضة وتتحرك في اتجاه الجنوب الغربي، فإنها تفتح أفقاً في اتجاه الغرب والشمال. وفي ضوء الشمس الساطع تتلألأ الجبال الجليدية، ويكاد يخطف بياضها الناصع الأبصار، خاصة وأن الخلفية هي مياه البحر الداكنة. وبعد برهة ترتطم الجبال الجليدية القريب من الأفق بسطح المحيط، فتبدو كالسراب البعيد. ثم أعود مرة أخرى إلى تلك الجبال القريبة منّي، وأصحح رسوماتي غير الصحيحة. ولقد ذكرني ذلك بكنيسة شهيرة في نيومكسيكو، هي كنيسة القديس فرانسيس الأسّيسي في مدينة رانخوس دي تاوس، فلقد ارتادها المصورون الفوتوغرافيون على مدى عقود متتالية في محاولة لتصويرها في ظلال من الأبيض والأسود فقط. فماذا يمكن أن يقول أي من إدوارد وستون، ووين بولوك، وبول ستراند حول هؤلاء؟.

* * * * *

ويتواصل عصر ويسكونسين الجليدي في المناطق الداخلية من جرينلاند دون هوادة. فعلى سبيل المثال إن قمة جرينلاند الجليدية تتكون بشكل متواصل من طبقات من جليد مضغوط وهواء

محتبس، وتتمدد بمعدلات متباينة، ويبلغ طولها (1,500) ميل، وعرضها (450) ميلاً، كما يصل سمكها إلى نحو (11,000) قدم. وتتآكل هذه القمة بقوة هائلة، تجعل مركز الجزيرة منخفضاً عن سطح البحر بمقدار (1,180) قدماً، كما ان الالسنة الجليدية وحواف القمة الثلجية تتلامس مع البحر عند عدة نقاط بازرة، حيث تتفتت أجزاء ضخمة من الجليد، وتطفو بعيداً بفعل التيارات. ومن اهم تلك الأجزاء المنفصلة واحد يبلغ ارتفاعه (400) قدم، ويوجد عند منحدر نهر همبولدت الجليدي الذي يمتد لمسافة خمسين ميلاً شمالاً وجنوباً عند حافة حوض كين.

ويلاحظ ان غالبية الجبال الجليدية في نصف الكرة الشمالي منحوتة من الانهار الجليدية التي تنبثق عن قمة جرينلاند الجليدية، والتي تمتد إلى خلجان ديسكو، وميلفيل. وهذه تنحدر شمالاً بفعل تيارات جرينلاند الغربية، ويستمر ذلك الانحدار لفترة ثم يتحول جنوباً في السنة ذاتها، أو في التي تليها بفعل التيار الكندي نحو بحر لابرادور. ويلاحظ كذلك ان الجبال الجليدية اصغر من الجزر الجليدية، وهي نوع من الثلوج يتكون (بطول الساحل الشمالي لجرينلاند، والساحل الشمالي الغربي لجزيرة إلزمير) من أرفف جليدية تمتد قبالة الشاطئ وتكون طوقاً محيطياً. وعلى الرغم من أن تركيب وسلوك الأرفف الجليدية قد شُبِّهَا بتركيب وسلوك ثلوج البحار، فإنهما من الناحية الفنية مختلفان عنها. وتبلغ مساحة كل من هذه الجزر الجليدية نحو ثلاث مئة ميل مربع، ولا يزيد سمك طبقة الجليد بها عن مائة وخمس وستين قدماً. وسرعان ما تصبح هذه الجزر جزءاً من الكتلة الجليدية القطبية، حيث تشكل قواعد انحدار مثالي طويل الأمد بالنسبة للبحث العلمي. فهي سليمة التركيب، ولها قمم مسطحة ذات تموجات منتظمة تشبه سطحاً من صفيح، ومن ثم فهي توفر منصة للعمل قريبة من سطح الماء. ومن بين هذه الجزر جزيرة فليتشر (T-3) وتبلغ مساحتها خمسين ميلا مربعاً، وتمتد من الرف الجليدي المسمى وارد هنت إلى فيوردة ديزرائيللي بجزيرة اليزمير، وقد استخدمها فرق من العلماء على مدى خمسة وعشرين عاماً حتى منتصف حقبة السبعينيات. وعادة ما تنحدر الجزر الجليدية نحو كتل الجليد المتحركة، ويستمر ذلك لفترة عقود متتالية، وتتجه شمال الاسكا حتى تقع في براثن تيار جرينلاند الشرقي، ومن ثم تتحلل وتذوب.

وثمة ظاهرة أخرى، وهي الجبال الجليدية المسطحة أو المستوية، وهذه وإن كانت في مثل اتساع

الجزر الجليدية فإنها أكثر سمكاً حيث تنفصل عن الأنهار الجليدية في كتل كبيرة. ويصل حجمها إلى ما بين أربعين وخمسين ميلاً مكعباً، وبهذا فهي أكبر الكتل الطافية في نصف الكرة الشمالي. ومن المصادر الأخرى للمياه العذبة التي يشتمل عليها جليد المنطقة القطبية الشمالية، تلك الثلوج التي تتكون على الأنهار وعلى بحيرات التندرة وبركها (وهذه قد تتجمد حتى قاعها شتاءً)، ويضاف إليها الشقوق التي تحدث في الجليد الأرضي في إطار الصقيع السرمدي، وهذه تؤثر في تشكيل هندسة متميزة للشقوق الصقيعية في التندرة والتي يسميها العلماء «أرض ذات أنماط»، كما تسهم في تشكيل المتاريس الصقيعية والتي يسمونها «بِنْجُو»، أي الأكوام والتلال التي تأخذ شكل المتاريس.. ومن أبرز هذه سلسلة من نحو مائة وخمسين بنجو تعود إلى ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف سنة وتوجد بالقرب من توكر بوينت، إلى الشرق من مصب نهر ميكنزي مباشرة(*).

وبالنسبة لثلج البحار الذي يتكون على سطح المحيط فإنه لا يسهل التنبؤ بسلوكه، بالمقارنة بثلوج المياه العذبة، والأمر يتوقف على طريقة تكونه وتغيره، وعمره. ويلاحظ أن ثلوج البحار تتسم بالتعقيد الشديد من حيث فيزيائيتها – توزيع القوى بداخلها، ومدى مرونتها وصلابتها، والسمة التركيبية لشبكياتها البللورية. وفي هذا السياق كتب أحد العلماء قائلاً: «قلما يوجد مادة على سطح الأرض في مثل ثلوج البحار من حيث القابلية للطرق والتعقيد والسلبية المخادعة».

فثلج المياه العذبة يبدأ في التجمد عادة عند درجة حرار (39,2) فهرنهايت، وهي الدرجة التي يكون الماء العذب عندها في أقصى درجة لكثافته. أما ثلج البحار فلا يصل إلى أعلى درجات كثافته، ولا يبدأ في التجمد إلا إذا بُرِّدَ لدرجة (28,6) فهرنهايت. وفي مراحله الابتدائية يتضمن التركيب البللوري لثلج البحر ماءً شديد الملوحة، ولا يكون صلباً، ومن ثم فإنه ينثني تحت وطأة أي ثقل قبل أن يتحطم، بينما الثلج حديث التكون من المياه العذبة يكون هَشًّا وأكثر شفافية، ومن ثم فإنه يتحطم فجأة، كما يتحطم لوح من الزجاج. وبسبب مرونته فإن المشي عليه (حتى ولو كان سمكه أربع بوصات) ينطوي على قدر من الخطر. وعلى العكس من ذلك فإنه يمكن

(*) الصقيع السرمدي مادة فريدة عبارة عن تربة متجمدة، وهي ليست ثلوجاً، والسبب في الخلط بينها وبين الثلوج أن سلوكهما متشابه، وكونها تمتد خلال التربة بفعل عملية للنمو البللوري. ويرجع تعقيد نمط تطورها إلى أنها توجد تحت سطح الأرض في مناطق لم يغطها الجليد. وفي المنطقة الواقعة شرق شبه جزيرة تايمر يصل عمق هذه الطبقة إلى (1,900) قدم.

المشي في أمان على طبقة من ثلوج المياه العذبة حتى ولو كان سمكها نصف سمك ثلوج البحار.

وفي غياب الرياح أو التيارات القوية تظهر ثلوج البحر بداية على السطح، وكأنها غشاء زيتي من البللورات، ثم تزداد هذه الثلوج سمكاً، فتتحول إلى ثلوج نصف ذائبة تسمى الثلوج الشحمية، وهذه تزداد سمكاً عمودياً، لتكون طبقة مرنة من البللورات الثلجية، سمكها بوصة أو نحو ذلك وتسمى «نيلاس»، وهذه تنثني، وعندما يصبح سمكها نحو أربع بوصات يتحول لونها إلى الرمادي، وعندئذ تعرف باسم «الثلج الصغير»، أو «الثلج الرمادي». وعندما يصبح الثلج الرمادي كامداً (غير نافذ للضوء) فإنه يسمى «ثلج في سنته الأولى»، وفي هذه المراحل الأخيرة يزداد سمكاً ولكن بدرجة أبطأ.

وبحلول فصل الربيع قد يتراوح سمك «ثلج السنة الأولى» بين أربع وست أقدام، وإذا لم يذب كلية خلال فصل الصيف يصبح «ثلجاً في سنته الثانية» بحلول فصل الخريف، وعندئذ يزداد صلابة ويتحول إلى اللون الأزرق الباهت. ويلاحظ أن الماء المالح في الطبقات العليا، يكون قد جف خلال فصل الصيف، وتملأ بللورات ثلج المياه العذبة الفراغات التي تترتب على ذلك. ويزداد ثلج السنة الثانية سمكاً، إلى أن يستقر بعد عدة سنوات، حيث يصل سمكه إلى ما بين عشر واثنتي عشرة قدماً. فإذا ظل متماسكاً (أي لم يذب) بعد انقضاء صيف تالٍ، فإنه يسمى «ثلج السنوات العديدة»، أو «التجمع الثلجي القطبي»، وذلك لتمييزه عن ثلج السنة الأولى، وثلج السنة الثانية(*). ومن الأنواع الضخمة لثلج السنوات المتعددة ما يعرف باسم «الثلج البللوري القديم»، وهو الذي يتكون في البحر القطبي المفتوح، وقد يصل سمكه إلى خمسين قدماً.

وقد تتحد التجمعات الثلجية القطبية فتكوّن وحدات عظمى تسمى «ثلوج الميدان»، أو قد تتحطم بوساطة ممرات للمياه المفتوحة، وينتج عن ذلك كتل أصغر وأصغر.

وتؤثر الرياح والتيارات في تكوين ثلوج البحار. فعلى سبيل المثال، إذا هبت ريح على أوحال من الثلج الشحمي فإن البللورات تتحجر وتتكور، ومن جراء احتكاك بعضها بالبعض يصبح لها حواف مقلوبة وهي مرحلة تسمى بالثلوج المسطحة. فإذا تحطم النيلاس بفعل الرياح فإن الرقائق

(*) يستخدم مصطلح «التجمع الثلجي» استخداماً واسعاً بحيث يشمل فيما يشمل اى تراكم لثلوج البحر بخلاف الثلج السريع (اي الثلج الملتصق بالشاطئ) اياً كان الشكل الذي ياخذه، او موقعه.

المنفصلة يركب بعضها بعضاً في نمط متميز للتداخل والتشابك، ومن ثم فإن الثلج الأثقل قد يمتطي نفسه، أو يكوّن سلاسل منخفضة من أنقاض أو أكوام من الأجزاء المتداعية، نتيجة احتكاك هذا الثلج بذاته. وتحت تأثير الرياح وما تحمله من جليد، تشكل هذه الأنقاض تلالاً مستديرة تسمى روابي. وقد تكون الثلوج ذات السمك المعقول، والتي حطمتها الرياح، والمد والجزر، والتيارات، ثم أتى بعضها على بعض بفعل هذه القوى ذاتها –، قد تكون جداراً من الأنقاض يتراوح طوله بين عشرين وأربعين قدماً، ويمتد تحت الثلوج إلى عمق كبير.

وتؤثر الرياح والتيارات في تكوين ثلوج البحار تأثيراً يصل إلى حد أن معظم المناطق في القارة القطبية الشمالية لا يوجد بها سوى القليل من الثلوج الملساء، وهذه تتركز في الخلجان وعلى طول الشواطئ الضحلة. وفي الربيع يتحول سطح الثلوج إلى برك صغيرة، وأيضاً إلى نمط معقد من الصرف السطحي. ومن المحتمل أن تفرز ثلوج السنة الثانية ثلوجاً مدببة كالإبر، وهذه يعمل الإنسان والكلاب والدببة على تجنبها. وفي الطبقة العليا من ثلوج السنة الأولى، والتي تخلصت من المياه المالحة تتكوّن أحياناً ثلوج شمعية، ولهذه بريق كالزجاج يظهر بوضوح عند انهيار تلك الطبقة بفعل الرياح الشديدة، أو بمجرد لمسها باليد.

ونظراً لأن ثلج البحار يستجيب للرياح والتيارات، ونظراً لأن للرياح والتيارات أنماطاً سائدة، فإن الباحثين يفترضون تكوّن الثلوج بأنواعها ذاتها في الأماكن ذاتها كل عام. ففي خليج كورونيشان حيث تكون الرياح والتيارات خفيفة، يكون الثلج أملس، ويمتد لعدة أميال في كل اتجاه. وفي مضيق ناريس (قناة كينيدي، وحوض هول، وقناة روبيسون)، ما بين جزيرة إليزمير وجرينلاند، يتراكم الجليد المعمر والذي انجرف من الشمال ويكوّن سلاسل ارتفاع كل منها نحو ثمانين قدماً، وتمتد شمالاً وغرباً حتى تلتقي بالثلوج المتجعدة عند بحر لنكولن.

وبطبيعة الحال، فإن الذي يزور تلك المناطق للمرة الأولى، سوف ينبهر بهذه التشكيلة الفريدة من أنواع الثلوج، وأساليب تحطمها وانتقالها من مكان لآخر، وكأنه يمشي على سطح كوكب آخر. فعندما تنحرف النيلاس تحت قدميه، فإنه لا يعرف كيف يخطو، وإذا اضطر لعبور سلسلة من الروابي والتلال الجليدية بزحافة ثقيلة، أو إذا اضطر للكفاح المتواصل حتى لا يصطدم القارب الصغير الذي أقلّه بكتلة جليدية متحركة، فسوف يتبين أنه ما من أرض أخرى تجهد من يتحرك

عليها بمثل ما تفعل أراضي المنطقة القطبية الشمالية.

والطيران فوق الثلوج طريقة سهلة لتعرّف نشاطها الزلزالي (التكتوني)، والوصول إلى فهم افضل لسطح المحيط المتجمد الشمالي الذي لا يعرف الاستقرار. فمن الجو تبدو الواح الثلوج الشفافة وكأنها الواح من الزجاج تتداخل فيما بينها. وتتضح شطائر الثلوج الداكنة التي تغطيها الطحالب، وتنبشها الحيوانات، كما تتضح الأماكن التي تخترقها حيوانات الفظ، كما تظهر الممرات الثلجية التي تجمدت حديثاً، بعد أن شقت نفسها عبر الأراضي الشاسعة المغطاة بالثلوج. وقد تؤدي سلسلة ذات ضغط منخفض إلى فتحة داكنة وكمية من الجليد المائل للاحمرار، موقع قتل دب قطبي. وفي الشتاء تعلو الممرات سحابات من بخار الصقيع، حيث تلتقي المياه الدافئة (نسبياً) مع الهواء البارد.

وهكذا فإن الإنسان ليشهد في تلك المنطقة معرضاً للأشكال الهندسية المختلفة، بعضها ثابت وبعضها متحرك، ويرى منها ما يمكنه بصره والضوء السائد من رؤيته.

ونظراً لما يحدث من تعديل مستمر في سطح الثلوج، فإن هناك دوماً مياهاً مفتوحة في المحيط المتجمد الشمالي، حتى في أشد درجات الطقس برودة. وعلى امتداد الساحل (حيث تتكوّن ثلوج شاطئية) فإنه غالباً ما يكون هناك شق أو صدع يفصل ثلوج الشاطئ عن كتل الثلج المتحركة، خاصة عندما تهب الرياح قبالة الشاطئ. ويلاحظ أن منطقة الصدع هذه بمثابة طريق سريع للثدييات البحرية، وبالتالي فهي من أكبر مراكز الصيد في ثلوج البحر، سواء للإنسان أم للدببة.

وبالإضافة إلى هذه الممرات الصدعية، والممرات العديدة الأخرى التي تفتح وتقفل بانتظام، هناك مساحات كبيرة نسبياً من المياه المفتوحة دوماً، وهذه عبارة عن مسطحات مائية محاطة بالثلوج، وتظل مفتوحة طوال فصل الشتاء، وهذه تتكوّن في المناطق ذاتها عاماً بعد عام، ويساعد على ذلك أنماط فريدة من الرياح والتيارات. وووفقاً لمساحات هذه المناطق ومواقعها، فإنه يمكن أن تكون أماكن مناسبة لتجمعات الطيور التي تقضي فيها الشتاء بأكمله، وكذا للثدييات البحرية. والواقع أن مركز صيد الحيتان في خليج بافين، لم يكن سوى الطرف الجنوبي لواحد من أكبر هذه المسطحات في المياه الشمالية.

* * * * *

أما الثلوج الشاطئية، وتعرف أيضاً باسم الثلوج المحصورة، فهي ثلوج البحار التي تكونت في مناطق خالية من التيارات، والتي تكوّن سطحاً يمكن السير عليه حتى في أثناء الليل. وبالنسبة للكتل الثلجية المتراكمة، فهي الثلوج التي تكون وراء الممرات الصدعية، وهذه تتميز بحركتها المستمرة، وتضاريسها المتنوعة، والطريق الذي تفسحه لحيوانات معينة. ولكن المغامرة بالمشي عليها تكون كمغازلة الموت! . فالكتل الثلجية تتحرك بشكل غير منتظم في مواجهة الرياح، ومن ثم فإن شكل وحركة كل كتلة أمران لا يمكن التنبؤ بهما. وعامة فإن الذي يتحرك عليها – وخاصة على القطع الكبيرة منها – يكاد لا يحس بحركة أو تغير، وفجأة يتبين له أنه كان بعيداً عن الشاطئ، أو أنه لا يدري موضعه. وفي كل قرية ساحلية في المنطقة الممتدة من فيوردة إنجلفيلد إلى جزيرة سانت لورنس تسمع عن قصة أو قصص لشخص أو أشخاص حاصرتهم الثلوج نتيجة لخطأ في تقديرهم وهم يطارودن دباً قطبياً، ولقوا حتفهم وسط الثلوج.

ويلاحظ أن القوة الساحقة للكتل الثلجية، لا تمثل خطراً كبيراً على البشر الذين يتحركون بالزحافات أو على الأقدام، إذ يمكن السير بخفة على سطحها، ولكنهم يصبحون تحت رحمتها إذا استخدموا القوارب أو السفن الصغيرة. ففي مايو 1814م نزل وليم سكورسبي من سفينة لصيد الحيتان كان على متنها قبالة الساحل الشرقي لجرينلاند، ومشى على قدميه لاستطلاع الميل الأخير للمناورة، والذي كان يأمل أن يكون بداية حريته. وككثير من الرجال الذين صادفوا مثل هذا الموقف أحس سكورسبي بالرعب، فقد كانت الثلوج تتلاعب به بفعل قوتها وأحجامها وعنادها وحركتها وتصلبها. وكما كتب سكورسبي فيما بعد كان الصوت الناجم عن تعديلها لأوضاعها يشبه «صوت الآلات المعقدة، أو صوت الرعد كما نسمعه من بعيد». وخلال محاولاته للعثور على مخرج لفت انتباهه الأسلوب المخادع للثلوج، الأمر الذي جعله ينسى محنته، ويصبح مجرد متفرج سلبي، وعلى حد وصفه كان «كمن يمشي على ظهر حيوان عملاق أسطوري».

ولقد كانت ثلوج البحار أشد خطورة في عهد السفن الخشبية عما هي بالنسبة للسفن المصنوعة من الصلب، والتي لها القدرة على تكسير الثلوج، ولكن يبقى عدم الارتياح للملاحة في

تلك المناطق ملازماً للبحارة جميعاً. ففي القرن التاسع عشر كانت سفن صيد الحيتان رديئة التجهيز، وكان يتعين على بحارتها قضاء شهور متتالية في أسوأ الظروف، وكانوا يتعرضون للعديد من الأخطار. ولكي يتمكنوا من شق طريقهم خلال الثلوج، والوصول إلى المياه المفتوحة فقد استخدموا عدة طرق وأساليب. فعندما تكون الرياح مواتية يمكنهم شق طريقهم باتباع توجيهات المراقب الذي يوجد في أعلى نقطة على سطح السفينة. ولكن السفن في تلك الفترة لم يتوفر لها أجهزة لتغيير الاتجاه، ولا وسائل لتقليل السرعة بشكل فوري، وفي كثير من الأحيان كانوا يلجأون لقطر السفينة بشدها من جانبيها بواسطة القوارب ذات المجاديف، والتي كانوا يستخدمونها في صيد الحيتان، أو جذبها إلى الأمام بواسطة الرافعة (الونش)، أو إنزال قارب وعليه ثلاثة أو أربعة رجال لتهشيم الثلوج حول وأمام مقدمة السفينة.

وفي المناطق التي تكثر بها الكتل الثلجية المتنقلة، يمكن أن تتحطم السفينة، حتى لو كانت ذات حمولة تصل إلى مائتين وخمسين طناً، في دقيقتين أو ثلاث. ولحمايتها في أثناء العواصف في الجبهة الثلجية، أو في أثناء الليل، حيث لا يتمكن البحارة من تبين المياه المفتوحة، فإن البحارة ينشرون أحواضاً مؤقتة في الثلوج وقطع الجليد الطافية، وغالباً ما يفقدون تلك الحماية، الأمر الذي يضطرهم لإعادة الكرة والقيام بجهد شاق، لتقطيع كتل الثلوج وطرحها بعيداً. وعندما تسوء الأحوال الجوية تتحرك الكتل الثلجية وتأخذ أشكالاً غريبة، وترتطم بالثلوج المفككة بشكل متكرر. وفي مثل هذا الموقف تتغير الأمور بين لحظة وأخرى وبشكل مفاجئ تماما فالثلوج التي تكون ساكنة في لحظة ما قد تتحرك في اللحظة التالية، وهذا ما يجعل ضباط السفينة في حالة يقظة مستمرة. ويروي أحد ربابنة السفن واقعة حدثت لسفينته، حينما أمضى سبع عشرة ساعة مروعة، يحاول اجتياز ممر ثلجي قريب من الشاطئ. يقول هذا الربان «وخلال ذلك الوقت كنت أدخن بشراهة، كما لم أفعل في حياتي من قبل، فقد دخنت عشرين سيجاراً، كما أشعلت غليوني عدة مرات، وكنت أحتسي القهوة بمعدل مرة كل ساعة تقريباً. ولا أعلم ما إذا كان نجاحي في اجتياز هذا الممر يرجع إلى تأثير التبغ أو إلى تأثير القهوة. لقد عبرنا دون أن يصيب السفينة أي ضرر». ولقد كان حدوث تلف بالسفن أمراً عادياً، وإن كانت في بعض الأحيان خطيرة. وفي هذا السياق كتب أحد ربابنة السفن يقول: «كان الرجال يسحبون المياه بالمضخات والجرادل، وقد

نجحوا في رفع ما بين سبعة وثمانية أطنان من الماء في الدقيقة الواحدة، ولكن المياه كانت تتدفق بأسرع من قوة إزاحتنا لها». وماذا لو علمنا ان درجة حرارة تلك المياه كانت ثلاثين درجة فهرنهايت؟ كان البحارة يسدون اي شروخ أو فتحات في جسم السفينة بوساطة قطع من قماش الأشرعة والحبال القديمة، وبذلوا كل جهد ممكن لحماية السفينة من تحرك الجبال الثلجية في اتجاه التيارات المائية(*). وأحياناً كانت هذه الحبال تتفكك ويترتب على ذلك غرق السفينة أو تحطمها. وما أن تمر العاصفة وتخلد الثلوج للسكون، حتى يتحرك البحارة بحرية نسبية فيخرجون من أماكن مبيتهم في جدار السفينة، ومع ذلك لا يبرح القلق والخوف نفوسهم إلا بعد انقشاع الهم تماماً.

وإذا اشتدت البرودة – وهذا ما يحدث غالباً قرب نهاية موسم صيد الحيتان – فقد تتحجر الثلوج حول السفينة، وفي غضون ساعات قليلة تكوّن «رصيفاً بلّورياً بعرض السماء، ويكون هذا الرصيف ثابتاً تماماً كما لو كان قد صب من أسمنت». وإذا وقف بحار على سطح السفينة في مثل هذا السكون، فسوف يصل إلى آذانه صوت دقات الساعة التي في جيبه. وهكذا فإن الرجال الذين كانوا على وشك الانهيار من الإجهاد في العمل على المضخات، أو فقدوا شهيّتهم للطعام عندما تقشر الإطار النحاسي لقاع السفينة بفعل الثلوج، يخرجون للتنزه على الثلج، ويصنعون الطائرات الورقية ثم يتبارون في إطلاقها في الهواء، أو يتقاذفون كرة كما لو كانوا في ملعب. وعندما تصبح السفينة محاصرة تماماً، ويحيط بها الخطر من كل جانب، يقوم أفراد طاقمها بحزم أمتعتهم ونقلها إلى سطح السفينة، ثم ينتظرون، وقد يطول الانتظار لعدة أسابيع إلى أن تتحطم العارضة الرئيسية التي تمتد بطول قعر السفينة، أو تغمر المياه عنابرها. ونادراً ما تغرق السفينة بشكل فوري، ومن ثم يكون لدى البحارة متسع من الوقت لمغادرة السفينة والمشي بعيداً عن موضعها، وقد يكونون محظوظين إن وجدوا سفينة أخرى. ففي خريف عام 1777م عثر على أكثر من (350) بحاراً يمشون على الجليد قبالة الساحل الجنوبي الشرقي لجرينلاند، وتمكن نحو (140) منهم من الوصول في النهاية إلى قرى دنمركية على الساحل الغربي، وخلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة كانوا يحصلون على الطعام من السكان المحليين، وهؤلاء كانوا يقومون بإيوائهم أيضاً. أما الباقون فقد هلكوا. وفي

(*) نظراً لان للجبال الثلجية روافد عميقة فإنها تتحرك مع التيار، بينما تتحرك ثلوج البحار بفعل الرياح ومع اتجاهها، ومن ثم فإن بوسع الجبل الثلجي ان يشق لنفسه طريقاً عبر ثلوج البحر المتقدمة، الأمر الذي يوفر الحماية لسفينة تأتي في أعقابه.

عام 1830م تحطم العديد من السفن في خليج ميلفيل (وهو المكان الذي يسميه البحارة « ساحة الدمار ») مما ترتب عليه انحصار نحو ألف شخص بين الثلوج. وحيث إن هولاء أصبحوا – من الناحية القانونية – بعيدين عن إمرة أي قبطان – فقد كانوا يضرمون النار في السفن المحطمة، ويتسكعون وهم سكارى لفترة عدة أسابيع (ومع ذلك لم يفقد رجل واحد في هذه الكارثة). وبعد ذلك بخمس سنوات انحصرت مجموعة من خمس سفن بريطانية في خليج بافن، نظراً لأنها كانت قد خرجت للصيد في وقت متأخر تماماً، ولم يكن لدى بحارة تلك السفن الملابس الملائمة، ولا ما يكفيهم من الطعام طوال الشتاء، ولذا فقد توفي أكثرهم تباعاً من جراء الجوع واليأس، على مدى الشهور الأربعة، التي أمضوها تحت رحمة التيار الكندي، الذي كان يدفع بهم صوب الجنوب. وتحكي سجلات هذه السفن العديد من القصص المأساوية. فعلى سبيل المثال كتب أحد ضباط هذه السفن في الحادي عشر من نوفمبر 1835م يقول: « الطقس أكثر اعتدالاً. أسماك كثيرة تتحرك حول السفينة وكأنها تلعب وتمرح، ومن بينها وحيد القرن والحيتان البيضاء. نحن الآن نتحرك جنوباً في اتجاه رأس سيرل. القمر كان يشاهد طوال اليوم، فهو لا يغيب أبداً. شيء لم تره عيني من قبل ». وفي الثالث عشر من نوفمبر كتب ضابط على متن سفينة أخرى في سجلها يقول: « رياح شديدة مصحوبة بجليد. السفينة تعاني بشدة، ولا يعلم مصيرها إلا الله. العمل شاق ومرهق. الليل طويل جداً، لا أمل لدينا، نطلب الحماية من الله ».

وعندما وصلوا إلى الجبهة الثلجية في فبراير، انفتحت الممرات ثم انفلقت، ثم انفتحت واطبقت عليهم، وفي كل يوم كانوا يصحون على أمل جديد. ثم غرق أحد صيادي الحيتان، وعندما انفرجت الأزمة كان عدد من بقوا على قيد الحياة قليلاً، بل أقل من العدد المطلوب لتجهيز السفن للإقلاع مرة أخرى. وهكذا فقد بدأوا يتحركون من غير وجهة محددة لعدة أيام ومن غير أن يتمكنوا من تحديد موقعهم، وصادف بعضهم صيادون متجهون لعرض البحر فانقذوا بما يشبه المعجزة. وفي النهاية وصلت السفن إلى إنجلترا. وفي العام التالي تكررت المأساة وكان عدد السفن اثنتي عشرة، غرق نصفها. وكانت الخسائر في الأرواح جسيمة، إذ غرق أربعة وأربعون بحاراً من إحدى السفن (من أصل ثمانية وخمسين)، واثنان وأربعون من بحارة سفينة أخرى (من أصل تسعة وأربعين).

وأحياناً كانت المأساة تستغرق وقتاً قصيراً جداً. ففي الساعة الثالثة وثلاثين دقيقة من صباح يوم السادس والعشرين من أبريل عام 1832م ارتطمت سفينة لصيد الحيتان تحمل اسم « شانون »، وتنتمي لميناء هَلّ في إنجلترا – ارتطمت بجبل ثلجي، وتحطمت مقدمة السفينة وميمنتها، وفي دقائق معدودة غمرتها المياه وجرفت ثمانية عشر فرداً. وتعلق الناجون كل منهم بالآخر تحت أحد أشرعة السفينة وعلى جزء منها ظل طافياً بفعل الهواء المنحبس. ومات ثلاثة منهم نظراً لعدم توفر أي طعام أو ماء عذب، والغريب أن سبيلهم للنجاح كان إحداث كل منهم لجرح في جسد الآخر وشرب دمائه باستخدام وعاء أكثر غرابة – الأحذية!! ولما اندفع أحدهم بعيداً للانتحار لمح سفينتين من ذوات الشراعين، وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر مايو، وكان البحارة جميعاً (عدا الربان) قد تجمدوا من الصقيع. وحول نجاة من تبقى من البحارة كتب أحد مؤرخي مصايد الحيتان في المنطقة القطبية الشمالية يقول: « كانت تلك معجزة إلهية، وقد حدث مثلها الكثير من قبل ». وثمة صورة أخيرة للهلاك، وهي بقايا أطقم سفن صيد الحيتان، وقد عثر عليهم في حالة غيبوبة تامة من أثر التجمد خلف حائط من الجثث يحميهم من أمواج البحر العاتية.

واليوم فإن تلك المشاهد المفزعة، وتلك الخسائر في الأرواح بعيدة عنا تماماً، ويرجع الفضل في ذلك إلى دقة تقديراتنا للأحوال العامة في المنطقة القطبية الشمالية، فهذه تتم الآن بوساطة الطائرات، وتتم الاتصالات بشكل مستمر عبر اللاسلكي، أو من خلال أبراج السفن التي تحطم الجليد، وباستخدام البوصلة الدوارة، ونظم الملاحة، وباستخدام الأقمار الصناعية. وكل هذه الأدوات والمعدات تضغط الزمان والمكان، وتزودنا بمعلومات وبيانات دقيقة تمكننا، من تجنب الأخطار، كما تزيد من فهمنا وتقديرنا واستمتاعنا بالأرض وما عليها.

ومع ذلك فإن من النادر أن تجد ملاحاً يجوب البحار الشمالية، ويتجاهل التاريخ الطويل لحركة الإنسان في مياهها، أو لا يتذكر القصص التي تناقلتها الأجيال. والقلة التي تتجاهلها هي التي تعتقد أن الآلات قادرة على دحر التضاريس الوعرة التي يعتبرونها مجرد إزعاج. وبالمثل فإن المحيط المتجمد ذاته لا يزال يمثل تنيناً خطيراً، حتى عندما يكون ساكناً تماماً في فصل الشتاء.

* * * * *

ولقد وصف ماكس دنبر، أحد رواد علم البحار الشمالية، المحيط المتجمد الشمالي بمسحة من الكآبة، فقد أوضح أنه نظراً لضآلة البحوث في مجال الهزات الأرضية، ومغناطيسية قاع ذلك المحيط، ونظراً كذلك لقلة العينات المأخوذة من ذلك القاع، فإن تطور حوض المحيط المتجمد الشمالي لا يزال لغزاً. ونظراً لأن الكثير من مياهه مغطى بالثلوج فإنه لا يزال أقل المحيطات فهماً بالنسبة للإنسان. ويضاف إلى ذلك أن تلك المياه عقيمة بالمقارنة بمياه البحار المجاورة للمنطقة الشمالية القصوى. ولا تعود ضآلة إنتاجية تلك المياه إلى البرودة الشديدة، ولا إلى الافتقار للضوء بقدر ما تعود إلى الثبات الرأسي للمياه. فبدون ارتفاع الأملاح غير المعدنية (الفوسفات والنترات والسليكات) من القاع، لا يمكن أن يكون هناك حياة ثرية في الطبقات العليا، التي تتعرض لضوء الشمس. وفي اعتقاد دنبر أن الافتقار إلى أنواع متوطنة، وضآلة أنواع الغطاء النباتي والحيواني علامات على أن ذلك المحيط لا يزال في مرحلة الشباب، وأنه محيط عقيم أيضاً.

ويقسم علماء البحار المحيط المتجمد الشمالي إلى خمس مناطق، وفقاً لأنواع الحياة القليلة نسبياً في كل منها. ففي أقصى الشمال هناك منطقة الهاوية، التي تغطيها الثلوج دوماً، وهي المنطقة التي لا يتوفر عنها معلومات كافية. وبين تلك المنطقة والسواحل تقع منطقة عالية ضحلة ذات ثلوج منحدرة وتتمتع بفترات من الشمس الساطعة خلال فصل الصيف، وتصاعد الأملاح بقدر معقول. وعلى طول السواحل الأمريكية الشمالية والأوراسية توجد منطقة مياه شبه مالحة، وهذه منطقة درجاتِ حرارةٍ متقلبة وملوحة متغيرة؛ بسبب ما تصبه أنهار المياه العذبة الآتية من الحواف الشمالية للقارتين، علماً بأن المزيد من المياه الناجمة عن ذوبان الثلوج خلال فصل الربيع يتدفق من بحر لينا إلى بحر لا بتيف.

ويلاحظ أن أغلب المحيط المتجمد الشمالي يخلو من برك المد والجزر، ومن ثم من تلك الحياة الثرة التي تترتب على وجود الحشائش والأعشاب الحبرية والقشريات؛ وذلك لأن الثلوج تنظف قاع البحر بالقرب من الشاطئ كل عام. ومع ذلك فإن بعض المناطق تتسم بتجمعات صغيرة للمخلوقات المد جزرية، وهذه تشكل نطاقاً رابعاً هو المنطقة الحيوانية الساحلية. أما المنطقة

الخامسة فهي تلك التي تمتد من المياه الساحلية شبه المالحة والمنطقة الضحلة العليا، وهذه المنطقة الخامسة يسميها علماء البحار السوفيت (وهم أكثر العلماء خبرة في شؤون المحيط المتجمد الشمالي) المنطقة الضحلة السفلية (وهي أساساً عبارة عن رف عريض، هو الرف القاري شمال روسيا، وهو أطول رف بحري في العالم).

والحياة في البحار القطبية تدور حول انتعاش ربيعي لغطاء نباتي، تبدأ به فترة تغذية ناشطة للحيوانات التي تعيش على الأعشاب. ويمتد هذا الحقل الغذائي بفعل الحيوانات آكلة اللحوم، وأنواع مختلفة من القشريات، وعدد صغير من أنواع الأسماك، وبصفة خاصة سمك القد(*). فثلوج البحار تمنع تسعة وتسعين في المئة من ضوء الشمس من النفاذ إلى الطبقات الناشطة من المياه، ولكنها في الوقت نفسه، تعزل المخلوقات الموجودة في النطاق الغذائي عن البرودة الشديدة شتاءً، ومن ثم فقد أثرت الثلوج تأثيراً كبيراً في تطور ونمو هذه المخلوقات. وهكذا فإنه لا يمكن تفسير المحيط المتجمد الشمالي بيئياً، بدون أن نأخذ في الحسبان ثلوج البحر. ولعل هذا هو ما جعل كثيراً من علماء البحار ينظرون إلى ذلك المحيط بحسبانه محيطاً فريداً، وأرضاً تتطلب وجهة نظر خاصة.

والواقع أن الذين وضعوا أسس علم البيئة كانوا علماء، يكاد يقتصر اهتمامهم على بيئات المناطق المعتدلة، ومن ثم فلم يكن للتقلبات العنيفة التي تتسم بها المنطقة القطبية الشمالية مكان في تصوراتهم ومفاهيمهم الأصلية. ويضاف إلى ذلك أن بعض الأحوال، التي تخص النظم البيئية في تلك المنطقة كانت تعامل على أنها معوقات لتطور الحياة. ففي بداية الأمر كان ينظر للثلوج والجليد على أنهما أحوال غير هامة نسبياً في البيئة، وليست كعناصر أساسية في النظام البيئي. وبالتدريج ثبت أن الجليد لا يقل أهمية في تشكيل حياة العديد من الحيوانات عن هطول الأمطار في الفلبين أو ضوء الشمس في الصحراء العربية، فهو يشكل الرصيف المستقر الذي يمكن حيوانات معينة من الوصول إلى أماكن لا يمكن وصولها إليها، بخلاف ذلك في فصل الصيف. كما أن

(*) تكيفت أسماك المنطقة القطبية الشمالية مع ظروفها البيئية غير العادية بعدة طرق، منها أن أفواه سمك القد تنفتح للأمام وإلى أعلى بما يسمح لها بالتغذي على الجانب السفلي للثلوج. ونظراً لضعف الضوء فإن عيون الكائنات القطبية أكبر، ونظراً كذلك لأن الماء البارد أعلى كثافة من الماء الدافئ فإن هذه الكائنات تجيد السباحة بقوة بالمقارنة بمثيلاتها في الجنوب.

الجليد يشكل الحاجز الذي يدفع بالطيور آكلة البذور للهجرة جنوباً في فصل الخريف (وهو بهذا عامل أكثر أهمية من شدة البرودة). ويضاف إلى ذلك أنه يشكل غطاءً لحيوانات القاقوم وغيرها من الحيوانات من فصيلة بنات عرس، والتي تندفع في عمق الجليد بمجرد اقتراب أعدائها، وتقطع مسافات طويلة خلاله من دون الحاجة إلى الخروج منه إلى السطح. وبالمثل فإن الجليد يوفر عزلاً حرارياً لطيور الترمجان التي تغطس فيه في المساء لتحظى بقدر من النوم الآمن، كما يوفر التضاريس التي تخفي الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة عن فرائسها، وفي الوقت نفسه يجعل الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة تتعثر، مما يعطي الفرصة للفرائس ذات الأرجل الطويلة والأقدام العريضة للهروب. وعلى صعيد آخر فإن الجليد يوفر الحماية لحيوانات مثل اللاموس، وهذا حيوان صغير لا يتمكن من تربية شعر طويل يعزله عن البرودة الشديدة. وأخيراً فإن الجليد يولد تأثيرات تشبه تأثيرات الزراعة المحمية لبعض النباتات في فصل الربيع، ويحميها من الرياح المجففة شتاءً، وهو الذي يقرر أن السنجاب الأرضي الذي لا يستطيع الهجرة، لا بد وأن يبيت بياتاً شتوياً، بينما السنجاب الذي يعيش بعيداً عن سطح الأرض يبقى ناشطاً طوال الشتاء.

والشتاء هو الفصل الأمثل لعلماء الحياة الذين يدرسون المنطقة القطبية الشمالية، وبخاصة المهتمون منهم بقضايا التطور. فالجليد بالنسبة لهؤلاء العلماء عنصر لا يقل أهمية عن التربة، فالجليد هو الذي يقطع الطريق على بعض الحيوانات، فيحول بينها وبين موارد غذائها، وهو الذي يتطلب من حيوانات أخرى بذل المزيد من الطاقة، وهو أيضاً الذي يوفر عزلاً حرارياً لمجموعة ثالثة من الحيوانات.

أما الثلج فهو لعالم البيئة شكل متطرف للجليد، يغير في الأرض، ويؤثر في حياة الحيوانات بطرق عميقة بقدر ما هي معقدة. فنوعية وشكل الثلوج عامل هام جداً في تشكيل حياة الثدييات البحرية، بل لا يقل أهمية عن التضاريس وتوفُّرِ غذاءٍ نباتيٍ لحركة الحيوانات البرية. فالفقمات والفظ حيوانات تعتمد على الثلج لكي يحملها بشكل سلبي إلى مناطق أخرى تجد فيها الغذاء، كما أنّ لها رصيفاً ترتاح عليه، وتطرح شعرها، وتلد صغارها. وبالمثل فإن كتل الثلج الطافية تكون جزراً مؤقتة، تجد فيها هذه الحيوانات الأمان من خطر الافتراس. وبحسبان الثلوج امتداداً للأرض، فإنها تكون طريقاً سريعاً في فصل الشتاء تستخدمه الحيوانات المهاجرة مثل ثيران المسك، والرنة،

والدب القطبي، وثعالب المنطقة القطبية الشمالية. ويضاف إلى ذلك أن الجبال الثلجية، والبقايا الكبيرة لسلاسل الكتل الثلجية، التي تستقر في الخلجان الساحلية، تواصل حركتها بفعل المد والجزر طوال الشتاء، وتساعد في فتح مياه كافية، وتمكن قطعاناً من الفظ من الوصول إلى أماكن يتوفر فيها الغذاء حتى حلول فصل الربيع. وفي شهر نوفمبر وبعد أن يتجمد نهر ما تماماً يصبح مسطحه الخالي مرتعاً للدب القطبي خلال فصل الشتاء.

ولعل من أبرز الصلات بين الثلوج والحياة في المنطقة القطبية الشمالية، ما يحدث عند المسطحات المائية المحاطة بالثلوج في الشتاء وفي الربيع، وهذا لغز لا يزال يستعصي على الحل. فهذه المسطحات تتكوّن على طول الساحل (وهنا تكون طويلة وضيقة وقريبة جداً من الشاطئ أو عليه)، كما تتكوّن داخل البحر (وهنا تكون كالبحيرات أو المسطحات الصدعية). فالمياه المفتوحة، والتي تتكوّن في الأماكن ذاتها كل عام توفر ملاذاً لبعض الحيوانات التي تقضي الشتاء بأكمله في مكان واحد، كما أنها تشكل محطات للحيوانات التي تهاجر شمالاً في الربيع. ويلاحظ أن النمط الثابت للمياه المفتوحة كان عاملاً هاماً في تحديد مسارات هجرة العديد من طيور البحر والثدييات البحرية.

والمسطحات المائية المحاطة بالثلوج تخلو من الثلوج الصلبة طوال فصل الشتاء، وذلك بفعل تداخل معقد للقوى: الرياح السائدة، والتيارات، والمد والجزر، وارتفاع المياه من الأسفل إلى الأعلى. وهكذا فإن لهذه المسطحات أهمية خاصة لحيوانات مثل الفظ، والحيتان ذات الذقون، حيث تتخذ منها ملاذاً شتوياً، وبدرجة أقل بالنسبة للحيتان ذات الحلقات، والنراول، والحيتان الصغيرة. وبالمثل فقد تستفيد بعض الطيور البحرية من تلك الأماكن مثل الفلموت الأسود، والبط من أنواع مختلفة، وبعض أنواع النورس، وذلك على الرغم من أن العلماء لا يزالون في حيرة فيما يتعلق بتوفر الغذاء في تلك الأماكن المظلمة الشديدة البرودة.

وتبدو المسطحات المائية المحاطة بالثلوج في أبهى صورها في فصل الربيع حين يزدهر الغطاء النباتي، وهو ما يحدث قبل شهرين من حدوثه في المناطق المجاورة والمغطاة بالثلوج، ويوفر للطيور البحرية المهاجرة بداية طيبة (الفولمر الشمالي، وزمّج الماء وغيرها).

وبالمثل فإن المسطحات توفر مرتعاً غذائياً للنراول، والحيتان الحدباء، والحيتان الصغيرة التي تصل مبكراً.



المناطق التي بها مياه مفتوحة طوال السنة في القطاع الكندي من المنطقة القطبية الشمالية.

والحديث عن المسطحات المائية المحاطة بالثلوج، يذكرنا بالنراول والحيتان الصغيرة التي تقع في مصيدة الساڤسات، والتذبذبات المفاجئة في تشكيل ثلوج البحر العادية، والتي يمكن أن تفاجئ عشرات الآلاف من بشائر الطيور المهاجرة، أو تلك التي تكون في حالة طرح ريشها القديم. ويذكر أنه في ربيع عام 1964م تجمدت نحو مائة ألف بطة (عشر إجمالي تجمع هذا النوع من الطيور في المنطقة) في بحر بوفورت. ومع ذلك فإن الإحساس الحقيقي بالخسارة قد يحجب عنا الخط الفاصل بين الحياة والموت في النظم البيئية الشمالية، وهو حد يؤكده بشدة التكون السنوي لثلوج البحر.

وفي عصر أحد أيام الخريف كان أحد الأصدقاء - وهو عالم متخصص في الطيور - يحصي الطيور المهاجرة بالقرب من خليج ديماركيش على الساحل الشمالي لألاسكا، وفي مكان يحمل اسم بينجوكراليك. ثم شاهدته يتحول لمراقبة حركة ثلاث أو أربع عائلات من طيور السامك ذي الرقبة الحمراء، وهي طيور لا تستطيع المشي على الأرض، وتحتاج لمساحة كبيرة من المياه المفتوحة عند إقلاعها. وفي أوائل شهر سبتمبر (وكانت صغار السامك قد نمت إلى نصف حجم كبارها) ضربت الساحل عواصف جليدية، وفي غضون أيام قليلة تجمدت البرك تماماً. وخرج صديقي من خيمته ذات صباح ليجد سامكاً وكتاكيته تجدف في الثلوج بهمة ونشاط في محاولة للحفاظ على رقعة صغيرة من المياه المفتوحة، بينما كان سامك آخر (الأم أو الأب) يحلق فوقها وفي فمه طعام ويحاول الهبوط دون جدوى (تماماً كما أن السامك الأول كان غير قادر على الإقلاع). وفي اليوم التالي جاء قدر من الدفء مكن الطائر البالغ المحصور على الأرض من الطيران، كما مكن الطائر الحائم في الجو من الهبوط بما يحمله من غذاء للصغار. وبطبيعة الحال كانت هناك عائلات أخرى في الورطة ذاتها، وتصرفت بالأسلوب ذاته. ولكن صاحبي لم يتعرّف مصير الصغار (إذ ربما هجرها الكبار)، فكل ما شاهده هو الطيور البالغة، تروح وتغدو في السماء، ثم تبتعد فتبدو وكأنها نقط سوداء متناثرة، فهذه المخلوقات عنيدة حتى في مواجهة سوء التوقيت. وكم هي ناجحة في محاولاتها للبقاء على قيد الحياة!.

* * * * *

وخلال أجزاء من أحد فصول الصيف أقمت في معسكر تابع للحكومية الكندية (إدارة الرف القاري القطبي) في منطقة تسمى ريزولويت بجزيرة كورنواليس، وهي قاعدة للبحث العلمي الخاص بالمنطقة القطبية الشمالية. وخلال تلك الأسابيع سنحت لي الفرصة للتحدث مع عدد من العلماء - علماء في الآثار، وعلماء في البيولوجيا، وعلماء في الجيولوجيا، وعلماء في الطيور. ولعل أهم ما أذكره عن تلك الأحاديث ما دار بيني وبين عالم جيولوجيا متقاعد يدعى موريس هايكوك، وقد تركز الحوار حول فن الرسم. كان هايكوك هذا في العقد الثامن من العمر (عندما

التقيت به)، وكان خبيراً جيولوجياً ناجحاً عمل لدى الحكومة الكندية، كما كان عازفاً للنفير الفرنسي في أوركسترا أوتوا السيمفوني، وسافر كثيراً في صحبة رسام المناظر الطبيعية الكندي أ. ي. جاكسون، وكان كلاهما يمارس الرسم في المناطق الشمالية الغربية خلال رحلاتهما الجيولوجية الميدانية.

وفي عصر أحد الأيام سرت أنا وهايكوك نحو حافة مضيق بارو لنلقي نظرة على طيف جزيرة سومرست البعيدة وقد ظهر على شكل سراب غريب فوق الأفق. ولقد قمنا كذلك بفحص موقع لحضارة الثولي، وظل صاحبي يروي لي قصصاً حول خبراته في المنطقة القطبية الشمالية خلال حقبة العشرينيات؛ أي عندما كانت الزحافات هي وسيلة الانتقال الوحيدة. ووصف واقعة معينة بالتفصيل حين كان ينتقل بسهولة وسلاسة عبر الثلوج الساحلية في جو الربيع الرائع، ميلاً بعد ميل، وسرقه الوقت، وأحس بعزلة مريحة للأعصاب مكنت عقله العلمي من حل مشكلة تلو مشكلة. كان يتحدث إليَّ بنغمة تشبه تلك التي يتحدث بها من وقعوا في الحب. كان شخصاً رائعاً حقاً، رجل يقترب من نهاية حياة ثرية مفعمة بلحظات صادقة.

وفي ذلك المساء الذي أتحدث عنه كنت جالساً في غرفته بالمعسكر، وكان يرقد على سريره واضعاً إحدى يديه على جبهته، وممسكاً باليد الأخرى بعدة (فرش) للرسم بقصد مسح عناء اليوم، وكان يحاول أن يجد الكلمات التي يعبر بها عن إعجابه بالأرض التي حوله. وتذكر فيما تذكر يوم قام برسم لوحة في منطقة جراند كانيون، والمتاعب التي صادفها في رسم الهواء، ذلك الفضاء الذي يفصل بين الحافة الجنوبية حيث كان يقف، والحافة الشمالية القصوى. كان يحاول التحدث عن صعوبة رسم الهواء، وقال إنه يحب الرسم هنا في جزيرة كورنواليس حيث حقول الطين القاسي المشتمل على حجارة وحصى وغيرها من مخلفات الأنهار الجليدية، وحيث يقل وجود نباتات، وذلك لأنه يعشق المعاني الدفينة. وكانت (فرش) الرسم تصطك من جراء احتكاك بعضها ببعض بحركة رشيقة من يده. وظل يفكر في صمت لبعض الوقت، ثم قال: «إن ظلال الأرض هنا أخف من ظلال السماء عند منتصف النهار».

وبينما أنا أصغي لصديقي كانت شمس الأصيل تخترق زجاج الشباك الذي بجانبي، ومنه إلى جانب رأسي. كانت الغرفة جيدة التهوية والإضاءة الطبيعية، وتشبه غرفة نوم صيفية فارغة في

واحدة من لوحات الفنان إدوارد هوبر. ولفت نظري لمعان عينيه وهو يجول في غابات ذكرياته وبجواره لوحة كان قد فرغ من رسمها ذلك الصباح. وبدأ يجتر ذكرياته حينما أمضى أياماً مع الرسام جاكسون في التندرة بالقرب من بحيرة جريت سليف. وكان جاكسون هذا واحداً من «مجموعة السبعة» التي ضمت سبع رسامين اشتهروا بأسلوبهم الكندي الأصيل في الرسم، وذاع صيتهم خلال العقد الأول من القرن العشرين. وتحدث هايكوك طويلاً عن دوافع الرسم بذلك الأسلوب، وقال فيما قال إنه «يمثل محادثة مع الأرض».

وسرقنا الوقت، ثم قام بغسل (فرشه) بينما عدت أنا إلى غرفتي، ورقدت على سريري أفكر فيما سمعت، وقلت لنفسي إنني لو كان قد قُدِّرَ لي أن أكون رساماً، لكان أشد ما أثر في هو نوعية الضوء في تلك المنطقة. فعلى مدى الأربع والعشرين ساعة هناك توازن غريب بين الألوان العديدة، ولك أن تختار منها ما تشاء: الخطوط الكاسحة المتموجة للصحاري البيضاء في ظل سماوات البراري، والهواء النقي، والثلوج والمياه التي تدفع بالضوء إلى الأعلى في اتجاه المنحدرات والأماكن الأخرى ذات الظلال، ثم مرة أخرى في كبد السماء حيث يملأ الجو. وفي ساعات معينة من اليوم تكتسي الأرض بلمعان الجواهر المصقولة.

ولعل مما يؤسف له، أن هذا الجمال الواضح الأخاذ، قد غاب عن فن رسم المناظر الطبيعية لتلك المنطقة خلال القرن التاسع عشر في أوروبا؛ حيث كان التركيز على حملات الاستكشاف البريطانية، فجاء الموضوع واحداً – أمة باركها الله، وتخوض صراعاً مع عناصر الأرض الغادرة – وهكذا فقد كانت اللوحات التي رسمت للمنطقة القطبية الشمالية في تلك الفترة، تمثل مكاناً يقع خارج نطاق الحضارة، ووحشاً يفترس الفضيلة والنشاط. ومن بين أشهر تلك اللوحات واحدة رسمها كاسبار ديفيد في عام 1824م وأسماها «البحر القطبي» وفيها يصور سفينة للاستكشافات، وقد مالت على أحد أجنابها وسط كتل ثلجية كبيرة طافية، وأخرى رسمها وليام برادفورد في عام 1871م وأسماها «صيف قطبي شمالي» وفيها يصور سفينة ذات ثلاث صوارٍ في الأفق البعيد، وتغوص في بحر من الضوء، وتبدو وكأنها تتقدم في اتجاه ثلوج تطغى عليها السحب، وقد استقر عليها قطعة من صاري سفينة أخرى على هيئة صليب، وثالثة رسمها إدوين لاندسير وأسماها «العبد في التفكير والرب في التدبير» وفيها يصور دبين قطبيين يعبثان بحطام سفينة تحطمت على الثلوج.

أما في أمريكا فقد كان الموقف أفضل كثيراً، وإن كانت المدرسة النورانية (فن الرسم الذي يعنى بتصوير أثر الضوء في الأشياء الملونة) لم تذهب لما هو أبعد من حواف المنطقة القطبية الشمالية. فلقد سعى الرسامون وراء الضوء المريح، وهذا قد وجدوه على طول ساحل نيو إنجلاند في أماكن؛ مثل: بروفنستاون، وماساشوستس. وقد أطلق عليه الناقد الغني جون راسل «الضوء الشافي» في إشارة إلى الحالة النفسية للأمة في أعقاب الحرب الأهلية. وتقفز هذه الرسومات دائماً إلى ذهني؛ لأن الضوء فيها ضوء معتاد في المنطقة القطبية الشمالية، وكنت خلال تنقلي من وإلى ريزولويت - خاصة في ساعات المساء وحتى نحو منتصف الليل - أشاهد مناظر تذكرني بقوة بأعمال رسامين نورانيين مثل فيتز هيو لين. ففي مساء أحد الأيام التي قضيتها في رأس ڤيرا في جزيرة ديڤون لاحظت أن المياه في جونز ساوند تكاد تكون سوداء وتشبه لون خليط معدني من نحاس ورصاص ونيكل، وكأنها أرض قد أحرقتها حرارة الشمس، وكان لون الجبال الثلجية الطافية أبيض ناصعاً، ولم أستطع تركيز عينيّ على سطوحها. وفي مناسبة أخرى، وقبالة الساحل الغربي لجزيرة إليف رينجينس بدا الهواء - وليس الشمس - مصدر الضوء المسطح الخافت، والذي مكنني من رؤية خطوط طويلة فحسب: شاطئ عارٍ يلتقي بالماء الداكن، والماء الداكن بزرقة السماء. وفي مناسبة ثالثة، وفي الساعة الثانية من الصباح شاهدت في جزيرة بانكس قطيعاً من ثيران المسك يتحرك عبر منحدر ضحل من الحشائش الخضراء تحت ضوء شديد، وتحت هواء نقي نظيف وكأنه قد غسل لتوه بوساطة أمطار الصيف، وقد اكتست الأرض بنباتات متفرقة (عشبة القمل ذات القمم المدببة واللون الأرجواني، وحشيشة المبارك البيضاء). وكما هو الحال بالنسبة للوحات نيو إنجلاند فإن «كل ما يشاهده المرء يوحي بالبركة الشاملة».

وفي ذلك المساء الذي تحدثت فيه مع صديقي هايكوك تصفحت ما لدي من أدبيات حول الضوء، ووقع بصري على عبارات كان قد دونها سجين، وهو يتذكر الحياة في محبسه الانفرادي. فقد ذكر أن الضوء الوحيد الذي كانت له به خبرة كان تلك اللحظات التي يغمض فيها عينيه تماماً، فالضوء الذي كان يأتيه في الظلام كان «كالوجود وسط الأحبار»، أو «الألعاب النارية». ويضيف السجين قائلاً: «كانت عيناي تتوقان للضوء والألوان...». فإذا نظرت إلى فن الرسم الغربي - ناهيك عن أعمال النورانيين - فسوف يراودك الشعور ذاته. وفي اعتقادي أن الحضارة

الغربية تتوق إلى النور بمثل ما تتوق إلى البركة، أو إلى السلام، أو إلى الله.

وفي تلك الليلة أيضاً - وفي المبنى الذي لا يسكن فيه إلا العلماء (حتى تكون الخلفية علمية بحتة) دار بخلدي مدى اتساع مجال البحث العلمي، ورغبة البشر في زيادة وإثراء معارفهم وخبراتهم، فنحن في الواقع لا نكتفي بما تكشف عنه البحوث والدراسات العلمية، ونسعى لتعرّف كل ما هو جميل ومنير في الأماكن البعيدة عنا. فإذا نظرنا إلى المعسكر الحكومي في كورنواليس من زاوية تقاليد الرّحّالة الذين يجوبون العالم أو مناطق نائية عنه، ومجالات اهتماماتهم، ومدى رغبة مواطنيهم في المعرفة فإنه (أى المعسكر) يبدو مكاناً غير ملائم البتّة، فليس فيه أي إمكانات للرسم أو العزف أو كتابة القصص. ولم يكن به أيضاً مؤرخون. وليس الأمر بمختلف عما هو سائد في مئة أو نحو ذلك من المعسكرات المشابهة في أماكن نائية حول العالم. فكلّما سعينا للسيطرة على أماكن جديدة تماماً بالنسبة لنا، لا نملكها، بل لا نفهمها، فإن جُلّ اهتمامنا ينصب على الجوانب العلمية البحتة، ومن ثم فإن تقويمنا لها لا يكون كاملاً أو نهائياً أو كافياً، مهما كانت درجة عمقه ودقته. فللأرض - أي أرض - شخصية مستقلة أعمق وأعقد من كشف كل سماتها، ومن ثم يصبح التزامنا نحوها بسيطاً: الاقتراب بعقل لا يعرف الحساب، ومحاولة تعرّف عناصرها المتنوعة: الطقس والألوان والحيوانات. وفوق هذا كله أن يكون لدينا النية - منذ البداية - للمحافظة على بعض أسرارها كنوع من الحكمة، نستفيد منها من دون أن نناقشها، وأن نترقب تلك اللحظات التي يكشف فيها شيء مقدس عن نفسه، وعندئذ سوف تتبين أن الأرض تعرف أنك هناك.

* * * * *

ولأول وهلة، تبدو المنطقة القطبية الشمالية عديمة الألوان باستثناء أسابيع قليلة في فصل الخريف. فألوان أرضها هي ألوان الصحاري، ألوان الترسينا (وهذه مادة ترابية مشتملة على الحديد، وذات لون بني)، والأخضر المائل للرمادي لحياة نباتية متفرقة على تربة عارية. وبالفحص عن قرب وبدقة يتضح لك أن الصخور في الصحراء القطبية تنطوي على خليط من الألوان:

الأخضر، والأحمر، والأصفر، والبرتقالي (ألوان لنباتات مختلفة)، والأبيض (الذي يتمثل في بجع التندرة والثلوج عندما يقع عليها ضوء الشمس وهي جاثمة على المياه السوداء) وكلها ألوان نقية وزاهية. وأحياناً تزداد الألوان زهواً بظهور الزهور البرية صيفاً، أو نمو أشجار عنب الدُّب على جوانب التلال في الخريف، أو لمعان بقعة من الزيت النباتي ذات الألوان المتقزحة على برك التندرة، أو الوجه اللامع للبط. لكن الألوان الزاهية غالباً ما تكون مجرد نقط في الفصل من السنة الذي تظهر فيه، فهي ليست لوحات دائمة أو حتى موسمية، كما أنها عادة ما تذوب في تضاريس الأرض الباهتة.

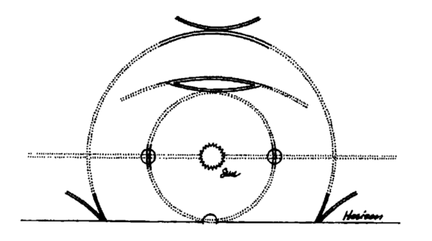
ولعل الألوان الجذابة في المنطقة القطبية الشمالية هي تلك التي تراها في السماء، خاصة عند مطلع الفجر، وقبل غروب الشمس. فالألوان السائدة عند الفجر هي الأخضر الشاحب والوردي الفاتح. وأذكر أنني لاحظت ذات يوم وجود هذه الألوان ذاتها على قرن لحيوان رنّة ملقى على أرض التندرة، وهو عادة ذو لون أبيض. ومثل هذا التوافق هو الذي يجمع عناصر الأرض في مجموعة مترابطة، ومن أمثلته أيضاً تشابه لون طيور الفلموت، عندما تحط على الأرض مع لون الأسكيمو، وهم يتحركون في قواربهم الطويلة (الكاياك).

وفي الشتاء تحتفظ سماء المنطقة القطبية الشمالية بألوان الفجر والغروب لعدة ساعات كل يوم. وفي الأيام التي تكون فيها السماء الجنوبية مضيئة لفترة حول منتصف النهار، فقد تمتد طبقات من اللون البنفسجي العميق، والأرجواني الداكن، والأزرق المكثف عبر ثمانين درجة من الأفق فوق اللون الأرجواني المعتاد، والخط الرفيع من اللون الذهبي الأصفر. وفي الأيام الأولى من فصل الربيع تتوهج السماء عند الفجر وعند الغروب بلون قرمزي، يتضاءل تدريجياً، ليصبح أصفر ثم برتقالياً، على حد وصف طبيب بحري بريطاني في مذكراته « الشتوية ». أما في الربيع والخريف، حيث يتباعد الفجر كثيراً عن الغروب فتظهر ألوان كثيرة منها الأحمر الزاهي، والبرتقالي، والأصفر، ويتخللها بقع من اللون الوردي، ولون السلمون، والأزرق الباهت، والمشمشي، والأزرق ، تماما كما يحدث عند خطوط عرض أخرى. وأما في الصيف فتكتسب السماء صفة لؤلؤية تشبه لون صدفة أذن البحر (وهو من الرخويات)، وتكون ألوانها مثل ألوان الباستيل، وإن تباينت درجة حرارة الضوء بحيث يظهر في منتصف الليل ألوان صفراء تتضاءل سريعاً ويغلب اللون الأزرق.

والظاهرة التي تلفت نظر من يزور المنطقة القطبية الشمالية للمرة الأولى هي التشكيلة الواضحة للحلقات الشمسية والقمرية، والهالات الضوئية، والفجر الشمالي ذاته، والسراب الذي يشاهد في البحر. وهي واضحة بصفة خاصة في الشمال الأقصى. ويرجع ذلك لعدة أسباب، أولها أن أنواع البلورات الثلجية التي تسبب انكسار ضوء الشمس والقمر غالباً، ما توجد في المنطقة، وثانيها أن الهواء ذاته نقي، وإنه لشيء عادي أن تجد انحرافات بسيطة في الطبقات السفلى من الغلاف الجوي، واختلافات كبيرة في درجات الحرارة على سطح المحيط صيفاً، وهو ما يسبب ظاهرة السراب. ويضاف إلى ذلك أن المنطقة القطبية الشمالية تقع مباشرة تحت ذلك الجزء من الغلاف الجوي للأرض، الذي يجعل الفجر والأضواء الشمالية منظورة.

وكان وليام باري قد رسم خلال وجوده في مقره الشتوي بجزيرة ميلفيل في عام 1819 - 1820م، رسم صورة للهالات الشمسية، وأشباه (كلاب) الشمس، ونالت هذه الصورة شهرة كبيرة، ففي لوحة واحدة استطاع أن يجمع التأثيرات التي تشاهد في المنطقة القطبية الشمالية، إما فرادى أو في تشكيل أو آخر. ففي ذلك الوقت كانت الشمس عند نحو اثنتين وعشرين درجة فوق الأفق الجنوبي الشرقي، وكانت محاطة بهالة قيست بأربع وأربعين درجة عبر الأفق، وأخرى باثنتين وتسعين درجة، وإن كان جزءٌ منها قد قطع بواسطة خط الأرض (وهذه تسمى وفقاً لدرجة محيطها) أي الهالات الشمسية عند اثنتين وعشرين درجة، وست وأربعين درجة على الترتيب. ويقابل كلا من هاتين الهالتين أقواس أخرى، بينما هالة ثالثة تعبر الشمس، وتتحرك شرقاً وغرباً بمحاذاة الأفق، وعندما تعبر الهالة التي عند اثنتين وعشرين درجة يظهر كلبان شمسيان بوضوح، وسطع ثالث تحت الشمس وعند خط الأفق تماماً.

ويمكن للفيزيائيين تفسير هذه الصورة بسهولة على أساس ميكانيكا الأشعة، فهي تعبر عن انثناء دقيق لضوء الشمس خلال أنواع معينة من البلورات الثلجية المتجمعة بطريقة معينة. وبالفعل فقد قام عالم فيزياء يدعى روبرت جرينلر بإعادة إنتاج عناصر الصورة التي رسمها باري وبشكل تام وصحيح تقريباً باستخدام الحاسب الآلي، وباستخدام المعادلات الملائمة، وكان ذلك تأكيداً على دقة واكتمال صورة باري.



الصورة التي رسمها وليم باري للهالات والأقواس الشمسية.

وفي يوم من أيام شهر ديسمبر عام 1857م لاحظ مستكشف بريطاني يدعى فرانسيس ماكلينتوك شيئاً غريباً حول القمر « حيث أحاطت به هالة كاملة يمر خلالها حزمة أفقية من ضوء باهت طوقت السماء بأكملها، وفوق القمر ظهرت أجزاء من هالتين أخريين، وظهرت أيضاً أقمار كاذبة يقدر عددها بستة. ولقد ساعد الضباب على إضفاء شكل مروع لهذا المنظر الفريد الذي استمر قرابة ساعة.

والواقع أن فيزياء انعكاس ضوء الشمس وانكساره بوساطة بلّورات الثلج وقطرات الماء، وانتشاره بوساطة الجسيمات التي يحملها الهواء، أمر بالغ التعقيد، فالهالات والأقواس التي تنتج، تكون باهتة أحياناً، كما أنها تحدث في تجمعات لا يمكن توقعها، ومن ثم فإن مشاهدتها تدريب على إمعان النظر. وأذكر أنه في يوم واحد من أيام الربيع في لانكستر ساوند شاهدت عموداً كامداً (غير نافذ للضوء) يشبه ريشة من ذيل طائر الجاثم ويقف بين الشمس والأفق الجنوبي الشرقي (عمود الشمس)، وفي اليوم نفسه، وبعد دقائق قليلة من منتصف الليل، شاهدت درعين كل منهما على هيئة قوس قزح كبير تقفان على الأفق عند جانبين متقابلين من الشمس، وكان ذلك زوجاً غير عادي من كلاب الشمس(*).

(*) وفي إحدى الفترات اعتدت على النظر إلى الجزء الفارغ من سماء المنطقة القطبية الشمالية المواجه للشمس، وإلى أجزاء من السماء الممتدة لاكثر من ستين درجة، وبدات اشاهد اصل تقزح هالة الشمس وهالة القمر في السحب، على سبيل المثال، او في سحب الليل في المساء المتاخر في الجزء الاعلى من الغلاف الجوي. ولعل اجمل ما شهدت من هالات واقواس شمسية كان في سماء لوس انجلوس شتاءً، وفي البداية كنت اظنها مجرد ذيول لدخان انبعث من طائرة نفاثة، حتى إنني لم اكلف نفسي مجرد النظر إليها.

* * * * *

فالفجر الشمالي، ولعاب الشمس (غشاء يشبه نسيج العنكبوت ويطفو في الهواء عندما يصفو الجو) الذي يشكل ستارة من الضوء، تبدو متموجة عبر سماوات المنطقة القطبية الشمالية ظواهر تأخذ بالألباب. وفي هذا السياق كتب المكتشف البريطاني روبرت سكوت يقول: «ومن المستحيل أن تشاهد مثل هذه الظاهرة الجميلة من دون أن يخالجك إحساس الرهبة، ومصدر ذلك الإحساس ليس مجرد جمال تلك الظواهر، بل ما تنطوي عليه من تناسق الألوان، والضوء، والشفافية، والشكل المرتجف السريع الزوال. فليس هناك بريق يخطف بالأبصار - كما كان الوصف على الدوام - بل هناك إيحاءات روحانية تطلق العنان للخيال».

ولا نجد في أدبيات الاستكشاف كتابات متفقة (بالمعنى الكامل للاتفاق) حول تلك الظواهر، فكل من حاول تناولها يقر بداية بعجزه عن التعبير الجيد والكافي عنها، كما يؤكد الطابع الروحاني الذي يسودها. ولقد دأب الأسكيمو على وصف الأحداث التي تسبق، أو تلي الحياة على الأرض، وحركة الأجنّة في بطون الأمهات، أو المشاعل التي يحملها الموتى لمساعدة الأحياء على الصيد في الشتاء.

وفي خطوط العرض جنوب النصف الشمالي من الكرة الأرضية، حيث يشاهد بزوغ الفجر أحياناً، فإن المعاني والإيحاءات المتضمنة مختلفة تماماً، ويرجع ذلك أساساً إلى لونه السائد عندما يظهر، وهو اللون الأحمر الداكن، وهو لون كان يوحي بحريق هائل أو محرقة في العصور الوسطى. ولقد ظنه الڤايكنج انعكاساً لكير فُلْكَان (إله النار) في السماء، كما اعتبره عمال المناجم في الاسكا (بحكم خلفيتهم العلمية وطبيعتهم العملية) ضوءاً في حالة غازية، أو مجرد وهج منبعث من مناجم الراديوم.

ولقد شاهدت تلك الأضواء الشمالية لأول مرة عندما كنت على متن طائرة في رحلة متجهة من سيتيل إلى أنكوراج (ألاسكا)، وكانت الطائرة وقتها تحلق فوق جبال رانجيل. وكانت ليلة صافية، وفي البداية ظننتها مجرد سحابة ممتدة فوق الجبال وقد سقط عليها ضوء القمر، وهذا منظر مألوف، لكنني شاهدتها تتحرك، فأمعنت النظر، فشاهدت عموداً طويلاً من ضوء خافت، ينتشر في

حركات عرضية فوق الجبال ذوات اللون الأبيض الجليدي، وظللت أتابع تلك الحركات حتى ابتعدت الطائرة تماماً عن تلك المنطقة.

ونادراً ما يقترب منظر بزوغ الفجر من سطح الأرض بأكثر من مائة ميل، ولكن العين ترى جدار الضوء الرقيق، وكأنه يلامس الأرض، ويرجع ذلك إلى مشكلة تتعلق بإدراك العمق بالنسبة لأشياء في الفضاء مجهولة الحجم. ومما يزيد الوصف الدقيق، صعوبة الحجم الكبير للظاهرة وحركتها. فجدار الضوء غالباً ما يبلغ طوله عدة مئات من الأميال، وارتفاعه مائة وخمسين ميلاً أو يزيد. وبزيادة النشاط الفجري تبدأ ستارة الضوء في التموج في اتجاه أفقي، وتلتف حول نفسها في منحنيات كبيرة على شكل حرف إس (S)، ثم تتحرك بشكل عرضي مرة أخرى.

وهناك مشاكل إضافية ترتبط بالمنظور والمقياس. فبالنسبة لشخص يقف تحت المنظر (حيث تكون قمة جدار الضوء مائلة في اتجاه الجنوب) فإن بزوغ الفجر قد يبدو وكأنه نقطة لالتقاء الأشعة قبل انحرافها إلى أعلى قمة. أما بالنسبة لمن ينظر إلى الجدار من حافته (أي من تحت الحافة السفلية مباشرة) فقد يبدو بزوغ الفجر، وكأنه دخان مضيئ يرتفع من الأرض. ومن البعد قد يبدو وكأنه ستارة حريرية لا وزن لها، وتتدلى إلى الأسفل مباشرة، وتتموج في هواء الليل.

ويحدث بزوغ الفجر في حيز رقيق يسمى إهليلج بزوغ الفجر، ويتمركز على القطب المغناطيسي الشمالي، ويجيء من خلال تفريغ شحنة كهربية في الجزء المؤين من جوّ الأرض (والذي يبدأ عند ارتفاع خمسة وعشرين ميلاً تقريبا)، ويظهر لنا لأن بعضا من الطاقة المنطلقة ضوء ظاهر، والألوان التي نراها – بصفة عامة – هي الأخضر الشاحب، والوردي الفاتح، وهذه عبارة عن ضوء منطلق من ذرات الأكسجين. وخلال ذروة البزوغ تطلق جزيئات النيتروجين ضوءاً قرمزي اللون، وعادة لا يظهر إلا عند الحافة السفلي للستارة الفجرية.

والآن تخيل أنك تنظر من جهة الشمس، وأنك تواجه الأرض. فعلى أقصى يسارك، وعلى سطح الأرض تجد ظلال الفجر المتعامدة، وأمامك ضوء القمر الساطع. وعلى أقصى اليمين تجد الحد الفاصل بين المساء والليل. وينطلق من الشمس غاز ذو جسيمات مؤينة أو مشحونة، معظمها نُويّات الهليوم والأيدروجين، ويسمى الرياح الشمسية، وتمر هذه الجسيمات حول الأرض كما لو كانت صخرة في مجرى مائي، وهي إذ تفعل ذلك تسطح المجال المغناطيسي للأرض على الجانب

القريب (النهار)، وتطيله على الجانب البعيد (الليل). وفي أثناء تدفق الرياح الشمسية مروراً بالأرض فإنها تولد تياراً كهربياً، يتجه من اليسار إلى اليمين، ويكون مسار الجسيمات الشمسية، الذي يلقى أقل مقاومة، ويحمل التيار بمحاذاة خطوط القوة في المجال المغناطيسي للأرض، وهذا ينحني للأسفل نحو سطح الأرض في المناطق القطبية (مثل كوة التفاحة حيث توجد الساق)، وينتج بزوغ الفجر من الجسيمات التي تنهال على المناطق القطبية من طرف إيجابي على اليسار، وعندما تطفو للأعلى وللخارج نحو طرف سلبي على اليمين، فإنها تشكل ظاهرة منفصلة وغير مرئية، هي الرياح القطبية.

وعندما يتدفق تيار الجسيمات في اتجاه الأرض نحو سطح المجال المغناطيسي عند القطب (وهو على شكل قمع أو مدخنة) فإنه يثير الإلكترون في ذرات الأكسجين وجزيئات النيتروجين، وهذه تطلق طاقة (أشعة سينية أو أشعة إكس، وأشعة تحت الحمراء، وضوء فوق البنفسجي، وموجات لاسلكية، وضوء ظاهر) عندما تعود إلى حالة الثبات.

ولعل جدار الضوء الساكن الذي نراه منحنياً بحذاء قوس يمتد من الشرق إلى الغرب، هو أخف وأهدأ مظاهر بزوغ الفجر. فكلما ازدادات الجسيمات التي تنطلق من الشمس حيوية، ازداد تغلغلها في الجزء المؤين من جو الأرض، وازداد جدار الضوء طولاً. وتحت تأثير التباين في شدة المجال الكهربي، الذي ينتج عن الرياح الشمسية، والمجال المغناطيسي لتلك الرياح ذاتها، فإنه تظهر بالجدار سلسلة من التموجات الدقيقة، والثنيات المتعامدة عند امتداده من الشرق إلى الغرب. كما يندفع في عدة اتجاهات، وينحطم إلى رقع. وهذه التغيرات في المجالي الكهربي والمغناطيسي تؤدي إلى تغيرات في اللون والحركة على الترتيب، وتنتج أصلاً عن عواصف مغناطيسية على الشمس. وتحدث غالبية العواصف المغناطيسية هذه في دورات، مدة كل منها أحد عشر شهراً، وترتبط بالمشاعل الشمسية في المناطق المجاورة للبقع الشمسية، وأيضاً فيما يسمى بالهالات الشمسية الإكليلية. أما العواصف الثلجية الأقل شدة – وهي الأكثر شيوعاً – فإنها تفرز سلسلة من الأحداث الفجرية يرى فيها الناظرون للمنطقة القطبية الشمالية نموذجاً لليالي الشتاء القطبية. ففي البداية يحدث لمعان يتحول تدريجياً إلى ستارة فجرية شفافة، وهذه تبدأ في تكوين ثنيّات عميقة، ثم يتحول المنظر بكامله صوب الشمال وبشكل مطرد، وقرب الفجر يتفتت إلى بقع نورانية منعزلة

تشبه السحب.

والطاقة التي تتولّد هكذا مذهلة – تريليون وات وتيار شدته مليون أمبير – ويلاحظ أن العواصف الشمسية القوية تؤثر على البوصلات المغناطيسية، وتشوش على الاتصالات اللاسلكية وبعض النظم الملاحية، ويترتب عليها تيارات كهربية محاثة في الموصلات الطويلة مثل خط الأنابيب الذي يخترق ألاسكا.

ويزعم كثير من الناس أن بزوغ الفجر يكون مصحوباً بصوت: «حفيف مكتوم، أو صفير أو فرقعة، كتلك التي تصدر عن راية كبيرة في مهب الريح» على حد وصف المستكشف صمويل هيرن. ويقول بعض الأسكيمو إن «الأضواء تستجيب لهمسة رقيقة تجعلها تقترب أكثر وأكثر»، وهكذا، فإن الصوت والصورة معاً يفرضان إحساساً بالرهبة والرقة معاً، ويعطيان السماء بعداً ثالثاً وعلى نطاق واسع وبهذا الشكل الرائع، الأمر الذي يطلق العنان لشفقة الإنسان على نفسه.

وإني لأتذكر يوم كنت مسافراً بالطائرة من خليج برودهو إلى فيربانكس في ليلة من ليالي الشتاء، وكانت السماء صافية، وكان الفجر الشمالي قوياً، وتحت ضوء القمر القادم من الجنوب، بدت الأرض من تحتنا واضحة، وقد غطتها الثلوج، وظهرت ظلال تضاريسها واضحة كذلك، بما في ذلك الخط الفاصل بين التندرة التي اكتست بالجليد والكتل الثلجية. ولقد امتدت ستارة الفجر غرباً (وفقاً للزاوية التي كنت أنظر منها) نحو قرية وينرايت وبحر تشوكشي. كانت الستارة في مرحلتها الأولى والساكنة على هيئة أشعة شفافة، وكأنها لسان طويل من نار شاحبة، وتمكنت من رؤية سلسلة جبال بروكس وسهل منحدر الشمال. وهنا تذكرت الأيام التي قضيتها في معسكرات بالجبال، والسفر عبر التندرة، والأوقات التي أمضيتها في معسكرات على ساحل المحيط المتجمد الشمالي غربي برودهو. ومن الطائرة شاهدت تلك الأماكن بوضوح، ولكن بزوغ الفجر جعل من تلك الذكريات واقعاً متجدداً.

ولا يعلم أحد ما إذا كان الأوروبيون الأوائل قد عرفوا الطريق إلى أيسلندا، ومن ثم إلى جرينلاند وأمريكا الشمالية، بالمصادفة أو بالتخطيط. ومن الأفكار المعقولة أن أيسلندا أحياناً تبدو للمقيمين في جزر فارو وكأنها سراب، مثل ذلك الذي شاهدته عند جزيرة سومرست ذلك اليوم. والسراب يحدث عادةً عندما تهب كتلة من هواء دافئ على سطح ماء بارد، ومن ثم تنثني الأشعة الضوئية أو

تنكسر مرتدة إلى الأرض في سلسلة من الخطوات الصغيرة، وهي تمر خلال طبقات الهواء عند درجات حرارة مختلفة (وفي ظل ظروف غير هذه لا تنثني الأشعة الضوئية وتواصل اختراقها لطبقات الجو في خط مستقيم).

ويقسم السراب عادة إلى فئتين : السراب الأعظم، والسراب الأدنى. ففي السراب الأعظم (مثل سراب سومرست) تكون الصورة التي تراها العين صورة غير حقيقية للشيء الحقيقي، أما في السراب الأدنى، فإن الصورة غير الحقيقية تظهر أسفل الشيء. ويشاهد السراب من النوع الأول في بحار المنطقة القطبية الشمالية خلال فصل الصيف، وبصفة خاصة في فترة المساء من الأيام الصافية، وفيه تظهر الجزر والسفن والخطوط الساحلية، والجبال الثلجية البعيدة، والتي تقع خلف الأفق الحقيقي – تظهر وكأنها أقرب مما هي عليه فعلاً، بل ويظهر البحر ذاته وقد تقعر قليلاً، كما يبدو الأفق بعيداً على غير المعتاد.

ويحدث السراب الأعظم عندما تمر الموجات الضوئية من الهواء الأكثر كثافة (أو الأكثر برودة) في الطبقة السفلى من الغلاف الجوي، وتدخل في هواء أقل كثافة (أو أكثر دفئاً)، وتكون المسافة متساوية بين طبقة وأخرى من الهواء الدافئ، وهذه تقوم بدور العدسات في النظارات الطبية، فكل منها أقل تقويماً من الآخر. وعندما يمر شعاع من الضوء خلالها جميعاً فإنه ينثني للخلف في اتجاه الأرض في شكل قوس، ومن ثم يرى الناظر صورة واضحة واحدة للشيء الحقيقي. أما إذا كانت العدسات مرتبة، بحيث تأتي عدسة أكثر تقويماً بين عدستين أقل تقويماً، فشعاع الضوء يرتد إلى نفسه، وإذا حدث ذلك بقدر كافٍ (بسبب حدوث انقلاب قوي في درجة الحرارة في طبقة الجو السفلى – على سبيل المثال –) فسوف يرى الناظر (إلى جانب الصورة الأولية) صورة ثانية مقلوبة فوقها. ويترتب على سلسلة أخرى من العدسات التقويمية، صورة ثالثة فوق الجانب الأيمن من الصورة الثانية، وبمزيد من التغيير في ترتيب العدسات تختفي الصورة الأصلية تماماً، تاركة فراغاً بين الأفق والصورة الثانية (المقلوبة).

وتعتمد درجة التحدب (الانضغاط العمودي الذي يتسم به السراب الأعظم)، وكذا عدد الصور التي تظهر، وأي تكبير ظاهر للصورة، على معدل التغيير في درجة حرارة الهواء عمودياً، وأيضاً على وجود تغييرات في ذلك المعدل ذاته. وبطبيعة الحال فإن السراب ليس دقيقاً، وتحدث

التشوهات في الصورة نتيجة للوميض (وهذا بدوره يرجع إلى اضطراب طفيف في الهواء »، وأيضاً لأن عدسة الغلاف الجوي برمتها لا بؤرية؛ إذ تنحني بشدة أكبر في اتجاه (رأسي) منه في الآخر (أفقي). ومن هنا فكل أنواع السراب مهزوزة رأسياً. ولعل هذه الخاصية اللابؤرية للغلاف الجوي، مضافاً إليها الانقلابات المعقدة فوق الأشياء ذات البريق الموحدة؛ (مثل ثلوج البحر) هي التي تسبب أجمل أشكال السراب في المنطقة القطبية الشمالية، وهو الظاهرة التي تعرف باسم « فاتا مورجانا ». فالصور تبدو وكأنها حقيقية تماماً.

وبفعل السراب فإن ضوء الشمس الذي ينعكس من ثلوج البحر عن طريق طبقات من الهواء ذات الدفء المتزايد، والتي تتسم بتسلسل لتقلبات طفيفة في درجة الحرارة، يظهر على بعد ما يشبه المتراس بلون رمادي داكن، وتبدو جدرانه واضحة المعالم، وكأنها سياج يشاهد من خلال ظل الأرض الأزرق؛ وذلك لأن عدسة الغلاف الجوي اللابؤرية قد حطمت الثلج الأبيض إلى مناطق ضوئية وظلالية، ومن ثم فإن الحجب الرأسي يزيل الملامح المميزة. فإذا قُلّبت طبقات الهواء قليلاً بفعل الرياح، وعادت إلى وضعها الأفقي في نمط منتظم (وهذا يحدث بسبب الجاذبية)، فسوف تظهر قمم مستديمة على صورة ثابتة بالفعل، وعندئذ يكون الوهم قد اكتمل، وتبدو الحافة العليا للسراب وكأنها مشرشرة، وكأنها نتوء في سلسلة من الجبال. وتوحي الجدران البيضاء بمنحدرات يكسوها الجليد.

ولقد كان السراب مصدراً للبهجة والمتعة لكثير من رواد المنطقة القطبية الشمالية، كما كان ظاهرة مثيرة لكثير من الجدل. فلقد كانت « المشاهد » أقرب ما تكون للحقيقة حتى إن بعض المستكشفين حددوا مواقع لجبال وجزر لا وجود لها في الواقع، ونال المتشككون غضب واحتقار الواثقين. ولحسم الأمر كان قادة حملات الاستكشاف يرسلون أطقماً من الأفراد لتبين الحقيقة، وكان هؤلاء يشاهدون ظاهرة فاتا مورجانا فيزداد الموقف تعقيداً. وبالصبر والإصرار والعزيمة، وبذل المزيد من الجهد، وتدقيق الملاحظة ظهرت الحقيقة: لم يكن هناك أرض ولا جبال ولا جزر.

وهكذا خرجت حملة ماكميلان (1913م) لتؤكد (أو تنفي) وجود « أرض كروكر » التي أشار إليها روبرت بيري وحدد موقعاً لها شمال غرب رأس توماس هوبارد، شمالي جزيرة آكسيل هيبيرج. وبالمثل فقد ثبت عدم وجود « جبال بارنارد » التي أشار إليها جون روس في عام 1818م،

ورغم أنها تمتد من جزيرة ديفون إلى جزيرة إليزمير عبر جونز ساوند، وكان إدوارد إنجفيلد هو الذي اثبت ذلك في عام 1852م. وإضافة إلى ذلك فقد ثبت أن ما أسماه المكتشف الأمريكي تشارلز فرانسيس هول «أرض الرئيس» لم تكن سوى وهم وبالمثل فإن «أرض الملك أوسكار»، و «أرض بيترمان» التي وصفها ضابط من الجيش النمسوي كان يقيم في رأس فلايجيلي (فرانس جوزيف لاند) في 1884م لم يشاهدها أحد غيره. وأخيراً فقد خرج الرحالة والمستكشف فيهالمور ستيفانسون مرتين بحثاً عن «أرض كينان» في بحر بوفورت.

ويذهب بعض الخبراء المتخصصين في المنطقة القطبية الشمالية إلى أن ظاهرة فاتا مورجانا- خاصة في حالة ستيفانسون - كانت في الحقيقة جزراً ثلجية أو جبالاً ثلجية. وقد يكون ما وجده المكتشف القوقازي الكسي ماركوف في أقصى شمال دلتا نهر يانا في عام 1715م جبلاً ثلجياً يمتد لمئات الأميال المربعة، إذ لم يشر أحد بعده إلى وجود «جبال ثلجية هائلة تسد الطريق».

* * * * *

ويلاحظ أن الأسطح المتماثلة للمحيط المتجمد الشمالي، تسبب في مشاكل بالنسبة لإدراك المجال والبعد، خاصة في الأيام المعتمة. وأحياناً ما تختفي الأرانب البرية وطيور الترمجان في خلفية الجليد عندما تكون على بعد ياردتين أو ثلاث. وبالمثل فإنه عندما يظهر حيوان رنة أو دب بني على الجليد أو الثلوج، يكون من الصعب تحديد ما إذا كان حيواناً كبيراً من على البعد، أو صغيراً من القرب. ويذكر سيتفانسون في كتابه «حياتي مع الأسكيمو» أنه قد أمضى قرابة ساعة يراقب دباً يتحرك فوق التندرة ثم اكتشف أنه مرموط (حيوان من القوارض). وبالمثل لم يكد مستكشف سويدي يختتم وصفه لأرض راسية شديدة الانحدار، حتى تبين له أن ما يصفه ليس إلا فظًا. ويشير جوهان ميرتشنج إلى تلك الظاهرة قائلاً إنها «خداع يثير السخرية عند تبينه، وهو شيء عادي».

وهناك ظاهرة خداع أخرى تحدث عادة عندما تكون السماء معتمة، أو عندما يغلف الضباب ضفاف الأنهار، فالضوء الذي يسقط في اتجاه معين بزاوية معينة، يكون له نفس قوة ضوء يسقط

في أي اتجاه آخر وبأي زاوية، وبهذا لا يكون هناك ظلال، ولا يكون للفضاء عمق، ولا يوجد أفق. فإذا سرت مترجلاً فسوق تتعثر، كما تتعثر على سلم منزلك إذا أخطأت قدمك موضع إحدى درجاته. وإذا كنت في مركبة جليدية تتحرك بسرعة، فسوف يتوقف قلبك تقريباً عندما يختفي قاع العالم.

وفي كتابه «نبذة عن المناطق القطبية الشمالية (1820م)»، طرح وليام سكورسبي تفسيراً أصيلاً للأخطاء التي تحدث في إدراك العمق، وهي شائعة على طول سواحل قطبية شمالية معينة. فالسواحل التي أشار إليها تتسم بدرجة تناقض كبيرة بين جدران صخورها الجرداء ومسطحات الجليد والثلوج، وحيث إنه لا تتوفر درجات لون متوسط، فإن العين تجد صعوبة في تحويل هذه المناظر الثنائية البعد إلى ثلاثة أبعاد. وعادة ما يستخدم الإنسان عينه في تقدير المسافات، اعتماداً على الكثافة النسبية للضوء الأزرق المتناثر في الهواء (وهو الضوء الذي يظهر حافة جبل بعيد). لكن صفاء جو المناطق القطبية الشمالية لا يسمح بنشر الكثير من الضوء. وهكذا فإن البحارة الأوائل كانوا يعجزون عن تقدير بعدهم الحقيق عن الشاطئ (هل هو خمسة أميال أم خمسة عشر ميلاً – على سبيل المثال) نظراً لذلك التناقض الكبير والسواحل السوداء – البيضاء، وكذلك لعدم معرفتهم بالأطوال، وصفاء الجو تماماً. ويذكر أن الملك الدنمركي فردريك الثاني (القرن السادس عشر) كان قد أرسل حملة بقيادة موجنز هينسون للبحث عن المستعمرات المفقودة في جرينلاند، وخلال الرحلة صارع هينسون العواصف الثلجية عبر شمال الأطلسي لعدة أسابيع قبل أن يصل إلى الساحل الجنوبي الشرقي لجرينلاند. وعندما هبت عاصفة جديدة ذات رياح مواتية وسماء صافية حدد خط سيره في اتجاه ما اعتقد أنه سلسلة من جبال عالية. وبعد عدة ساعات من الإبحار اكتشف أنه لم يقترب من الساحل، وأن المسافة بينه وبين الشاطئ تكاد تكون هي ذاتها وقت البداية، وهذا ما جعله يعتقد أن سفينته قد توقفت عن الحركة بفعل حجر مغناطيسي تحت سطح البحر. ولما استبد به الرعب ظل يبحر حتى ابتعد تماماً عن ساحل جرينلاند، ثم أقفل عائداً إلى الدنمرك.

* * * * *

ولقد تعودت خلال رحلاتي على ملاحظة أوجه الشبه بين الأشياء، خاصة من حيث الشكل واللون. فعلى سبيل المثال فقد لاحظت تشابهاً بين عظام حيوان اللاموس، ونوع من نبات الأشنة ينمو على التندرة، وتشابهاً بين صوت قرع طبول يصنعها الاسكيمو من امعاء حيوان الفظ، والصوت الذي يصدر عن ذلك الحيوان وهو تحت الماء، والتشابه بين أشياء أراها لأول مرة وأشياء مألوفة. ولهذا السبب فإني أذكر دائماً ملاحظات سكورسبي، وما ذكره من ان اللونين الأبيض والأسود قاسم مشترك بين كثير من ملامح المنطقة القطبية الشمالية: جبال ثلجية تضيئها الشمس بينما هي قابعة في مياه داكنة في مثل لون المت (خليط من النحاس والرصاص والنيكل)، على سبيل المثال. وتقفز هذه الملحوظة إلى ذهني كذلك كلما شاهدت الأرانب البرية وهي تتغذى عند جوانب التلال ذات الظل، أو أي من طيور الصيف البيضاء وفي خلفيتها التلال الداكنة أو التربة - النوارس ذوات اللون العاجي والبجع، وعلى النقيض من ذلك طيور الفلموت السوداء، وهي تحلق فوق الثلوج البيضاء، والطيور التي تجمع بين اللونين الأبيض والأسود مثل البوم الجليدي، والدُّرسه (نوع من العصافير)، والسامك، والإوز الجليدي. ثم هناك الحوت الأحدب ذو البقع الذقنية البيضاء، والفظ على الكتل الجليدية الطافية، والممرات وسط ثلوج الربيع.

فالتناقض المذهل في هذه الصور، يذكرني بميل البعض لتسجيل نصف ما هو موجود بالفعل على أرض بمثل هذه القسوة، وإهمال النصف الآخر، إما لصعوبة الوصول إليه، أو لكثرة ما يتطلب من تفكير وتأمل. وهكذا فإن المحيط المعتم الذي يرقد تحت الثلوج يبقى مجهولاً، مثلماً تبقى حياة الكثيرين من الحيوانات والنباتات شتاءً في عداد المجهول. وإذا كنا نعرف حياة الفقمة ذات الشرائط على الثلوج، فإن حياتها في البحر المفتوح لا تزال غامضة. وبالمثل فإننا نسمع الغناء الجميل للأسكيمو، لكننا لا نسمع صيحات الشامان (الكاهن) وقد ربطه مساعدوه بأحبال مصنوعة من جلود الفظ، ويسير في نشوة. وقد نرى حيوانات الرنة، وهي تتحرك خلال جبال الأوجلفاي وكأنها دخان في غابة ينتشر بفعل عاصفة جليدية، من دون أن نرى صورة بقرة الرنة، وقد قتلتها الغربان السوداء وهي في حالة ولادة.

وفي ذات يوم من أيام الصيف، ذهب فكري إلى الشتاء وحاولت ان أفهم العلاقات بين الزمان والمكان. فالشتاء بقسوته وثقله يفسر الابتهاج بالصيف، فتأثيرات الشتاء أفظع من أن نتأملها، ويا

ليت هذه القسوة تقتصر على البرودة (على الرغم من كل ما تسببه من آلام، والتي - كما يقولون - تجعل الصخور تستسلم وتتفتت)، بل تمتد لتعطيك إحساساً بالقهر والظلم والاستبداد والاستعباد، وهو إحساس يتمثل فيما يحل من ظلام، ورياح الشتاء التي تقذف بقارب في قرية، وتلقي به بعيداً عبر شاطئ متجمد. والأدب الشفهي للأسكيمو مليء بالقصص المأساوية التي تحدث في شهور الشتاء، وصور للموت البشع، والوحوش المفترسة، والآلام والتشوهات.

وفي هذا السياق أتذكر وقتاً أمضيته في شهر يناير من أحد الأعوام في فيربانكس حيث ظلت درجة الحرارة عند نحو خمس وأربعين درجة فهرنهايت لمدة أسبوع، وكانت أقل درجة من الرطوبة في الهواء تتحول إلى بلّورات، الأمر الذي أفرز ضباباً ثلجياً. ومن أروع المناظر قطعان الرنة وهي تتحرك كما لو كانت سحابة في ذلك الجو البارد. وفي فيربانكس (حيث يعلق الضباب الناجم عن صهر المعادن وحركة المركبات وإشعال النار في الأخشاب - يعلق فوق الشوارع) كان الأمر فظيعاً حقا. فهذا الضباب يحجب حواف المباني، ويكتم صوت حركة المركبات. كما أن الجليد الصلب صلابة الأسمنت المسلح يسوي بين الأرصفة والشوارع، وتسرح الغربان السوداء خلف المحلات، تنبش أكوام القمامة بحثاً عن غذاء، أو تنتقل بين أعمدة أسلاك الهاتف وسط بخار الماء الأبيض، تنظر لما هو أسفل، وتطلق نعيبها الذي يصم الآذان.

وظلمة الشتاء تحجب الرؤيا، وبرودته تجعل الإنسان يلتحف بأثقل ما لديه من ملابس، وتجعله لا يخرج من داره (إلا للضرورة القصوى)، وحتى العقل ذاته يخلد إلى نفسه.

وفي الشتاء أحاول تذكر الربيع، حيث الضوء الباهر الذي لا تكفي الجفون لحماية العيون منه، وتضطر عندما تنام أن تضع شريطاً من اللباد فوق عينيك، وهذا يذكرني بالرسامة وينيفريد بيتشي مارش التي كانت تضع على عينيها نظارة جليدية ذات شقوق رفيعة عندما كانت تقوم برسم لوحاتها على التندرة في منطقة أسكيمو بونيت، نظراً لأن النظارات الشمسية كانت تشوه الألوان. ففي جو على هذا النحو من الصفاء، ومجال على هذا النحو من الاتساع والانفتاح، تشعر وكأن بوسعك أن ترى أيووا من عند ضفاف نهر كولفيل.. في الشتاء يزداد تأملي في الظلام، وهو ظلام يعرض حيوانات الرنة لخطر شديد، من جراء إسراف الأسكيمو في صيدها في العصور الحديثة. والكل يعلم ذلك، والكل يخشى من التعليق عليه حتى لا يوصموا بالعنصرية، إذ إن الأسهل لنا أن

نترك تلك الحيوانات لتلقى مصيرها، من أن نواجه الجانب المظلم من أنفسنا، فظلمة السياسة تلتقي بظلمة الأرض.

وأذهب بفكري أيضاً إلى الأسكيمو، فالجانب المظلم من الروح البشرية لا تهذبه، أو تجليه الحضارة. فمن واقع خبرتي أستطيع أن أقول إن الأسكيمو يملكون معرفة معقولة بقدرتهم على العنف، ولكنهم لا يودون الحديث عنها أمام البيض لأنهم قد تعلموا أن هذه عواطف ومشاعر بدائية. وهكذا فنحن نخلط بين البدائية وعدم القدرة على الفهم (فهم كيفية الحصول على ضوء من مصباح)، كما نخلط بين البدائية، والانحطاط. ونحن نحاول تجاوز ما هو بدائي حقاً فينا وفيهم: الجوع المتوحش والانحراف الأخلاقي – أو نتركهم لحالهم، يغيرون أنفسهم كيفما شاؤوا، ولكنهم يستطيعيون أن ينظروا إلينا نظرة احتقار، ولسان حالهم يقول: إنهم يعرفون أكثر وأحسن مما نعرف.

ولعله من سخريات العصر الحديث، ما نراه اليوم في قرى الأسكيمو: الإرسال والاستقبال التليفزيوني عن طريق الاقمار الصناعية، والصبية الذين يرتدون قمصاناً تحمل شعار جامعة هارڤارد، والفطائر في طعام العشاء، وقد وضعت على مناضد تغطيها مفارش من قماش، ومواعظ تلقى في الكنائس، وبعضها يتناول بلاء الشيوعية والآثار التي ترتبت على انتشارها. وحتى هنا – بل على الأخص هنا – تلمس جانباً من القوة السابقة، القوة الخارقة، خاصة عند الاستعداد للصيد، حيث تجد رجالاً يجيدون الصيد في الظلام، وكأنهم كهنة الضياء الذين يحملون المشاعل الكاشفة التي تمكنهم من الرؤية في الظلام – فعلاً ومجازاً. وفي الصيد – حيث يمتزج المرح بالعنف – يرى الغريب عن هذه الديار ملامح الحياة البدائية، وهي حياة مرعبة، خاصة إذا ما تجردت من كل قيد أو لجام. ولكنها حياة تقهر الجوع، كما تقهر متاعب القلب والروح.

وظلمة الشتاء هي التي تسبب الاكتئاب الشديد، الذي يعاني منه بعض الأسكيمو، ويسمونه بلغتهم «البرليرونيك» وهي تعني – وفقاً لما ذكرته عالمة الأجناس البشرية جين مالوير – «الإحساس بثقل الحياة»، وهذا الإحساس ينطوي على عدة مشاعر: التفكير في كل ما يتعين إنجازه، والخوف من الفشل، وسرعة الغضب، والحزن الشديد. وكما قال رجل من الأسكيمو للعالمة مالوير فهو «إحساس بالقرف من الحياة» يجعل الفرد يمزق ملابسه بشكل تشنجي، ويدفع بالمرأة إلى تقطيع

الأشياء بسكين لغير غرض، ويجري رجل شبه عارٍ خلال الليل ذي البرودة القارسة، ويصرخ في شوارع القرية، ويأكل روث الكلاب، ثم يقوم الآخرون بتهدئته، ويحيطونه بالرعاية والحب، حتى يغلب عليه النوم وهذا هو الشتاء!!.

وأقلب بين يديّ قناعاً من بقايا حضارة دورست، وهو الذي أشرت إليه من قبل، ويمثل وجه إنسان مذعور أو معذب. ثم جال بخاطري يوم مليء بالأخطاء، خرجنا فيه لصيد الفقمات المتراكمة على ثلوج بحر بوفورت، وأذكر أن كل ما أصابنا من متاعب في ذلك اليوم، كان يعود إلى حالتي النفسية. وأذكر أنني في هذا اليوم، كنت أقوم بسلخ فقمة من ذوات الذقون (بمساعدة رجل آخر)، ولم ينبس أحدنا ببنت شفة، وكان المحيط ساكناً تماماً، وكأنه لوح من زجاج، ولم يكن يبدد السكون سوى صيحات طيور السامك. وجال بخاطري فكرة مفزعة: ماذا لو ذابت الثلوج تحت قدميّ فجأة؟ لقد كنت في الواقع واقفاً على ماء فوق ماء، وأحسست بقلبي وكأنه يقفز إلى رقبتي. ثم سرعان ما شرعنا في تناول الطعام، وكان عبارة عن لحوم الفقمة التي قمت بسلخها.

وليس الصيف طويلاً بما يكفي لمحو آثار الشتاء، فالشتاء دائماً ما يأتي مبكراً، وينصرف متأخراً، بينما الإنسان يحاول جاهداً أن يحس بالحياة كاملة، وأن يواجه كل شيء فيها. وعندما ترى حيواناً يحتضر، ثم يموت، تبدأ التفكير في الموت وفي طبيعة الحيوان، ثم سرعان ما يغلبك النعاس، فترقد على التندرة، ويسقط عليك ضوء الصيف الساطع، ثم تصحو على أصوات الطيور – الزقزاق وطويل المهماز وغيرها – وعلى بعد بوصات قليلة، ترى عناقيد من الزهور الفارسية الزرقاء، وأبعد قليلاً تقع عيناك على زهور الخشخاش وهي تتمايل تحت وطأة النحل الطنان، وإذا نظرت إلى أعلى، ترى سحباً قزعية رائعة في مثل روعة فاكهة الصيف. وهكذا فأينما توجهت ببصرك فإنك تحتضن الأرض وما عليها.

* * * * *

وخلال الرحلة البحرية على ظهر السفينة «سودوك»، التي كانت متجهة شمالاً عبر مضيق ديفز في الطريق إلى جزيرة كورنواليس الصغرى، اعتدت على تمضية فترات ما بعد الظهيرة داخل (كابينة) حمولة كبيرة كان مربوطاً بسلاسل على ظهر السفينة مع غيره من المعدات والآلات

الثقيلة، ومن هذا المكان المحمي من الرياح والأمطار المتقطعة، كنت أنظر من خلال النوافذ المتسعة إلى البحر والثلوج، وأحياناً كنت أقرأ صفحات من كتاب «قبطان السفينة «كندا» القطبية»، أو أي كتب أخرى تتناول تاريخ المنطقة القطبية الشمالية، مستعيناً بخريطة فردتها في حجري. ومضت الأيام بطيئة ونحن نبحر فيما بين الجبال الثلجية، ولكنني كنت أمضي الوقت في مراقبة ما حول السفينة بالاستعانة بنظارات الميدان، كما كنت أدوّن، وأرسم ما حلا لي رسمه أو تدوينه.

وبالنسبة للجبال الثلجية فإنها تعطي إحساساً غير مألوف بالمكان، وذلك نظراً لأن الأفق يتراجع عنها، ومن ثم ترتفع السماء بدون أي خطوط انضغاط وراءها (أي الجبال الثلجية). ولعل هذا المنظور هو الذي اصاب العائلات الرائدة بالفزع، عندما انتقلت للمعيش في براري أمريكا الشمالية الخالية من الأشجار، فقد وجدوا مساحات شاسعة يتخللها حقول من أعشاب السفانا. لقد استخدم فن الرسم في الفترة من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر هذا الترتيب المكاني، لإفراز إحساس بمساحات كبيرة في الخلف، وكان موضوع اللوحات هو الفراغ البادي فيها. وفي القرن التاسع عشر كان فن رسم المناظر الطبيعية يكشف عن صراع الضوء والمكان، الأمر الذي فصل هذا الفن عن مدرسة أوروبية معاصرة، تنطوي على مناظر رعوية ذات إطارات من أشجار، وكأنك تنظر إلى الدنيا من نافذة عربة. أما الرسامون الأمريكيون فقد حرصوا على إبراز وجود روحاني فعلي في لوحات المناظر الطبيعية، التي تتخذ من أمريكا الشمالية موضوعاً لها. ووفقاً لما يقوله مؤرخو الفن فإن لوحاتهم تكشف عن إلهام لرجال ونساء «رأوا آيات الله» في البراري والجبال، وعلى طول قيعان الانهار. ومن أوضح التعبيرات عن إعادة تشكيل فهم المناظر الطبيعية، تلك اللوحات التكوينية البسيطة التي رسمها النورانيون، فهي توحي بجو هادئ تأملي، والتقاء خاص مع الأرض. ولقد أشار نقاد فن الرسم في تلك الفترة – ومن بينهم باربرا نوفاك في كتابها «الطبيعة والثقافة» – أشاروا إلى «غياب غريب للذات» في تلك اللوحات، إذ يختفي الفنان تماماً، وتبرز الأرض فحسب. أما الضوء فهو كالمخلوق، جزء حي وأساسي في المنظر. وأما الأرض فهي الشيء المقدس والحقيقي، ولم تعد – كما كانت في أوروبا – مجرد رمز.

ففي ذروة صيته في عام 1859م، ابحر فردريك إدوين تشيرش، وهو احد أبرز الرسامين النورانيين، قاصداً الوصول إلى منطقة تقع قبالة ساحل نيوفاوند لاند، حيث كان يريد رسم الجبال

الثلجية هناك، فهي بالنسبة له تبدي التجسيد الفعلي للضوء في الطبيعة. وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع عاد إلى مرسمه في نيويورك وشرع في رسم لوحة كبيرة.

أما الرسومات الميدانية التي أنتجها - وبعضها لا يزيد عن مساحة راحة اليد - فقد عكست غموض الجبال الثلجية، والمظهر المتهالك الذي تبدو عليه، عندما تصل إلى أقصى الجنوب عند بحر لابرادور. وعندما دققت النظر في أحدها - وكان يحمل تاريخ الأول من يولية - لاحظت أن تشيرش قد ذيله بعدة كلمات دونها بالقلم الرصاص: «خارق للطبيعة غريب أمره». ولقد أطلق على اللوحة الزيتية التي رسمها من واقع الرسومات الميدانية اسم «جبل الثلوج»، وهي حقاً لوحة رائعة، مساحتها ست أقدام في عشر، لدرجة أن الناظر إليها يشعر وكأنه يمكنه الدخول فيها، وهذا هو ما قصده تشيرش بالفعل. ففي الجزء الأمامي من اللوحة رف من الثلوج، وهذا جزء من جبل الثلج يملأ الجزء الأعظم من اللوحة، ويرتفع فجأة عند يسار الخلفية. وعلى اليمين يصبح الرف الثلجي المغمور جزءاً من كهف يأخذ شكل الموجة. وفي الوسط هناك مياه هادئة محصورة تفتح على مياه المحيط الداكنة إلى اليسار، وهذه تتواصل إلى أفق مضطرب وجبال ثلجية أخرى بعيدة. ويسود الخلفية عند الجانب البعيد من المياه المحصورة جدار ثلجي كبير، يتواصل حتى يمين اللوحة، بينما يلوح ضباب متدحرج في هواء المحيط الأعلى. وأروع ما في الصورة ظلال وأشكال الجبال الثلجية، وليس هذا بغريب على فنان يعشق الطبيعة، ويتوخى الدقة مثل تشيرش، كما أن الألوان طبيعية أيضاً.

ومع ذلك فقد كان هناك شيئان غريبان في تلك اللوحة التي نالت شهرة واسعة. فعندما عرضت لأول مرة في متحف جوبل للفنون الجميلة في نيويورك في اليوم الرابع والعشرين من أبريل 1861م، كان رد الفعل أقل مما كان تشيرش يتوقع. فعلى عكس اللوحات السابقة التي رسمها تشيرش، جاءت هذه خالية من الإنسان أو أي أثر له. ولما اقتنع تشيرش بأنه قد وقع في خطأ، أعاد اللوحة إلى المرسم، وأسقط فيها قطعة طافية من حطام سفينة، وكانت هذه القطعة جزءاً من الصاري الرئيسي عليه عش لغراب. ثم أعيد عرض اللوحة في بوسطن، حيث لم تستقبل بأحسن مما استقبلت به في نيويورك، ولكن عندما عرضت في لندن لاقت استحسان كل من النقاد والجمهور.

وأما الشيء الغريب الآخر في اللوحة، فهو أنها قد اختفت لمدة مائة وستة عشر عاماً. فبعد

عرضها في لندن اشتراها السير إدوارد واتكن وعلقها بمنزله الواقع في ضيعة عند أحد أطراف مدينة منشستر، وانتقلت بالميراث إلى نجل واتكن ومنه إلى الشخص الذي اشترى الضيعة، ثم أهديت إلى كنيسة سانت ويلفريد القريبة، وهذه أعادتها إلى منزل الضيعة نظراً لكبر حجمها. وبحلول عام 1979م تحول منزل الضيعة إلى مدرسة للبنين، وعلقت بدون إطار في بير السلم، وعلى سبيل العبث وقع عليها أحد التلاميذ. ونظر لجهل المدرسة بقيمة اللوحة، ولأنها (أي المدرسة) كانت تسعى لجمع الأموال لإصلاح عملياتها، فقد عرضت اللوحة للبيع، وأعيدت اللوحة إلى نيويورك، حيث بيعت في مزاد علني في اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر 1979م، وكان المقابل مليونين ونصف مليون دولار، وكان هذا أعلى ثمن يدفع مقابل لوحة في أمريكا (حتى ذلك الوقت). واليوم تجد اللوحة في متحف دالاس للفنون الجميلة في تكساس.

* * * * *

وإذا كان تشيرش قد أضاف للوحته قطعة من حطام سفينة لدوافع مادية، فإنني أعتقد أن الإضافة كانت أعمق من ذلك بكثير، وهذا حكم يجمع بين البساطة والسخرية في آن واحد. فبدون تلك الوسائل لا نفهم الطبيعة فهماً كاملاً. وسواء أكانت الوسائل ذلك التأكيد الجريء لوجود الإنسان (كما في حالة الصاري المحطم الذي يأخذ شكل الصليب في لوحة تشيرش)، أم التجريدات المتمثلة في التناقض، والتشابه، والقياس، فإننا نأخذ عالمنا معنا إلى الأراضي الغريبة عنا حتى نستعين به على فهمها. ومن العسير أن نتخيل أن بوسعنا أن نفعل غير ذلك. والمخاطرة التي نخوضها هي أننا نحاول تأكيد سلطتنا من خلال الرموز والاستعارات، وليس من خلال الأرض. فالبحث في غرائب الأرض البعيدة وأسرارها، يثير الفكر والتأمل حول أرض الإنسان الأصلية – الأرض التي بداخله، والمناظر الطبيعية التي تقبع في ذاكرته. فالأرض تحثنا على فهم أنفسنا.

وفي إطار البحث عن استعارة ملائمة ترمز للجبال الثلجية، وجد كثيرون ضالتهم في الكاتدرائيات، وفي اعتقادي أن أسباب ذلك أعمق من مجرد التشابه الواضح في الخطوط والمجال، فهي تتعلق أيضاً بحبنا للنور. وكانت العمارة الكاتدرائية قد حققت نقلة كمية في الحضارة

الأوروبية، وكما ذكر المؤرخ الثقافي الفرنسي جورج دوبي، فإن هذه النقلة «جاءت مواكبة لعقيدة ان الله نور، وأن كل مخلوق ينبثق من هذا النور الرباني الخلاق»، وكما قال روبرت جروسيتست، مؤسس جامعة أكسفورد في القرن الثاني عشر، فإن «الضوء الفيزيقي هو الأفضل والأكثر بهجة من بين كافة الأجسام الموجودة».

ومن الناحية الفكرية كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصراً تميز بالجدل الحذر، وتحديد العلاقات، الأمر الذي واصل تطوره، حتى وجد تعبيراً دقيقاً له في رياضيات الكاتدرائيات، فلم يقصر العقيدة على أن الله نور، بل امتد النور ليشمل العلاقة بين الإنسان وربه، وكانت الكاتدرائيات أحد رموز ذلك النور وتلك العلاقة. ويقول دوبي أيضاً «إن جماليات ذلك العصر كانت تقوم على النور والمنطق والسلاسة...». فالشيء الذي جمع بين الرهبان في صوامعهم وعامة الناس الذين بنوا هذه الكنائس الهائلة، التي ترتفع عادة لنحو مائة وسبع وخمسين قدماً، كان «الارتفاع فوق الفقر من خلال أحلام الضياء»، على حد ما قال دوبي.

لقد كان ذلك عصر الصوفيين. فعندما كان الراهب الدومينيكي هينريك سوزو يتعبد ليلاً في الكنيسة «بدا له وكأنه يسبح في الهواء أو يبحر بين الزمن والخلود وحوله معجزات الله». وكان عصر الحالمين كذلك الذين تحدثوا عن أورشليم الجديدة وسفر الرؤيا، حيث لن يكون هناك ظلام.

ولقد صاحب تشييد هذه الكاتدرائيات الهائلة انتعاش للوعي الروحاني، ومعه وبه تم إحياء المدن، إذ بدونها لا يمكن لهذه الصروح أن تستمر. فالأموال التي أنفقت في بنائها، جاء أغلبها من طبقة نامية من التجار، وليس من أموال الملوك والأمراء والنبلاء. وبمرور الزمن ازدادت الكاتدرائيات بعداً عن عامة الناس، واليوم تبدو الأسس الروحانية التي بنيت عليها، وكأنها قد ضاعت، فبالنسبة للزائر الحديث لتلك الكاتدرائيات فإنا تبدو له مظلمة بالمقارنة بالعمارة الحديثة التي تتميز بالبساطة وحسن استخدام وتوزيع الضوء. فجدران الكاتدرائيات قد تآكلت بفعل الأحماض وغيرها من المواد المختلطة بهواء المناطق الصناعية، كما أن العصر الصوفي الذي أنتجها قد تراجع، وحل محله عصر عقلاني، يتميز بدقة الزخرفة والتجريد العقائدي، وثمة ملاحظة أخيرة وهي أن العرب والبربر قد حافظوا على تلك الرياضيات التي أفرزت هذه الصروح...

وبحلول القرن الثالث عشر، بدأت أوروبا تدرك الأبعاد الشاسعة لآسيا وثقل الحضارات الأخرى.

وفي هذا السياق يقول دوبي «وبانتشار المعارف وتعاقب الدراسات في المجال الثقافي فتح الأوروبيون عيونهم، وبدأوا يواجهون الحقائق، وأولها وأهمها أن الدنيا أوسع بكثير مما كانوا يتصورون، وأنها أكثر ثراء وتنوعاً مما بدا لأسلافهم، وأن بها أناساً لهم عقائد غير عقائدهم، وتقاليد وعادات غير تقاليدهم وعاداتهم. وبانتهاء عصر الحروب المقدسة، بدأ عصر المكتشفين والمغامرين والتجار والمبشرين، وهكذا أدرك الأوروبيون فشل سياسة القهر والحرب، وأنه من الأفضل اللجوء إلى الحوار ومحاولة اقتحام تلك الممالك المنيعة عن طريق التجارة والتبشير السلمي.

وكانت هذه هي السياسة التي حملت البرتغاليين إلى الهند، والأسبان إلى بيرو، والفرنسيين والبريطانيين إلى المناطق النائية في أمريكا الشمالية. وبعد ذلك بقرون دفعت السياسة ذاتها - بشيء من التعديل والتهذيب - بالأمريكيين والكنديين والروس إلى المنطقة القطبية الشمالية.

والحكمة التي تسود عصرنا الحالي، هي أن الإنسان الأوروبي قد حقق تقدماً هائلاً ومطرداً منذ عصر الكاتدرائيات. فقد هبط على سطح القمر، وقهر مرض الجدري، وسخر القدرة الكامنة في الذرة. ومع ذلك فهناك رأي يسير في الاتجاه المضاد، ويذهب إلى أن كل ما أنجزه الإنسان الأوروبي خلال تسعة قرون، هو تناول أكثر تعقيداً للمواد واستعراض مذهل لتمكنه من المبادئ الفيزيقية لها، وبمعنى آخر، فإن الإنسان الأوروبي مبهور بأساليب التعبير فحسب، وأن عصرنا هذا ليس عصر المتصوفين، بل عصر الخبراء المهرة كأفراد، وأن تشييد الكاتدرائيات كان آخر قفزة جامحة للإنسان الأوروبي قبل أن يعود أسيراً لعقله وفكره.

ومن بين علوم اليوم يبدو أن الفيزياء الكمية، هي العلم الوحيد الذي عرف طريقه نحو علاقة متكافئة مع الاستعارات والرموز، وهي آلات الخيال الأساسية. أما العلوم الأخرى فإنها أحياناً تكون مقيدة بالتحليل العقلاني، وبالتالي فإنها تخشى الاستعارات، وتدرك كما تدين عملية إضفاء الصفات البشرية على غير العاقل باعتبارها سرطاناً فكريا، وبالتالي يستبعدونها كأداة للبحث المقارن الذي ربما كان الطريقة الوحيدة التي يعمل بها العقل، ذلك التوازي الذي نسميه في النهاية سرداً.

ومن عصر الكاتدرائيات هناك كلمة «الانبهار»، وهذه تعبر عن ارتباط روحاني عميق بشيء غامض، ينطوي على المشاركة في الحياة، فالانبهار يعني الحب، حب إنسان آخر، أو شيء آخر

لمرضاة الله. وبمعنى أوسع فإن الانبهار هو أساساً عناق متواضع مع شيء ما خارج الذات. والجنس البشري مدين للذكاء، فهو قد ترك مستقبله للذكاء، يشكله كيفما شاء. ولكننا لا نعرف ما إذا كان الذكاء هو العقل، أو إذا ما كان الذكاء هو الحب.

* * * * *

وفي ذات يوم، وبينما كنت جالساً في موقعي المفضل عند المكان المخصص للبضائع على ظهر السفينة «سودوك» سعيت للقاء مهندس السفينة الثاني، وكان ينتمي لجوايانا، وبينما كنا نحتسي القهوة تحدثنا عن جوايانا، وعن الجبال الثلجية، وكنا في تلك اللحظة نبحر وسط أربعين أو خمسين منها. وفاجأني بسؤال: «هل تود أن تعيش على مثل هذه الجبال؟ إن بوسع أي شخص أن يقيم معسكراً صغيراً فوق أحدها، وفي النهاية يجد نفسه في نيوفاوند لاند ثم ينزل إلى منطقة سانت جون. فما رأيك؟» ثم ضحك كثيراً.

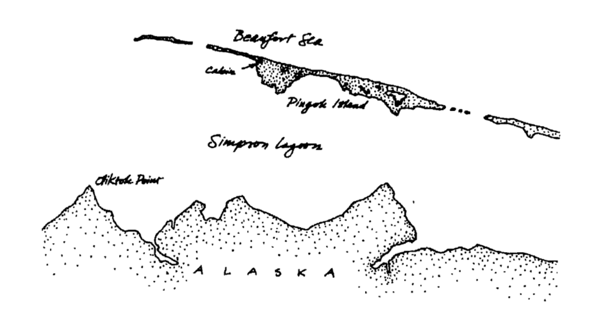
وضحكنا معاً، وتأملنا الأفق بحثاً عن السراب مستخدمين نظارات الميدان، ولكن لم نجد شيئاً. وعندما انتهى وقت الراحة عاد المهندس لمكان عمله أسفل السفينة، أما أنا فقد بقيت حيث كنت أتأمل الأمواج الهادئة والأشكال الهندسية التي يحدثها مرور السفينة فوق صفحة المياه الهادئة في خليج ميلفيل. ثم نظرت إلى الجبال الثلجية، وحسبت أنها تجسد الأرض بكل صفاتها: التقشف، والوعورة، والضوء الباهت، ولكنها ليست عدائية. وحينئذ تذكرت قول صديق لي عندما كنت معسكراً ذات يوم في وادي أناكتيكتوك في الاسكا: «المكان هنا جميل إلى الحد الذي يبكيك».

ونظرت إلى الجبال الثلجية فوجدتها جميلة إلى حد يخيفك.

الفصل السابع

بلاد في العقل

يصعب على المرء ملاحظة الدورات اليومية للمد والجزر على الشواطئ الضيقة لجزيرة بينجوك. فهنا في هذا الجزء من المحيط المتجمد الشمالي، حيث تتلاطم أمواج بحر بوفورت على الساحل الشمالي لألاسكا، يمكن قياس الارتفاع الرأسي للمد بعقلة الإصبع. وفي الأيام التي تنعدم فيها الرياح، تستطيع رؤية الألوان المنعكسة بوضوح على صفحة مياه الخليج الهادئة. وإذا كان المرء صبوراً بما فيه الكفاية، يمكنه أن يقف عند حافة المياه، ليلاحظ المد، وهو يكاد يصل بالمياه من أطراف أصابعه إلى كعب حذائه في ست ساعات في ظاهرة أخرى، تنفرد بها هذه المنطقة. أما هناك في شرق القطب المتجمد الشمالي عند خليج أونجافا، وفي خلجان الأرخبيل الكندي، فتكون ظاهرة المد والجزر أكثر وضوحاً، حيث يصل المد في بعض الأحيان إلى أربعين قدماً.



جزيرة بينجوك

وتقع جزيرة بينجوك عند تقاطع الإحداثيات: 35 ˚70 شمالاً و 35 ˚149 غرباً، على بعد عدة أميال من الساحل الشمالي لألاسكا، وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً من دلتا نهر كوليفيل. وهذه الجزيرة هي أبعد جزيرة في اتجاه الغرب ضمن مجموعة جزر جونز، التي تشكل حزاماً من الجزر التي تحمي منطقة من المياه الضحلة، على امتداد الشاطئ، تعرف باسم بحيرة سيمبسون التي تفضلها أسراب البط المهاجرة.

وحتى وقت متأخر قام عدد محدود من الغربيين بزيارة هذه المنطقة من ساحل القطب المتجمد الشمالي. ويقع خليج برودهو، حيث اكتشف النفط في فبراير سنة 1968م، على بعد أربعين ميلاً إلى الشرق من الجزيرة. وفي الأيام المشرقة يمكن رؤية السحب السوداء المتكونة في الأفق، بفعل شعل الغاز الملتهب الناتج من آبار البترول في خليج برودهو. وعلى بعد عدة أميال إلى الجنوب الغربي، وعند نقطة أوليكتوك على الأراضي الرئيسية توجد محطة تشغيل لخط دي إي دبليو. وعلى جزيرة بينجوك نفسها هناك بعض المخلفات الدالة على الاستكشافات الحديثة في المنطقة مثل مخلفات عمليات الاستكشاف الصناعي، والتدريبات العسكرية التي جرت في المنطقة، ومخلفات من مخيمات اقامها الإسكيمو وبعض الجماعات العلمية مؤخراً في المنطقة، كما يمكن أن ترى إسطوانات الغاز البيضاء المستهلكة، والصناديق الخشبية الفارغة، وقطع من الأشرطة الصفراء المصنوعة من مادة البولي إثيلين، وقطع غيار المحركات منتشرة هنا وهناك في بعض أجزاء الجزيرة.

أما أكثر المعالم التي صنعها الإنسان وضوحاً في هذه الجزيرة، فهي مجموعة المباني الخشبية ذات اللون الأصفر، في الطرف الغربي للجزيرة، والتي تمتد بطول أربعة أميال ونصف، وبعمق يصل إلى نصف الميل في بعض المواضع، وكذلك بعض علامات المساحة الساحلية المنتشرة عند الطرف الشرقي للجزيرة.

ولدي عادة قيمة تتمثل في المشي بتمهل مع التركيز والتقدير للرسائل الفورية التي ترسلها الأرض لحواسي، وأنا أتلهف لمعرفة ما تحتضنه. وفجأة تفيق عيني على شيء يلمع بين الحشائش، فإذا بها شرنقة كيتينية لحشرة. وفيما أنا متمهل في سيري يصبو انفي لتتبع آثار العبق القطبي، وأنا أعبث ببقايا عظام حيوانية، وأحاول جاهداً تحديد ذلك الحيوان الذي تخصه هذه العظام، إلى أن أتصوره في مخيلتي يتحرك أمامي على الأرض، أو أبحث عن بعض الاحجار ذات الأشكال

الغريبة، أو أفتش عن آثار الأحداث التي لا يمكن استرجاعها في بقايا خيوط بيوت العناكب، أو بين آثار أقدام مطبوعة على التربة.

وخلال فصول الصيف هذه، وجدت أيضاً الريش القديم لطيور البط، وقد تشكل في خطوط طويلة متعرجة، أو تكدس في كومات كبيرة على الشاطئ. وفي المياه الضحلة على جانب البحيرة، شاهدت الآثار الغائرة لحوافر الرنة واضحة في الطمي، كما لو كانت تلك الحيوانات قد عبرت من هنا منذ لحظة، مع أنها لابد أن تكون قد مرت في أواخر الربيع مع نهاية موسم الثلوج على أحسن تقدير. وكلما وجدت أثراً واضحاً بين معالم تلك المنطقة من سهول التندرة يدل على أن حيواناً ما كان هنا أو هناك، كنت أنكب عليها لتفحصها بعناية: اعشاب على حافة بحيرة صغيرة من الماء العذب تحمل آثاراً تدل على أن أسراباً من البط الكندي كانت هنا، أو جمجمة حيوان بحري حملتها الثلوج عدة مئات من الياردات إلى داخل اليابسة، أو بعض النباتات والبقايا على بقعة صغيرة من الأعشاب التي استوت بالأرض بفعل ذئب كان يسترخي عليها.

وعلى صفحة مياه البحر، عند شريط منخفض من الأرض بامتداد الشاطئ، لفت نظري الحواف المتلألئة لحبيبات الجليد، التي تبطن سطح التندرة، فيما بدت الطبقة السطحية من النباتات والطمي كما لو كانت جفناً مطبقاً من الشعر يحتضن هذه الحبيبات ويحتويها. وقد حاولت جاهداً عدة مرات أن أتسلل خلسة بين سرب من الإوز الذي كان يرعى هناك، لكن جميع محاولاتي باءت بالفشل، فيما استعدت في مخيلتي صورة لطائر الترمجان الذي تتشابه ألوان ريشه مع الألوان السائدة في بيئته، لدرجة تجعله يقترب من مستوى الكمال في التمويه.

وعدت إلى الكابينة التي أعيش فيها، ومعي بعض الأشياء التي جمعتها، لأجلس على المقعد المجاور لفراشي، كي أتفكر فيها، وأنا أتمثل المناظر الطبيعية التي رأيتها. أشياء مثل أجزاء من عظام دولفين أبيض كبير تختلط مع شكل الهيكل الخارجي لقشريات بحرية، تعود لحقبة ما قبل التاريخ. ثم تلك الحفنة من ريش الطيور. إنها أشياء قيمة حصلت عليها من خلال استجوابي للطبيعة، أشياء لا يزال يعلق بها أجزاء من أسرار غريبة وغامضة.

وفي بعض الأحيان قد تظهر صورة ما جزيرة بينجوك بشكل مخالف، فربما تظهر الجزيرة قاسية جرداء. فهي تختفي تماماً في أثناء فصل الشتاء تحت غطاء أبيض من الثلوج، فتبدو سهلاً أبيض

يمتد من جهة البحر نحو ثلوج بحر بوفورت، ومن جهة اليابسة تمتد بلا حدود نحو مناطق التندرة في السهل الساحلي. وتظهر الجزيرة مرة أخرى في شهر يونيو، زاهية بأنواع من الزهور والحشرات والطيور، وتظل كذلك لعدة شهور إلى أن تختفي مرة أخرى تحت باكورة العواصف الثلجية. وبالنسبة لشخص غربي يتخيل أشجار باسقة مكتملة الأوراق والأزهار، وبلابل مغردة تغدو هنا وهناك، ورياح تداعب حقولاً من الأعشاب الطويلة، فإن جزيرة بينجوك لا بد أن تبدو قاسية. وقد تصورتها كذلك أيضاً بناء على ما يمكن ان أكون قد رأيته أو سمعته عنها. وعلى أية حال، فقد تبددت تلك الفكرة عن قسوة الجزيرة، خلال الأسابيع التي قمت فيها ببعض الجولات التأملية بها. وفي مناطق مثل هذه تظهر بجلاء مفاهيم الحكم المسبق الذي نمارسه تجاه مناطق طبيعية مثل تلك، حيث نعتبرها مناطق بدائية متخلفة موحشة، وبدون أدنى تفكير يمكن أن نستخدم مناطق مثل هذه لتخزين النفايات السامة أو ميادين لاختبار الأسلحة، فنحن ننظر إليها على أنها الصحراء الجرداء التي كنا نستخدمها في وقت من الأوقات منفى للخارجين عن القانون.

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نفهم التضاريس المتباينة في كوكبنا، إذا نظرنا إليها بشكل منفرد. وتتساوى صعوبة التخاطب والتحاور مع هذه التضاريس مع صعوبة التفاهم مع الحيوانات المتوحشة. وتلك الأحاسيس المعقدة بالألفة والثقة بالنفس التي يشعر بها المرء تجاه المكان الذي ينتمي إليه، يصعب عليه أن يجدها في مكان آخر.

وهناك عرف سائد في الفكر الغربي هو: أن الحضارات والثقافات كافة قابلة للاستكشاف، وأن البشر يسعون إلى أراضٍ جديدة؛ لأن اقتصاداتهم تقودهم في هذا الاتجاه. وفي خضم هذا التوجه، ثمة ملاحظة موضوعية مجردة وهي: أن هناك اشتياقاً أكثر بساطة يتمثل في رغبة بشرية في حياة أقل تعقيداً، ولعلاقات حميمية مختلفة، وفي التجديد أيضاً، وهذه المشاعر أيضاً تقودنا إلى خوض مناطق طبيعية جديدة. ووجود الرغبة يؤدي إلى إساءة فهم ما نجده أمامنا. وتتساوى الرغبة في تحقيق الثروة، أو إحياء ما هو قديم وتنشيطه، أو في تحقيق النصر مع الأبحاث العلمية ومتطلبات التوسطع الاقتصادي في الدور الذي تلعبه، لحل عقدة جغرافية المناطق الطبيعية، التي يتم اكتشافها، بل وربما تتفوق عليها أيضاً.

في عام 1893م، طرح فردريك جاكسون تيرنر، بحثاً أمام الجمعية التاريخية الأمريكية في مدينة شيكاغو أدى إلى تغيير مسار الكتابات الرسمية للتاريخ الأمريكي - والطريقة التي كان ينظر بها المؤرخون إلى كيفية الاتصال السببي بين عناصر الماضي. وقد أصبحت فكرة تيرنر - التي عرفت بعد ذلك بافتراضات التخوم - جزءاً أساسياً من الطريقة التي نفكر بها في ماضي البلاد، ذلك الماضي الذي أصبح يبدو لنا الآن كما لو كان أمراً بديهياً. وكانت هذه الافتراضية جديدة ومتفردة في وقت طرحها.

وقبل عام 1893م، اعتقد معظم المؤرخين أن أمريكا قد تشكلت بدافع الرغبة في الانفصال عن التأثيرات الأوروبية، أو بفعل القضايا الاقتصادية والاجتماعية، التي برزت بقوة خلال الحرب الأهلية الأمريكية. وقد قدم تيرنر طرحاً ثالثاً، هو أن أمريكا قد تشكلت بفعل كل من حقائق ومفاهيم تخومها الغربية، وذهب إلى القول بأن الشخصية القومية ذات التميز الواضح بحب المغامرة وروح المبادرة والعمل الجاد، قد اشتقت من تفهم واستيعاب خبرات وتجارب المواطنين، الذين عاشوا في مناطق التخوم الغربية. وقد قبل المؤرخون هذه الافتراضات بشكل عام، وأدخلوا عليها واشتقوا منها الكثير لما يقرب من قرن من الزمان.

وتوضح ملاحظات تيرنر شيئين على الأقل: الأول: أن الاتجاه السردي الذي يتخذه تاريخ أمة ما عادة يكون عرضة للمراجعة والتغيير، والثاني أن الأراضي التي تشهد هذا التاريخ، هي في واقع الأمر حقيقة واقعة فيما يتعلق بتأثيرها الفعلي العميق على الإنسان، وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون غير حقيقية، ولا تتجاوز كونها مجرد توقعات قائمة على التصورات البشرية.

ولا يوجد في تاريخ شمال أمريكا برمته موضع يكون فيه هذا التصور أكثر وضوحاً من حركة التوجه نحو الغرب، التي شهدها القرن الثامن عشر. فقد شهدت تلك الحقبة من تاريخ الغرب الأمريكي مناقشات ومداولات حامية، شارك فيها السياسيون، ورجال الاعمال، والصحفيون حول أفضلية براري الحشائش الطويلة أو براري الحشائش الصغيرة للزراعة. وفي خضم هذه المناقشات الحامية لم تكن النبرة السياسية للمؤيدين والمعارضين، ولا اللهجة العلمية المجردة للمنظرين الزراعيين، مجرد شهادة واقعية تعكس واقع الأرض من خلال سجلات الناس، الذي يعيشون عليها، أو من خلال ملفات حفظ معدلات سقوط المطر عليها.

وربما يكون ذلك واضحاً في العصور الحديثة. فمن أكثر المشاكل السياسية مدعاة للسخرية والضجر في أمريكا الشمالية، تلك القوانين واللوائح التي تصدر من واشنطن وأتاوا دونما أدنى اعتبار للمناطق التي ستطبق فيها هذه القوانين. وعلى أية حال فإننا جميعاً نفهم الأرض بشكل غير كامل، حتى حين نذهب بأنفسنا إلى المجهول لنستكشفه، ونتساءل عنه. فمفاهيمنا المسبقة ورغباتنا تلون إدراكنا للأمور، وتؤثر عليه، فالمناطق الطبيعية توليفة تلقائية مقيمة من الزمان والمكان، لا يمكن فهمها بشكل تام. إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه يتعين علينا أن نحجم عن السعي لفهمها واستيعابها. فإذا ما وضعنا في الاعتبار أن هذه المناطق تتميز أساساً بالغموض في تكويناتها وألوانها، وفي تنوع أشكال الحياة عليها، وفي المميزات الملموسة لتربتها، وفي صوت الارتطام العنيف لقطرات المطر بأرضها، وفي روائح أزهارها، أي إذا فهمنا أن هذه المناطق تجمعات من الغموض فسيكون من الأسهل علينا أن نفهمها، ونستوعبها بشكل أفضل.

أتذكر، في هذا السياق، فكرتين؛ الأولى، حين طرحت سؤالاً على رجل في ممر أناكتوفوك، عما يفعله حين يزور مكاناً جديداً فقال: «إنني أرهف السمع، فقط أرهف السمع». وأعتقد أنه كان يقصد إرهاف السمع لما تقوله الأرض، والذي أفعله أنا شخصياً أنني أتمشى هنا وهناك لفترات طويلة، وأنا مشدود الحواس مستشعراً للأرض قبل أن أتفوه بكلمة واحدة. وأضاف الرجل قائلاً: «إن دخول منطقة جديدة بهذا الأسلوب المهذب، سوف يجعل الأرض تبوح لك بأسرارها». أما الفكرة الثانية فتتعلق بتجارب الرسامين الأمريكيين، الذين كانوا يسعون إلى شخصية مستقلة تميزهم من أقرانهم الأوروبيين في القرن الثامن عشر، فتوصلوا إلى مفهوم أن الأرض بما عليها من مناظر طبيعية، قوية بشكل حقيقي: إنها خادعة ومخيفة، أخاذة بشكل لا نهائي، وغنية إلى أبعد الحدود، بل وتستعصي على الفهم، وموحشة.

وبينما كنت أخطو خارج الكابينة الصغيرة التي نعيش فيها في جزيرة بينجوك، امتدت أمامي سهول التندرة المميزة إلى الجنوب وإلى الشرق، فيما أخذت مجموعة من طيور النورس الرمادية تحلق في السماء، وتحط مرة أخرى على سطح الأرض، وإذا بهواء شديد البرودة كما لو كان مندفعاً من ثلاجة يصفع وجنتيّ، وعلى بعد عدة ياردات أخرى إلى الغرب، جلد فقمة وقد شد جيداً بين وتدين خشبيين صغيرين ليجفف، وخلفه بياردات قليلة، أحد طيور الفلروب يقفز فوق سطح

بحيرة صغيرة من الماء العذب، وهو يتغذى على القشريات الدقيقة السابحة في مياهها.

كانت رياح جنوبية غربية تهب منذ يومين، وهي التي أبقتنا على الشاطئ اليوم، والسماء تنذر بعاصفة ثلجية تتجمع في الأفق. اتجهت جنوباً عبر التندرة نحو البحيرة، وأنا أتساءل إن كنت ساجد هناك أياً من طيور البط. كانت في ذهني خطة غير واضحة المعالم: ربما أذهب إلى البحيرة، ومن هناك أتوجه شرقاً بمحاذاة الساحل، إلى مكان تتميز فيه التندرة بأنها أفضل صرفاً وأكثر جفافاً، والمشي فيها أسهل، ثم أعود أدراجي عبر الجزيرة بمحاذاة الشاطئ.

وفي مثل هذه المناطق المنبسطة، وحتى مع انخفاض السماء، يتعجب المرء من الاتساع الشاسع للمنطقة. إنه نوع من الاتساع المخادع. وعلى أية حال، إن هناك سجلات حافلة بأمثلة على التوقعات الكبيرة، التي علقها مستكشفو المناطق القطبية على المناطق التي استكشفوها. والسبب في ذلك، هو أن الأماكن المميزة في مثل هذه المناطق المنبسطة، والتي تكاد تخلو من أي تضاريس، تكون واضحة جداً، ويمكن للعين أن تلاحظها في الحال. وأيضاً هناك شيء آخر يتعلق بالطريقة التي توجه بها المناطق الطبيعية تحركات وتوجهات البشر، فالعثور على بشر في مثل هذه المناطق يعدّ أمراً غير متوقع باستمرار، تماماً مثل ما يحدث في حالات عبور الصحراء. فالناس قلة في مثل هذه المناطق. وغالباً ما، تؤدي مقابلة أناس في مثل هذه البقاع، إلى إثارة هذا الجزء المنعزل من تيار الأحاسيس الخفية، التي تتدفق عند خوضنا لهذه المناطق، فالشخص الذي تقابله، لا يتوقع هو الآخر أن يقابل أحداً في هذه الأصقاع. وذات مرة حين كنت مخيماً في منطقة يوكون العليا شاهدت شخصاً في قارب صغير على مسافة بعيدة. وحين رفع منظاره باتجاه جرف صخري، حيث تعشش بعض طيور الباز الجوال، تساءلت من يا ترى يمكن أن يكون هذا الرجل؟ (وقد كان استشارياً في علم الأحياء، يعمل في مشروع لتعداد طيور الباز الجوال في هذه المنطقة). وقد عرفت من يكون، حين تذكرت ملاحظة كنت قد سمعتها منذ نحو أسبوع، قبل تلك الواقعة في مطعم صغير في مدينة فيربانكس، وعلى الأرجح فقد كان هو الآخر على علم بالعمل الذي أقوم به. وفي هذه اللحظة تبدد بعض من الإحساس بالغربة تجاه تلك المنطقة.

وإذا ما خفف المرء قبضته الحاكمة الحريصة على وقته، وتوقف عن التعامل معه كسلعة قيمة، يتعين تناولها بحرص، وعدّه أمراً غير فارق، مثله مثل استواء المناطق الطبيعية وانبساطها، فإنه يمكنه

في هذه الحالة التسامي فوق المسافات، بل وسيمكنه الترحال بعيداً جداً من دون عناء أو مشقة، وبدون أن ينال منه الاتساع الشاسع للأرض. فإذا كان المرء مزوداً بالملابس المناسبة، ويحمل معه القليل من الطعام، ولديه القدرة على أن يؤمن لنفسه مزيداً من الطعام من الطبيعة، وأن يهيء لنفسه ملاذات آمنة كلما احتاج لذلك، وكان في عقله متسع بما فيه الكفاية، بحيث يمكنه أن يعمل مع حواسه لتفهم الطبيعة من حوله، أصبح من السهل ارتياد مناطق مثل سهول التندرة، التي هي لقاطنيها مستودع للغذاء والأدوات البسيطة.

وفيما تابعت طريقي في اتجاه الجنوب الغربي، عبر ممرات ضيقة تتعرج بين الأجزاء المتجمدة، كنت أشعر بحركة الطيور. فهذه طيور الغواص السامك تحلق في السماء على مسافة بعيدة جداً، فتبدو كما لو كانت بقعة صغيرة تتحرك في مسار ملتوٍ في الأفق. وهنا عصفور صغير يقفز فوق الأرض. وتتحرك الطيور جيئة وذهاباً، تذهب إلى البحر للبحث عن الطعام، وتجيء إلى البحيرة للراحة على وفق ما يبدو أنه جدول زمني منتظم. ويقول العلماء إن نمط هذه الحركة – المجيء والذهاب – يتكرر كل أربع وعشرين ساعة. لكن وصف هذه الحركة يكون أكثر تعقيداً من مجرد ملاحظتها ورصد وتيرتها، تماماً مثل وصف أي حركة أخرى للوقت.

ويتغير صوت وقع خطواتي، فيما تتغير طبيعة الأرض تحت قدميّ من رطبة إلى مبتلة، ومن مبتلة إلى جافة، وأنا على يقين أنها تضم عوالم من المخلوقات الدقيقة. وأخذت أقلب في سجل الذاكرة بحثاً عن صفحات النباتات القطبية، وحاولت أن أتذكر النباتات التي تميز هذه المنطقة، وتلك التي يمكن بها التمييز بنظرة سريعة بين مساحات التندرة الرطبة وتلك الجافة. ولكنني لم أتذكر. وعلى أية حال فإن مثل هذه السمات لن تتضح إلا على الجزيئات العالقة بقدميّ. ويشعر المرء بارتياح أكبر، إذا كان لديه معرفة ووعي بالبيئة المحيطة به. فهذه المواطن الصغيرة، مثلها مثل المناطق الطبيعية الواسعة، تندمج فيما بينها بشكل دقيق للغاية. فتذكر منطقة طبيعية ما يجعل المرء يشعر بأن المنطقة التي هو فيها الآن اليفة، وكذلك فإن سلوك حيوان ما في منطقة معروفة يستثير التوقعات بشأن سلوك أقربائه من السلالة نفسها في منطقة أخرى. ولكن في النهاية لا توجد منطقة تشبه الأخرى تماماً. وتلك الخطوط التي نرسمها على خرائطنا الطبوغرافية، لا تفصح فقط عن الفواصل التي نعرفها ونفطن إليها، بل تفصح أيضاً عن فهمنا واستيعابنا للتناقضات التي

تحملها الطبيعة.

وذات مرة، وصفت لي عالمة نباتات متخصصة في التندرة صبرها على دراسة كتلة من الأعشاب على كومة صغيرة، لا يتجاوز ارتفاعها ثماني عشرة بوصة، وعرضها نحو قدم واحدة، فقد فصلت النباتات الحية عن الأنسجة الميتة، ودونت أنواع النباتات التي عثرت عليها في هذه الكومة، وفحصت الحشرات التي تعيش فيها، وقشور ثمر العلّيق، وأشياء أخرى دقيقة وصغيرة، يصعب رؤيتها أو حملها من دون أن تنسحق بين أصابع اليد. وقد استغرقت في عملها هذا عدة ساعات، وقد استغرقت تماماً في التركيز فيما بين يديها من عمل، ونسيت الإحساس بالوقت. وتقول إنها حين تذكرت في لحظة ما أن ترفع نظرها عن كتلة الأعشاب تلك، إلى سهول التندرة المترامية أمامها بما تحويه من مئات الآلاف، من كتل الأعشاب المماثلة على امتداد البصر عليها، لم تتمكن من الكف عن النظر لهذا المشهد للحظات طويلة.

ويبدو الطريق الذي أسلكه عبر جزيرة بينجوك غنياً، وأدرك تماماً أن الكثير مما مررت عليه قد فاتني، لافتقار حواسي للحدة والفطنة المطلوبتين، لملاحظة كل شيء حولي، ولافتقاري للقدرة على التمييز بين بعض الأشياء، وأيضاً لعدم اعتيادي المكان بوجه عام. ولو كُنت أعرف لغة السكان المحليين، لساعدني ذلك كثيراً، فاللغة المحلية تفرق بين الظواهر المحلية، وتساعد على تفهم الأشياء التي لا تحمل مسميات محددة في الطبيعة.

وإني أعرف تماماً مقدار ما فاتني، وكل ما عليَّ أن أفعله هو أن أتذكر وجوه الأسكيمو الذين سافرت معهم من قبل، ونظرات أعينهم المستمرة التي تسرح في الطبيعة من حولهم. فحتى وهم في بيوتهم يفضل الرجال الحديث، وهم جالسون إلى جوار النافذة. إنهم دائماً ينظرون بعيداً إلى الأرض أو إلى السماء التي تحمل نذر الطقس القادم إليهم. وفيما كنت أقترب من البحيرة، وأنا أفكر في شيء ما، رأيت سرباً من طيور الترمجان ترعى عندها، وابتسمت حين تواتر إلى ذهني فكرة أنه كان يعتقد من قبل، أن سبب الإصابة بداء الاسقربوط في المنطقة القطبية هو قحولة سواحلها.

لم يكن هناك أي من طيور البط بالقرب من البحيرة، وباستخدام نظارة الميدان، استطعت بصعوبة أن أميز سرباً منها على شكل خط داكن، يطفو على سطح الماء عند الطرف البعيد للبحيرة،

وهو شاطئ آمن بعيد عن الرياح. تخيرت بقعة مناسبة على التندرة، وجلست عليها بحيث أكون في مأمن من الرياح، وعدلت ثيابي، بحيث لا تتسرب الرياح الباردة من أي جزء منها، وبدأت في مسح الشاطئ البعيد بنظارتي. وبعد عشر أو خمس عشرة دقيقة لمحت اثنين من حيوانات الرنة.

وذات مرة سأل أحد رجال الأسكيمو ستيفنسون حين قدم الأخير له نظارة ميدان لأول مرة، عما إذا كان يستطيع أن يرى الغد بها! وتعجب ستيفنسون من هذا السؤال لأنه أخذه حرفياً. وعلى الأرجح فإن هذا الرجل من أسكيمو الأنوك كان يقصد ما إذا كانت هذه الوسيلة تجعل مستخدمها قادراً على رؤية أشياء، ستصله بعد يوم أو تبعد عنه مسيرة يوم بأكمله. ويتمتع بعض صيادي الأسكيمو ببصيرة طبيعية مذهلة، حيث يمكنهم تحديد مكان حيوانات الرنة، التي ترعى على منحدر يبعد عنهم بثلاثة أو أربعة أميال، وبالطبع فإن التفتيش الدقيق والمتفحص للأرض – والذي هو علامة من علامات الصياد الماهر – يزداد دقة باستخدام نظارة الميدان. وقد أصبح العديد من رواد المكان من غير الأسكيمو على دراية بأهمية مسح الأرض باستخدام المنظار بحثاً عن علامة، أو دليل على حركة حيوان ما. فيعكف الصياد منهم على مسح المنطقة التي أمامه بالكامل بتفاصيلها كافة. وقد يستغرق الأمر نحو ساعة من الوقت، كي يغطي 360 درجة من منطقة التندرة، التي تبدو أمامه ساكنة صامتة، حيث يقسمها إلى أجزاء يمسح كل منها على حدة.

ويمكن للمرء أن يتعلم كيفية القيام بذلك، وعادة ينتج عن هذه الممارسة اكتشاف سنجاب أرضي، أو أحد حيوانات الشّره الشاردة، أو ربما أعشاش بعض الطيور – أي شيء يدلك أين أنت، وماذا يجري من حولك – وحين تقع أسيراً لتلك العادة، وتصبح قادراً على التغلب على نفاد صبرك، ستشعر أنك أقل وضوحاً مما كنت تظن في هذه الأرض.

وتابعت السير في طريقي بمحاذاة الشاطئ، قبل أن أصل إلى منطقة تجف فيها التندرة، ثم اتجهت صوب الداخل. وفي منتصف الطريق رأيت جمجمة لأحد طيور الإوز تبدو ملقاة في هذا المكان بعشوائية، تماماً مثل أنثى طائر العيدر التي كانت ترقد ميتة على الحشائش بالقرب من الكابينة التي أسكن فيها. إنها أشياء تثير المزيد من الاستفسارات، التي يمكن أن تكون متخمة بالأفكار، فهناك مَنْ يهتم بمثل هذه الشظايا من المعلومات، ويستفيد منها بطريقة ليست متاحة لي، وسأحاول أن أعرف لماذا؟ أستطيع أن أميز رياحاً ثلجية شديدة تهب من الناحية الجنوبية الشرقية، وكنت أرغب

في الوصول إلى الشاطئ قبل أن تصل إليّ، فربما تخفي هذه العاصفة وراءها ما هو أسوأ. والخط الساحلي هو طريقي إلى البيت. تركت جمجمة الإوز التي لا يتجاوز سمكها سمك الورقة العادية في مكانها على الأرض. وبعيداً باتجاه الشرق، رأيت إحدى العلامات المساحية التي وضعها إرنست ليفنجويل حين كان يقوم برسم خريطة هذا الساحل في عام 1910م. وقد بدت من بعيد كاطلال مائلة لبناء خشبي مستدق الطرف مهدم، وتعطي انطباعاً بانها بيت مهجور، تعصف به الرياح. إنه أثر باقٍ يشير إلى الرغبة في التحكم في الاتساع الشاسع للأرض. وهو كإشارة على الحدود والفواصل التي تتيح تقسيماً مناسباً للأرض، وتعريفها، وتسجيلها، وتحديد ملكياتها.

* * * * *

ويتضمن التاريخ الغربي في جزيرة بينجوك القليل من الاحداث. ففي عام 1826م، قاد جون فرانكلين الذي كان ضابطاً شاباً في البحرية البريطانية كوكبة من رجاله إلى هذه النقطة باتجاه الغرب من مصب نهر ماكينزي، في محاولة للقاء مجموعة اخرى عند نقطة بارو على بعد 250 ميلاً من مصب النهر. لكن نظراً لرداءة الطقس، وللإجهاد البدني الذي حل برجاله، فقد توقف عن النقطة التي يصبح الاستمرار بعدها ضرباً من التهور. وعاد من دون أن يكمل المهمة في خريف العام نفسه. وفي أغسطس سنة 1850م أنزل روبرت ماكلور سرية من الرجال على الشاطئ، حيث قابلوا مجموعة صغيرة من الأسكيمو الذين يقطنون الجزيرة، وقد عدّ الاسكيمو السفينة «أنفستيجيتور» التي كانت تقل هؤلاء البحارة جزيرة سابحة كما قال احد المبشرين المورافين(*) الشبان الذين كانوا برفقة السرية التي نزلت إلى الشاطئ. وأضاف المبشر واصفاً دهشة الأسكيمو من سفينتهم قائلاً: «مع كل حركة للسفينة، كانوا يبدون انزعاجاً شديداً، وكان يبدو عليهم كما لو أن صدمة كهربائية أصابتهم جميعاً».

وفي أواخر القرن الثامن عشر، قام صيادو الحيتان الأمريكيون بزيارة الجزيرة، وحصلوا على المياه العذبة من بحيراتها. وفي سبتمبر 1913م، وفي مكان قريب من الجزيرة، هجر ستيفنسون سفينته

(*) الطائفة المورافية: إحدى الطوائف البروتستانتية وتستمد تعاليمها من المصلح الديني جون هس الذي ولد عام 1415م في بوهيميا (المترجم).

المنكوبة «كارلوك». (كانت السفينة - وهي في الأصل سفينة لصيد الحيتان قد أعيد تأهيلها لتكون سفينة استكشافات علمية - قد احتجزت في الجليد، ثم جنحت بعد ذلك بعيداً باتجاه الغرب حيث تحطمت، وغرقت، مما تسبب في موت نصف طاقمها). وقد وصل تراندر ومستكشفون آخرون من أمثال ليفنجويل إلى المنطقة خلال تلك السنوات. ففي عام 1952م. قام عالم آثار يدعى وليم إرفنج بأول عمليات تنقيب عن الآثار في المواقع التي تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ في الجزيرة. وبعد ذلك بسنوات قليلة تم بناء محطة خط دي. إي. دبليو. في أوليكتوك. وفي فترة الستينيات، قامت البحرية الأمريكية ببناء موقعين صغيرين وكابينة تبلغ أبعادها عشر أقدام عرضاً وثماني عشرة قدماً طولاً، لاستخدامات المجموعات العلمية الميدانية، التي تعمل انطلاقاً من مختبر أبحاث القطب المتجمد الشمالي، التابع للبحرية الأمريكية في بارو، وقد استخدمت هذه المرافق فيما بعد أيضاً من قبل البرنامج الاتحادي للتقويم البيئي للرفّ القاري الخارجي. كما تؤدي هذه المرافق في بعض الأحيان مجموعات الأسكيمو التي ترحل عبر الشاطئ، وهو المكان ذاته الذي وجدت فيه جلد الفقمة الصغيرة المشدود إلى وتدين على الأرض، بالقرب من باب تلك الكابينة ذاتها.

أما السجل المحلي لتاريخ الجزيرة، فهو أكثر عمقاً وإثارة، ويرجع ذلك في الغالب إلى موقع الجزيرة، فقد ظلت تستخدم لعدة قرون بوساطة الشعوب التي كانت تعتمد على الصيد، ولكنه كان استخداماً متقطعاً على الأرجح. ولا يوجد الآن أي دليل على الوجود المبكر على الجزيرة سوى اثنى عشر منزلاً، يعود تاريخها إلى نحو 400 سنة إلى الوراء، محاطة بسياج من الألواح الخشبية الناتئة، وأضلاع من هياكل الحوت الأحدب. ومن الواضح أن هذا الامتداد لسواحل أمريكا الشمالية لم يكن ماهولاً بشكل كثيف أبداً. وعلى أية حال، فإن منازل جزيرة بينجوك تعدّ حتى سنة 1981م أكبر المواقع التي تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ.

ويمكن لأيّ عالم آثار بارع أن يتوقع ما تحويه مخيمات كهذه في مثل هذا المكان. فقد أخذت جزيرة بينجوك اسمها من كلمة في لغة الإنيبيتون تعني [ارتفاع في الأرض فوق كتل من الجليد]، وتشير هذه الكلمة إلى تل رملي طويل على حافة الجزيرة المقابلة للبحر، يوفر الحماية من العواصف. ونادراً ما تتوافر هذه الحماية على امتداد هذا الشاطئ؛ لذا يسهل ملاحظتها والاستفادة منها.

وقد استفاد أيضاً الصيادون، الذين أقاموا مخيماتهم على جزيرة بينجوك من إمكانية الوصول المبكر إلى أنواع الفقمة على اختلافها حول مصب نهر كولفيل، حيث تبدأ كتل جليد المياه العذبة في الانفصال عن بعضها، قبل تكسر جليد مياه البحر. وعند بحيرة سمبسون، كان يمكن لهؤلاء الصيادين أن يجدوا أسراب طيور البط والإوز. وعلى امتداد الشاطئ هناك كميات كبيرة من الأخشاب المجروفة (من نهري ماكينزي)؛ حيث يصل طول بعض الأشجار إلى 40 أو 30 قدماً. وعلى الجزيرة أيضاً بحيرات كبيرة من المياه العذبة، تموج بأسراب سمك الشار ومجموعات الدلفين الأبيض. وفي شهر سبتمبر يمكن اصطياد أعداد من الحوت الأحدب، وهي متجهة جنوباً نحو مضيق برينج. وعلى جانب البحيرة المقابل لداخل الجزيرة، يمكنهم أن يتوقعوا مشاهدة حيوانات الرنة.

وتوضح الحفريات التي تمت في منازل جزيرة بينجوك إن الجماعات التي عاشت هنا خلال الفترة بين 1550م و 1700م كانت تقوم بصيد تلك الحيوانات كلها، بالإضافة إلى حيوانات الفظ والدب القطبي، ومن بين الأشياء التي كشفت عنها عمليات التنقيب أسنان دب قطبي، وشرك لصيد الأسماك، ونموذج صغير لقوس الأطفال، كان يستخدم لعبة للأطفال، وقطعة من قرن حيوان رنة، وصفائح مدرعة.

وعند الوقوف بالقرب من أطلال تلك المنازل، يتعجب المرء من هذا القدر من التاريخ البشري، الذي يرقد هنا بدون إزعاج على أرض القطب المتجمد الشمالي، كما يتعجب أيضاً من التناقض بين هذا الماضي وذاك الذي يمكن استرجاعه بسهولة؛ مثل ماضينا نحن: فهذا جزء من منقار طائر، وتلك حلية مصنوعة من أنياب حيوان الفظ. لكن ما هي تلك الأفكار التي كانت موسومة بهذه الأشياء؟.

وقد تم العثور أيضاً على مساكن تعود إلى مجموعات من الأسكيمو أكثر حداثة في جزيرة بينجوك، منها بيوت مصنوعة من الأديم وعظام الحيتان، تعود إلى فترة العشرينيات من هذا القرن. وفي الأعوام الأخيرة، قام علماء تاريخ الأجناس البشرية بزيارة الجزر، وأحضروا معهم مجموعات من الأسكيمو الذين عاش أسلافهم في هذه البيوت. وجرت مواجهتهم بآثار الحياة التي عاشها هؤلاء الأسلاف على الأرض ذاتها بهدف سبر أغوار ذاكرة الحضارة، تلك الحضارة الملتصقة بهذه الأدوات البسيطة التي وجدت في الموقع الأثري، ولم تعد تستعمل، لكنها موصوفة بدقة في لغة الإنيبيتون، والتي تتآكل مفرداتها الآن بسرعة.

في مساء احد أيام السبت من صيف سنة 1981م، جاءت مجموعة من الأسكيمو لزيارتنا في جزيرة بينجوك، حيث كانوا يقومون بعملية مسح لاراضي المنطقة، بهدف تحديد أحقية استخدام أجزاء منها، وهي عملية معقدة لتقويم الاراضي التي استخدمتها الشعوب الأصلية في المنطقة، لإثبات حقوقها في جزء ما من الأرض. وقد تحدثنا قليلاً عن تاريخ الأسكيمو في جزيرة بينجوك (وقد بدا الأمر كما لو أن المكان سيظل غير محدد المعالم، ولا يطالب أحد بحقوق فيه بدون تلك التفاصيل الدقيقة التي قبلها الرجال الذين يمتلكون خرائطه). وكان الشيء الوحيد الذي منعهم من المطالبة بحقوق في هذا المكان، هو بعض الحقائق التاريخية المقبولة والمحققة. وفي سهولة وحماس كبيرين انتقلنا جميعاً للحديث عن الصيد. وعادة ما يتسم الحديث في هذا المجال بالود، بخلاف الأحاديث التي تتعلق بقرى الأسكيمو التي يمكن للتوترات السياسية والعرقية أن تظهر فيها بقوة. وفي أحاديث الصيد، لا تجد أحداً على استعداد لمواصلة الحديث في قضية يمكن أن تقود إلى خلاف، ولا تجد أحداً يطرح سؤلاً يمكن ان يفسر على أن الهدف منه مجرد الإحراج. فالحديث عن الصيد أمر مقبول لديهم دائماً، بل ومحبب أيضاً. وفي سياق هذه الأحاديث يُطرح الكثير من المعلومات، ويشعر المرء، وهو يشارك في الحديث عن التفاصيل الدقيقة لحياة الحيوانات التي يحتفظ بها هؤلاء الناس في ذاكرتهم، أن الأحقية في المطالبة بالأرض، لا تقل شرعية وأهمية عن الأشياء التي تم العثور عليها في المنازل التي يعود تاريخها إلى 400 سنة خلت.

وبعد رحيلهم، تحدثنا فيما بيننا عن التاريخ الحضاري للأسكيمو. وقد لاحظنا أنهم ارتحلوا في قارب صغير باتجاه الشرق (وبالنسبة لمعظم المراقبين فقد تبدو الملابس التي يرتدونها غير ملائمة، وأنهم غير مجهزين جيداً لرحلتهم، وهذا انطباع عام)، فهؤلاء الرجال الذي رحلوا لتوهم، كانوا يحملون معهم تاريخاً حقيقاً، بدا كما لو كان نسجياً غليظاً، ألقوا به كالشبكة على صعيد الزمن الذي يتدفق في عاداتهم وتاريخهم غير المدون. إنه نمط أصبحوا معتادين ومتمرسين عليه الآن. لقد كان هناك قدر كبير من الكبرياء والأصالة في تلك المرأة الأسكيمو التي جلست هناك على كتلة خشبية في جزيرة بينجوك، وهي تسجل على شريط كاسيت تفاصيل الحياة التي عاشوها منذ سنوات طويلة مضت. وحين تتدفق الذكريات، يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة الخيوط الرفيعة التي تربطهم بالأرض التي عاشوا عليها، فهي تظهر جلية، وهم يتحدثون، خاصة في ضوء رغبتهم في المعرفة.

ولقد قامت الشعوب الأصلية بتنفيذ العديد من مشروعات استيطان واستغلال الأراضي على امتداد القطب المتجمد الشمالي، تأكيداً لحقوق في مناطق بعينها، ولتعزيز حقوق الصيد التي يتمتعون بها في هذه المناطق. وقد أوضحت الدراسات وجود صلات طويلة الأمد، ومستمرة بشكل ملحوظ بين جماعات مختلفة من الشعوب الأصلية ومناطق محددة قطنتها تلك الجماعات في المنطقة القطبية الشمالية. ومن المستحيل فصل ثقافات تلك الجماعات عن الأرض التي عاشوا عليها. فالأرض هنا تعمل نمطاً معرفياً يرحل في الزمن من خلال هذه الشعوب والجماعات. فالأرض تمثل لهم ما تمثله لنا الإنجازات المعمارية في بعض الأحيان. إنها تزودهم بالشعور بالمكان، والإحساس بالتاريخ، وبقناعة أن أكثر ما يخشونه – وهو زوالهم وانتهاء وجودهم – لن يحدث أبداً.

وذات مرة، قال أحد رجال الأسكيمو لمحدثه نحن هنا (أي نحن هنا نحيا في هذا المكان على وجه التحديد) لأن وجود أسلافنا أمر واقعي. والوجود الواقعي للأسلاف يعني استمرارية معارفهم واستفادتهم من الأرض، وارتباطهم بها. وذات مرة قالت امرأة من الأسكيمو لمحدثها، وكانت ترقد وحيدة مكتئبة في غرفة بإحدى المستشفيات، إنها في بعض الأحيان ترفع كفها أمام عينها لتنظر فيه. «هنا، في راحة يدي أستطيع أن أرى الشطآن، والبحيرات والجبال والتلال التي ذهبت إليها. أستطيع أن أرى حيوانات الفقمة والطيور...». وفي مقابلة أخرى، قال أحد رجال الأسكيمو، وهو يستشعر انقطاع علاقاتهم بالأرض، وإحلال نمط اقتصادي جديد محل نمط اقتصاد الصيد الذي كان سائداً: «سيكون من الأفضل إذا ركز الإنويت عقولهم على الأرض». فعقولهم – كما يعتقد ذلك الرجل – تتحدد بفعل الأرض التي يعيشون عليها، وأنهم يستطيعون تصور الأرض بما تحمله بالقدر الذي مكنهم من الاستفادة منها. ومثل معظم الأسكيمو، وكما أوضحت عمليات المسح للاستيطان والاستغلال، فإن هذا الرجل لا يستطيع أن يدرك معنى الحياة منفصلة عن الأرض – حياة منفصلة عن الحيوانات، والطقس، وصوت الجليد، ومذاق وفائدة الغذاء الذي تجود به، الغذاء الذي يعول عليه.

وفي سرد طويل ضمن مؤلفه «الأسكيمو الأوسط Central Eskimo الذي صدر في عام 1888م، يصف فرانز بوس ولادة طفل من الأسكيمو، ونوعية الملابس التي يرتديها الطفل في أثناء الأيام

الأولى في حياته: قلنسوة مصنوعة من فراء الأرنب القطبي، وملابس داخلية من ريش الطيور، وطوق صغير من جلد صغار الرنة يغطي الأذن. ويتعجب المرء من المجهود الكبير الذي تبذله الأم، خاصة لتأكيد وضع طفلها بسرعة كبيرة على بداية علاقة معقدة وتفاعلية مع الأرض، المصدر المستقبلي للرفاه الروحي والنفسي والجسدي لطفلها. وبعد فرانس بوس بنحو مائة عام، قدم ريتشارد نلسون، وهو عالم متخصص في الأعراق البشرية في المناطق الشمالية، وصفاً مشابهاً، لكنه أكثر حداثة لفهم التاريخ الطبيعي لدى شعب الكوياكون في كتابه «مناجاة الغداف» (1983م). وفيما تغير العديد من الأشياء في حياة الأسكيمو، تبقى الدلائل على وجود تلك الرابطة القوية بالأرض ظاهرة بوضوح – إنها معرفة عملية بها، وحساسية مرهفة نحوها – كما تظهر الأرض بوضوح أيضاً في القصص التقليدية للأسكيمو، في شكل دلائل على الارتباط الوثيق بالأرض، وعلى وجود علاقة قوية وثيقة بين الأرض والنشاط الإنساني الذي يجري عليها. وهناك الكثير من الناس، الذين لم يهجروا الأرض، وفي المقابل، فإن الأرض لم تتخلَّ عنهم. وإنه لمن الصعب على شخص قادم من مدن تقبع بعيداً إلى الجنوب أن يأتي إلى هنا، ويستوعب ذلك، ناهيك عن فهم هذه الرابطة، أو تقدير قيمتها. لكنني أعتقد أن هذه المودة الموغلة في القدم تجاه الأرض، هي كالترياق المضاد للشعور بالوحدة، ذلك الشعور الذي نعزيه في ثقافتنا إلى غربة الفرد وإحساسه باليأس.

وابتعدت بنظارتي الميدانية عن برج ليفينجويل. وعند حافة تلة رملية بمحاذاة الشاطئ باتجاه الشمال، لمحت ثعلباً قطبياً، وهو من الجوالين الممتازين في فصل الشتاء، مثل الدببة والذئاب القطبية. أما في فصل الصيف، حين تتدفق المياه إلى المواطن الساحلية للثعلب القطبي، فيبقى هذا الحيوان في مكان واحد لا يبارحه – جزيرة مثل هذه على سبيل المثال – ودائماً يبدو الثعلب كما لو كان متوجهاً على عجل إلى مكان ما. ثم يتوقف فجأة، ويجلس في مكانه ليستريح. وعادة يجري إلى أماكن قليلة الارتفاع، ثم يتشمم الهواء من حوله.

وفي فصل الصيف، يميل لون فراء الثعلب القطبي إلى البني، ويختلط بلون أبيض عاجي في الأجزاء التحتية منه. (في الشتاء يكون لون الفراء أبيض ناصعاً، ويمكن أن يتراوح لون الفراء أيضاً من رمادي مائل للزرقة إلى أبيض شاحب، ويطلق على الحيوان في هذه الحالة: أزرق). ومثل بقية

الحيوانات، فإن تفاصيل حياة الثعلب القطبي متداخلة بشكل معقد. ويتميز هذا الحيوان باتساع وانتظام سلسلة الجحور التي يعيش فيها في فصل الصيف، وبقدرته المدهشة على مواجهة الطقس الشديد البرودة. كما يتميز هذا الحيوان بعلاقته التبعية مع الدب القطبي. ويعدّ الثعلب القطبي أكثر أنواع الثعالب ألفة في أمريكا الشمالية بأسرها، على الرغم من أنه وصف في بعض النشرات الاستكشافية بأنه أخرق طائش، كما سخرت هذه النشرات من شدة إلحاحه، ووصفته بأنه متطفل. وتتميز الثعالب القطبية بحيوية كبيرة، وبمثابرتها في البحث عن الغذاء؛ إذ تقوم بعملية تفتيش دقيق للسواحل التي ترتحل عبرها. ومثلها مثل الدب القطبي، فإنها تتجمع من على بعد أميال عديدة، حول أي مصدر للفضلات أو للجيفة. أما إذا اختارت بدلاً من ذلك خيمة الطبخ في أحد المخيمات، فإن ثلاثين أو أربعين منها تتسابق حولها وتعبث بعنف بكل شيء موجود بها، الأمر الذي يمكن أن يؤدي بسهولة إلى تحول إحساس المرء من التعجب والدهشة إلى الحنق، أو ربما العنف. وقد سببت الثعالب القطبية مضايقة شديدة لبعثة كماتشتكا الاستكشافية الثانية، التي خرجت للبحث عن حطام السفينة فيتوس بيرنج، لدرجة أن الرجال عذبوا وقتلوا الثعالب التي أمسكوا بها كلّها بكل القسوة التي يمكن أن يتوقعها المرء من رجال فقدوا صوابهم بسبب أسراب من الحشرات التي لا تكف عن مضايقتهم.

وفي مواجهته مع الإنسان الحديث في القطب المتجمد الشمالي، انقلبت الأساليب الفعالة التي ينتهجها الثعلب القطبي في حياته بشكل أثر في وجوده في بعض الأحيان. (نجحت الثعالب القطبية في التعايش بشكل أفضل مع الأسكيمو المحدثين، إلا أن هذه الحيوانات تأثرت بشكل كبير بالتدخل البشري في المنطقة. فبعد أن كانت تعيش مهملة دون أن يكترث بها أحد، أصبح الثعلب القطبي واحداً من حيوانات الفراء التي يتم اصطيادها بدون هوادة في المنطقة القطبية، مع قدوم تجارة الفراء ومع ظهور القرية مركزاً للتجارة).

والآن أراقب الثعلب، وهو يتحرك عبر قمة التلة الرملية، وأستطيع أن أميز بوضوح آثار أقدامه القصيرة الناشطة، فلقد شاهدت آثار أقدام هذا الثعلب (وربما ثعلب غيره) في عدة أماكن على امتداد الشاطئ. وأنظر لهذا الحيوان على أنه دائم التنقل عبر الجزيرة، يصطاد إحدى قوارض اللاموس(*) هنا، أو يعثر على جزء من بقايا فقمة هناك، أو يبحث عن طائر أقل قوة وجرأة من طيور

النورس؛ ليتحداه محاولاً الاستيلاء على بيضه. وأتصور شبكة الأثر الذي يتركه على الأرض خصلة من الخطوط الداكنة عبر الجزيرة، مثبتة على ارتفاع بسيط، واضحة للعيان من على بعد بسبب لونها الأخضر الكثيف، أو لما تحويه من بقايا الأزهار البرية التي داسها الحيوان في أثناء تحركه.

وحيث إن أرجل الثعلب قصيرة، وتجعله أقرب كثيراً للأرض، ولأنه بشكل عام أصغر كثيراً في الحجم من الإنسان، فلا بد أن الجزيرة تبدو بالنسبة له أطول كثيراً من أربعة أميال ونصف. كيف تبدو جزيرة بينجوك لهذا الثعلب؟ وهو يتجول فيها بأسلوبه المعهود، يهرول ثم يستريح قليلاً ثم يهرول مرة ثانية، ثم يعود للراحة ثانية، وهو «يرى» الكثير بأنفه الأسود. وأتساءل كيف يتغير فهم أي حيوان للجزيرة على مدار العام؟ وكيف يختلف الشكل الذي تبدو عليه لصقر رمادي، والشكل الذي تبدو عليه لعقرب أو لحوت أحدب يجول عند شواطئها؟. ماذا تعني الجزيرة لطائر الغواص السامك الذي يعيش على الماء وفي الجو، ولا يأتي إلا إلى بقعة محددة في الجزيرة، عند حافة البحيرة حيث يوجد عشه؟ وماذا عن النحلة الطنانة التي تقضي جل فترة المساء داخل تويج إحدى الأزهار الصيفية، جاعلة درجة الحرارة حولها أدفأ بثماني درجات فهرنهايت عن العالم الخارجي؟ كيف يبدو سطح الأرض لمخلوقات صغيرة مثل العرسية ذات الذيل القصير؟ وكيف يمكن لرحالة عظام مثل الرنة والدب القطبي أن تسترشد في رحلاتها عبر هذا الفضاء؟

لقد روى صديق لي كان يعمل ذات مرة بالقرب من ممر الدب القطبي في جزيرة باثورست، أنه شاهد ذئباً يعدو مسرعاً، وهو مطبق على بطة بين فكيه. ثم شاهده يدفن صيده في الأرض. وحين ترك الذئب المكان، اتّجه هذا الصديق إلى الجحر الذي دفن فيه الذئب فريسته، لكنه لم يتمكن من تحديد مكانه. ومرة أخرى عاد الصديق متتبعاً مسار خطوات محاولته الأولى، لكنه لم يجد شيئاً سواء في تلك المحاولة أم في محاولة ثالثة قام بها. ويعتقد هذا الصديق أنه لابد أن يكون لدى الذئب أسلوب مختلف أكثر دقة في استيعاب هذا الفضاء الشاسع في عقله، يمكنه من تذكر المسار الصحيح لمكان فريسته. وهنا بدت الأرض لصديقي أكثر تعقيداً.

وفي ذات يوم، وهناك على جليد البحر، تخليت عن الحماية التي يوفرها مبنى مؤقت، وتتبعت

(*) اللاموس: نوع من القوارض قصيرة الذيل (المترجم).

حزمة من الكابلات الكهربائية، في وقت كانت تشهد فيه المنطقة عاصفة ثلجية. وكانت الرياح تعصف بسرعة أربعين عقدة في الساعة، ودرجة الحرارة 20 فهرنهايت. وقفت لفترة طويلة وظهري للعاصفة، أحملق في ضوء شهر يناير الخافت، وقد تملكني الخوف من أن تقذف بي العاصفة، أو أن أفقد الاتصال بحبل الأمان الذي كنت قد ربطت تحته حذاء طويلاً اختفى تماماً تحت هذا البياض المطبق. وفي مجال الرؤية الذي لم يتجاوز 40 قدماً، لم أستطع تمييز أي شيء سوى حقول من الجليد وتساءلت: ما هي الأفكار التي يمكن أن تخطر في ذهن ثعلب قطبي يقف في مكاني هذا الآن؟ وكيف تؤثر الحاجة إلى الطعام والمأوى في المخلوقات بشكل مختلف؟.

ولا يملك المرء سوى أن يخمن كيف تنظم الحيوانات الأرض إلى مساحات محددة، كل مساحة منها تعني شيئاً بالنسبة لها. إنه العالم الذي يفهمونه ويعرفونه، إنه الأوموليت(*) الخاص بهم. ويتطلب اكتشاف الأوموليت الخاص بحيوان ما صبراً عظيماً وخبرة تجريبية كبيرة، علاوة على تبادل وثيق للمعلومات بين المراقبين، وساعات طويلة من المراقبة المباشرة، وعزوف عن إتباع الأسلوب التخليصي لسلوك الحيوان. وبناء على تجربتي، فإن هذا هو الأسلوب – بتفاصيله – الذي يتبعه الصيادون الأسكيمو. وفي ظل ظروف مثالية، يمكن أن يكون الأسلوب الذي يتبعه العلم الغربي(**).

وهناك الكثير من علماء الأحياء الغربيين الذي يقدرون الكثير من الأمور الغامضة في الحيوانات التي يراقبونها. موضوعياً، هم يدركون أن ما يراقبونه أمور خادعة لدرجة معقدة، وذاتياً يدركون

(*) العالم الذي يعيش فيه الحيوان وندركه نحن البشر هو البيئة التي يعيش فيها الحيوان. لكن ما يراه الحيوان ذاته هو الأوموليت الخاص به أو عالمه الذي يدركه. وقد تتضمن البيئة الواحدة العديد من الأومولينات المختلفة عن بعضها. وقد استحدث جاكوب فون آخسول هذا المفهوم في عام 1943م، بافتراض أن أعضاء الوعي، والتأثيرات والاستقبال، ودرجة الحساسية، والقدرة على التمييز تختلف من حيوان إلى آخر.

(**) تطبيقاً، عادة ما يكون هناك اختلاف بين الأسلوبين، فطريقة الأسكيمو أقل انضباطاً من طريقة العلماء الغربيين، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أنها أقل دقة. وبالمقارنة، نجد أن العلماء الغربيين عادة ما يعانون من عدم توافر الوقت الكافي لعمليات المراقبة، وعادة ما يختارون جوانب معينة من حياة الحيوان لدراستها عن كثب. أما الأسكيمو فلديهم توجه بيئي شامل في هذا الصدد. وعلى أية حال، فإن الأسكيمو يتعاملون بشكل أكثر اتساعاً مع هذا الموضوع، ويضع في الاعتبار تفاعل الحيوان مع العديد من جوانب البيئة المحيطة به، وإن كانت بعض هذه الجوانب ليست ذات قيمة فعلية في بعض الأحيان. وبشكل متزايد أصبح العلماء الغربيون يتبعون هذا النهج. فالعلوم الغربية لديها إطلاع ومعارف أفضل عن الحيوانات المهاجرة، خاصة فيما يتعلق بتحركاتها في الهجرة وتوزيعاتها الجغرافية. ومن ناحية أخرى فإن الأسكيمو يبدون عزوفاً عن استقراء سلوك حيوان بعينه وتطبيق ذلك على بقية الحيوانات من النوع نفسه، كما يفعل العلماء الغربيون. وفي الأعوام القليلة الماضية توصل بعض العلماء إلى معلومات عن بعض أنواع الحيوانات أكثر من تلك المتوافرة لدى الأسكيمو. إن آخر أجيال الصيادين ذوي الخبرات الواسعة يتلاشى بسرعة.

أن للحيوانات أساليب للحياة تختلف عن أساليب البشر. وهم يعرفون أيضاً أنه فيما يتم تصميم التجارب لإماطة اللثام عن بعض الجوانب في الحيوان، فإن الحيوانات ذاتها أكثر - دائماً - من أن يتم احتواؤها من خلال أي مجموعة من التجارب. ويعي العلماء أيضاً أنه يمكنهم أن يكونوا في غاية الدقة في عملهم، لكنهم لا يمكن ان يضمنوا صحة نتائج هذا العمل. إنهم يعرفون أن سلوك حيوان بذاته يمكن أن يكون مختلفاً بدرجة كبيرة جداً عن السلوك المتعارف عليه لفصيلته بوجه عام، وأن سلوك تلك الفصيلة يمكن ان يختلف من مكان إلى آخر، ومن عام إلى آخر.

ومن الصعوبة بمكان تكوين صورة كاملة ودقيقة تماماً عن حياة حيوان ما، خاصة في القطب المتجمد الشمالي، حيث تفرض الظروف الميدانية العديد من المشاكل، وتضع قيوداً على عمليات المراقبة. ويواجه العديد من علماء الأحياء بهذه الصعوبات عند دراستهم لحيوانات مثل الرنة، أو ثور المسك، أو الذئب، أو الدب القطبي في المناطق الشمالية أكثر من أي مكان آخر. كما أن المؤسسات التي تدفع معظم تكاليف هذه الأبحاث القطبية، لا تهتم عادة بجوانب حياة الحيوان كافة، بل يتركز جل اهتمامها على الجوانب التي يمكن أن تعيق أو تعقد مشاريعها. ولكي نكون منصفين، يجب أن نقول إن الاهتمام يتركز في بعض الأحيان على الكيفية التي تسبب بها المشروعات المختلفة إزعاجاً لحياة الحيوان. والأمر الذي يزعج علماء الأحياء هو ضيق التوجه العام للأبحاث، وضرورة إنجاز الأبحاث في عجالة، علاوة على السمة التي بدأت تظهر بشكل أكبر في الأبحاث المتمثلة في اختزال حياة الحيوان إلى أرقام. فالتجريد الذي تتسم به الأرقام الإحصائية يخفي التعقيدات والاختلافات التي يتميز بها موقف معين في الحياة البرية. ويشعر علماء البيولوجيا بالمرارة من الاستبداد الإحصائي، وهيمنة النمذجة الحاسوبية، ومن رغبة المؤسسات في مشاهدة حيوانات مغايرة تتصرف دائماً بسلوك يمكن التنبؤ به..

وذات مرة قال لي عالم كندي: «إنني عالم بيولوجي، أكره أن أختزل سلوك الحيوانات إلى أرقام. إنني أكره ذلك. لكن إذا كان يتعين علينا المحافظة على عملنا (في مواجهة عمليات التنمية) فإنه يتعين علينا إخراج أرقام، لأنهم لن يلتفتوا إلى شيء آخر غير الأرقام. إنني أنفق عمري كله في الإجابة عن هذه الأسئلة». وهم يريدون الحصول على هذه الإجابات في غضون شهرين لا أكثر. وكل ما يقوله السكان الأصليون عن حيوان ما، لا يعني شيئاً بالنسبة لهم، فهو مجرد روايات

عديمة الفائدة.

والاعتقاد بأهمية الإحصاءات، وإهمال ما يرويه الأسكيمو بحسبانه مجرد روايات أمران مشتركان، يواجههما المرء في العديد من تقارير التقويم البيئي الخاصة بالقطب المتجمد الشمالي. وبالطبع فإنه يمكن معالجة الأرقام الإحصائية. فذات مرة قالي لي عالم أحياء متخصص في «الحيتان»: «إذا قسوت على البيانات بالقدر الكافي، فسوف تخبرك بكل شيء». ومما لا شك فيه أن العالم الخاص بالإحصائي، أي (الأموليت) الخاص به - يلعب دوراً في تكوين الصورة الإحصائية للأرض، التي يحلل بياناتها. لقد تم استبعاد قصص الأسكيمو بكياسة، ليس لأنهم لا يجيدون المراقبة، أو لأنهم يكذبون، بل لأنه لا يمكن اختزال السرد الذي يقدمونه إلى أرقام يسهل التعامل معها، أو تلخيصها، فكلماتهم وحكاياتهم من الصعوبة بحيث لا يمكن تحويلها إلى أرقام.

ولا يفتقر العَالم الذي يعمل لأول مرة في القطب المتجمد الشمالي إلى أفكار عن الكيفية التي تعمل بها الأرض وماعليها من مخلوقات، ولا إلى المعرفة النظرية الواسعة الضرورية لتجميع الأجزاء المكونة للصورة العامة، بل إنه يفتقر إلى الوقت في عمله الميداني، والاتصال الممتد مع مصادر محددة للمعرفة. فقد سعى العديد من العلماء الغربيين ومنهم عالم الأجناس البشرية ريتشارد نلسون، وعلماء الثدييات البحرية، جون بورنس، وفرانسيس فاي، وكيري فينلي، وعالم الثدييات البرية روبرت ستيفنسون، إلى الاستعانة بصيادي الأسكيمو كمرافقين ميدانيين بهدف الوصول على فهم أفضل للبيئة القطبية. وقد كتب نلسون (الذي وصل إلى واينريت في أوائل الستينيات، وهو يحمل الكثير من الشكوك بشأن الوصف الذي قدمه له الصيادون الأسكيمو عن أنماط السلوك الحيواني) سطراً واحداً، كان يمكن أن يكتبه أي من العلماء الآخرين، الذين استعانوا بهؤلاء الصيادين بعد عام كامل من الترحال عبر المناطق القطبية معهم، حيث قال: «كانت عباراتهم تبدو غير معقولة في بادئ الأمر، ولكن غالباً ما ثبتت أنها صحيحة».

وتابعت السير إلى التلة الرملية حيث اختفى الثعلب، وقد أدركت أن تلك النباتات تحت قدميّ والتي لا أعرفها، تستطيع أن تحافظ بفاعلية على المعادن والمواد والغذاء والماء في تلك التربة الحمضية الرديئة الصرف. فهي نباتات ذات تكوين محكم، توزع ثقل الجليد، وثقل خطوات حيوانات الرنة التي تدوسها، وثقل خطواتي أنا أيضاً، فلا تنسحق بفعل هذه الأوزان التي تدوسها. وسيقان هذه

النباتات أقصر من مثيلاتها في المناطق الجنوبية، وتتميز بأوراق تحقق أقصى استفادة من الضوء. وقد يستغرق الأمر سنوات كي يتمكن نبات واحد من إنتاج بذور. يا ترى ما الذي يراود هذه النباتات في أحلامها؟

بدأ الجليد في التساقط على المنحدر قادماً مع الرياح الجنوبية الشرقية، وتابعت السير، وأنا أنظر إلى الأرض تارة، ثم أرفع بصري إلى الأفق تارة أخرى، ثم أعود للنظر إلى الأرض ثانية. ترى فيما كان كولومبس يفكر بشأن الوصول إلى غرب الأطلسي وهو يبحر إلى زايتون، ميناء كاثي الشهير؟ كيف كان تقويم كورونادو لسهول تكساس المترامية، وهي أكثر الأماكن التي شاهدها بكارة، وهو في طريقه إلى كويفيرا؟ وما الذي كان يدور في خلد منجو بارك وهو يجوب أفريقيا بحثاً عن نهر النيجر؟ إن الكيفية التي يفكر بها المرء في المنطقة التي يرتحل عبرها تنبع من ثلاثة أشياء على الأقل: ما يعرفه المرء عن هذه المنطقة، وما يتصوره عنها، وقناعاته بشأنها.

وما يعرفه المرء، هو ما جمعه من معلومات عن المنطقة، أو ما عرفه عنها من الكتب، أو ما قيل له من المراقبين المحليين. وعلى أية حال، فإن هذه المعلومات تجمع بطريقة تختلف من شخص إلى آخر، على وفق استعداده الثقافي وشخصيته. فعلى سبيل المثال، نجد أن المسافر الغربي في القطب المتجمد الشمالي سيركز جل اهتمامه على علاقات السبب والأثر (فقط)، أو العلاقة بين الحيوان المفترس وطريدته، وسيكون متيقظاً على وجه الخصوص إلى النباتات والحيوانات التي يمكن أن تملأ فراغات موجودة في سجلات التصنيف الغربية، إضافة إلى ذلك، فإن البشر يفضلون بوجه عام المعلومات المرئية على ذلك التي يمكن أن يتصلوا إليها بحواسهم الأخرى في أثناء دراستهم لمنطقة ما. وفي العادة فإننا نشاهد الأرض أمامنا من ارتفاع محدد عن سطحها. أما في المناطق والبلاد الجديدة بالنسبة لنا فإننا نريد أن نرى أمامنا بانوراما موسعة.

ويتكون ما يتخيله المرء في الأراضي الجديدة من تخمينات حول ما يمكن أن يكون هناك خلف تلك الأكمة عند الأفق القريب، أو الذي يمكن أن يكون هناك عند خط الأفق البعيد مثلاً. وعادة ما يكون قوام تلك التخمينات، ما يأمل المرء أن يراه خلال الرحلة التي يقوم بها، وربما يكون ذلك مثلاً قطعة أرض قاحلة تميل إلى اللون الرمادي بين سهول التندرة، أو ربما يكون ناباً لحيوان الماموث المنقرض مطموراً في غرين أحد الأخوار. وتقوم هذه التوقعات على معرفة بما قد حدث للآخرين في

هذه الأرض. وعلى مستوى أعمق، فإن التخيل يمثل الرغبة في العثور على المجهول، أو الفريد، أو ما يصعب الوصول إليه، أو تخيله مثل بومة شهباء تقبع بلا حراك على ظهر أحد ثيران المسك، أو زهرة ذات ألوان زاهية لم تكن معروفة من قبل، أو بعض من طيور بجع التندرة تسبح في مياه بحيرة في فصل الشتاء.

كما أن الخيال يفرض أيضاً تلك الأسئلة التي تعطي الأرض الجديدة بعداً زمنياً. هل تعود آثار حيوان الفظ هذه إلى هذا الصيف أم إلى الصيف الماضي؟ كم عمر هذه الشجرة؟. هي ستتمكن تلك الذئاب التي تتحرك على مسافة بعيدة من اكتشاف حيوانات الرنة التي ترعى في سلام عند ذاك المنخفض؟ لماذا ترك الناس الذي كانوا يخيمون هنا عظام حيوانات الفقمة خلفهم؟.

إننا نتصرف حيال الأرض بطريقة ضبابية يصعب تفسيرها. فالمسافر غير المتحمس، الذي يفكر فيما يجري هناك بعيداً عنه في وطنه، يغفل عن الأرض من حوله. وليس هناك من هو أكثر يقظة من صياد محلي يشعر بالجوع. وإذا شعر المرء بعاطفة عند مشاهدته لشيء جميل، أو شعر بإثارة كبيرة تحملها أحداث لم تكن متوقعة، فإن هذا قد يؤدي به إلى إحساس متفائل تجاه الأرض التي يرتحل عبرها. أما إذا فقد المرء صديقاً له في انفجار طائرة بعد تحطمها في المنطقة القطبية الشمالية، فإنه قد يعدّ الأرض أرضاً عدواً، وتصبح نظرته لها سلبية بما لا يمكنه من إدراك أي قيمة فيها.

إن رغبة الفرد في الفهم والمعرفة، مثلها مثل أي اختلاف في حدة الحواس لدينا، هي التي تمكن كل واحد منا من العثور على شيء جديد في الأرض، لم يتمكن الآخرون من ملاحظته من قبل.

ومع مرور الزمن تتراكم أجزاء معرفية صغيرة عن منطقة ما بين سكانها المحليين في شكل قصص تحكى. ويتم تذكر هذه القصص في المجتمع، حتى الغريب وغير المعتاد من هذه القصص لا يتبدد ولا يفقد مغزاه. وتمثل هذه الحكايات منظراً بعيد المدى للأرض بالنسبة لسكانها الأصليين. وتتعزز هذه القصص بشكل يومي، حتى وإن كانت تتعرض للتعديل والإضافة والحذف من قبل أعضاء المجتمع تراوحاً بين ما هو معروف بالفعل، وما هو من صنع الخيال. وخارج المنطقة التي تخصصها هذه الحكايات، يصعب المرور على هذا الواقع المعقد من دون اختزاله إلى أمور عامة، أو إلى استنتاجات غير صحيحة أو إلى أمور مجردة غير دقيقة. إن بصيرة أي شعب تتدفق عبر الأرض

كالفيضان تاركة خلفها الكثير من الأفكار عالقة على الأغصان، كما لو كانت قطعاً صغيرة من ورق ممزق، يتعين جمعها وحل ألغازها. وليس هناك من يستطيع أن يروي الحكاية كلها.

والآن يتعين عليّ أن أواجه الرياح؛ كي أذهب في اتجاه الغرب عائداً إلى الكابينة. توجهت نحو شاطئ البحر كي أستفيد من الحماية التي يمكن أن توفرها التلة الرملية. وكانت طيور البط البحري وطيور العيدر تركب صفحة مياه المحيط بالقرب من الشاطئ، في الجانب الآمن من العاصفة وقد وجهت مناقيرها في اتجاه الريح. ومن بين فرجات في التلة الرملية، استطعت أن ألمح أجزاء من التندرة داكنة اللون وقد اكتسحتها الرياح والجليد. وهنا قفزت أفكاري مباشرة إلى الكابينة، إلى شيء دافئ أحتسيه ثم أعود مرة ثانية. وفي أثناء سيري لم أتوقف عن مراقبة طيور البط. إن مراقبة الحيوانات تبطئ السير، ثم خطر بذهني تلك الأشهر الطوال التي قضاها المستكشفون محصورين في الجليد هنا، فقد حوصر بعضهم في سفنهم لثلاث أو أربع سنوات، ولم تكن لديهم أي فرص معقولة للرحيل المبكر من المنطقة. إلا أن سجلاتهم توضح أنهم نادراً ما كانوا يكترثون بالحيوانات التي تأتي تحوم حولهم، وأنهم كانوا ينظرون إلى تلك الحيوانات بحسبانها إما طعاماً لهم، أو تشكل تهديداً أو إزعاجاً. هؤلاء الرجال كانوا بعيدين عن أوطانهم، وتسيطر عليهم مشاعر العجز، وبالنسبة لهم فإن الطبيعة من حولهم لم تكن تعني شيئاً سوى أنها عائق لا يستطيعون تجاوزه. أما عدم الانتباه الذي ينتابنا فهو من نمط آخر. فنحن نصر على البقاء اليوم في فترات زمنية أقصر. ونشعر بالسخط حينما تسير حياة حيوان ما بطريقة تختلف عما لدينا من بيانات ومعلومات، خاصة حين يجلس هذا الحيوان ساكناً لا يفعل شيئاً. وترامى بصري في مساحات التندرة الخالية من أي معالم من عن يساري، وبين سرب البط البحري من عن يميني بحثاً عن أي شيء مميز، شيء يظهر بوضوح، لكنني لم أجد شيئاً. وبعد ساعات من المشي، اختفت التندرة في العاصفة ومعها سرب البط. وتراجع ذهني بعيداً إلى الوراء إلى نوره الخاص.

وذات مرة كتبت امرأة تدعى إلين جاهنر، وهي من شعب اللاكوتا، موضحة أن لب العقيدة الدينية للشعوب التي عاشت على الصيد يتمثل في فكرة أن هناك أرضاً روحانية، داخل الأرض الطبيعية. وبعبارة أخرى: يرى المرء في بعض الأحيان أشياء تظهر وتزول بسرعة على الأرض، في لحظة تتعاظم فيها الخطوط والألوان والحركة، ثم يظهر شيء مخيف، مما يدفع الإنسان إلى

الاعتقاد بأن هناك نطاقاً آخر من الواقعية متصلاً بالنطاق الطبيعي، ولكنه مختلف عنه.

وفي مواجهة التوجه العقلي العلمي تجاه الأرض، وهو التوجه الذي يلقى اتفاقاً أوسع، تتراجع إلى الظل تلك التخمينات، والرؤى التي يقتصر فهمها على فئة محددة من الناس، مع أن الجزء الذي يفقد من جراء ذلك يكون عميقاً ومؤثراً. فالأرض مثل الشعر: مرتبطة بشكل غير واضح، ومبهمة في معانيها، ولديها القدرة على الارتقاء بنظرة الإنسان إلى الحياة.

وعلى مرمى البصر بدت الكابينة ساكنة في مكانها، بين الجليد المتدفق بفعل العاصفة الآخذة في الاقتراب. بدت الكابينة كما لو كانت قابعة داخل كهف أبيض، أو رابضة في الطرف البعيد لوادٍ ضيق. والأصوات التي أسمعها الآن تأتي فقط مما هو حولي مباشرة، فقد اختفت أصوات الطيور القادمة من بعيد، وأستطيع الآن أن أميز صوت خطواتي على الرمال، وصوت تكسر الأمواج الصغيرة على الشاطئ بينما الرياح تعصف في أذنيّ.

ومن خلال نافذة مصفرة بفعل الضوء المنبعث من ورائها، رأيت صديقاً يمسح مقدمة قارب صغير بخيط مشبع بالشمع. الآن سأتناول فنجاناً من الشاي الساخن وأرقد في مخدعي، وأحاول أن أتذكر ما شهدته في تلك اللحظات الماضية، ولم أفطن إليه تماماً.

* * * * *

في فترة الثلاثينيات، بدأ رجل يدعى بنيامين لي ورف، في توضيح الأفكار التي تبصرها من خلال تعمقه في بنية لغة الهوبي. وقد لاحظ ورف أن هذه اللغة لا تتضمن إلا عدداً محدوداً من الأزمنة، وأنها لا تتضمن إشارات للزمن بحسبانه كياناً منفصلاً عن المكان، كما أنها فقيرة في الأسماء، وغنية بالأفعال. إنها لغة تعكس عالماً من الحركة والعلاقات المتغيرة، فهي نسيج متصل من الزمان والمكان. إنها تصلح لوصف الميكانيكا الكمية (بشكل أفضل من اللغة الإنجليزية. فاللغة الإنجليزية التي تقسم الوقت إلى أجزاء خطية، من خلال استخدام الأزمنة، إنها لغة غنية بالأسماء،

فقيرة بالأفعال، تناقض بين المكان الثابت وانسياب الزمن)، إنها لغة للمكان الساكن، ويمكن القول أنها تصلح أكثر للوصف المعماري. وتتساوى الأشياء كافة بعد ذلك. فطفل الهوبي مثلاً لن يجد سوى قدر ضئيل من الصعوبة في فهم نظرية النسبية باستخدام لغته، في حين أن طفلاً أمريكياً يمكن له أن يفهم التاريخ بشكل أسهل. وسيشعر طفل الهوبي بشيء من الارتباك تجاه فكرة انسياب الزمن من الماضي إلى الحاضر.

وفي عام 1936م كتب ورف واصفاً العديد من اللغات المحلية، موضحاً أنها غنية بالتفصيلات الدقيقة ذات المنطق الجميل للمسببات، والحركة، والنتائج، والخصائص الديناميكية، والوصف المباشر للتجارب. لقد فتح ورف عيون الناس على أنه ليس هناك ما يمكن أن يسمى لغات بدائية، وأنه ليس هناك وعاء واحد للأفكار تستقي منه جميع الحضارات أساطيرها. ويستطرد محذراً فيقول: «إن المراقبين يتبعون أدلة فيزيقية مختلفة للوصول إلى صورة واحدة للكون».

وإلى حد ما، فقد توقع عالم الأجناس البشرية فرانس بوز مثل هذه الأفكار، حيث أوضح الوحدة الذاتية للعديد من الثقافات المحلية. وقد كان هذا نوعاً من رد الفعل تجاه النظرة المسبقة التي ميزت العصر الفيكتوري والتي اعتبرت أن جميع الثقافات تعود إلى مجموعة من الملاحظات الحقيقية بشأن العالم. (ومنذ ذلك الحين تم استبدال توجه بوز التوظيفي بنظرة بنائية من المعروف أنها تطبق أنماطاً مجردة وموضوعية على ثقافة ما).

وقد حث كل من ورف، وبوز، ومعهم آخرون، الناس عند نهاية القرن الماضي على النظر إلى الثقافات الإنسانية بحسبانها آلية لتنظيم الواقع، وأوضحوا أن هناك عدة أشكال منفصلة لهذا الواقع، على الرغم من إمكانية ظهورها بشكل متواز على الأرض نفسها. وأنه ليس هناك واقع مطلق، وأنه يتعين على أي ثقافة أن تتوخى الحذر عند حكمها على مفاهيم ثقافة أخرى، خاصة إذا كانت من خارج نطاق تقاليدها.

وفي السنوات الأخيرة، أسهمت كتابات لأشخاص مثل جوزيف كامبل، وكلود ليفي - شتراوس في إضاءة البانوراما الكبرى للتجارب الحسية البشرية، حيث أشاروا إلى التوجهات المختلفة التي ننتهجها لا بشأن الخلفيات التي تحتوينا (الأرض التي نعيش عليها) فحسب، بل أيضاً إلى أوجه الشبه التي نشترك فيها. ويقول ليفي - شتراوس: «كانت بعض الشعوب الصيادة، على

سبيل المثال، تنظر إلى الحيوان نظرة طوطمية(*) عالية، ليس فقط لأنه مصدر للغذاء، وبالتالي فهو شيء جيد يمكن أكله، بل لأنه جدير بالتفكير فيه وتصوره وتخيله».

وفي القطب المتجمد الشمالي، قام باحثون من أمثال ريتشارد نلسون، وإدموند كاربنتر، وهيج برودي بتكرار هذا المنظور في دراستهم للأرض ضمن تعاملهم مع الجوانب المختلفة لوجود الأسكيمو. وقد أوضحت أعمالهم بجلاء ذلك التكامل والتناغم بين مختلف الرؤى الخاصة بالقطب المتجمد الشمالي، وأنه يحدث نوع من إساءة الفهم حين يفترض وجود نظرة واقعية مشابهة لتلك التي نعيشها، وأن الطريقة التي ينظر بها الأسكيمو إلى الأرض تطرح أمامنا مشكلات أخلاقية وسياسية واقتصادية متنامية، لأننا نميل إلى الاعتقاد بأن نظرتنا نحن هي النظرة العقلانية.

وقد سبق أن أشرت إلى أعمال نلسون في التاريخ الطبيعي والصيد. أما برودي فقد كانت أعماله مؤثرة في دراسات الاستغلال والاستيطان، وقد قدم كاربنتر كتابات مقنعة عن فنون الأسكيمو وإدراكهم للمساحات. وليس من الغريب أن كلاً منهم قد أكد على أهمية المعرفة باللغة ولهجاتها المحلية في فهم ما يعنيه الأسكيمو حين يتحدثون عن الأرض. ويقول نلسون عن فهم سلوك الجليد البحري قبالة سواحل واينرايت، والذي يتميز بكونه ناشطاً للغاية: «إن فهم هذا السلوك واستيعابه يصبح صعباً جداً بدون معرفة تامة بمصطلحات الأسكيمو». ويقول برودي صراحة في معرض نقاشه لمفهوم الأسكيمو بشأن الإحساس بالرابطة تجاه الأرض: «إن الكلمات الرئيسية غير قابلة للترجمة».

ويقدم كاربنتر وصفاً للصلة بين لغة الإنوكتيتوت وبعض نقوش الأسكيمو حيث ينصب التركيز في كليهما على ما هو حركي، وعلى ملاحظات مستقاة من وجهات نظر متعددة. ويضيف كاربنتر: أما في لغتنا فإننا مولعون بالتركز على المفاهيم المتعلقة بالوقت. بينما الأسكيمو يركزون على الأشكال المختلفة للمكان. إننا نفترض أن كل بني البشر يتعاملون بشكل متطابق مع

(*) الطوطم والطوطمية: كانت بعض الشعوب البدائية (ومنها على سبيل المثال قبائل الهنود الحمر سكان أمريكا الشمالية الأصليون) تتخذ من بعض الحيوانات أو النباتات رمزاً مقدساً لها، تصنع لها الأوثان وتتعامل معها بهيبة وقدسية في بعض الأحيان، وتعتقد في وجود صلة بينها كجماعة وهذا الطوطم وذهبت بعض الجماعات في معتقداتها الطوطمية إلى الإيمان بأن أرواح الأسلاف في هذا الطوطم. (المترجم)

المساحات والأماكن من حولهم، وينظرون إلى الأشياء من منظور واحد. فالقمة هي القمة، والقاع هو القاع، وهذا الاتجاه هو الشمال، وذاك هو الجنوب ويقول كاربنتر أيضاً: «إلا أن الأسكيمو لا يتطرق إلى كتلة الأرض التي تفصل بينه وبين مكان بعيد يطلب منه وصفه أو تحديده (الأمر الذي سيدهشنا، حيث إننا سنصف هذه الكتلة من ناحية المسافة) بل سيشير فقط إلى بعض النقاط الجغرافية، ليس بالضرورة كما يراها شخص ما من منظوره الخاص. لذا فقد يبدو الأسكيمو للغرباء الذي لا يعرفونه، كما لو كان يفتقر إلى الإحساس بالاتجاهات. ونظراً إلى أنه يسافر بطريقة تشبه إلى حد ما الطريقة التي ينتقل بها الثعلب القطبي من مكان إلى آخر - ينحرف جانباً للتحري عن شيء ما غير معتاد، أو يتقدم إلى الأمام في سلسلة من الخطوات، تقطع بينها وقفات قصيرة، بدلاً من السعي الحثيث المستمر للوصول إلى هدف - لذا فقد ينظر إلى الأسكيمو على أنه غير منضبط ذاتياً، أو قصير النظر. لكن الأمر يتعلق فقط بالطريقة التي ينظر بها الأسكيمو إلى نفسه في إطار نسيج الزمان والمكان، وكيف يتمكن من الاستمرار عبر العالم، تاركاً خلفه خطوطاً ونقاطاً على مجرى الزمن».

ويصعب الوصول إلى عقل الأسكيمو المختلف والمعقد بدون الإلمام بمصادر لغته. وبالطبع فإن العكس صحيح أيضاً. فالأسكيمو والغريب ينظر كل منهما للآخر على أنه بدائي نوعاً ما.

وتصل لغة الأسكيمو إلى أوجها في وصف الأرض والأنشطة التي يمارسها الإنسان عليها. يقول الشباب في قرى الأسكيمو الحديثة، خاصة في شرق القطب المتجمد الشمالي، إنهم حين يخرجون إلى البرية مع آبائهم، يجدون صعوبة كبيرة في تحدث لغة الإنوكتيتوت، على الرغم من أنهم يتحدثون بها طوال الوقت في بيوتهم. ولا تكمن الصعوبة التي يواجهونها في افتقارهم للمفردات بقدر ما تكمن في التركيبات اللغوية والمصطلحات التي يستخدمها آباؤهم، وتلك الطلاقة التي تربكهم. إن اللغة تصبح حية هناك على الأرض، في مخيمات الصيد، وفي الترحال على الجليد[*]. وتتضمن لغة الأسكيمو العديد من المصطلحات الموسمية؛ فهنا مصطلحات تظهر

(*) ينطبق هذا على البشر أيضاً: فمن المعتاد في القطب المتجمد الشمالي أن تقابل شخصاً ما في قريته، فيبدو لك شخصاً مهملاً وغير مسؤول، ويستطيع بالكاد أن يرعى نفسه، ثم تفاجأ به في البرية في غاية المهارة والهمة.

في فصل الشتاء لوصف مختلف أنواع الجليد التي تظهر في أثناء هذا الفصل، وفي الربيع تظهر المصطلحات الخاصة بصيد الحيتان، وهناك مساحات بأكملها بدأت تختفي من اللغة؛ لأنها تصف أنشطة لا يتم مزاولتها الآن بكثرة. مثل السفر مع الكلاب، أو الكلمات التي تصف العديد من أجزاء الحيوانات؛ مثل حيوان الشّره الذي توقف الأسكيمو حالياً عن أكل لحمه واستخدام أجزائه، أو الكلمات التي تصف بعض الأنشطة، التي لا يشجع عليها مثل أعمال الكهانة والسحر.

وبالنسبة لـ ورف، فإن اللغة تعدّ شيئاً ابتدعه الإنسان في عقله ونقله إلى الواقع، شيئاً فرضه على الأرض من حوله، كما لو كانت الأرض وعاء لخيالاته. وأعتقد أنه يمكن أن يكون هناك خطآن في هذه الفكرة. أولاً: إن الأرض ليست شيئاً خاملاً، ونظراً إلى أنها حية فهي تعارض أي واقع يفرض عليها، ويكون غير نابع منها. ثانياً: إن اللغة ليست شيئاً يفرضه الإنسان على الأرض. فهي تنبع من حوار الإنسان وحديثه معها – من اختباره لجليد البحر بإصبع قدمه، من تناول التوت البري، ومن إصلاح الزلاجة على ضوء مصباح يشتعل بالزيت المستخلص من دهون الفقمة. إن النظام الأساسي للغة، وبيئة أصواتها وأفكارها، كلها مشتقة من تفاعل العقل مع الأرض التي حوله. إن تعلم لغة محلية، يعني أن يعرف المرء ما الذي استطاع متحدثوها أن يفعلوا بالأرض التي يعيشون عليها.

* * * * *

ويفرق الجغرافي الأمريكي يي-فون توان، في كتاباته بين مفهوم المكان، والإحساس بالمكان، ويقول: «إن البشر ينطلقون من أماكن يشعرون فيها بأحاسيس الارتباط والمأوى والتفاهم، إلى مناطق غريبة عنهم تتميز بأنها تعطي إحساساً بالحرية والمغامرة ومواجهة المجهول». ويضيف توان قائلا: «وفي الفضاء المفتوح يزداد إحساس المرء بالأماكن التي يعرفها ويتذكرها، وببعد تلك الأماكن التي تشكل بالنسبة له المأوى والملاذ، فسمة اتساع المكان تكسبه حضوراً مستمراً. والذي نفعله نحن، هو أننا نحول هذه الأماكن الجديدة البهيجة، والمرعبة في بعض الأحيان، إلى جغرافيا من خلال توسيع حدود أراضينا القديمة في محاولة منا لضمها إلينا. إننا نتماشى مع رغبة لدينا في

تحقيق التناغم بين الأماكن التي اعتدنا عليها، وتلك المجهولة بالنسبة لنا. إننا نفعل ذلك كي نجعل ما هو غريب عنا قابلاً للفهم والاستيعاب، أو ببساطة، نحاول أن نجعله أكثر قبولاً».

وتصلح أفكار توان للتطبيق سواء على الدخول إلى غرفة مهجورة غير مستعملة في المنزل، أم على من يقيم إقامة عرضية في القطب المتجمد الشمالي. والشيء الذي يبقى في المرحلة المتأخرة، ويبدو كما لو كان يشكل دائماً جزءاً من تجربة الترحال في المناطق البرية، هو ذلك الصراع الطويل الذي يخوضه العقل لتحقيق الانسجام مع تلك الهوية الغامضة: هوية الكون.

وهذه فكرة أخرى من أفكار توان: ليس بالضرورة أن تكون أكثر الأماكن اعتزازاً بالنسبة لثقافة ما بادية للعيان - بقاع ظاهرة على سطح الأرض يمكن أن يشار إليها بالبنان. أو يتم تجسيدها في الروايات والحكايات والأغاني والتمثيليات - بل هي على وجه التحديد ما هو «غير مرئي» في الأرض. وعلى أية حال، فإن هذا هو الذي جعل مما قد يبدو لشخص ما فضاء فارغاً، مكاناً ذا معالم بالنسبة لشخص آخر. وما يقصد بإحساس الشخص بأرضه التي ينتمي إليها هو توليفة من الشعور بأن مكاناً بعينه مخضب بالذكريات، وبتلك القصص التي تتناول المقدسات والمحرمات، والشعور بأن الأرض كلها ليست إلا كتلاً من هذا المكان، كما يبدو لـ (توان).

ومن السهل التقليل من قيمة الارتباط الطويل بالأرض، ليس فقط ببقعة محددة منها، بل الارتباط باتساعها كله في الذاكرة وفي الخيال، وكيف تملأ - على سبيل المثال - أحلامنا. هناك بعض الناس الذي يعتبرون أن وجودهم لا ينحصر بحدود جلودهم، بل يتجاوز ذلك إلى ما تصل إليه حواسهم على الأرض. فإذا تعرضت ملامح تلك الأرض من حولهم إلى التشويه أو التغيير أصيبوا بألم نفسي كبير. ومرة أخرى نقول: إن هؤلاء الناس يرتبطون بالأرض بما يشبه خيوطاً مضيئة، إنهم يعيشون في نوع من الوقت، تجاوز اللحظة الزمنية، إلى تناغم سخي مع الذكريات الممتدة، يقاس بالعمر كله. وقطع مثل هذه الخيوط لا يسبب الشعور بالألم فحسب، بل يسبب أيضاً الإحساس بالاقتلاع من الجذور.

ويعدّ توسع الأمم في اتجاه أراضٍ جديدة فيما وراء حدودها الأصلية، وما يصاحب ذلك من تغيرات على الأراضي الجديدة لخدمة غايات التوسع، واحدة من أكثر المشاكل السياسية إرباكاً في عصرنا هذا. وعلى أية حال، فإن الرحالة يختلف عن الدولة القومية في رغبته في عدم إحداث أي

قـدر من الإزعـاج في الأراضي التي يزورها فيـمـا وراء حـدوده، فكل مـا يرغـب فـيـه هو الزيارة، والوصول بشكل ما، من خلال التناقضات التي لا يمكن تجنبها في أثناء رحلته، إلى إحساس متجدد بقيمة المكان الذي ينتمي إليه أصلاً، وبقوة رغبته في احتضان الأرض التي شكلته.

والمشكلة الأولى التي تواجه الرحالة في تجواله هي الخريطة، التي هي تنظيم للأرض على وفق إحساس محدد للمساحات وتقدير ما هو ضروري. وأينما ارتحلت، تكون معي خرائط، ولم تكن أي من هذه الخرائط دقيقة في تفاصيلها كافة، إذ كانت في مجملها عرضاً للتنظيم الذي يرجى أن تكون الأرض عليـه. ولا يمكن للمـرء أن يلقي اللوم على الخـرائط، ولا يمكنه بالطبع أن يرتحل بدونها. فقد كنت ألجأ إلى هذه الخرائط بحثاً عن توضيحات. وذات مرة اضطررت للانحناء فوق كـتـفي الملاح في إحدى الطائرات من طراز سي–130(*) كي أتمكن من تكوين فكرة أفضل عن المكان الذي كنا متوجيهن إليه، وعن المكان الذي كنا نحلق فوقه وقتها. وقد رسمت بنفسي عدداً من الخرائط؛ كي أوضح لشخص ما مواقع الأماكن التي ذهبت إليها، ولأرى ما إذا كان قادراً على تخيل ما شاهدته في هذه الأماكن. إنني أعرف هذا المزيج من الشعور بالرضا والرغبة في معرفة ما ينتاب المرء حين يقف في مكان شاسع، وتطلعه لاستيعاب كله ذلك المكان الذي تمثله الخريطة وتضع حدوداً له. ولكنني أحاول عادة أن أكون حذراً. فحتى في الخريطة الجيدة، مثل تلك التي تحمل خطوطاً ورموزاً رسمت باليد، تتحول المساحات التي تحدث عنها توان إلى أماكن، تفتقر للدقة التامة. فالخرائط التي نحملها في أيدينا ليست إلا أشياء تقترب مما هو هناك على الطبيعة. إنها مجرد صور زائفة جيدة الصنع.

وفي الأساس، فإن معظم الخرائط التي ترسم للأرض تتسم بالتجريد، فهي تمثل ما تراه العين المتحركة، وليس العين الساكنة. كما أن معظم الخرائط ثنائية البعد(**)، في حين أن الأرض ذات

(*) طائرة سي–130 هيركيوليز: طائرة نقل أمريكية الصنع ذائعة الصيت، بدأ إنتاجها في أوائل الستينيات واستمر إنتاجها حتى أوائل التسعينيات، وتعدّ واحدة من أفضل طائرات النقل متوسطة المدى التي تم إنتاجها على الإطلاق، ولها استخدامات مدنية وعسكرية عديدة، ولا تزال في الخدمة لدى العديد من الدول. (المترجم)

(**) أعتقد أن المؤلف يمكن أن يغير رأيه، إذا ما اطلع على الخرائط ذات الأبعاد الثلاثة التي تنتجها أجهزة الكمبيوتر، التي أصبح من الممكن أن تنتج ليس مجرد خرائط ذات بعد ثلاثي، بل يمكن أيضاً أن تحاكي مناطق كاملة من الأرض بتضاريسها من خلال منظومات الواقع الافتراضي. (المترجم)

بعد ثلاثي ومنحنية في اتجاهين. كما أن أسلوب رسم الخريطة ومساقطها لا يكون دقيقاً تماماً. وإذا كان مقياس رسم الخريطة كبيراً، فإن عدم الدقة يكون أكثر وضوحاً. (معظم خرائط العالم المشهورة، التي تستخدم أسلوب الإسقاط المركاتوري يبدو فيها القطب المتجمد الشمالي أكبر من روسيا، وجرينلاند في حجم أمريكا الشمالية تقريباً، وهي انطباعات غير صحيحة، ويتطلب الأمر بعض التفكير وكثيراً من الوقت للتخلص منها) . والخرائط تنظم الأرض بطريقة رياضية، مستخدمة في ذلك خطوطاً، يتم وضعها فوق عدة أنواع من الإحداثيات، وتوزيعات من الأسماء من أجل جعل المجرد – الجميل المدهش – شيئاً واقعياً. بالطبع فإن النظام والبساطة والوضوح الذي يتميز به هذا النمط من العرض، عادة يكون خادعاً.

وهناك تنوع كبير في الخرائط التي رسمت للمنطقة القطبية الشمالية، وتحمل هذه الخرائط كماً مدهشاً من المعلومات. وإذا ما أتيح للمرء أن يجلس في غرفة ما بدون إزعاج مع هذه الخرائط. واستطاع استيعاب المعلومات التي تقدمها، فإن ذلك سيجعل منه ماركو بولو المنطقة القطبية الشمالية. وبالإضافة إلى الخرائط عالية الوضوح المحسنة بوساطة الحاسب الآلي والتي توفرها الأقمار الصناعية وطائرات يو–2، هناك بعض الخرائط التي توضح الطرق التي اتبعتها حيوانات الرنة في أثناء هجراتها خلال عشر سنوات. كما توفر شبكة أجهزة المسح الإلكتروني الموجودة في بعض النقاط العسكرية الحساسة، مثل شمال بحر بيرنج، معلومات (يتم تحديثها يومياً) عن الجليد في الممرات البحرية، التي تستخدمها السفن خلال فصل الصيف، حيث يتم إرسال هذه المعلومات ومعالجتها إلكترونياً. وهناك أيضاً خرائط تتطلب الكثير من المتابعة والملاحظة، مثل تلك التي تصف تدرج درجات الحرارة، والتدرج المغناطيسي، والتدرج الزمني لتفتح الزهر، وخرائط للمواقع الأثرية، وأوكار الدببة القطبية، وتوزيع المناطق التي تعدّ مصدراً للحصى(*).

(*) تأتي مصادر الحصى في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد مصادر البترول والغاز الطبيعي بالنسبة للتجمعات البشرية في القطب المتجمد الشمالي، حيث تستخدم كميات كبيرة منه في إعداد ممرات الهبوط والإقلاع وتشييد المنصات نظراً لصعوبة البناء على طبقة الجليد السرمدي (وهي طبقة متجمدة باستمرار توجد على أعماق متفاوتة في المناطق القطبية المتجمدة).

ومن بين هذه الخرائط كلها، هناك واحدة أحملها في ذهني دائماً، وهي عبارة عن خريطة طبيعية ذات إسقاط قطبي، في مركزها يأتي المحيط المتجمد الشمالي، ومن حوله المناطق الشمالية لأوراسيا وأمريكا الشمالية، وجرينلاند كلها. ويظهر المدخل الضيق للمحيط بين جرينلاند وسفالبارد بوضوح؛ لأن مياهه العميقة ممثلة على الخريطة بظلال زرقاء أغمق من مياه الرف القاري. (وهذا هو المكان الوحيد الذي يشهد تحرك تيار من المياه العميقة دخولاً وخروجاً من الحوض القطبي)، كما تظهر على هذه الخريطة بوضوح الأماكن غير المشهورة كلها والتي تظهر بشكل غير دقيق على خرائط الرسم المركاتوري مثل جزر سيبيريا الجديدة وبحر كارا، وأرض فرانز جوزيف.

وحين أنظر إلى هذه الخريطة المعلقة أمامي على الحائط، فإنها تذكرني بالاتساع الجغرافي المتصل لهذه المنطقة من العالم، وهو اتصال تنفرد به هذه المنطقة، فمهما تذهب بعيداً، شرقاً أو غرباً، فأنت دائماً هناك. ومن خلال النظر إلى هذه الخريطة، أستطيع أن أرى مدى قصر الطريق بين روتردام ويوكوهاما عبر مضيق بيرنج مقارنة بمثيله عبر قناة بنما. وعند النظر إلى جرينلاند بأكملها على هذه الخريطة يلاحظ المرء هذا الامتداد الآخاذ لشمال هذه الجزيرة، دون أي تشويش أو اقتضاب. وعلى هذه الخريطة، أيضاً أستطيع أن أضع إصبعي على منطقة إليزمير البرية بنجودها الخلابة، ورأس أجاسيز الجليدي الذي يميزها، وهي الأراضي التي كانت تراودني في أحلام اليقظة في أيام شبابي. وجزيرة بافن، التي يسميها الأسكيمو جزيرة أومينجمانونا، موطن ثيران المسك.

وتعكس الخرائط الأولى التي رسمت للمناطق القطبية الشمالية، مهارات ومفاهيم (بما في ذلك المفاهيم غير الصحيحة) للثقافات التي أنتجتها. وقبل أن يصبح رسم الخرائط علماً ميدانياً بوقت طويل كان هذا العمل يتم بصورة تعتمد على التخيل والتصور بقدر كبير. فقد كان رسامو الخرائط يصورونها أراضي خرافية ومناطق من نبت خيالهم. ولقد صورها بعضهم مناطق مظلمة، تغطيها الجبال والجليد ويقطنها «متوحشون لا لغة لهم ولا عقل، ويمشون مثل الإوز». وصورها البعض عكس ذلك تماماً، كقطعة من أساطير الأناشيد الشعبية، حيث أشعة الشمس السرمدية، والبحار الدافئة، وموطن إيثر إسجارد، مكان قلعة النسيم في الأساطير الاسكندنافية القديمة، والضوء المبهر،

والقوة الملكية. وهناك أيضاً من صورها أرضاً قاحلة قارصة البرودة، تغلفها ظلمة لا نهائية وتفوح منها رائحة الموت.

وقد اكتسبت المناطق القطبية الشمالية أهمية استعمارية أكبر بعد اكتشاف سفالبارد بوساطة صيادي الحيتان الهولنديين في القرن السادس عشر، والاستكشافات التي تمت شمالاً وغرباً باتجاه نوفاي زملايا التي قام بها كل من ويلوبي، وتشانسيلور (1553م) وبارنتس (1596م)، والاستكشافات التي قام بها فروبشير (1576 - 1578م)، ودافيس (1585 - 1587م)، وهدسون (1607 - 1610م)، وبافن (1616م). وفي القرون التالية، تم اكتشاف المناطق القطبية الشمالية قطعة تلو الأخرى تحت الثلج والجليد، وتم رسم خرائط لأراضيها ومياهها، وهكذا تبددت الصورة غير الصحيحة التي رسمها العالم القديم للمناطق القطبية الشمالية تماماً، خاصة بعدما تمكنت سفينة نرويجية تحمل اسم «فرام» بإكمال رحلة دائرية (1893 - 1896م). وفي عام 1892م، أعلن روبرت بيري لأول مرة، أن جرينلاند جزيرة. وخلال الفترة بين 1915 و 1917م، أكمل ستيفنسون اكتشاف آخر قطعة أرض كبيرة في أقصى الشمال. وشهدت سنوات الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلتها مباشرة حركة مكثفة لإعادة رسم شواطئ الأرخبيل الكندي نتيجة لعمليات الاستطلاع العسكري، وتم أيضاً استكشاف آخر جزيرة كبيرة في الجنوب، في حوض فوكس إلى الغرب من جزيرة بافن (علاوة على جزيرة القوات الجوية التي تبلغ مساحتها 500 ميل مربع تقريباً).

ويعدّ الانطباع الذي تتركه شواطئ المناطق القطبية الشمالية أحد أهم مغريات هذه المنطقة، حيث تصبح الأراضي المنبسطة جزءاً من البحر المتجمد في أثناء فصل الشتاء. أما في فصل الصيف فتمتد مساحات كبيرة من الأراضي المنخفضة في هذه المناطق، بعيداً باتجاه مياه البحر الضحلة لدرجة أنه يصعب التمييز بينهما. ومن السهل تخيل إمكانية وجود مساحات صغيرة من الأرض لا تزال مختفية إلى الآن، وقد ثبت بالفعل صحة ذلك. ففي عام 1981م، أثبت الجغرافيون بالطرق الرياضية أن هناك جزيرة صغيرة تسمى كافيكلوبن، كان بيري قد اكتشفها في عام 1900م، وهي أقصى نقطة أرض إلى الشمال، وليس رأس موريس جيسوب في جرينلاند كما كان يعتقد من قبل. وفي عام 1978م أيضاً تم اكتشاف جزيرة صغيرة مطمورة في الجليد على بعد 1500 ياردة إلى الشمال من كافيكلوبن، وقد أطلق على هذه الجزيرة اسم أووداك، وهو اسم واحد من رجال

الأسكيمو الذين رافقوا بيري في رحلته إلى القطب الشمالي والتي قام بها في عام 1909(*).

ومع مرور الوقت، وباستخدام أساليب أكثر تقدماً لرسم الخرائط، مثل تقنيات الأقمار الصناعية، لتحسين مستوى دقة خرائط المناطق القطبية الشمالية، اختفت من على الخرائط تلك الأراضي التي كان يعتقد بوجودها في المناطق القطبية الشمالية، وحلت محلها الأراضي التي ثبت وجودها هناك فعلاً. فقد اختفت أراضٍ ومناطق كان يعتقد بوجودها مثل مضيق فروبوشير الذي ظهر في خريطة جورج بست سنة 1587م رابطاً بين المحيط الأطلسي والمحيط الغربي عبر شمالي كندا، والبحر القطبي المفتوح الذي أبحر فيه هنري هدسون بثقة في عام 1607م، والجسر الأرضي الممتد من النرويج إلى سفالبارد.

ويعدّ العديد من الخرائط القديمة للمناطق القطبية الشمالية، بما ضمته من جزر اسطورية لا وجود لها في الواقع، تعبيراً عن التطلع إلى وجود شيء ما أفضل هناك، وفي تخفيف الصعوبات التي يواجهها البشر، أو بكلمات أخرى التطلع إلى العثور على طرق جديدة إلى جزر الغرب المباركة إلى ملقا، أو إلى جزر البهار، بمنأى عن السفن الأسبانية والقراصنة الأتراك. وينظر المرء إلى مثل هذه الخرائط وهو يطويها ويعيدها برفق إلى مكانها، نظرة احترام للتاريخ البشري، فهي تمثل الآفاق التي ترنو البشرية إليها، والبحث عن الرضا والاطمئنان فيما وراء حدود الأوطان.

وتنحية هذه الخرائط جانباً لا تقلل من المآسي الاستعمارية التي سجلتها، ولا تقلل أيضاً من اللوم الملقى على العروش لما مارسته من تضليل في هذه الفترة. ومما لا شك فيه أن العصور القادمة سوف ترى أننا كنا جشعين وذوي عقول متحجرة، كما ننظر نحن الآن إلى أسلافنا من المستكشفين، وقد ترى العصور القادمة خططنا غير جديرة بالاحترام، وتفتقر إلى الحكمة، تماماً كما يبدو لنا الآن العديد من النظم المبكرة التي كانت تهدف إلى تحقيق الازدهار. ومن يدري... فربما تغفر لنا هذه العصور زلاتنا تلك!!

(*) ولد اووداك في سنة 1878 او سنة 1879 وعاش حتى ادرك عقد الخمسينيات. وقد ساعد هذا الرجل عدداً من المستكشفين والعلماء، الذي سجل العديد منهم اسمه في السجلات التاريخية بهجاءات مختلفة مثلاً اسماه بيري (اوتاه) واسماه ماليوس إيكسون (اودراك)، في حين اسمام راسموسين (أوداك)، اما جين ملاوري فقد اسمته (يوتاك). وقد تم اكتشاف جزيرة اووداك في السادس والعشرين من شهر يوليو 1978 بوساطة اوف بيتيرسون في اثناء عملية مسح طبوغرافي في شمال جرينلاند لحساب المعهد الجيوديسي الدنمركي، وقد كتب احد زملاء بيتيرسون لي واصفاً الجزيرة قائلاً: إنها اقرب ما يكون إلى رقعة صغيرة من الارض الحصوية يبلغ طولها نحو 30 متراً (98,4 قدماً)، ويبلغ اقصى ارتفاع فيها عن سطح الأرض نحو اقل من المتر، وتقع عند الإحداثيات 83° 40´ 32,51 شمالاً و 30° 40´ 10,12 غرباً.

* * * * *

ولقد اعتدنا على اعتبار المناطق القطبية الشمالية شديدة الاتساع؛ لأنها تظهر ممتدة من جانب العالم إلى جانبه الآخر على الخرائط المركاتورية. وعلى أية حالة، فإن الطرح القائل بأن هذه المناطق متفرقة ولا تجمعها رابطة، وأن أقسامها المتعددة عالم مقسم هو قول غير صحيح. فهذا الإقليم - مثله مثل أي إقليم آخر - يلتف وينطوي على نفسه، وهو منظم بطريقة شبيهة بأستراليا التي تتميز بمساحات شاسعة من الصحراء في البر الداخلي، تحيط بها مناطق ساحلية، حيث يعيش معظم السكان، واتساع المناطق القطبية الشمالية يختلف عن اتساع المحيط الهادئ، وهو يشبه اتساع مناطق الاستبس في آسيا، وفيها أيضاً بعض سمات اتساع الصين، لكن بعدد سكان مدينة سياتل الأمريكية.

وقد نشأت الوحدة الجغرافية للمناطق القطبية الشمالية من تطابق أحوال المناخ في المناطق المختلفة، والفصول المضيئة التي تشهدها، علاوة على التشابه الكبير لعناصر الحياة الحيوانية غرباً وشرقاً: الدب القطبي، والحوت الأحدب، والثعلب القطبي، والفقمة، والبوم، وهناك عدد قليل نسبياً من الحيوانات التي ينحصر وجودها في منطقة دون الأخرى، مثل حيوانات النرول (كركدن البحر). كما أنه لا توجد فروق كبيرة بين حيوانات الفصيلة الواحدة التي تعيش في مناطق مختلفة (حيوان الفظ على سبيل المثال)(*).

وبالنسبة للرحالة الحديث فإن المناطق القطبية قد تبدو رتيبة ومملة، بدرجة تبعث على الإحساس بالخدر. وأعتقد أنه يمكن إرجاع هذا الشعور إلى النظر إلى فترات طويلة في خرائط صماء للمنطقة، وأيضاً يمكن أن يتولد هذا الإحساس نتيجة للتنقل عبر هذه المناطق باستخدام الطائرة. فالطائرة - وهي ذلك مثل الخريطة - تولد إحساساً غير صحيح بالمسافات، فهي تحقق بساطة وسرعة

(*) ومن بين الحقائق التي تؤكد التناغم الطبيعي في المناطق القطبية الشمالية، ان السكان المحليين في نصف مساحتها من مضيق بيرنج إلى شمال جرينلاند، يتكلمون اللغة نفسها تقريباً. ولا يوجد في العالم بأسره أي تواصل لغوي مثل هذا، وقد ساعد التفهم المشترك للغة الاسكيمو على إنشاء كيان سياسي يعرف باسم مؤتمر الإنويت عبر القطب الشمالي، وهي منظمة تعمل الآن على مساعدة الاسكيمو المنتشرين في الاسكا وكندا وجرينلاند على الاستقرار في الاراضي التي يطالبون بها وفي ممارسة الحكم الذاتي.

الانتقال من مكان إلى آخر، مما ينتج عنه خلل في الشعور بالعلاقة بين المسافة والزمن. وكما هو معروف، فإن داخل الطائرة مضاء إضاءة صناعية، ومحمي من تأثير الجو الخارجي، وهواؤه ممتزج بروائح التبغ ومشتقات البترول. كما أنها أكثر ضوضاء من الأرض. ويعاني الكثير من المسافرين عبر المناطق القطبية باستخدام الطائرات (وهم عادة ما ينحشرون في هذه الطائرات مع الكلاب المخصصة لجر الزلاجات، وصناديق البضائع) من الصداع البسيط. وقد عانى كثيرون أيضاً من نوع ما من الفقدان المؤقت للإحساس بالمكان أو الزمان. وهناك العديد من القصص عن مسؤولين حكوميين أو مراسلين صحفيين انتقلوا بالطائرة من أماكن تقع إلى الجنوب في كندا، إلى قرى في الأصقاع الشمالية، وبالكاد كانوا يتمكنون من سماع ما يقال لهم، وكانوا يصرون على العودة من حيث أتوا في يوم وصولهم نفسه. وفي بعض الأحيان، كان يبدو أن الرحلة بالطائرة ليست هي السبب في تسرعهم، وبرود أحاسيسهم، وتلك الأعراض التي تظهر عليهم؛ إذ لا يوجد في قرى الأصقاع الشمالية ما يمكن أن يعادل تأثير الانضغاط الرهيب للمكان والزمان الذي يولده السفر بالطائرة. لذا يعود أمثال هؤلاء الناس إلى ديارهم بانطباعات غير صحيحة وذكريات تقطر بالاستياء المرير عن تلك المناطق.

ومما لا شك فيه أن الطائرة تشكل إغراءً كبيراً، لكن كي يعرف المرء شيئاً عن الأرض، وكي يتمكن من إدراك ما تعرضه الخرائط، ينبغي أن يبتعد عن السفر جواً. يجب عليه أن يذهب إلى الأرض، وينام عليها، ويقضي مساءً بأكمله وهو يقلب في كومة من الأعشاب، يرتحل محمولاً على أكتاف أحد ثيران المسك، أو يخيم على نقطة قريبة من البحر، ويراقب أسراب البط البحري المهاجر في أيام مرورها بالمنطقة. كما يتعين عليه أن يقف أمام حوائط الجبال ذات اللون الأخضر الأرقط، شمال نهر كوبوك، ويجب أن يمشي على جليد البحر، كي يسمع بنفسه الجليد وهو يتحرك، ويطحن، ويتشقق، محدثاً أصواتاً تشبه أنات الجراء أو صوت أسراب النحل عند اندفاعها في الجو، على حدّ قول المكتشف الأمريكي إلياشا كنت كيب.

وفي معدة أحد حيوانات الشرّه المذبوحة على الجليد، يمكنك أن تجد الرُّسابة المتكونة على قاع المحيط، وبالتدريج سوف يمكن أن تتخيل أطنان الرمال والحصى التي تنقل يومياً بوساطة نحو 250 ألف من حيوانات الشره تعيش في بحري بيرنج وتشوكشي، وسوف تفكر في حيوانات اللاموس

وفئران الحقل وهي تقلب كل يوم اطناناً من تربة مناطق التندرة. وستجد نفسك تفكر أيضاً في قوم الثولي الذين نقلوا إلى مخيماتهم احجاراً كبيرة، ورتبوها في شكل لعبة قفز، مثل لعبة الحجلة التي نعرفها. وستفكر كذلك في الشراك الحجرية التي صنعها الثولي للإيقاع بالدب القطبي، وأبوابها الحجرية المنزلقة. إنهم أهل الأرض، ينقلون حجارتها من مكان إلى آخر.

وحين تكون قد سرت لأيام تحت السماء الرائعة، وحين تكون قد شعرت ببعد العالم عن نهر توماس، وجزيرة بانكس، وخبرت تلك الطاقة التي لا تعرف الخمود لدى كلاب الزحافات، وهي تشق طريقها على الطرق المتجمدة عبر وادي أحد الأنهار، وبعد أن يريك أحدهم طيوراً تتغذى على البقايا العظمية لحيوان اللاموس لتحصل على الكالسيوم، فسوف تبدأ في الإحساس بالأبعاد السرمدية اللامتناهية لأرض أكثر عمقاً وثراءً. لكن يجب أن يصر المرء على تجنب الطائرات التي تدخل كالطلقة كل يوم إلى المناطق القطبية الشمالية.

وذات مرة، حكى كرسيتيان فايب قصة. كان – أي فايب – في شمال جرينلاند، ينتقل باستمرار بصحبة كلاب الزحافات انطلاقاً من قرية أوومااناك التي تسكنها مجموعة من قوم الثولي بشبه جزيرة هايس. وفي عام 1940م، كان فايب في رحلة بمحاذاة الشاطئ الشرقي لجزيرة إلزمير، وكان يقتات في أثناء هذه الرحلة على بعض المؤمن التي حصل عليها منذ عدة شهور، وكان لفايب صديق من الأسكيمو في قرية أوومناك يعرف أنه دنمركي، وأن بعض الأنباء التي وصلت القرية في أثناء شهر مايو قد تكون مهمة بالنسبة له. فما كان من الرجل إلا أن امتطى زحافته عبر منطقة سميث ساوند حيث وجد مخزناً كان يعرف أن فايب سوف يأتي إليه. وعلى جانب علبة بيمكان(*) مصنوعة من الصفيح، نقش رسالته بأسلوب لغة الأسكيمو قائلاً:

الألمان يأخذون اللحم من الدنمارك

الملك لا يزال حياً

نفد الوقود من المحل.

وبسرعة، تمكن فايب من فهم الرسالة، فقد كان صديقه يعني أن ألمانيا قد دخلت في حرب ضد

(*) البيمكان: نوع من الأغذية المركزة المحفوظة، مصنوع من اللحم المقدد والدهن، أو اللحم المقدد والدهن والطحين، ويتميز بأنه يعمر لفترات طويلة، وقد كان معروفاً لدى سكان أمريكا الأصليين. (المترجم)

الدنمارك (يسلبونهم طعامهم مثلاً)، وأن حكومة الملك كرستيان لا تزال في السلطة، وانه نظراً لظروف الحرب لن تصل إلى القرية إمدادات على السفينة التي اعتادت الوصول في الربيع. ويقول فايب أنه حمل علبة الصفيح بين راحة قفازيه، ونظر حوله إلى الضوء الساطع الذي يحيط به، وإلى كلابه، وإلى كميات المؤونة القليلة الموجودة لديه، وعرف أنه لن يعود إلى الوطن إلا بعد فترة طويلة.

* * * * *

وقد اخذ بعض المستكشفين الأوائل الأسكيمو ومعارفهم مأخذ الجد، وطلبوا منهم أن يرسموا لهم خرائط للمناطق المحيطة بهم(*) . وقد تفضل عليهم الأسكيمو بالموافقة. وقد شكلت الخرائط هبة عظيمة للرحلات والاستكشافات التي تمت في المنطقة. واليوم تقدم هذه الخرائط نظرة عميقة إلى الكيفية التي كان الأسكيمو يفهمون بها الأرض من حولهم.

والمعرفة الجيدة بالأرض، والقدرة على رسم خرائط تفصيلية لها، مهارتان ذهنيتان مختلفتان بشكل كبير. ومع ذلك انتج العديد من الأسكيمو، رجالاً ونساءً، خرائط عالية الدقة للمناطق الساحلية والمناطق الداخلية لأوطانهم. وقد أخبر روبرت ماكلور الكاتب الذي تولى إعداد سيرته للنشر، في سنة 1856م، أن الأسكيمو الذين يعيشون في غرب جزيرة فكتوريا، كانوا يرسمون الخرائط بأسلوب محترف كما لو كانوا «متمرسين في علم رسم الخرائط». وقد أبدى ضابط بحري بريطاني آخر إعجابه بخريطة رسمها له الأسكيمو على الشاطئ عند رأس أمير ويلز. في سنة 1826م، واستخدموا في ذلك العصي والحصى «بأسلوب خاص جداً وفي غاية الوضوح» لصنع نموذج مصغر للمنطقة. كما قال فرانز بوز «إن الأسكيمو في شرق المنطقة القطبية الشمالية يرسمون خرائط في غاية الدقة لدرجة أنه يستطيع أن يتعرف كل نقطة فيها مقارنة بما لديه من خرائط

(*) واجه رسم الخرائط للمناطق المتجمدة الشمالية الأوروبيين بعدد من المشاكل. بداية كانت الفصول التي يمكن فيها الإبحار عبر هذه المناطق قصيرة جداً. وطوال شهور الصيف هذه كانت الكثير من سواحل المنطقة إما غارقة في ضباب كثيف أو لا يمكن الوصول إليها بسبب كتل الجليد. ومن ناحية أخرى، كانت هذه هي الظروف ذاتها التي أدت إلى خلق أشكال وهمية غيرت من الشكل الحقيقي للسواحل، وتسببت في قراءات غير متوافقة في أثناء محاولات السفن تحديد إحداثيات مواقعها. كما أن الانحدارات الطويلة للخط الساحلي، ووعورة وقسوة الأماكن التي كان يتعين على فرق المسح النزول عندها جعلت من هذه المهمة الشاقة أصلاً أمراً مثبطاً للعزائم.

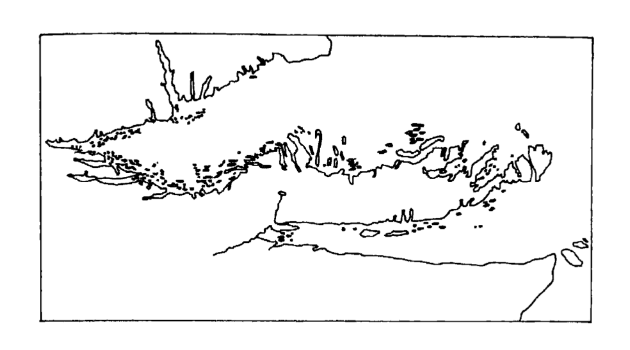
ورسومات، وكتب في ذلك قائلاً: «إنه لأمر رائع أن تكون أفكارهم في غاية الوضوح عن الموقف النسبي واتجاهات السواحل التي تفصل بينها مسافات كبيرة». فقد كانت المسافة الخطية التي تفصل بين تلك السواحل تصل إلى 1,000 ميل، وتبلغ مساحة المنطقة التي تمثلها الخريطة نحو 15,000 ميل مربع. كذلك، كان الأسكيمو قادرين على قراءة وفهم الخرائط الأوروبية لبلادهم بسهولة ويسر، بغض النظر عن الوضعية التي تعرض بها الخريطة عليهم، مقلوبة كانت أو معوجة. كما أنه لم يكن لديهم أي مشاكل سواء في الانتقال من مقياس رسم إلى آخر، أم في المحافظة على مقياس رسم ثابت للخريطة التي يرسمونها.

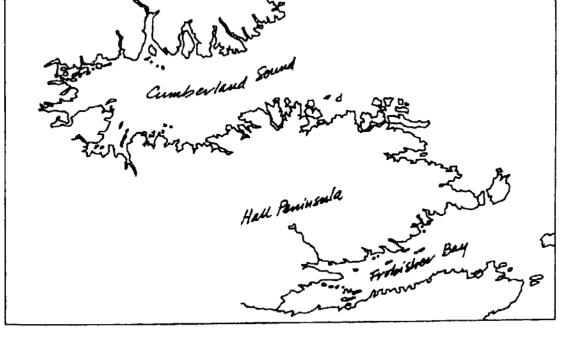
ولقد عرف الأسكيمو صناعة واستخدام الخرائط قبل أن يروا الأوروبيين، واستخدموها أداة تساعد على تذكر وحفظ أسماء الأماكن، وأيضاً أداة ملاحية مساعدة. وقد نحتت بعض من خرائطهم الأولى على ألواح من الخشب – وهي بذلك تكون مثالية للسفر عبر البحار لأنها تمثل الخطوط الساحلية بشكل ثلاثي البعد (وهذا أمر مفيد جداً خاصة في المناطق القطبية الشرقية)، ولا تتأثر كثيراً بالعوامل الجوية، علاوة على أنها تطفو إذا سقطت منهم في الماء.

وقد لاحظ إدموند كاربنتر، في معرض اهتمامه الخاص بأسلوب الأسكيمو المختلف في تقدير حجم المساحات، وافتقارهم إلى توجه محدد في هذا الصدد، أن الخلل الوحيد في خرائط جزيرة ساوثهامبتون التي أعدها له مجموعة من الإيفيليك، يظهر في الأماكن التي يتم فيها الصيد بكثافة كبيرة، حيث رسمها الإفيليك أوسع من تلك الأماكن التي كانوا يرتادونها بكثافة أقل. ولا تزال خرائط الأسكيمو الحديثة تعكس الدقة والثراء، شاهدة على الحفظ على المعارف الجغرافية المحلية من قبل هؤلاء الذين لا يزال هذا الجزء من الثقافة حياً بالنسبة لهم، وعلى المستوى المذهل من حدة الذاكرة لدى هؤلاء الناس. وولعهم الشديد بالترحال لمسافات طويلة سواء على الأرض أم فوق الجليد. هذا كله، على الرغم من استقرار معظمهم في مستعمرات دائمة. إن دلائل الوجود البشري على الأرض، ومنها الخرائط، تنظم المساحات المتشابهة بطرق محددة، ويكون تأثير ذلك أكثر وضوحاً في المناطق المفتوحة. فالمرور بالقرب من مواقع مخيمات دورست يضيف بعداً واتجاهاً للأرض. وبالطبع فإن المرء يشعر بالمتعة لمشاهدة الأشياء التي توجد في هذه المواقع، وينطبق ذلك أيضاً على مكان دأبت حيوانات الرنة منذ مئات السنين على استخدامه لعبور نهر، أو للمرور عبر الجبال.

وفي المنطقة القطبية الشمالية، تظهر بوضوح العلامات المميزة، التي تساعد المسافرين على تحديد الأماكن أو الاتجاهات، والتحكم في الاتساع الشاسع للمسافات، وكذلك تلك العلامات الدائمة التي تنشأ في بعض الأحيان بغير قصد في أثناء إنجاز بعض المهام الأخرى. وأكثر هذه العلامات إثارة للذكريات، هي الإنكوسويت (قطع من الحجارة مرصوصة فوق بعضها البعض في أشكال آدمية) التي تنتشر بكثرة في الأجزاء الشرقية من المناطق القطبية الشمالية، حيث كانت تستخدم هذه الأشكال في الماضي لتجميع حيوانات الرنة، وتوجيهها نحو اتجاه معين، أو نحو الزرائب المصنوعة من الصخر، التي كان الأسكيمو يجمعونها فيها. كما استخدمت أيضاً على شواطئ البحيرات لتحديد الأماكن الجيدة لصيد الأسماك. كما يمكن أن يجد المرء أيضاً بعض السدود الحجرية، التي كانت تستخدم لصيد الأسماك، وبقايا بعض الأسوار التي كانت تستخدم لتطويق مناطق تجميع طيور الترمجان، والتي تعود في بعض الأحيان إلى عصور جماعات الثولي. ولا تزال النصب الحجرية التي أقامها المستكشفون الأوروبيون الأوائل قائمة في أماكنها حتى الآن على التلال والأراضي الناتئة، وعند بعض المنحنيات على الخط الساحلي، كما لا تزال هذه النصب تستخدم علامات ملاحية مساعدة من قبل مرتادي هذه المناطق.

أما الآثار الحديثة التي تركها الإنسان في هذه المناطق فهي بالطبع أكثر وضوحاً، وإن كانت بلا شك أقل جمالاً؛ فعلى سبيل المثال، هذا الشعور بأهمية المناطق الشمالية الذي استيقظ في كندا، مدشّناً حقبة معاصرة من عمليات محمومة، لتشييد النصب الحجرية التي لا تزال مستمرة بقوة، حيث تقوم – وبشكل روتيني – أطقم المساحة الجغرافية، وأطقم حفر آبار البترول، والعديد من الموظفين الرسميين، والشخصيات الرفيعة، بإنشاء نصب تذكارية لهم في المناطق القطبية الشمالية. وفي بعض الأحيان يقوم هؤلاء بوضع أشياء تافهة في هذه النصب؛ مثل أنبوب سيجار مستعمل يحوي في داخله صورة فورية، أو حاوية معدنية، تحوي صورة ملونة كبيرة لمسؤول حكومي مع أسرته. (تتسبب مثل هذه الممارسات التي تشوه التاريخ الحقيقي لاستكشاف المنطقة في إغضاب الشماليين بشكل كبير، ويعتبرونها أعمالاً سخيفة، لذا لا يتورعون عن إزالتها كلما مروا عليها).





أعلى: خريطة لمنطقة كمبرلاند ساوند - خلية فروبشر رسمها من الذاكرة أسكيمو يدعى سوانا بيجانااناك .

أسفل: خريطة للمنطقة ذاتها رسمية باستخدام الأساليب الكرتوجرافية الحديثة .

ومن الأشياء التي تؤذي العين أكثر من هذه الآثار التافهة، تلك الآثار التي تتركها عمليات المسح الزلزالي والممتدة على الأرض لعشرات الآلاف من الأميال، بهدف البحث المستمر عن النفط والغاز في هذه المناطق، وأيضاً مئات الآلاف من البراميل الفارغة لوقود الطائرات المتناثرة هنا وهناك على مساحة التندرة في مواقع المخيمات، التي أقامها العلماء والفنيون، والصيادون الأسكيمو الذين انضموا إليهم مؤخراً في هذا النوع من الممارسات. ومع تقدم علم المسح الزلزالي، تم مسح هذه المناطق نفسها من جديد، واتسعت شبكة الآثار التي تتركها معدات المسح الزلزالي الثقيلة على الأرض، مما ينتج عنه تدمير الحياة النباتية حيثما تمر هذه المعدات الثقيلة، بسبب انضغاط التربة بشكل دائم. كما أن أمطار الربيع لا تتمكن من إزالة هذه الآثار، من على الأرض، وإذا حدث واستطاعت النباتات أن تنمو مرة أخرى في ظل هذه الآثار فإنها تنمو بشكل أسوأ. فالتربة التي تعرضت للتعرية بفعل مرور الآليات الثقيلة عليها، تصبح أكثر عرضة لضوء الشمس، حيث تبدأ طبقة الصقيع السرمدي (وهي الطبقة المتجمدة باستمرار على عمق متفاوت في المناطق القطبية) في الذوبان وبالتالي تغوص آثار الآليات إلى داخل التربة وتبدأ في التفكك، فتبدو كتربة تنتشر فيها الأخاديد، وتنمو على سطحها الحشائش، وتفتقر إلى الجذور التي تحفظ لها تماسكها.

* * * * *

ويشتهر شعب البولواتان في جزيرة كارولين بدقتهم في الملاحة في أعالي البحار بين الأرخبيلات البعيدة في جنوب المحيط الهادئ، حيث يضعون قواربهم في مسارات متطابقة مع بعض النجوم المحددة في السماء، ويلاحظون وجود بعض أنواع الطيور في البحر، ودرجة ملوحة المياه، واتجاهات التيارات المائية، والسلوك المميز للأمواج في كل منطقة. ويتشابه الأسكيمو مع شعب البولواتان في العديد من هذه المهارات، فالأسكيمو الذي يرتحل من مكان في أثناء فترات الظلام القطبي، أو في أجواء مبيضة لدرجة الإعتام، وعبر مساحات شاسعة من الجليد والثلوج لا توجد فيها أي علامات مميزة، لا بد أن يتمكن من تحقيق أقصى استفادة ممكنة من المفاتيح والدلائل الشحيحة التي تجود بها الطبيعة من حوله. فهو يستعين بأصوات الطيور البحرية القادمة من

المنحدرات المترامية على الشاطئ لتحديد الاتجاه إلى الأرض، وبأصوات ارتطام الأمواج على حواف الكتل الجليدية لتحديد اتجاه المياه. وحين يبدأ الأسكيمو رحلة عبر منطقة من الأراضي المفتوحة، يقوم أولاً بتحديد زاوية الريح، وبصفة منتظمة يقوم بمراجعة اتجاهه عن طريق ملاحظة اتجاه تماوج الفراء على حافة قبعته ومدى اتفاقه مع اتجاه الريح، وإذا لم يتمكن من تحديد اتجاه كومات الجليد التي تشكلها الرياح على الأرض في اتجاه اندفاعها، بسبب الظلام المطبق، أو بسبب العواصف الثلجية فإنه ينحني لتفحصها بيده. كما يقوم أيضاً بمتابعة طبيعة أي تشققات في الجليد عند مروره عليها. فربما تكشف هذه التشققات عن وجود رأس أرض، أو بداية لأرض تختفي على بعد، وربما تؤكد هذه التشققات الوصول إلى منطقة محددة، تتسم فيها التشققات بطبيعة واحدة على مر السنين. وبالفعل فإن الانتباه إلى أصغر التفاصيل وأكثرها دقة يعدّ أمراً في غاية الأهمية - فشيء داكن اللون على الجليد، يمكن أن يكون حجراً يدل على وجود ساحل مطمور تحته.

وبالانتباه المستمر لمثل هذه التفاصيل الدقيقة، وحفظ مظهر الأرض وشكلها، وبالمعلومات التي يستقيها الأسكيمو من القصص التي يرويها الرحالة والصيادون الآخرون عن منطقة ما، بالإضافة إلى تحركات جموع الحيوانات، وخصوصاً الطيور، وباستخدام خرائط السماء يستطيع مسافر الأسكيمو أن يحافظ على مساره(*). وبالنسبة لرجل لا يعرف كيف يفرق بين ما هو هام، وما يتعين إغفاله، فإن مهمة البحث عن مثل هذه المفاتيح والدلائل الدقيقة - والحيوية في الوقت ذاته - قد يكون أمراً مرهقاً للغاية، خصوصاً في فصل الربيع الذي يتمز بالضوء الباهر (والربيع هو الفصل الذي عادة تتم فيه الرحلات الطويلة، نظراً لتوليفة الضوء الجيد والجليد المتماسك التي تميز هذا الفصل) أو حتى فصل الشتاء الذي يتميز هو الآخر بظروف تؤدي إلى عدم القدرة على التمييز الجيد بين الألوان.

(*) عادة ما يعكس تجمع للمياه المفتوحة في الجليد البحري ظلالاً قاتمة على السحب الموجودة اعلاه، محدثاً ما يطلق عليه سماء الماء. في حين يحدث الجليد الجاثم عند الافق انعكاساً ابيض بسيطاً في الهواء الموجود اعلاه يطلق عليه وميض الجليد. ويشير اصطلاح خريطة السماء إما لوجود هذه الظواهر في السماء او إلى الانماط التي تتخذها الظاهرتان معاً. وتستطيع العين المتمرسة التمييز بين انواع متعددة من وميض الجليد. فالارض المغطاة بالثلوج تعكس لوناً ابيض مصفراً في السماء. اما حقول الجليد فتعكس لوناً ابيض صافياً، يشوبه شيء من الصفرة. اما كتل الجليد فتعكس لوناً ابيض خالصاً، اما الجليد البحري في الخلجان فيعكس لوناً ابيض مائلاً إلى الرمادي.

ولا تزال هذه المهارات المحلية جزءاً لا يتجزأ من حياة بعض القرى في المناطق القطبية الشمالية، حيث تستخدم في أثناء السفر والترحال لمسافات طويلة، باستخدام آلات السفر الحديثة عبر الجليد، تماماً كما كانت تستخدم أيام الترحال على الأقدام أو باستخدام الزلاجات التي تجرها الكلاب. بل إن هذه المهارات تفوق في أهميتها أفضل الخرائط والمساعدات الملاحية بالنسبة لنجاح أية رحلة، خصوصاً تلك التي تتم على مساحات الجليد البحري. فالضباب والعواصف الجليدية، تشوش على «النقطة المرجعية» التي تعدّ ذات أهمية كبيرة في الملاحة، باستخدام الخرائط الطبوغرافية، بل إنه لا يمكن الاعتماد بشكل مستمر على البوصلة في هذه المنطقة من العالم. فكلما اقترب المرء أكثر من القطب المغناطيسي للأرض، تزداد قوة المركب الرأسي، على حساب المركب الأفقي، الذي يزداد ضعفاً في هذا المجال الكهرومغناطيسي، الأمر الذي يؤدي إلى تذبذب إبرة البوصلة شرق وغرب الشمال المغناطيسي. وتصبح إحداثيات الميل الزاوي(*) للبوصلة عند بعض خطوط الطول وخطوط العرض عديمة الفائدة. كما تتسبب اضطرابات طبقة الإيونسفير (الجزء المؤيّن من الغلاف الجوي) والعواصف المغناطيسية، والظاهرة المعروفة باسم ظاهرة الامتصاص في الرأس القطبي في إحداث تأثيرات عكسية في أجهزة تحديد الاتجاه باستخدام موجات الراديو. كما أن السرعة التي تحدث بها التغيرات العكسية في درجة حرارة الجو خلال فصل الصيف تعيق إمكانية ضبط جهاز السدسية على خط ثابت في الأفق. أما الصور التي ترسلها الأقمار الصناعية لكتل وتجمعات الجليد البحري فتعدّ هي الأخرى غير دقيقة، حيث يتم تحديثها كل أربع وعشرين ساعة، وهي فترة كافية لحدوث الكثير من التغيرات في هذه الكتل والتجمعات.

وفي المناطق القطبية الشمالية، لا يمكن الاعتماد على أن الشمس تشرق من جهة الشرق وتغرب من جهة الغرب. وكلما توغل المرء شمالاً، يقل عدد النجوم الواضحة في السماء. وفي فصل الصيف يكون القمر في غاية الشحوب لدرجة أنه يصعب ملاحظة وجوده في السماء. لذا فإن سلوك الرياح، وتيارات المياه في المحيط، واتجاهات تيارات المياه في الانهار، هي أكثر المصادر دقة ووثوقاً لتحديد الاتجاه بالنسبة للأسكيمو. وهنا، نادراً ما تسمع شخصاً يقول إنه متجه للصيد أو الزيارة.

* * * * *

(*) الميل الزاوي: هو البعد الزاوي لاحد الاجرام السماوية شمالاً أو جنوباً من خط الاستواء السماوي. (المترجم)

في صباح أحد أيام شهر سبتمبر، سافرت في اتجاه الشرق (وفقاً لتصوري الشخصي) بصحبة مجموعة من الأصدقاء في قارب صغير، انطلاقاً من المخيم العلمي الذي نقيم فيه بالقرب من بحيرة بوفورت بالقرب من الحدود الكندية. وكان صباحاً مشرقاً ذا طقس رائع، جاء في أعقاب أسبوع من الرياح الباردة، والأمطار، والسماء الملبدة، قضيناه في العمل في البحر. وكان اتجاهنا نحو حدود منطقة يوكون، التي تشكل لنا جميعاً إغراءً رومانسياً. قطعنا نحو 25 ميلاً بمحاذاة الساحل قبل أن يتعين علينا الابتعاد عنه بسبب كتل الجليد التي اعترضت مسارنا. وبمحض الصدفة اكتشفنا أننا لا نبعد سوى مائة ياردة عن خط الحدود.

التحفنا بالسترات ذات القلنسوات، وبدأنا في المشي عبر مناطق التندرة بدون هدف محدد في جوار مجموعة من الألواح الخشبية، التي توضح خط الحدود الفاصل بين البلدين. وقد تفاعل مشهد آثار قطعان الرنة التي مرت من هنا ومنظر أسراب طيور البط والإوز المهاجرة مع الطقس الرائع والشمس المشرقة، والسماء الصافية مع غياب موظفي الهجرة عن هذه المنطقة، فعبرنا خط الحدود من دون اكتراث. وهناك وجدنا خصلات من فراء دب قطبي عالقة بالحشائش الجافة، وآثار دب قطبي اتخذ طريقه من هنا إلى الجليد، ومنه إلى البحر.

وفي ظل هذه الظروف المواتية، يصعب على المرء تخيل تلك الصراعات الطاحنة، التي تدور رحاها في هذا اليوم نفسه في المناطق الحدودية بين بعض الدول. لقد كنا جميعاً متأثرين بواحدة من أكثر أفكار مرحلة الطفولة عذوبة وإرهاقاً: الوصول إلى أراض يوكون. لقد حددنا اتجاه رحلتنا بناء على بلاد تقع في أذهاننا. فالذي أحضرنا هنا هو مجرد فكرة، رحلة إلى بقعة من التندرة سيتعين علينا بذل جهد كبير، كي نميز بينها وبين بقعة أخرى تبعد عنها ميلاً واحداً باتجاه الشرق، أو الغرب، فيما يتعلق بالحياة النباتية، والحياة الحيوانية، والمميزات الطبوغرافية في كل منهما. لقد كان قدومنا إلى هذا المكان عفوياً وارتجالياً بالفعل. وبقينا هناك نحو ساعة من الزمن، حيث قمنا خلالها بالتقاط صور لبعضنا بعضاً، وكنا في غاية السعادة بهذا الجو الجميل الذي اتصل في مخيلتنا بأفكارنا عن «أراضي اليوكون».

وبالطبع فإن أفكاراً لا تقل واقعية عن تلك التي كانت تخالج مخيلات طفولتنا عن «أراضي اليوكون»، وغيرها من الأفكار الأكثر تأثيراً، هي التي قادت المستكشفين الأوروبيين الأوائل إلى

المناطق القطبية الشمالية منذ مئات السنين، فقد كانوا يبحثون عن أراضٍ وممرات بحرية يعرفون بوجودها، لكن لم يسبق لم رؤيتها من قبل، وما كان لهم أن يقنعوا بعدم وجودها حينما كانوا يفشلون في العثور عليها. فإذا كان ممر ماجلان موجوداً عند رأس هورن، فقد كانوا يعتقدون أنه لا بد أن يكون هناك أيضاً ممر شمالي مماثل، هو ممر أنيان، تماماً مثل اعتقادهم بوجود محيط شمالي وآخر جنوبي، طالما أن هناك محيطاً في الشرق وآخر في الغرب. ألم تصور أكثر المصادر وثوقاً وتدريساً في هذه الحقبة، - وهي رسومات البحار - تلك الأفكار؟ ألم يكن معتقداً أن فروبشير يجب أن يجد الذهب في المناطق القطبية الشمالية كما وجده الأسبان في المناطق الاستوائية؟

وحين دوّن المستكشفون الأوائل للمناطق القطبية الشمالية ما رأوه في هذه المناطق في تعليقاتهم الرسمية، كانوا مترددين في انتقاد حكمة تلك الحقبة، وما تتضمنه خرائطها الموقرة. وفي الواقع فإن هؤلاء المستكشفين كانوا ميالين للزخرفة والتنميق، كي يجعلوا كتاباتهم تبدو أكثر مصداقية، لدرجة أنهم في بعض الأحيان اعتقدوا أنهم قد شعروا بشيء ما، في حين لم يكن هناك شيء على الإطلاق، فقط لمجرد أنه كان يتعين أن يحدث شيء ما - أو لم تلمح العين شاطئاً قبل أن يغرق في الضباب؟ أو لم تسمع الأذن صوت موجة بعيدة قبل أن تطبق عليها الظلمة والرياح المعاكسة؟ لقد كانوا يعتقدون أن الأرض ستبدي تماشياً وتجاوباً - وليس تعارضاً - مع ما تعلموه عن شكل العالم من مصادر مثل الجغرافيا البطلمية(*). وقد أدت قراءة روايات هؤلاء المستكشفين، والتغاضي عما فيها من أمور لم تثبت صحتها - في ظل الرغبات والملاحظات المرتبكة لهؤلاء الكتاب، مع التفسيرات الفضفاضة لرسامي الخرائط الذين كانوا هم الآخرين يسعون للحفاظ على سمعتهم - أدت إلى ترسيخ جغرافيا الأمل في الوصول إلى جزر وممرات جديدة غربي أوروبا، لا يمكن بأي حال من الأحوال إثبات وجودها. لقد كانت جغرافيا لا مكان لها إلا في العقول.

وبالطبع، فقد كان لهذه التصورات تأثير كبير، فأصبح المجتمع يتعايش مع هذا النمط من الجغرافيا العقلية، وباتت تلك الجغرافيا أكثر نفوذاً من الجغرافيا الحقيقية. وفي هذا الصدد كتب ج. ويرفورد واطسون عن النظرة الشعبية للأراضي التي لم تكن معروفة من قبل قائلاً: «تتألف النظرة

(*) الجغرافيا البطلمية نسبة إلى الجغرافي الإغريقي بطليموس ومن أشهر نظرياته - التي انهارت أثناء عصر النهضة - أن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس والنجوم وغيرها من الكواكب تدور حولها. (المترجم)

الشعبية لتلك الأراضي مما يأمل المرء في أن يجده هناك، ومما يبحث عنه، ونظرته إلى ما يمكن أن يجده، وكيفية استيعاب ما يجده هناك في إطار أفكاره الذاتية، ثم كيفية التعبير عما وجده». ويضيف قائلاً: «إن محصلة ذلك هو ما يتم العثور عليه في أراضٍ جديدة».

ويقول جغرافي آخر هو جون ل. آلان في معرض تأمله للأسلوب الذي نتوجه به إلى أراضٍ جديدة: «حين يتم النظر إلى الاستكشافات على أنها عملية أو سلسلة من العمليات المتعاقبة أكثر من كونها سلسلة من الأحداث ذات المعالم الواضحة، تبدو مكوناتها الرئيسية متصلة بشكل واضح بالخيال. ولا توجد مغامرة استكشافية واحدة انطلقت من دون أن يكون لها أهداف مستقاة أساساً من تخيل لطبيعة الأرض التي سيتم استكشافها. لذا، فإن الأفكار المسبقة هي التي توجه مسار عملية الاستكشاف». ويستطرد آلان قائلاً: «إن هذه التصورات تقود إلى تدمير الملاحظات الميدانية، حيث يتم تحوير نتائج الاستكشافات من خلال تقارير كتبت، وفسرت على ضوء هذه الخيالات المسيطرة، ومن خلال محاولات لزرع معلومات جديدة في أنظمة وأطر يشوبها عدم الدقة الجغرافية».

وخلال السنوات العشرين الماضية، انتقل جزء من تركيز الجغرافيا الأكاديمية على الوصف الطبيعي للأرض، إلى التركيز على وصف تلك الأرض التي توجد في عقل الإنسان، فتلك الصور الجغرافية الكامنة في عقل الإنسان، والتي تسمى بالخرائط العقلية، تتميز بقدر مدهش من الاتساع والتعقيد. فبالنسبة لشخص ما يعيش في منطقة حضرية، على سبيل المثال، فإنه يرى نفسه متمركزاً في مساحة حضرية، ذات نقاط مرجعية معينة مثل محلات، أو مواقف سيارات، أو محطات للنقل العام. وهو يعدّ مبنى معيناً، أو شارعاً بعينه أكثر أهمية مما سواه، إذا كان هناك فرصة جيدة لمقابلة الأصدقاء بالمصادفة هناك. ويعرف ذلك الشخص أيضاً الطرق الأكثر أماناً بين نقطتين معينتين، وكيف يمكن أن يصل إلى ذلك المطعم من دون أن يعرف أياً من أسماء الشوارع التي يتعين عليه المرور بها للوصول إليه. أما الخرائط العقلية للأسكيمو فيمكن أن تكون عبارة عن تصور شامل للمناطق التي يرتادها للصيد بصفة منتظمة، حيث يمكن أن تظهر حيوانات الرنة في الربيع، أو حيث يمكن أن يجد ثمار العليق، أو تلك المناطق التي يصعب السير فيها لكثرة مستنقعاتها في شهر يونيو، أو المياه التي يمكن أن تكثر فيها أسراب من أسماك الشار، أو أماكن

توافر الحجر الصابوني، أو مواقع وجود كميات جيدة من الأخشاب المنجرفة.

وبالطبع فإن درجة التوافق بين الخرائط العقلية التي يحفظها سكان المدينة والأسكيمو لمنطقة ما، والخرائط التي يتم إعدادها باستخدام أدوات المساحة، ومعدات رسم الخرائط للمنطقة ذاتها، يمكن أن تكون ضعيفة للغاية فيما يتعلق بالمساحات، إلا أنه قد ثبت بالفعل دقة الخرائط العقلية في توجيه أصحابها عبر الأرض، فهي مفاهيم حية تمت صياغتها بدرجة عالية من الخصوصية، مجردة من أي زيادات لا فائدة من وجودها، كما أنها قابلة للتعديل لحظياً، وصحتها ليست عرضة للجدل.

إن فهمنا العام لمنطقة ما يتطلب اصطلاحاً أوسع، فالخرائط العقلية لا تتناول بما فيه الكفاية، المعالم والسمات غير المنظورة للأرض، وهي مكونات تدخل ضمن الصورة العامة للمنطقة التي تتكون لدى السكان الأصليين، الذين يتأملونها، ويتفكرون فيها بقدر تأملهم وتفكيرهم في سمات ومعالم الجغرافيا الطبيعية في منطقتهم، إن لم يكن أكثر. ويشير مصطلح جاهنر المعروف باسم «الأرض الروحية» بشكل أكثر تحديداً إلى العلاقات المتأصلة في السمات والمميزات الطبيعية للأرض، والتي تجعلنا نشعر بوجود تلك القوى والعلاقات التي تغمر فكرنا الديني. وإذا نظر المرء إلى عبارة «بلد في العقل» على أنها تعني سمات وخصائص الأرض البادية للحواس، بالصورة التي يتم بها اختزانها في الذاكرة البشرية، وكما تظهر في الحكايات الشفهية للشعب الذي يعيش عليها، وبحسبانها مستودعاً لكل الأساطير والتاريخ الحقيقي للأرض، فربما تكون هذه الجملة وافية بما فيه الكفاية عندئذ.

وقد أجرى أموس رابوبورت، وهو معماري استرالي وكان مهتماً بمعنى المكان مثل توان وكاربنتر، دراسة مميزة بين جماعات الكورنا والأروندا، والولبري وغيرهم من جماعات سكان استراليا الأصليين. وفي أثناء هذه الدراسة، قام رابوبورت برسم خرائط للأراضي الأسطورية التي تتصورها كل جماعة من هذه الجماعات، حيث توصل إلى أن القصص التي تكون خلفية الأساطير الخاصة بكل قبيلة وجذور تلك القصص ومعانيها وأهدافها في الكون، هي عبارة عن «واقع غير منظور» يعبّر عن نفسه من خلال «ظواهر منظورة». وبمعنى آخر، فإن الأرض تحيل الأسطورة إلى حقيقة، كما تجعل من الشعب حقيقة أيضاً.

ويقول رابوبورت إن القصص التي تجري على الأرض، وتضفي معاني على العلاقات المستمرة للحياة، تتساوى في أهميتها بالنسبة للشعوب مع الغذاء والماء. وقد خلص رابوبورت إلى أن الأرض الأسطورية تختلف عن الأرض الطبيعية، إلا أنهما تتداخلان عند نقطة محددة مرئية على الأرض. ويوضح رابوبورت أيضاً أن حدود الأرض المحلية أمر غير قابل للمساومات السياسية، وفي منأى عن أي تعديل، فهي حدود راسخة في الأسطورة. وقد أوضحت الدراسة التي قام بها رابوبورت بجلاء، وكما يقول هو شخصياً أن «الأوروبيين ربما يكونون قد أخطؤوا تماماً في فهم طبيعة الأرض بسبب وجهة نظرهم».

ولقد كان تطبيق منهج التقدير الاستقرائي بين ثقافتين مختلفتين أمراً محفوفاً بالمخاطر دائماً. وأنا شخصياً لا أعرف بوجود دراسة مشابهة لدراسة رابوبورت تمت في المناطق القطبية الشمالية، لكنّ ملاحظاته تبدو – على أية حال – على درجة من العمومية، تجعلها تقترب بشكل كبير من أي ملاحظات يمكن أن يبديها عالم متخصص في الأجناس البشرية. وتمتلئ سجلات أكثر المستكشفين القطبيين إثارة – هؤلاء الذين يتمتعون بملكة قوية للاستماع، وقدرة على تسجيل الانطباعات المجازية – بالعديد من الإشارات لأحداث أسطورية، وقعت في أماكن محددة. وبالنسبة للأسكيمو فإنهم يتمتعون بحس بحري أكثر من تمتعهم بالحس البري أو الأرضي، علماً بأن سطح البحر يتسم بالتغير من سنة إلى أخرى. ومع ذلك، فإن معلوماتهم ومعارفهم عن الأرض في المناطق القطبية الشمالية أكبر من تلك التي تتضمنها التقارير العلمية، وأكثر كثافة من تلك المسجلة على الخرائط ثلاثية الزوايا بالهيئة الأمريكية للمساحة الساحلية والجيودسية. إنها البلاد التي ألقى عليها السحرة والعرافون بما يسمى «كومانيك»، أي ضوء كهانتهم وسحرهم.

وعلى امتداد العالم، كان طموح السكان الاصليين يتمثل في تحقيق علاقة وثيقة الصلة بالأرض، والتأقلم معها وعليها، وفي بعض الأحيان تحقيق حالة من التناغم المرهف معها. ويتضمن حلم هذه العلاقة الوثيقة السامية، تقويماً لعلاقة الصيد والتجمع التي تربط بين الإنسان والأرض، تلك العلاقة التي ثبت أنها تكشف نوعاً من الاهتمام المتبادل، كما أنها تعني أيضاً الحفاظ على تلك الحكايات التي تشد الشعب إلى أرضه.

وأستطيع أن أتخيل الإحساس الذي سيطر على مجموعة من ضباط إحدى السفن، التي

شاركت في حملة بريطانية لاستكشاف المناطق القطبية الشمالية، حين وقف هؤلاء الضباط على الشاطئ لا حول لهم ولا قوة أمام ثلاثة أو أربعة من الأسكيمو يرسمون لهم خريطة على الرمال، وقد وجد هؤلاء الضباط الشبان هذا الرسم رائعاً وفي منتهى المهارة، لكنه معقد جداً وفي غاية التكلف. وأستطيع أيضاً أن أتخيل الأسكيمو يرسمون خريطة، لا يقصد منها أن تكون خريطة ملاحية، لكنها تجسيد لهذه البقعة التي يعيشون عليها في الكون المعروف. لذا، فقد كانوا يصنعون خطاً من الحجارة لتمثيل سلسلة من الجبال، أو يضمنون تفاصيل دقيقة ربما تبدو عديمة الفائدة لسلسة من الخلجان الصغيرة على الخط الساحلي، لأنها مواقع جيدة لصيد طيور الإوز، أو يصنعون علامات على مناطق معينة من أحد الأنهار، حيث تتوافر فيها المتطلبات الضرورية لتفريخ الأسماك. إنها تلك الخريطة التي تستخدم أداة لتنشيط وحفز الذاكرة، تنظم أسماء الأماكن، والقصص المرتبطة بكل منها. لقد كانوا ثلاثة أو أربعة رجال يفصحون عما لديهم من معانٍ وأهداف كبشر أمام مجموعة من الضباط الشبان. إن هؤلاء الأسكيمو لم يعرفوا بالضبط ما الذي يمكن أن يتركوه لهؤلاء الرجال الذي يفتقرون للصبر، ولم يكن في وسعهم أن يفصلوا بين الحكايات وفلسفتهم الأصلية، وبين الأرض التي يعيشون عليها.

ويمكن تقسيم القصص التي نبتت من الأرض، لتثبت الأماكن في مواقعها إلى نوعين، الأول، تكوّن في زمن الأسطورة، وغالباً ما تدور أحداثه في أرضٍ أسطورية. وقد حُفظ هذا النوع من الحكايات بمنتهى الدقة والتفصيل.

أما النوع الثاني من القصص، فيتضمن قصصاً وحكايات عن السفر، والأحداث التي وقعت لكل فرد خلال السنوات الماضية التي يمكن إدراكها. فيمكن أن تسمع أحدهم يتحدث عن مكان ما قائلاً: هنا ولدت أختي، أو في هذا المكان استطاع زوج أختي أن يقتل اثنين من حيوانات الرنة في فصل الشتاء الذي قتل فيه دب كل الكلاب التي كانت معي، أو يحكي قائلاً: في تيترأليك انكسرت زحافتي الآلية، واضطررت لمتابعة الطريق سيراً على الأقدام، أو هنا في سيناسالوك، كانت أسرتي تقيم مخيمها قبل ولادتي.

وتساعد الأرض البكر الوادعة على تحقيق صحة كلا النوعين من القصص والحكايات، فالتجسيد المستمر للأرض سواء تقديساً أم امتهاناً، في إطار محتوى هذه القصص، هو الذي يبقي الناس

أحياءً، وهو الذي يبقي الأرض حية فيهم. إنها اللغة، وتلك القصص هما اللتان تجمعان أجزاء الرؤية معاً.

وبالنسبة لهؤلاء الذين ليسوا بصيادين، ويعيشون في المدن، دون معاناة تذكر، ويلهون بأفكار فيندر أن تجد فرداً من الأسكيمو يرغب في مجرد الحديث عنها، فإن مثل هذه المشاعر والأحاسيس قد تبدو أمراً مبهماً، بل ربما لا نقيم لها وزناً على الإطلاق. لكنني أعتقد أننا بذلك نكون قد قطعنا أنفسنا عن مصدر من مصادر الحكمة. وأحياناً نخطئ، فنحيا حياة موحشة بعقول فظة، كلحم نيئ يلقى للبرابرة، نفتقر إلى الحوار، فنفقد القدرة على التخيل. وفي اعتقاي أن الانطباع الذي يسيطر على الزائر للمناطق القطبية الشمالية، بعد أن يبتعد عن الطائرة، ويبدأ في التفاعل مع القرية التي وصل إليها، هو أن هناك حكمة يمكن اكتشافها لدى هؤلاء الناس. وعلى فترات متباعدة، يظهر أيسوماتاك... شخص قادر على خلق المناخ الذي تظهر فيه الحكمة نفسها.

إنها حكمة سرمدية استطاعت أن تنجو من النظم الاقتصادية البشرية الفاشلة، ومن الحروب، بل وتجاوزت تعريفها نفسها، إنها حكمة بلا اسم، يبجلها الناس جميعاً، إنها فهم لكيفية أن يعيش المرء حياة محترمة، كيف يتصرف بشكل لائق تجاه الآخرين، وتجاه الأرض. وعلاوة على ذلك، فهي ليست ملكاً لأحد، وهي ليست موجودة بشكل أعمق أو أكثر تركيزاً في ثقافة ما دون غيرها من الثقافات. وأستطيع بسهولة أن أتخيل شخصاً على شاكلة توماس ميرتون – من الأشخاص المحترمين أكثر من كونهم مشهورين في عصرنا – وهو جالس مع شخص أو اثنين من الأسكيمو في قرية من قراهم الساحلية، يعززون معاً وجود هذه الحكمة البشرية في منطقة أخرى من العالم، تخيلتهم يجوبون بأبصارهم معاً في الجبال والجليد، وخلف الطيور، وتعجبت كيف يمكنهم أن يصوغوا هذه الحكمة في كلمات.

وفي أمسية من أمسيات شهر يوليو، سافرت بالطائرة بصحبة اثنين من علماء الإحاثة، ومن جزيرة الف رينجينز إلى معسكرهم الجديد بالقرب من خليج كاسل على جزيرة بانكس التي تقع على بعد نحو 400 ميل باتجاه الجنوب الغربي، وكانا قد اطلعا على جزء مدهش من تاريخ المناطق القطبية الشمالية من خلال مجموعة من الحفريات التي جمعاها من بين طبقة سميكة متداخلة من الفحم والصخور المتفتتة، تعرف باسم تكوين يوركا في جزيرة إلزمير، وتوضح هذه الحفريات أنه

منذ 40 إلى 50 مليون سنة، في أثناء العصر الإيوسيني (الفجري) كانت المناطق القطبية الشمالية منطقة غابات مليئة بأشجار السكوية(*) ونباتات الجنكة(**)، وبها رطوبة ودرجات حرارة، وطقس يكاد يكون دافئاً، ومجموعة من الحيوانات التي تشابه إلى حد بعيد تلك التي وجدت آثارها في حفريات العصر الإيوسيني في أوروبا. وفي الوقت الذي بدأ فيه انفصال الطبق القشري لأمريكا الشمالية عن الطبق القشري الإيوسيوني من ناحية النهاية الشمالية للمحيط الأطلنطي، كانت الحيوانات قد توقفت لتوها عن التنقل جيئة وذهاباً.

وفي أثناء الرحلة كنا - أنا وروبرت ويست وماري داوسون - نجلس في مقاعدنا في الطائرة ومن حولنا مجموعات الحفريات، ومعدات التخييم. ولعدة ساعات استمتعت بالاستماع إلى شرحهما حول العمل الذي يقومان به وعن آمالهما التي تحققت، وعن أحلامهما التي تبددت. وبطريقة ما استطاعا أن يصورا الأرض التي كنا نطير فوقها في أثناء عصرها الإيوسيني، حين كانت تعج بمخلوقات مثل الحصان القديم ذي الأصابع الثلاثة في حوافره، وحيوانات الليمور الطائر المنقرضة. وتماسيح حقبة ما قبل التاريخ. وفي أثناء حديثهم الشائق هذا استعادوا ذكريات بحثهم الدؤوب عن قطع صغيرة من العظام المتحجرة، أو أسنان وأصداف الحيوانات بين الجليد، أو بحثهم عن قطع من الأخشاب المتحجرة، وبقايا أوراق الأشجار المتساقطة، وعن أي شذرات من أدلة تشير إلى ما كانت عليه الأرض.

لقد كانت رحلة طويلة، وكان يتعين علينا أن نرفع أصواتنا قليلاً، كي نتغلب على صوت محركات الطائرة، وفي بعض الأحيان كنا نقوم برسم بعض الأشياء على قطع من الورق. وفي مكان ما فوق جزيرة ميلفيل استدار كابتن الطائرة دونسين جرانت في مقعده كي يستمع إلى الحوار الذي كان دائراً بيننا، تاركاً القيادة لمساعده، ثم بدأ جرانت في الحديث عن تاريخ استكشاف المناطق القطبية الشمالية، وقد كان شغوفاً ومطلعاً في هذا المجال. وفي أثناء اقترابنا من جزيرة ديالي على الساحل الجنوبي، حيث قضى كليت فصل الشتاء برفقة طاقمه على السفينة البريطانية «ريزوليت» سنة 1852م، وجهنا جرانت إلى إلقاء نظرة على المكان، كما طلب منا أيضاً مشاهدة المقر الشتوي

(*) شجرة السكوية: تعرف أيضاً بالجبارة وهي شجرة ضخمة ومعمرة يبلغ طولها 300 قدم في بعض الأحيان. (المترجم)

(**) الجنكة: شجرة تكثر في الصين ذات أوراق مفلطحة، وثمار صفراء اللون. (المترجم)

لوليم باري على الخليج والذي بات يعرف الآن باسم الميناء الشتوي.

وفي أثناء الرحلة أيضاً شاهدنا السلاسل الجبلية الضخمة، وكتل الثلوج الهائلة في ممر ماك لور. وفيما كنا نقترب من الساحل، رفع جرانت صوته محاولاً لفت انتباهنا إلى ملاحظة ما شاهده بيم في أثناء توجهه إلى جزيرة بانكس انطلاقاً من جزيرة ديالي في ربيع سنة 1853م لإنقاذ مكلور وطاقم سفينته «أنفستيجيتور». وعلى الرغم من أننا كنا في شهر يوليو، حيث تختلف هيئة الضوء وتوزيعه عن بقية أشهر السنة تماماً، إلا أننا استطعنا أن نفهم ما يعنيه جرانت. ثم توقفنا جميعاً عن الحديث، وخلال نصف الساعة التالية لم نرفع أعيننا عن نوافذ الطائرة.

وفي أثناء هذه الرحلة أيضاً، حلقنا فوق قطعان من ثيران المسك، وقد كان للضوء المنحدر تأثير برعمي في جوانب التلال؛ فجعلها تبدو كما لو كانت قطعاناً من الخراف السوداء ترعى في المراعي الإنجليزية. ثم عبرنا فوق مصب نهر طومسون، حيث قامت الطائرة بعد ذلك بالدوران حول المنطقة، وفي أثناء هذه الدورة، قام رفيقا سفري بإلقاء نظرة متفحصة على تضاريس المنطقة، حددا بموجبها المكان الذي سيقيمان فيه مخيمهما، ثم هبط جرانت بالطائرة على ممر مفروش بالحصى تنمو عليه نباتات قليلة. وبعد أن قمنا بإنزال معدات وأمتعة ويست وداوسون وقفنا ننظر فيما حولنا. لقد كانت أمسية جميلة، وارتسمت على وجوهنا ابتسامة تفصح عن الأمل في أن يكلل عملهما بالنجاح.

وقبل أن نتركهما، أعطتني داوسون مجموعة من الخطابات التي كتباها إلى أسرتيهما، وطلبت مني أن أرسلها بالبريد عند عودتنا إلى ريزوليت. ثم لوحنا مودعين بعضنا بعضاً، ومشاعر الأسف على الفراق تختلج مع التمنيات الطيبة. ولساعات جلست في مقعدي في الطائرة وتلك الخطابات بجانبي، وتفكرت في تلك الرغبة الرائعة لدى الأصدقاء والزملاء والرحالة في مشاركة بعضهم بعضاً فيما يعرفون، وفيما يشاهدون ويتخيلون، ليس بهدف الوصول لفهم مشترك بينهم، بل بهدف إطلاع الآخرين على ما يفهمه المرء. وفي مثل هذه الجو من الاحترام المتبادل، حيث يفرد كل فرد خرائطه، من دون خوف من التناقض أو الريبة أو السرقة، يمكن تخيل القفزات الرشيقة في التاريخ البشري. وفكرت في هذا كله طوال رحلة العودة إلى ريزوليت، وشاهدت جزيرة ميلفيل، ثم باثهرست وهما تختفيان في أحضان السحب بينما الطقس يتحرك من اتجاه الغرب.

الفصل الثامن

مقاصد الرهبان

غادرنا مخيمنا في جزيرة بينجوك ذات صباح، ونحن نعرف أن عاصفة قادمة من الجنوب الغربي تتحرك باتجاهنا. وكنا نعتزم العمل في المياه المفتوحة بين الشاطئ وحواف مناطق تجمع الجليد المتكسر، على بعد عدة أميال قليلة من موقع المخيم، في قارب مكشوف لا يزيد طوله عن عشرين قدماً، متصل به شبكة كبيرة. وكالعادة كان أربعتنا يرتدون الثياب الثقيلة، ومزودين بكل ما يلزم لمواجهة الطقس شديد البرودة.

وفي مثل هذه المواقف يتقبل المرء احتمالية الموت ويستعد لمواجهته، ثم ينسى هذا الموضوع تماماً. وكنا نحمل معنا في القارب معدات الطوارئ والنجاة. بالإضافة إلى معداتنا العلمية، ومشاعل الإشارات الضوئية، وسترات النجاة، وخيمة. كما كان كل واحد منا مزوداً بمجموعة إضافية من الملابس وكيس للنوم ومؤونة من الغذاء تكفيه لأسبوع. وفي كل صباح كنا نقوم بإجراء مراجعة لمحتويات القارب، ثم نرسل موقعنا بجهاز اللاسلكي إلى إحدى القواعد البعيدة. وقبل أن نغادر جزيرة بينجوك، تركنا ملاحظة على المائدة الموجودة في الكابينة، محدد فيها توقيت مغادرتنا، والاتجاه البوصلي الذي سنتخذه في أثناء الرحلة، والموعد المتوقع لعودتنا.

وقد كان رفاقي – وكلهم من العلماء – جادين بشأن هذه الترتيبات، لكنهم لم يتعاملوا معها بكآبة أو ضجر. لقد كانوا يستبقون المتاعب بالاستعداد لمواجهتها، ولم يتركوا المخاطر التي تكتنف عملهم تردعهم أو تخيفهم، بل جعلوا منها مرشداً لهم. وإنه لأمر جيد فعلاً أن يسافر المرء مع مثل هؤلاء الناس. وكما هو الحال في المهن الأخرى، فإن الشخص الذي يهول المخاطر، أو الذي يسعى إلى إظهار مهاراته في القدرة على البقاء بشكل مفرط، هو آخر من ترغب في مقابلته في مثل هذه الظروف.

وقد نشأت الصداقة الحميمة التي تجمع أربعتنا من اشتراكنا في الحماس الشديد للعمل الذي نقوم به، ومن افتتاننا بالبيئة من حولنا، واتصالنا اليومي المشترك بما فيها من طيور بحرية وحيوانات

الفقمة والأسماك. ونادراً ما كنا نصرح بهذه المشاعر مباشرة لبعضنا بعضاً، لكنها كانت تظهر نفسها بجلاء من خلال كلمة تشجيع، أو في صورة تقدير لعمل شاق ينجزه أحدنا تحت ظروف البلل والبرودة المستمرين. لقد كان اهتمامنا المشترك يتركز على إنجاز ما بين أيدينا من مهام، وهو ما يتساوى في الأهمية بالنسبة لبقائنا على قيد الحياة، مع ذلك الصندوق الأزرق الموجود أمام منصة دفة القارب، والذي يحتوي على كل معدات الطوارئ.

قضينا طوال النهار في تصنيف محتويات الشبكة التي كنا قد ربطناها بالقارب، وفي تفحص نُسالات العوالق المائية الرأسية. وعند الظهر تقريباً أوقفنا محركات القارب، وتركناه يتهادى تحت سماء ملبدة بالغيوم في أثناء تناولنا لطعام الغداء، وكانت الأمواج قد بدأت تلاطم جسم القارب، لكنه كان لا يزال هناك أمامنا ساعتين قبل أن يصل ارتفاعها إلى ثلاث أو أربع أقدام، وهو الارتفاع الذي نستطيع تحمله بسهولة، عندها قررنا أن نفتش عن حيوانات الفقمة قبل أن نتابع طريقنا. وبعد نحو ساعة، ونتيجة لحركة خاطفة في الجليد تبددت في لمح البصر، وجدنا أنفسنا وقد انقطعنا تماماً عن مياه البحر، وكانت الريح والثلوج المنضغطة تعمل على إغلاق قنوات المياه الهادئة التي كنا نبحر فيها. وفجأة أصبحنا نبعد نحو 200 ياردة عن المياه المفتوحة. فيما كان طوف جليدي كبير يندفع غرباً بفعل الريح مهدداً بإبعادنا مسافة أكبر إلى عمق منطقة الجليد المتكسر بعيداً عن المياه المفتوحة، وبالإضافة إلى فقدان الاتجاه، أصيب جسم القارب في عدة مواضع. وخلال الساعات التالية، عمل كل منا بكد ودون أن ننطق بكلمة واحدة، وكنا جميعاً مدركين مدى خطورة ما نواجهه. وحتى إذا استطاع شخص ما التقاط نداء الإغاثة الذي يمكن أن نطلقه عبر جهاز اللاسلكي، فإننا لن نتمكن من تحديد موقعنا بالضبط في خضم مساحة من الجليد المتكسر تتحرك باتجاه الشرق. وكانت هناك عاصفة ستسمر لمدة ثلاثة أيام تقترب من المنطقة التي حوصرنا فيها، وهذه الأطواف الجليدية يمكن أن تسحق القارب وتهوي به إلى القاع، أو يمكن أن تندفع خارج المياه. حاولنا الاستفادة من أي تحركات لحظية في الجليد للاقتراب من المياه المفتوحة، وكنا نبعد الجليد من القنوات المائية باستخدام أزاميل مخصصة لذلك، وندفعه أمامنا بقوة محركي القارب التي تبلغ 90 حصاناً إلى أن وصلنا إلى رقعة صغيرة من المياه المكشوفة بين الجليد. ومن هذه الرقعة، وبعد عملية استطلاع سريعة على الأقدام، بدا لنا أنه من الممكن أن نصل إلى البحر

المفتوح، وعلى بعد نحو ثلاثين قدماً من رقعة المياه المكشوفة، تشككنا في جدوى hsjoPp]hl الأزاميل لتكسير كتل غليظة من الجليد المضغوط كانت تسد طريقنا، فإذا حدث وتكسرت هذه الكتلة بشكل غير صحيح فقد يتغير مركز ثقلها وتغرق في المياه محدثة دوامة قد تبتلع القارب، وكان الطريق الوحيد لتجاوز هذه الكتلة هو سحب القارب الذي (يزن نحو 3000 رطل) من الماء تماماً. وباستخدام منظومة مرتجلة من الخطافات الجليدية والحبال والكتل الجليدية الصلبة، وبكثير من المناورة، وبدوافع قوية من رغبتنا العارمة في الخلاص، تمكنا من وضع القارب على الطوف الجليدي ثم دفعه عبر هذا الطوف مرة أخرى إلى الماء.

ولو كان هذا الذي وصلنا إليه هو المياه المفتوحة لكنا فرحنا حقاً، لكننا تبادلنا نظرات تعبر عن خيبة أملنا. ففي الوقت الذي كنا نرفع فيه القارب من المياه إلى الطوف الجليدي، ثم نعيده إلى المياه مرة أخرى، كانت تلك الفرجة بين الجليد آخذة في الانغلاق تدريجياً. ولا يزال هناك طوف كبير آخر يفصلنا عن مياه المحيط، وقد تكسر جزؤه المعرض للأمواج، وانهار عمودياً بارتفاع أربع أقدام، الأمر الذي حرمنا نهائياً من إنزال القارب إلى المياه من عند هذا الجرف الخطر.

بقي اثنان منا في القارب، فيما ذهبت أنا وزميلنا الرابع في اتجاهين مختلفين مشياً على الأقدام على سطح الطوف، وعلى بعد عدة مئات من الياردات إلى الشرق عثرت على قناة مائية، فتفحصتها بسرعة، وأشرت بعمود إزميلي لباقي أفراد المجموعة، ولم يكن الأمر يتحمل الانتظار، لكن الدقائق المعدودة التي احتجناها لتحريك القارب إلى هناك، كانت كافية كي تنغلق القناة، فوضعنا مقدمة القارب في مواجهة حافة الطوف المقابل للمياه المفتوحة، وأدرنا محركي القارب إلى أقصى قدرة ممكنة، محاولين ان نبقي الطوف في مكانه، ومنعه من التحرك بفعل الرياح. وبدأ الجليد الموجود على جانبي الطوف في التحرك شرقاً، وبدأت القناة تنفتح مرة أخرى. ومع هدير المحركات، وصل عرض الفجوة إلى ستة أقدام، وفي هدوء وبتفاهم متبادل، أخذ كل منا يقوم بعمل، الشخص القائم على الدفة يشغل المحركات إلى الخلف، ثم أمال القارب جانباً، واندفع به في القناة. وبسرعة تمكنا من قطع مسافة عشرين قدماً، ثم أملنا القارب مرة أخرى، وأدرناه على محوره بزاوية قدرها 120 درجة. اندفع أحدنا إلى الأمام جرياً، وأخذ في تكسير الجليد الذي يسد الطريق أمامنا، في حين كان الآخران يقفزان من وإلى القارب، وهما يطعنان بإزميليهما كتل الجليد التي

كانت تطبق على الدعامتين الجانبيتين للقارب. وفجأة سمعنا صراخ الشخص القائم على الدفة، وهو يندفع ويخلص المحرك الأيمن من الثلوج التي كانت قد بدأت في التراكم عليه، ثم إلى الشخص الذي كان في المقدمة بإزميله إلى القارب، ليساعد في إزالة الثلوج، وأخيراً انزلق القارب بجانبه الأيمن على الجليد نحو الماء. ولم يكن هناك شيء يمكن أن نتكئ عليه بأقدامنا، فتشبثنا بجانب الزورق، وألقينا بأنفسنا داخله. كنا نترنح من شدة التعب والإجهاد كأكياس محشوة، لكنا خرجنا على أية حال.

نعم خرجنا، لكن ارتفاع الأمواج كان قد وصل إلى ست أقدام، وابتعدنا عدة أميال عن الشاطئ الذي اختفى الآن. ففي أثناء الساعات التي قضيناها محاصرين في الجليد، كانت العاصفة قد اشتدت، وحملتنا مسافة لا نعرفها باتجاه الشرق، وكان القارب لا يزال قادراً على تحمل الأمواج، ولم نتمكن من تمييز أي شيء من خلال المشهد الذي أتيح لنا اختلاسه من بين الأمواج، ولم نستطع أن نرى بعيداً بما فيه الكفاية بسبب الرذاذ وحبيبات المطر المتجمد، ناهيك عن أن الساحل القطبي في هذه المنطقة منخفض أصلاً. ولم يكن أمامنا إلا أن نأمل أن نكون في مكان ما شرق جزيرة بينجوك، في أقصى نقطة تقع إلى الغرب من جزر البراري، وليس إلى الغرب في اتجاه مضيق هاريسون، حيث تكون الرياح أشد تأثيراً، والشواطئ أكثر بعداً.

وفي أثناء الإبحار قمنا بنزح الماء من قاع القارب، وكنا نصيح بصوت عالٍ، كي نتغلب على الرياح وصخب الأمواج وصوت المحرك، وما أن تخلصنا من قدر كافٍ من المياه، حتى نشرنا قطعة من القماش على مقدمة المركب للتقليل من تأثير قوة الأمواج والماء الذي يتدفق معها إلى القارب، وأخرجنا كل ما استطعنا إخراجه من قاع المركب، ثم انتابنا جميعاً شعور بالعزيمة الراسخة، ونحن نتقدم إلى الأمام، وقد اجتزنا مرحلة الخطر وأصبحنا في أمان الآن، وإذا لم تدفعنا الرياح، وإذا كنا في اتجاه الغرب، فسيكون في مقدورنا أن نصل إلى منطقة محمية من الشاطئ في مكان ما، وننتظر انتهاء العاصفة.

استمر القارب بنا قدماً، وقد وقف ثلاثة منا منحنين وظهورهم إلى الريح.

وبدأت أشعر بنوع آخر من الخمود في هذا الثبات الممتد، فقد بدأت المسافة بين جسدي وتفكيري في التمدد ببطء، وقد بدت أمام عينيّ كممر طويل معتم. أدركت عندها أن جسمي

بارد وأنني أرتعش، أحسست بالبقع التي هي اكثر دفئاً في جسدي تحت الملابس المبتلة، وان هناك أجزاء مكشوفة من صدري، شعرت بها أنفاساً متجمدة وعرفت فيما يشبه سكون الاحلام ان نصفي الأعلى كله مبتل، وقد تمزقت الملابس الثقيلة التي ارتديها من عند كتفي وتركته مكشوفاً.

كنت أعرف انه يتعين عليّ استبدال الملابس المبتلة بأخرى جافة، لكن الرغبة وحدها لم تستطع تحريك ساقي او ذراعي، لقد كانتا بعيدتين جداً عني، وشعرت أنني أحملق في شخص ما، وان الملابس المبتلة تنزاح عني، ولم استطع ان اتفوه بكلمة واحدة، وأحسست انني معلق على سارية في العراء، ثم تخيلت أنني جالس على أرض في مكان ما داخل نفسي.

وفي داخل ملابس صوفية جافة، وتحت غطاء مشمع يدرأ عني الأمواج، عرفت أنني أصبحت في أمان الآن، لكنني كنت لا أزال غير قادر على إدراك عنصر الوقت، ولم أكن قادراً على رؤية اي شيء خارج نفسي، ثم حاولت التركيز، كي اشعر بما يحدث حولي في القارب، ثم ركزت على قبض وبسط عضلات جسمي، حتى أدركت أن هناك وقتاً يمر، ومرة أخرى أصبح هناك دفق زمني، وسمعت صوتاً ينادي، حاولت بدوري ان أصيح، وحين سمعت رداً أدركت أنني عدت إلى حافة الوقت مرة أخرى وأنه يمكنني ان اخطو داخله، وعرفت أنني كنت منتصباً في جلستي، مشجعاً نفسي على مقاومة الأمواج القوية.

لقد كانت الصيحات التي سمعتها تشير إلى العثور على الشاطئ، نعم، عثرنا على جزيرة بينجوك واقتربنا من الشاطئ وألقينا مرساة القارب في منطقة آمنة، ثم توجهنا إلى الكابينة، حيث استبدلنا ملابسنا، واعددنا طعام العشاء، وقد تجسدت أحاسيسنا بالنجاة في نكات وتعليقات ساخرة أطلقناها على بعضنا بعضاً. وفي هدوء تناولنا طعامنا، ثم ذهب كل منا إلى فراشه، واستغرقنا جميعاً في نوم عميق، كنوم الدببة في فصل الشتاء.

* * * * *

استمرت العاصفة لمدة يومين متصلين، وكدنا أن نفقد القارب حين انقطعت أحد حبال المرساة وتعرضنا للبلل الشديد والبرد مرة أخرى في أثناء محاولة تأمينه، لكن هذه المتاعب كلها بدت لا

تعدو كونها نتيجة طبيعية لمجيئنا إلى هنا بمحض إرادتنا. وفي ظهر اليوم الثاني وبعد أن هدأت حدة العاصفة، وتحولت إلى هبات رياح قوية، وأنذر ضوء الشمس باختراق السحب المنخفضة، ذهبت في مسيرة طويلة بالجزيرة.

كنت لا أزال أشعر بوخز الإحراج بسبب هذا التدهور السريع الذي اعتراني، وهبط بي من حالة القوة إلى حالة من الانفصال عن الواقع، وجعلني مجرد وزن فاقد للحس والوعي، لكنني لم أركز على هذا الإحساس طويلاً. وحين تنخفض الأمواج سنخرج للبحر مرة أخرى، وسوف ندخل إلى الجليد، وسنكون أكثر حذراً، وحقيقة، فإن شيئاً لم يتغير.

وفيما لا تزال التجربة ماثلة في ذهني، بدأت أفكر في تلك السفن الشراعية والقوارب الطويلة التي حملت الأيرلنديين والشماليين القدامى عبر المحيط الأطلنطي، ماخرة عباب المساحات المترامية من الجليد المتكسر، مندفعة باتجاه الجنوب على صفحة تيار جرينلاند الشرقي. يا إلهي! أي قوة تلك التي كانت تسيرهم؟! إننا لا نعرف عنهم سوى ما استخرجناه من كتابات المؤرخين الأوائل، ومخالفتهم لأفكار ونظريات أسلافهم التقليديين من أمثال بطليموس وسولينوس وإيزيدور، وأنهم قد تأثروا فيما عبروا عنه بقناعاتهم الدينية، ومشاعرهم القومية، وخيلائهم، وأيضاً أفكار عصرهم، وقد حفلت سجلات المؤرخين بالتوليدات، والتكييفات، والأخطاء، حينما قام آخرون بترجمة ما تم التعبير عنه من قبل هؤلاء، أو حينما قاموا هم أنفسهم بالترجمة عن الآخرين. لذا، تظل السجلات الأولى لعمليات الاستكشاف التي شهدتها المناطق القطبية الشمالية مفتوحة أمام العديد من التفسيرات. ويظهر هذا التاريخ المعدل بعيداً عن واقعية ما يفترض أنه يرويه، بل إنه يجعل ما يرويه يبدو أقل فيما يتضمنه من معاناة ومصاعب مما تعرضنا له في أثناء رحلتنا الأخيرة.

ورغبت في استئناف السير حتى أكمل شاطئ الجزيرة بطوله، وتفكرت ملياً في مصير هؤلاء المهاجرين الأوائل، إنهم أناس لا يعرف أسماءهم أحد، أبحروا في سفن لا نملك لها رسوما، ولا نعرف لها وصفاً، عبر جليد وعواصف مثل تلك التي واجهناها، لكنهم كانوا أكثر بعداً عن الساحل، ولا يملك المرء سوى أن يتخيل رغباتهم وأحلامهم.

وتحفظ لنا الأناشيد الأيسلندية القديمة (المعروفة باسم الساجا) والأغاني الأيرلندية القديمة (المعروفة باسم إيمرامها) تسجيلاً لأوائل الرحلات إلى المناطق القطبية الشمالية، إلا ان هذه الأعمال

كتبت بعد هذه الرحلات بمئات السنين، بوساطة أشخاص لم يشاركوا فيها، بل سمعوا عنها فقط.

وعن ذلك كتب المستكشف القطبي والمؤرخ فيردتج النانسيني: «إن حكايات الشماليين القديمة والساجا الأيسلندية هي سرد متأثر بالرومانسية التاريخية، يرتكز إلى أساطير، ومعتقدات غير محددة. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الـ إيمرامها الأيرلندية، وعن سجلات رحلة القديس برندان إلى المناطق القطبية الشمالية، وإن كانتا تختلفان عن الساجا في الأسلوب والإيماءات.

وفي المراحل التالية التي تبدأ في وقت سابق للساجا الأيسلندية، ظهرت إشارات إلى ما عرف بالطريق إلى كاثي أو الممر الشمالي الغربي. وقد وحد السعي إلى اكتشاف هذا الطريق أحلام العديد من الأجيال، فهو الطريق المحفوف بالمخاطر والصعاب، والذي يقود إلى الثروة، إنه البحث الذي تتأصل فيه جذور واحد من أقدم التطلعات البشرية المتمثلة في العثور على تلك الثروة المادية القابعة فيما وراء الكفاح الإنساني، والوصول إلى السلام الممتد على الجانب الآخر من الأمل.

وهنا ينبغي أن أؤكد على نقطتين، الأولى؛ هي أن عدداً قليلاً من الوثائق الأصلية قد أفصح عن السمات الحقيقية غير المزخرفة، والأحاسيس الأصيلة غير المقنعة لهؤلاء الذين تناولتهم هذه الأدبيات، والثانية، أنه يمكننا مقارنة أكثر التشبيهات البلاغية شيوعاً في وصف هذه الرحلات – ببطولات رواد الفضاء – بيد أن هذه التشبيهات تعتبر قاصرة إلى حد بعيد عن وصف الواقع، فرائد الفضاء يرتدي ملابس مناسبة تماماً للمهمة التي يقوم بها، ومدرب تدريباً راقياً، وهناك من يعتني به، ويلاحظه طوال الوقت، فضلاً عما يلقاه من تقدير وطني لما يحققه من إنجازات، وتحت تصرفه معدات في غاية التطور للملاحة والمراقبة. أما هؤلاء الذين كانوا أول من وصل إلى المناطق القطبية الشمالية، فلم يكن لديهم – قبل أن يبحروا – حتى مجرد صور للسواحل البعيدة، وكانوا يبحرون في سفن بسيطة وبمساعدة معدات ملاحية بدائية، ويعتمدون على خرائط لا تستند إلى مرجعية جغرافية أو أسس سليمة. وفي ذلك الوقت كان تحطم السفن وغرقها أمراً كثير الحدوث، وينظر إليه بحسبانه شيئاً عادياً، لدرجة أنه لا توجد سجلات توضح حالات الوفاة بين هؤلاء الرواد، فضلاً عن أنهم لم يتلقوا دعماً مالياً ولا شعبياً خلال معظم الفترات المبكرة لعمليات الاستكشاف، وعانوا الأمرّين من قسوة الطقس، ومن داء الاسقربوط والجوع، ومن عداء وتهديدات الأسكيمو. ولقد كانوا على درجة من الشجاعة والتصميم الشديدين قد تبدو في بعض الأحيان ضرباً من التهور

والافتقار للحكمة، أكثر من كونها بطولة. وتلك الرؤى التي كانت تراودهم حول تحقيق أهدافهم، هي التي كانت تدفعهم إلى الأمام، وفي اللحظات الأكثر صعوبة، كان الذي يبقيهم متماسكين معاً هو احترامهم وتقديرهم لبعضهم بعضاً، وقدرتهم التي لا تقهر على الاحتمال، وربما نوع من الانضباط البحري الصارم. إنها تلك الشجاعة نفسها التي تعدّ إحدى الخصال الإنسانية الثمينة، سواء وجدت بين مجموعة من رجال الدين الذين يقومون برحلة روحية في مركب شراعي، أم بين مجموعة البحارة الذين كانوا يعملون برفقة جون ديفز خلال القرن السادس عشر أم التي تعكسها ملاذات ويليم بيري الشتوية في جزيرة ميلفيل.

وعبر قراءاتي للنشرات والكتابات التاريخية المتعلقة بهذه الرحلات، اجتذبني هذا التركيز الشديد على الشخصية الإنسانية: الرغبة الخالصة والتداخل المعقد بين العواطف الإنسانية والجشع. فعلى سبيل المثال، كان يتعين على شخص ما، أن يوفر التمويل اللازم لهذه الرحلات، وبغض النظر عن شخصية الممول، فإنه كان دائماً يتطلع لوسيلة ما يكسب بها من وراء هذا التمويل، ونادراً ما كان الهدف من مثل هذه الرحلات يتسم بإنكار الذات، كتوسيع المعارف الجغرافية للبشر على سبيل المثال. فإطلاق رحلة إلى المناطق القطبية الشمالية في محاولة للوصول إلى مصادر غير معروفة للثروة، أو لاكتشاف ممرات بحرية جديدة لمصادر معروفة مسبقاً، يمكن أن يعني ثروة كبيرة للمستثمر الذي يقوم بتمويل مثل تلك الرحلة، وقد تعني الشهرة والمكانة الاجتماعية المرموقة لقبطان الرحلة أو ملاحيها. أما بالنسبة للبحار العادي، فقد تعني الرحلة نذراً يسيراً مما يتم جلبه، أو فرصة للحصول على قدر من الثروة، أو على أقل التقدير ستوفر له الرحلة قصة جميلة عن أشياء مدهشة. وكلها أسباب كافية كي يشارك هؤلاء في رحلات كهذه.

وفي أثناء قراءاتي، كنت أحاول تخيل التطلعات الفردية لمثل هذه الأشياء، وكيف يمكن للرغبة وحدها أن تقود مجموعة من الرجال لخوض مثل هذه البحار المخيفة. فالسعي لتحقيق الرغبات الذاتية يمكن أن يوضح لنا ما قد يعتبره المرء واجباً أخلاقياً، ويعكس طموحاته، والنزعات العامة السائدة في عصره، كما يمكن أيضاً أن يتسبب في إزهاق روحه. وعلى ضوء ذلك، يمكن للمرء أن يتفهم حالات الانهيار العصبي في أثناء عمليات الاستكشاف الأولى للمناطق القطبية الشمالية – مثل ذلك التي انتابت بيرنج سنة 1728م في بحر تشوكشي، حيث لم تكن لديه تلك الرغبة العارمة

التي توافرت لبطرس الاكبر(*) حين اتجه لاستكشاف وارتياد مناطق شرق روسيا. كما يمكن للمرء أيضاً أن يتفهم بشكل أفضل تلك الدوافع التي جعلت بعض أعلام عمليات الاستكشاف في المناطق القطبية الشمالية، من الذين سيطر عليهم الزهو بإنجازاتهم، يجدون غضاضة في الاعتراف بالمساعدة التي تلقوها من الأسكيمو، وبالأدوار التي قام بها بعض مرافقيهم، وبفضل كلاب الزلاجات التي ساعدتهم.

وتجلى تاريخ المناطق القطبية الشمالية أمامي كاسطورة قوامها الرغبة - رغبة رجال باعينهم في تحقيق أهدافهم، ولكنها بدت أيضاً دربا من الأسطورة التي تتسامى على الأفعال البطولية، والتي كانت معروفة بشكل خاص لدى الكثيرين - إنها الرغبة في الوصول إلى طريق آمن ومشرف عبر الحياة.

وفي أثناء سيري على امتداد الشاطئ، كنت أتوقف بين الفينة والأخرى لالتقاط أشياء من على الشاطئ الذي عبثت به العاصفة: قطع صغيرة من فقرات حوت، وريش طيور أغرقتها المياه، وبقايا بلاستيكية متناثرة بكثافة تذكر بالتناقض مع الرومانسية المحيطة بها.

وقد فتنتني تلك الحكايات التي حملتها في رأسي في ظهيرة ذلك اليوم، لكن سبب الافتتان لم يكن الإنجازات الجغرافية التي سجلتها الحكايات، ولا كيفية استخدامها في ترجيح كفة على أخرى في جدل ما، من قبيل من الذي وصل أولاً إلى القطب الشمالي، هل هو فرديريك كوك أم روبرت بيري؟ بل كان السبب هو ما تسرده عن سعي البشر الحثيث. فخلف الكتابات المهذبة والمعتدلة في سجلات ضباط البحرية البريطانيين، وخلف الأعمال النثرية الغارقة في الذاتية لبعض المستكشفين المندفعين، تقبع أرواح رجال شجعان صبورين وحالمين. وتشير بعض التقارير إلى العديد من الأعمال البطولية التي قام بها هؤلاء الرجال من دون أن يدري بهم أحد. وقد أوضحت تلك السجلات أن هناك من كافح بعزيمة، كي يوجد معنى لما يقوم به في هذه المناطق. فبالنسبة لهؤلاء الرجال، كانت ممارسة عملية الاستكشاف في حد ذاتها تبدو في بعض الأحيان درباً من الجنون. لقد كانوا يريدون أن يشعروا بأن ما يقومون به أمر ضروري، وإذا لم يكن ضرورياً لأنفسهم، فهو

(*) بطرس الاكبر: هو بطرس الاول (1672 - 1752م)، واحد من أعظم القياصرة الروس، قاد في عهده نهضة كبيرة انتقلت بروسيا القيصرية من غياهب العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وجعلت منها دولة أوروبية ذات شان. (المترجم)

ضروري لبلادهم، وللبشرية جمعاء.

وعلى نحو مألوف، تبدو الأدبيات الخاصة باستكشاف المناطق القطبية الشمالية عرضاً للتصميم والعزيمة في مواجهة صنوف المصاعب الطبيعية الشديدة كلها والتي تتضمنها الأراضي الجديدة. وفي اعتقادي، إنه من الأجدى أن نغض الطرف عن فكرة أن الأرض خصم يسعى إلى هزيمة الإنسان، وأن الناس الذين جاؤوا وذهبوا، كانوا إما أبطالاً أو مهزومين في هذه المواجهة، وأنه من الأجدى أن نتفحص السجلات التي تعرض تطلع البشر إلى تحقيق أشياء ذات مغزى، ولتوقهم إلى التحرر من بعض أغلال الحياة، مثل الإهمال والفقر الروحي، والكسل، والتهديد بالنسيان والوقوع في براثن العوز. ولقد أصبحت المصاعب والتحديات التي أملتها الطبيعة في الأراضي الجديدة بؤرة الرغبة في أن يحرر المرء نفسه من تلك الأغلال والتغلب عليها. لذا، تحتضن الحكايات عن استكشاف المناطق القطبية الشمالية خيوطاً لأحلام ما فتئت تراودنا جميعاً.

* * * * *

وقد وصف أسبلي تشيري جارارد، – وهو من معاصري روبرت سكوت – الاستكشافات الجغرافية بأنها عاطفة فكرية، وقد جاءت ملاحظته هذه في عصر كانت الهيئات الملكية والحكومات ترعى معظم الحملات الاستكشافية انطلاقاً من الإحساس الذي ساد في العصر الفيكتوري بأهمية هذا الواجب، وبدافع من الفضول والنوازع الدينية. إلا أن التجار والعسكريين ورجال الدين. كانوا وراء المزيد من الحملات الاستكشافية، وبالتالي اكتساب المزيد من المعارف الجغرافية، وكانوا إما يهدفون إلى تحقيق المزيد من المكاسب التجارية أو الانتصارات الوطنية أو الدينية. ومع ذلك تظل الملاحظة التي أبداها تشيري جارارد موجزة، وتعكس التطلع إلى المثالية، وجديرة بأن يتذكرها المرء، فهي تشير إلى العلاقة بين الخداع ومعتقدات الناس، وإلى مداعبة آمال الفوز والمكافأة مما هم مقدمون عليه، تلك الآمال التي كانت تشكل ركناً أصيلاً في اتخاذهم لقرار اقتحام المجهول. وللوهلة الأولى، قد تبدو هذه الملاحظة غير مناسبة لأن تكون شعاراً لتاجر من العصر الإليزابيثي، وغير مناسبة لتفسير الرحلات التي قام بها الرهبان الأيرلنديون بحثاً عن الأرض

المقدسة الموعودة Terra Repromissions Sanctroum، تلك الأرض المباركة التي لم تطاها قدم من قبل، ذلك اللج المظلم الذي يفصل بين ما هو دنس وما هو مقدس. ومع ذلك فإن ملاحظة تشيري - جارارد تطرح تلخيصاً ووصفاً ينطبق إلى حد ما على عمليات استكشاف المناطق القطبية الشمالية، فالعاطفة الفكرية هي على وجه التحديد ما تخيل الإنسان ان يجده في هذه المناطق.

ويستطيع المرء ان يجد مزيجاً من الرغبة في تحقيق الثروة المادية، والنشوة الروحية والعاطفية في الغالبية العظمى من الرحلات الاستكشافية التي تمت إلى المناطق القطبية الشمالية. إلا ان الدوافع المادية كانت في البداية هي الأكثر وضوحاً. وفي عام 1911م، ذكر ناسن في كتاباته ان الرحلات الاستكشافية إلى المناطق القطبية الشمالية تعدّ ببساطة دليلاً على تغلب قوة المجهول على العقل البشري، واستطرد قائلاً: «كان تلمسنا للطريق أكثر بطئاً من اي مكان آخر من العالم، ولا يوجد مكان آخر في العالم كانت كل خطوة فيه إلى الأمام أكثر مشقة وتسبباً للمتاعب ممّا في هذه المناطق، لقد شهد هذا المكان معاناة وألماً عظيمين، وبالطبع لا توجد مناطق دلت استكشافاتها على هذا القدر الضئيل من المكاسب المادية المرتقبة بقدر ما حدث مع تلك المناطق».

ولندع جانباً الآن هؤلاء «الرحالة الأيرلنديين»، وهؤلاء الشماليين القدامى. فقد اتضح بسرعة للمستكشفين الأوربيين الأوائل ان الأرض في هذه المناطق، لا تحوي ثروات يعتد بها، باستثناء الفراء الذي يمكن الحصول عليه من المناطق القطبية السفلى، ومصايد الأسماك في محيط تلك المناطق. وتاتي عبارة كارتير الشهيرة عن جنوب منطقة لابرادور إدانة شاملة للمناطق القطبية الشمالية بأسرها حيث قال: «إنها تبدو كالأرض التي منحها الرب لهابيل». وفي وصف هذه الأراضي، يقول احد المستكشفين الأوائل: «لم أر هناك شيئاً سوى العزلة الموحشة». وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من غرق سفينة تلو الأخرى، والإفلاس تلو الإفلاس، استمرت الحملات الاستكشافية، متشبثة بأي بصيص من امل، ولا يعوزها التفاؤل الشديد. واستمر الرجال الطيبون في الإبحار لحتفهم من أجل إرضاء رجال الجشع والطمع، واستمر نفر من المروجين للأراضي الجديدة من منعدمي الضمير، ومن المنتفعين من العمليات التي تشهدها هذه الأراضي في كافة المجالات من الاستفادة من كل جديد تمّ تعرفه.

ومن دون طائل، يستمر المرء في محاولة الوصول إلى تفسير منطقي لهذا التفاني، وذلك

الإخلاص الذي تميّز به من قاموا برحلات استكشافية إلى المناطق القطبية الشمالية، التي تبدو قليلة النفع إذا ما قورنت برحلات أخرى مثل المسيرة التي قام بها بيزارو بحثاً عن «ألدورادو» (مدينة الذهب) أو رحلات كورنادو الاستكشافية في مناطق الجنوب الغربي. فعلى الأقل كان هناك أشياء مثل الذهب والفضة وغيرها من المعادن النفيسة تسعى الحملات الاسبانية للحصول عليها. واثناء سيري على شواطئ جزيرة بينجوك التي تبدو خاوية، وذهني ممتلئ بما قرأته في أعمال الجغرافي البريطاني الكبير جون هاكليت، ومداولات صامويل إليوت موريسون العلمية، وحكايات جون ديفز، وويليم بيري، وجدتني أصل إلى تلك المساحة المزعجة نفسها في كل مرة: إن تاريخ الاستكشافات الغربية في العالم الجديد - في كل جزء منها - ما هو إلا مواجهة مع صورة من صور الثروة البعيدة، إما الذهب، أو الفراء، أو موارد الأخشاب، أو مصايد الحيتان، وإما الفردوس الموعود، أو التحكم في طرق التجارة إلى الشرق، وكل هذه الأشياء كان لا بد من تحديدها وتعريفها أو الحصول عليها، ومن ثم التعامل معها وتخصيصها. وطبيعي أن تسعى المؤسسات التي تتعامل في مثل هذه الأمور إلى تحقيق أرباح، أو هكذا كان لابد أن تبدو، أو أن يستمر تمويلها إلى أن تحقق الربح المرجو. ومما زاد الأمر تعقيداً حقيقة أنه كان هناك شعوب تعيش في مناطق أمريكا الشمالية عند وصولنا إليها، وكان يتعين وأد حقهم الشرعي في ثروات تلك المناطق.

وأعتقد أن أكثر القضايا الفلسفية إشكالية في غزواتنا للعالم الجديد قد نبع أساساً من تفسيرنا لمعنى الثروة، وسبل الحصول عليها، وتصورنا لمصادر الثروة، وما يمكن امتلاكه ونقله منها. فالأراضي الجديدة تولد الرعب مما تكتنفه من أسرار، كما تثير فينا الرغبة بقدر إثارتها للخوف من الشر المستتر. لكن مناطق مثل أمريكا الشمالية تشجع على إحساس غامض بانه إما أن نطور حياتنا ونحسنها، وإما أن نفقدها في مثل هذه الأماكن، والأمر كله يتوقف على افعالنا في هذه المناطق. وبالطبع فإن حوارنا مع سكان هذه المناطق من مختلف المخلوقات لم ينته بعد، ولا زلنا نسأل أنفسنا: ما الذي يستحق أن نستحوذ عليه هنا؟

ولا يوضح السرد التالي الرغبات المنفردة لبعض الرجال في الحصول على أشكال متباينة من الثروة، بل يوضح بجلاء أيضاً احتمال أن تكون مناطق أمريكا الشمالية قد طرحت ما هو أكثر من الثروة المادية، ثروة لا يمكن امتلاكها، مثل صفاء الهواء، ومنظر 300,000 من طيور الإوز الجليدي

وهي ترعى في سكينة في سهل كودكاجواك العظيم. ولا يملك المرء أن يغير من الحقيقة التاريخية والمتمثلة في أن الهواء لم يعد صافياً كما كان في بعض المناطق، وأن طيور الإوز لم تعد ترعى بهذه الأعداد على امتداد سهل كودكاجواك، في حين أن مناجم الفضة في جبال بوتوسي العظيمة تدخل الآن قرناً خامساً من الإنتاج، في ظل مناخ من القنوط والعوز الحضري، كما لا نستطيع أن ننكر أن الشعوب الأصلية قد أسيء إليها، واستغلت بشكل فاضح.

ويتميز التهلف الذي ينتابنا تجاه هذه الأشياء بأنه صادق، وإن كان مربكاً لحد بعيد، وأعتقد أن الصعوبات التي تواجهنا، تكمن إلى حد ما في إصرارنا على إيجاد تعريفات وافية للظروف التي تكتنف مواجهتنا مع الثروات المكتشفة حديثاً، فنحن لا نحبذ أن تنسخ أفكارنا من خلال ترك بعض الأشياء تفصح عن نفسها، كما أننا نبدي قدراً أقل من الاهتمام تجاه أفكار من قبيل: أن سرباً كبيراً من إوز الجليد يرتفع كعاصفة ثلجية فوق جزيرة بافن يتساوى في قيمته أو يزيد - بالنسبة للبشر مع معادن الفضة والقصدير والنحاس المستخرجة من جبال الإنديز البوليفية. وهذه الهواجس ليست جديدة، بل هي موجودة في أمريكا الشمالية من أيام كرستوفر كولومبس وجون كابوت.

والذي يتعين على أية ثقافة أن تحدده في النهاية بعد العديد من المداولات الناشطة، هو ما الذي ستقوم بتفكيكه مما يوجد حولها في البيئة من أشياء قيمة أو غير قيمة، من أجل تحويله إلى شكل من أشكال الثروة المادية. وما هي الثروات الفكرية لتلك الثقافة التي يتعين الكفاح من أجل الحفاظ عليها، ابتداء من أشياء، مثل التقليد المتوارث في الشعور بالسلام في رؤية منحدر ساكن، وصولاً إلى المعرفة الضرورية لتمويل دمج شركتين.

وفي أثناء سيري على امتداد شاطئ جزيرة بينجوك في ذلك اليوم، فطنت إلى شيء آخر متعلق بلقاءاتنا الأولى مع مناطق أمريكا الشمالية، وهو شيء لم أجد في البداية كلمات للتعبير عنه، إلا أنه متعلق بالتسامح. فمن الواضح بالنسبة لي شخصياً أننا في حاجة إلى التسامح في حياتنا تجاه قيمة ما يدركه ويعيه الآخرون، ذلك التسامح الذي يذكر به «الأموليت» الخاص بكل حيوان على هذه الجزيرة، كما أننا في حاجة إلى هذا التسامح أيضاً تجاه الأرض البكر. لكنني توصلت بالإضافة إلى ذلك إلى أننا نحتاج إلى فهم العلاقة بين التسامح ومختلف أشكال الثروة، والكيفية التي يتداخل بها التسامح تجاه الحالة الأولية الخام للأشياء في الأرض، مع جوهر حياة الثراء الحقيقي.

* * * * *

وفي الغالب، فإن بيثياس(*) الذي انطلق من مارسيليا وأبحر عبر بوابات هرقل (مضيق جبل طارق)، ثم اتجه شمالاً بحثاً عن القصدير والكهرمان، لم يكن أول من يقوم بمثل هذه الرحلة، إذ يرجح أن القرطاجيين قد سبقوه في ذلك. وقد فقدت سجلات بيثياس وخرائطه، كما أن المؤرخين الرومان الذي كانوا يشعرون بالغيرة منه أغفلوا الإشارة إلى منجزاته، والتي تمثلت على الأرجح في الإبحار حول بريطانيا واكتشاف مجموعة جزر أوركينيا(**)، وربما يكون قد وصل في إبحاره إلى الساحل الشمالي للنرويج وايسلندة، وهي المناطق التي يعتقد أنها كانت تعني بالنسبة له بلاد الثولي(***). وعادة ينظر إلى تلك الرحلة التي قام بها هذا الملاح اليوناني القديم على أنها نقطة البداية لتاريخ استكشاف المناطق القطبية الشمالية، بيد أن هذا التاريخ يأتي من منظور بحر متوسطي. والذي لا شك فيه أن أسلاف القبائل الكلتية التي عاشت في شمال أوروبا، وكذلك أسلاف الشماليين القدامى قد أبحروا في تلك المياه في الوقت نفسه الذي أبحر بيثياس فيها.

وحتى عصر البحارة الإليزابيثيين، تأثرت أفكار شعوب البحر المتوسط عن المناطق القطبية الشمالية بفكرتين متناقضتين بشكل ما أو بآخر. فبالنسبة لهذه الشعوب، كانت تلك المناطق تشكل التهديد والخلاص في آن واحد. فإذا نظرنا إلى التفكير التقليدي – وهو نمط التفكير السائد في أوروبا طوال فترة العصور الوسطى – نجد أن الغزوات والدمار كانت تأتي دائماً من الشمال على يد شعوب محاربة جوالة، ابتداء من السيمريون(****) (نحو سنة 800 قبل الميلاد) مروراً بالقبائل التيوتونية(*****) التي حاربت الرومان، ووصولاً إلى الشماليين القدامى والساكسونيين في القرون

(*) بيثياس: هو ملاّح وجغرافي وعالم فلك يوناني، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، وارتاد سواحل غرب أوروبا المطلة على المحيط الاطلنطي. (المترجم)

(**) مجموعة جزر أوركينيا: مجموعة من نحو سبعين جزيرة تقع إلى الشمال الشرقي من أسكتلندة، وكانت تخضع للتاج النرويجي حتى سنة 1472، وتعدّ الزراعة وصيد الأسماك من مصادر الدخل الرئيسية لهذه الجزر. (المترجم)

(***) يشير مصطلح الثولي في كتابات بيثياس إلى مكان يبعد بمقدار ستة أيام من الإبحار إلى الشمال من بريطانيا.

(****) السيمريون: شعب خرافي ذكره الشاعر الإغريقي هوميروس على أنه يعيش في الأصقاع الشمالية في ظلام دامس ومستمر. (المترجم)

(*****) التيتونيون: شعب جرماني قديم. (المترجم)

التالية. كما كان الشمال يعني أيضاً بالنسبة لهم موطناً لشعوب مخيفة، مثل الأمازون، والسينوفاليين (أشخاص لهم أجسام بشر ورؤوس كلاب)، والبرابرة الذين تتاخم أراضيهم ظلمات المحيط الشمالي. وكان من الممكن أن يذهب المرء إلى هناك لجلب القصدير أو الكهرمان، أو للحصول على الفراء والخيل، إلا أن هذه الأرض «تقبع تحت محور النجوم»، ويسيطر عليها جماعات «عدوانية ذات مزاج شرير، ولهم طبيعة الدببة، فهم يأكلون اللحم النيئ، وبيض طيور المستنقعات، وهم مثل الكوابيس في تطفلهم وخطورتهم».

وكان المحيط الشمالي بالنسبة لشعوب البحر المتوسط مكاناً للدوامات الساحقة (الفوضى والعواصف العاتية) والمد والجزر القاتلين (لم يتعرف بحارة شعوب البحر المتوسط ظاهرة المد والجزر إلا بعد خروجهم من بحرهم البحيرة). وقد كتب أحد الرهبان في القرن السادس عشر في وصفه للبحر الشمالي يقول: «إنه بحر غير معروف إلا لخالقه». وكان يشار إليه على الخرائط بعبارة: «البحر الذي يلفه الضباب والظلمات ولا يمكن الملاحة فيه». وخلف ذلك كله، وفيما وراء رياح الشمال العاتية، هناك، فيما وراء جبال ريبايان التي «تحيط بها المخاطر بسبب الثلوج» تقبع أرض أكثر هدوءاً ونعيماً، خالية من المتاعب، وبها من الخيرات والثمرات أكثر مما تخيل أي إنسان على الإطلاق. وهناك، في تلك الأرض كانت المراعي من الجودة والغنى لدرجة أنه إذا تركت الماشية ترعى فيها أكثر من جزء صغير من اليوم كانت تنفجر إلى قطع! وهناك أيضاً في تلك الأرض، كان صوت خرير المياه كالموسيقا العذبة الحالمة، والأشجار تثمر اثنتا عشرة مرة في السنة الواحدة، ولا تنبت الأغصان حنطة بل أرغفة من الخبز الطري، وهناك أيضاً كان الناس يعيشون في سلام تام «بعيداً عن شرور الاستبداد والحروب»، أما أماكن عبادة سكان تلك الأرض فكانت بين سحب من طيور البجع!.

إنها أرض شعوب الشمال الأقصى(*)، المترامية فيما وراء كل الشرور والضغائن التي يجسدها البرابرة. وقد كثرت التخمينات بشأن هذه الأراضي، بما في ذلك «جزر المباركين» في المحيط الغربي،

(*) كان الإغريق يعتقدون بوجود شعوب تسكن في أقصى المناطق الشمالية، وأن هذه الشعوبة تنعم بحياة رغدة وتسطع عليهم أشعة الشمس على نحو سرمدي. (المترجم)

و «بساتين الكرم» التي يسكنها الشماليون، إلا أنها شكلت واحدة من أقوى الصور الخيالية في التصور الغربي، كما كانت هذه الأفكار عن الأرض «التي لا يتبعك فيها أعداء» (مثل الفردوس الموعود، وجنائن التفاح الذهبي، ومدينة الدورادو، وغيرها) جزءاً لا يتجزأ من عمليات الاستكشاف المبكرة للمناطق القطبية الشمالية(*).

وقد سجلت «إيمرامها» الايرلندية والأناشيد البحرية الأيسلندية تلك الرحلات التي قام بها الرهبان بحثاً عن «جزر المباركين»، وعن مراكز بعيدة ومنعزلة في «صحراء المحيط» تصلح للعبادة والتأمل. وقد كتبت أشهر هذه الحكايات في وقت ما من القرن الثامن أو التاسع الميلادي، وهي قصة رحلة القديس برندان، التي تصف رحلة استمرت سبع سنوات قام بها بيرنارد برفقة سبعة عشر من الرهبان. وقد ولد برندان في سنة 489م، في كاونتي كيري وكان رئيساً لأحد الأديرة في كلونفيرت في جالوي الشرقية بأيرلندا حين انطلق في رحلته (أو سلسلة رحلاته) تلك.

وكان المركب التي استقلت برندان ورهبانه عبارة عن قارب ضيق طويل، يتكون من إطار يشبه مجموعة من السلال الكبيرة المجدولة من الأغصان، ومغطى بطبقة من أخشاب البلوط المطلي بالشحم الحيواني لسد الفرج والثقوب. وقد أبحر برندان ورفاقه من الرهبان، ومعهم بعض النبيذ والطعام البارد، واستخدموا المجاديف وصارياً بسيطاً، ومرساة حجرية لربط السفينة في الخلجان التي استكشفوها، أما نومهم، فكان على فرشات من خرق مرقوعة. وتعدّ رحلتهم ملحمة رائعة مليئة بالرؤى الوجدانية والأحداث المدهشة. وقد قابلوا الغرباء بمبادرات كريمة، واستخدموا معارفهم الطبية في علاج هؤلاء الغرباء من بعض الأمراض، ولم يعيروا الأخطار التي واجهتهم اهتماماً كبيراً. وقد كانت الشفقة والتعجب والاحترام هي السمات الرئيسية المميزة لهذه القصة (خلافاً لأناشيد الساجا الأيسلندية، التي كانت السمات الرئيسية فيها تدور حول التملك والأنساب وإراقة الدماء والعقاب).

وإذا أطلق المرء لنفسه قدراً من الحرية في أثناء قراءة هذه القصة، يمكن أن يتخيل وصول برندان

(*) أشارت معظم الخرائط إلى ان هذه الجزر الخلابة، تقع غرب اوروبا، إلا انها كانت مرتبطة بنظرة إلى الشمال أيضاً، وقد ساعد اكتشاف البرتغاليين لجزر الإور ومديريا (ومن الجائز ان يكون التجار الفينيقيون قد عرفوها من قبل) في القرن السادس عشر على تأييد الفكرة التي كانت تقول بوجود مزيد من الجزر في الغرب.

إلى جزر الفاروس وأيسلندة، وربما أيضاً رؤيته لقمة بيرنبرج البركانية، عند الحافة الشرقية لجزيرة جان ماين.

وقد كانت أيرلندا مركزاً للثقافة الرفيعة في أوروبا في القرنين الخامس والسادس من الميلاد، وكانت أديرتها في هذا الوقت ملاذاً للفكر والممارسات الروحية. وتحت الضغوط التي مارستها روما على الأيرلنديين، من أجل تعديل معتقداتهم لتتماشى مع المعتقدات الأصولية المسيحية، وتحت وطأة هجمات الفايكنج على أيرلندا، اضطر الرهبان إلى الاتجاه شمالاً وغرباً، إلى جزر الفاروس وأيسلندة، حيث بنوا صوامعهم وأديرتهم على النتوءات الجبلية الداخلة إلى مياه المحيط، وفي السهول المشرفة عليه. وهناك اعتقاد متوارث، وإن كان تعوزه المصداقية، أن هؤلاء قد انتقلوا إلى جرينلاند قبل وصول الشماليين القدامى إليها، ومنها إلى لابرادور، ونيوفوندلاند، ووادي نهر سان لورانس.

وكان غالباً ما يتم تصوير الشماليين القدامى، وهم ثاني حضارة أوروبية تدخل المناطق القطبية الشمالية بعد الكلتيين، على أنهم لصوص نهابون وهمج، وهو وصف تعوزه الدقة. فمعظم الشماليين القدامى الذين قدموا إلى أيسلندا - والتي ذكرت أناشيد الساجا أن جاردار سافافارسون، وهو دنمركي من أصل سويدي، قد اكتشفها عام 1860م - جاؤوا إليها فراراً من حكم هارالد هارفاجيرا المستبد، أو من حالات العصيان والتمرد التي قام بها السكان المحليون في أيرلندا واسكتلندة ونورماندي، والتي كان الشماليون القدامى يحتلونها في ذلك الوقت، وكانوا في مجملهم مزارعين وصيادي أسماك، وليسوا بحارة محترفين، وبدأ وصولهم إلى أيسلندا بعد سنة 870م. أما جرينلاند، والتي يحتمل أن تكون قد اكتشفت بوساطة بحار نرويجي يدعى جونبورن أولفسون، فقد اكتسبت شهرتها على يد إيريك رود الذي عرف فيما بعد باسم إيريك الأحمر والذي كان قد نفي من أيسلندة إلى جرينلاند، بسبب قتله لاثنين من الرجال من دون سبب، واستمر عقابه ثلاث سنوات، قضاها في المنطقة التي تعرف في الوقت الحاضر باسم مقاطعة جوليانهاب، وهي المنطقة التي كانت تعرف فيما مضى باسم ممر أيريك(*).

(*) تم الاستبدال بالأسماء الشمالية والدنمركية لمعظم الأماكن في جرينلاند أسماء من لغة أسكيمو جرينلاند، ولتجنب حدوث أي ارتباك، استخدمت الأسماء الأقدم وهي الأكثر شيوعاً.

وفي عام 986م، أبحر إيريك مرة أخرى من أيسلندة إلى جرينلاند، في خمس وعشرين سفينة، وصل منها أربع عشرة تحمل نحو 500 رجل إلى ممر إيريك. وقد أقام المستوطنون مساكن لهم من الأحجار وأديم الأرض المختلط بالأعشاب، ومزودة بأسقف من أديم الأرض، مرفوعة على أطر من أخشاب الأشجار، وقاموا بتربية قطعان صغيرة من الماشية والخراف والمعز، واصطادوا الفقمة وحيوان الفظ، والأسماك. وقد أطلق على هذا المجتمع الذي نشأ في منطقة فيوردة إيريك اسم «المستوطنة الغربية»، وقد اقتربت هاتان المستوطنتان من الازدهار خلال بعض فترات القرنين السابع عشر والثامن عشر، حين كان هناك قدر من التجارة المنتظمة مع أوروبا الشمالية. وكان أهالي المستوطنتين يقايضون عاج حيوان الفظ، والصقور الرمادية وفراء الدببة القطبية، وجلود الفقمة، بالحديد والحنطة وبعض المنتجات المصنعة والآلات البسيطة. وقد تمتعت المستوطنتان بالحكم الذاتي، وكانتا دولة حرة، إلا أنها لم تنعم بالاستقرار السياسي أبداً بسبب اقتصادها الهش. وفي عام 1261م خضعت للحكم النرويجي، أما التجارة التي كانت يعتمد عليها مصدراً للدخل، فقد فرض عليها النرويجيون قانونا صارماً، وتراجعت بشدة لعدة أسباب منها انتقال العاصمة النرويجية إلى مدينة كوبنهاجن في سنة 1397م، والانهيار المالي الذي أصاب مدينة بيرجن التي كانت تنطلق منها السفن للتجارة مع جرينلاند. ولم يمض وقت طويل قبل أن تغرق المستوطنتان في النسيان، إذ لم تصمدا أمام انهيار تجارتهما الخارجية، ولم يتمكن اقتصادهما المتواضع من الاستمرار، وتبع ذلك اندثار معظم السكان من الشماليين القدامى في جرينلاند، أو اختلاطهم بجيرانهم من الأسكيمو، وتعرض بعض من القلة التي بقيت هناك للاختطاف على أيدي تجار الرقيق الإنجليز(*).

ووفقاً للتفسيرات المقبولة على نطاق واسع لأنشودتي «الساجا» ذواتي الصلة بهذا الموضوع، والتي تسمى إحداهما أيريك الأحمر (وتسمى أيضاً أنشودة ثورفين كارلسفيني)، والأخرى تسمى حكايات الجرينلانديون، فإن شخصاً يدعى بيجرني هيرجيفيلسون كان في طريقه إلى جرينلاند سنة 986م، إلا أن عاصفة قوية قذفت به بعيداً إلى الغرب، حيث وقف قبالة ساحل

(*) يوجد في كتاب «حوليات القرن السابع عشر» للأسقف الايسلندي جيسلي أدريسون جزء مؤثر للغاية، حيث ذكر أن الشماليين القدامى قد اعتنقوا المسيحية في سن 1000م على وجه التقريب، وأنهم تخلوا نهائياً عن معتقداتهم، وعن ثقافتهم المتوفقة، وانتهجوا أسلوب الشعب الأمريكي.

لابرادور ثم وصل في أعقاب ذلك إلى سواحل جزيرة بافن قبل أن يصل إلى منطقة فيوردة إيريك. وفي عام 1001م أبحر ليف بن إيريك إلى سواحل جزيرة بافن (أو الهيليولاند، بلاد الصخور المسطحة كما جاء في الساجا)، ثم إلى لابرادور، عند منطقة يوجد بها شريط ساحلي كثيف من الغابات (ماركلاند، أو أرض الغابة كما ذكرت الساجا)، وأخيراً وصل إلى الساحل الشمالي الشرقي لنيوفوندلاند، بالقرب من مضيق جزيرة بيل (وقد أطلقت الساجا على هذه المنطقة أرض بساتين الكروم)(*).

وربما يكون ليف وإخوانه وثورفين كارلسفيني قد استخدموا - بشكل مستمر - تلك المستوطنة التي تعود للشماليين القدامى، والتي كشفت عنها الحفائر التي قام بها هيلج إنجستاد في حقبة الستينيات في منطقة مروج لا أناس في نيوفوندلاند، إلا أنهم هجروها في سنة 1014م. ويبدو أن المناوشات التي دارت بين الشماليين القدامى من جهة، والهنود والأسكيمو من جهة أخرى كانت مكلفة للشماليين. وفي خريف سنة 1009م، ولد الطفل سنوري لأمه جيودرد أرملة ثورشتاين (شقيق ليف)، وأبيه كارلسفيني في منطقة مروج لا أناس.

وحين اندثرت مستوطنات جرينلاند، تراجع الاهتمام الأوروبي بالمناطق الشمالية، وانحصر في أيسلندة فقط، التي احتفظت معها أوروبا بتجارة منتظمة. ولفترة طويلة من القرن السادس عشر الميلادي، كانت معرفة أوروبا الغربية برحلة القديس برندان أكثر من معرفتها بوجود مستعمرات جرينلاند ووجود ليف إريكسون.

* * * * *

وخلال القرون الرابع عشر والخامس عشر، والسادس عشر، كان الفهم الأوروبي لجغرافية العالم يعتمد في الأساس على الخرائط الدولابية، وعلى خرائط حرف الـ T اللاتيني. وقد كانت الخرائط الدولابية تظهر العالم على شكل قرص، يتوسطه البحر المتوسط، وحوله قارة واحدة كبيرة، محاطة بحدود مائية في الخلف - ومن الشواطئ الخارجية للقارة الواحدة كانت تظهر الخلجان الثلاثة

(*) كتبت أناشيد الساجا المشار إليها بعد هذه الأحداث بنحو 200 سنة. من قبل كتاب يسعون إلى التوفيق بين ما يسمعون وما يعتقدون. لذا ربما يكونون قد اخترعوا هذا الاسم الأخير للتعبير عن أرض يعتقدون أنها تنتج الحنطة والكرم الجيد لصناعة النبيذ بشكل ذاتي.

للمحيط الخارجي، وهي البحر الأحمر، والخليج العربي، وبحر قزوين. أما خرائط النوع الثاني، فكانت تظهر البحر المتوسط في خط أفقي، ونهري النيل والدون متصلين ببعضهما البعض من خلال البحر الأسود. أما الجزر فكانت مبعثرة على الخرائط الدولابية وفقاً للمزاج وأينما وجد لها مكان على الرسم. وعند الحافة القصوى للعالم، تتلاقى الأرض مع السماء مع البحر مع العالم السفلي، بيد أن ذلك كان نوعاً من الفن التجريدي في رسم الخرائط، ولم تكن الفكرة القائلة بأن العالم كروي الشكل مقبولة على نطاق واسع، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم التوصل إلى المسقط الكروي في ذلك الوقت – حيث لم يعرف النموذج الحديث للكرة الأرضية إلا في سنة 1492 – مما أدى بالناس إلى الاعتقاد بأن العالم مسطح وليس كروياً.

ومع بداية القرن الرابع عشر بدأ التمثيل الخرائطي القائم على مبادئ بطليموس في التغير ببطء. ومع اختراع البوصلة، وتطور أساليب رسم الخرائط، أصبحت السواحل أكثر تحديداً وانزاحت الجزر الخيالية، ذات الأسماء المتعددة، إلى الشمال وإلى الغرب باتجاه بحار لا يعرف عنها سوى القليل (على سبيل المثال، وجدت جزيرة برازيل مرة هنا ومرة هناك في خرائط قيادة البحرية البريطانية سنة 1872م)، أما جرينلاند التي كانت تشكل أقصى نقطة يهتم بها الأوروبيون في المناطق القطبية الشمالية، فقد ظهرت على الخرائط والنماذج الأولية للكرة الأرضية شبه جزيرة تمتد إلى الشمال وإلى الغرب من اسكندنافيا (كما ظهرت في خريطة فرا مارو سنة 1459م)، أو أراضي تمتد إلى الشمال من وسط آسيا (كما في خريطة نانسي كلافيوس سنة 1472م) كما ظهر أيضاً الامتداد الشرقي الأقصى لآسيا (في خريطة كوناريني سنة 1506م). أما منطقة القطب المتجمد الشمالي فقد صورت على أنها مياه مفتوحة أو كتلة قارية منفصلة. وفي وقت متأخر من القرن الخامس عشر، وبعد استخدام البوصلة المغناطيسية في أوروبا، وصفت هذه المنطقة بأنها عبارة عن جبال مغناطيسية مظلمة.

وقد افتقرت جغرافية أوروبا في القرن الخامس عشر إلى التجربة والدقة، حيث كان كتاب رحلات السير جون ماندفيل، وهو من الأعمال الجغرافية الترفيهية الموضوعة التي كتبت سنة 1356م، يقرأ بالحماس نفسه الذي تقرأ به أعمال ماركو بولو التي ظهرت في سنة 1298م، وكان ينظر إلى العملين بالقدر نفسه من الاحترام والتقدير. وينطبق الشيء نفسه على البوصلة والخرائط

البحرية الجغرافية. فبالنسبة لأوروبا لم يكن وصول المعارف الجغرافية الحقيقية الموثوقة يعني أنه سيتم القبول بها والعمل بموجبها. وحين أبحر جون كابوت من ميناء برستول لاكتشاف نيوفوندلاند، كان يحمل ترخيصاً من الملك هنري السابع، إلا ان الاراضي التي اكتشفها أثارت قدراً قليلاً من الحماس لدى الإنجليز، ولم يمض وقت طويل قبل أن ينسوها تماماً. وفي وصف الطريقة التي قابلت بها إنجلترا الرؤية التي نقلها جون كابوت عن نيوفونلاند، كتب صامويل إليوت موريسون قائلاً: «لقد كانت كزهرة رائعة تتفتح في تربة غير مواتية».

ويرى الجغرافي الأمريكي كارل سوير أن صيادي بريستول، كانوا يصطادون الأسماك بالقرب من شواطئ نيوفوندلاند قبل وصول جون كابوت إليها بسنوات، من دون أن يهتموا كثيراً بمعرفة من هم أصحاب تلك الأرض التي يمارسون الصيد عند سواحلها، أو لأي سيادة يمكن أن تتبع، فقد كان شغلهم الشاغل هو أسماك القد وليس أي شيء آخر. وعلى أية حال، فإن وصول كابوت لـ نيوفوندلاند، يعتبر تدشيناً لمرحلة جديدة من فهم أكثر دقة ووضوحاً للمناطق القطبية الشمالية في الفكر الأوروبي. وقد أثارت رحلته التي قام بها إلى نيوفوندلاند، سنة 1497م أول اهتمام أوروبي جاد بشأن احتمال وجود ممر بحري يقع إلى الشمال الغربي، عبر مضيق يفصل أمريكا الشمالية عن إقليم أنيا الصيني الذي تحدث عنه ماركو بولو، يمكن أن تبحر فيه السفن دون معوقات إلى موانئ كاثي، وجزر ملقا، وموانئ الهند.

وقبل أن يبدأ الإنجليز عمليات البحث عن هذا الممر إلى الشمال من نيوفوندلاند، كان من فيرازانو وكارتييه قد استكشفا المناطق الواقعة إلى الجنوب منها لصالح الفرنسيين. وكان الأول إيطاليا من توسكانيا يعمل لحساب الفرنسيين، مثل كولومبس الذي كان أيضاً إيطالياً من مدينة جنوة يبحر لحساب الأسبان، وكذلك كابوت كان من جنوة هو الآخر، لكنه يبحر لحساب الإنجليز. وقد كان فيرازانو يعمل لحسابه الشخصي، في عصر لم تكن فيه النظم الملكية أو التجار يهتمون بما يمكن الحصول عليه من العالم الجديد، بالقدر نفسه من اهتمامهم بما يمكن جنْيه من العالم القديم، وكان الاهتمام المسيطر على كل من الإنجليز والفرنسيين، هو التوصل إلى طرق بحرية آمنة إلى الصين، فالبحر الكاريبي كان مياهاً أسبانية، في حين كان الطريق حول إفريقيا يخضع لسيطرة البرتغاليين، إضافة إلى أنه كان يتعين دفع رسوم وضرائب للاتراك مقابل استخدام الطرق البرية التي

تمر بالشرق الأوسط. (وبالنسبة لإنجلترا، فقد شكلت أسبانيا تهديداً للتجارة الإنجليزية مع القارة الأوروبية).

وقد اعتقد الإنجليز، وشاركهم في ذلك الفرنسيون، أنه يمكن العثور على تلك الطرق المحتملة، إما إلى الجنوب من الساحل الجديد الذي اكتشفه كابوت (في حالة ما إذا كانت الأرض التي وصل إليها تمثل النتوء الآسيوي)، أو إلى الشمال إذا كانت أمريكا الشمالية قارة، أو ربما في مكان ما إلى الغرب، وقد بدت نيوفوندلاند مجرد جزيرة أخرى من الجزر التي كان يعتقد انها تمثل الأراضي الغربية. وكان الإنجليز أيضاً على علم باحتمال وجود ممر بحري يقع إلى الشمال الشرقي يلتف حول رأس الشمال في النرويج، حيث كان الفريد العظيم(*) قد قام بترجمة الوصف الدقيق الذي انجزه أوتار للرحلات التي قام بها، وتلك التي قام بها رفاقه من الشماليين القدامى إلى البحر الأبيض سنة 880م. ونظراً إلى أن إنجلترا كانت تسعى إلى إيجاد أسواق للمنسوجات الصوفية في أقاليمها الغربية، فقد كان الممر الشمالي الشرقي يمثل إغراء كبيراً لها، إلا أن هذا الممر لم يجرب حتى سنة 1553م.

وفي عام 1542م أرسل الفرنسيون فيرازانو نحو الغرب، حيث كانوا، مثل الإنجليز تماماً، مستائين من السيطرة الأسبانية والبرتغالية على المحيط الجنوبي، ومن سيطرة القراصنة على المناطق الشرقية، كما كانوا – مثل الإنجليز أيضاً – في حاجة ماسة إلى التوابل من الشرق، لاستخدامها (في تحسين مذاق الطعام) وللأدوية والأصباغ والزيوت ومواد التجميل والعطور. وقد أبحر فيرازانو بمحاذاة الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، وتأكد من عدم وجود أي ممر بين فلوريدا ونوفاسكوتيا (باستثناء مضيق باميلكو عند الضفاف الخارجية لكارولينا الشمالية، حيث ظن أن هذا المضيق جزء من المحيط الهادي). وبعد ذلك بعشر سنوات أبحر كارتييه في خليج سان لورانس لأول مرة، وكانت المنطقة تعج بصيادي سمك القد من الأسبان والفرنسيين والبرتغاليين والإنجليز الذي وصلوا إلى هذه المنطقة قبله، ناهيك عن إستيفاو جوميز البرتغالي الذي كان يبحر لحساب الأسبان، وجواو الفارس فاجونديز، وهو مالك سفن كانت لديه أفكار استعمارية، واللذان سبقاه إلى هناك أيضاً.

(*) الفريد العظيم: واحد من اعظم الملوك الإنجليز الذي حكموا إنجلترا الإنجلوساكسونية، وامتد حكمه من 871 إلى 899، وتصدى لغزوات الفايكينج، وازدهرت في عصره العلوم (المترجم).

وفي رحلته الثانية، استأنف كارتييه البحث عن ساجيوناي، (وهي أرض زعم وجودها رجل من هورون يدعى دوناكونا بغرض إرباك الفرنسيين)، وتابع استكشافه لنهر سان لورانس. ومن الأمور المثيرة للسخرية أنه أطلق اسم «منحدرات الصين» على منطقة المنحدرات المائية التي تقع في أقصى نقطة إلى الغرب في هذه المنطقة (وقد استمر اهتمام الفرنسيين بالعثور على ممر غربي منحصراً في البحث عن طريق نهري، وقد استمرت هذه الرؤية مسيطرة عليهم في عمليات استكشاف أمريكا الشمالية لمدة 300 سنة أخرى).

أما البرتغاليون فقد سيطر عليهم الاعتقاد بأن نيوفوندلاند التي اكتشفها كابوت تقع إلى الشرق من خط التقسيم الذي تم وضعه وفقاً لمعاهدة توردیسیلا س(*)، الأمر الذي يعني أنها ضمن أملاكهم، وبناء على ذلك انطلقوا من موانئ لشبونة والآزور للاستكشاف. وفي عام 1500م، أبحر جواو فيرنانديز، وهو من صغار ملاك الأراضي في البرتغال، إلى أن وصل إلى رأس فيرويل في جرينلاند (وقد سميت الأرض التي وصل إليها باسمه، ثم أصبحت التسمية الإنجليزية لابرادور هي الشائعة، وفيما بعد، أزاحها رسامو الخرائط إلى الغرب)، وفي هذه السنة نفسها وصل جاسبر كوت ريال أيضاً إلى سواحل نيوفونلاند، حيث وجد بعض آثار ومخلفات الرحلة الثانية التي قام بها كابوت ثم قام باختطاف 75 من هنود البيوتهك، وأخذهم معه إلى لشبونة. وفي عام 1501م عاد إلى المنطقة مرة أخرى، إلا أنه اختفى ولم يعثر له على أثر ثم قام أحد إخوته ويدعى ميجل في رحلة مماثلة سنة 1502م، واختفت سفينته أيضاً.

وكان التاجر الإنجليزي روبرت ثورن من مؤيدي وجهة النظر القائلة بأنه يمكن الوصول إلى كاثي عن طريق مسارين، الأول مباشرة عبر القطب المتجمد الشمالي، والثاني من خلال ممر يقع في مكان ما إلى الشمال من نيوفوندلاند، وهو الذي أطلق عليه فيما بعد، ممر الأخوة الثلاثة، (وليس معروفاً على وجه التحديد ما إذا كان المقصود هم الأخوة كورت ريال، أم أبناء كابوت الثلاثة).

(*) معاهدة توردیسیلاس: وقعت هذه المعاهدة بين أسبانيا والبرتغال سنة 1494م في مدينة توردیسیلاس الاسبانية، وتقسم هذه المعاهدة العالم غير المسيحي بين أسبانيا والبرتغال إلى منطقتي نفوذ استناداً إلى مرسوم بابوي كان بابا الفاتيكان اليكسندر الرابع قد أصدره في سنة 1493م يحدد فيه مناطق نفوذ الدولتين، وقد منح هذا التقسيم العالم الجديد بأكمله إلى اسبانيا، وإفريقيا والهند للبرتغال، إلا أن المعاهدة أدخلت بعض التعديلات على الخطوط التي تحدد مناطق نفوذ كل من الدولتين. (المترجم)

وفي سنة 1527م، قدم الملك هنري الثامن دعمه لـ ثورن، وأرسل سفينتين، فقدت الأولى في أثناء الرحلة وكان اسمها «دومينوس فوبسكوم»، وكانت الثانية تدعى «ماري أوف جايفورد» وبقيادة جون رات الذي تمكن من قطع ثلث الطريق إلى الشمال بمحاذاة ساحل لابرادور، حيث فقد أعصابه، وغيّر اتجاهه تماماً إلى جزر الهند الغربية.

ومن الواضح أن الملك هنري الثامن لم يكن مهتماً بالعثور على ممر شمالي غربي، إلا أن هذه الفكرة كانت لا تزال خصبة في عقول رجال الأعمال الأوروبيين الشماليين، والذين لم يعوزهم الأمل في العثور على هذا الممر. وكانت النظرة التي روجها الإنجليز عن أمريكا، قبل وبعد الرحلات التي قام بها كل من فيرازانو وكارتييه، أنها أراض اكتشفت بمحض المصادفة، ويمكن الإبحار بسهولة سواء من خلالها أم من حولها. وعادة كان لا يحبذ استخدام الطريق الشمالي بسبب الثلوج، فهؤلاء الذين حافظوا على ولائهم لنظرية بارامينيدس بشأن المناطق الجغرافية. كانوا يعتقدون أنه لا يمكن اختراق المنطقة المتجمدة وأن الإبحار فيها محفوف بكثير من المخاطر، مما يجعله غير صالح كممر تجاري. وفي الوقت ذاته كان هناك من يعتقد أن الثلوج الأكثر خطورة تقبع في داخل محيط الدائرة القطبية الشمالية، وأن خلف هذه المساحة التي تكتنفها المخاطر يوجد محيط مفتوح، وطقس طيب، وأنه يمكن الإبحار بسهولة وصولا إلى مضيق أنيان وهو المرادف الغربي لمضيق الأخوة الثلاثة.

وقد تميز السلوك العام لدى المستثمرين في كل من إنجلترا وهولندا بالحذر، علماً بأن البلدين كانا هما الأكثرين احتياجاً للعثور على ممر بحري آمن، لا يكلفهما تعريفات مرور باهظة للوصول إلى الشرق. وفي هذه الفترة، كان سبستيان كابوت وهو تاجر مفعم بالحيوية يعمل اعتماداً على سمعة والده ويتمتع بشخصية جذابة، وقام باختراع بعض الرحلات إلى الشمال مدعياً مشاركته فيها، وقد تمتع سبيستيان كابوت بقدرة كبيرة على الإقناع في مساعيه لجمع المال الضروري بتمويل رحلات بحرية إلى الشمال، تماماً مثل الجغرافيين المفوهين الذي كانوا يشعرون بأن أمريكا الشمالية موجودة هناك مترامية الأطراف عند الأفق. وفي عام 1553م، ولأنه كان رئيساً لما سمي «الشركة الموسكوفية» أرسل سبستيان كابوت ثلاث سفن في اتجاه الشمال الشرقي تحت إمرة السير هيو ويلوجي. وعلى أمل الوصول إلى مياه المحيط الجنوبي الدافئة، دعمت هذه السفن برقائق من

الرصاص على الجسم الخارجي لحماية أخشابها من ديدان السفن التي توجد في المياه الدافئة. وعند الساحل الشمالي لشبه جزيرة كولا مات ويلوجبي ومجموعة من رجاله وضباطه تجمداً. أما السفينة الثالثة بقيادة ريتشارد تشانسلر فقد تمكنت من الوصول إلى البحر الأبيض. وخلال فصل الشتاء، قطع تشانسلر 600 ميل في رحلة برية على الجليد وصولاً إلى موسكو، مؤسساً بذلك ما أصبح طريقاً برياً لتجارة الفراء الروسية.

وفي عام 1556م، تمكنت سفينة تابعة للشركة الموسكوفية من المرور عبر مضيق كارسكايي فوروتا، وأصبح قبطانها ستيفان بورو أول أوروبي يتمكن من رؤية بحر كارا، ذلك النهر الجليدي الممتد خلف نوفايا زملايا، ثم عاد بعد ذلك إلى إنجلترا وهو في غاية الإنهاك. وفجأة بدت كاثي أكثر قرباً عن طريق موسكو.

وبدورهم، حاول الهولنديون في هذا الاتجاه أيضاً. ففي عام 1596م، تمكن وليام بارنتس الذي كان قبطاناً للسفينة «جاكوب فان هيمسكيرك»، وبصحبته سفينة أخرى تحت قيادة جان كورنيلز ريب، من اكتشاف أرخبيل أطلقوا عليه اسم سبتسبيرجن (وفي الغالب، كان هذا الأرخبيل معروفاً منذ 500 سنة للبحارة الشماليين الذي أطلقوا عليه اسم سفالبارد، (أو الساحل البارد).
وفي أعقاب ذلك الاكتشاف، انفصلت السفينتان حيث عاد ريب إلى أمستردام، فيما تابع بارنتس إبحاره غرباً باتجاه نوفيا زملايا معتقداً بوجود طريق يمكن اكتشافه عبر بحر كارا إلى شمال الجزيرة، وقبل أن تجبره الظروف المناخية في فصل الشتاء على اللجوء إلى الملاذات الشتوية، كان قد دار حول الرأس الشمالي للجزيرة، وفي تلك الملاذات (جنة الجليد) قام الرجال ببناء كوخ من أخشاب الأشجار، واستخدموا شحم الدب القطبي في الإضاءة، وتصادموا مع الثعالب القطبية الفضولية. وفي أثناء وجودهم هناك، كانوا في حالة رعب من الدب القطبي وأصابهم داء الاسقربوط بالوهن، وتحملوا البرد القارص الذي لا يرحم، ولم تتمكن النار التي أبقوا عليها مشتعلة طوال الوقت من إذابة الجليد على بعد عدة أمتار منها على أرضية الكوخ. وفي فصل الربيع أصلحوا أحد القوارب التي كانت موجودة على متن سفينتهم (أما السفينة نفسها فقد تحطمت بفعل الجليد في أثناء فصل الشتاء في مشهد جعل شعر رؤوسنا ينتصب خوفاً وهلعاً) وانطلقوا في رحلة مدهشة، قطعوا خلالها 1600 ميل عبر الجليد وفي المياه المفتوحة إلى أن وصلوا إلى شبه جزيرة كولا. إلا أن بارنتس

توفي في أثناء الرحلة متأثراً بداء الاسقربوط. ويخلد السرد الذي قدمه جيرت دي فيرسك لهذه المغامرة، تلك الظروف المريرة التي تعين على هؤلاء الرجال تحملها، ويعرض صوراً كابوسية للمصاعب التي واجهتهم، خصوصاً الخوف من الحيوانات، والذي قال في مستهله: «إنه الوصف الحقيقي والكامل لثلاث رحلات، من الغرابة والروعة لدرجة أنه لم يسمع بمثلها من قبل».

ومنذ هذه الفترة، توقف الهولنديون وغيرهم عن البحث عن ممر شمالي شرقي، إلى أن فتح القوزاق(*) تخوم أقصى الشرق الروسي، وما تبع ذلك من توسع في إمبراطورية ستروجانوف التي استفادت كثيراً من تجارة الفراء، ثم الحملات الاستكشافية التي قام بها بطرس الأكبر في شرق روسيا.

وفي أثناء فترة حكم الملكة إليزابيث الأولى، ابنة آن بولين والملك هنري الثامن، أصبحت إنجلترا قوة بحرية هائلة، واستطاعت أن توجد أيضاً، شعوراً وطنياً بالهوية والهدف، كانت إليزابيث تجسيداً له. وتلك هي الفترة (1558 - 1603م) التي شهدت أعمال الكاتب المسرحي الأشهر وليام شيكسبير، وإرساء فرانسيس بيكون لمبادئ المنهج العلمي، وظهور كتاب «مبادئ الملاحة» للجغرافي الإنجليزي ريتشارد هاكليوت. كما شهدت هذه الفترة أيضاً قيام «بحارة جلالة الملكة في البلاد الغربية» بتوسيع رقعة النفوذ السياسي لإنجلترا، وأكمل فرانسيس ديرك إبحاره حول العالم، وقام والتر رالي بتنظيم الأنشطة الاستعمارية البريطانية في فيرجينيا، كما استطاع جون هوكنز صانع السفن، وغيره من العاملين في هذا المجال من أمثال الملاح توماس كافيندوش، وفرانسيس دريك من إدخال تحسينات عديدة على تصميم السفن، واستطاعوا أن يوجدوا لأنفسهم مكانة مميزة مع آخرين بما فيهم مارتين فروبشير حينما تمكن الأسطول البريطاني سنة 1588م من دحر الأسطول الأسباني في المعركة البحرية الشهيرة التي عرفت باسم «الأرمادا». ومن الإنجازات التي شهدتها هذه الفترة أيضاً، تمكّن جون ديفيس، الذي كان أقل القادة البحريين البريطانيين دموية

(*) القوزاق: مجموعة من القبائل المحاربة شديدة البأس، تعيش على الحدود الجنوبية والغربية لروسيا وفي بعض مناطق شمال وسط آسيا ومناطق القفقاس. وقد اشتهر رجال هذه القبائل بقوتهم وجسارتهم القتالية وارتباطهم الوثيق بروسيا القيصرية وولائهم للقيصر، لدرجة أن معظم قياصرة الروس كانوا يعهدون إليهم بمهام حماية الحدود، وغيرها من المهام التي تتطلب جلداً وقوة احتمال، وكانت كتائب القوزاق العسكرية تعدّ من فرق النخبة في الجيش الروسي. (المترجم)

وميلاً إلى القرصنة، من الإبحار صعوداً بمحاذاة ساحل جرينلاند والوصول في هدوء إلى بحر بافن.

وقد تنامى الاعتقاد بوجود ممري بحري شمالي غربي، صالح للملاحة خلال فترة حكم الملكة إليزابيث، وقد ساعد مايكل لوك، وهو ذو بصيرة نافذة، على تقوية هذا الاعتقاد، وشاركه في ذلك بعض ذوي العقول الراجحة في هذا الوقت من أمثال هاكليوت، والفيلسوف جون دي، والسير همفري جيلبرت الذي كان من المقربين إلى الملكة، والذي كتب مؤيداً هذا الاعتقاد في عمله مناقشة «اكتشاف ممر جديد إلى كاثيا». وفي النهاية كانت هناك قصتان مشهورتان تؤيدان فكرة وجود مضيق انايا، وتنتشران بشكل كبير في إنجلترا في هذا الوقت، فقد ادعى راهب يدعى انتونيو أوردانيتا انه قد أبحر بالفعل عبر المضيق في أثناء خمسينيات القرن السادس عشر، كما ادعى بحار برتغالي اسمه مارتين تشاكوك أنه مر على المضيق في سنة 1556م. وتتفق الروايتان في أن صاحبيْها قد مرا عبر المضيق من الغرب إلى الشرق. (ولم يكن لأي منهما أي أساس).

وفي خضم هذا الحماس، أنشأ مايكل لوك شركة كاثي، وقام بتجهيز مارتين فروبيشر للقيام برحلة استكشافية سنة 1585م، والذي انطلق من لندن في سفينة صغيرة اسمها «جابريل»، يتكون طاقمها من ثمانية عشر بحاراً، وترافقه سفينة أخرى من نفس نوعها تدعى «مايكل»، ومركباً شراعياً بدون اسم يتكون طاقمه من أربعة أفراد، وقد غرق المركب الأخير مع طاقمه حين تعرضت السفن الثلاث لعاصفة هوجاء أصابت السفينة «جابريل» بأضرار بالغة في أثناء اقترابهما من جرينلاند. وقد ارتاب طاقم السفينة «مايكل» في الأمر، واتخذوا قرارهم بالعودة إلى إنجلترا دون إعلام فروبيشر، وعند وصولهم أبلغوا بفقدان السفينة «جابريل» في أثناء العاصفة.

أما فروبيشر نفسه فقد استمر في الإبحار إلى أن دخل ما اعتقد أنه مضيق في الحادي عشر من اغسطس (وفي الحقيقة كان قد وصل إلى الخليج الذي سمي باسمه بالقرب من جزيرة بافن). وقد أمضى خمسة عشر يوماً في استكشاف الساحلين المحيطين به، معتقداً أن الساحل الغربي هو ساحل أمريكا الشمالية، وأن الساحل الشرقي هو البر الآسيوي. وقبل أن يتخذ طريق العودة إلى إنجلترا وهو مقتنع بأنه يسلك الفتحة الشرقية للممر. وعند العودة، وقع في يد مايكل لوك حجر كان أحد البحارة قد التقطه من الساحل الغربي للمضيق، فما كان من لوك إلا أن أشاع أن الحجر يحتوي على خام الذهب. وعلى الفور شرع في جمع الأموال اللازمة لتمويل رحلة استكشافية ثانية انطلقت في

سنة 1577م، بقيادة فروبيشر الذي لم تكن خطط لوك تعنيه كثيراً، حيث كان اهتمامه منصباً على الممر البحري، لكنه اتبع التعليمات الصادرة إليه، وبدأ على الفور في مباشرة أعمال التنقيب عن المعدن الخام، وقصر عمليات الاستكشاف على منطقة خليج فروبيشر.

وفي الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة 1577م، عادت الحملة المكونة من السفينتين «جابريل» و «مايكل» ومعهما سفينة القيادة «إيد» التي كانت يبلغ حجمها نحو عشرة أضعاف أي من السفينتين إلى إنجلترا ومعهم 200 طن من الصخور التي تحتوي على جزئيات براقة من خام البرونز الرخيص (صخور البروكسين النارية والأمفيبيوليات). وأملاً في كسب استثمارات جديدة، عمد لوك إلى الترويج لهذه الصخور باعتبارها ذات قيمة عالية. وقد حقق نجاحاً جزئياً في جذب بعض المستثمرين، إلا أن كثيراً من المتحفظين لم يندفعوا إلى الاستثمار معه. وبالفعل، انتهت الرحلة الثالثة إلى مأساة كبيرة، فقد أبحرت خمس عشرة سفينة في شهر مايو 1578م، وحين وصلوا غرقت السفينة «دنيس»، وفي أثناء رحلة العودة، تعرضت السفن التي كانت محملة بـ 1350 طناً من الخام الخادع للمزيد من العواصف الشديدة، ومات أربعون رجلاً غرقاً، معظمهم من عمال المناجم.

وحتى النهاية، ظلت الملكة إليزابيث على تأييدها وإيمانها بمؤسسة لوك. ففي رحلتهم الأولى وقفت في نافذة قصرها في جرينتش تلوح للسفن المغادرة في أثناء مرورها أمامها في نهر التايمز. وفي عشية وصولهم من الرحلة الثانية، سمحت لـ فروبيشر بتقبيل يدها. وقبل انطلاق الرحلة الثالثة، وضعت بيدها قلادة ذهبية حول عنقه، ومدت يدها لقباطنة السفن المشاركة في الرحلة لتقبيلها. وفي أثناء الرحلة الثانية، وعلى شبه الجزيرة التي أطلقت عليها الملكة إليزابيث «ميتا أنكجونيتا»، عثر رجال فروبيشر على بقايا جثة أحد حيوانات النرول (كركدن البحر)، حيث أخذوا منها السن الطويل الذي يبرز في مقدمة رأس هذا النوع من الحيتان. وفي سجله الخاص بهذه الرحلة كتب ديونيس سيتل واصفاً تلك الواقعة قائلاً: «قام الرجال بوضع بعض العناكب في القاعدة المفرغة لسن هذا الحيوان، لكن هذه العناكب قد ماتت». وأضاف قائلاً إنه لم يشاهد هذه الواقعة بنفسه، إلا أنها نقلت له من مصدر ثقة، وأن الرجال قد اعتقدوا أن هذا الحيوان هو وحيد القرن البحري. وقدم فروبيشر هذا السن هدية إلى الملكة إليزابيث.

وقد انتهت هذه الرحلات بـ لوك إلى الغرق في الديون، وإفلاس شركة كاثي، كما أدى الجشع الشديد لبعض المستثمرين، والخداع والتضليل الذي شاب العملية كلها، والأرواح التي أزهقت في أثناء الرحلات إلى إحساس الكثيرين بالمرارة، إلا أن فروبيشر استطاع أن يبرئ ساحته في ميدان المعركة، وحصل على لقب فارس، ثم لقي حتفه سنة 1594م في القتال ضد الأسبان.

وبعد ذلك بثماني سنوات، قام جون ديفيز بعدة رحلات لكنها كانت من نمط مختلف تماماً عما قام به فروبيشر، وربما يكون ديفيز أكثر بحارة العصر الإليزابيثي مهارة وحنكة، وكان ذا نزعة هادئة بخلاف فروبيشر ذي المزاج المتقلب، كما أنه لم يكن يتعامل بالصرامة نفسها التي كان الأخير يتعامل بها مع رجاله. كما كان ديفيز أقل حباً للتملك، وللحديث عن الذات، والتفاخر بما يحققه من إنجازات. وقد تكون هذه بعض الأسباب التي جعلته الوحيد من بين بحارة البلاد الغربية الذي لم يحصل على لقب فارس.

وبمساعدة من أدريان جيلبرت الطبيب المشهور في مدينة ديفونشاير، ووليام ساندرسون التاجر والمغامر اللندني، وتحت رعاية دوق ويلسينجهام، تمكن ديفيز من تجهيز سفينتين صغيرتين هما «صنشاين» و «مونشاين»، وقد استقل معه فرقة موسيقية صغيرة على السفينة الأولى، وأبحرت السفينتان من ميناء دارثموث في مدينة ديفونشاير في السابع من يونيو سنة 1585م.

وكانت أول أرض تقابل السفينتين هي ما يعرف الآن بـ رأس والو على الساحل الجنوبي الشرقي لجرينلاند، إلا أن الضباب الكثيف والثلوج المتدفقة مع تيار جرينلاند الشرقي أوقفت تقدمهم. وقد كتب ديفيز قائلاً في وصف ذلك الموقف: «لقد استبد بنا القلق من الضوضاء الغريبة الصادرة عن حركة الجليد، لذا افترضنا أن المكان شديد الاتساع وخال من أي مخلوقات عاقلة أو غير عاقلة. وقد تراجعت السفينتان بعيدا عن رأس والو أو رأس فيرويل كما أسماها ديفيز في رحلته الثانية. وأخيراً، وفي 29 يونيو من العام نفسه وصل ديفيز إلى الشاطئ بالقرب من مستوطنة الشماليين القدامى في جودثاب، وهناك في هذا المكان جرى لقاء يعدّ من أكثر اللقاءات التي تمت بين الثقافات المختلفة طرافة وبروزاً في كل الأدبيات المتعلقة بالمناطق القطبية الشمالية.

فقد كان ديفيز ومجموعة من رجاله يقومون باستطلاع المنطقة من قمة مرتفعة في إحدى الجزر الواقعة في المياه التي أسماها ديفيز فيما بعد مضيق جيلبرت، ولاحظ وجودهم مجموعة من

الأسكيمو كانت على الشاطئ، فأرسلوا نفراً منهم في قواربهم الصغيرة. ويقول جون جان في وصفه لهذه الواقعة: «كانوا يحدثون ضوضاء تبدو كالنحيب، وكنا نسمع صيحاتهم وصرخاتهم التي اعتقدنا في البداية أنها عواء ذئاب». وعلى الفور أمر ديفيز الفرقة الموسيقية التي كانت برفقته أن تبدأ في العزف، وطلب من ضباطه ورجاله أن يرقصوا، وأثناء ذلك كان الأسكيمو يوجهون قواربهم بحذر نحو الشاطئ، إلى أن اقترب قاربان من الشاطئ، ويستطرد جون جان قائلاً: «لم نتمكن من فهم اللغة التي كانوا يتحدثون بها، ولا الأصوات التي كانوا يصدرونها وتبدو كأنها تخرج من حناجرهم عبر أعماق جوفاء، وكل الذي فعلناه أننا حييناهم بطريقة ودية، وعلى بعد قليل منا، كان أحد أفراد جماعة الأسكيمو يشير بيده إلى الشمس، ثم يطرق بقبضتيه بشدة على صدره لدرجة أننا كنا نسمع صوت الارتطام ونحن في أماكننا». وعلى الفور بدأ جون إليس قبطان السفينة «مونشاين» بتقليد الرجل، ومع اقتراب قوارب الأسكيمو، نزل أحدهم وتقدم نحو رجال ديفيز الذين أعطوه قطعا صغيرة من أقمشة ملابسهم، حيث لم يجدوا معهم شيئاً آخر يمكن أن يعطوه للرجل، واستمروا في الرقص. وطوال الوقت لم تتوقف الفرقة الموسيقية عن العزف.

وفي الصباح التالي مباشرة، أفاق طاقم السفينة على نفس المجموعة من الأسكيمو وقد وقفوا على ذات التلة التي كان جون ديفيز وضباطه يستطلعون منها بالأمس، وكانوا يدقون الطبول، ويرقصون، ويلوحون لجماعة ديفيز. (وتعتبر مشاعر الاحترام التي أبداها ديفيز تجاه الأسكيمو، من الظواهر نادرة الحدوث في الأدبيات المبكرة للمناطق القطبية الشمالية. فقد وجدهم شعباً لطيفاً، ولا يعرفون المداورة أو الخداع... وفي رحلته الثانية عاد ديفيز إلى النقطة نفسها التي شهدت لقاءها الأول مع الأسكيمو، ولقد كانت اللحظات التي تعرف فيها كل منهما على الآخر، صاخبة ومفعمة، ناهيك عن الاستقبال الحميم الذي لقيه ديفيز منهم).

وبعد يومين من لقائه بالأسكيمو، اجتاز ديفيز المضيق الذي سمي بعد ذلك باسمه، وأبحر بعيداً إلى الشمال في خليج كمبرلاند، حيث اعتقد أن هذا الخليج هو المدخل إلى الممر الشمالي الغربي، بسبب عدة ملاحظات منها: عرض القناة المائية للخليج، وطبيعة المد والجزر، ومنظر الحيتان المتوجهة إلى الشرق، ولون المياه، وطبيعتها، وخصائصها في المنطقة. لذا أبحر عائداً إلى الوطن وهو راض عما أنجزه. (في أثناء فترة الرحلات المبكرة إلى المناطق القطبية الشمالية، لم يكن هناك أي

تفكير في قضاء فصل الشتاء، فقد كان حجم السفن لا يسمح بحمل مؤونة تكفي لذلك). وفي الثالث من شهر أكتوبر من العام نفسه، كتب ديفيز إلى دوق وليسينجهام يخبره بأن وجود الممر «أمر لا شك فيه، ويمكن اجتيازه في معظم أوقات السنة، كما أن البحر هناك يصلح للملاحة، والمياه عميقة جداً».

وقد أسعدت الإنجازات التي حققها ديفيز مجموعة مسانديه جيلبيرت وساندرسون ودوق ويلسينجهام، وبمساعدة إضافية من بعض تجار مدينة إكستر، أبحر ديفيز مرة ثانية في 7 مايو 1586م، في أسطول يتكون من أربع سفن، أكبرها السفينة «ماريمايد»، ومعها السفينتان «صنشاين» و «مونشاين»، ومركب شراعي آخر يدعى «نورث ستار»، وقد أرسل ديفيز السفينتين «سنشاين» و «نورث ستار» شمالاً بمحاذاة الساحل الشرقي لجرينلاند، وبتعليمات أن يقوموا بالاستكشاف إلى أقصى نقطة يمكنهم الوصول إليها، بحثاً عن طريق عبر القطب المتجمد الشمالي، في حين أبحر هو مع السفينتين الأخريين نحو جودثاب، وهناك على الشاطئ، قام بتجميع مركب شراعي ثان كان قد أحضره مفككاً على السفن، وبمساعدة أربعين من رجال الأسكيمو، أنزلوا المركب إلى الماء.

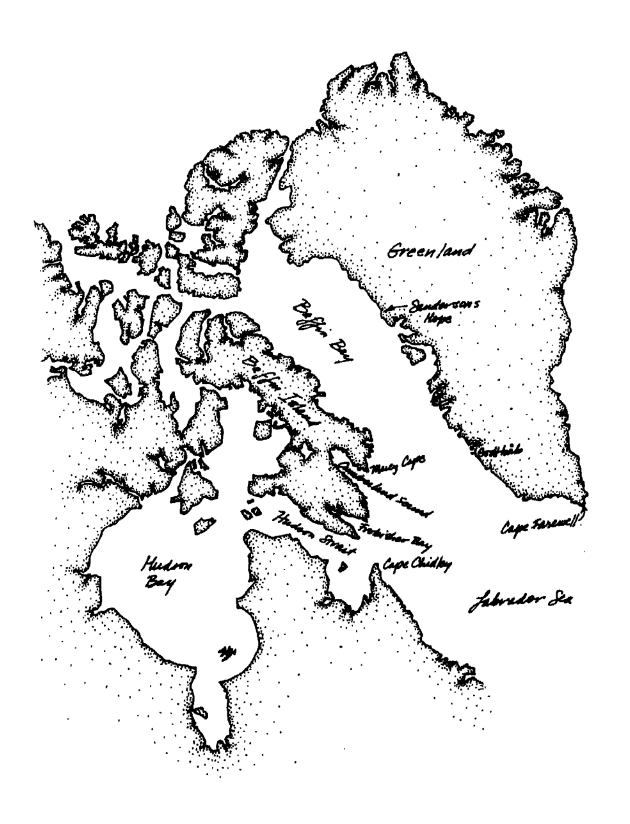
وفي البداية، تميز لقاء ديفيز وجماعته مع الأسكيمو في جودثاب بالود، إلا أن الموقف بدأ في التأزم عندما أصبح الأسكيمو لصوصاً كباراً، خصوصاً للمصنوعات الحديدية. وقد بذل ديفيز ما في وسعه لتدارك الموقف، واستمر في المقايضة معهم بكرم، في الوقت الذي استمر فيه أيضاً في استرضاء رجاله ليتذرعوا بالصبر. وفي عصر أحد الأيام وقعت حادثة تبادل فيها الطرفان إلقاء الحجارة، وتصاعد الموقف بسرعة وتحول إلى عراك بين الجانبين، أصيب فيه أحد رجال ديفيز بجراح. وقد كان ذلك كافياً لإقناعه بالمغادرة، وبالفعل أبحر باتجاه الشمال مع أول رياح مواتية.

وفي السابع عشر من شهر يوليو من العام نفسه، بهت بحارة السفن الثلاث المشاهدتهم جبلاً جليدياً هائل الحجم «انتزع الاحترام والشعور بالهيبة منا جميعاً»، وقد كان المشهد في غاية الروعة بالنسبة لهم، لدرجة أن ديفيز نفسه أحجم عن الكتابة عنه مكتفياً بقوله «أعتقد أن أحداً لم يشاهد مثل ذلك من قبل». ولثلاثة عشر يوماً متواصلة استمروا في الإبحار بمحاذاة ساحل هذا الجبل المسطح العملاق. وقد كان مضيق ديفيز، كما أطلق عليه من بعد، مليئا بالجليد، على

خلاف ما شاهدوه في العام السابق، وقد أثر مشهد الجليد بشدة في الرجال وأصابهم بالرعب، لدرجة أنهم توسلوا لـ ديفيز ليعود بهم إلى الوطن. وبالفعل نزل مع رجاله على شاطئ جرينلاند وقام بتفكيك المركب الشراعي، ووضع ما معه من منقولات مع الرجال الراغبين في العودة إلى إنجلترا على متن السفينة «ماريمايد»، ثم تابع إبحاره مع من تبقى من الرجال في السفينة «مونشاين» متجهاً إلى جزيرة بافن، ثم اجتاز مدخل خليج كمبرلاند دون أن يدرك ذلك، ثم عبر مضيق هدسون حيث داهمتهم هناك عاصفة ثلجية، ثم أبحر جنوباً بمحاذاة شاطئ لابرادور حيث تمكنوا من صيد كميات كبيرة من سمك القد باستخدام أدوات صيد صنعوها بأنفسهم.

وحين ألقوا مرساة السفينة للقيام بعملية تجفيف غنائمهم من الأسماك (وربما يكونون قد فعلوا ذلك في أثناء وجودهم في مضيق ترنموز) تعرضوا لهجوم من قبل الشعب المتوحش الذي يقطن هذه البلاد، وقد أدى الهجوم إلى مقتل اثنين من رجال ديفيز وإصابة ثلاثة آخرين. وبعد هذه الحادثة مباشرة وفي الحادي عشر من شهر سبتمبر عاد ديفيز إلى إنجلترا ليجد أن السفينتين «صنشاين» و «نورث ستار» لم تتمكنا من التقدم لمسافة كبيرة، وأنهما أجبرتا على العودة بسبب الجليد، وأن السفينة «ثورث ستار» قد تعرضت لعاصفة أدت لغرقها مع كامل طاقمها.

وعلى الرغم من تراجع حماس مؤيد ديفيز، إلا أنهم تبنوا رحلة ثالثة في 1587م، بشرط أن تقوم السفن المرافقة له بصيد كميات من سمك القد، يستخدم ريعها في تغطية بعض نفقات هذه الرحلة الاستكشافية، وذلك في أثناء الإبحار في المناطق التي يعتقد أنها قد تقود إلى الممر الذي يجري البحث عنه، وهي مناطق خليج ديفيز وخليج كمبرلاند وخليج هدسون وخليج هاميلتون بالقرب من ساحل لابرادور. وفي أول أيام الرحلة، تعرضت السفينة التي يستقلها ديفيز، والتي كانت عبارة عن مركب شراعي كبير يسمى «إلين»، إلى كسر في مؤخرتها، وكانت تبحر كعربة يجرها ثور.


Greenland
Sandersons Hope
Baffin Bay
Baffin Island
Mercy Cape
Frobisher Bay
Hudson Strait
Cape Chidley
Cape Farewell
Labrador Sea
Hudson Bay

وعند جودثاب، قام ديفيز باستطلاع المياه الداخلية، فيما شرع طاقم سفينة أخرى في تجميع مركب شراعي رابع على الشاطئ، حيث كانت نية ديفيز أن يقوم باستخدام هذا المركب في عملية الاستكشاف، فيما تتجه السفن الثلاث الباقية جنوباً لصيد أسماك القد. إلا أن الأعمال العدائية اندلعت مرة أخرى مع الاسكيمو، الذين لم يكفوا عن سرقة المسامير من مجاري السفن، ولم يتمكن ديفيز من تسوية الموقف، وحدث أن قام أحد رجال المدفعية بإطلاق قذيفة فارغة من أحد المدافع، فأمر ديفيز رجاله بتفكيك الأجزاء التي كان قد تم تجميعها من المركب الشراعي، وتخزينها على السفينة «إليزابيث». ونظراً للحالة السيئة التي آلت إليها السفينة «صنشاين» والتي كان الماء يتسرب إليها بغزارة، ومع الرغبة الشديدة لدى طاقمها وطاقم السفينة «إليزابيث» في المغادرة والتي اقتربت بهم من درجة العصيان، اضطر ديفيز إلى ترك السفينتين. والإبحار بالسفينة «إلين» إلى الشمال بمحاذاة ساحل جرينلاند حتى وصل إلى 27، °46 درجة شمالاً، والتي أطلق عليها «أمل ساندرسون في العثور على الممر» Sanderson's Hope for the Passage. وعند هذه النقطة كان المحيط مفتوحاً أمامه من جهتي الشمال والغرب، وكانت المياه عميقة لدرجة أنه لا يمكن قياسها، إلا أنه لم يكن هناك رياح يمكن أن تدفعه في أي من الاتجاهين، فاتجه نحو الجنوب الغربي، وبعد أن حاصره الجليد لمدة يومين عند محاولته اختراق مساحات الجليد المتكسر، توجه بسرعة إلى رأس رحمة الرب (وكان قد أطلق عليه هذا الاسم في رحلته الأولى عندما أرشده هذا الرأس إلى ما كان يعتقد أنه ا لممر الذي يبحث عنه) ثم اتجه نحو مضيق كمبرلاند، وعندما هدأت الرياح، أبحر عائداً إلى مدخل المحيط، ثم جنوباً مروراً بخليج فروبيشر، الذي أسماه خليج لوميلي. (وقد اعتقد ديفيز أنه أول إنسان يصل إلى هذا المكان، بسبب الافتقار إلى طرق يمكن الاعتماد عليها بشكل جيد لتحديد خطوط الطول، ولاعتماده أيضاً على خريطة زينو غير الدقيقة التي توضح مضيق فروبيشر على أنه يقع عند الطرف الجنوبي لجرينلاند).

وكما حدث في العام السابق، لاحظ فروبيشر ظاهرة المد والجزر الشديدة في مضيق هدسون والذي يهدر بعنف، تماماً كتدافع الأمواج الهادرة تحت جسر لندن. واستمر ديفيز في الإبحار بمحاذاة شاطئ لابرادور بحثاً عن السفينتين «صنشاين» و «إليزابيث»، واللتين كانتا من المفترض أن تنتظراه لاصطحابه في رحلة العودة إلى إنجلترا، بسبب المشاكل التي كانت تعاني منها سفينة

«إلين»، إلا أن أحداً لم ينتظره. وفي الخامس عشر من أغسطس ابحر ديفيز متوجهاً إلى دارتموث في رحلة استمرت شهراً كاملاً.

وقد حقق ديفيز العديد من الإنجازات المدهشة في رحلاته الثلاث التي قام بها، إذ وضع خرائط بحرية لمعظم سواحل جزيرة لابرادور، علاوة على ما يقرب من 700 ميل من الساحل الغربي لجرينلاند، ومعظم أجزاء الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة بافن، كما كانت الملاحظات التي دونها عن خصائص الجليد في هذه المناطق والحياة النباتية والحيوانية فيها، وخصائص تياراتها المائية، ووصفه للأسكيمو، هي الأولى من نوعها. ولم تقتصر إنجازاته على إدخال هذه المناطق إلى الخرائط، بل إنه نقلها إلى دائرة الاهتمام العلمي. وأصبح مؤلفه «دليل البحارة» عن الرحلات التي قام بها نموذجاً يحتذى به لسجلات السفن، كما كانت المعدات التي قام بتطويرها إرهاصات لآلتي الربعية(*)، والسدسية الحديثتين. كما أصبح كتابه «أسرار رجل البحر» (1594م)، والذي يستند في معظمه على التجارب التي مر بها في أثناء رحلاته الثلاث، كتاباً لا غنى عنه للبحارة الإنجليز طوال القرن السابع عشر.

وفي السنوات التالية، استطاع جون ديفيز تحقيق المزيد من الإنجازات، فقد اكتشف جزر فوكلاند(**)، وأبحر إلى المحيط الهادئ على أمل العثور على مدخل غربي للممر المعهود. وفي سنة 1605م، قتل جون ديفيز على يد بعض القراصنة اليابانيين في مضيق ملقا قبالة ساحل سنغافورة. وكان عمره خمسة وخمسين عاماً.

لقد كان ديفيز رجلاً مخلصاً وشجاعاً، يتمتع بالتسامح تجاه الاختلافات التي تميز الشعوب الأخرى، وكانت معارفه البحرية مزيجاً رائعاً من الفطنة العلمية والتجربة العملية. وفي كتابه «وصف بحار العالم» (1595م) كتب ديفيز عن الضوء الذي يغمر المناطق القطبية الشمالية في أثناء فصل الصيف قائلاً: «إن الضوء الذي يغمر الأرض القابعة تحت النجم القطبي يجعل من هذا المكان أكثر المواضع وقاراً على سطح الأرض».

(*) الربعية: من الآلات الملاحية التي تستخدم في قياس وتحديد الارتفاعات. (المترجم)

(**) جزر فوكلاند: مجموعة من الجزر الصغيرة تقع في اقصى جنوب المحيط الاطلنطي بالقرب من سواحل الارجنتين، وتتبع التاج البريطاني حالياً. (المترجم)

وكباقي بحارة عصره، كان ديفيز يخرج في رحلاته دون أي تأمين، وببساطة، كان احتمال تعرض السفن للتحطم والغرق عالياً جداً بسبب الآلات الملاحية البدائية والأخطاء التي تمتلئ بها الخرائط الملاحية، أو بسبب افتقار بعض القيادات للخبرات الضرورية. وكان يتعين على قبطان مثل ديفيز أن يستخدم آلة الربعية أو الأسطرلاب لتحديد موقعه بالنسبة لخط العرض، وجداول للانحراف الزاوي للمساعدة على تلافي أخطاء البوصلة، وقد يكون محظوظاً بما فيه الكفاية فيحصل على سجلات أو مسارات ملاح آخر، قام برحلة إلى المناطق نفسها التي يستعد للإبحار فيها، فتحذره من أماكن وجود بعض النتوءات الصخرية، أو تعطيه بعض النصائح المفيدة بشأن المد والجزر. وقد استمر الحال كذلك إلى أن تمكن جون هاريسون في سنة 1735م من صناعة أول آلة كرونوميتر مكنت البحارة من تحديد مواقعهم بالنسبة لخطوط الطول بطريقة يمكن الاعتماد عليها.

أما الخرائط الملاحية التي كانت متوفرة للرحلات الاستكشافية، خصوصاً تلك التي كانت تتجه غرباً، فقد كانت قليلة الفائدة، وأكثر معلوماتها إما نزوية، أو تفتقر إلى أسس واقعية، وفي الغالب كان تحديث هذه الخرائط يتطلب استيعاب العديد من المفاهيم الجغرافية النظرية، وهو ما لم يكن البحارة الممارسون يملكون له صبراً. ومع الافتقار إلى طرق لتحديد المكان بالنسبة لخطوط الطول، وعدم توافر بيانات دقيقة عن فروقات البوصلة في بعض مناطق الكرة الأرضية، فقد كان من الصعب على البحار تمثيل الأراضي الجديدة خرائطياً بشكل دقيق بهدف تحديث الخرائط القديمة. أما خريطة زينو (1558م) وهي خريطة بها الكثير من الخيال، فقد كانت توضح العديد من الجزر الكبيرة غربي المحيط الأطلنطي الشمالي، إلا أن هذه الخريطة كانت تعدّ مرجعية جغرافية في هذا الوقت، ومن ناحية أخرى فإن الفكرة التي كانت مسيطرة على البحارة في ذلك الوقت بمن فيهم جون ديفيز نفسه، كانت تدفعهم إلى التوفيق بين أعمالهم والأخطاء الشائعة والمقبولة عالمياً.

وكأي بحار ماهر كان يراقب الطقس من حوله، ولا يغفل عن سلوك المياه التي يبحر فيها، ويعي حركات سفينته، خصوصاً إذا كانت هذه السفينة معروفة له جيداً، وعادة ما يراوده بانتظام شعور داخلي تجاه ما يقوم به، حتى وإن كان يبحر بمحاذاة سواحل لا يعرف عنها شيئاً. وإذا كان يبحر «بالتخمين وبرعاية الرب» فإن تخميناته كانت صحيحة في أغلب الأحوال. وكان ديفيز يفضل السفن الصغيرة القادرة على المناورة، على سفن الشحن الكبيرة، وقد كانت هذه النقطة مثار

خلاف مستمر بينه وبين ممولي رحلاته الاستكشافية. وكان عادة يسعى إلى الإبحار بصحبة سفينة اخرى، ولم يفطن أحد إلى حكمة الإبحار بسفينتين يمكن تبادل واستبدال بعض أجزائهما، إلا في سنة 1812م حين خرج باري في رحلته الثانية إلى المناطق القطبية الشمالية، في السفينتين «هكلا و «فيوري».

أما بحارته، فقد كان الأفضل منهم، يتمتع بقدرة مدهشة على الحفاظ على سفنهم مبحرة، ولا يقل مهارة عن الأسكيمو في إصلاح السفن باستخدام أدوات بسيطة وأفكار ارتجالية، وكثيراً ما كان البحارة يسحبون سفنهم الصغيرة باكملها من المياه وهم على شواطئ غريبة عنهم لإصلاح ما ببدنها من فتحات وثقوب، وفي أثناء إبحارهم في المياه القطبية، كانوا يواجهون مخاطر مرعبة، وكانوا مهددين بأن يحاصرهم الجليد طوال الوقت، أما طعامهم فكان في غاية البساطة: اللحم المملح، وسمك القد، والخبز والبقول المجففة، والجبن والزبد، وربما قدر من الجعة، ولا يأكلون طعامهم إلا بارداً، وفي أثناء رحلاتهم لم يكونوا يعرفون المشروبات الساخنة كالشاي والقهوة، وكانوا ينامون كيفما اتفق بين البضائع وصناديق المؤن، يعتقدون أنهم محظوظون إذا أتيحت لهم فرصة تغيير ملابسهم مرة أو مرتين وهم معرضون للبلل أو البرد الشديد. ودائماً كانت تلازمهم احتمالات الغرق أو الإصابة بمرض الاسقربوط(*).

وببطء تحسنت أحوال السفن، وأصبحت الخرائط أكثر دقة، وتم تطوير معدات ملاحية أفضل من تلك التي كانت موجودة من قبل، وأسهمت كتب مثل كتاب «أسرار رجل البحر» الذي ألفه جون ديفيز في نشر المعرفة الملاحية الفنية. ومع حلول القرن السابع عشر تحسن أسلوب رسم الخرائط بشكل كبير، وأصبحت أقل عرضة للتخمينات، التي كانت تملأ المساحات في الخرائط بجزيرة أو اثنتين، وبدأت مساحات كبيرة خالية في الظهور، مثل المناطق القطبية الشمالية، وهو أمر كان

(*) الاسقربوط مرض ناتج عن نقص في فيتامين ج، ويتسبب في نزف الشعريات الدموية وتساقط الاسنان والانيميا والإعياء العام، ولم يكن سبب هذا المرض معروفاً في زمن الاستكشافات الجغرافية المبكرة. ومن اعراض المرض الترنح في اثناء المشي، والهزال. وفي سنة 1747م، نجح جيمس ليند وهو طبيب اسكتلندي يعمل في البحرية، في علاج بعض البحارة المصابين بهذا الداء مستخدماً البرتقال والليمون، وفي عام 1795م، اصبحت جرعات عصير الليمون هي الوسيلة العامة في البحرية البريطانية للوقاية من هذا المرض. إلا ان ذلك لم يكن كافياً لإيقاف اعراض المرض في أثناء الرحلات الطويلة.

سيبدو غريباً بالنسبة لرسامي الخرائط في الماضي. كما تحسنت أيضاً، وبشكل كبير، أساليب وتقنيات الخرائط الساحلية. لكن تعين استمرار التنسيق والتعاون بين رجال البنوك والحالمين من أجل إخراج الرحلات الاستكشافية التي كان يقوم بها هؤلاء القباطنة الشجعان ذوو الشكيمة وأطقمهم الماهرة. ونظراً إلى أنه كان هناك فواتير يتعين دفعها، فقد ظلت ضرورة تحقيق أرباح تجارية من الأراضي المكتشفة حديثاً، ماثلة دائماً في أذهان هؤلاء الذين كانوا يرغبون في استمرار هذه الرحلات.

* * * * *

وبعد آخر رحلة لديفيز بوقت قصير، خرج العديد من الرحلات الهامة أيضاً. ففي سنة 1607، أبحر هنري هدسون إلى القطب المتجمد الشمالي برفقة عشرة رجال وصبي في مركب شراعي، حيث وصلوا إلى 37 درجة شمالا على الساحل الشرقي لجرينلاند، وأطلق هدسون اسم «التشبث بالأمل» على أحد النتوءات الصخرية هناك. وفي أثناء رحلة العودة اكتشف جزيرة جان كاين، ومصايد الحيتان في سبيتسبيرجن. وبعد رحلة إلى جزيرة نوفايا زملايا، ورحلة أخرى بدأت في الاتجاه نفسه، لكنها اتجهت نحو الساحل الشرقي لامريكا الشمالية، وتحولت لاستكشاف نهر هدسون أبحر هدسون في رحلة رابعة سنة 1610م باتجاه مياه المناطق القطبية الشمالية، حيث قضى فصل الشتاء في خليج جيمس إلى الجنوب من المضيق والخليج اللذين يحملان اسمه الآن. وفي الربيع قام بعض أفراد الطاقم من الذين كانوا يخشون التعرض للمجاعة بحركة عصيان، ووضعوا هدسون وابنه والثلاثة الذين حافظوا على ولائهم له مع أربعة من المرضى في قارب وأطلقوهم في البحر، ولم يرهم أحد بعد ذلك. أما الذين قاموا بالعصيان فقد قتلهم الأسكيمو بعد ذلك، فيما عاد الذين بقوا على قيد الحياة بالسفينة «دسفكري» إلى إنجلترا وهم في حالة يرثى لها، بعد أن اضطروا إلى أكل الشمع والحشائش وجلد الطيور.

ونظراً لاهتمام مجموعة الممولين التي مولت رحلة هدسون بتحقيق الأرباح أكثر من اهتمامهم بمحاكمة المتمردين، فقد قاموا بإرسال السفينة نفسها مرة أخرى تحت قيادة توماس بتون في سنة 1612م، الذي وصل إلى الشاطئ الأقصى لخليج هدسون، حيث أدرك أن بحر هدسون عبارة عن خليج في حد ذاته، وأطلق على نقطة هناك اسم «تبدد الأمل». (اعتقد هدسون أنه كان يبحر باتجاه المحيط الهادئ، حيث سمى الرأس الجنوبي عند مدخل مضيق هدسون «تقدم الأمل»). وقد قضى هدسون فصل الشتاء عند مصب نهر نلسون، حيث فقد مجموعة من رجاله هناك، ثم اكتشف جزر: كوست، وساوثهامتون، ومانسل وفي فصل الربيع أبحر إلى ٦٥ درجة شمالاً عند خليج روس ويلكم.

وفي سنة 1615م، قام كل من الملاح ويليام بافن والقبطان روبيرت بيلوت بأولى الرحلتين الهامتين اللتين قاما بها معا. وقد توجهت الرحلة الأولى إلى قناة فوكس والمضيق المتجمد إلى الشمال من خليج هدسون، حيث اقتنعا في هذه النقطة أنه لا يوجد ممر شمالي غربي يمكن العثور عليه عبر مضيق هدسون. وقد كان بافن شخصا ذكياً وملاحاً موهوباً ذا قدرة كبيرة على الملاحظة، فقد لاحظ أن المد يحدث من جهة الجنوب الشرقي، وينحسر من ناحية الشمال الغربي، لذا فقد افترض (وكان محقاً في افتراضه) أن الممر الذي يبحثون عنه لابد أن يوجد عبر مضيق ديفيز. وفي سنة 1616م عاد بصحبة بيلوت إلى المكان ذاته. (وقد استخدمت السفينة «دسكفري» في الرحلتين اللتين قام بهما كل من هدسون وبوتون وكذلك في رحلتي بافن، وهي سفينة في حجم السفينة «صنشاين» نفسها التي استخدمها ديفيز).

وفي الرحلة الثانية وصل بافن وبيلوت إلى 78 درجة شمالاً، فوق مضيق ديفيز وتوغلا إلى الشمال أبعد من أي نقطة كان قد تم الوصول إليها خلال مائتي سنة(*)، وفي أثناء هذه الرحلة قاما بتسمية العديد من الخلجان والممرات المائية والرؤوس الجغرافية بأسماء ممولیهم، (سميث، وجون، ولانكستر، وديجيز، وولستينهولم) وهم الممولون أنفسهم الذين أرسلوا هدسون

(*) استطاع البحارة الشماليون القدامى أن يصلوا إلى نوروورستيور والتي ربما تقع في جوار مضيق سولورسواك (12 '70 شمالاً)، ومن المحتمل أن يكونوا قد أبحروا إلى أبعد من ذلك. وقد تم العثور على بعض مخلفاتهم في إحدي قرى الثولي في شبه جزيرة باتش بجزيرة إلزمير (79 درجة شمالاً)، لكنه من غير المعروف على وجه التحديد كيفية وصولهم إلى هناك.

وبوتون من قبل. وفي أثناء العودة إلى الجنوب قام بافن بمسح الساحل الشرقي للجزيرة التي أطلق عليها اسمه فيما بعد، ورسم لها الخرائط إلى أن بدأ عمله في التقاطع مع المناطق التي رسمها جون ديفيز من قبل.

وقد تعرضت سجلات بافن وخرائطه لرقابة شديدة في أثناء إعدادها للنشر، وفي وقت من الأوقات، وصل الأمر إلى حد عدم تصديق اكتشافاته، بل إزالتها من الخرائط (ولم تعد الأمور إلى نصابها إلا في سنة 1818م، حين أكد السير جون روس كل ما دونه بافن). وفي الغالب فإن بعض المستثمرين قد أخفوا أعمال بافن وسجلات بوتون، حتى لا يعرف منافسوهم بوجود ممر في خليج بافن. وبدءاً من سنة 1612م التي شهدت رحلة بوتون إلى خليج هدسون، تحول تاريخ هذا المكان إلى سجل مرعب من الكوارث المتتالية والمغامرات الخرقاء، سعياً وراء العثور على الممر الشمالي الغربي وثروات الفراء والذهب. وحين منح الملك تشارلز الثاني في سنة 1670م، امتيازاً دائماً للأمير روبرت وبعض «السادة المغامرين للتجارة عبر خليج هدسون»، فقد منح هذه الشركة – فعلياً – حق السيادة على كافة الأراضي الواقعة في زمام الأنهار التي تصب في خليج هدسون. وفي الواقع، كان الغرض من منح هذا الامتياز الكاسح لهذه الشركة، هو إضفاء صبغة تمثيل الدولة في الجهود المبذولة في منطقة الخليج، للعثور على الممر الشمالي الشرقي. لكن الذي حدث ان هؤلاء «السادة» زهدوا تماماً في مثل هذه الجغرافيا، حين وقعت أعينهم على أكوام الفراء البراق التي أحضرها بيير راديسون، ومودارد تشوارت دي جروسيلرز من مناطق الصيد القطبية. فقد كانوا يحدقون في ثروة هبطت عليهم. وللحفاظ عليها، ولتحقيق الاحتكار التجاري، فقد تعمدت شركة الخليج في البداية إعاقة البحث عن الممر في المنطقة، حيث إن اي تجارة تمر عبر مثل هذا الطريق سوف تتجاوزهم إلى الصين. ويقال إن قيمة الرشوة التي دفعوها لشخص يدعى كريستوفر ميدلتون لتزوير تقاريره الاستكشافية قد دفعت قيادة البحرية البريطانية إلى تخصيص مبلغ 20,000 جنيه استرليني في سنة 1743م كمكافأة لمن يتمكن من العثور على ممر شمالي غربي.

وتعدّ قصة شركة مضيق هدسون وجهاً آخر لقصة فئة من الناس من ذوي المصالح الخاصة وتتمتع بقوة ونفوذ هائلين، وتكاد تكون مستقلة، مارست تأثيراً قوياً لعدة مئات من السنين على المقدرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية لبلد يعدّ أكبر من معظم البلدان ذات السيادة. وقد

ساهمت العوائد المالية الثابتة، التي كانت تحصل عليها هذه الفئة من العالم الجديد (مصادر الفراء) في تغيير بؤرة اهتمام العمليات الاستكشافية في المناطق القطبية الشمالية. فمع وضع الطبيعة المقفرة للأرض في هذه المناطق في الحسبان، لم يخطر ببال أحد تلك الأعداد الهائلة من قطع الفراء الفاخر، التي سيتم جلبها من هناك سنة تلو الأخرى، ولا إلى أي مدى سيستمر ذلك(*).

وكانت مصايد الحيتان مجالاً آخر من المجالات المبكرة، لتحقيق الثروة للتجار المغامرين في المناطق القطبية الشمالية. وفي البداية كانت تلك المصايد تتركز في المناطق المحيطة بـ سبيتسبيرجين إنطلاقاً من سواحلها، وقد كانت المنافسة على أشدها، خصوصاً بين الهولنديين والبريطانيين، ثم امتدت هذه المصايد بعد ذلك إلى المياه المفتوحة عند منعطف صائد الحيتان وهو لسان من الماء لا يتجمد في فصل الشتاء في داخل بحر جرينلاند إلى الغرب من سبيتسبيرجن، ويعدّ هذا اللسان «آخر آثار تيار الخليج»(**). وقد امتد وصول السفن في أثناء فصل الربيع في مناطق الجليد الغربي إلى الغرب من منعطف صائد الحيتان (وقد ازدهر صيد الحيتان والفقمة في كل من بحر جرينلاند وبحر النرويج لمدة مائة عام أخرى، قبل أن تنتقل عمليات الصيد إلى مضيق ديفيز، حيث استفاد بحارة أمريكا الشمالية من مناطق في الاتساع نفسه على الجليد البحري إلى الشمال والشرق من نيوفوندلاند).

وحينما عاد هنري هدسون إلى إنجلترا في سنة 1607م محملاً بحكايات عن الحيتان التي ترتاد المياه غربي سبيتسبيرجن، بدأ التفكير في المناطق القطبية الشمالية لأول مرة بحسبانها تحتوي على مصادر طبيعة ذات قيمة، وليس مجرد طرق صعبة قد تقود إلى مياه المحيط الهادئ، ولم يكن ثمة

(*) خلال الفترة من سنة 1769 إلى 1868م، باعت شركة خليج هدسون، في مزادات علنية جرت في لندن الاعداد الآتية من الفراء والجلود: 891091 من فراء الثعالب، و 1042051 من جلود الوشق (وهو حيوان من فصيلة السنانير أصغر من النمر)، و 68694 من جلود حيوان الشره، و 288016 من فراء الدببة، و 467549 من فراء الذئاب، و 1507240 من فراء المنك، و 94326 من جلود البجع، و 275032 من فراء الغرير، و 4708702 من فراء السمور، و 1240511 من جلود حيوان الدلق وهو أيضاً من السنانير، وفي أثناء هذه الفترة نفسها أيضاً، كان هناك شركتان هما شركة الشمال الغربي وشركة كندا تتاجران في أعداد مماثلة من الفراء.

(**) في الغالب، فإن هذا التيار هو تيار غرب سبيتسبيرجن، وهو استمرار للتيار النرويجي الدافئ الذي يشكل بدوره امتدادا لتيار شمالي الاطلنطي، ويعدّ علماء المحيطات ان تيار الخليج ينتهي عند هذا الحد. ويلتف تيار غرب سبيتسبيرجن الدافئ حول الرأس الشمالي الغربي لـ سبيتسبيرجن، حيث يتدفق جزء منه أسفل الجليد القطبي لمسافة 1500 ميل اخرى ليظهر في المناطق المحيطة بجزر سيبريا الجديدة في دلالة واضحة على الحجم الهائل للمياه الكاريبية التي يحملها التيار.

طريقة افضل للتعبير عما تحتضنه هذه المناطق من فرص، من دخول بيير راديسون، ومودارد تشوارت دي جروسيلرز إلى بلاط الملك تشارلز الثاني وهما يئنان تحت احمال من الفراء والجلود التي جلباها من المناطق فالقطبية الكندية. ولمدة 300 عام تالية، لم تستغل المناطق القطبية الشمالية في شيء آخر باستثناء الفحم، الذي تم استخراجه من بعض الاماكن مثل سبيتسبيرجن، بيد ان الفراء والجلود، ومصايد الحيتان والفقمة وسمك القد التي استمرت في التوسع، بدت مربحة بما فيه الكفاية – بالنظر إلى كون هذه المناطق مقفرة – بالنسبة للمستثمرين الذين اعتقدوا في وقت ما انه قد غرر بهم لتمويل الاستكشافات الجغرافية، في الوقت الذي كان اهتمامهم الوحيد هو الحصول على عوائد من استثماراتهم الطائلة – ومع تنامي إمبراطورية الفراء التي أسستها شركة خليج هدسون، وتطور مصايد الأسماك، وتدفق الثروات الهائلة من أمريكا الشمالية على أوروبا، وفتح الطرق البحرية في جنوب المحيط الأطلنطي امام تجارة اكثر تحرراً من القيود، فقدت فكرة الممر الشمالي الشرقي الكثير من جاذبيتها التجارية، واصبح العثور على هذا الممر مجرد حل لاحد الألغاز الجغرافية.

وفي أثناء حقبة الرحلات الاستكشافية الأوروبية الأولى للمناطق القطبية الشمالية، ظلت الحواف الشمالية لقارتي آسيا وأمريكا الشمالية مجهولة. وفي عام 1725م أرسل القيصر الروسي بطرس الأكبر رجلاً هولندياً يدعى فيتوس بيرنج لاستطلاع حواف سيبريا الشرقية، ولمعرفة ما إذا كان البر السيبيري وأمريكا الشمالية متصلان أم لا. وفي عام 1728م أبحر بيرنج عبر المضيق الذي يحمل اسمه الآن، ثم توجه إلى الشمال الغربي وصولا إلى درجة 67 شمالاً(*)، وعلى الرغم من أن الطريق كان سالكاً للالتفاف حول شبه جزيرة تشوكشي، ومن ثم الإبحار غرباً باتجاه مصب نهر كوليما، إلا أن بيرنج استدار عائداً، وبسبب الضباب الكثيف في المضيق ابتعد عن ساحل أمريكا الشمالية. وفي عام 1732م استطاع عالم جيودسيا يدعى جوفوزديف أن يصل إلى هذا الساحل في السفينة نفسها التي خلفها بيرنج، حيث أرسى سفينته عند النقطة التي تعرف الآن باسم «نقطة الأمل»

(*) تتضمن الكتب السنوية لاسرة سونج التي حكمت الصين تسجيلاً لرحلات اسبق بكثير في هذه البحار، ففي سنة 458 ميلادية، قام راهب بوذي يدعى هوي شان برفقة اربعة من الرهبان البوذيين بالإبحار شمالاً، متجاوزا جزر كوريل إلى الشمال بمحاذاة ساحل شبه جزيرة كامتشاتكا، ثم اتجه شرقاً متجاوزاً جزر اليوشن إلى ان وصل إلى الاسكا.

Point Hope، وفي عام 1741م، قام بيرنغ بمحاولة ثانية لتحديد ساحل أمريكا الشمالية، وكان بصحبته في هذه الرحلة عالم الأحياء، جورج ميلهلم ستلار(*)، وقد تحطمت سفينة بيرينج عند جزيرة كوماندر، ولقي حتفه هناك، ليصل عدد الذين هلكوا في هذه الرحلة إلى ثلاثين رجلاً.

وبين عامي 1733 و 1742م قام المستكشفون الروس ببعض الرحلات الجريئة والتي حققت قدراً من النجاح لاستكشاف ورسم الساحل الآسيوي الشمالي باكمله من مصب نهر أوب إلى رأس بيرينج الشرقي، ولم يتم الانتهاء من الجزء الأخير الممتد من رأس الدب إلى رأس الشرق إلا في سنة 1824م، بوساطة فيرديناند فون رانجل. (في سنة 1867م أعاد قبطان إحدى سفن صيد الحيتان الأمريكية ويدعى توماس لونج تسمية جزيرة فارنجل لتحمل اسمه هو).

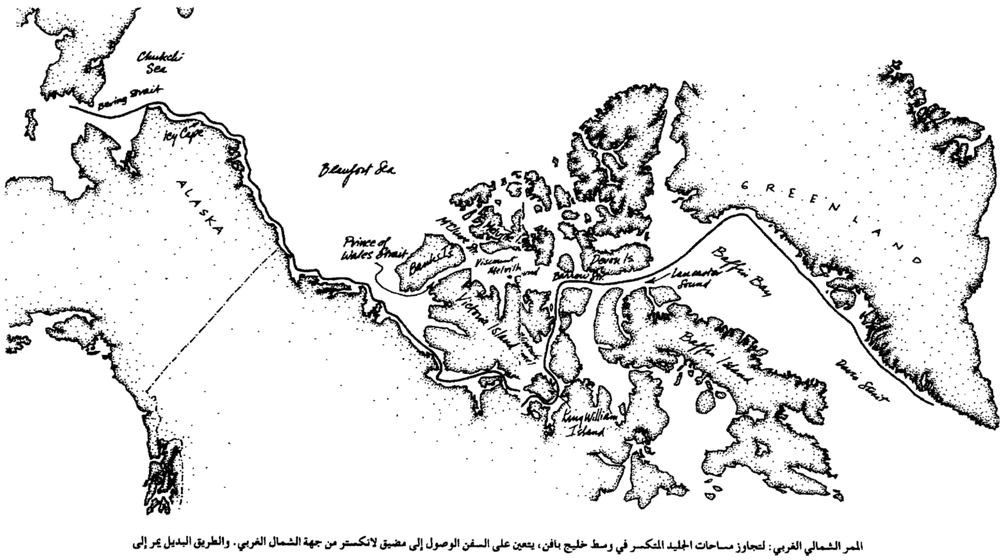
وعلى وفق لبعض المؤرخين، فإن المضيق الفاصل بين قارة أمريكا الشمالية وقارة آسيا (المدخل الشرقي للممر الشمالي الغربي)، كان قد اكتشف لأول مرة بوساطة رجل من القوزاق يدعى سيمون ديزنيف في سنة 1648م. كما أرسل الاسبان بدورهم بعض المستكشفين في هذا الاتجاه، إلا أن أياً منهم لم يتوغل شمالاً إلى هذا الحد. وفي سنة 1595م وفي مدينة البندقية، عرف مايكل لوك من بحار يوناني يدعى أبستولوس فاليريانوس أن الأخير قد أبحر منذ ثلاث سنوات في مضيق أنيان عند الدرجة 47 شمالاً، وقد شكك الكثيرون في انه قد وصل إلى هذا البعد، إلا أنه يوجد فعلا مضيق عند هذه النقطة، وقد أطلق عليه اسم البحار اليوناني في سنة 1788م. وفي عام 1778م وصلت أول سفينة أوروبية إلى مضيق بيرنغ بقيادة جيمس كوك واستمر في الإبحار إلى الشمال وإلى الغرب إلى أن تمكن من رؤية رأس الجليد، (درجة 70° 20 شمالاً). وتحسباً لهذا التطور، كانت قيادة البحرية البريطانية قد وسعت نطاق جائزة الـ 20,000 جنيه استرليني لمن يكتشف الممر الشمالي الغربي، لتشمل السفن الملكية والخاصة على حد سواء، ولم تشترط أن يكون هذا الممر عبر مضيق هدسون، وفي ذلك إشارة واضحة على أن العثور على الممر قد أصبح شأناً من شؤون

(*) اكتشف ستلار العديد من الحيوانات التي لم تكن معروفة من قبل في أثناء هذه الرحلة، بما في ذلك زريبا سيلار، وبقر الحبر الذي لم يشاهده العلماء أبداً بعد ذلك. وكان بعض الناجين من هذه الرحلة قد أحضروا معهم بعضاً من فراء القضاعة، مما نتج عنه اندفاع صيادي حيوانات الفراء الروس إلى هذه المنطقة، وانتهى الأمر إلى قمع دموي للشعوب الأصلية التي تقطن هذه السواحل.

الدولة وليس مجرد اهتمام تجاري، وأنه قد التفت أخيراً إلى ملاحظة بافن القائلة بعدم وجود الممر عبر مضيق هدسون (*).

وفي الوقت الذي أبحر فيه كوك في بحر تشوكشي كانت الإمدادات الشمالية لقارة أمريكا الشمالية، ومعظم أجزاء الأرخبيل الكندي مجهولة. وفي الرابع عشر من يوليو 1771م، تمكن صمويل هيرن وهو رحالة بري لا يعرف التعب، واشتهر بالبأس والجلد الشديدين، من الوصول إلى بقعة قريبة من مصب نهر كوبيرمين على خليج كورونشين وبصحبته مجموعة من هنود أمريكا الشمالية، ودليل من قبائل تشيبيوايان يدعى ماتونابي. وفي هذه الرحلة – التي كانت محاولته الثالثة للوصول إلى هذه المنطقة – قام بتثبيت أول علامة جغرافية على الساحل الأمريكي المطل على المحيط المتجمد الشمالي. وفي عام 1778م، وصل الكسندر ماكينزي إلى جزيرة في دلتا النهر الذي يحمل اسمه الآن، وتم تثبيت نقطة أخرى. وبين عام 1819 و 1827م قامت الفصائل البرية التابعة للبحرية البريطانية (المارينز) تحت قيادة جون فرانكلين برسم خرائط لساحل أمريكا الشمالية من جزر العودة إلى (الدرجة 149 غرباً) إلى نقطة الانعطاف على شبه جزيرة كنت (الدرجة 107 غرباً). وتم التخلي تماماً عن فكرة وجود ممر شمالي غربي، يقع جنوب الدرجة 68 شمالاً، على إثر سلسلة من العمليات الاستكشافية، التي شملت الطرق البرية التي توصل إليها كل من هيرن وكوك واستكشاف السواحل الجنوبية لكولومبيا البريطانية بمعرفة جورج فانكوفر سنة 1792م، وعمليات استكشاف ساحل أمريكا الشمالية من جنوب نهر كولومبيا وحتى رأس الجليد والتي قام بها كوك. وإن كان ثمة ممر، فلا بد أنه يقع إلى الشمال من سواحل أمريكا الشمالية التي تم استكشافها بالكامل، هناك في منطقة مجهولة.

(*) وقد شهدت هذه الفترة تخصيص جائزة ثانية مقدارها 5000 جنية استرليني لأول سفينة تتمكن من الإبحار في نطاق الدرجة 1 من القطب الشمالي. علاوة على جائزة ثالثة كانت قيمتها 5000 جنيه استرليني ايضاً، لاول سفينة تبحر عبر الدرجة 110 غرباً حيث إنه كان قد أصبح من الممكن تحديد خطوط الطول بشكل صحيح. وكان لدى كوك واحدة من الساعات التي اخترعها جون هاريسون ولاستخدامها في تحديد خطوط الطول بشكل دقيق، غربي خط جرينتش. وكان كوك يسميها «مرشدنا الذي لا يخطأ ابداً» وكان قد تم اعتماد ساعة الكرونوميتر التي اخترعها هاريسون من قبل قيادة البحرية البريطانية. ولكن تعين على هاريسون الذي كان يعمل صانع خزانات، الانتظار لمدة سبعة وثلاين عاما كي يحصل على جائزته (20,000 جنيه اخرى). حيث لم يصدق احد أن حل هذه المشكلة الكبيرة يمكن ان ياتي على يد رجل عادي مثله.



الممر الشمالي الغربي: لتجاوز مساحات الجليد المتكسر في وسط خليج بافن، يتعين على السفن الوصول إلى مضيق لانكستر من جهة الشمال الغربي. والطريق البديل يمر إلى الغرب عبر مضيق بارو وخليج فيسكونت مالفيل.

ومع مرور الوقت، تغيرت دوافع استمرار البحث عن الممر في جهة الغرب (لم تتجه عمليات البحث إلى الشرق، لأنه كان يعتقد أن الجليد في مناطق شمال روسيا كثيف وقاس للدرجة التي لا يمكن معها اجتيازه). ومع حلول عام 1820م، لم يعد هناك من ينادي بالجدوى الاقتصادية لمثل هذا الممر. وقد أشار ويليام سكورسبي إلى هذا الوضع بجلاء في مؤلفه «سجلات المنطقة القطبية الشمالية» قائلاً: «يتميز الجليد في هذه المناطق بالتغيير الكبير من عام إلى آخر، كما أن خطوط العرض مرتفعة للغاية، والفصول قصيرة جداً. بيد أن احتمالات التوصل إلى معارف جغرافية جديدة، وإمكانيات القيام بدراسات علمية في المناطق القطبية الشمالية، وتوسيع مداركنا في مجال التاريخ الطبيعي، بالإضافة إلى الرغبة في إشباع فضولنا، والفرص المحدودة في العثور على مناجم، كانت أسباباً كافية للإبقاء على قدر من الاهتمام بالعثور على الممر».

وأخيراً، وبعد انتهاء الحرب مع فرنسا في سنة 1815م، أصبح في مقدور السير جون بارو، السكرتير الثاني لقيادة البحرية البريطانية، ومؤسس الجمعية الملكية الجغرافية أن يحول كل اهتمامه إلى محبوبته: الجغرافيا، وعلى وجه التحديد إلى قضية الممر. وحيث إنه كان يتمتع بصلاحيات مكنته من إرسال سفن البحرية البريطانية، وضباطها في الرحلات الاستكشافية التي خطط لها، فقد بدأ جهوده في هذا الاتجاه، وهو مغمور بإحساس بمدى أهمية الهدف الذي يسعى إليه، وكان يزدري أي دوافع أخرى مهما كان أساسها. فعلى سبيل المثال، انتقد الهيمنة التي تتمتع بها شركة مضيق هدسون في المناطق القطبية نقداً لاذعاً، ووصف وضع الشركة بأنه «وضع لا يقبله العقل أو المنطق»، كما تميز بارو أيضاً بالسذاجة التي ميزت غيره من الإنجليز لعدة أجيال، والتي تمثلت في تقديم الرتبة العسكرية، والمكانة الاجتماعية على الخبرة العملية.

وربما كان سكورسبي، وهو صياد الحيتان المحنك، يحتفظ في داخله بنفس التعالي الذي كان يميز بارو. ففي سنة 1820م، اعترض سكورسبي بأدب مشيراً إلى الحاجة إلى توافر عنصر الخبرة في أثناء الملاحة في البحار الجليدية بين ضباط البحرية البريطانية، الذين يشكلون أطقم المهام التي خطط لها بارو، وقد كتب سكورسبي في هذا الموضوع قائلاً: «مهما كان عمق القدرة على تقدير الأمور، ومهما كان علو الموهبة التي يتمتع بها الفرد، فإن ذلك لا يعوض عن ضرورة وجود عنصر الخبرة العملية». وبالطبع، قرأ بارو هذه الكلمات إلا أنه لم يلتفت إليها بشكل جدي، وعلى مدى

السبعة والعشرين عاماً التي قاد فيها أنشطته في المناطق القطبية الشمالية، لم تحدث كوارث كبيرة - باستثناء واحدة - يمكن وصفها بأنها نتيجة لهذا التجاهل، لكنها لا تعني شيئاً بالنسبة لهؤلاء الذين وصفهم سكورسبي بالساعين إلى «الشهرة الأبدية» في المناطق القطبية الشمالية.

ومما لا شك فيه، أن الصيادين قد وصلوا إلى السواحل المقابلة لنيوفوندلاند قبل وصول كابوت إليها، وأنهم سبقوا فروبيشر إلى الخليج الذي سمي باسمه، وأنهم ارتادوا مضيق هدسون، قبل هدسون نفسه، وكذلك الأمر بالنسبة لخليج لانكستر الذي وصلوا إليه قبل روز. إلا أن الذي حدث هو أن هولاء الرجال قد تنحوا بعيداً بما فيه الكفاية، ليفسحوا الطريق أمام «النبلاء» ليقوموا باكتشافاتهم، ثم عادوا إلى ممارسة الصيد مرة أخرى. فقد كان على صيادي الأسماك والحيتان أن يحتفظوا بمعارفهم الجديدة لأنفسهم، كما كان تعاملهم محدوداً مع الطبقات الاجتماعية والفكرية التي تضم رجالاً يمكن أن تعني تلك المعارف بالنسبة لهم دفعة سياسية إلى أعلى، أو تساعدهم على تحقيق مكانة اجتماعية أرقى.

ونظراً إلى أنه في أغلب الأحوال لم يكن هناك اختلاط بين رسامي الخرائط والصيادين العاديين، فقد كان لدى كل جماعة منهم أفكارها الخاصة عن وضع الاستكشافات في المناطق القطبية الشمالية. ففي عام 1652م، التقى جوزيف موكسون وهو رسام خرائط إنجليزي كان يعيش في مدينة امستردام، ببحار هولندي في إحدى حانات المدينة حيث كان يدور حديث بين البحار وبعض من رفاقه، ولم يستطع موكسون أن يمنع نفسه من الاستماع للحديث الدائر، فقد قال البحار الهولندي إنه كان يعمل على متن سفينة تقوم برحلات مكوكية، لنقل دهن الحوت من سبيتسبيرجن إلى الجنوب في أثناء موسم الصيد، ونظراً إلى أنهم قد وصلوا مبكراً ولم يتمكنوا من استكمال كل حمولة السفينة، فقد قرر قبطان سفينتهم انتهاز فرصة أن المياه مفتوحة، وأبحر إلى الشمال. وأضاف البحار أنه يعتقد أنهم استمروا في الإبحار إلى ما وراء القطب المتجمد الشمالي وصولاً إلى الدرجة 20. وأخذ صيادو الحيتان الذي ينطلقون من سبيتسبيرجن في سرد حكاياتهم عن مثل هذه الرحلات إلى ما وراء درجة 80 شمالاً. ومما لا شك فيه أن البحار الذي سمعه موكسون كان مخطئاً، إلا أنه كان في إمكان بعض سفن صيد الحيتان الوصول إلى الدرجة 83 شمالاً. إذا كانت ظروف الجليد مواتية. وقد دهش موكسون لعدم نشر هذه المعلومات. وعلى

الجانب الآخر، كان من الواضح أن البحارة قد تعجبوا من اهتمام موكسون بالموضوع.

ولم يقتصر الأمر على ندرة التواصل بين المجموعات ذات الخلفيات المهنية والاجتماعية المختلفة، بل إن الطبقات الاجتماعية العليا، كانت تتعامل مع الملاحظات الميدانية التي يبديها صيادو الحيتان والبحارة البسطاء، على أنها غير ملائمة لأغراض التطوير العلمي، وغير مفيدة بالنسبة لرجال السياسة والتجارة ذوي الثقافة الرفيعة. وقد أدى هذا السلوك الفظ إلى عدم وجود قاعدة مشتركة لفهم المناطق القطبية الشمالية، الأمر الذي تمخض بدوره عن مشكلة ثانية، تمثلت في استمرار سيطرة الأفكار والمعارف التي تفتقر إلى الإثبات العملي، والتي كانت تروج لها المجموعات ذات المصالح الخاصة. وقد ظلت معارف كل من رسامي الخرائط، والبحارة، وقباطنة سفن صيد الحيتان، وجماعات الأسكيمو، وضباط البحرية البريطانيين منفصلة بعضها عن بعض؛ بسبب الاحتقار والتعالي، وبفعل السياسات الاجتماعية التي تقسم الناس على أساس تعليمهم، وأعراقهم، والطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها، وجنسياتهم. وعلى الرغم من أن هذا النمط من عدم التسامح قد ميز حياة البشر لوقت طويل، إلا أنه من الموسف حقاً أن هذا السلوك قد تسرب إلى مجال المعارف الجغرافية على وجه التحديد. فليس من حق طبقة واحدة أو حضارة واحدة أن تتظاهر بأنها تعرف كل شيء عن الأرض.

ولقد تجلت تلك المسافات الشاسعة، التي تفصل بين سكان المناطق القطبية الشمالية، وطموحات وآمال رجال الصناعة والمخططين الاجتماعيين، في المراحل الأولى لعمليات استكشاف هذه المناطق. ففي الماضي، كان الصيادون من مدينة برستول البريطانية يعتقدون أن الرحلات الاستكشافية الأولى، التي قام بها كابوت لا تعدو كونها امتدادا آخر لدرب من دروب «التسلية الملكية»، في حين كان الضباط البريطانيون يعتقدون أن البحار البسيط على درجة من الغفلة وصغر السن تبرر تجاهل ملاحظاته بشأن الملاحة عبر الجليد.

ويحتفظ تاريخ المناطق القطبية، وعلى وجه التحديد الجانب الاقتصادي منه، الذي تميز بكثرة الاختلافات في وجهات النظر، بمكانة مرموقة لرجال من أمثال سكورسبي وذلك لعدة أسباب منها: أن سكورسبي على سبيل المثال، كان يتمتع بخبرة عملية عريضة اكتسبها من عمله قبطاناً لسفن صيد الحيتان في المناطق القطبية الجنوبية، وقدم العديد من الملاحظات العلمية المنزهة عن الهوى،

كما أنه كان قد تلقى تعليمه في كمبريدج، وكان يتميز باحترامه لأفكار الآخرين. ولا تزال ندرة مثل هذه الشخصيات واضحة في المجالات العلمية، والتجارية، والشؤون العامة للمناطق القطبية الشمالية، تماماً كما كانت أيام سكورسبي. وللأسف فإنه في بلد يتعرض فيه مستقبل منطقة بأكملها للخطر، نجد أن الحواجز العرقية والاجتماعية والفكرية لا تزال قائمة، ولا تتمكن العقول الجيدة فيها من الالتقاء ببعضها بعضاً بما فيه الكفاية.

* * * * *

وقد كان جون بارو في غاية التصلب، ولا يعير اي انتباه لآراء الآخرين فيما يتعلق بالأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها في المناطق القطبية الشمالية، والتي تمثلت في تجميع دقيق ومكثف للمعارف العلمية الخاصة بالمنطقة، حيث كانت آماله كلها تتركز في تحقيق مشاريعه، والتميز والشهرة لكافة المشاركين فيها، كما لم يغب عنه أبداً تدعيم المكانة المرموقة للإنجليز على مستوى العالم. وفي عام 1818م أرسل أربع سفن إلى الشمال، وكانت كلها متطورة من حيث التجهيزات والمعدات والقدرة على التعامل مع الظروف البحرية القاسية، مقارنة بالسفن التي أبحر بها كل من ديفز وبافن. وكانت أطقم هذه السفن تضم بين عناصرها ملاحين، ومجندين، وأطباء، علاوة على مجموعات من المتخصصين في تشغيل التشكيلة الواسعة من المعدات العلمية التي نصبت على متن تلك السفن، والتي اشتملت على باروميترات، وأجهزة كرونوميتر، وأجهزة للأفق الاصطناعي، وأدوات قياس المساحة (المزواة)، وبندولات، وزجاجات لجمع عينات المياه، وعدة أنواع من الترمومترات. (وكنوع من الموافقة المتعالية على ما أشار به سكورسبي من أهمية عنصر الخبرة، تم تزويد أطقم السفن بملاح وتابع له من البحارة الذين عملوا في مصايد الأسماك بالقرب من سبيتسبيرجن، وكان الأول يطلق عليه في بعض الأحيان «ملاح الجليد»).

وقد أبحرت السفن الأربع في شهر أبريل، حيث انفصلت إلى مجموعتين في شمال الأطلنطي، وكلهم ثقة أن يلتقوا مرة أخرى في المحيط الهادئ. واتجهت السفينتان «دورثا» و«ترنت» شمالاً إلى سفالبارد. في حين اتجهت السفينتان «إزابيلا» و«الكسندر» إلى خليج بافن. وقد تعرضت

السفينتان «دورثا» و «ترنت» إلى تلف جسيم بفعل العواصف الثلجية العاتية وكتل الجليد المتكسر التي اعترضت طريقها، واضطرتا للجوء إلى خليج مجدلينا وإلى فير هافن في سبيتسبيرجن لإجراء الإصلاحات الضرورية قبل الإبحار إلى إنجلترا. أما «إزابيلا» و «الكسندر» فكانتا تحت قيادة السير جون روس والملازم ويليام بيري وأبحرتا عبر مضيق ديفيز بصحبة نحو أربعين من سفن صيد الحيتان، ودخلتا إلى خليج ميلفيل، حيث أطلقا عليه هذا الاسم، ثم تابعا الإبحار إلى أقصى نقطة وصلتا إليها شمالاً، عند المدخل الجنوبي لمضيق سميث. وعلى ساحل جرينلاند قابلت السفينتان مجموعة من أسكيمو القطب المتجمد الشمالي، ومن خلال مترجم كان قد التحق بالحملة من جنوب جرينلاند، دار واحد من أكثر الأحاديث بقاء في الذاكرة. وفي أثناء اللقاء استدار أحد أفراد جماعة الأسكيمو نحو السفينة إزابيلا وتحدث إليها قائلاً: «من تكونين؟ ماذا تكونين؟ من اين أتيت، من الشمس أم من القمر؟».

وقد اعتقد روس أن مضيق سميث لا يشكل أي احتمالات جيدة لأهداف الرحلة، لذا أبحر نحو الغرب والجنوب، مستكشفاً داخل مضايق جونز ولانكستر، وعن المضيق الأخير، كتب روس قائلاً إنه مجرد خليج مغلق بسلسلة من الجبال (ولم يقدم أي من الضباط تأكيداً لهذه الملاحظة، ومن المستحيل معرفة السبب الذي دفع روس إلى الإصرار على رأيه هذا والذي أدى إلى تقويض مستقبله المهني). وفي أثناء الإبحار جنوباً بمحاذاة الساحل الشرقي لجزيرة بافن، أكد الضباط دقة وكمال كتابات بافن التي أثارت قدراً كبيراً من الجدل، وكذلك خرائطه التي أخفيت لفترات طويلة، ثم اكتشفوا خليج بوندز وأطلقوا عليه هذا الاسم. (وقد أدت التقارير التي أوردتها هذه الرحلة بشأن الحيتان، التي تكثر في المياه الغربية الجديدة إلى تدفق سفن صيد الحيتان بأعداد كبيرة على هذه المنطقة من خليج بافن في السنوات التالية).

وعند العودة إلى إنجلترا، اضطر باري الحكيم برغم عناده، إلى الإعلان عن أنه لا وجود لسلسلة الجبال التي قال روس إنها تسد مضيق لانكستر وأن هذا هو الطريق الذي يتعين أن تسلكه قيادة البحرية في متابعة بحثها عن الممر.

وتعتبر الرحلة التي قام بها باري إلى مضيق لانكستر في السنة التالية، من أكثر الرحلات جدارة بالاحترام، ناهيك عن كونها الأكثر نجاحاً بين كافة الرحلات، التي تمت إلى المناطق القطبية

الشمالية. فبعد سنتين من الاستعدادات، غادرت السفينتان الملكيتان «هكلا» و «جريبر»، إنجلترا في فصل الربيع باتجاه (رأس الوداع) كيب فيرويل. وقد كانت السفينة «جريبر»، وهي في الأصل مدمرة، «تتهادى» في سيرها إلى أن تعرضت لأول رياح، حيث تعين قطرها معظم الطريق، حتى لا يضيع كثير من الوقت على الحملة. وفي أثناء الرحلة، كان باري يقوم بإلقاء زجاجة محكمة الإغلاق مثبت عليها علم أبيض، وتحتوي على ملاحظة تحدد موقع السفينة، وبعض الملاحظات العلمية، وتطلب ممن يعثر عليها (بست لغات مختلفة) أن يوصلها إلى قيادة البحرية البريطانية مع توضيح كيفية ومكان العثور عليها. وعند النقطة 57 شمالاً و 30 غرباً، اقتربوا من الشاطئ عند أرض بوس الخلابة، التي أشار إليها بحارة السفينة «إيمانويل» عام 1578م. وفي أثناء دخولهم إلى مياه تيار شرق جرينلاند، عبوراً من مياه شمال الاطلنطي الزرقاء الصافية، إلى المياه العكرة في مياه ممرات الجليد، وعند الوصول إلى كيب فيرويل شاهدوا الأسراب الهائلة للعديد من الطيور البحرية مثل طيور اللوم (المو ذو المنقار الغليظ) وببغاوات جرينلاند (طيور البفن الأطلسي)، ودجاج الأم كاري (طائر النوء)، وحمام البحار (طائر الغلموت الأسود) وسنونو جرينلاند (طائر الخرشنة القطبي). وفي مضيق ديفيز، تمكن بعض البحارة من قتل أحد حيوان الفظ، وقام مساعد طبيب السفينة «هكلا» ويدعى الكسندر فيشر بتشريحها بدقة. وقد أثارت قوة هذا الحيوان دهشة البحارة الذي قاموا باصطياده. فقد تمكن من كسر رأس الرمح الذي كان قد اخترق أذينين في قلبه، واستمر في مقاومتهم بضراوة لمدة عشر دقائق، على الرغم من إصابته تلك، كما قام البحارة أيضاً بالنزول إلى اليابسة، وهناك قتلوا عدداً من الدببة القطبية، التي قام فيشر بفحصها ووصفها بدقة.

وبعد ذلك حاصرتهم الثلوج لفترة قصيرة، في أثناء تقدمهم البطيء عبر مساحات الجليد المتكسر في وسط مضيق بافن إلى أن دخلوا مضيق لانكستر، متقدمين بأكثر من شهر على الموعد الذي كانوا قد دخلوا فيه المضيق سنة 1818م. وفي هذه الأثناء لم يكن هناك جليد على مرمى البصر، كما لم يكن هناك أيضاً نهاية واضحة للخليج من ناحية الغرب. وقد أوضح أحد الضباط في سجله أنه على الرغم من اختلاف الجميع تقريباً مع ملاحظات روس بشأن وجود جبال في هذا المكان، إلا أن أحداً لم يتمكن من إخفاء سعادته الداخلية لاحتمال أن تكون المياه مفتوحة هنا.

ومرة أخرى، أوقف الجليد تقدمهم في غرب مضيق لانكستر، وقد استغل باري هذا التوقف

وقام بالاستكشاف في الاتجاه الجنوبي، في خور الأمير ريجنت قبل أن يتقدم باتجاه الغرب. وفي الحادي والعشرين من اغسطس، أصيب الجميع بالدهشة عندما شاهدوا جزءاً طافياً من شراع مكسور. ترى هل وصل أحد قبلهم إلى هذا المكان؟ كلا - فقد تذكر أحد البحار أن هذا الجزء قد سقط من سفينتهم عند استدارتهم نحو الجنوب متوجهين إلى خور الأمير ريجنت. وقد حقق باري تقدماً مدهشاً في جهة الغرب مثل فيرازانو منذ 300 عام، وكوك في مضيق بيرنج. وقد تمتع بارو بطقس رائع وظروف مواتية للإبحار، وبالقرب من نقطة فيل فوت في جزيرة ديفون، تمكن أحد الضباط، وهو في غاية السعادة من تخمين اتجاه وبعد رأس الجليد وفي أثناء إبحارهم في هذه المنطقة قابلتهم أسراب كبيرة من الدلافين البيضاء التي توقع باري أنها قادمة من مصب نهر ماكينزي، وهو ما عدّه دلالة على أن المياه المفتوحة أمامهم. وعند مشاهدتهم لهذه الكائنات البحرية الضخمة، نزل البحارة في قواربهم ليستمعوا إلى أنشودة الحيتان، وهي أصوات تصدرها هذه الثدييات البحرية، تشبه الصوت الناتج عن «تمرير إصبع مبتل على حافة قدح زجاجي».

وفي الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة من مساء الرابع من سبتمبر، عبرت السفينتان خط التنصيف (الخط الذي يقسم الكرة الأرضية طولاً إلى قسمين) عند درجة 110 غرباً، مستحقة بذلك الجائزة المقدمة من قيادة البحرية لأول سفينة تحقق هذا الإنجاز. وفي أثناء هذه المرحلة من الرحلة كان باري يطلق اسماً على جزيرة جديدة أو رأس يكتشف لأول مرة كل ساعة تقريباً، وقد توقف عدة مرات لفترات من الوقت عند العديد من النقاط، حيث نزل رجاله إلى الساحل واكتشفوا بعض الأطلال البدائية (ربما تلك التي تعود إلى حضارة دورست) وأحضروا معهم بعض جماجم ثيران المسك، كما وجدوا أيضاً سناً لأحد حيوانات النرول في أثناء توقفهم عند جزيرة بيام مارن.

وفي أثناء مراقبته لصندوق البوصلة، لاحظ باري أن إبرة البوصلة تتمايل ببطء من دون أن تستقر على اتجاه محدد، لذا خمن - وكان تخمينه سليماً - أنه قد تجاوز في إبحاره القطب المنغناطيسي. وفي التو، أمر بإزالة البوصلة من قمرة القيادة، وقرر الاعتماد على الملاحة الفلكية. وفي أثناء تلك الأيام الأولى من شهر سبتمبر، وبينما هم يبحرون بمحاذاة ساحل شبه جزيرة دونداس في جزيرة ميلفيل بدأت أحوال الطقس في التدهور، وبدأ الجليد يطبق عليهم، فاستشعر بارو نهاية العام بالنسبة لهذه الرحلة. وفي السابع عشر من سبتمبر وصلوا إلى أقصى نقطة استطاعوا الوصول إليها

غرباً عند الإحداثيات 51 ˚112 غرباً، ثم استداروا عائدين لمسافة ٥٠ ميلاً بمحاذاة الساحل، إلى أن وصلوا إلى نقطة أطلقوا عليها «المرفأ الشتوي»، ومنها إلى «الملاذات الشتوية».

وبسرعة أطبق عليهم الشتاء، واضطر الرجال إلى شق قناة طولها 408 ياردات بعرض 35 ياردة عبر جليد بلغ سمكه سبع بوصات، حتى تتمكن السفينتان من الوصول إلى المياه الآمنة في المرفأ، حيث ألقتا مرساتهما في رقعة من المياه يبلغ عمقها خمس قامات (نحو ثلاثين قدما) تبعد عن الشاطئ حوالي 500 قدم، وعلى بعد 120 قدماً كل منها عن الأخرى.

وتم بناء كوخ على الشاطئ، وقام الضابط العلمي للحملة إدوارد سابين بتركيب معداته وأدواته فيه، وتم الربط بين السفينتين والكوخ بحبال. وبعد حادثتين اقتربتا من حد الكارثة، (ترتب عليهما بتر أصابع من أيدي وأقدام بعض الرجال من جراء عضة الجليد) أصدر باري أوامره بعدم التجول بعيداً عن السفينتين.

وكان باري ذلك المستكشف الفريد من نوعه، والذي بلغ عامه الثامن والعشرين في أثناء الرحلة، قد استعد جيداً لقضاء فصل الشتاء في هذا المكان، حيث أخرج الأقمشة السميكة التي كانت موجودة معه على السفينة، ونشرها باستخدام القوائم الموجودة على السفينتين، بحيث أصبح السطح بأكمله مغطى، وفي مأمن من الأحوال الرديئة وصالحاً للعمل. وفي الخامس من نوفمبر، قام أفراد الطاقم بتمثيل مسرحيتي «آنسة في سنوات المراهقة»، و«لحن العشاق»، كما قاموا أيضاً بتمثيل العديد من المسرحيات الهزلية المشابهة خلال فصل الشتاء، وفي نهاية هذا الموسم المسرحي كان يتم إعادة عرض مسرحية «آنسة في سنوات المراهقة». وبناء على تعليمات بارو قام أحد أفراد الطاقم ويدعى سابين بتحرير ونشر جريدة أسموها «نورث جورجيا جازيت أند وينتر كرونيكل» (جريدة جورجيا وحوليات الشتاء) وقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة في الأول من شهر نوفمبر، واستمرت في الصدور بانتظام كل يوم اثنين لمدة اثنين وعشرين اسبوعا(*)، وتضمنت العديد من المقالات والقصائد التي أعدها بيتير براي، وجون سلندر برين، وغيرهم، كما طرحت بعض الآراء المتعلقة بمختلف القضايا فيما يسمى «محكمة الذوق العام». وتوضح القراءة

(*) قام باري بتسمية أول مجموعة من الجزر تقع إلى الشمال من قناة باري باسم جورجيا الشمالية على اسم الملك جورج الثالث، ليفرق بينها وبين جزر جورجيا الجنوبية في المناطق القطبية الجنوبية. وتعرف جزر جورجيا الشمالية حالياً باسم جزر باري.

المتانية لأعداد هذه الجريدة أن عدداً من الضباط لم يحفل بهذا العمل، وأن نكاتاً لاذعة قد أطلقت على هؤلاء الذين أحجموا عن المشاركة.

وبعد أسابيع قليلة في هذا المكان، أصبحوا لا يرون أياً من الحيوانات إلا نادراً. وكان رأي بارو أن حيوانات الرنة، وطيور الترمجان، وغيرها من المخلوقات، تنتقل على الجليد إلى أمريكا الشمالية لقضاء فصل الشتاء هناك، وأن الذئاب والثعالب هي التي تبقى في المنطقة. وقد تمكن الرجال من الإمساك بأحد الثعالب. واحتفظوا به كحيوان أليف وأسموه «جاك»، وروضوه إلى أن أصبح يقبل الطعام من أي يد. وقد حدث نوع من الاتصال بين الكلاب التي كانت بحوزة الحملة والذئاب التي تعيش في الجوار. وذات مرة خرج أحد هذه الكلاب وكان يدعى «كارلو»ولم يعد ثانية. كما حدث أيضاً ذات مرة أن اشتبك كلب باري الخاص مع أحد الذئاب، وانتهت المعركة بخروج الذئب بإصابات كثيرة.

وقد عاش الضباط ورجالهم في قدر معقول من الراحة، فالخبز كان يعد يومياً، وكانوا يقومون أيضاً بإعداد الجعة الطازجة (إلا في الأوقات التي يمنع فيها البرد عملية التخمر). وكان بخار الماء المتكثف بفعل التنفس وعمليات الطهو يتجمد على الجدران والنوافذ، وتعين إزالته بصفة منتظمة، في حين كانت ملابسهم تجف بصعوبة بعد غسلها. أما أماكن النوم، فكان يتم تبخيرها أسبوعيا باستخدام البارود والخل، كما كانت تصرف لكل رجل شمعة واحدة طولها ست بوصات كل ستة أيام.

وكانت هناك ثلاثة أشياء تسبب القلق لـباري ورفاقه من الضباط، أولها الخوف من داء الاسقربوط، ذلك الرعب القطبي القائم، وثانيها الفراغ والكسل الذي كانوا يعتقدون أنه يساعد على الإصابة بذلك المرض، وثالثها القلق بشأن مصيرهم، وقد أوضحوا في سجلاتهم الخاصة مدى خوفهم على عائلاتهم، وخشيتهم أن يكونوا قلقين جداً عليهم.

وبصفة منتظمة، كان يتم فحص الرجال للكشف عن أي عرض للإصابة بالاسقربوط. ووقاية من الإصابة بهذا الداء اللعين، كان كل رجل يحصل على كمية محددة من عصير الليمون المحلى بالسكر في كل صباح، وللتعامل مع الحالات التي تحتاج قدراً أكبر من الرعاية، كان بارو قد قام بزراعة بعض نباتات الخردل بالقرب من أنابيب الموقد في غرفته. وكان يتعين على جميع الرجال

ممارسة التمارين الرياضية كل يوم، سواء على ظهر المركب أو على اليابسة، إذا كان الجو يسمح بذلك، وكان لكل رجل مهمة يومية يتعين عليه أن ينجزها، وقد كانت هذه الأعمال من الكثرة لدرجة أن الرجال كانوا يشكون من ذلك، وهو ما أسعد باري كثيراً.

وفي المساء كان الضباط يجتمعون للقراءة والاستماع إلى الموسيقى، فيقوم باري بالعزف على آلة الكمان، فيما يتولى واحد من الضباط العزف على آلة الناي. وفي أيام الآحاد كانوا يقيمون الصلوات.

وعلى الرغم من رتابة الحياة التي كان هؤلاء الرجال يحيونها، فقد كان الالتزام العام مبعثاً للسعادة، ذلك أن الجميع كانوا مدركين للمخاطر والصعوبات التي تكتنفهم، والتي يمكن أن تنال من أكثر القلوب جسارة.

وكي يسري الرجال عن أنفسهم في الخارج، كانوا يصنعون البراميل من الجليد، ويستخرجون الشحوم من الحيوانات التي اصطادوها في أثناء فصل الصيف لاستخدام زيوتها في الإضاءة في هذا الشتاء القارص. وقد قام العديد منهم بجولات بعيدة سيراً على الأقدام في مناطق وصفوها بأنها يكتنفها نوع من السكون، الذي يختلف كثيراً عن هذا الهدوء الذي يميز المناطق الزراعية الهادئة، فهو سكون أشبه بالموت والوحدة والعزلة المرعبة، مع غياب تام لأي شكل من أشكال الحركة. وقد كتب باري عن المتعة التي يمكن أن يجدها المرء من إمعان النظر في حجر ملقى بين الجليد، والراحة التي يحملها ذلك المشهد للعين، ومدى روعة أن يتمكن المرء من سماع شخص يبعد عنه بمسافة تزيد عن الميل، وهو يغني مع نفسه، وصوت الفرقعة الناتج عن تشقق الأخشاب، حين تضرب العواصف السفينة.

وكم كان الرجال تواقين إلى عودة الشمس إلى الظهور، وحين كانت التوقعات تشير إلى احتمال ظهور ضوء الشمس مبكراً بسبب انكسار الضوء، كانوا يقومون بالمراقبة المستمرة لظهور الضوء من على قمة الصاري الرئيسي للسفينة «هكلا». وكان الثالث من فبراير، هو اليوم الموعود، فقد أتيحت الفرصة لمجموعة من البحارة مشاهدة الشمس – عشر دقائق لكل واحد – من المأوى الصغير الموجود على قمة الصاري، وكان ذلك في تمام الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة بتوقيت المرفأ الشتوي.

وفي الثالث عشر من فبراير، تلقى اثنان من البحارة ستاً وثلاثين جلدة عقاباً على سكرهم. وفي الرابع عشر من الشهر نفسه، كانت درجة الحرارة قد وصلت إلى 55 فهرنهايت، فقام السيد / فيشر بسكب قدر من الماء باستخدام مصفاة صغيرة من ارتفاع أربعين قدماً على صاري السفينة «هكلا» ليرى إن كانت ستتجمد قبل أن تصل إلى سطح السفينة أو لا. وفي العاشرة والربع من صباح الرابع والعشرين من فبراير، أمسكت النيران ببعض الملابس التي نشرت لتجف بالقرب من الموقد في كوخ الملاحظة الخاص بالسيد سابين على الشاطئ، وامتدت النيران إلى الكوخ. إلا أنه تم إخماد الحريق بسرعة. كما أن أحد الرجال فقد أصابع من يديه بسبب «عضة الجليد» في أثناء محاولته إنقاذ بعض الآلات العلمية الموجودة في الكوخ. كما احترق طائر النورس الذي كان يُحتفظ به كطائر اليف. وتم تأبينه بالشكل المناسب في العدد التالي من الجريدة الأسبوعية للحملة!.

ثم جاء شهرا مارس وأبريل، ولم ينكسر البرد القارص، وتعرض الرجال للمعاناة نفسها التي يتعرض لها من يتعين عليه قضاء الشتاء في أقصى شمال إنجلترا، وهم يتطلعون إلى عودة قدر من الدفء الذي يصاحب ظهور الشمس وإرهاصات الربيع. وفي التاسع من أبريل أكمل باري رسمه للأقواس والهالات الشمسية. وفي السادس عشر من الشهر نفسه، ظهرت هالة شمسية رائعة الجمال، حين بدأت طبقة خفيفة ناعمة من السحب تحت الشمس تتكون من تشكيلة رائعة لا يمكن تخيلها من لون أخضر خفيف مائل إلى الزرقة، محاط بلون أصفر ساطع. وفي السادس من شهر يوليو ظهر قوس قزح ثلاثي(*).

ولم يكن باري قد خطط للبقاء لمثل هذه المدة الطويلة، وبدأ يقلق بشأن موعد رحيلهم، وفرصتهم في الوصول إلى رأس الجليد قبل حلول فصل الخريف. وقرر باري أن الأمور يمكن أن تسير بشكل جيد، إذا تمكن من المغادرة قبل نهاية شهر يونيو. وفي شهر مايو بدأ الرجال بتغطية وجوههم بأقمشة خفيفة وداكنة لتجنب العمى الجليدي، وفرحوا أشد الفرح عند رؤيتهم لأول مساحة غير متجمدة من المياه على سطح السفينة. وفي الرابع والعشرين من شهر مايو أمطرت السماء. إلا أن الجليد استمر على صلابته نفسها، ولم تظهر عليه أي علامة من علامات الضعف أو

(*) في حين يظهر كل من قوس قزح الأول وقوس قزح الثاني عند 180° من الشمس، يظهر كل من القوسين الثالث والرابع، حول الشمس، ومن الصعب رؤيتهما. والذي شاهده باري وظن أنه القوس الثالث، هو في الواقع المستوى الخامس من انكسار ضوء الشمس.

الذوبان.

وفي الأول من شهر يونيو، خرج باري برفقة أحد عشر من ضباطه ورجاله، للاستكشاف شمالاً وغرباً، وقد حملوا نحو 800 رطل من المؤمن والمعدات على عربة صغيرة قام الرجال بجرها، بعد أن ثبتوا عليها شراعا لمساعدتهم في أثناء عبور الأراضي المبتلة أو التي يكسوها الجليد.، وفي أثناء هذه الرحلة الاستكشافية أطلق باري أسماء رفاقه على العديد من الهيئات الجغرافية التي قابلتهم، كما قام أيضاً بجمع عينات جيولوجية، وفحص الرجال أطلال مخيم يعود لجماعات الأسكيمو، وبنوا عدداً من النصب الحجرية، كعادتهم عند الرسو على كل شاطئ، وبالكاد، كان يصل ارتفاع هذه النصب إلى 12 قدماً ولا يتجاوز عرضها عند القاعدة 12 قدماً أيضاً، وغالباً ما كانوا يدفنون أشياء تذكارية بسيطة عند القاعدة، مثل إسطوانة صغيرة من النحاس أو القصدير، كما هو الحال في نصبي دانكن وهول اللذين دفن تحت كل منهما وعاء لتناول الحساء، حفرت عليه أسماء المجموعة التي نزلت إلى الشاطئ في هذا المكان، وفي ذلك التاريخ، ووصف قصير للرحلة، وربما قطعة نقود صغيرة أو أزرار الزي الرسمي لأحد الضباط.

وفي الخامس عشر من شهر يونيو عاد الرجال إلى السفينتين من دون أن تبدو أي مؤشرات على قرب انفراج الموقف واضطر باري إلى إرسال مجموعات لصيد الإوز البري، والرنة، وثيران المسك، وطيور الترمجان، بهدف تأمين اللحوم لرجاله، ويومياً كان يرسل أفراداً من الطاقم لجمع نبات الحماض.

وأخيراً، وفي الأول من شهر اغسطس، تمكنت السفينتان من الإبحار خروجاً من المرفأ الشتوي واتجهتا إلى رأس الجليد مرة أخرى، ولم يتوغلوا إلى الغرب أكثر مما فعلا في العام السابق، فقد كان من المستحيل اختراق مساحات الجليد المتكسر في مضيق ماكلور، الذي بلغ سمكه في بعض الأحيان حوالي 42 قدما. وفي السابع من شهر أغسطس، لمح البحارة شاطئاً بعيداً إلى الجنوب الغربي منهم أطلقوا عليه اسم أرض «بانك» على اسم السير جوزيف بانك الذي كان من أوائل المنادين بوجود الممر الشمالي الغربي، والذي افترض بارو وجوده أيضاً سنة 1815م.

وتحسباً لاحتمال قضاء شتاء آخر، كان باري قد خفض المئونة التي يتم توزيعها على الرجال إلى الثلثين. وقد حاول التقدم باتجاه الجنوب من خلال التوجه إلى الشرق أولاً. وقد استغرقه الأمر حتى

30 أغسطس، ليقرر بأنه لا أمل له في العثور على الممر هذا العام، لذا قرر العودة إلى إنجلترا، وفي طريقه للخروج من مضيق لانكستر خلع على ما يعرف حالياً بجزيرة سومسرت اسم «سومسرت الشمالية» على اسم مسقط رأس الملازم ليدون قبطان السفينة «جربير»، كما خلع على ما يعرف حالياً باسم جزيرة ديفون اسم «ديفون الشمالية» على اسم مسقط رأسه هو. وفي اليومين الرابع والخامس من سبتمبر التقوا بصيادي حيتان، كانوا قد أتوا من ميناء هل، وفي السادس من الشهر ذاته التقوا بأربعة رجال من الأسكيمو بالقرب من خور كلايد وقضوا معهم عدة أيام قبل الإبحار إلى إنجلترا. ولقد كتب باري يصف كيف أنه لم يعمل حساباً لقسوة المناخ ولا لقصر موسم الإبحار. ومع ذلك فقد حقق نجاحاً باهراً، إذ مضى ثمانون عاماً قبل أن يتمكن احد من اكتشاف مثل هذه المساحات الهائلة من الأراضي الجديدة في المنطقة القطبية الشمالية خلال رحلة واحدة، كما أن أحداً لم يحقق مثل هذا الإنجاز من قبل.

وفي الرابع عشر من سبتمبر تعرضت السفينة «هكلا» لعاصفة عاتية ألحقت بها بعض التلفيات، وفي السابع والعشرين شاهدوا من على البعد جزيرة فولا، وفي التاسع والعشرين نزل باري إلى بيتر هيد، واستقلته عربة توجهت به إلى لندن، وهو يحمل معه حقيبة مليئة بالسجلات، والرسومات والمخططات والمذكرات التي أعدها طاقم السفينة وضباطها خلال الحملة «حتى تتصرف فيها قيادة البحرية بالشكل الذي تراه مناسباً». وفي الربيع التالي أبحر باري مرة أخرى للبحث عن مدخل جنوبي لخور الأمير ريجينت، وهو ما أسماه لاحقاً مضيق فيوري وهكلا.

* * * * *

ولقد تأملت في ذلك كله، وأنا أمشي على الشاطئ عند بنجوك، ففي اليوم الذي يلي الاضطراب البسيط في الثلوج يكون في وسع المرء أن يتخيل – وإن كان بشكل غير دقيق – ما فعله بعض هؤلاء الرجال، وهم يتوغلون في الأراضي المجهولة، يوماً بعد يوم. وجال بخاطري منظر برندان وهو يغط في نوم عميق على فراش مصنوع من الأسمال، في بطن السفينة، كما جال بخاطري المستعمرون المنسيون عند فيوردة إريكس في القرن الثالث عشر، وجون ديفيز الذي يضرب به المثل

وهو يبحر في سفينته الصغيرة «إلين». وفي اعتقادي أننا لا نستطيع أن نعيد تمثيل ما تعرضوا له من معاناة ورعب، لأنه ينطوي على إيمان بشيء ما وراء الذات. وكان ديفيز قد كتب عن السواحل الموحشة التي قام بمسحها. ولا بد أن تلك كانت لحظات رائعة تغلبت فيها الرغبة في السمو الروحاني أو الرغبة في فهم ما يلفه الظلام، على المصاعب بأنواعها ودرجاتها كافة. وجال بخاطري كذلك هؤلاء الرجال الذين كانوا في صحبة باري في المرفأ الشتوي. ترى ما هي الأحلام التي راودتهم، والتي لم يدونها أحد، كما لم يحملها باري معه ضمن ما حمل من وثائق لقيادة البحرية في لندن؟ لقد ظلت هذه الأحلام حبيسة في القلوب والعقول. ومثل هذه الأحلام هي التي تعطي للحياة معنى، وهي تحكي عن نوايا الأشخاص الذين شاءت أقدارهم أن يشاهدوا تلك السواحل.

الفصل التاسع

ممر شمالي

لم تكن الأمور كافة على ما يرام في رحلة باري الاستكشافية الأولى، كما يوحي بذلك السجل الذي وضعه عن الرحلة وهو بعنوان «سجل رحلة لاكتشاف ممر شمالي غربي من المحيط الاطلنطي إلى المحيط الهادي»، فقد تضمنت صفحات جريدة «نورث جورجيا جازيت»، التي أصدرها سابين في أثناء الرحلة بعض التلميحات إلى أن ضابط السفينة جريبر، كان قد تم عزله عن بقية أفراد الطاقم. كما أشار تقرير لأحد الأطباء المرافقين إلى وفاة أحد البحارة بسبب إدمانه للكحول، وتعرضه لاضطرابات عقلية شديدة، ومدى قسوة الظروف التي عاشها البحارة في أثناء الرحلة. ففي سجله الخاص بالرحلة، كتب ألكسندر فيشر، مساعد الطبيب على السفينة «هكلا» في يوم 28 فبراير قائلاً: «تم اليوم تلاوة أجزاء من المواد الثانية، والثامنة عشرة والثانية والعشرين من قانون الحرب على متن السفينة، وأعقب ذلك إصدار أمر مطول ركز على خلاف كان قد نشب بين اثنين من الضباط منذ بضعة أيام».

وإذا وضعنا في الحسبان تلك الصورة الناصعة التي يقدمها التاريخ عن رحلة باري هذه، فإن مثل هذه المشاكل الصغيرة، لا يمكن التعامل معها إلا بحسبانها مجرد محاولات سقيمة للاعتراض أو المماحكة، خصوصاً إذا كان التعامل معها، وإخمادها بقدر من القوة أو الصرامة لم يصل إلى حد أن يكون ظاهرة مميزة. وفيما بعد، روعي في الأخبار التي يتم تقديمها إلى العامة عن الحملات الاستكشافية للمناطق القطبية الشمالية، أن تكون موجهة لخدمة غرض معين؛ هو ترسيخ تصور لا يهول المخاطر التي تكتنف الرحلات إلى هذه المناطق، والدور الذي يمكن للإنسانية ان تقوم به فيها. وقد أصبحت المناطق القطبية الشمالية مجالاً مناسباً لبدء حياة مهنية في الخدمة الوطنية، وأخذت الأمم تطري وتتفاخر بالإنجازات التي تحققها بعثاتها الاستكشافية. وفيما بعد تحولت المناطق القطبية الشمالية إلى مجال خصب لتحقيق الانتصارات، والبطولات الشخصية لأفراد مثل روبرت بيري وفريديجوف نانسن وفيلهالمر ستيفنسون. وقد شهد أواخر القرن الثامن عشر حرصاً شديداً على

تحقيق الإنجازات الجغرافية، يضاهي تلك المنافسة التي احتدمت من أجل تحقيق المكاسب التجارية من قبل، كما تميزت هذه الفترة أيضاً بتطور استخدام الصحافة، لأغراض الترويج للرحلات الاستكشافية.

وقد جاء طلب قيادة البحرية بالحصول على كافة السجلات والوثائق الخاصة بالرحلة، انطلاقاً من الرغبة في الحفاظ على صورة ناجحة ومتسقة وملهمة للمشروع، ومن المحتمل أن يكون السير جون بارو هو الدافع نحو هذا التوجه، فقد أعلن من قبل، أن الهدف الأساسي من هذه الرحلات هو، الاستكشافات الجغرافية والعلمية، وأن أي مكاسب تجارية يمكن الحصول عليها من هذه الاستكشافات، يأتي في مرتبة أقل بكثير. وفي سنة 1818م كتب بلهجة تنم عن نوع من التكرم المتعالي «إن بقية الأمم ستستفيد من أي اكتشافات جديدة يتم تحقيقها، دون أن تتجشم لا التكاليف ولا المخاطر التي تكتنف عمليات الاستكشاف».

وفي معرض ضغطه المتواصل للدفاع عن هذه المثاليات المتعالية – والتي عكستها رحلة باري لكن بشكل أكثر جدارة بالاحترام – كتب بارو ذات مرة قائلاً: «إن المعرفة هي القوة». علاوة على ذلك، اجتمعت في أثناء هذه الفترة عناصر عدة أثرت في إنجلترا، التي كانت قد خرجت لتوها من الحروب النابوليونية، ومن بين هذه العوامل، سعي بريطانيا إلى تقوية صورتها على المستوى الدولي، والفرص المتنامية لفرض سيطرة اقتصادية. وحين بدا واضحاً أن روسيا تسير بخطى حثيثة نحو استكمال الاستكشافات، التي بدأتها إنجلترا في المناطق القطبية الشمالية، بذل بارو مساعي ناجحة لمنع حدوث ذلك، حيث كتب ذات مرة قائلاً: «إن التخلي عن البحث عن الممر الشمالي الشرقي، وترك استكمال تلك المهمة لأحد الأساطيل الأجنبية، بعد أن تمكنت سفننا (جيمس كوك في سنة 1778 ووليام بافن في سنة 1616) من تحديد نهايتي الممر، وفتح الباب إليه على مصراعيه، سيكون خطأ فادحاً يقترب من الانتحار الوطني».

وقد لعبت الجهود التي بذلها رجال من أمثال بارو للتأثير في المشاعر العامة دوراً قوياً في صياغة التصور الشعبي لجغرافية المنطقة. بيد أنه ليس من الدقة في شيء، أن نصف ذلك بالمكر أو الخداع، حتى وإن انطوى الأمر على أشخاص تعمدوا التضليل، لتحقيق مكاسب شخصية (وفي الواقع فإن هذا هو الذي حدث بالفعل). ويتشابه هذا الوضع مع ما يحدث الآن، حين تتقدم جهة صناعية ما

بطلب مهذب إلى المستشارين العلميين، من أجل صياغة البيانات البيئية الخاصة بمنطقة ما بطريقة مساعدة. ويشير بعض علماء الجغرافيا من أمثال جون ل. آلان إلى تفسير ما يحدث بأن هناك رغبة قوية في أن يعثر المرء على ما كان يرغب في العثور عليه بالضبط هناك في تلك المناطق، ومن ثم يتم صياغة ما يتم العثور عليه وتحويره، بحيث يتناسب مع الغايات المرجوة أساساً، حتى وإن كان في ذلك قدر كبير من التناقض.

واعتقد أنه من الأهمية بمكان، ألا نغفل الإخلاص الكبير، الذي ميز العديد من تلك المهام. فالرغبة في معرفة المجهول كانت عظيمة، وكذلك السعي إلى إفادة البشر من تلك المعارف الجديدة التي يتم تحصيلها. وعلى أية حال، فإن «إساءة الفهم» تعدّ من فضائل الثقافة الغربية. ويعجز معظم المؤرخين عن تحديد متى وأين تحوّل أفراد من أمثال بارو وروبرت باري من خدمة مجتمعاتهم والسعي لتحقيق المنفعة العامة، إلى تحقيق مصالح شخصية بحتة، تماماً مثل عجزهم عن تحديد متى يمكن لخطط التصنيع الضخمة أن تتجاوز الخط، وتصبح ذات فائدة عظيمة لاقتصاد أمة ما، وليس مجرد مصدر لرفاهية أصحابها والقائمين عليها.

والسفر في المناطق القطبية الشمالية يعني الانتظار. فخطوط المواصلات المحلية تتسم بالبطء وقلة الرحلات، خصوصاً في فصل الشتاء، وعلى امتداد المناطق الساحلية التي يلفها الضباب في أثناء فصل الصيف. وقد يتعين على المرء قضاء بضعة أيام محصوراً في أحد المطارات تحت رحمة شركات الطيران، مكبلاً بوعود بقرب وصول الطائرة. وفي مثل هذه الظروف عادة ما ألوذ بالقراءة عن الاستكشافات الجغرافية، خاصة تلك التي تتناول المنطقة التي أكون فيها. ومن بين الأهداف التي أسعى إلى تحقيقها من قراءاتي هذه، أن أتفهم الوجود الإنساني في مناطق مجردة تماماً من الحياة البشرية. وببطء، ومن خلال هذه العملية تتبدى معانٍ أعمق لأشياء أراها من نافذة الطائرة؛ مثل نصب قائم عند أحد رؤوس الشواطئ في جزيرة كورنواليس، أو حطام سفينة على شاطئ فيوري، أو الساحل المقفر لجزيرة الملك ويليام، حيث لقي الكثيرون حتفهم. وعند رؤيتي أشياء كهذه، تسيطر عليّ عاطفة قوية تجاهها، وتطوف برأسي تأملات كئيبة حول الحسّ التاريخي الذي نستخدمه – بنفس قدر استخدامنا لمكونات التاريخ الطبيعي – لفهم المناطق التي نعيش فيها.

وتشترك هذه المؤلفات والسير الذاتية الخاصة بالمستكشفين، مع الكتابات التاريخية الحديثة في

سيطرة فكرة الانتصار والهزيمة، والطموحات والإنجازات. وبالنظر إلى هذه الكتابات من بعد، نجد أنها تتفق في الانفصال التام عن الأرض التي تجري عليها. وعادة ما ينظر إلى الأرض (الطبيعة)، – وبغض الطرف عما تقدمه – على أنها الخصم اللدود، والشبح المخيف الذي يسكن أحلام المرء. وما يدعو للسخرية أن استعصاء الأرض على الإنسان هو في حد ذاته نقطة في صالحها. ففي أكثر النماذج تطرّفاً في الانفصال عن الأرض، نجد أنها تتجاوز ولو بقدر ضئيل، دورها كميدان لتفسير شخصية ما، أو لإيضاح نظريات علمية أو اقتصادية، أو لعرض التنافس بين الأمم أو بين الأفراد. ومن النادر أن يعثر المرء على سلوك لا يتسم بالتعالي على الأرض، مثل ذلك الذي ميز رحلات جون ديفيز، وإعجابه الناضج بالمناطق التي ارتادها. وبصفة عامة فقد تميزت المواجهات مع الأراضي الجديدة التي شهدها القرن الثامن عشر بالقسوة، وتأثرت بشدة بالمشاعر التي ساعدت العصر الفيكتوري، مثل الرغبات الفردية في التغلب على أي معوقات، مهما كانت كبيرة وصعبة، وتقمص الأفكار النبيلة، والإحاطة بمظاهر الأبهة، والشغف باقتناء الأشياء النفيسة، وتكوين المجموعات القيمة، وما يرتبط بذلك من تدمير للآثار. وهنا، ليس هناك وجود لرهبان منزهين عن الغرض، وليس هناك رحلة بدون التفكير في التملك وتحقيق الاستفادة، وقلما نجد رحالة متحررين تماماً من الإغراء الذي يشكله تحقيق المآثر الشخصية لأنفسهم.

بيد أن أي رحلة استكشافية إلى تلك المناطق لم تخلُ من ولادة آمال في بداية جديدة، وفي أن تفصح الأرض عن نفسها، وأن تثبت الخرائط صدق أدق تفاصيلها بشكل مدهش، وأن تغلغل الشعور بالجمال أو الوحشة عميق. وبالنسبة لهذه القلة القليلة التي شكلت الأرض لهم مصدراً للحكمة لا ينضب، فقد كان لديهم أيضاً الرغبة في استيعاب وجهيها، المشرق والمظلم على حد سواء.

لذا، فإنني أتطلع دائماً في أثناء قراءتي لهذه الكتابات التاريخية التي صيغت بإحساس نابع من مسؤولية معينة، أو لخدمة غاية بذاتها، أو نسقت لتتناسب مع العصور التي كتبت فيها، إلى العثور على إشارة شاردة هنا أو هناك، يمكن أن تعين في إماطة اللثام عن طرف من الأرض، لم يكشف عن أسراره من قبل، أو عن شعور إنساني طليق يتعامل مع الأرض على أنها كائن تدب فيه الحياة.

وحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت الرحلات الاستكشافية، التي اتجهت إلى المناطق

القطبية الشمالية في أمريكا الشمالية بريطانية في معظمها، إلى أن حدثت كارثة السير جون فرانكلين. وعادة ما كانت هذه الحملات تقضي فصل الشتاء في تلك المناطق، وتختفي وراء ستار كثيف من الضباب، ولا يسمع أو يعرف عنها شيء قبل أن تظهر فجأة في مكان ما، بعد انقضاء عام، أو عامين، أو ثلاثة، أو ربما أربعة أعوام على اختفائها، أو تختفي إلى الأبد، كما حدث في بعض الأحيان. وفي أثناء هذه الرحلات، كان يتم رسم خرائط للسواحل والممرات المائية بصفة منتظمة، وأوضحت سجلات بعض هذه البعثات الاستكشافية بجلاء، أن هذه المهمة قد تطلبت جهداً خارقاً من الرجال الذين قاموا بها. وكان الكثير من هؤلاء الرجال، الذين تطلب الأمر استخدام القسوة معهم في بعض الأحيان، لا يدركون سبباً واضحاً لتحملهم لمثل هذه الصعاب، كما تشير تلك السجلات أيضاً إلى أن الضباط كانوا يشعرون بالقلق في بعض الأحيان من مغبة الإفصاح عن خططهم لبحارتهم المتذمرين.

وقد تسبب التعرض للبرد الشديد في إصابة أفراد أطقم السفن التي أملت عليها الظروف قضاء فصل الشتاء في تلك المناطق، بحالات تجمد الأطراف، وبتر الأعضاء، والمعاناة من الصداع التنميلي، والدوار، حيث لم يكن هناك أي نوع من الملابس التي يمكن أن تقيهم شر هذا البرد في أثناء النهار، ذلك البرد الذي يصعّب من القيام بأي عمل مهما كان بسيطاً، ويجعل من مجرد إعداد الماء للشرب عملاً شاقاً يتطلب كفاحاً طويلاً. أما الليل، الذي كان لا مفر أمام هؤلاء الرجال من قضائه في مكامن شتوية مظلمة مملة داخل سفنهم المتجمدة، فلا يحمل سوى الخوف من الإصابة بالاسقربوط أو الجوع. وكان في إمكان بعض الرجال أن يعدوا العدة لرحلاتهم بما يمكنهم من إقامة أودهم لفترات طويلة – كما فعل باري – إلا أن الأمر برمته كان يختلف بالنسبة للبحارة البسطاء، فكانوا يلجؤون إلى الكحوليات، التي يهربونها معهم إلى السفينة، الأمر الذي كان ينتهي بهم عن غير قصد إلى انهيار معنوياتهم. ولم يقتصر الأمر على البحارة فقط، بل أصيب أيضاً بعض الضباط بالجنون.

وكانت أطقم السفن على يقين من قدرة البحار المتجمدة على سحق سفنهم، كما تنسحق ثمرة البندق بين حجرين، وقد أدى بهم ذلك اليقين إلى حالة من الإرهاق الشديد، والاستسلام للأمر الواقع. فالجليد قادر على أن يتلاعب بسفينتهم لعدة أيام، فيرفعها من أسفل ببطء عدة أقدام فوق

سطح المياه، أو يتسبب في إمالتها وإبقائها هكذا لفترة. وفي بعض الأحيان، كان البحار ينامون بثيابهم لأسابيع متواصلة، وعلى استعداد لإخلاء السفينة في أية لحظة، وهم يعلمون تماماً أن الدعامات الرئيسية في بدن السفينة يمكن أن تتفسخ، محدثة انفجاراً يؤدي إلى إغراقهم بالمياه الخضراء المتدفقة من التشققات. وقد لا تختلف ليلة عن سابقتها، حين يزمجر الجليد حول جسم السفينة، وتصدر عنه أصوات تشبه الصراخ، وهو يتكسر في الظلام، على مسافة بعيدة من السفينة.

ويأتي الربيع، ومعه الضوء، مانحاً الرجال «شعوراً رائعاً غير محدد بالارتياح». وفي غمرة هذا الشعور، يدهمهم عمى الجليد، فتصبح عيونهم كما لو كانت على «إبر في كيس من الرمال»، وأحياناً، كانوا يشدون أنفسهم إلى الزلاجات ليجروها لمسافات تغطيها كسارات صلبة من الجليد، أو عبر مساحات شاسعة من مستنقعات الجليد الرخو. وأمام الاتساع الهائل للأرض، وتحت سطوة هذه الظروف الطبيعية القاهرة، يسقطون موتى من التعب والإجهاد، ضحايا ليأس قاتل، أو نتيجة لحسابات غير صحيحة، أو غرقاً في شق يحدثه المد المفاجئ في الجليد، أو بسبب حوادث بسيطة سخيفة. ثم يلجأ الرجال الجوعى إلى ذبح كلابهم، وأكل لحومها، وحين تنفد الكلاب، يأكلون ثيابهم، وحين تنفذ ثيابهم، يلتفتون إلى بعضهم البعض.

وبعض من هذه المعاناة لم يكن ضرورياً. إلا أن قوة الرحلات الاستكشافية البحرية البريطانية، كانت تكمن في الانضباط شديد الصرامة الذي عمل على تطبيقه ضباط متسلحون بإيمان راسخ لا يتزعزع بمهماتهم. أما الفشل الذريع لتلك الرحلات، فقد تجسد في سيطرة فكرة التفوق العرقي للإنجليز، ونظرتهم المتعالية أخلاقياً للأسكيمو، وتصورهم للأرض في المناطق القطبية الشمالية على أنها مناطق قاحلة موحشة، لا يمكن للبشر العيش فيها. وتعتبر الإنجازات التقنية التي أدخلها الإنجليز إلى الرحلات الاستكشافية المتوجهة إلى المناطق القطبية خلال القرن الثامن عشر (الملابس المبطنة بالمطاط الهندي، والقوارب القابلة للطي، والمواقد المحمولة التي تعمل بالكحول) غير ذات قيمة تذكر إذا ما قورنت بفشلهم في فهم المميزات، التي تتفوق بها الملابس المصنوعة من الفراء، والأكواخ المبنية من الجليد، واللحوم الطازجة على الملابس الرسمية للبحرية، والخيم المصنوعة من القماش، والطعام المعلب. وصحيح أن السفن البريطانية كانت تحمل على متنها أعداداً من الرجال،

لا تستطيع الأراضي التي يقومون باستكشافها أن توفر لهم كل احتياجاتهم من اللحوم الطازجة والمواد الضرورية لصناعة الملابس، إلا أن البريطانيين كانوا يرسلون أعداداً كبيرة من الرجال تفوق الحاجة في كلّ رحلة، بدلاً من إرسال مجموعات صغيرة قادرة على التأقلم مع المناطق التي يتم استكشافها(*).

ويجدر هنا أن نشير إلى حالات الفشل التي منيت بها الرحلات الاستكشافية في المناطق القطبية الشمالية. وقد تباينت رغبات ودوافع الرجال الذين شاركوا في هذه التجربة، وقاد التعقيد الشديد الذي اتسمت به الجوانب الاقتصادية والمهام العسكرية، والرؤى التي طرحها رجال من أمثال جون بارو، رجالاً آخرين إلى مواقف أملت عليهم بذل مجهودات خارقة لفهم أراضٍ تستعصي على كل ما يفعلونه، واستخلاص أي معانٍ منها. فالمعارف الجغرافية التي نملكها الآن، قد كلفت بعض الرجال ثمناً باهظاً، ولنا أن نفترض أنهم جميعاً قد ماتوا مؤمنين بأنهم بذلوا أرواحهم ثمناً لأشياء عظيمة.

وفي سبتمبر سنة 1837م، وصل جورج باك إلى الساحل الغربي لأيرلندا بسفينة «تيرور» وهي في حالة سيئة للغاية، بعد أن اضطر لقضاء فصل الشتاء في المناطق القطبية الشمالية، وتعرض مع رجاله في أثناء تلك الفترة إلى ظروف في غاية القسوة، كانت كافية لتحطيم أعصابهم بشكل لم يسبق له مثيل، حينما حوصروا بين الجليد في قناة فوكس، وطيور النورس البحري لا تكف عن مضايقتهم، وتحطمت أجزاء من الفواصل الخشبية الرئيسية لجسم السفينة، وتشقق سطحها، واعتصر الجليد أخشابها، لدرجة أن زيت التربانتينا كان يسيل من مواضع عدة من جسمها. وقد وصف صانع السفن الذي أشرف على إصلاحها في ميناء تشاثام، أنه لو تعرضت أي سفينة أخرى لمثل هذه الظروف لتحطمت إلى أجزاء وغرقت.

(*) خلال السنوات التي شهدت عمليات البحث عن بعثة السير جون فارنكلين، أصر البريطانيون على تفوق ملابسهم الشتوية الرديئة. ورفضوا استخدام الزلاجات التي تجرها الكلاب لأنهم شعروا بأن استخدام الكلاب للقيام بعمل يمكن للرجال أن يقوموا به أمر يحط من شأنهم. وقبل وقت طويل، كان هناك بعض المستكشفين، وخاصة من رجال شركة خليج هدسون، مثل جون راي وصمويل هيرن، الذين استخدموا الملابس الأكثر ملاءمة والطعام المغذي، ووسائل السفر الفعالة التي يستخدمها الأسكيمو. وقد أعجب كل من بيري وستيفنسون بمعارف السكان المحليين، وعدّوها ذات قيمة كبيرة في النجاح الذي حققوه.

وكان قد تم إرسال باك للقيام برسم خريطة للساحل الشمالي لأمريكا من مضيق فيوري وهكلا إلى شبه جزيرة كنت. إلا أن هذه الرحلة لم يكن قد تم الإعداد لها بشكل جيد في إنجلترا، ولم ينج الطاقم من موت محقق إلا بفضل هذه السفينة القوية وبراعة قبطانها وحنكته. ومنذ ذلك الحين، لم يشكل البحث عن الممر الشمالي الغربي مصدر إغراء لأحد، واصبح الناس لا يرون أي مكاسب تحققت من هذه الرحلات، سوى نجاح باري في فتح الطريق إلى البحار الشمالية، أمام سفن صيد الحيتان في المنطقة من بيترهيد ودندي (بغض النظر عن الاستفادة التي تحققت للعلوم التطبيقية والبحتة، والشرف الذي تحقق للدولة). علاوة على ذلك، اصبح تمويل هذه الرحلات يأتي من قبل متبرعين، من أمثال فيلكس بوث الذي كان يعمل في صناعة الخمور، وشركة خليج هدسون، التي كانت ترسل المستكشفين إلى المناطق القطبية الشمالية. وقد رأى البرلمان الإنجليزي أنه من الأنسب ترك مثل هؤلاء يتحملون تكاليف الاستكشافات، مقابل مكاسب «لا يزال من الممكن تحقيقها هناك».

وعلى الرغم من ذلك، استمر بارو في محاولاته، ونجح في الحصول على التأييد اللازم لإطلاق رحلة أخرى، تم إعدادها وتجهيزها هذه المرة بشكل ممتاز، ورسمت أهدافها بمنتهى الدقة، لدرجة اعتقد معها الجميع أن الفشل لا يمكن أن يعرف إليها سبيلاً. وفي التاسع عشر من شهر مايو سنة 1845م، اقلعت السفينتان «تيرور» و«إيبوس» من لندن، وعلى متنيهما 134 رجلاً بقيادة السير جون فرانكلين، وكان هدف الرحلة هو التوصل إلى ممر يصل بين الطريق الذي سلكه باري عبر لانكستر ساوند ومضيق بارو من ناحية، وساحل أمريكا الشمالية من الناحية الأخرى، ثم الإبحار غرباً إلى مضيق بيرنغ. وكان الساحل كلّه من رأس الجليد (أبعد نقطة وصل إليها كوك سنة 1778م) إلى شبه جزيرة بوثيا معروفاً تماماً في أثناء هذه الفترة، الأمر الذي جعل أغلب الناس يعتقدون أنها مجرد رحلة روتينية سهلة.

وقبل أن تدخل السفينتان المناطق الجليدية، كان خمسة من الرجال قد لقوا حتفهم، ثم أمضى الباقون شتاء 1845 - 1846م في جزيرة بيتشي، وهناك، مات ثلاثة رجال آخرون لأسباب غير معروفة ودفنوا في الجزيرة. وفي سنة 1846م، أبحر فرانكلين صعوداً في قناة ويلينجتون إلى أن وصل إلى الدرجة 77 شمالاً، ثم اتجه جنوباً بمحاذاة ساحل جزيرة كورنواليس عبر مضيق بارو إلى داخل مضيق

بيل. واضطر إلى قضاء شتاء 1846 - 1847م محاصراً وسط طبقات سميكة من الثلوج في مضيق فكتوريا. والذي لم يعرفه فرانكلين، وما كان له أن يعرفه، لأنه قد اختار الطريق الخطأ. فلو كان قد اختار طريقه إلى الجنوب بمحاذاة الساحل الشرقي لجزيرة الملك ويليام واتجه إلى خليج الملكة مود عبر مضايق جيمس روز وراي وسيمبسون، لواجهته الثلوج السنوية الاقل خطورة وقسوة. ومن الناحية العلمية، كان هذا الطريق هو الطريق الوحيد الذي يمكن استخدامه(*).

وقد نشأ هذا الخطأ المهلك الذي وقع فيه فرانكلين، والذي انتهى إلى انحصار السفينتين في الجليد إلى الأبد، ووفاة اثنين وعشرين رجلاً من بينهم فرانكلين نفسه في الشتاء التالي الذي قضته الحملة في مضيق فكتوريا – من ملاحظة غير دقيقة لـ جيمس روز في أثناء استكشافه للساحل الغربي لشبه جزيرة بوثيا سنة 1813م، حيث اعتقد روز أنها متصلة بجزيرة الملك جيمس، ورسم المضيق (الذي عرف بعد ذلك باسمه) على أنه برزخ.

وبحلول عام 1848م ازداد القلق بشأن الحملة المفقودة، والتي لم يسمع عنها منذ خروجها، حيث خرج العديد من سفن الإنقاذ للبحث عن السفينتين وطاقميهما. واستمرت قيادة البحرية في عمليات البحث عن فرانكلين لمدة تزيد عن عشر سنوات، من خلال نحو أربعين رحلة قامت بها سفن حكومية وخاصة، وسفن تابعة لدول أخرى، إلى أن تم الإعلان رسمياً في مارس سنة 1854م، أن فرانكلين ورجاله في عداد الأموات. وباستثناء بعض الأدلة التي أشارت إلى قضاء الحملة لفصل الشتاء في جزيرة بيتشي، لم يتم العثور على أثر للحملة. وفي ربيع عام 1854م، قابل الدكتور جون راي، الذي كان يعمل موظفاً لدى شركة خليج هدسون، مجموعة من الأسكيمو بالقرب من خليج بيلي أخبروه أنهم شاهدوا بعض الرجال – الذين هجروا السفينتين – في أثناء سيرهم في جزيرة الملك ويليام، وأنهم عثروا على جثثهم بعد ذلك. وقد اشترى راي من الأسكيمو العديد من المخلفات التي عثروا عليها بالقرب من الجثث، ومنها طبق فضي صغير محفور عليه اسم فرانكلين. وقد منحت الحكومة البريطانية راي مكافأة مقدارها عشرة آلاف جنيه

(*) تندفع مساحات من الجليد المتكسر السميك سنوياً إلى مضيق فكتوريا من المحيط المتجمد الشمالي عبر مضيقي: ماكلور وفيسكونت ميلفيل وقناة ماكلنتوك، ولم يكن هذا النمط من اندفاع الجليد المتكسر معروفاً في أيام فرانكلين، والطريق المقترح هو الطريق نفسه الذي سلكه أموندسون في رحلته التي استمرت من 1903 إلى 1906م والتي كانت أول عملية إبحار ناجحة عبر الممر.

لنجاحه في تحديد المصير الذي انتهت إليه البعثة. بيد أن الليدي فرانكلين، زوجة جون فرانكلين، لم تكتف بما أثبته راي، فقد كانت مصرة على معرفة كيف ولماذا فشلت هذه المجموعة «الممتازة من الرجال»، واستمرت في إنفاق جزء كبير من ثروتها، وفي جمع التبرعات لتمويل رحلات خاصة للبحث عن السفينتين. وقد تمكنت آخر حملة بحث خرجت بقيادة فرانسيس ماكلنتوك في يخت كبير معدل، من العثور على الأثرين الوحيدين الذين أمكن العثور عليها الحملة فرانكلين، حيث تمكن ماكلنتوك في ربيع سنة 1859م من اكتشاف ملاحظتين مسجلتين على اثنين من النصب الحجرية المنفصلة على الساحل الغربي لجزيرة الملك ويليام، وحزمتين متجمدتين من الخطابات في حالة لا تسمح بقراءتهما.

وقد استحوذت عمليات البحث عن حملة جون فرانكلين على خيال ومشاعر إنجلترا بأسرها، كما لم تفعل كافة الحملات التي تبناها بارو لاكتشاف الممر الشمالي الغربي. وانطلقت عشرات الحملات للبحث عن الحملة المفقودة من موانئ إنجلترا وأمريكا. وفي بعض الأحيان كانت عمليات البحث تطال مناطق بأكملها لم يكن قد تم استكشافها من قبل في الأرخبيل الكندي، وخاصة الخطوط الساحلية منه. وقد أدت هذه العمليات إلى إحداث تغير جوهري في استكشاف المناطق القطبية الشمالية، فبعد أن كان الهدف السابق للرحلات الاستكشافية يقتصر على العثور على طريق يمكن الوصول من خلاله إلى أي مكان آخر، أصبحت الرحلات بعد ذلك مجهزة لقضاء فصل الشتاء، وأصبحت المناطق التي ترتادها هذه الرحلات محور الاهتمام الرئيسي. وفي فصل الربيع، كانت تنتشر مجموعات صغيرة من الرجال في كل اتجاه، تغطي عدة مئات من الأميال باستخدام زحافات يجرها الرجال، مستكشفين العديد من الجزر والقنوات والخلجان الجديدة في كل مكان يذهبون إليه تقريباً.

ومما يدعو للعجب أن هذه العمليات، قد أنتجت أكثر الخرائط وضوحاً ودقة للمناطق القطبية العليا. ولكن، وبعد ست سنوات من البحث، حل اليأس بالبريطانيين. وقام ضابط أخرق يدعى السير إدوارد بليشر – مستشعراً قنوط قيادة البحرية وقرب نفاد صبرها تجاه استمرار جهود البحث المكلفة وغير المجدية – بإخلاء سريع لأربع سفن («ريزوليت» و «إنتربيد» و «أسيستنس» و «بيونير») كانت تقوم بعمليات البحث، وتركها محصورة في الجليد، وغادر المناطق القطبية عائداً

إلى إنجلترا في سنة 1854م(*). وبحلول هذا الوقت كانت أعين إنجلترا كلها مركزة على هذه الحماقة الدائرة في القرم الغرب، وقلوبها مع رجالها الذين يموتون هنا(**).

وفي الواقع، فإن كارثة فرانكلين قد وضعت حداً لاهتمام بريطانيا بالعثور على الممر الشمالي الشرقي، وعن فرانكلين ورجاله، قال السير جون ريتشاردسون: «لقد صاغوا بأرواحهم آخر حلقة تتصل بالممر الشمالي الغربي». أما ماكلينتوك فقد وصفهم بأنهم «لقوا حتفهم في سبيل الواجب، وأن البحث عنهم كان مهمة يمليها الشرف». وقد لقيت هذا الملاحظات تأييداً وقبولاً كبيرين بين الناس. وأخيراً، وبقدر من التذمر وعدم الارتياح، ذهبت الجائزة التي كانت قيادة البحرية قد رصدتها لأول عملية إبحار ناجحة عبر الممر إلى روبرت ماكلور وطاقم السفينة «إنفستيجيتور»، الذين كانوا قد أبحروا عبر مضيق بيرنج سنة 1850م، واضطروا لقضاء فصل الشتاء لسنتين متتاليتين (1851 - 1852م) و (1852 - 1853م) محاصرين بين الثلوج في جزيرة بانكس، ثم توجهوا سيراً إلى السفينة «ريزوليت» التي كانت لا تزال راسية بالقرب من جزيرة ديلي إلى الغرب من «ملاذات بيري» الشتوية مباشرة، وهناك، قضوا الشتاء التالي محاصرين بين الجليد على جزيرة باثوريست. وأخيراً أبحروا عائدين إلى إنجلترا برفقة بليشر ورجاله في سبتمبر 1854م (ومما يدعو إلى السخرية أن الزلاجة الرئيسية التي انطلقت من السفينة «ريزوليت» ووصلت إلى السفينة «إنفستيجيتور» في خليج الرحمة، واستقلت الرجال في طريق عودتهم في ربيع سنة 1853م كان يطلق عليها اسم جون بارو).

وحتى لا تقلل قيادة البحرية من شأن جهود فرانكلين، فقد حصل ماكلور على عشرة آلاف جنيه بدلاً من العشرين ألفاً التي كانت قيادة البحرية قد رصدتها لاكتشاف الممر الشمالي الشرقي.

(*) لم ينقذ أطقم هذه السفن الأربعة ومعهم طاقم السفينة «إنفيستيجيتور» من العودة إلى الوطن مكتظين على متن السفينة «نورث ستار» التي كانت السفينة الوحيدة التي نجت من مجموعة بليشر سوى وصول السفينتين «فونكس» و «تالبوت» إلى جزيرة بيتشي.

(**) كان لعمليات البحث عن حملة فرانكلين المفقودة العديد من الأوجه، وشارك فيها رجال لهم دوافع وأهداف مختلفة. فبعض ضباط البحرية كانوا يبحثون عن طريق سريع وقصير للحصول على ترقية، والبعض الآخر كان مدفوعاً بتصوراته تجاه الأراضي الجديدة، أما مصير فرانكلين ورجاله فلم يكن يلقى له بال في بعض الأحيان. ومن أكثر الخطط التي وضعت غرابة، تلك التي نفذها كابتن هورايتو أوستن والتي كانت تسعى إلى اصطياد ثعالب قطبية حية، ثم ربط قطع معدنية محفور عليها معلومات حول رقاب هذه الثعالب وإطلاقها مرة أخرى لترشد لفرانكلين ورجاله إلى مواقع السفن التي تبحث عنهم، إلا أن البحارة قتلوا أعداداً من هذه الثعالب لاستخفافهم بالخطة، وللظفر بفراء الثعالب الثمين.

وقد نجحت البعثات التي أرسلت للبحث عن فرانكلين في وضع خرائط لسواحل الجزر القطبية التي تقع إلى جنوب وغرب جزر باري كافة (وفيما بعد، أكمل كل من أموندسن وستيفنسون مسح السواحل الشمالية لجزيرة فيكتوريا والتي كان الوصول إليها مهمة أكثر صعوبة، وذلك في عامي 1905 و 1916م على التوالي). وقد سميت جزيرة الأمير باتريك على اسم هذا الأيرلندي الذي شارك في عمليات البحث عن فرانكلين(*). كما أطلقت أسماء العديد من المجموعات التي تبرعت لتمويل عمليات البحث، بما في ذلك جزر تسمانيا عند مدخل مضيق فرانكلين والتي أطلق عليها هذا الاسم اعترافاً بالجميل الذي قدمته هذه الجزيرة القابعة في آخر الدنيا(**)، لليدي فرانكلين لمساعدتها في تمويل رحلات البحث عن زوجها، وهو الذي كان حاكماً عاماً لها. كما اكتشفت رحلات البحث أن أرض بانكس وأرض الملك ويليام هي في الواقع جزر منفصلة، علاوة على اكتشاف مضيق بيلوت. وفي الحقيقة، فإن مجموعات صغيرة من الرجال المزودين بالزحافات هم الذين حققوا كل هذه الانجازات، متبعين الأسلوب الذي طوره ماكلنتوك بدرجة كبيرة، والذي كان قد حقق رقماً قياسياً سنة 1853م، حين قطع 1328 ميلاً في 105 أيام.

وفيما بدأ الاهتمام بمصير بعثة فرانكلين يخبو، تحولت الأنظار ببطء إلى تحقيق هدفين آخرين: الأول؛ هو اكتشاف مياه البحر القطبي التي قيل إنها تخلو من الجليد، والثاني؛ هو الوصول إلى القطب الشمالي الجغرافي. وكانت الجهود التي بذلت في هذين الاتجاهين أمريكية في معظمها. وفي الواقع فقد كان ينظر إلى القناة بين جرينلاند وجزيرة إلزمير، بحسبانها الطريق الرئيسي الذي يمكن أن يقود إلى هذه المياه، وأطلق عليها «الطريق الأمريكي»، لدرجة أن البعض قد عدّوا بشكل غير صحيح أن هذه المنطقة جزء من الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة في أثناء السنوات التي ركز فيها بيري رحلاته الاستكشافية فيها.

وبحلول عام 1850م، وفيما بعد، أصبح الشمال يشكل منطقة مهمة في حد ذاته، حيث كانت شركة خليج هدسون لا تزال مستمرة في جلب ثروات من الفراء من المناطق القطبية الكندية

(*) بطرفة في غاية الالتفات، تم تسمية هذه الجزيرة على اسم ارثر ويليام باتريك البرت، وهو الطفل السابع للملكة فكتوريا وزوجها الامير البرت الذي ولد في سنة 1850، وقد سمي الطفل بهذا الاسم بمناسبة الزيارة التي قامت بها امه إلى أيرلندا سنة 1849.

(**) تقع جزيرة تسمانيا تلك إلى الجنوب من الطرف الجنوبي الشرقي للقارة الاسترالية في بحر تسمان.

السفلي، كما ذكرت بعض الرحلات الاستكشافية أنها عثرت على مناجم للفحم هناك، كما استطاع صيادو الحيتان الأمريكيون، بما يتميزون به من حماسة، تحقيق نجاحات جديدة في بحر تشوكشي. وربما اعتقد المستثمرون أن المنطقة بها من الإمكانيات، ما يجعل تمويل المزيد من الرحلات الاستكشافية عملاً مربحاً. كما أن المنطقة كانت لا تزال تبشر بالشهرة والمكانة المرموقة، لكل من يستطيع أن يساعد في تحسين وتوسيع الخرائط، وكل من يتمكن من وضع خرائط لكل ما يقع إلى الشمال، فيما وراء جزر باري، أو ينجح في الوصول إلى القطب. وفي سنة 1853م، وفيما كانت هذه المشاعر هي المسيطرة، قرر قطب صناعة السفن الأمريكي هنري جرينيل ومعه رجل البر جورج بيابوي، ومجموعة من الجمعيات العلمية، تبني رحلة يقوم بها مستكشف أمريكي مشهور يدعى إليشا كنت كين.

ومن الناحية الرسمية، كان من المقرر أن يشارك كين في عمليات البحث عن بعثة جون فرانكلين المفقودة، عندما أبحر إلى الشمال، ولكن نظراً إلى عدم العثور على أي أثر للرحلة حتى ذلك التاريخ، باستثناء بقايا معسكر البعثة في جزيرة بيتشي، فقد شعر كين أن لديه ما يسوّغ متابعة البحث في اتجاه غير مرجح – عبر مضيق سميث وصولاً إلى حوض كنت. وقضى شتاء (1853 - 1854م) في مرفأ رينسيلار في شمال غرب جرينلاند، ثم أجبر على البقاء في المكان نفسه حتى شتاء 1854 - 1855م حين ظلت سفينته محاصرة بين الجليد. ولقد توغلت مجموعات من رجاله على الزلاجات شمال الساحل الجرينلاندي إلى أن وصلوا إلى درجة 80 شمالاً(*). وفي ربيع سنة 1855م ترك كين ورجاله السفينة، وأخذوا معهم كل سجلاتهم وخرائطهم، وخرجوا من المنطقة القطبية سيراً على الأقدام إلى أن وصلوا إلى جود هافن حيث قابلوا هناك إحدى حملات الإنقاذ.

وتحت سيطرة بارو وقيادته، اصطبغت الرحلات الاستكشافية إلى المناطق القطبية الشمالية بصبغة عسكرية وعلمية، وكان منفذوها يتمتعون بنكران الذات، ويقومون بهذه الرحلات في سبيل الله والوطن. أما الأمريكيون، فقد جاء دخولهم إلى المناطق القطبية الشمالية مجرداً من مثل

(*) في ذلك الوقت، كان باري لا يزال يحتفظ بالرقم القياسي للتوغل شمالاً حيث كان قد وصل إلى النقطة 28 °45 شمالاً، وهي نقطة تقع إلى الشمال من جزيرة سفالبارد، وكان قد وصلها في رحلة الزلاجات في سنة 1827م.

هذه الصفات، وتميزت رحلاتهم الاستكشافية، من كنت إلى بيري بالأشخاص الذين كانوا يقومون بها، وبالدوافع التي كانت تحرك ممولي ورعاة هذه الرحلات، والأهداف التي يسعون إلى تحقيقها.

وكان كين ضعيف البنية، عليل الصحة، إلا أنه كان مفتوناً بالرحلات الاستكشافية في المناطق القطبية الشمالية، وقد وصفه المؤرخ الكندي المتخصص في المناطق القطبية الشمالية، ل. هـ. نيتبي قائلاً: «إنه واحد من الجيل الأخير من الهواة البارعين الممتازين». وقد جعلت خصاله الحميدة ونظرته الشاعرية وشجاعته أمريكا تشعر بذاتها وشخصيتها. وحين توفي عن سبعة وثلاثين عاماً شيع في جنازة لا يمكن مقارنتها في ذلك الوقت سوى بجنازة أبراهام لينكولن، وحين حوصرت سفينته في الجليد لعام ثانٍ، لم يتوانَ كين عن إعداد الحساء من فئران السفينة، وأحرق أجزاء من السفينة لتأمين التدفئة لرجاله، وقام بتثبيت عدد من المرايا كي تعكس أشعة الشمس على القمرات التي يرقد فيها بعض رجاله المرضى بداء الاسقربوط. وكان قاسياً في مواجهته مع الصيادين المحليين من الأسكيمو (ونظراً إلى أن الأسكيمو كانوا يسعون من خلال هذه المواجهات إلى اختبار نقاط الضعف في أناس يقابلونهم لأول مرة، فقد قاموا بسرقة بعض الأشياء من كين ورجاله)، ثم تحول إلى معاقبتهم بعنف على سرقة أشياء تعود إليه ورجاله، وأخيراً لجأ إلى الحيلة في التعامل معهم، إلى أن نجح في التوصل إلى معاهدة معهم، نصت على قيامهم بتزويد رجاله بالطعام.

وقد اتبع كين الطريق الذي سلكه المستكشف الإنجليزي إدوارد إنجلفيلد متجهاً إلى مضيق سميث، وأحدث إثارة كبيرة في العالم، حين أعاد ما ذكرته تقارير هذا المستكشف الإنجليزي سنة 1852م بشأن وجود مياه مفتوحة إلى الشمال من حوض كين. وكانت نظرية وجود بحر قطبي مفتوح قد حققت تقدماً كبيراً على مدار ثلاث مئة سنة الماضية، على الرغم من أن معظم الآراء التي نادت بوجود مثل ذلك البحر كانت مبنية على الأمنيات التجارية والتطلعات الوطنية، كما قال الجغرافي جون كيرتلاند رايت. إلا أن الأمر لم يخلُ من بعض الأسباب الواقعية، التي أدت إلى الاعتقاد في وجود مساحة كبيرة من المياه المفتوحة في أقصى الشمال. فمنذ زمن بعيد، وفي عام 1810م، قدم المستكشف الروسي هيدينستروم وصفاً لمثل هذا البحر، كما كان من المعروف أن منعطف الصيادين، إلى الغرب من ساحل جزيرة سفالبارد، كان يمتد في بعض السنوات (التي

يكون فيها ذوبان الجليد جيداً) إلى الشمال وصولاً إلى درجة 82 شمالاً وأن امتداد الثلج الحولي يتغير من سنة إلى أخرى، خصوصاً في بحر جرينلاند. بيد أن افتراض وجود مثل هذا البحر، كان يرتكز إلى شذرات متناثرة من المعلومات مثل اتجاهات التيارات المائية، وظهور بعض كتل الأخشاب المنجرفة من سواحل بعيدة في أماكن معينة، وبعض الملاحظات المتعلقة بدرجات حرارة الأرض ومياه البحر، وسلوك بعض الثدييات البحرية في هجرتها من مكان إلى آخر. وبصفة عامة، كانت كلها معلومات علمية ضعيفة، حتى بمقاييس ذلك العصر.

ومع ظهور وتطور علوم وتخصصات أكثر دقة قرب نهاية القرن الثامن عشر، لم تؤخذ محاولات اكتشاف البحر القطبي المفتوح مأخذ الجد. إلا ان هذه المحاولات لم تتعرض للنقد العلني حيث لم تكن العامة مهيأة لتقبل مثل هذا النقد. في أثناء الفترة بين الحرب الأهلية وبداية الحرب العالمية الأولى، كان الجمهور الامريكي يتلهف بمعرفة أخبار المغامرات القطبية والقراءة عنها، وبشكل متزايد، كان ينظر إلى الرجال من أمثال كين وتشارلز فرانسيس هال، ثم ستيفنسون وبيري الذين يجوبون مناطق خلابة بعيدة عن مداخن أمريكا الصناعية، على أنهم رموز للبطولة(*). وقد ظل بيري على وجه التحديد يتمتع بمكانة مرموقة باعتباره تجسيداً للتصميم وقوة الإرادة، إلى أن قاده جشعه ونزعته المتعالية إلى انقلاب مشاعر الناس ضده.

وفي سبتمبر 1875م، توجه ضابط من الجيش النمساوي يدعى كارل فايبرخت، والذي كان قد شارك مع جوليوس فون باير في اكتشاف أرض فرانز جوزيف سنة 1873م، بدعوة إلى مجموعة من العلماء المجتمعين في مدينة جراتز بالنمسا إلى التوفيق والتنسيق فيما بينهم، للقيام بدراسة المناطق القطبية الشمالية بشكل يحقق استفادة أكبر، معتبراً أن المحاولات التي تمت مؤخراً للوصول إلى القطب الشمالي لن تحقق استفادة حقيقية. وانتقد التنافس الدولي الشديد لاكتشاف جزر قطبية جديدة. وكان فايبرخت يفكر في قضايا مختلفة تماماً مثل ماهية المناخ في المناطق القطبية

(*) كان تشارلز فرانسيس هال رجل اعمال بسيط، وقد استطاع تحمل العديد من الظروف القاسية في المناطق القطبية الشمالية باعصاب باردة، وفي سنة 1862م دوّن قصة زيارة فروبيشر إلى جزيرة بافن نقلاً عن الاسكيمو المقيمين في هذه الجزيرة والذين كانوا قد حفظوا هذه القصة في موروثهم الشعبي لمدة 275 عاماً. وفي بافن توفي هال سنة 1871م في ملاذه الشتوي في مرفأ «ثانك جد – «شكراً للرب» شمال جرنيلاند، وعلى الأرجح انه قد مات مسموماً بالزرنيخ.

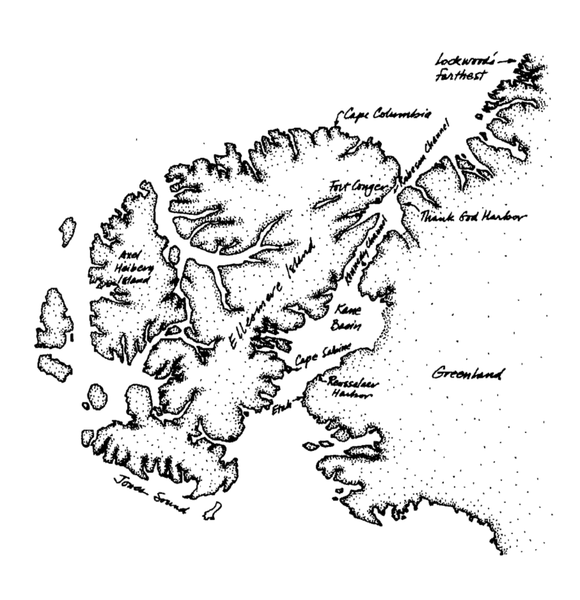
الشمالية، وكيف يؤثر في مناخ القارة الأوروبية. فهل كان بالإمكان تنحية المغالاة في المشاعر الوطنية جانباً لإفساح المجال لتعاون دولي للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة العلمية المتعلقة بالمناطق القطبية الشمالية؟ ولقد اعتقد زملاؤه انه بالإمكان تحقيق ذلك. وفيما بعد تم إدخال بعض التعديلات على مقترحات فايبرخت، لتصبح أول خطة لتخصيص عام دولي للقطب المتجمد الشمالي في 1882م، حيث تولت إحدى عشرة دولة تجهيز اثنتي عشرة محطة في المناطق القطبية الشمالية لقضاء عام كامل من عمليات المراقبة والرصد في هذه المناطق.

وكانت المحطة الأمريكية في فورت كونجر بجزيرة إلزمير هي أبعد محطة إلى الشمال، وكانت تحت قيادة ضابط في الجيش برتبة ملازم، يدعى أدولفس جريلي. وكان جريلي قائداً غير متميز وعبوساً، وصفه أحد المؤرخين بانه متزعزع ونزق، وشديد الصرامة، ويفتقر للخبرة في شؤون المناطق القطبية الشمالية. وقد آثر هذا الضابط النمط الأمريكي في الإثارة والمغامرة على الملاحظة العملية الدؤوبة، لذا أرسل الملازم جيمس لوكوود شمالاً بمحاذاة ساحل جرينلاند في محاولة للوصول إلى نقطة تتجاوز 83 °20 شمالاً، والتي كانت أبعد نقطة وصل إليها البريطانيون. وفي الخامس عشر من مايو 1883م، نجح لوكوود وبرفقته الرقيب برينارد ومرافق من الأسكيمو في الوصول إلى النقطة 83 °24 التي تتجاوز أبعد نقطة إلى الشمال، كانت البعثة المسماة «بعثة الشماليين القدامى» قد تمكنت من الوصول إليها بأربعة أميال بحرية. ووصف الرقيب برنيارد الفرحة التي غمرتهم عند وصولهم إلى هذه النقطة قائلاً: إنهم قد تصافحوا بحرارة، وعانقوا رجل الأسكيمو الذي كان يرافقهم، الذي أصابته الدهشة والتعجب من هذه الفرحة. ومما يشير حفيظة المرء، أن برينارد قام قبل عودتهم، بتثبيت إعلان لأحد أنواع الجعة المعروفة في هذا الوقت على الصخور.

وكان الأمريكيون قد ثبتوا جريلي ومجموعته في جزيرة إلزمير ليقوم ببناء نقطة فورت كونجر، ولإجراء عمليات مراقبة للطقس والظواهر المغناطيسية، علاوة على استكشاف كل من جزيرة إلزمير ومناطق شمال جرينلاند. وكان يتعين أن يتم التقاط المجموعة في صيف سنة 1883م، إلا أن سفينة الإنقاذ لم تظهر في هذه السنة، ولا في صيف 1884م أيضاً. لذا اضطر جريلي الذي كان قد أصابه اليأس إلى اصطحاب رجاله جنوباً بمحاذاة الشاطئ في اتجاه رأس سابين، على أمل العثور على أي مؤن قد تكون المجموعة التي يفترض أنها كانت قادمة لإنقاذه قد خلفتها، أو تكون بعثة الشماليين

القدامى الإنجليزية التي قضت الفترة من 1875م إلى 1876م قد تركتها وراءها (وقد عثروا بالفعل على بعض المؤن التي تعود إلى البعثة التي كان يفترض ان تنقذهم، لكنها كانت قليلة جداً، كما عثروا أيضاً على بعض مخلفات البعثة النرويجية، ولكن استخراجها كان أمراً محفوفاً بالمخاطر).

وفي هذا الشتاء، مات ستة عشر رجلاً جوعاً، من أصل خمسة وعشرين كانوا يشكلون المجموعة التي وصلت إلى رأس سابين.



ويعتبر الإخفاق في إنقاذ كافة البحارة – باستثناء جريلي الذي تمكن من النجاح – واحداً من أكثر الفصول مأساوية في التاريخ الأمريكي برمته. ذلك أن جهود الإنقاذ التي بذلت في عام 1883 و 1884م، لم تكن مجدية. والأكثر إثارة للأسى، تلك الحملة التي شنها عدد من السياسيين للحط من قدر جريلي، وهم الذين أحجموا عن تبني جهود جادة لإنقاذه هو ومجموعته. ويبدو أن المحاولات البطولية كان لا يعتد بها كثيراً في أمريكا في ذلك الوقت، إذا لم تقترن بتحقيق إنجازات ملموسة. ذلك أن جريلي لم يتمكن من الالتفاف حول جرينلاند، ولم يوفق لاكتشاف أراضٍ جديدة. ولا يكفي انه قد تجاوز أقصى نقطة وصل إليها الإنجليز شمالاً بمقدار أربعة أميال بحرية، وفي معاملة وقحة غير إنسانية لرجل بذل أقصى ما يستطيع للإبقاء على رجاله أحياء، تعرض جريلي للإغفال التام والانتقاد اللاذع. وكان صوت روبرت بيري واحداً من أعلى الأصوات التي أدانت جريلي، لكنه عاش بحسرته لتماديه في الأنانية.

وبحلول سنة 1900م، أصبحت الاستكشافات في المناطق القطبية الشمالية بأسرها، قصة لرجلين هما فريدجوف نانسن، وروبرت بيري الذي كان أكبر سناً من نانسن. وفي الأصل، كان بيري بحاراً داهية، يلهث وراء الشهرة، وقد استطاع تحقيق إنجازات حقيقية، تمثلت في استكشاف مناطق شمال جرينلاند، والوصول إلى القطب المتجمد الشمالي في سنة 1909م، من خلال رحلات مرعبة، تطلبت قدراً من الاحتمال، وقوة العزيمة يقف أمامه الخيال مشدوهاً. وقد حجبت جرأته وشخصيته القيادية، شعوره المستمر بالوحدة والقلق، تلك المشاعر التي كان يسعى إلى التخلص منها من خلال تحقيق منجزاته، وعبر المناورة والمراوغة للحصول على رضا الشخصيات النفاذة ومصاحبتها.

أما نانسن النرويجي فقد كان عالماً ومحباً للإنسانية، وذا شخصية مختلفة تماماً، وإن كانت له الدوافع نفسها التي توافرت لدى بيري إلا أنه كان لا يحب الظهور، ولا يفرض نفسه على الآخرين، كما كان يتمتع بنظرة أوسع وأعمق للعالم، وفهما أفضل لتسلسل الأحداث البشرية، وكانت له مساهمات خالدة في العديد من المجالات. كان نانسن هذا أول مستكشف يتمكن من عبور رأس الجليد في جرينلاند، وتمكن من إثبات نظريته الخاصة بالجرف القطبي، وله عمل جدير بأن ينسب لعالم مثله، ويتكون من جزئين عن تاريخ استكشاف المناطق القطبية الشمالية، بعنوان في « السديم الشمالي » (In the Northern Mists). وفي سنة 1923م حصل نانسن على جائزة نوبل

تقديراً للجهود التي بذلها لخدمة اللاجئين في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وإذا كان في حياة بيري قصة حب من جانب واحد أثرت في شخصيته، فإن حياة نانسن الخاصة كانت ذات أبعاد مثالية. وثمة فرق آخر بين الرجلين، وهو أن نانسن لم يسمح لأفكار وخواطره أن تستبد به، مثلما كان الحال عند بيري الذي تعرض لسلسلة من النكبات كانت آخرها الدخول في نزاع شديد مع الدكتور فريدريك كوك حول من منهما وصل أولاً إلى القطب الشمالي.

* * * * *

وحين قرأ في سنة 1884م، أن جزءاً من حطام السفينة «جينيت» قد ظهر على الساحل الجنوبي الغربي لجرينلاند، بدأ نانسن في التفكير في موضوع الجرف القطبي المحيط في المتجمد الشمالي(*).

وبمساعدة مهندس بناء السفن الاسكتلندي كولين أرشير، قام نانسن ببناء سفينته «فرام»، وهي عبارة عن سفينة ذات ثلاث صوار رئيسية، يبلغ طولها 128 قدماً ومصممة لتحمل ظروف الجليد القطبي(**)، وتم تجهيز السفينة لرحلة تستغرق خمسة أعوام. وفي الرابع والعشرين من شهر يونيو

(*) السفينة «جينيت» سفينة امريكية تحطمت في الجليد في بحر لابتيف سنة 1881م، ولقي معظم بحارتها حتفهم، بما فيهم قبطان السفينة، الملازم البحري جورج دي لونج. وقد استطاع طاقم هذه السفينة إثبات ان جزيرة رانجال جزيرة بالفعل، كما اكتشفوا ايضاً جزيرة دي لونج وجزر سيبيريا الجديدة، محددين بذلك الاتساع الكبير للرف القاري السيبيري باتجاه البحر. وفي هذا الوقت نفسه تقريباً (في العشرين من يوليو سنة 1879م) تمكن الجيولوجي والمستكشف السويدي ادولف إيريك نوردينسكولد من الالتفاف حول راس ديزينيف على متن سفينة بخارية، مستكملاً بذلك الممر الشمالي الشرقي. وفي سنة 1913م تمكن ضابط روسي من اكتشاف أرخبيل سفيرنيا زامليا، آخر الأرخبيلات القطبية التي تم اكتشافها، مستكملاً صورة المناطق القطبية السيبيرية العليا. وقد فتحت رحلة نوردينسكولد طريقاً أمام تجارة الفراء والاخشاب والمعادن السيبيرية، والتي يرجع إليها الفضل في نمو اسطول الشحن «السوفيتي» الحديث، وكذلك أسطول كسارات الجليد التي تعمل بالطاقة النووية. وبالمقارنة لم يترتب على استكمال امندسون لاكتشاف الممر الشمالي الغربي في سنة 1906م، سوى قدر ضئيل من الاهتمام في كل من كندا والويات المتحدة الأمريكية، إلى أن تم اكتشاف النفط في المناطق القطبية الشمالية سنة 1968م.

(**) كانت السفينة «فرام» ذات قاع شبه مستدير وأملس، لا يتيح للجليد أن يطبق على السفينة، كما كانت الدفة ومروحة الدفع الخلفية الخاصة بالمحرك المساعد، مصنوعتان من حديد الزهر، محميتان تماماً ويمكن رفعهما إلى سطح السفينة بسرعة في حالات الطوارئ. أما جسم السفينة فقد كان مصنوعاً من خشب البلوط ويبلغ إجمالي سمكه اربع اقدام. كما كان الجسم مدعماً باطر إضافية خارجية علاوة على دعامات داخلية مصنوعة من الحديد والأخشاب. كما وفرت قمرات البحارة التي كانت مبطنة بطبقات سمكية من اللباد والفلين، وشعر الرنة، راحة أكبر للطاقم. وكانت السفينة مزودة كذلك بطاحونة هوائية صغيرة على متنها لتوليد الطاقة اللازمة لنظام الإضافة الكهربائية على السفينة.

سنة 1893م، انطلق نانسن من النرويج وبرفقته أحد عشر بحاراً، في مسار يتقاطع مع المسار الذي سلكته السفينة «جينيت». وبحلول شهر سبتمبر، وكما هو مخطط له، حوصرت السفينة في الجليد إلى الشمال من جزر دي لونغ. ولمدة سنتين أبحرت السفينة بأمان مع التيارات المائية المتدفقة، وقام نانسن بتدوين عدد كبير من الملاحظات. وكان أداء السفينة رائعاً على الجليد، وعلى الرغم من بطء الجرف (التيار)، وهو ما كان يتوقعه نانسن - فقد كانت حركته تسير مع حركة عقارب الساعة باتجاه الغرب من جزر دي لونغ. وبعد أن شعر بالضجر، وبحث عن قدر من التحدي، غادر نانسن السفينة في الرابع عشر من شهر مارس 1895م بصحبة فريدريك جوهانسون، وستة وعشرين من كلاب الزلاجات في محاولة للوصول إلى القطب الشمالي. واستطاع نانسن ورفاقه تجاوز الدرجة 86 شمالاً، إلا أن الربيع كان على وشك الانتهاء، فلم يتمكنوا من مواصلة التقدم شمالاً، وبالكاد استطاعوا الوصول إلى جزيرة فرانز جوزيف مع اثنين فقط من كلابهم، حيث قضوا فصل الشتاء هناك، ثم أبحروا عائدين إلى النرويج في اغسطس من العام نفسه، برفقة المستكشف الإنجليزي فريدريك جاكسون. كانوا محظوظين بما فيه الكفاية لمقابلته هناك بالمصادفة.

وفي أغسطس سنة 1896م، تمكن أوتو سيفردروب، قبطان السفينة «فرام» من إخراجها بسلام من الجليد إلى بحر جرينلاند. وفي رحلة استكشافية أخرى بعد ذلك بعامين، أجبر سيفردروب على قضاء الشتاء في أحد الملاذات الشتوية بعد أن حاصرت الثلوج الكثيفة سفينته على الساحل الغربي لجزيرة إلزمير. وفجأة ظهر بيري، الذي كان مرتاباً فيما يحدث، في معسكر سيفردروب، حيث كان يريد أن يطلع على نوايا القبطان النرويجي. وقد أخبره النرويجيون بأن نيتهم هي الاستكشاف غرباً، وليس محاولة الوصول إلى القطب الشمالي. وحين دعاه النرويجيون إلى تناول بعض القهوة، سخر منهم، وأسمعهم كلاماً فظاً، وغادر المكان من دون أن يودعهم في زلة أخرى لابد أنه قد ندم عليها فيما بعد.

وبين عامي 1898م و 1902م قام سيفردروب ورفاقه باستكشاف مناطق جنوب وغرب جزيرة إلزمير، واكتشفوا جزيرة أكسل هيبيرج، وجزر أموند وإلف يرنجينز(*) التي تقع إلى الغرب من

(*) كان الكونت أكسل هيبربج وكل من اموند وإلف رينجيتر وهم من أصحاب مصانع الجعة الأثرياء، قد شاركوا بسخاء في تمويل الرحلات الاستكشافية التي قام بها كل من نانسن وسيفردروب.

إلزمير، محققين إنجازات لم تحققها أي بعثة أخرى منذ رحلة باري الأولى، من حيث عدد الأراضي التي تم اكتشافها، والخرائط الجديدة التي تم رسمها، الأمر الذي لم يتقبله الأمريكيون على نطاق واسع، تماماً مثل أخبار الاستكشافات الدنمركية لشرق جرينلاند.

* * * * *

وفي أثناء قضائي لأحد فصول الشتاء في يلونايف، في المناطق الشمالية الغربية، وحين استمرت درجة الحرارة دون 40 فهرنهايت لمدة سبعة أسابيع، توافر لي الكثير من الوقت للقراءة. وفي أثناء ذلك الوقت كانت تتردد في ذهني أصداء مناقشة، دارت بيني وبين رجل يدعى ريتشارد ديفيز، حول فهم الأرض، وقد دارت المناقشة في مكتب ديفيز بالمعهد القطبي لأمريكا الشمالية، في مدينة كالجاري. وفي أثناء تلك المناقشة، كنت قد أبديت إعجابي الشديد بمجموعة من السجلات التي كتبت عن الرحلات، التي تمت عبر مناطق التندرة إلى الشمال وإلى الشرق من يلونايف، تلك السجلات التي كتبها صامويل هيرن وجون فرانكلين وواربورتون بايك وإنست طومسون سيتون. وبالنسبة إلى هيرن الذي تعامل مع الأرض، مثل مرافقيه من هنود السليفي والتشيبويان في أثناء الرحلة التي قاموا بها إلى المحيط الشمالي (1770 - 1772م)، لم تظهر الأرض في كتاباته بمظهر العدو أو الخصم، ولم يصورها على أنها جرداء لا حياة فيها. لكن كتابات فرانكلين تظهر نظرة مختلفة، فالأرض في – هذه الحالة – هي التي أوحت لفرانكلين بالاسم الذي أطلقه عليها، والذين التصق بها إلى الأبد وهو البرينز(*)، حيث تعرضت الرحلة الاستكشافية التي قام بها فرانكلين بين عامي 1819 - 1821م إلى العديد من الأحداث الرهيبة منها إعدام بعض أفراد البعثة، والمجاعة، وجرائم القتل، وأكل لحوم البشر. أما كتابات بايك (1890م) فقد عَدّت التندرة مكاناً موحشاً، يتعين على الرجال الأشداء والحكماء أن يقهروها ليتمكنوا من البقاء على قيد الحياة فيها. وبالنسبة لـ سيتون (1907م) فقد كانت مناطق التندرة في غاية الجودة، وتشكل إمكانيات

(*) كلمة Barren تعني الأرض القاحلة، أو المجدبة، أو المساحات المقفرة الجرداء (المترجم).

اقتصادية واعدة، لدرجة انه قد حاول تغيير اسمها من بارينز إلى البراري القطبية.

وبسهولة يمكن للمرء ان يتخيل تصورات مختلفة، في عصور مختلفة، لرجال ذوي خلفيات مختلفة، لمنطقة واحدة من الأرض، بما عليها من نباتات وحيوانات وأشجار صغيرة، ومناخ وتلال وانهار وبحيرات. وقد ناقشت مع دافيد - الذي كان قد كتب بحثاً يقارن فهي بين كتابات رحالة القرن العشرين في المناطق القطبية السفلى - تلك التداخلات والتناقضات التي تضمنتها سجلات هؤلاء الرحالة، حيث قال: إنه عند مقارنة تلك الكتابات ببعضها بعضاً يظهر مدى تأثير الوصف الذي تطرحه الكتابات السابقة عن منطقة ما في الكتابات اللاحقة عن المنطقة نفسها. وبعبارة أخرى فإن الكتابات اللاحقة، تؤكد ما تشير إليه الكتابات السابقة، ومثال على ذلك، نجد ان وصف بايك للمناطق القطبية الشمالية بأنها «أكثر الأماكن قفراً ووحشة على وجه الأرض» يرجع - جزئياً - لقراءة اعمال كاتب ما دون الآخرين قبل الخروج في الرحلة.

وفي أثناء فترات القراءة الطويلة في يلونايف، كنت أفكر ملياً في الحذر الذي يجب على المرء ان يتوخاه عند تعامله مع أي من هذه الكتابات، وفي النزعة إلى جعل سرد واحد ينال إعجاباً تلخيصاً للتجربة بأسرها فنتغاضى عما سواه. وشعرت بميزة قدرتي على السير على بعض من تلك الأراضي التي زرعها هؤلاء المستكشفون جيئة وذهاباً. وحتى وإن كنت لا أحفل دائماً بحالة العقل، إلا أنني أستطيع أن أشعر بأنهم كانوا هنا. ولقد زخرت كتابات هيرن بالعديد من التفاصيل الدقيقة الجميلة. وفي أثناء هذا الأسبوع الذي قضيته في القراءة في يلونيف، تجسد لي كيف أننا لا نقدر عادة على التحقق مما نقرأ عن أماكن بعيدة عنا، وكيف أن قراءة ثلاث أو أربع كتابات مختلفة عن منطقة واحدة، تمكن المرء من ملاحظة الثغرات والفجوات التي تظهر في فهمنا لأي شيء، وهناك شيء آخر حين يسعى المرء إلى استشعار الأرض ذاتها، ومعرفة كينونتها، فإنه لا يستطيع مقاومة الانسياق نحو هؤلاء الناس الذين مشوا بين جنباتها، فيفكر في الأرض وفيهم في آن واحد.

وتزخر أدبيات الرحلات الاستكشافية إلى المناطق القطبية الشمالية في القرن التاسع عشر بالكثير من المصادفات، وعمليات الإنقاذ المثيرة، التي تتم في اللحظات الأخيرة، وحالات اليأس الشديد، التي قادت في بعض الأحيان إلى إطلاق رصاصة رحمة لتامين غذاء لرجال يتضورون

جوعاً، وخطابات سرية كتبت إلى أحباء مفتقدين. وهناك أيضاً لحظات من الهدوء المتسامي، مثل ما تضمنته كتابات باري عن إرهافه السمع لأصوات البشر على الأرض المترامية أمامه، والجَلد الهادئ في مواجهة الموت القادم لا محالة. وفي بعض الأحيان، تبدو تلك الأدبيات كما لو كانت لشخصيات في حبكة أدبية لواحدة من الروايات العظيمة، التي كتبت في العصر الفيكتوري حول سفن ورجال يعاودون الظهور فجأة في ظروف غريبة، مثل السير جون روز الذي أُنقذ في سنة 1831م، بعد أن أمضى أربع سنوات محاصراً بين جليد خليج الأمير ريجينت، ومن الذي أنقذه؟ إنه طاقم السفينة «إزابيل»، سفينته التي كان قد أبحر بها من قبل في سنة 1818م عبر مضيق سميث، والتي تحولت منذ ذلك الوقت إلى سفينة لصيد الحيتان. أما السفينة «تيرور» التي تمكن جورج باك بشق الأنفس من إخراجها من جليد قناة فوكس سنة 1837م، في تلك الرحلة التي تعرض فيها هو ورجاله لظروف مأساوية تقترب من حد الكارثة، وكادت أن تضع حداً للرحلات الاستكشافية البريطانية في المناطق القطبية الشمالية، كانت هي سفينة القيادة في حملة جون فرانكلين في سنة 1845م.

وعلاوة على أن فرانسيس ماكلنتوك كان أول من عثر على سجلات حملة جون فرانكلين المنكوبة، في جزيرة الملك ويليام في سنة 1859م، فقد أسهم أيضاً في إكمال ماكلور لاستكشاف الممر الشمالي الغربي. ففي ربيع سنة 1815م، ترك رسالة مثبتة تحت أحد الصخور، في المرفأ الشتوي بجزيرة ميلفيل، يوضح موقع سفينته في ملاذها الشتوي. وقد عثر ماكلور على هذه الرسالة في ربيع العام التالي، ولاحظ أنه لم يمض على تاريخ كتابتها وقت طويل، وأضاف إليها بعض المعلومات التي كانت متوافرة لديه عن موقع السفينة «إنفستيجيتور» في خليج الرحمة والظروف القاسية التي يمكن أن يمر بها طاقم السفينة هناك. وفي خريف سنة 1852م، أدخل أحد زملاء ماكلنتوك بعض التصويبات على ملاحظته، وتم تحديد المصير الذي آلت إليه «إنفستيجيتور»، ومن ثم تمد الإعداد لإنقاذها في ربيع سنة 1853م. (وقد تصادف وجود رجل واحد من طاقم السفينة «إنفستيجيتور» يدعى صمويل كريسويل عند مغادرة سفينة الإمداد «فونيكس» لجزيرة بيتشي متوجهة إلى لندن، في الرابع والعشرين من أغسطس سنة 1853م. وبذلك أصبح أول إنسان يتمكن من إكمال الإبحار عبر الممر الشمالي الغربي. أما بقية طاقم

«إنفستيجيتور» فقد قضوا الشتاء في المناطق القطبية الشمالية). وفي عام 1915م، اكتشفت ستيفنسون رسالة أخرى كان ماكلنتوك قد تركها على الساحل الشمالي لجزيرة الأمير باتريك، حيث قام بتسليمها لأرملة الأخير في سنة 1912م.

ومن بين الكثير من الأحداث المثيرة، رسخ عدد منها في ذهني تماماً.

وفي عام 1900م، شيد بيري نصباً حجرياً على الساحل الشمالي الشرقي لجرينلاند، عند الدرجة 82 °37 شمالاً. وفي أثناء السنوات السبع والثلاثين السابقة على هذه الواقعة، كان الدنمركيون يقومون بعمليات استكشاف منتظمة للساحل الشرقي البعيد لجرينلاند، وكانت الثغرة الوحيدة في خرائطهم هي المنطقة المحصورة بين النصب الذي شيده بيري ورأس بسمارك (الدرجة 76 °54 شمالاً) والتي تبلغ مساحتها نحو 400 ميل. وفي اغسطس 1906م، وصلت البعثة الاستكشافية الدنمركية إلى رأس بسمارك مستكملة بذلك عمليات المسح الساحلي. وفي الأول من شهر مايو سنة 1907م انفصل كل من مايلوس إركسن، وهوج هاجين ومرافق من الأسكيمو يدعى جورجين برونلاند عن مجموعة أخرى بقيادة ج. ب. كوخ بعد أن كانوا قد وصلوا سوياً إلى رأس بسمارك وقضوا فصل الخريف في توفير المؤن والاستعداد، حيث اتجه كوخ إلى نصب بيري، فيما توجه إركسن غرباً نحو مضيق الاستقلال، وهو المدخل الشمالي إلى قناة كان بيري قد أشار في تقاريره إلى أنها تقود إلى الساحل الغربي لجرينلاند، وفي السابع والعشرين من مايو، وبمحض المصادفة، التقت المجموعتان مرة أخرى، بعد أن عثر كوخ على نصب بيري، فيما كان أركسن قد أبحر لمسافة 125 ميلاً في مضيق الدنمرك إلى أن وجد الطريق مسدوداً أمامه، حيث أخبر زميله أنه يعتزم الإبحار عبر مضيق الاستقلال إلى المناطق المجاورة لـ مَجلَدة الأكاديمية (ممر مائي ضيق متجمد) وأنه يعتقد أن بإمكانه البدء من هناك في البحث غرباً عن قناة بيري. وكان يعتقد أن الأمر لن يستغرق أكثر من بضعة أيام.

بيد أن مجموعة إركسن لم تعد أبداً. ولم يحالف النجاح عمليات البحث التي قام بها كوخ ورفاقه في فصل الخريف، والتي قاموا في أثنائها بترك كميات من المؤن على مسافات متفاوتة على الخط الساحلي. وفي الربيع التالي، قاموا بعمليات بحث أكثر تركيزاً في المناطق الداخلية من الساحل. وفي كهف صغير، كان يستخدم ملجأً على ساحل أرض لامبرت عثروا على جثة

برونلاند، وعند قدميه زجاجة تحتوي على خرائط هاجين كافة، ومفكرة برونلاند الشخصية، وقد كتبت كل صفحاتها بلغة الأسكيمو، باستثناء الصفحة الأخيرة التي كتبت باللغة الدنمركية، وفيها يقول برونلاند:

حدثت الوفاة عند الفيوردة 79، بعد محاولة العودة من طريق الجليد البري في شهر نوفمبر. لقد وصلت إلى هذا المكان تحت ضوء القمر الشاحب، ولم أتمكن من التقدم أكثر من ذلك بسبب الظلمة وقدميّ المتجمدتين. جثث بقية الزملاء ترقد على بعد فرسخين ونصف الفرسخ وقد توفي هاجين في الخامس عشر من نوفمبر، وتبعه مايلوس بعد ذلك بنحو عشرة أيام.

وقد اتضح فيما بعد أن الثلاثة قد واجهوا طقساً دافئاً في طريق عودتهم، مما استحال معه السفر عبر الجليد البحري، ثم نفد ما معهم من طعام، ونفقت كلابهم، بعد أن وجدوا أنفسهم أمام جغرافيا عجزت شروحات بيرن «التي اعتمدوا عليها»، عن وصفها فلم يستعدوا لها. وعلى أية حال، فقد قام هاجين بتصحيح تلك الأخطاء في الخرائط التي حملها هذا الأسكيمو معه إلى النهاية.

وفي الواقع، لم يكن هناك شيء اسمه قناة بيري، وفي المكان الذي أشار فيه بيري إلى وجود امتداد متجمد يخرج من بحر جرينلاند، عثروا على اثنين من شبه الجزر الكبيرة، هما أرض ولي العهد الأمير كرستيان، وتلك الأرض التي تعرف الآن باسم إركسون (وانصافاً لـبيري، يتعين الإشارة إلى أن مستكشفين آخرين قد وقعوا في مثل هذه الأخطاء، لكن قليلاً منها عُرف بمثل هذه الطريقة المأسوية).

وقد حفلت رحلة بيري نفسه بالعديد من لحظات اليأس، ومنها واحدة من أكثر اللحظات رعباً في أدبيات المناطق القطبية الشمالية. ففي سنة 1906م وفي أثناء عودة بيري ومجموعته إلى الجنوب عبر الجليد بعد محاولة فاشلة للوصول إلى القطب المتجمد الشمالي، اعترضت طريقهم قناة مائية بين الجليد يبلغ عرضها نحو نصف الميل. واضطرت المجموعة إلى التخييم على الجانب الشمالي للقناة، وأرسلوا الرجال للاستكشاف شرقاً وغرباً، وانتظروا يوماً تلو الآخر على أمل أن تنغلق القناة أو تتجمد، وبدأت مؤنهم تتناقص بشكل كبير، وأخيراً اضطر الرجال لقتل كلابهم لأكل لحومها، وإلى تكسير الزلاجات للاستفادة من وقودها في التدفئة. وفي أثناء ذلك كان عرض القناة قد اتسع

ليصبح ميلين، لكن على بعد من مخيمهم، كانت هناك طبقة جليدية رفيعة تغطي سطح القناة، لكنها ما كانت لتتحمل عبور رجل واحد عليها بدون استخدام الحذاء المخصص للمشي على الجليد، وكانت زلة بسيطة، أو توقف لمجرد لحظة على هذه الطبقة الرقيقة من الجليد الحديث، تعني السقوط في المياه. وبحرص شديد، قام الرجال بتثبيت أحذية الجليد في أقدامهم، وانتشروا في خط عرضي، تفصل بينهم مسافات متباعدة، وانطلقوا في محاولة للعبور يخيم عليهم صمت مطبق، يحركون أقدامهم خطوة تلو الخطوة في تتابع بطيء وحذر، وطبقة الجليد الرقيقة تتشرخ من تحت أقدامهم محدثة موجات قوسية صغيرة عند أطراف أحذيتهم. وحين تكسر الجليد تحت قدمي بيري في خطوتين متتاليتين، ظن أنها النهاية وأنه هالك لا محالة، وسمع من يصرخ خلفه قائلاً: «فليرحمه الله»، لكنه لم يجرؤ على التوقف، أو حتى النظر خلفه، وحينما وصلوا إلى الجليد المتماسك على الضفة الأخرى من القناة لم يقدر أحد منهم على التفوه بكلمة واحدة من هول الموقف، واستطاع بيري أن يسمع صوت الأنفاس المرتجفة لاثنين من الرجال على مقربة منه، وكانت الصيحة التي سمعها وهو يعبر القناة، من رجل يعبر خلفه كان حذاؤه هو الآخر قد كسر الجليد من تحته. لكن الجميع تمكنوا من النجاة.

وتتناقض هذه اللحظات، التي تمثل القوة والحدة التي عاش بها بيري، مع رحلة قطبية أخرى حققت الكثير من الإنجازات، لكنها لم تنل قدراً كبيراً من الشهرة، وكان قد قام بها شخص يدعى ريتشارد كولنسون، الذي كان قد غادر إنجلترا في شهر يناير 1850م على متن «إنتربرايز»، يرافقه ماكلور في السفينة «إنفستيجيتور». وفي موقع ما من الطريق إلى بحر بيرنج، اعتقد ماكلور أنه سيكون قريباً أول من يتمكن من الإبحار عبر الممر الشمالي الغربي، وأنه سيتمكن من العثور على السير جون فرانكلين، إذا أبحر حول كيب هورن عبر هاواي. وكانت فرصة ماكلور الذي بلغ الثالثة والأربعين ضئيلة في الحصول على ترقية، لذا قرر أن يسبق قائده.

أما كولنسون الذي كان متخلفاً عن ماكلور بعدة أسابيع (كان ماكلور قد أبحر بجرأة عبر مياه غير معروفة على الخرائط عبر سلسلة جزر اليوتيان) فقد وصل متأخراً جداً، فلم يتمكن من اجتياز الجليد في نقطة بارو، فاقفل عائداً إلى الجنوب، حيث قضى الشتاء في جزيرة هونج كونج. وفي صيف سنة 1815م، تمكن من الالتفاف حول نقطة بارو واتبع، دون أن يعرف، الطريق ذاته الذي

اتبعه ماكلور في سنة 1850م عبر مضيق أمير ويلز. وفي إحدى جزر الأميرة الملكية، عثر كولنسون على رسالة تقول: إن ماكلور قد حاول عبور مضيق فيسكونت ميلفيل ليصل إلى ملاذات بيري الشتوية، إلا ان الجليد الكثيف منعه من تحقيق ذلك، وقد حاول كولنسون معاودة الكَرة، لكنه ارتد هو الآخر، فعاد إلى إلى الجنوب والتف حول رأس نلسون وأبحر شمالاً بمحاذاة الساحل الغربي لجزيرة بانسلك (من دون أن يعرف أيضاً أن ماكلور يسبقه بأسبوعين فقط)، حيث اثبت الجليد في هذه المناطق انه عقبة لا يمكن تجاوزها، فاستدار كولنسون مرة أخرى عائداً إلى الجنوب واتجه إلى الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة فيكتوريا حيث قام بتجهيز ملاذات لقضاء فصل الشتاء هناك.

وفي سنة 1852م، استطاع كولنسون ببراعة كبيرة أثبتت كفاءته العالية كبحار مقتدر، أن يبحر بسفينته «انتربرايز» التي يبلغ وزنها 300 طن، عبر مضيق الدلفين والاتحاد Dolphin & Union Stratit، ليقضي فصل الشتاء في خليج كمبريدج على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة فكتوريا. ولو كان برفقته مترجم (حيث كان المترجم الوحيد المرافق للرحلة برفقة ماكلور) لكان من الممكن أن يعرف الموقع الذي شهد مأساة جون فرانكلين ورجاله، لكنه تمكن فقط من جمع بعض مخلفات الحملة المنكوبة مما كان في حوزة الاسكيمو المحليين. وفي ربيع 1853م، قام باستكشاف الساحل الشرقي لجزيرة فكتوريا وصولاً إلى جزيرة جيتش هد، مكتشفاً أن راي كان يتوقع وصوله إلى هذه النقطة في سنة 1851م، أي قبل أن يتمكن كولنسون من العودة بما تمكن من الحصول عليه من مخلفات هو الآخر بنحو سنة تقريباً). وفي صيف سنة 1853م، أبحر كولنسون عائداً إلى إنجلترا، بعد أن أبحر مرة أخرى من دون أن يتعرض لأي مشاكل عبر المياه الغادرة الضحلة إلى الجنوب من جزيرة فيكتوريا، حيث أجبر على اللجوء إلى مضيق كامدن بالاسكا لقضاء فصل الشتاء، وأخيراً تمكن من الوصول إلى إنجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح في شهر مايو سنة 1855م.

وخلال السنوات الخمس التي استغرقتها رحلة كولنسون، لم يمت من رجاله الخمسة والستين سوى ثلاثة فقط. وعلى وفق أحد المؤرخين، فإن كولنسون فد تفوق على معاصريه جميعهم في العناية بصحة رجاله وروحهم المعنوية، ومن بين مخترعاته، طاولة بلياردو صنعت من كتل الجليد ونصبت على جليد البحر في مضيق كمبريدج، للتغلب على الضجر والملل في فصل الشتاء، وقد صنع قماش الطاولة من جلد حيوان الفظ المبطن ببقايا الحبال القديمة، أما سطح الطاولة فكان عبارة

عن طبقة ملساء من جليد المياه العذبة. أما الكرات فقد نحتت يدوياً من الخشب. وعن هذه الطاولة كتب كولنسون قائلاً: «لا أعتقد أن أياً من الرجال كان قد مارس لعبة البلياردو من قبل، لذا لم يكن في وسعهم الشكوى من رداءة الطاولة، بل إنهم نظروا إليها بتقدير وإعجاب».

وقد امتازت رحلة كولنسون بالمسافة التي تم قطعها، ومدة الرحلة، وصعوب الملاحة، والانضباط، والصحة الجيدة التي كان يتمتع بها الضباط والبحارة لدى العودة. بيد أن عدم تعرض الرحلة لمصاعب قد حجب الإنجازات التي حققها كولنسون والتي لا يوجد إنجازات توازيها، بل وساعدت إلى حد ما في ترويج المزاعم مالكور.

* * * * *

وحين توجه كولنسون شمالاً بمحاذاة الساحل الشرقي لجزيرة فكتوريا في سنة 1853م، كان بحوزته اثنتين من الزلاجات، وكانت في نيته أن يرسل واحدة منهما عبر مضيق فكتوريا إلى جزيرة الملك ويليام. ولو فعل ذلك لكان قد وفق في العثور على الهياكل العظمية، والنصب الحجرية، والمستودعات المهجورة، وهي ذاتها الأدلة التي عثر عليها ماكلنتوك بعد ذلك بست سنوات ليكشف المصير الذي انتهى إليه جون فرانكلين ورجاله. بيد أن مسافة الخمسة والخمسين ميلاً التي يغطيها الجليد في المضيق بدت عقبة كئودا لا يمكن تجاوزها، فأحجم كولنسون عن إرسال الزلاجة.

وفي شهر إبريل سنة 1848م، ترك القبطان كروزير ربان السفينة «إريبوس» وهو الضابط الثاني في بعثة جون فرانكلين، رسالة في نصب حجري على الساحل الشمالي الغربي لجزيرة الملك ويليام، موضحاً أنه قد وصل إلى هذا المكان بصحبة 104 من الرجال بعد أن قطعوا نحو 30 ميلاً عبر منطقة من الجليد البحري الغادر، وأن السفينتين «إيبوس» و «تيرور» قد تجمدتا في الجليد في مضيق فكتوريا لمدة عامين وأن فرانكلين وثلاثة وعشرين من الرجال قد لقوا حتفهم هناك، وأنه كان ينوي قيادة الناجين مسافة 250 ميلاً إلى الجنوب والشرق على أمل الوصول إلى مصب نهر باكس فيش، حيث كان يأمل، فيما يبدو، في الوصول إلى إحدى المستوطنات هناك.

وفي محيط رأس جون هيرسكيل على الساحل الجنوبي لجزيرة الملك ويليام قابل كروزير ومعه

أربعون من الرجال المنهكين والمتضورين جوعاً، أربع عائلات من الأسكيمو، حيث اقترب منهم كروزير متوسلاً إليهم بالإشارات أن يفتحوا الأمتعة التي بحوزتهم، فأخرجوا له قطعاً من لحم الفقمة، فالتهمها على الفور، موضحاً أنه يجب عليهم إعطاء بعض اللحم لبقية الرجال، وبالفعل قام الأسكيمو بتوزيع قطع من لحم الفقمة على بقية الرجال، وقضوا معهم الجزء المتبقي من الليل، وفي الصباح توسل إليهم كروزير أن يبقوا معهم، مكرراً مرة تلو الاخرى الكلمة التي كان يعتقد أنها تعني «فقمة»، إلا أن العائلات تركتهم. فقد كانت هذه المجموعة من الأسكيمو على يقين من أن الموارد الطبيعية في هذه المنطقة لن تجود بما يكفي لإطعام أربع عائلات ومجموعة من أربعين رجلاً.

وتعدّ توسلات كروزير للأسكيمو واستعطافه لهم - كما أوضحت التفاصيل التي سردها الأسكيمو بعد عامين من الواقعة - واحدة من أكثر اللحظات رسوخاً في تاريخ المناطق القطبية الشمالية. وكان كروزير قد غادر إنجلترا سنة 1845م، وهو يحمل كل التوقعات بالنجاح في تحقيق المهمة التي هو بصددها، وفي ذهنه الحصول على مكافأة أو ترقية لقاء هذا النجاح. وحين ثبت أن التقنية الحديثة، وتقاليد البحرية غير كافيين لنجاح المهمة، انهارت ثقته بنفسه، فقد تدهور به الحال إلى الاستجداء من أناس كان يعتبرهم منحطين اجتماعياً وأخلاقياً، أناس لا وزن لهم على الإطلاق، مقارنة بما يمثله شعبه من قيم وإنجازات.

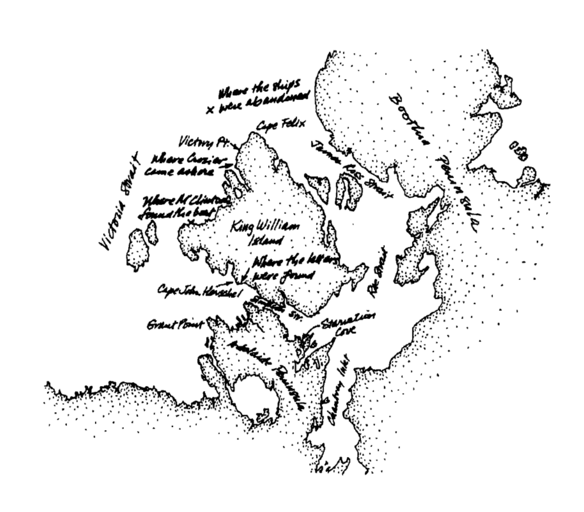
وبعد هذه المواجهة مع الأسكيمو على الشاطئ، أصبح كروزير ورجاله في حالة من الانهيار التام، وقد استمر الرجال في التساقط الواحد تلو الآخر، وهم يتتبعون آثار مجموعة الأسكيمو، وقد انتابتهم حالة مأسوية أنستهم أين هم، وأي أخطار أحدقت بهم. وفي قارب مهجور عثر عليه ماكلنتوك على الشاطئ، وجدوا العديد من الأشياء، منها قفاز لطفل صغير ربط كل إصبع من أصابعه على كمية من مسحوق، ونسخة من قصة «قس وكفيلد»(*)، وعلبة سيجار مغزولة من الحشائش، ونظارات شمسية زرقاء مطوية بعناية في علبة معدنية، وزوج من النعال المنزلية موشى

(*) قصة للروائي الإنجليزي الشهري أوليفر جولد سميث (1730 - 1774م)، وتحكي قصة قسيس طيب فقد ثروته مما جعله ينتقل بأسرته إلى بلد آخر محاولاً العيش في سلام، إلا أنه يصادف الكثير من المصاعب والنكبات ولكن إيمانه بالله يعينه على التحمل، وتنتصر الفضيلة في النهاية. ومن اعماله ايضاً مسرحية «تمسكنت حتى تمكنت». (المترجم)

بخيط أحمر، وطاقم أكواب شاي، وقطعة نقود معندية تعود إلى سنة 1831م.

وهناك بعض الدلائل في المكان الذي مات فيه آخر ثلاثين رجلاً مجتمعين، فمن المرجح أنهم كانوا يحاولون اصطياد أول إوزة ثلجية تصل من الجنوب. وفي سنة 1923م، توقف كوند راسموسين في ذلك المكان الذي أطلق عليه غار المجاعة Starvation Cave بالقرب من خليج بارو في شبه جزيرة اديليد للصلاة عند قبور الموتى. وهنا في هذا المكان أيضاً تم العثور على سجلات الرحلة، وقد اغرقتها المياه، وذرتها الرياح هنا وهناك، في فوضى بحيث لم يمكن فك طلاسمها.

وبعد راسموسين (وقبله أيضاً)، بذل كثيرون محاولات للبحث عن أي مفاتيح يمكن أن تساعد في تفسير ذلك الفشل التاريخي، وقد استندت هذه المحاولات إلى شهادات الأسكيمو التي



ذكرت أن السفينة الأولى قد غرقت في مضيق فكتوريا، في حين غرقت الثانية عند نقطة جرانت قبالة ساحل شبه جزيرة أديليد. وفي سنة 1967م، قامت القوات المسلحة الكندية بعملية مسح دقيق ومكثف للمنطقة بحثا عن أي آثار أو مقابر مطمورة، إلا انه لم يعثر على أي شيء، ولا تزال هناك رغبة قوية قائمة إلى وقتنا هذا في المناطق الشمالية لكتابة الحلقة الأخيرة من هذه القصة.

* * * * *

وبعد سنتين من انتهاء البحث رسمياً عن بعثة جون فرانكلين، وفي سنة 1856م تقريباً، كان هناك شامان من الأسكيمو يدعى كيلار اسواك مقتنع بأن هناك مجموعات من الأسكيمو المجهولة تعيش في مكان ما بعيد إلى الشمال، فانطلق من جزيرة بافن وبصحبته نحو اربعين رجلاً إلى جزيرة سومرست ومنها اتجهوا إلى جزيرة كورنواليس، ثم اتجهوا شرقاً بعد ذلك بمحاذاة ساحل جزيرة ديفون، وفي أثناء الطريق تراجع أكثر من نصف الرجال الذين كانوا بصحبة كيلاراسواك، فقد كان الصيد صعباً، كما أنهم لم يكونوا مقتنعين تماماً بفكرة هذا الشامان. وأخيراً، في سنة 1863م، وبعد رحلة استمرت عدة سنوات من دون الاعتماد على أي خرائط، باستثناء تلك التي كانت في مخيلة كورنواليس، عبروا مساحات الجليد البحري من رأس سابين بجزيرة إلزمير إلى الساحل الشرقي لجرينلاند، حيث عثروا هناك بالفعل على مجموعات من الأسكيمو، وبالقرب من إيتاه قابلوا اثنين منهم، كان أحدهما أكاتاك ذو الساق الخشبية، التي أهداها له صيادو الحيتان الإنجليز. ولم يكن الأسكيمو القادمون من جزيرة بافن قد رأواشيئاً كهذا من قبل، مما اصابهم بدهشة كبيرة.

وقد عاشت هذه المجموعة من أسكيمو جزيرة بافن مع أقرانهم من أسكيمو القطب الشمالي، لمدة خمس أو ست سنوات، قضوا أغلبها في المناطق المحيطة بمنطقة سيورابالوك. وفي الأصل، فقد انفصلت المجموعتان عن بعضهما بعضاً في أثناء إحدى الفترات المناخية التي تعرف باسم «نيو بوريال» أو العصر الجليدي الصغير، والذي امتد من 1450م إلى 1850م. ومع عودة المناخ الدافئ في أعقاب تلك الحقبة، اختلفت أنواع وأعداد الحيوانات، ولم تصادف جماعات أسكيمو القطب

الشمالي نجاحاً كبيراً في صيد تلك الحيوانات، حيث كانوا قد فقدوا مهارات الصيد الضرورية في أثناء سنوات تلك الفترة. إلا أن أسكيمو جزيرة بافن علموهم تلك المهارات مرة أخرى، ومنها بناء واستعمال قوارب الكاياك، وهي عبارة عن قوارب صغيرة يمكن لرجل حمل الواحد منها بسهولة بين ذراعيه، فهي في خفة السلال. كما علموهم أيضاً مهارات استخدام القوس والسهم، وأساليب البحث عن قطعان الرنة، وصيد أسماك الشار في أثناء هجرتها.

ولم يخطر على بال الأوروبيين أبداً، أنه في الوقت الذي كانوا يقومون فيه برحلاتهم الاستكشافية إلى المناطق القطبية الشمالية، كان الأسكيمو يقومون أيضاً بعمليات استكشاف لأراضيهم. فقد كانوا ينظرون إلى هذه المناطق على أنها مناطق بدائية توقف الزمن عندها، أو مجرد لوحة زيتية مسكونة بأناس لا حول لهم ولا قوة، واعتقدوا أن هذا السكون والبرد القارص في هذه المناطق لا يعكسان سوى حالة من الجمود البيولوجي، كما اعتقدوا – مخطئين – أنه لا شيء يتغير هنا، فيما ظنوا انه صحراء أو أرض يباب.

وقد جاء انتقاد ستيفنسون وغيره لعدم مقدرة كروزير على البقاء والنجاة، في منطقة تعج بحيوانات الصيد، استناداً إلى النجاح الذي تمكن احد ضباط سلاح الفرسان الأمريكيين من تحقيقه في المنطقة ذاتها(*). إلا أن ذلك نقد غير عادل. فإذا كان كروزير يعرف أي شيء عن الصيد أصلاً، فإنه كان يعرفه كنوعاً من الرياضة وليس عملاً منظماً، وليس من المحتمل أنه أو أياً من رجاله كان يمكن أن يكتب لهم النجاة، إلا إذا كانوا في منطقة تكثر فيها بالفعل حيوانات الرنة وثيران المسك. ومن الواضح أن هذا الحال لا ينطبق على منطقة جزيرة الملك ويليام – شبه جزيرة أديليد. والحيوان الوحيد الذي كان يمكن أن يشكل مصدر غذاء، يعينهم على البقاء والنجاة في هذه المنطقة حو حيوان الفقمة، ولكن لم تكن لديهم المهارة المطلوبة لصيد هذا الحيوان، كما أنه من المستبعد جداً وجود أعداد كافية من الفقمة بما يضمن لهؤلاء الرجال البقاء أحياء. ولهذا السبب لم يكن هناك الكثير من الأسكيمو في هذه المنطقة. ويعكس الوصف الذي روّجه له ستيفينسون للمناطق

(*) في سنة 1879م، تمكن فريدريك سكواتاكا واثنان من المرافقين من إنجاز رحلة استمرت خمسين اسبوعياً قطعوا خلالها 3200 ميل على الزلاجات انطلاقاً من خليج هدسون إلى جزيرة الملك ويليام والعودة، وقد اعتمدوا على الارض في توفير الغذاء لهم طوال فترة تلك الرحلة.

القطبية الشمالية، على أنها تعج بأنواع الحيوانات في كل ركن من أركانها، (كما أنه انتقد جريلي علانية لفشله في توفير الطعام لرجاله من الحيوانات التي توجد في المنطقة) سوءَ فهمٍ لهذه المناطق لا يختلف عن انطباع البريطانيين المسبق عنها بأنها صحراء جرداء من الناحية البيولوجية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن تحركات حيوانات المناطق القطبية الشمالية، تتسم بعدم الوضوح. إلا أن الأبحاث الأثرية قد أثبتت أن المناطق الرئيسية للتطور الحضاري في المناطق القطبية الشمالية مثل بحر بيرينج وحوض فوكس كانت تتمتع بتاريخ طويل، ومنتظم لأعداد وأنواع الحيوانات، ومع ذلك فإن تلك الحيوانات كانت تظهر بشكل موسمي في هذه المناطق، فحيوانات الرنة مثلاً لها أماكن محددة ومتوارثة للإنجاب، وكذلك الطيور، لها مناطقها الصخرية المتوارثة التي تعشش فيها، وكذلك الحال بالنسبة لثدييات النرول، التي تأتي في ميعاد معلوم كل سنة إلى مناطق محددة ومعروفة. ومن ثم، فإنه إذا اختار المرء وقتاً غير مناسب للبحث فستبدو له هذه البقاع ساكنة خاوية كما لو أن شيئاً لم يحدث فيها أبداً.

وفي بعض الأماكن تكون الأرض خالية تماماً بالفعل، وفي أماكن أخرى قد تبدو خالية. وبالنسبة لهؤلاء الذين لا تثير تحركات الحيوانات أي اهتمام لديهم، فلا بد أن تبدو لهم المنطقة بأسرها خالية تماماً، ولا يستطيعون ملاحظة حقيقة هامة للغاية؛ وهي أن وجود بعض الجماعات التي تتكون من أعداد صغيرة من الأسكيمو شبه الرحل في هذه المناطق يعدّ في حد ذاته مؤشراً على أن الحيوانات ترتاد هذه المناطق، لكنها لا تمكث لفترات طويلة، أو تأتي في أعداد صغيرة، أو أنه يصعب اصطيادها. بل وربما يكون هناك أعداد أكبر من الناس الذين يعيشون لفترات طويلة نسبياً. والخلاصة؛ أن الأرض لم تكن خالية، وأنها كانت تعج بحيوانات الصيد، التي كان يمكن أن تقيم أود الرجال، لكن ذلك ما كان ليتحقق إلا على وفق طريقة واحدة ومحدودة للغاية. ولمعرفة هذه الطريقة يتعين على المرء أن يعيش في هذه المناطق، أو أن يعتمد على نصائح هؤلاء الذين سبقوه للعيش فيها.

وفي الحقيقة، فإن كروزير ورجاله قد ماتوا في هذه المنطقة لأنه لم تكن لديهم أدنى فكرة عن مكان وجودهم. فالشرنقة التي كانوا يسافرون فيها قد تفسخت، وتركتهم عرضة لعناصر الطبيعة، ولم تُجْدِ معارفهم وقدراتهم فتيلاً في التعامل معها. وكان عددهم أكبر من اللازم بكثير، وأسقط

في أيديهم، فلم يعرفوا ما الذي يتعين عليهم أن يفعلوه.

ولطالما رحب الأسكيمو بمصاحبة أناس من نمط مختلف، من أمثال بيري وراسموسين الذين كانوا يتمتعون بقدرات قيادية ملهمة، ومهارات معتبرة، ويقدرون الكلاب التي كانت تجر زلاجاتهم. ولقد أحب الأسكيمو الترحال بصحبة رجال يعرفون الصيد، وأصبحوا قادرين على التفاعل مع الأرض. ولم يشعر هؤلاء الأسكيمو بالغربة عن مرافقيهم من هذا النمط، سوى حين كان يتعين عليهم تناول الطعام المحفوظ الذي أحضروه معهم في أثناء اجتيازهم بعض الأماكن الجدباء، في رحلاتهم إلى القطب الشمالي أو عبر رأس الجليد في جرينلاند. وفي الواقع، فإن الأسكيمو لم يكن لديهم اهتمام كبير بهذه الأماكن، بل كانوا يهابونها ويحجمون عن ارتيادها في واقع الأمر، ولم يذهبوا إلى هذه الأماكن إلا لأنهم كانوا يحترمون الرجال الذين يسافرون بصحبتهم.

وحين كان الأسكيمو يعودون إلى السواحل، تلك الحواف الحية لبيئتهم، كانت تنتابهم فرحة غامرة. وهناك العديد من المشاهد المؤثرة والأخاذة لعودتهم إلى بيئتهم. وقد كتب راسموسين عن أحد هذه المشاهد عند عودة بعثة الثولي الاستكشافية الثانية إلى قرية أوماناك بعد رحلة شاقة بقيادته، حيث قال: «كان أول شيء فعله أجاكو (وهو أحد مرافقيه من الأسكيمو) هو أن اتجه إلى حافة الماء وملء راحتيه بمياه الخليج ثم رفعها إلى وجهه ليستشعر ويستنشق رائحة ملحها. ففي هذه القطرات من المياه كان أجاكو يشتم رائحة لحم لفظ، والنرول والفقمة، رائحة لحم تلك الحيوانات الشاحمة كلها، التي ستحيل أيامنا القادمة إلى سعادة، وقال: أيها المحيط الرائع... لقد عدت الآن إلى وطني».

وفي السابع من شهر ابريل سنة 1909م، غادر روبرت بيري محيط القطب الشمالي الجغرافي متوجهاً إلى رأس كولومبيا في جزيرة إلزمير إلى سفينته «روزفيلت» التي كانت راسية عند رأس سابين، حيث وصل إلى هناك وبرفقته خمسة رجال على متن خمس زلاجات يجرها ثمانية وثلاثون كلبا. وقد تعرض بيري في أثناء الاستجواب الذي أخضع له فيما بعد بسبب عدم اصطحابه لأي شخص يمكن أن يكون شاهداً على صحة ملاحظاته الشمسية، وما ذكره عن خط العرض الذي وصل إليه، فكان رد بيري على هذا النقد، انه ما كان ليدع شخصاً لم يبذل مجهوداً مثل الذي

بذله في الوصول إلى هناك ليشاركه هذا المجد، وأنه يعتقد أن ليس هناك مثل هذا الشخص.

وقد اعتبر بيري أن الرجال الذين كانوا بصحبته، لا يمكن أن يشكلوا أي تهديد للمكانة المرموقة التي كان يسعى للتفرد بها. وفي إحدى الصور التي تم التقاطها، يظهر خمسة رجال يقفون على نتوء جليدي وأمامهم قطعة من الجليد البحري غرس فيها بيري العلم الأمريكي، فيما يحمل أووكويه أحد أعلام البحرية الأمريكية، ويظهر أوتاه وهو يحمل في يده علم رابطة الكلية التي ينتمي إليها بيري، ومعهم إيجينجواه ممسكاً بعلم بنات الثورة الأمريكية، وسيجلي ممسكاً بعلم الصليب الأحمر. وأخيراً ماثيو هينسون، خادم بيري الزنجي، وهو يحمل في يده العلم الأكثر اهمية بالنسبة لـبيري، وهو علم قطبي، كان قد صنع في المنزل، ترك منه بيري أجزاء في النقاط الأربع الأبعد التي وصل إليها شمالاً على مدار السنوات التسع الماضية.

وكان بيري الذي يبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً ذا عينين زرقاوين، وشعر مائل للاحمرار، وشارب كث، ويتمتع بصحة جيدة. وبالنظر إلى وجهه من مسافة قريبة، تعكس نظرات عينيه الحادة، وبشرته التي صقلتها الظروف المناخية القاسية الثلاثة والعشرين عاماً التي قضاها في المناطق الشمالية. وطوال حياته، كان شغل بيري الشاغل هو تحقيق إنجازات تجعل منه رجلاً ذا مكانة متميزة بين الناس، وقد تحقق له ذلك بالفعل. إلا أن ذلك الشخص الذي تمتع بالشهرة والأهمية، والذي طالما تمنى أن يكون محط أنظار الآخرين، كان يسعى أيضاً إلى أن يحبه الناس. وبعد تخرجه في باودوين، كتب إلى امرأة كان يحبها قائلاً: «أحب أن يكون لدي تلك الجاذبية التي تجعل أي شخص يحبني، حين يكون في صحبتي، وأحب أن يغرم الناس بي، سواء كانوا يريدون ذلك أم لا يريدونه». بيد أن هذا لم يتحقق له أبداً.

ومع تقدم بيري في العمر، ومع استمرار سوء حظه مع الظروف المناخية السيئة التي بدا أنها تلازم كل رحلاته إلى المناطق القطبية الشمالية، أصبح بيري أكثر قسوة وتصلباً، وبدت عليه أعراض الهياج والسخط التي يبديها الأشخاص، الذين يشعرون بأنهم على قدر كبير من الأهمية، حين تساورهم الشكوك بأنهم ربما يكونون قد فشلوا. وفي المرحلة الأخيرة من حياته، أصيب بيري بجرح نفسي لا يعلم أحد مدى عمقه، بسبب ادعاء فردريك كوك أنه قد وصل إلى القطب المتجمد الشمالي قبله بنحو اثنى عشر شهراً، ونتيجة لذلك أصبح بيري في غاية الغطرسة

والقسوة.

وتكشف المقتطفات القليلة، التي تم نشرها من سجلات بيري الخاصة عن شخصية رجل آخر خلف ذلك الرجل المتغطرس اللاهث وراء الشهرة، رجل يحمل عاطفة رقيقة تجاه زوجته، كما تكشف عن نوع من الحس المرهف في المراحل الأولى من حياته. فقد كان يعرف أنه قد يعدّ «أحمق لدرجة الإجرام» بسبب تركه لعائلته لفترات طويلة، من أجل متابعة محاولاته للوصول إلى القطب الشمالي؛ لأنه بذلك يتخلى عن واجباته والتزاماته الإنسانية تجاه أسرته. وقد عانى كثيراً من الشكوك الذاتية، وفي مناسبة واحدة على الأقل انتابته فكرة الانتحار، حين بدت له آماله ومحاولته لصنع مكانة متميزة لنفسه أمراً قاتماً سوداوياً.

وكسائر الرجال العظام تعرض بيري للمضايقات من الأشخاص غريبي الأطوار، كما عانى من هؤلاء الذين لا يعرفون أبداً الشعور بالرضا. ومع تقدمه في العمر، بدأ يشعر بالكراهية تجاه تلك التهكمات الساخرة على شخصه، والتي نشأت من الخطب العامة واللقاءات التي لا تحصى. وعلى الرغم من قدرته الكبيرة على المراوغة والمناورة، فقد أطبق عليه شعور بالوحدة، الأمر الذي جعله ينظر إلى حياته بشكل أقل حدة. فقد حدث شيء ما في داخله لم يفطن إليه أحد إلا زوجته. فبعد أن فقد فقرات من أصابع أقدامه العشر بسبب «عضة الجليد» في سنة 1902م، مشى في دهاليز مجلس الشيوخ وعبر شوارع مدينة واشنطن العاصمة، وهو يجر قدميه جراً من جراء الإصابة. ونظرة سريعة يلقيها المرء على تلك الأراضي التي كان بيري يرتحل عبرها كفيلة بأن تجعله يقف مشدوهاً أمام عزيمة هذا الرجل وإصراره الصلب على تحقيق النجاح، وعمق قوة الإنسان في داخله.

ويتشابه كل من بيري وفيلهيمر ستيفينسون – وهما أهم مستكشفي المناطق القطبية الشمالية في القرن العشرين – في العديد من السمات والخصال، فكلاهما كان من الرجال الذين ينتهجون نهجاً مستقلاً، وقد حقق كل منهما لنفسه سمعة راسخة قائمة على أعماله البطولة في المناطق القطبية الشمالية. كما اتفقا أيضاً في الجشع، والتجرد من المبادئ الأخلاقية في ترويج المشاريع والإنجازات الخاصة، كما لم يلق أي منهما بالاً للمذابح التي تعرضت لها بعض أنواع الحيوانات، في سبيل استمرار رحلاتهما الاستكشافية في المناطق القطبية الشمالية. وما إن نالا الشهرة والصيت،

حتى أصبحا يفضلان الكلام على الاستماع، ويتناسيان أو ينكران الآخرين الذين أسهموا بأعمالهم وأرواحهم في بناء تلك السمعة التي يتمتعان بها. ومثل غيرهما من المستكشفين، كانا يروّجان ما كان في واقع الأمر مجرد حسن حظ، على أنه نتاج حصافتهما وحسن تخطيطهما.

وقد كان ستيفنسون على دراية واسعة بالحياة الطبيعية، والمناخ في المناطق القطبية الشمالية، إلا أنه تميز بالعناد والتمسك ببعض مفاهيمه غير الصحيحة. وقد ظهر هذا بوضوح في كتابه «المناطق القطبية الشمالية الصدوقة»، والذي يشير فيه باستمرار إلى أنه في مقدور الإنسان – خاصة الرجل الأبيض – أن يرتحل عبر أجزاء المناطق القطبية الشمالية كافة، وأن الأرض سوف تزوده بما يحتاج. وقد أصبح ستيفنسون مفتوناً إلى أقصى حد بهذه الفكرة، خصوصاً بعد أن منحه هذا الكتاب الشهرة على المستوى الشعبي، لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يرى الأرض بشكل يختلف عن فكرته تلك. وكي يثبت صحة فكرته لهؤلاء الذين شككوا في مصداقية كلامه، كان يقتل الحيوانات في كل مكان يذهب إليه، ثم يترك خلفه ما يستعصي منها على الحمل.

علاوة على ذلك كان ستيفنسون داروينيا اجتماعياً، مؤمناً بالتفوق العرقي والقدرية الاقتصادية. وفي أثناء توجهه إلى المناطق القطبية الشمالية في سنة 1908م، أعجب كثيراً بمنظر شعلات الغاز الطبيعي المحترق في حقول النفط على امتداد نهر أثاباساكا، وكتب عنها قائلاً: «إنها مشاعل العلم تضيء طريق الحضارة والتطور الاقتصادي لمناطق الشمال المجهولة كافة». وقد عدّ التندرة امتداداً للبراري الأمريكية، ووصفها بأنها تضم «مليارات الأطنان من النباتات التي يمكن أن تكون مراعي خصبة لقطعان الماشية، لكنها تذهب هباء في البراري الشمالية». وكان يؤمن بأن بعض أنواع الحيوانات البرية، مثل الرنة «ترهق الأرض»، وأنه يتعين عليها أن تذهب بعيداً، لأنها يمكن أن تعيق استغلال هذه المناطق كمراعٍ ومساحات زراعية. ومثل الرئيس الأمريكي الأسبق تيودور روزفيلت الذي كافح من أجل الحفاظ على فصائل الحيوانات، التي كانت تتعرض للصيد مع استثناء الفصائل المتوحشة، فقد حاول ستيفنسون هو الآخر تطويع الطبيعة، لتتناسب مع أفكاره بشأن مقدرات البشر. وعلى الرغم من شعبيته الكبيرة، فإن معارفه بشأن الأرض كانت انتقائية وتخدم أهدافه الذاتية فقط.

ولقد كان سيتفسون مستكشفاً، يملك عزيمة صلبة، لكنه لم يكن قائداً ملهماً، لدرجة أنه لم

يجد حرجاً في الاعتراف علانية، بأنه لم يفلح في إقناع بعض العاملين بالإيمان بالعمل الذي كان يقوم به، وأنه قد أهمل بعض التفاصيلات المهمة في أثناء التخطيط لأعماله. بيد أنه كان رجلاً ذا بصيرة نافذة. وقد نجح خلال الفترة بين عامي 1931م و 1918م في تحقيق الأهداف الاستشكافية التي حددها لنفسه كافة، على الرغم من مرضه الخطير، وشعوره بالوحدة الشديدة (لم يتلق ستيفنسون سوى خطاب شخصي واحد طوال عام من رحلته تلك)، والمصاعب الطبيعية القاسية التي تعرض لها في أثناء الرحلة، ووقاحة وعصيان بعض مرافقيه. (وقد اكتشف ستيفنسون في أثناء هذه السنوات جزيرتي بروك وبوردين في غرب المناطق القطبية العليا، وجزيرة ميجين في الشمال، كما استطاع تحديد المعالم الجغرافية لجزيرة الملك كرستيان ومجموعة جزر فيندلي والتي لم تكن معروفة بدقة من قبل، كما قام بعمليات استكشافية رائدة للكثير من الخلجان في بحر بوفورت).

وعند عودته من المناطق القطبية الشمالية، كان ستيفنسون على قناعة أكبر من أي وقت مضى بأن مستقبل كندا الاقتصادي يكمن في الشمال، وأن قدر المحيط المتجمد الشمالي، هو أن يصبح البحر الأبيض المتوسط للمناطق القطبية الشمالية، وأن يزخر بالموانئ الساحلية، ويعج بحركة الغواصات تحت الجليد، وبشبكة مواصلات جوية متطورة. وكي يقنع المتشككين بأفكاره ، أطلق مشروعاً لتربية الأيائل في جنوب جزيرة بافن، ونظراً لسوء التخطيط والتسرع في تنفيذ المشروع، فقد انهار بشكل مأساوي، موضحاً أكثر من أي شيء آخر أن ستيفنسون كان واهماً في أفكاره بشأن المناطق القطبية الشمالية.

وفي أثناء هذه الفترة، أرهق ستيفنسون نفسه بالقيام بجولات لإلقاء المحاضرات والارتباط بكتابة المقالات وتأليف الكتب. وقد وقع في خطأ فادح، حين أصر على أن تطالب كندا بجزيرة رانجيل (وهي في حوزة روسيا)، حيث كان يعدّ هذه الجزيرة القاعدة المستقبلية لتشغيل شبكة المواصلات في المناطق القطبية الشمالية. وفي النهاية تسبب تعامل كندا مع هذه القضية في إحراج كبير لها على المستوى الدولي. واكتملت فصول الهزيمة الكاملة بحادث مأساوي ظل يذكر الكثيرين بـ كارلوك، ذلك أن ستيفنسون أرسل بعثة استكشافية خاصة به إلى الجزيرة، بهدف التمهيد لاحتلالها، وكانت البعثة تتكون من أربعة طلبة الجامعات الشباب، وبصحبتهم امرأة واحدة من

الاسكيمو (لإعداد الطعام وترقيع ملابسهم الجلدية). وبسبب تعليمات ستيفنسون الصارمة للمجموعة بالاعتماد كلياً على الطبيعة في معيشتهم، مات الشبان الأربعة، فيما نجت المرأة الاسكيمو.

وقبل أن يتبين ستيفنسون أنه شخص غير مرغوب به في كندا، كانوا في مدينة أوتاوا يطلقون عليه اسم «الثرثار» من وراء ظهره، بسبب الطريقة الهزلية المستهجنة التي كان يتبعها في الترويج لأفكاره. ولقد كان إصرار ستيفنسون الشديد على تنمية وتطوير المناطق القطبية الشمالية قائماً على رؤية مشوشة للطبيعة في هذه المناطق، على الرغم من أسفاره الكثيرة والمتعددة فيها. وبالنسبة لاستخراج النفط، والتعدين، وإنشاء مزارع لتربية ثيران المسك، وغيرها من مشاريع التنمية الاقتصادية في المناطق القطبية الشمالية، فقد كان ستيفنسون سابقاً لعصره، وأصبح بطلاً يحتذى به بعد ذلك.

وعلى الرغم من طبيعته المندفعة، فقد كان ستيفنسون رجلاً يمكن معاشرته، ولا تعوزه الأفكار. وبصدر رحب أشرك آخرين في لحظات تحقيق اكتشافاته الجغرافية، كما أثنى على مهارات بعض ممن عملوا معه، واعترف بأنه قد وقع في أخطاء وصادف فشلاً في التخطيط والتنفيذ في بعض الأحيان. وقد تميز ستيفنسون عن المستكشفين القطبيين باحترامه وتقديره لكلاب الزلاجات، وقد أدان بشدة العادة التي اتبعها كل من نانسن وبيري والمتمثلة في قتل بعض هذه الكلاب وتقديمها كطعام لباقي الكلاب، للتخلص من الأوزان الزائدة في الرحلات الطويلة. وقد تضمن كتابه «المناطق القطبية الصدوقة» فقرة مثيرة للمشاعر، وصف فيها مميزات وصفات كلب يدعى «ليندي» بالكثير من الاحترام والتقدير، وخلص في نهايتها إلى قوله: «وحين مات، فقدت أفضل صديق لي، ولا يمكن أن أنساه أبداً».

وقد أصبح ستيفنسون مثلاً أعلى للشباب في سنوات عمره الأخيرة، ذلك أنه دأب على المغرورين ومدعي الأهمية، ولأنه دافع بكل ما أوتي من قوة عن نظرياته التي آمن بها. وكان دائماً يشارك الآخرين في معارفه، ويوجههم إلى قراءة كتب بعينها من مقتنيات مكتبته الضخمة. وكما قال عنه أحد أصدقائه: «كان يتمتع بفلسفة قوية لا تنضب، متوجة بالتمرد والتفاؤل». ولقد أحب ستيفنسون الشباب للسبب نفسه الذي دعا بيري إلى حبهم، وهو إيمانهم المطلق بأهدافه،

وولائهم له ولأنهم كانوا ينكبون من دون سؤال وبحماسة شديدة على الأعمال التي يكلفون بها.

ولقد عاش ستيفنسون حياة طويلة، وكانت طاقته واستقلاليته مصدر إلهام للكثيرين. أما بيري فقد توفي في سنة 1920م وهو يشعر بالمرارة، حيث نازعه أعداء أقوياء - كان قد سخر منهم علانية من قبل - ادعاءاته بأنه كان أول من وصل إلى القطب المتجمد الشمالي (جريلي في الولايات المتحدة الأمريكية، ونانسن وسيفردروب النرويجيين)، وبدأت صورته العامة في الاهتزاز، وهو ما يرجع إلى حد ما إلى إصراره على تحقيق هدف لم يدرك الكثيرون مدى أهميته. وفي خطاب أمام مجلس النواب سنة 1910م، أيد السيد ج. هامبتون مور، نائب ولاية بنسلفانيا، ادعاء بيري بأنه أول من وصل إلى القطب الشمالي، مما أدى إلى تلقي بيري لسيل من عبارات المديح وبرقيات التهنئة، التي تراوحت بين تلك التحية المرحة التي تلقاها من الرئيس تافت، إلى البرقية المفعمة بمدح الكبرياء والجرأة الأمريكية، والتي أرسلها لها تيودور روزفيلت من مخيم السفاري الخاص به في أفريقيا.

وقد حققت المناطق القطبية الشمالية الشهرة الواسعة لكل من ستيفنسون وبيري. إلا أن المسافة بين واقع الأرض في هذه المناطق، وأفكار ستيفنسون عنها، أو بين الأرض التي لا يمكن لأحد الاستحواذ عليها، وأنانية بيري(وقد تم التعتيم على هاتين الفجوتين بحملات العلاقات العامة الحاذقة) لا تزال تشكل مصدراً لا ينضب من المشاكل حتى في وقتنا هذا؛ ذلك أنه من الممكن تحديد وتسمية أجزاء من هذه المناطق، ومن ثم التلاعب بها بالتقنيات والأساليب المتاحة كافة، من دون أدنى اعتبار لخصوصياتها وكرامتها.

وقد كان كل من بيري وستيفنسون رمزين عامين أيضاً، اكتسبا الاحترام لما تمتعا به من طاقة إبداعية وبصيرة. لكن الشعور بعدم الأمان، والوحدة التي حاصرتهما، والتي سعيا إلى الفرار منها في المناطق القطبية الشمالية، لا بد أن تثير موضوعاً ينطوي على العديد من المعضلات. فما هي النقطة التي تتحول فيها الوحدة «المأساوية» التي يشعر بها المرء من كونها قوة تدفعه إلى تحقيق المنجزات، إلى قوة سلبية تتسبب في الإضرار بالصالح العام؟ وما هو موقف الأرض في هذه الحالة؟ هل يتم استغلالها كيفما اتفق لنا، أم سيتم منحها شيئاً من كرامتها في يوم من الأيام؟ وكيف تكون طبيعة البطولة حين تصبح الأرض في خطر؟

وفي سنة 1918م وصل الفنان والرسام الأمريكي روكويل كنت إلى جزيرة فوكس قادماً من شبه جزيرة كيناي في ألاسكا، وكان بصحبته ابنه روكيل الصغير. وقد كتب يقول: «لقد أتينا إلى هذه الأرض الجديدة ونحن نحمل في مخيلاتنا صورة للفردوس الشمالي. لقد أتينا هنا لنبحث عنها». وكان غرض كنت من هذه الرحلة هو أن يرأب صدع ذاته بشكل ما، وأن يقترب من ابنه بشكل أكبر، وكان يؤمن بأن الأرض سوف تساعده على ذلك، وأنها سوف تعتني بكليهما.

ويعدّ كنت واحداً من الشخصيات الأمريكية المرموقة في القرن العشرين، وكان يؤمن بمبادئ الاشتراكية ووهب نفسه لنمط الحياة القاسي، الذي تميز به الرئيس الأمريكي الأسبق تيودور روزفيلت، وكان يجد سعادة كبيرة في السخرية من الأعراف والتقاليد المجتمعية. وقد تميز في دراسته لدراما وخصائص أغاني الساجا الأيسلندية، وكان مغرماً بالبيئات الطبيعية الصعبة والقاسية، كما عرف عنه التقشف والاستقامة، وفي بعض الأحيان كان يتسم بالوقاحة تجاه من يعتقد أنه أعلى منزلة منهم، ومع ذلك كان شاعرياً وذا رؤى مثالية. وعلى الرغم من التناقض الواضح بين معتقداته الاشتراكية، ونجاحه فناناً ورجل أعمال، فقد كان رجلاً أميناً، وقد انتصر في أعماله الفنية والأدبية لكرامة الإنسان وخصاله الحميدة، وكانت لديه حماسة متقدة للحياة، كما كان ملتزماً بتقديم الأعمال التي تعكس معتقداته.

وقد هلل كنت «لتنظيف» الأرض، وتحويلها إلى ما يشبه المتنزه. وحين وصل إلى المناطق القطبية الشمالية، كان سعيداً: «لأنه ابتعد عن تعقيدات المجتمعات الحديثة». وفي معظم الأحيان كانت تخيلاته عن الحياة البرية تتصادم بشكل ما مع متطلبات الحياة اليومية بالجزيرة، مما دفعه إلى القول بأن رومانسية مغامرته تتعلق بخيوط رفيعة. وقد أدرك كنت أن التعامل مع الأرض، وليس الأرض في حد ذاتها، هو ما يمده بالقوة والإلهام، مثل: ما الذي يمكن لخياله أن يفعل بتلك الألوان والخطوط والظلال التي تطرحها الطبيعة من حوله؟ ويمكن القول بأن ارتباطه بالأرض كان ارتباطاً عاطفياً، حيث استجاب لجمالها بنشوة غامرة في أثناء وجوده في ألاسكا وفي جرينلاند أيضاً. بيد أن هذا الارتباط كان مدعوماً بتلك الروابط الأخرى كلها بالحضارة والتي ما كان لـ كنت أن ينساها، أو يتخلص منها والتي انعكست في استخدامه المنتظم للبريد، ومحافظته على نظام غذائه النباتي، والمساعدات التي كان يتلقاها من مالك الجزيرة الذي كان مسكنه يبعد ياردات قليلة عن

الكابينة التي عاش فيها.

وعندما مغادرته للجزيرة بصحبة ابنه بعد أن أمضيا ستة أشهر في الاسكا، قاله له جاره: «كان يمكن أيضاً أن تقضي شهرين آخرين في جبال نيويورك». إلا إن كنت لم تشعر بحاجة إلى مزيد من السفر، فالنشاط الذي كان يدب في أوصاله، وينعش أحاسيسه تجاه البرية، والذي أصبح الآن يفيض من أعماله الفنية، جعله قادراً على العودة إلى المادية والصعوبات الحياتية، التي يواجهها في مدينته نيويورك.

وتختلف تجربة كنت المجازية مع الأرض في المناطق القطبية الشمالية، والطريقة التي تعامل بها خياله مع الطبيعة في هذه المناطق، عن المواجهات القاسية لكل من ستيفنسون وبيري مع المناطق ذاتها، لكنها لم تكن أقل واقعية. وقد كانت تجربة كنت في تلك المناطق، والتي تمثلت في محاولته العثور على ذاته في الأرض، واستشعار قدر من نظامها الحقيقي المرهف والاندماج فيه، الهدف نفسه الذي سعى إليه الكثيرون، ممن ذهبوا إلى مثل هذه المناطق النائية خلال القرن العشرين. وتعدّ العلاقات المجازية بالأرض، والشبيهة بتلك التي حققها كنت، واحدة من أسمى إنجازات العقل البشري، فهي نوع من الاستجابة المعقدة، مثلها مثل رسم خريطة جديدة، أو ولادة لغة ما من رحم منطقة معينة على الأرض. فالعقل البشري قادر على تخيل الجمال، واستحضار الألفة مع الطبيعة، ويمكنه أن يجد البهجة والسعادة في أشياء، لا ترى فيها التحليلات البحتة سوى أشجار وصخور وحشائش.

وفي يوليو سنة 1929م، أي بعد إحدى عشرة سنة من الفترة التي قضاها كنت في جزيرة فوكس، تحطمت سفينة كانت تستقل كنت واثنين من رفاقه في مضيق كاراجاج على الساحل الغربي لـ جرينلاند الذي يتميز بجباله الوعرة. وحين وصلوا إلى الجزيرة وتعمقوا داخلها، قابلتهم بحيرة مستديرة «كالبدر»، وكانت العاصفة التي حطمت سفينتهم، لا تزال على هبوبها، فكتب كنت واصفاً تلك البحيرة:

كان الشاطئ المغطى بالحصى اللامع، يبدو ناعماً صافياً وبراقاً مقابل مياه البحيرة الخضراء العميقة، فنزلنا عند البحيرة، ووقفنا هناك ننظر إلى الحائط الجبلي الذي يحدها. كانت المنحدرات الداكنة ترتفع مستقيمة من حافة المياه إلى السماء مباشرة، ومن عند الحافة العليا لهذه المنحدرات،

كان هناك شلال تندفع منه المياه، فتحملها الرياح الشديدة إلى الجو وتحولها إلى دخان.

وقفنا هناك نتأمل هذا المشهد: الجبال، والشلال الذي يتحول رذاذ مياهه المتساقطة إلى دخان، والبحيرة الخضراء القاتمة، وهبات الرياح تحيل سطحها إلى لون فضي، وتلك الأزهار التي ترصع حصى الشاطئ، كما لو كانت نجوما متلألئة على ضفاف البحيرة.

وأمام هذا المشهد، قال قائلهم: «ربما نكون قد عشنا لكي نأتي الآن إلى هذا المكان».

وهناك عنصر بارز في روايات بيري عن رحلاته إلى المناطق القطبية الشمالية، يذكرني بهذا الشعور بالجمال الهادئ، الذي يعقب تعرض السفينة لحادث عنيف، ينتهي بتحطمها، وعلى وفق ما أعرفه، فإن مثل هذا الشعور قد تلازم في تجارب وأحاسيس بقية المستكشفين كافة في تلك المناطق. فقد كان المستكشفون ينظرون إلى رحلاتهم الأولى إلى تلك المناطق، على أنها شيء يمكن للمرء من خلاله تحقيق الشهرة والثروة والمنزلة الاجتماعية الرفيعة. وعلى الرغم من أن هذه النوايا لم تغب عن الرحلات التالية، إلا انها لم تكن بالقوة نفسها، التي كانت عليها في الرحلات الأولى، حيث تفوق عليها ذلك الإحساس المتنامي بالرعب والرهبة. أي أن الأرض قد وجدت طريقها ببطء في قلب وعقل الإنسان، واستطاعت بوساطة خصائصها أن تقلب دوافعه رأساً على عقب. لقد اتسعت الأرض، وترامت أطرافها، وأصبحت كياناً حياً، مثل حيوان تحتضنه وتشفق عليه بطريقة تستعصي على الوصف. ذلك أن الأرض، ببساطة، ليست جميلة فقط، لكنها أيضاً قوية، ومصدر قوتها تلك، التوتر القائم بين جمالها المتجلي، وقدرتها على انتزاع الحياة. وتتسرب قوتها تلك إلى العقل من خلال إدراكه – أي العقل – للارتباط الوثيق بين الظلمة والنور فيها، ومن الإحساس بأن تلك هي الأرض التي تشكل منشأ الوجود.

* * * * *

كان ثلاثتنا في سيارة على طريق خط الأنابيب الذي يمر عبر الاسكا، متوجهين إلى الشمال في سيارة نقل صغيرة ونقطر وراءنا قارباً صغيراً. ولعد أميال كانت سيارتنا هي الوحيدة على الطريق، ثم فوجئنا بجرار يجر وراءه مقطورة، ويمر بجوارنا بسرعة كبيرة، ناثراً على سيارتنا الطمي والحصى.

ومن فيربانكس إلى خليج برودهو يتوازى الطريق الذي كنا نسلكه مع خط الأنابيب الصاعد، ويشعر المرء بنوع من السكون الاصطناعي بسبب التحديدات الصارمة لجانبي الطريق. والتي تبدو كسياج من الألواح البيضاء الممتدة عبر تلال من المراعي في فصل الصيف. وذات مساء مررنا بأحد عمليات نثر البذور والتسميد التي تتم على هذا الطريق، حيث يتم نثر بذور الحشائش على جانبي الطريق، وعلى المنحدرات لمنع تآكل الطريق، وفي هذه الأجزاء لا تنمو الأعشاب التندرية عشوائياً. لقد كانت تلك البذور التي ينثرونها هي بذور حشائش كنتاكي.

وذات يوم انفجر أحد إطارات السيارة، وفيما كان اثنان منا يبدلان الإطار، كان الثالث يقف مسلحاً ببندقية محشوة، وهو يراقب أنثى ذئب رمادي، ومعها صغيرها وهما ينبشان الأرض في مستنقع صغير على بعد ثلاثين ياردة تقريباً. وشاهدنا ذئباً واحداً – وكان بعض علماء الأحياء في فيربانكس قد طلبوا منا مراقبة وجودها، حيث أخبرونا أن سائقي الشاحنات قد قتلوا معظم الذئاب التي تعيش على مقربة من الطريق، وأنه ربما يكون بعض من هذه الذئاب، لا يزال يتحرك بالقرب من الطريق، ولا سيما أن الحركة على هذا الطريق تخف إلى أقصى حد في هذه الفترة. ومع تقدمنا على الطريق بدأت طيور البوم ذات الآذان القصيرة في الظهور محلقة في السماء، فيما ظهرت بعض ذكور الرنة المنفردة وهي تتحرك بخطواتها الخفيفة المعتادة، ثم ظهر أحد حيوانات الموظ وهو يقف على ضفة نهر ساجافنيركتوك، ثم شاهدت بعض الثعالب الحمراء بأرجلها الطويلة السوداء، وهي تجري أمامنا على الطريق، وقد بدت رؤوسها متاخرة عن أكتافها. وفي هذه الليلة فكرت في هذه الحيوانات، وكيف اقتحم هذا الطريق عليها حياتها.

وبعد ظهر أحد الأيام وصلنا إلى منطقة حقول النفط في خليج برودهو، حيث كانت الأضواء تنعكس على التندرة، وبعض طيور البجع تحلق في هدوء فوق المياه، بيد أن هذه المنطقة كانت أكثر المناطق التي رأيتها قتامة من بين المناطق القطبية الشمالية. فعلى امتداد الأفق، تقف المباني الصغيرة، منفردة، أو كل اثنين معاً. فذكرتني بغربي تكساس، وبدت أرضاً اعتصرت من أجل الماء والنفط!.

كانت الآلات والمعدات الضخمة تقبع كأنها قبضات عملاقة مترهلة في أفنية كبيرة متسخة ببقع الزيت. وبالطبع لم يكن لي أي علاقة بهذا كله، فقد أتيت إلى هنا فقط لقضاء الليل، وفي الصباح سنضع القارب في الماء ونتجه إلى جزر جونز.

وكانت ثكنة المخيم الذي تعين علينا أن نقضي فيه الليل، تطفح بأحلام الثروة الرخيصة، وتمتلئ بمشرفي العمل ذوي المظهر الرث والكروش المتدلية، والشباب ذوي الطموحات المتباينة، فيما كان الرجال الأكبرون سناً يجلسون في أحد جوانب الكافيتريا، يتحدثون بشأن ديونهم، ويتندرون على الإحباطات التي واجهتهم في حياتهم.

وفي الصباح غادرنا المعسكر إلى آخر مختلف تمام الاختلاف، هو عالم العلم، حيث كنا في مهمة علمية لجمع البيانات الضرورية لبعض الحسابات والاستشارات، التي كان من شأنها أن ترسل هؤلاء الرجال إلى مواقع أخرى.

وبعد عدة شهور، وذات صباح بارد في شهر مارس، جئت إلى خليج برودهو في زيارة رسمية، حيث استقبلني في المطار أحد مسؤولي العلاقات العامة، الذي صافحني بحرارة، ثم أعطاني أول بطاقة تعريفية من بين عدد من تلك البطاقات، التي كان يتعين عليّ تعليقها على صدري في أثناء تجولنا في المجمع. وكان رجال الأمن يقومون بفحص هذه البطاقات عند نقاط التفتيش على الطرقات، وعند مداخل المباني قبل أن يعيدوها، وعلى وجوههم ابتسامة لا معنى لها. وفي مثل هذه المواقف قد يشعر المرء أن كرامته تصبح لفترة ما تحت طائلة سلطة اصطناعية، وهو يعلم أنه يمكن أن يلقى به جانباً لإجراء مزيد من التدقيق في هويته، إذا بدا عليه قدر من التململ أو الارتباك. وعادة ما يبررون مثل هذه الإجراءات الأمنية بأنها ضرورية لمكافحة التجسس الصناعي، وإن كنت أعتقد أن الغرض منها حماية الشركة من بعض الموظفين السابقين، الذين يشعرون بالسخط على إداراتها، أو لمنع ترويج المخدرات بين العمال في هذه المواقع النائية، ولمواجهة أي عمليات تخريب يمكن أن يقوم بها دعاة البيئة.

تحركنا بالسيارة بمحاذاة حافة الجليد البحري، حيث قمنا عن بعد بإلقاء نظرة على منصة حفر قريبة من الشاطئ، وهناك، قال مرافقي، إن المكان من البرودة بحيث يصعب المشي وصولاً إلى المنصة، وأن المنظر الذي نراه من هذه المسافة، يتوافق مع حدود مسؤولياته واحتياجاتي أيضاً.

بعد ذلك ذهبنا لتناول طعام الغداء في كافيتيريا مبنى المقر الرئيسي لشركة البترول، والتي كانت عبارة عن ردهة متسعة هادئة ذات إضاءة طبيعية، تفوح منها الروائح الجميلة، ومزينة بالنباتات هنا وهناك، وكل مرتاديها أناس مهذبون. أما الطعام فقد كان معداً بشكل رائع

(وتذكرت تلك الكافيتيريا التي يتناول فيها الآخرون طعامهم: سقف منخفض، وسجاد ملطخ ببقع الطعام، وآثار أعقاب السجائر على الطاولات، وطعام رديء، وصخب مستمر).

وفي طريقنا إلى محطة التجميع رقم (1) اضطررنا للتنحي جانباً عن الطريق؛ كي نسمح بالعبور لأكبر حمولة على عجل رأيتها في حياتي وهي عبارة عن مبنى مثبت على مقطورة في طريقه إلى نهر كوباروك. وفي الخندق الذي يحد جانب الطريق شاهدت رافعة كانت قد سقطت هناك، ونظر إليّ مرافقي مبتسماً وقال: إن درجة الحرارة هي ٢٨ درجة فهرنهايت.

وفي محطة التجميع رقم (1) يتم تبريد النفط القادم من أربعة حقول، ثم يتم التخلص من المياه الموجودة فيه، ويلي ذلك فصل الغاز. ثم يخرج السائل الثمين لأول مرة إلى سطح الأرض متحركاً بسرعة داخل الأنابيب، حيث يحفظ تحت ضغط في صهاريج مصنوعة من صفيح رخيص. أما الأرضية الأسمنتية للمنطقة فهي مطلية بعناية، ولا ترى بها أي بقع أو آثار لزيت، أو أي أدوات أو خرق ملقاة هنا أو هناك، كما تم تغطية أو تبطين الأشياء التي يمكن أن تسبب أي أذى كافة. وفي حجيرات ذات ألوان فاتحة، وشديدة الإضاءة، تحمل الحرارة من باطن الأرض، ثم يتم تبادلها بين هذه الحجيرات، فيما يشبه غرفة الغلايات في باطن سفينة عملاقة. ووسط هذا المشهد لم تقع عيني على بشر. فالوجود البشري هنا ينحصر في تشغيل الآلات، وفي التحكم في الزيت الخام، ذلك السائل البري الواقع في قبضة الأنابيب، وهنا لا يوجد أمام النفط ثمة سبيل آخر، سوى اتباع التعليمات. فينساب في هدوء وطواعية إلى محطة الضخ رقم (1).

وخارج السور المحيط بمحطة الضخ، كانت هناك مقصورة مغطاة بالثلوج، وفي هذا الفصل، لا يأتي أحد إلى هذا المكان، ومن دون أن أقصد الإساءة إلى أحد، تسلقت فوق الجليد إلى داخل المقصورة وأزلت حبات الثلوج المتراكمة بفعل الرياح من فوق لوحة مغطاة بالزجاج المقوى تشير إلى أنواع الحيوانات والنباتات الموجودة في المنطقة. لقد تم إعادة ترتيب الأشياء كافة – الحيوانات والبترول والقدر، بحيث تبدو متجانسة معاً بشكل طبيعي، بدون أي ذكر للبشر. نظرت إلى محطة الضخ رقم (1) عبر السياج والأسلاك العريضة التي تحيط بها، تلك المضخات الهادرة المنفصلة عن بعضها بعضاً في مبان مبطنة بمواد عازلة، شاخصة على التندرة، وحقول الأنابيب، والشاحنات ذات الدواليب المسمارية، وكل هذه التكوينات الهندسية الجبارة، التي توجه وتجمع النفط، إلى

رأس هذا الأنبوب الذي يوحي مظهره بالبراءة، كخيط من الصلب اللامع من دون أن يبدو عليه أنه يمتد جنوباً في رحلة طولها 48 ميلاً. ولم يتضمن المشهد أي مظهر من مظاهر الخداع أو الوحشة، وبدا الأمر كله مرتباً وحضارياً. لكن التناسب بين أحجام الأشياء لم يكن مألوفاً، وحين وقفت في المقصورة التي تعصف بها الرياح، تذكرت منظراً مشابهاً لمنصات الإطلاق في كيب كنفرال(*). ولم يقتصر التناقض على تلك الأحجام الهائلة للآلات التي تهدر هنا على الأرض، لكنها تلك المبالغة الشديدة في وجود خطر محدق، وأعداء مجهولين. بدأت أشعر بوجهي، يتجمد، والمرافق في السيارة الزرقاء الكبيرة ينظر إليّ، وعلى وجهه ابتسامة تطفح بالكراهية. وما كان لي أن أظفر بدليل أفضل منه. ونظرت مرة أخرى إلى خط الأنابيب، ذلك المخرج النهائي اللامع لكل تلك الهندسة الجبارة. واستمر بي التفكير في العدد القليل من البشر في هذا المكان، وفي أعماق تلك المنشآت، ليس هناك أي وجود بيولوجي، باستثناء ذلك السائل الديفوني(**) المتدفق داخل الأنبوب الضخم.

وفي طريقنا إلى المقصف لتناول طعام العشاء، سألني مرافقي، عن انطباعاتي حول صناعة النفط، وهو يحاول أن لا يبدو كما لو كان يطاردني بالأسئلة، لكنها كانت المرة الثالثة التي يسألني فيها هذا السؤال نفسه. فأجبته متثاقلاً: «إنني لا أعرف شيئاً عن صناعة النفط، فاهتمامي ينصب بشكل أساسي على الطبيعة: لماذا أتينا إلى هذه البقاع، وما الذي نراه فيها؟ فأنا لست محلل أعمال، ولا اقتصادياً، ولا مخططاً اجتماعياً. لكن الهندسة التي رأيتها هنا رائعة، وأعتقد أن التكلفة الحقيقية لكل هذا، يجب أن تظل مجهولة.

وفي أثناء العشاء، سرد لي قصة، فمنذ ثلاث سنوات، كانت هناك ثلاث من شجرات البتولا في بهو مبنى الشركة. وفي شهر سبتمبر بدأت أوراقها في الاصفرار والتقوس. لكن الأوراق بقيت في مكانها ولم تسقط، ذلك أن الهواء في المبنى كان راكداً للغاية ولا توجد رياح بالطبع. وأن فصل الخريف قد حلّ، حينما جاء أحد العاملين في الصيانة بالمبنى وهز هذه الشجرات فتساقطت

(*) كيب كنفرال هي المحطة الرئيسية التي تستخدمها وكالة الطيران والفضاء الأمريكية (ناسا) في إطلاق رحلاتها إلى الفضاء. (المترجم)

(**) هنا، ينسب المؤلف، النفط إلى العصر الديفوني، وهو العصر الذي يشير علماء الجيولوجيا إلى أنه شهد بدايات تكون النفط في باطن الأرض. (المترجم)

أوراقها.

وقبل أن نتوجه إلى ديدهورس حيث يقع مطار خليج برودهو قال مضيفي إنه يريدني أن أرى بقية مبنى قاعدة التشغيل، والذي تضمن قاعة سينما ذات صفوف من المقاعد المخملية الحمراء، وغرفة للألعاب الإلكترونية، وشاشات عرض تليفزيوني عملاقة، وطاولات بلياردو، وقاعة للألعاب الرياضية، وحمام للسباحة، وملاعب اسكواش، وصالة للعلاج الطبيعي والتدليك. وكانت درجات الحرارة تتفاوت من غرفة إلى اخرى، بشكل يناسب الأنشطة التي تمارس فيها. كانت هذه الغرفة هادئة، وكل شيء فيها مريحاً. وفي أثناء جولتنا في هذه الغرفة قال لي مرافقي إن الرجال لا يدفعون اي مقابل لاستخدام هذه المرافق.

وبعد الجولة، وعبر زجاج عازل، وقفت أنظر إلى التندرة التي بدأ المساء يجللها. وشكرت مرافقي على الجولة، فقد استمتع كل منا بصحبة الآخر، وتعجبت من تكاليف كل هذا، وأسباب الراحة التي يوفرونها هناك، فنظر صاحبي إلى الجليد، وقال - وتلك الابتسامة الغريبة لا تزال مرتسمة على وجهه -: إنها أغلال ذهبية».

* * * * *

ويندر أن يسافر المرء عبر المناطق القطبية الشمالية من دون أن يقابل مشاريع صناعية، فهناك الكثير من خطوط الإمدادات، والمواصلات، والاتصالات التي تمر عبر المواقع. وخلال عدة سنوات مررت أربع أو خمس مرات على منطقة خليج برودهو، كما زرت مناجم الرصاص والزنك في الأرخبيل الكندي، ومنجم نانيسفيك في جزيرة بافن، ومنجم بولاريس في جزيرة كورنواليس الصغيرة. وفي فصل الشتاء قمت بجولة في مرافق الشركة «بان أركتيك» عند نقطة راي على جزيرة ميلفيل، وكذلك رصيف الحفر التابع لها على الجليد البحري، قبالة سواحل جزيرتي الملك ماكينزي ولوفهييد.

ولا أستطيع أن أجزم بالأسباب التي جذبتني إلى هذه المناطق، ولكن في أغلب الأحوال، كانت تنتابني المشاعر نفسها، التي عرفتها في أثناء زيارتي إلى منطقة خليج برودهو، وهي خليط من

الانبهار بهذا التقدم التقني المعقد، والأسى على تلك الحياة الموحشة التي يعيشها بعض الرجال في مثل هذه المواقع، والتي لا تبدد وحشتها تلك المقاعد المخملية الوثيرة، أو الألعاب المجانية وصالات الترفيه المفتوحة، والحزن على هذا السلوك المشين تجاه الأرض، والأسلوب الوحشي الذي نتعامل به معها، وعلى الإدعاءات بمعرفة المناطق القطبية الشمالية، التي تحفل بها منشورات العلاقات العامة وصفحات الروايات.

وذات مرة سألت أحد مشرفي العمل في أحد مواقع الحفر النائية، عما إذا كان الرجال يخرجون إلى المناطق المجاورة لمباني الموقع بعد أوقات العمل، فابتسم ساخراً وقال لي متهكماً: «يمكنك أن تعد على أصابع اليد الواحدة، هؤلاء الرجال الذين يهتمون بما يوجد هناك في الجوار». وتعكس هذه الملاحظة الموقف في معظم المواقع العسكرية والصناعية المنتشرة في المناطق القطبية الشمالية.

وبعيداً عن صورة البيئة المنمقة في إحدى قواعد التشغيل التابعة لشركة ما، يبدو المشهد الصناعي أكثر كآبة. فهناك، في المخيمات الواقعة في الأماكن النائية، وجدت بعضاً من أكثر نماذج الحياة البشرية حزناً وبؤساً: مجتمعات كلها من الرجال، تسير على وفق جداول زمنية مملة لا تتغير، وتهرب إليها الكحوليات والمخدرات، ناهيك عن المجلات الإباحية التي تعج بها هذه المجتمعات للدرجة التي تجعلك تعتقد أنه لا مناص من وجودها، وأنها جزء من رد فعل امتعاضي تجاه واجبات ومسؤوليات الحياة الأسرية. وفي هذه المجتمعات، يسود شعور بعدم الثقة والنقمة على النساء، فالرجال هنا يتحدثون عن النساء بالطريقة نفسها التي يتحدثون بها عن الآلات والأرض: الإغراء والترويض والاستحواذ والتحكم. وبالطبع، فإن مثل هذه الملاحظات لا تشكل رؤية جديدة في سيكولوجية التنمية في الثقافة الغربية، ذلك أنها تفتقر إلى الصبغة الأكاديمية. لكنها حقيقية وواضحة، تماماً مثل تلك الندبات الغائرة التي رأيتها على وجوه بعض مضيفات الرحلات الجوية اللاتي قابلتهن في ألاسكا، من جراء ما تعرضن له من تحرشات واعتداءات جسدية وجنسية على أيدي عمال محبطين، وهم في طريقهم من أو إلى خليج برودهو.

ولا يختلف المناخ العام في هذه التجمعات كثيراً عن المناخ العام في أحد السجون الصغيرة، لدرجة أن هذه التجمعات لا تخل من التحزبات العرقية، وهذا بدوره لا يعدو أن يكون جزءاً من «الحياة داخل المصنع في أمريكا». ويا لها من طريقة قميئة، نظم بها البلد نفسه، إنه مأزق يتعين

على المنظرين الاقتصاديين والسياسيين إخراجنا منه. وقد كان هناك ارتياب كبير بين العمال الذين تحدثت معهم في هذه المواقع. فعلى الرغم من المرتبات الجيدة التي يحصلون عليها، فإنهم يشعرون أن الشركات التي توظفهم تخدعهم بطريقة ما، وأن أي فرصة للترقي أو التخلص من هذه الظروف الصعبة التي يعملون فيها ليست إلا مجرد أوهام، وأنهم مقتنعون بأن شخصاً ما في مكان ما يقع عليه اللوم لكل هذا. وكما هو متوقع، فإن سخطهم كان موجهاً إلى فئة أرباب العمل، والمهندسين الذين نالوا حظاً أوفر من التعليم، وأيضاً لفئة الجيولوجيين، وإلى المجموعات السياسية والعرقية الغامضة، التي ينظرون إليها على أنها لا تفهم شيئاً، وأنه ليس لديها سوى الانتقاد غير العملي للنمو والتقدم. ويعتقد بعض هؤلاء الرجال أن المناطق القطبية الشمالية ليست إلا «أرضاً يباباً مترامية الأطراف»، يعيش عليها «حفنة من الطيور الغبية»، وأنها متسعة لدرجة يصعب معها تعرضها للأذى، بل ويصرون أيضاً على أن كل الإنجازات التي يحققها الرجال الأشداء في مواجهة الطبيعة في هذه المناطق هي حقوق تورث. وقد كانت العبارات الأخيرة في العديد من هذه المناقشات، بغض النظر عن الطريقة التي قيلت بها، تخلص إلى سؤال واحد هو هل تصلح هذه الأرض لشيء آخر؟.

ومن الصعب إقناع العديد من العاملين في مجالي النفط والتعدين - بل إن أغلبهم لا يهتمون بذلك على الإطلاق - بما يمكن أن تصلح له هذه الأرض، بغض النظر عما تحويه في داخلها، وبالمستقبل الذي تواجهه، ومصير شعوبها، والحيوانات التي تعيش عليها. وذات مرة، وبصيغة حاسمة، قال لي أحد مشرفي علميات الحفر: «إن التقنية أمر لا مناص منه، وعلى الناس أن يدخلوا هذه الفكرة إلى رؤوسهم». وفي بعض أكثر الحالات تطرفاً، يعكس مشرفو العمل ورؤساء أطقم التشغيل مشاعر استعمارية، فنبرات صوتهم تنم عن نفاد صبر، والكلمات التي يستخدمونها كلها ذات صبغة اقتصادية، كما أنهم لا يعرفون أي شيء تقريباً عن تاريخ وبيئة هذه المناطق، ويكابرون على الاحتياجات النفسية للبشر، ويتميزون بالقدرة على الاستغلال والمراوغة، وتجد أن مثل هذا السلوك المتطرف يتسرب إلى المستويات الأدنى في العمل، حيث يردد العمال مثل هذه الأفكار، خاصة حين يشعرون بأنهم في موقف دفاعي ضد أي نقد يمكن أن يوجه إليهم. وفي الغالب فإن الرجال الذي يدلون بمثل هذه الإجابات المتطرفة، عادة ما يتركون انطباعاً بأنهم لم يفكروا ملياً فيما

يقولون، وأن هدفهم الوحيد هو الحفاظ على وظائفهم، أو أن يبعدوا أي شكوك عن أنفسهم.

وبالطبع، فإن مواقع حقول النفط والمناجم لا تخلو من رجال ينتقدون في جلسات وأحاديث خاصة ما يحدث من أجل الحصول على المال. ويشترك هؤلاء الرجال في اعتقادهم بأنهم يتحملون مسؤولية ما يفعلونه، كما أنهم لا ينظرون إلى المرتبات التي يحصلون عليها من العمل على أنها مصدر للدخل. وقد أخبرني بعض هؤلاء، أنهم يرغبون في السفر عبر المناطق القطبية الشمالية وقراءة المزيد عنها، وأنهم لم يقصدوا أن يسببوا الأذى في هذه المناطق، وأنهم يقسون في اللوم على أنفسهم بسبب الأضرار التي يمكن أن يكونوا قد تسببوا فيها. وفي الغالب كان أصحاب هذه الأفكار من الشباب الذين لا تعوزهم مشاعر التعاطف مع الطبيعة.

ومن بين الأشياء التي تذكر بشكل ما، وتبعث على قدر من السرور، تلك الأفكار التي طرحها العديد من الرجال الأكبرين سناً، والذين تحدثت معهم في أكثر من مناسبة عن الظروف التي يعملون تحتها (وأحد هؤلاء الرجال هو الذي أشار إلى التشابه بين ظروف الحياة في مخيماتهم، وظروف الحياة في السجن الصغير). لقد كانوا رجالاً ناضجين، فيهم وقار العقدين الرابع والخامس من العمر، إنهم ذلك النمط من الرجال الذي يستحوذ على احترامك بمجرد أن تراهم، بغض النظر عن خلفياتهم وظروفهم، كما أنهم لم يكونوا مصرّين أو متشددين في عرضهم لوجهات نظرهم وملاحظاتهم الخاصة، الأمر الذي يجعل الحديث معهم أسهل. ويتركون انطباعاً بأنهم متعمقون وعلى دراية بما يقولون.

ويتندر هؤلاء الرجال متحسرين على سوء الإدارة الصناعية، فالاستياء والسخط، وإهمال بعض العاملين في أداء واجباتهم، وتجاهلهم لبعض الأمور يتسبب في المعاناة لكل من البشر والأرض على حد سواء. ودون مواربة قالوا، إن الشركات التي توظفهم قد وقعت في تجاوزات واضحة. بل إنها قد تصرفت بشكل غير قانوني في بعض الأحيان. لكنهم قالوا ذلك بحسبانه إقراراً بأمر واقع، أكثر من كونه نقداً. وقد تحدثوا طويلاً، وبكثير من المحبة والتقدير العفوي عن عائلاتهم وعن زوجاتهم وأبنائهم.

وفي أعقاب تلك الأحاديث بدا لي العالم متوازناً، أو على الأقل فيه قدر من النوايا الحسنة. ومن بين بعض الأمور المثيرة للانتباه في هؤلاء الرجال، أن اهتمامهم بصحة الأرض من ناحية، وبمصائر

الناس من ناحية أخرى يشكل قضية واحدة غير منفصلة، وهو الحال نفسها بالنسبة لي أيضاً.
وذات ليلة وأنا متمدد في مخدعي، اتضح أمامي أن مصير كل منهم متعلق بشيء واحد، وهو مصدر كرامتهم، وما إذا كانت هذه الكرامة أمراً فطرياً مجبولاً أم لا.

ومصدر كرامة هؤلاء - ليس فيما بينهم، بل في إطار اجتماعي أشمل - هو رأي رؤسائهم فيهم، وهو تقويم يجريه لهم أناس ليسوا أقراناً لهم. (وعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال غير ملمين بحياة الأسكيمو الحديثة، إلا أنهم تعاطفوا مع أوضاع الأسكيمو الذين طالما كانوا محل مراقبة وتقويم من الغرباء). إن كرامتهم عمالاً، وبالتالي احترامهم الذاتي، لم يكن وحدة واحدة لا تتجزأ. وبالنسبة لمراقب غريب عنهم، فإنهم كالأرض، معرضين للاستغلال، ويمنحون كرامتهم، بمقدار استجابتهم للأوامر والتوجيهات.

ومن واقع تجربتي، فإن معظم الأشخاص الذين يديرون أنشطة الشركات في المناطق القطبية الشمالية، أو الذين يقومون على توجيه عمليات استخراج الموارد من الطبيعة من دون أي اكتراث للأذى، الذي يمكن أن يلحق بالأرض، إنما يفعلون ذلك تأسيساً على فكرة أنهم يسعون إلى تحقيق أهداف ضرورية ومحترمة، يشاركهم الجميع في الاستفادة منها، وفي الواقع فإن مصدر كرامة هؤلاء، مشتق من الاعتقاد بأنهم يعملون لتحقيق النفع العام، ويرون أن العامل لا بد أن يكون سعيداً وهو يقوم بواجباته، وأن يتسم عمله بالدقة والحرص، وأن يبدي الولاء لمفهوم النفع العام الأشمل الذي تقوم على صياغته وتوجيهه المستويات الأعلى. أما الأسكيمو، فيتعين عليه إما أن يوطد نفسه على أن يصبح عاملاً يحصل على دخل متوسط، أو أن يعيش «حياته الأصلية بشكلها التقليدي» على وفق نمذجة كاريكاتورية غير واقعية صاغها الغرباء. وفيما يتعلق بالأرض ذاتها، وما يعيش على سطحها من نبات وحيوان، فلا بد أن ينتجوا هم أيضاً شيئاً ما - مثل البترول، والأدوية، والغذاء، أو مادة للأفلام السينمائية مثلا - إذا ما كان لها أن تحقق أي قدر من الكرامة. وإذا لم تفلح الأرض وما عليها في تقديم شيء ما، فهي إذن يباب ومجرد تندرة عديمة القيمة - مضيعة للوقت.

وبالطبع، فإن الناس يصبحون عاجزين من دون كرامة. فإذا سلب المرء كرامته، أو إذا سلبت الأرض كرامتها، يصبح من الهين توجيه وإدارة أي شيء ضده أو ضدها من دون خشية أي عواقب.

وبالنسبة للبعض يعتبر مثل هذا المستوى من الفعالية درباً من دروب التقنيات العصرية، التي ربما تكون مكروهة، لكنها ليست شريرة أو محرمة، لكنها تعدّ بالنسبة لآخرين استغلالاً مجرداً من القيم، وإهداراً لنوع من التكامل والقيم الروحية، التي لا يمكن لأي نمط من الرفاهية الاقتصادية أن يسوّغه.

وحين سألت الأشخاص الذين تحدثت إليهم عن الحل الممكن لهذه المعضلة القديمة المربكة، كان جوابهم مثالياً. لقد كانوا يؤمنون بالإرادة المتوافرة لدى بعض الناس الطيبين، وكانوا يعتقدون أنه يمكن إيجاد طريقة ما تسمح باتخاذ القرارات المصيرية، بمنأى عن الأشخاص غير المكترثين والمرتشين، وذوي العقول المتحجرة. لقد وافقوا على الطرح القائل إن الكرامة الفطرية، وليس تلك الممنوحة أو القابلة للتداول، هي التي تضع المرء في أفضل موقف يمكنه من العمل والتصرف، وهي التي تمكنه من التفكير في المشكلات الصعبة المتعلقة بالتقنيات التي تشوه الناس والأرض. لكنهم لا يعرفون أين – على وجه التحديد – يجب أن يبدأ التغيير الأول، وهو الأكثر صعوبة.

وذات مرة كنت في رحلة مع صديق لي في شمال جزيرة بافن، حيث مكثنا في أحد معسكرات الصيد على حافة الجليد البحري مع نحو ثلاثين من الأسكيمو، وكان الجو رطباً وشديدة البرودة، ثم انشقت السماء عن هليكوبتر، هبطت في المعسكر، وكنا قد قضينا فترة طويلة في المناخ العام، مما جعل الموقف مربكاً للوهلة الأولى. ثم خرج شخص من الهليكوبتر واتجه مباشرة إلى الخيمة التي كنا نجلس فيها. وكان هذا الشخص رئيساً لإحدى شركات الشحن البحري، وكان سبب الزيارة هو قلقه من أن إحدى سفن نقل المواد الخام الكاسرة للجليد التي كانت تبحر في المنطقة، ربما تكون قد أثرت بشكل سلبي في عمليات الصيد التي يقوم بها الأسكيمو في المنطقة، أو أن يكون إبحار هذه السفينة قد تسبب في أثناء سيرها في إحداث ضغط كبير على الجليد، مما قد يؤدي إلى تكسره بشكل غير مألوف مع اقتراب الربيع، كما يمكن أيضاً أن يتسبب الضجيج الناتج عن محركات السفينة في هلع حيوانات النرول التي يصطادها الأسكيمو، وبالتالي هروبها من عند حواف الحقل الجليدي العائم الذي كان الأسكيمو يمارسون الصيد منه.

وكان هناك العديد من الأمور غير المعتادة في زيارة هذا الرجل، أولها أن الأسكيمو لم يسبق لهم أن تحدثوا مباشرة مع الرجل الأول في مثل هذه الشركات، ذلك الشخص الذي تؤثر القرارات

التي يتخذها في مسار حياتهم، حيث يحجبهم عنه في الغالب عشرات من الوسطاء، وثانيها أن هذه الشخصيات الهامة عادة ما يكون لديها جداول أعمال ومواعيد مزدحمة، الأمر الذي يحرم الاسكيمو من التحدث معهم بشكل مفصل ومستفيض، وثالثها أنه من غير المعتاد أن يبدي أحد اهتماماً بمثل هذه الأمور الدقيقة، الأمر الذي ينم عن معرفة كبيرة بأحوال وظروف المنطقة. وقد عرض الرجل أن يصطحب معه على الهليكوبتر عدداً من الصيادين كي يعاينوا بانفسهم من الجو مسافة أربعين ميلاً من المسار الذي قطعته السفينة، وأن يهبط في أي موقع يرون أنه يتعين معاينته عن كثب، وقد ذهب معه الصيادرون بالفعل وكانوا سعداء بإتاحة الفرصة لهم لمعاينة الموقف من الجو.

وقد نتج عن هذا التصرف موجة حارة من العرفان والتقدير بين الأسكيمو، وكان يمكن للرجل الرحيل مباشرة بعد ذلك، إلا أنه جلس في خيمة بالمعسكر، وأكل من الطعام المحلي الذي قدم له مع بعض من الكعك والشاي، ولم يحاول أن يلخص أو يوضح أي شيء على الإطلاق، ولم يطرح الكثير من الأسئلة حتى لا يكشف عن قلقه، بل اكتفى بالجلوس، وتناول الطعام في هدوء، ثم أعطى قطعة من الكعك لأحد الأطفال في الخيمة، وقال بعض الكلمات تعليقاً على الطقس. وقد جعل تقديره العفوي البسيط للظروف غير الطبيعية جميع من في الخيمة يشعرون بالراحة. وينبع مغزى هذه المناسبة من جو التقدير الذي ما كان لأحد غير هذا الرجل أن يشيعه في المكان، فقد ظل معنا في الخيمة لأكثر من ساعة، ثم قال وداعاً، ورحل. إنها حادثة واحدة في هذه المساحة المترامية الأطراف، إلا أنها كانت لحظات جميلة، ومبادرة طيبة جدير بالمرء أن يتذكرها.

* * * * *

وذات صباح رائع في شهر يوليو، توجهت بالطائرة من جزيرة ريزوليت بجزيرة كورنواليس إلى محطة الأرصاد الجوية الكندية في يوريكا شمال جزيرة إلزمير، وكان معي خريطة للمنطقة التي نحلق فوقها. ومن خلال المراقبة من هذا الارتفاع ومعاونة الخريطة، توصلت إلى توثيق لما عرفته عن هذه الأرض من كتب التاريخ، ومن التجوال بين أرجائها، ومن الحديث إلى الناس الذين عاشوا

عليها طويلاً، ومن تناول الطعام الذي تجود به، ومن السفر عبرها بصحبة رجال يعتقدون أنهم يستمدون هويتهم منها. وفي الجزء العلوي من قناة ويلنجتون شاهدت بعض حيوانات الفظ. ثم حلقنا عبر شبه جزيرة جرينيل، والتي كان يعتقد لفترة طويلة أنها جزيرة، والتي تم تسميتها على اسم الرجل الكريم هنري جرينيل، وبعيداً إلى الغرب تمكنت من رؤية المياه الداكنة بين ثلوج مضيق بيني، وإلى الشرق، رأيت رأس خليج جونز والحافة الجنوبية لشبه جزيرة سيمونز، تلك الأراضي التي رغبت في زيارتها يوماً ما، إذا أتيحت لي الفرصة، كي أشاهدها عن كثب من على الأرض في أثناء فصل الشتاء.

ومررنا فوق الركن الجنوبي الشرقي من جزيرة أكسل هيبيرج والتي كان أوتو سيفيردروب قد استكشفها، ثم خليج جود فرايداي، وخليج المفاجأة، وخليج الذئب، وعند رؤوس هذه الخلجان كانت هناك أنهار جليدية لم تصل بعد إلى مياه المد. أما الضوء الساطع من الشرق بتكويناته اللونية، فقد ذكرني بسلاسل الجبال في أريزونا، وبألوان الأودية الصخرية الضيقة في سهل كلورادو. وقد تسمرت أمام مشهد جزيرة أكسل هيبيرج: جبال بعيدة شاخصة إلى سماء صافية، ومنحدرات من الحجارة الرمادية، التي تلتقي فجأة بالأنهار الجليدية، وتلك النتوءات الأرضية التي تغطيها نباتات بلون أخضر فاتح فتظهر جلية متميزة بين الجبال الداكنة. وفي ضوء الصباح يبدو المشهد كله ناصعاً براقاً. وأدركت أن هذه الجزيرة نائية إلى أي درجة يمكن لي أن أتصورها. ولأول مرة في تلك الأشهر كلها التي قضيتها في الشمال، شعرت أنني أعبر خطاً، وأنني أتوجه إلى الشمال البعيد، وبدا لي أنني قد اخترقت أحد حوائط الضغط التي يشعر المرء أنه يخترقها، وهو ينزل من الجبال إلى سطح الأرض.

وفي هذه الأثناء تحقق لي من صفاء الذهن، ما جعلني أشعر بأن الخريطة التي معي تبدو شيئاً عجيباً وغريباً في مقاربتها للواقع الذي أراه. ونظرت غرباً إلى خليج موكا وإلى سلسلة من البحيرات المنحصرة بين اثنين من التلال ذات اللون الأبيض الجبسي، وخلفهما تترامى مساحات من التندرة. وكانت درجات الألوان البنية والسوداء، والبيضاء من الغنى والوضوح لدرجة أنني شعرت أنه بمقدوري أن ألمسها. وفي هذه المناطقة، يشعر المرء بأن الجمال يتخلل جسده كله، فتكاد تشعر به متجسداً؛ لذا يبدو هذا الجمال مرعباً، فلا يمكنك الاقتراب منه في بعض الأحيان، في حين أن

الجمال في بعض المناطق الأخرى يأسر عقلك أو قلبك، فقط.

وللحظات طوال فقدت الإحساس بالزمن والهدف كإنسان. وفي منحدرات جزيرة أكسل هيبيرج وجدت في الجبال ما كنت أعرفه فيها، وأنا طفل، وهو أن معرفة تخرج من هذه الجبال، يتم تلقيها، ولكن ليس هناك كلمات يمكن بها وصف تلك المعرفة، مجرد ترانيم مبهمة. وفي تلك اللحظات شعرت أن كل الحب الذي عرفته وأنا رجل: حبي لوالدي، ولزوجتي وأطفالي، ولأصدقائي، يغمرني ويتدفق في وجهي. وعند مشاهدتي الالتقاء بين الضفاف الجليدية ذات اللون الأبيض الناصع، مع الشاطئ ذي اللون البني الداكن عند خليج موكا، تذكرت الأرانب البرية القطبية التي تعلو عن الأرض بثلاث أقدام، وقوائمها التي لا تكاد تظهر، وهي تعدو بالمئات عبر شبه جزيرة سيوارد. وفي الهدوء الذي يجلل جزيرة أكسل هيبيرج شعرت لأول مرة بحدود أراض لم يدخلها أحد من قبل.

لقد تولد حلم اليقظة هذا الذي مررت به من الضوء، وصفاء الجو، وبالتأكيد من الرغبة في الفهم والاستيعاب، والتي تظل موجودة باستمرار، مهما حاولت أن أعلقها أو أنحيها جانباً. وفي الرموز التي تطرحها الأرض،، وفي كل ما تحويه، أتعرف الطرق التي تنظم بها الحياة البشرية نفسها، وتستمر في البقاء، فلم يكن النظر إلى الأرض والتفحص فيها يعني بأي شكل من الأشكال نسيان البشر الذين يعيشون على سطحها.

وكي تكون العلاقة دائمة مع الأرض، لا بد أن تكون تبادلية. فعند المستوى الذي تزودنا فيه الأرض بالغذاء، تكون التبادلية في شكل شكر على هذا الطعام وتقديره، وليس من الصعب استيعاب ذلك. وعند المستوى الذي تبدو فيه الأرض جميلة، أو عند المستوى الذي تبدو فيه الأرض مخيفة ومرعبة، بما تطرحه من إيحاءات ورموز، تجعلنا كما لو كنا نحدق في أحاجٍ غامضة، يصبح إدراك هذه التبادلية أكثر صعوبة. أما إذا اقتربنا من الأرض بطريقة مهذبة، وباستعداد للتعامل معها باحترام وكياسة، يصعب وصفهما - ربما حركة بسيطة باليد تنم عن الاحترام - فيستطيع المرء أن يؤسس نوعاً من التقدير الذي تنبع منه الكرامة. وانطلاقاً من العلاقة المبجلة مع الأرض، يصبح من الممكن تخيل علاقات قوامها الكرامة عبر حياة المرء. وكل علاقة منها تتكون من نفس التكاملية التي تجعل المرء يقول أولاً: إن الأشياء الموجودة على الأرض كافة تتكامل

وتتوافق مع بعضها بعضاً بشكل هو أقرب للكمال، على الرغم من أن هذه الأشياء دائمة التغيير. وأتمنى أن يكون نظام حياتي مرتباً بهذه الطريقة نفسها التي أرى عليها الضوء، وهبات الريح الرقيقة، وصوت الطيور وانشقاق البذور. إنها تلك العصمة، وذاك التكامل غير القابل للنقض اللذين أريدهما في ذاتي ووجداني.

لقد تمثل أحد أقدم أحلام البشر في العثور على كرامة يمكن أن تضم الكائنات الحية كافة. ويجب أن يكون استحضار تلك الكرامة إلى أحلام المرء، وسعي كل فرد منا إلى أن تكون حياته مثالاً يحتذى به بشكل من الأشكال، أحد أهم مساعي البشر، والكفاح من أجل القيام بذلك، وبالفعل هو كفاح؛ لأن مشاعر الشخص الناضج يجب أن تجد طريقة للملمة خيوط الحياة القائمة كافة. وأحد الطرق التي يمكن أن يساعد على تحقيق ذلك هو الانتباه لما يحدث في أرض لم يمسها البشر بعد بمشاريعهم، ولا يزال نظامها الطبيعي الأصلي واضحاً جلياً.

وتتجاوز الكرامة التي ننشدها، تلك الكرامة التي أشار إليها فلاسفة عصر التنوير. فهناك ضرورة إلى تنوير أكثر عمقاً. تفهم في إطاره الكرامة بحسبانها ميزة فطرية، وليست شيئاً يمنحه شخص ما من الخارج. وأن الكرامة المشتركة يجب أن تشمل الأرض وما عليها من نباتات ومخلوقات، وإلا كانت مجرد اختراع، وليست، كما يجب لها أن تكون، مفهوماً لطبيعة الكائنات الحية.

وكانت الطائرة التي استقلّتني، وهي من طراز «توين أوتر» والمعروفة باعتماديتها، وحسن بنائها وتصميمها، وتحملها للعمل الشاق في مناطق الأرخبيل الكندي - كانت تحلق فوق شبه جزيرة فوشيم، تلك الواحة الشمالية، استعداداً للهبوط على مدرج يوريكا. وفي أثناء ذلك رأيت بعض ثيران المسك وهي ترعى في الشمال.

وهناك عند الحافة الجنوبية لجزيرة بافن شبه جزيرة اسمها ميتا إنكوجنيتا Meta Incognita، كانت الملكة إليزابيث قد أطلقت عليها هذا الاسم. وعادة ما تتم ترجمة هذا الاسم اللاتيني بـ «الحافة المجهولة أو الأرض الغامضة (كان فروبيشر يعتقد أن ساحل هذه الجزيرة هو ساحل أمريكا الشمالية). إلا أنه من المحتمل أن الملك إليزابيث كانت تعني شيئاً آخر من وراء هذه التسمية، فكلمة ميتا Meta ذاتها تعني القمع أو المخروط، وفي روما القديمة كانت الأبراج الموجودة عند نهايتي مسار السباقات في ساحات الكلوزيوم، والتي كانت عربات السباق تقوم بالدوران عندها،

تسمى أيضاً ميتا Meta، لذا فمن المحتمل أن تكون الملكة إليزابيث قد فكرت في شيء من هذا القبيل، حيث لندن هي الـ ميتا كوجنيتا Meta Cognita؛ أي المنعطف المعلوم، في حين أن أمريكا الشمالية هي ميتا إنكوجنيتا؛ أي المنعطف المجهول عند النهاية البعيدة لمسار السباق، والذي شعرت إنجلترا بأنها تقترب منه، ومن عنده ستقوم بانعطاف قبل أن تعود إلى الوطن مرة ثانية.

وأعتقد أنه يتعين على الحضارة الأوروبية التي ينتمي لها أسلاف الكثيرين منا أن تقوم بهذا الانعطاف، وأنه لا يزال يتعين عليها أن تتفهم الحكمة الكامنة في ثراء وطهارة الحياة البرية التي تتضمنها مناطق أمريكا الشمالية، وما يمكن أن تعنيه في حياة البشر. وبالنسبة لاستقرار الروح البشرية المضطربة.

أما العبارة الأخرى التي تواردت إلى ذهني، فقد كانت أكثر غموضاً، إنها الشعار اللاتيني لصحيفة نورث جورجيا جازيت: per ferta hactenus negata، والذي يعني التوصل إلى مضيق، كان ينكر وجوده في الأصل، لكنه يعني أيضاً استمرار التقدم عبر مياه مجهولة، وهو يعني، في الوقت ذاته، تعبيراً عن الرهبة والإنجاز. إنه الطرف المستدق الذي تجد فوقه حياة البشر أغنى تعبيراتها.

وهبطت الطائرة. وكانت مياه خليج سيلدر تعكس بعض الأضواء، وانطلقت ستة كلاب من محطة الأرصاد الجوية تعدو نحونا وهي تنبح بأصوات تشبه عواء الذئاب، في حركة تنبئ بأنها قادرة على إسقاط جاموس بري. اقتربت منها، وربتت على رأس أحدها بهدوء.

الخاتمة

جزيرة سان لورانس وبحر بيرينج

يعرف الجبل الذي يبدو من بعيد باسم جبل سيفوكوك، وهو يميز الرأس الشمالي الغربي لجزيرة سان لورانس في بحر بيرنغ، ومن موقعنا على الجليد، كان هذا التكوين الطبيعي الهائل يشغل المساحة بين الماء والسماء على مرمى البصر. وكان الوجه الغربي للجبل عبارة عن حائط بازلتي شديد الانحدار، تراكمت عليه خطوط عريضة من الجليد، ويرتفع هذا الجدار مباشرة فوق شاطئ حصوي داكن، وتكوينات صخرية يغطيها الجليد، وتعصف بها أمواج المحيط. وهناك كانت تقبع قرية جامبل، وهي المكان الذي قدمت منه بصحبة بعض الرجال من أسكيمو اليوبيك لصيد حيوان الفظ من على الجليد الربيعي.

وأعتقد أننا في المياه الإقليمية الروسية الآن، وأننا تعريفياً قد أصبحنا في الغد، بعد أن انتقلنا إلى خط التوقيت الدولي International Date Line. وما كان رجال اليوبيك ليكترثون كثيراً لأي تجاوز سياسي يمكن أن ينطوي عليه وجودنا في هذا المكان، خصوصاً في أثناء قيامهم بالصيد. ومن هذه البقعة، حيث ستغرق الدماء الجليد، وتتكون أكوام من اللحم وشرائح الشحم وجلد حيوان الفظ وأكوام من الأنياب العاجية، نظرت إلى الساحل الروسي المرتفع، حيث يعيش أناس تختلف عقلياتهم ورغباتهم وفهمهم للتاريخ عني، وبدرجة الاختلاف ذاتها بيني وبين رفاقي من اليوبيك.

لم أكن مرتاحاً تماماً ونحن على الجليد البحري، حيث تجزر حيوانات الفظ بهذه الطريقة. وقد تكاتفت قسوة الطبيعة في هذا المكان، - مع إمكانية تعرض القارب لأي حادث -، مع كبر حجم وقوة حيوانات الفظ، لتزيد من إحساسي بالخطر. ولقد تأذيت كثيراً من منظر القتل، على الرغم من تقديري للعناصر البسيطة التي تكفل للإنسان البقاء هنا.

انتهينا من تحميل القوارب، وقام أحد أفراد المجموعة بإنقاذ اثنين من الكلاب التي إما أن تكون قد هربت من إحدى القرى الروسية، أو أن يكون أصحابها قد تخلوا عنها على الجليد البحري. وقد

اقترب عدد من القوارب من بعضه بعضاً إلى أن تلاصقت، لإلقاد نظرة على الكلبين اللذين كان لهما شعر قصير على غير ما هو مألوف، وحجمهما أصغر من أن يمكنهما من جرّ زلاجات، فقد كانا أصغر من الكلاب السيبيرية المعروفة، لكن الرجال أكدوا لي أنهما من كلاب جرّ الزلاجات الروسية.

ومن النتوء البعيد لجبل سيفوكوك استدرنا عائدين ونحن محملون بكميات من لحوم وجلود الفظ، وعدد من حيوانات الفقمة، وبعض طيور الأوك الصغيرة، وعدد من أنياب العاج واثنين من الكلاب الروسية. وعندما وصلنا إلى شاطئ القرية، نزل أربعتنا إلى الماء، ودفعنا القارب بأكتافنا نحو اليابسة، بينما جاء شاب من العائلة التي أقيم معها، وعلى الجليد، أخذ في جذب حصيلة الصيد، ليضعها خلفه على دراجته النارية من طراز «هوندا» ثلاثية العجلات ويتجه إلى المنزل. لقد كان هذا غذاءنا. وفي هذه الأثناء كان قد تم إخراج الأسلحة النارية والرماح ومعدات الصيد، وجهاز الراديو المحمول والملابس الثقيلة الإضافية من القارب، وتخزينها مرة أخرى. وكنا من أواخر الذين غادروا الشاطئ، ومشاهد الصيد لا زالت تتقلب في مخيلتي.

وبغض النظر عن أي تعقيدات عقلية يمكن أن تقحمها في مثل هذا الموقف، وبغض النظر عن أي معارف بعادات وتقاليد الشعوب وأنماط حياتها، وبغض النظر عن حب الإنسان للطعام، ورغبته في المشاركة، فلا يزال الأمر متعلقاً برؤية حيوان يقتل. وفي أثناء تلك اللحظات الطويلة المخضبة بالدم ومشاعر الظفر المختلطة بالعنف والمياه المضطربة، ورائحة البارود النفاذة الممتزجة بروائح الحيوانات المقتولة، يقابل المرء بتلك القضية المعقدة – ما هو الحيوان؟ وما هو الموت؟ إنها لحظات متميزة، تجمع أحاسيس متنافرة، لكنها ذات جلال ووقار خاص. فمشهد الرجال وهم يلقون بقطع صغيرة من اللحم لتنزلق إلى المياه الخضراء الداكنة، وألسنتهم تتمتم بالأدعية التماساً للبركة، لا يقل رسوخاً عن مشهد الحيوانات الضخمة المروعة، وأعينها تتسع فجأة من شدة الخوف ومباغتة الخطر.

وفي أثناء سيري على الشاطئ باتجاه القرية، متبعاً مجموعة من الآثار التي تركتها الزحافات على الجليد، كان هناك خط رفيع حديث من الدماء بين آثار الزلاجات، ينتهي عند تعريشة مخصصة لتجفيف اللحوم والجلود. لقد كان وجود آثار الدماء هذه دلالة على استمرارية الحياة؛ نوع آخر من

الحياة. وفي الكثير من الأحيان يساء فهم وجود مثل هذه الآثار على أنه نمط من الوحشية.

أرحت يدي المحميتيْن بالقفازات على أحد الأرفف الخشبية المستخدمة لتجفيف اللحوم. وإنه لمن السهل أن يشعر المرء بالود تجاه جماعات الـ «بياب يك»، خصوصاً حين تكون مدعواً للمشاركة في أحداث، تنتسب بشكل كبير إلى عاداتهم وتقاليدهم. ويولد الحدث بكل أجزائه – الخروج للصيد، وعملية الصيد ذاتها، والعودة إلى الديار، وتناول الطعام في جلسة عائلية – يولد إحساساً بالسعادة التي لا يسهل الاشتراك فيها مع الجميع. وإذا نظر المرء إلى الناس بهذه الطريقة، فسيبدون له مخلوقات قادرة، وأنهم على صواب فيما يفعلونه. وعند السفر معهم، يشعر المرء أن معارفهم الواسعة والدقيقة، وثقتهم الروحانية، وقدراتهم العملية، تعري كل ما هو تافه، وكل ما ليس له أساس في ثقافتنا.

وكثيراً ما كنت أطيل التفكير في موضوع الصيد. فالصيد، هو أروع وأدق تعبير عن علاقة الأسكيمو بالأرض، وإن كان أكثر الأمور إرباكاً وبعثاً على الحيرة لدى الغرباء عن هذه المناطق. وقد تأثرت ممارسات الصيد كثيراً بفعل الضغوط الناتجة عن الاقتصاد القائم على النقد، وتوافر الأسلحة الحديثة. لكن لا يزال هناك العديد من العائلات التي تحصل على الكثير من غذائها من الطبيعة، لكنهم يفعلون ذلك بشكل مختلف الآن. وعادة ما تتعرض أساليبهم الحالية للانتقاد بحسبانها «غير أصلية»، كما لو أن الزمن كان لابد أن يتوقف منذ عدة سنوات بالنسبة لهؤلاء الناس.

ولكنني أهتم بالصيد لأسباب أخرى، فهو يمثل المصالحة المستمرة التي يجب تحقيقها بين جاكوب وأخيه إيساو. «ثورة الغضب التي اجتاحت جلجامش لمصرع صديقه الحميم إنكيدو». ونحن لا ندرك على وجه التحديد كيفية تجاوز الفجوة بين الرجل المتحضر والمجتمعات التي تقوم على الصيد. ويصف الكاتب الأفريقي الأبيض لورانس فان دير بوست، والذي عاش فترات طويلة مع الشعوب الصيادة في صحراء كالاهاري في جنوب غرب أفريقيا، تلك الفجوة بيننا بأنها لج عميق من الخداع والقتل من صنعنا. فوجود مثل هذه المجتمعات يزعجنا، كما أنه أحد المتاعب. إنها أحد المتاعب التي تواجهنا عند كتابة تاريخنا. فنحن نقوم بتعديل تاريخنا بحيث نرفع من شأن أنفسنا بين المخلوقات التي تحيط بنا، ونقطع أي صلة قد تربطنا بأسلافنا الذين عاشوا على الصيد، تلك الصلة التي لا نرتاح إليها. فهم – أي أسلافنا الذين عاشوا على الصيد – يبدون كما

لو كانوا قريبين جداً من مستوى الحيوانات المفترسة. وبكلمات أخرى فإن المجتمعات القائمة على الصيد وحضارتها تعدّ بربرية جداً بالنسبة لنا. وفي معرض إدانتنا لتلك الحضارات نرى أنه لا محالة من تغيير الأساليب التي تتبعها هذه المجتمعات. بيد أن الشهادات التي أدلى بها كثيرون ممن قضوا فترات طويلة مع شعوب تعتمد على الصيد، من أمثال فان دير بوست وغيره ممن ذكرت في المناطق القطبية الشمالية، تخلص جميعها إلى أن هناك شيئاً ذا قيمة حقيقية يكمن في هذه الشعوب.

إن العاطفة التي أشعر بها تجاه الاسكيمو، هي مثل «هيباكوشا»، وهي الكلمة اليابانية التي تعني الناس الذين تأثروا بالانفجار، وهم هؤلاء الذين استمرت معاناتهم من الآثار الناجمة عن قنبلتي هيروشيما ونجازاكي. فالاسكيمو الآن محصورون في شراك انفجار طويل وبطيء، ما يعرفونه عن طريقة جيدة للعيش يعني التحلل، فاصوات الحضارة المعقدة والساخرة تصر على أن كل ما يتبصرون من أشياء، ليس إلا أموراً سخيفة ومبتذلة. لكنها في الواقع ليست كذلك.

وأتذكر أنني في ذلك اليوم كنت أنظر إلى قطيع من حيوانات الفظ، ففكرت: هل يضفي البشر صفة إنسانية على حيوانات الفظ أكثر من اللازم لكي يتمكنوا من فهمهما بشكل أفضل، أم لكسر الشعور بالوحدة؟ وماذا يعني أن تكون مستغرباً في هذه الأرض؟

وقد خطر ببالي ذات مرة أن الأرض هي المكان الذي يتعين على المرء أن يبحث فيه عن الجمال ويجده، وأن إرهاصات إدراك هذا الجمال العميق السامي تكمن في القبول بتلك التناقضات المعقدة، والتسامح مع الآخرين. ويعني ذلك أنك لن تموت وحيداً.

ولفترة طويلة، بقيت أنظر إلى آثار الدماء على الجليد، ثم ابتعدت عن القرية إلى الشمال. ومن الممكن أن يسافر المرء عبر المناطق القطبية الشمالية، وأن يكون جل تركيزه منصباً على الأرض، وما عليها من حيوانات، ومساحات الضوء والظلمة، وفي بعض الحركات التي تستحث قدراً من الاهتمام بالطرق التي نتبعها في فهم الزمان والمكان، والتاريخ والخرائط، والفن. فعلى سبيل المثال، يمكن للمرء أن يشعر بأنه منعزل تماماً، إذا تخيل أو تمثل نمط الحياة المعقد للدب القطبي. أما تلك القوة الأثيرية واللازمنية التي تتمتع بها الأرض، وذلك الاتحاد بين ما هو جميل وما هو مرعب، فهو أمر واضح وجلي، قادر على التغلغل عبر الثقافات كلها؛ القديم منها والحديث. فالأرض تدخل ذواتنا، ويجب علينا بطريقة أو بأخرى أن نحدد ما الذي يعنيه ذلك، وماذا نحن فاعلون حياله.

وتعدّ قضية قبول الأرض كما هي، أو بذل الجهد من أجل تغييرها إلى وضع آخر، واحدة من أقدم الاختلافات الحضارية مع الأسكيمو. فبالنسبة للأسكيمو التقليدي يظل تحقيق الانسجام الكامل مع الواقع القائم بالفعل واحداً من أعظم المهام في الحياة وأكثرها أهمية. وهذا الواقع القائم بالفعل، أي الأرض بشكلها التي هي عليه، كما وصفها ألبرت شويتزر قائلاً: إنها الرعب في الروعة، والغموض في الوضوح، والمعاناة في السعادة. وبالطبع، فإننا لا نثمن عالياً تلك الدروس المستقاة من مثل هذه التناقضات، وكل الذي نقدره، ونحترمه فيها أشياء؛ مثل إمكانية شق الطرق وقابليتها للتغير. إننا نؤمن بإمكانية تغيير ظروف الأرض وأحوالها، لتحقيق السعادة لبني البشر، ولتوفير الوظائف، وتحقيق الثروات المادية ورغد العيش، ومن ثم، فإن كل حضارة تأخذ شكلاً خاصاً بها في تمجيد الأرض والشعور بالراحة معها.

وبالنسبة لنا فإن أي حكمة تكمن في موقف الأسكيمو من الأرض، يمكن أن تنسحق أمام قدرتنا على تغيير واقع الأرض، بيد أن النمط المستمر للتطور البيولوجي النقي، يشير إلى أنه لا محالة من الصدام العنيف بين إرادة الإنسان والجوانب الراسخة من نظم الطبيعة. وهذا، في حد ذاته، يبدو سبباً كافياً للبحث في الحضارات المحلية، عما يتعلق بطبيعة الزمان والمكان، وغيرهما من التشعبات الثنائية (التي لا محال منها) مثل العلاقة بين الأمل وممارسة الإرادة، ودور الحلم والأسطورة في حياة الإنسان، والجوانب العلاجية التي يطرحها التسامح الطويل الأمد مع الطبيعة.

إننا نميل إلى التفكير في مناطق مثل المناطق القطبية الشمالية، والقارة القطبية الجنوبية، وصحراء جوبي، والصحراء الكبرى، وصحراء موجافي، على أنها مناطق بدائية موحشة، ولكن في الواقع ليس هناك مناطق بدائية أو حتى شبه بدائية، كما أنه ليس هناك منطقة ما تظل على حالها إلى الأبد، ولا يوجد مكان تكون فيه الأرض خاوية أو متخلفة. ومن ناحية أخرى لا يمكن استخدام التقنيات الحديثة في تحسين الأرض. فالأرض، ذلك الحيوان الذي يضم جميع الحيوانات، كائن حي وناشط ويكمن التحدي الذي يواجهنا، ونحن نتعامل مع الأرض في الانضمام إلى علماء الكونيات في أفكارهم بشأن الخلق المستمر، وإلى علماء الفيزياء في أفكارهم بشأن التناقضات الثابتة والمتغيرة، وأن نرى الأشياء الجميلة والتعدديات في مختلف المناطق الطبيعية، ذلك أن هذه المناطق

على اختلافها، تمثل بوتقة للغموض، تماماً مثل الأشياء الصغيرة التي تعج بها كالثعلب القطبي، ونباتات البتولا القصيرة، والأشياء الكبيرة التي تحتويها، جنباً إلى جنب مع تلك الأجسام التي تبدو راسخة على الدوام، كالغمام السديمي الذي يتخذ شكل رأس الحصان على كوكب أوريون. إن هذه المناطق الطبيعية ليست ساحات مفردة لتجربة الاختراعات البشرية فحسب.

وأعتقد أن الافتقار إلى حوار سام مع الأرض، وعدم الشعور بتبادل المنفعة والاحترام معها، وما يمكن أن يقترن بذلك من قمعها، أو الحط من شأنها لأن ظروفها لا تتماشى مع هوى أنفسنا، إنما يعكس نوعاً من الافتقار إلى الشجاعة.

وكلما ابتعدت عن القرية، كانت الرياح تشتد أكثر عليّ، فأحكمت غطاء الرأس السميك حول وجهي. وفيما أنا أعبر بين بقع غطتها الرياح بالجليد، وبقع من الحصى، كان الجليد يتهشم تحت حذائي، وفي هذا الجو البارد الرطب، كانت أحجار الشاطئ تحدث صوتاً يشبه القعقعة فانتبهت إلى خطواتي ومشيت متمهلاً. بدأت الخطوط البنفسجية والصفراء الفاقعة في مشهد الغروب تميل إلى التضاؤل والسكون، فبدت كصفحة مياه بطيئة، أو تيارات تسري بين النجوم، وتدور مبتعدة. ثم تحولت إلى ألوان الشروق؛ الضوء السماوي على قمة قطبية.

وقفت، وثبت قدمي على حافة الجليد، ونظرت إلى الشمال، نحو بحر بيرينج، هذه أمريكا إلى الشرق، حيث شبه جزيرة سيوارد، وإلى الغرب، إقليم مجدان السيبيري، حيث شبه جزيرة تشكوشكي، وعلى كليهما توجد المقابر التي تعود إلى حضارة شعب بحر بيرينج المندثرة، والتي كانت الأغنى بين كل حضارات حقبة ما قبل التاريخ في المناطق القطبية الشمالية. وفي صيف سنة 1976م، اكتشفت مجموعة روسية بقيادة م. أ. تشيلنوف أثراً يرجع إلى 500 سنة، على الشاطئ الشمالي لجزيرة يتياجران في مضيق سينيافين قبالة الساحل الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة تشكوشكي. وكان الكشف الأثري عبارة عن مجمع يتكون من سلسلة من جماجم وعظام الفك لحيتان حدباء، وقد رصت في خط على الشاطئ يبلغ طوله نحو 2500 قدم. ويتصل الأثر بعدد من التكوينات المبنية من الحجارة والطمي، كما عثر أيضاً على قطع من اللحم. وكان الكثير من الجماجم لا يزال منتصباً عمودياً على الأرض في نمط هندسي منتظم، وقد عدّ تشيلنوف وزملاؤه أن هذا الأثر عبارة عن دائرة مقدسة وربطوا بينه وبين نمط الحياة الطقوسي لمجموعة معينة من صيادي

الحيتان الذين تميزوا بمهارة عالية في الصيد، والذين امتدت حضارتهم من رأس دزينيف شمالاً إلى خليج بروفيدنس مروراً بجزيرة سانت لورانس، في حقبة تاريخية عرفت باسم «بونوك».

وربما يكون الصيادون الـ بونوك قد عاشوا حياة مثالية في المنطقة التي عرفت باسم زقاق عظام الحوت Whalebone Alley . وربما كانوا يعرفون أي الكلمات تقال للحيتان فلا تهرب فزعة منهم، ولا تشعر بوطأة الموت القادم إليها على أيديهم. وأتذكر وجوه حيوان الفظ التي قتلناها اليوم، ولم أعرف أي كلمات كان يتعين عليّ أن أقولها لها.

وإلى وقتنا هذا، لم تتمكن أي من الحضارات من حل تلك المعضلة التي واجهت كل واحدة منها مع نمو الضمير العقلي: كيف يمكن أن نحيا حياة أخلاقية عاطفية، والمرء على دراية كاملة بالدماء والرعب المورث في الحياة بأسرها. وحين يكتشف أن الظلمة لا تسري في حضارته فقط، بل إنها تدب في أعماقه أيضاً؟ وإذا كانت هناك مرحلة يمكن أن تصل فيها حياة الفرد إلى النضج الحقيقي، فلابد أن تكون تلك المرحلة حين يتمكن المرء من استيعاب سخرية الأقدار، وهي تتبدى أمامه، وأن يقبل مسؤولياته لحياة يحياها في خضم هذا التناقض. ويتعين على المرء أن يحيا وسط التناقض، ذلك أنه إذا تم إزالة التناقضات من حياته كافة، فلا ريب أنها ستنهار. وببساطة، فإنه ليس هناك ثمة إجابات لعدد من الأسئلة الملحة، وتستمر في الحياة متجاوزاً إياها، جاعلاً من حياتك تعبيراً ذا مغزى عن محاولة الوصول إلى النور.

وقفت لفترة طويلة على طرف جزيرة سانت لورانس، وأنا أشعر بالاحترام للجليد، وتلك القنوات من المياه الداكنة التي تتخلله. وفي ضوء الغسق، والرياح،و وتلك البرودة الرطبة، أحاطت بي ذكريات اليوم كهالة غامضة، مستعصية على الحل. حيرة مستمرة، تخترق هنا وهناك، بخيوط حادة من الضوء، ومعها ذكريات أخرى، متناغمة. وتفكرت في طبقات تلك الذكريات، حيوان الفظ وهو يحتضر متقلباً في المياه الخضراء الباردة، وعبر عقل كل فرد من الصيادين، وفي عقل المراقب، وفي فكرة أن يكون هذا الحيوان لا يزال حياً، حتى بعد أن أكلت قطعاً من لحمه. في سطور من كتاب عنه، أو في جلده الذي تحول إلى حبال مشدودة إلى حراب الصيد، أو إلى قوارب نجرها على صفحة مياه البحر، وفي ذهني صورة ذلك الناب الطويل المنحى ووزنه، ناتئاً من رأس بهذا الحجم، ومن عظم في صلابة الجلمود. وهناك في البيت، ينضج لحم الفظ على النار بهدوء،

ساخناً، ينتظرني، وأنا هنا أقف في ذلك البرد والرياح العاتية. وعند سفح جبل سيفوكوك، كانت بعض الطيور تبني أعشاشها في جمجمة الفظ الفارغة.

وفي السماء، تحلق بعض طيور النورس، وعند قنوات المياه على الشاطئ، بعض طيور الفلروب. وبعيداً، رأيت أسراباً من الإوزّ البحري، وقليلاً من طيور الغاق، ومن خلفها السماء. وبعيداً جداً، كانت هناك بعض البقع الرمادية، ربما تكون عدة آلاف من صغار طيور الأوك، لكنها كانت بعيدة جداً فلم أستطع أن أميزها، كما كان هناك بعض الحيتان. وفي أثناء سيري في هذه الأمسية، شاهدت ستة من الحيتان الرمادية. أما الجليد فكان ناصعاً كسماء ملونة بالحمائم، وفيما تتلاعب الرياح بصفحة المياه. وهناك على قنوات المياه بالقرب من الشاطئ كانت هناك آثار خلفتها فقمة، ثم اختفت.

وفي محاولة للتوحد مع سر الحياة، انحنيت إجلالاً، انحنيت إجلالاً لمن لا يعرف مناقشات معقدة، ولا تشريعاً، ولا برلمانات، ولا نظريات اقتصادية.

ونظرت بعيداً إلى بحر بيرنيج، وضممت راحتي نحو مقدمة غطاء رأسي، وانحنيت أكثر نحو الشمال، حيث المضيق العظيم المفعم بصنوف الحياة، والجليد والماء،و ويممت وجهي شطر السماء المحمرة التي تعلو الحافة الشمالية للأرض، واستمر انحنائي إلى أن شعرت بالألم في ظهري. انحنيت أمام تلك الأدلة البسيطة التي ملأت تلك اللحظات من حياتي في هذا المكان المميز من الأرض، التي كانت جميلة.

وحين انتصبت واقفاً، شعرت وكأنني ألقيت نظرة خاطفة على رغبتي الذاتية. وكانت الطبيعة والحيوانات كشيء في الهزيع الأخير من الحلم، وتوحدت حدود الأرض الحقيقية مع حدود شيء كان قد راودني في الحلم، لكن الذي حلمت به كان مجرد شكلٍ أو نمط جميل من النور، وتبدى لي ساعتها أن استمرارية عمل الخيال، كي يجمع بين ما هو حقيقي واقع وما هو حلم، إنما هو تعبير عن تطور الإنسان. إن رغبة الضمير هي تحقيق حالة، ولو للحظة، تشبه النور، في التحرر والاحتضان، تفيض بالحكمة والإبداع، حالة يتجاوز فيها المرء تلك الظلمة التي كانت من قبل علامة دائمة على الهزيمة كلها.

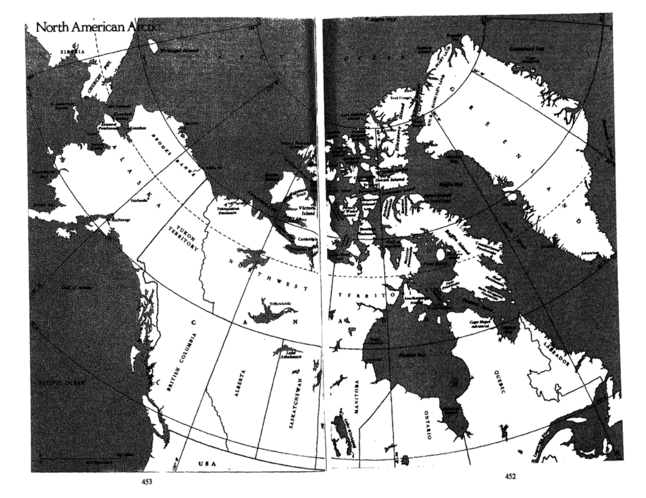
ومهما كانت تلك الكلمات، فإنها قابعة في أعماق العقل، لكن حدودها ورموزها واضحة

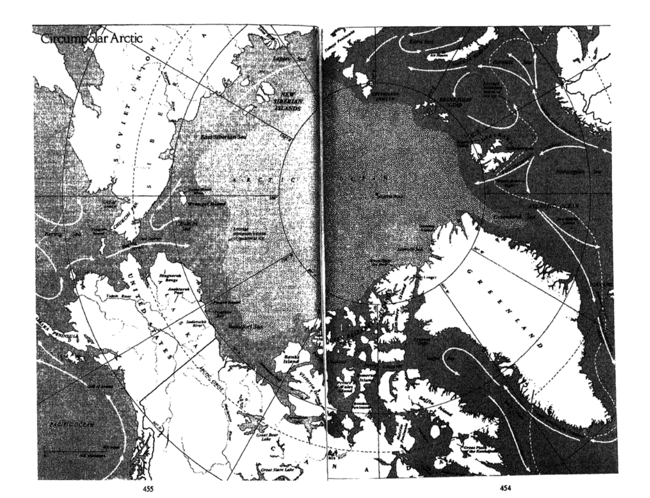
جلية في الطبيعة، وتأسيساً عليها، يمكن للمرء فعلاً أن يأمل أننا سوف نجد الطريق.

انحنيت ثانية نحو الشمال. ثم توجهت جنوباً متتبعاً آثار خطواتي على الحصى الداكن في طريقي إلى البيت الذي كنت أقيم فيه. وأنا كليّ عرفان وتقدير لكل ما رأته عيناي.

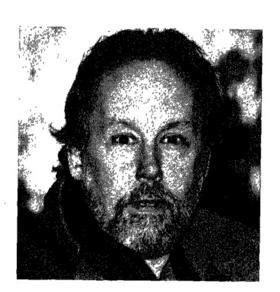
* * * * *

المحتويـــات


North American Arctic
SIBERIA
ALASKA
BROOKS RANGE
YUKON TERRITORY
NORTHWEST TERRITORIES
CANADA
BRITISH COLUMBIA
ALBERTA
SASKATCHEWAN
MANITOBA
ONTARIO
QUEBEC
LABRADOR
GREENLAND
PACIFIC OCEAN
USA
Victoria Island
Yellowknife
Anchorage
Fairbanks
Baffin Bay
Hudson Bay



Circumpolar Arctic
Laptev Sea
NEW SIBERIAN ISLANDS
East Siberian Sea
SOVIET UNION
SIBERIA
ARCTIC
OCEAN
Wrangel Island
Chukchi Sea
Bering Sea
UNITED STATES
ALASKA
Yukon River
Beaufort Sea
Banks Island
Victoria Island
ARCTIC CIRCLE
Great Bear Lake
Great Slave Lake
PACIFIC OCEAN
Kara Sea
Norwegian Sea
Greenland Sea
GREENLAND
Baffin Bay
Baffin Island



هذا الكتاب

حلقة من سلسلة لا تعرف لنهايتها موقعاً على طريق اكتشاف مجاهل أرضنا المعمورة بنبض الحياة، وديمومة الحركة. إنه تراكم لمجمل أحلام المغامرين من أصحاب الأقلام الذين يطمحون إلى كتابة أسمائهم وهم يخطون بأنامل نكاد تجمد من برد صقيع القطب الشمالي، أو تذوب من وهج شمس خط الاستواء.

إنّه جنيُ حاصل سنوات الترحال لـ (باري لوبيز) ، وقد بقيت أحلامه تراوده بين حينٍ وآخر؛ لما فيها من الجرأة في أعلى مراتبها، والجمال الكامن في العلاقات التي لا تعرف الاضطراب، والكفاح البشري الطويل، ذهنياً كان أو جسمانياً، من أجل الوصول إلى ما تتمناه النفس الطموحة.







منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - ص ب 2380 - هاتف : 6215300

ABU DHABI - U A E - P O BOX : 2380 - TEL 6215300 Cultural Foundation

Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http://WWW.cultural.org.ae